

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيسات

من موسوعة أعلام الهداية

دروس من تاريخ وسيرة أهل بيت الرسالة ﷺ

المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ



■ قبسات من موسوعة أعلام الهداية

تأليف : لجنة التأليف (السيد منذر الحكيم وآخرون)

الموضوع تاريخ وسيرة

تلخيص: السيد علي حسن مطر الهاشمي

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

الطبعة: الأولى

تاريخ النشر: ١٤٣٣هـ

المطبعة: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

عدد النسخ: ٣٠٠٠

ردمك: ٩٦٤-٥٢٩-٠

info@ahl-ul-bayt. org

www. ahl-ul-bayt. org

حقوق النشر محفوظة للناشر

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الذي اخترنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية.

وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربي النفوس المستعدة للاعتراف من هذا المعين، وتقدّم للأمة الإسلامية كبار العلماء المحتزين لحُطى أهل البيت عليهم السلام الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام - منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها على عاتقه - للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضيّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة التي حرصت في الردّ على التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب التي تمثّلها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا المضمار فريدة في نوعها؛ لأنّها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام أن يقدم لطلاب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أو من الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الالامعة، فضلاً عن نشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة

من مؤلفات علماء السلف أيضاً لتكون منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحق، ولتفتح على الحقائق التي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل فيه النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة السيد عليّ حسن مطر الهاشمي لتلخيصه موسوعة أعلام الهداية البالغة ١٤ مجلداً وهي الموسوعة المتميّزة التي فتحت أفقاً جديداً في البحث العلمي الموضوعي الوثائقي التحليلي في حقل التاريخ الإسلامي وسيرة أهل بيت الرسالة ﷺ، وكذلك سماحة العلامة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي لتصحيحه هذه الموسوعة، ومن هنا أيضاً نتقدّم بالشكر الجزيل للجنة التأليف لا سيّما الباحث المؤرّخ السيد منذر الحكيم ومن أعانه من أفاضل الإخوة الباحثين. وتمّ نشرها من قبل المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ سنة ١٤٢٣ هجرية وتلتها طبعات عديدة، جاء هذا التلخيص للطبعة المحقّقة الأولى سنة ١٤٣٠ هـ.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ

المعاونية الثقافية

محمد المصطفى ﷺ

خاتم الأنبياء

الفصل الأول

المدخل

للقرآن الكريم عناية فائقة بسيرة الأنبياء وله منهج خاص في عرض سيرتهم ﷺ، فهو ينطلق من عنصر هداية الإنسان إلى الكمال اللائق به، ويختار أهدافاً عُلِّيا لمجموعة من الحوادث التاريخية التي تخدم حركة الإنسان التكاملية، ولتحقيق تلك الأهداف يخاطب القرآن العقل والعقلاء، ويفتح للفكر آفاقاً عالية للتكامل، قال تعالى:

١ - ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

٢ - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

فالتفكير في حوادث التاريخ والاعتبار بها، يُعدّ هدفاً أساسياً للمنهج القرآني في عرض ودراسة التاريخ.

ويعتمد القرآن الكريم في منهجه التاريخي على المبادئ التالية:

١ - مبدأ إكتشاف الحقّ واتّباعه .

٢ - مبدأ اتّباع العلم وتجنّب الظنون والأوهام.

٣ - مبدأ المعاصرة للأحداث التاريخية والإحاطة بها.

(١) سورة الأعراف ٧: ١٧٦.

(٢) سورة يوسف ١٢: ١١١.

ولا يدع القرآن مجالاً للشك في ما يحدث به من ظواهر التاريخ، ما دام يعتمد الحق والعلم دون الخرافة والخيال، وقد أكد هذين الأصلين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...﴾^(١) وقوله ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾^(٢).
 وحينما يعرض القرآن حياة الرُّسل، فإنه يذكر خطوطاً عريضة تجعلهم خطأ واحداً، هو خط الإسلام العام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).
 ولما كان من طبيعة البحث التاريخي أن تناله يد التحريف وقد يغطيه الإبهام، فقد حرص القرآن الكريم على تزويد الباحث بسلح موضوعيٍّ يمكنه من إكتشاف الحقائق، فطرح نظرية الثوابت التي لا يمكن للفكر الإنساني أن يتجاوزها، وسماها بالمحكمات وأم الكتاب؛ وهي الحقائق الثابتة التي تشكل المعالم الأساسية للفكر الإنساني.

ويسوق القرآن الكريم موقفين للتعامل مع المبهمات ويحاكمهما ليخرج بنتيجة بينة تقدم قاعدة عامة للتعامل مع كل خير يرد على الفكر الإنساني.
 قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

إن سلامة النفس من الزيغ تحول بين الإنسان وبين إبتغاء الفتنة. فيتوقف الإنسان الذي يتحرى الحقيقة عن اتباع المتشابه من الآيات، ويرجع الأمر الى ربه، كما أن العقل يقف حائلاً بينه وبين أي تفسير غير علمي أو غير مستند الى حقائق ثابتة، ويرشده إلى الركون إلى المحكمات والالتزام بأم الكتاب الذي يشكل الخطوط الثابتة التي تعرض عليها الآيات الأخرى.

(١) سورة آل عمران ٣: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف ٧: ٧.

(٣) سورة آل عمران ٣: ١٩.

(٤) سورة آل عمران ٣: ٧.

ومن هنا نفهم الوجه في قوله تعالى: ﴿الرَّكِتَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١) فإن التفصيل إنما يكون بعد الإحكام وتعيين الآيات التي هي أم الكتاب، وهي الأسس والخطوط الثابتة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

وتكفي هذه الآيات لرسم المنهج العام الذي يسير عليه القرآن الكريم في تعامله مع وقائع التاريخ، فإن الاختلاف في التفاصيل لا يسمح لنا بإنكار الأصل والتغافل عما ثبت لدينا وتحققنا من وجوده.

وفي ضوء هذا يمكن تقويم كل ما ورد في كتب السيرة النبوية أو تاريخ الإسلام وما قبله مما يرتبط بالأنبياء وأمهم؛ فإن الثوابت التاريخية هي المحكمات التي نرجع إليها في تفسير أو قبول أو رد ما أثبتته كتب التاريخ من نصوص تحتوي الصحيح والخطأ.

وقد طبق القرآن الكريم هذا المنهج على سيرة الأنبياء وأمهم، ورسم لنا صورة واضحة يشترك فيها كل الأنبياء، وأوضح أن النبوة والإصطفاء ناشتان من مواصفات أساسية في شخصية كل نبي، أهله لأن يختاره الله لهداية الخلق على يديه، وهذه المواصفات هي: إكمال العقل والوعي، والصلاح، والصبر، والعبودية التامة لله القائمة على العقل والبصيرة، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾^(٤)، وقال له: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٥).

هذا هو المنطق القرآني الذي يمثل الأحكام والثبات، فكيف يُعقل أن يبعث الله نبياً لا يدرك أنه مبعوث أو مرسل من ربه ولا يطمئن إلى ما يراه من آيات ربه إلا

(١) سورة هود ١١ : ١.

(٢) سورة آل عمران ٣ : ٧.

(٣) سورة الرعد ١٣ : ٣٩.

(٤) الأنعام (٦) : ٥٧.

(٥) يوسف ١٢ : ١٠٨.

أن يطمئنه الآخرون؟! أو يتردد أو يشك في مهمته، فضلاً عن تصوّره أنه يستلهم الحقيقة ممّن يراد منه هدايته؟!!

إنّ الصورة الواضحة التي يرسمها القرآن لشخصية أنبياء الله، التي تؤيّدتها محكمات العقل، هي المرجع المحكم والثابت، لمحاكمة كل صورة تسربت من التوراة والإنجيل، أو جاءت فيما سميّ بالصّحاح، أو عامّة كتب التاريخ التي وردت فيها بعض القصص عن أنبياء الله، سواء كان ذلك النبيّ هو إبراهيم عليه السلام، أم موسى عليه السلام، أم عيسى عليه السلام، أم محمّد ﷺ، وسواء أكان الناقل لهذه الصورة بعض أمّته المؤمنين، أو بعض الصّحابة، أو من يمتُّ إلى الرسول ﷺ بصلة من قريب أو بعيد.

ظاهرة النبوة في حياة البشرية

لقد قضت حكمة الله ورحمته بإرسال الأنبياء حاملين الى الإنسانية منهاج هدايتها الذي يخرجها من عهد الغريزة الى عهد العقل، ومن منطق الصراع الذي مرجعه الغريزة والقوة الى منطق النظام الذي مرجعه القانون. وأوضح الإمام علي عليه السلام أنّ إشراق النبوة على مدى العصور هو المحور في تاريخ الإنسان وحركته نحو الكمال، فقال: «واصفى سُبْحانه من ولد آدم أنبياء، أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم... ولم يُخلِ الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مرسل، أو كتاب مُنزل... من سابق سُمّي له مَنْ بعده، أو غابر عرّفه من قبله»^(١). وإنّ بشائر الأنبياء السابقين بنبوة الأنبياء اللاحقين، تنفع الأجيال اللاحقة، وتجعلهم على أهبة لاستقبال النبيّ المبشّر به، وتزيل اليأس من النفوس التي تنتظر الاصلاح وتوجّهها الى قرع أبواب الخير.

(١) نهج البلاغة: ١٩ - ٢١، الخطبة ١٠.

وقد نصّ القرآن الكريم على بشارة إبراهيم عليه السلام، برسالة خاتم النبيين ﷺ بأسلوب الدعاء، بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

وصرّح القرآن بوجود البشارة بنبوّة محمد ﷺ في العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وكان العهدان موجودين في عصر نزول القرآن، ولو لم تكن البشارة موجودة فيهما، لجاهر بتكذيبها أصحاب العهدين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾^(٢).

وصرّحت الآية السادسة من سورة الصف بأنّ عيسى عليه السلام صدّق التوراة وبشّر برسالة نبيٍّ من بعده اسمه أحمد. وخاطب بذلك بني إسرائيل أجمع، لا الحوارين فحسب.

ولم يكتف الأنبياء السابقون بذكر الأوصاف العامة للنبيّ المبشّر به، بل ذكروا أيضاً العلامات التي يمكن بها معرفته بشكل دقيق، مثل: محلّ ولادته، ومحلّ هجرته، وخصائص زمن بعثته، وعلائم جسميّة خاصّة، وخصائص يتفرّد بها في سلوكه وشريعته، ولهذا قال القرآن عن بني إسرائيل: إنّهم يعرفون رسول الإسلام المبشّر به في العهدين كما يعرفون أبناءهم^(٣).

وقد ربّ اليهود على ذلك آثاراً عمليّة، فاكتشفوا محلّ هجرته ودولته، فاستقروا فيها، وأخذوا يستفتحون برسالته على الذين كفروا ويستنصرون برسول الله ﷺ على الأوس والخزرج^(٤)، وتسربت هذه الأخبار الى غيرهم من طريق رهبانهم، فانتشرت في المدينة وتسربت الى مكّة^(٥).

(١) سورة البقرة ٢: ١٢٩.

(٢) سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

(٣) سورة الأنعام ٦: ٢٠.

(٤) تفسير العياشي ١: ٤٩ - ٥٠ الحديث ٦٩، الكافي ٨: ٢٥٧ الحديث ٤٨١.

(٥) إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ٥٨.

وقد آمن جمع من أهل الكتاب وغيرهم بالنبي محمد ﷺ على أساس هذه العلامات التي عرفوها دون أن يطلبوا منه معجزة خاصة، وهذه البشائر تحتفظ بها لحد الآن بعض نسخ التوراة والإنجيل^(١).

مظاهر من شخصية خاتم النبيين ﷺ

لم يتعلم خاتم النبيين القراءة والكتابة لدى معلم من البشر^(٢) ولم ينشأ في بيئة علمية، وإنما نشأ في مجتمع جاهلي، ولكنه جاء بكتاب يدعو الى العلم والتعقل، واحتوى على صنوف المعارف العالية، وابتدأ بتعليم الناس الكتاب والحكمة^(٣)، وأنشأ حضارة عمّ نورها الشرق والغرب، فكان أسمى قائد عرفته البشرية في مجال التربية والتعليم.

وكان رسول الله ﷺ دائم الاتصال بالله، دائم الإنشداد إليه بالضراعة والدعاء في كل عمل كبير أو صغير، وكان دؤوباً على قراءة القرآن وشغوفاً به، ونزل عليه جبرئيل مخفياً لما أجهد نفسه بالعبادة، بقوله تعالى: ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٤).

وكان رسول الله ﷺ على ثقة مطلقة بالله سبحانه، وقد جاء عن جابر: «إن رسول الله ﷺ كان نائماً تحت شجرة ظليلة، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه وقال: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ. فقال: تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله؟ قال: لا ولكني

(١) سيرة رسول الله وأهل بيته ١: ٣٩، إنجيل يوحنا وأشعة البيت النبوي ١: ٧٠.

(٢) انظر قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ العنكبوت ٢٩: ٤٨.

(٣) انظر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة ٦٢: ٢.

(٤) طه (٢٠): ١ - ٢.

أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله فأتى أصحابه فقال: جئكم من عند خير الناس»^(١).

وكان ﷺ مثلاً للشجاعة الفائقة، حتى جاء عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي طأطأ له فرسان العرب: «كنّا إذا احمرّ البأس ولقيّ القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أدنى من القوم منه»^(٢).

وكان ﷺ في زهده منقطع النظير، وقد روي عنه أنه قال: «عرض عليّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكّة ذهباً، قلت: لا يا ربّ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعْتُ شكرتُك وحمدتُك»^(٣).

ونقل عنه ﷺ قوله: «ما لي وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٤).

وكان رسول الله ﷺ عظيماً في جوده وحلمه، قال ابن عباس: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان»^(٥). وقال جابر: «ما سئل النبي ﷺ شيئاً قطّ فقال لا»^(٦). وقال أنس: «خدمت رسول الله عشر سنين. فما قال لي: أفّ قطّ»^(٧).

لقد عُرف ﷺ بالعفو والسّماحة طيلة حياته، فقد عفا عن وحشيّ قاتل عمّه حمزة^(٨)... كما عفا عن المرأة اليهودية التي قدمت له شاةً مسمومة^(٩).

(١) مسند أحمد ٣: ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) مسند أحمد ١: ١٥٦، تهذيب الكمال ١: ٢٢٩.

(٣) مسند أحمد ٥: ٢٥٤، سنن الترمذي ٤: ٦ الحديث ٢٤٥١.

(٤) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٧٦ الحديث ٤١٠٩، سنن الترمذي ٤: ١٧ الحديث ٢٤٨٣٦.

(٥) مسند أحمد ١: ٢٨٨ و ٣٦٣، صحيح البخاري ٦: ٥٨٦، صحيح المسلم ٤: ٧٣.

(٦) صحيح مسلم ٧: ٧٤، الطبقات الكبرى، ابن سعد ١: ٣٦٨.

(٧) سنن الترمذي ٣: ٢٤٨ الحديث ٢٠٨٤.

(٨) أسد الغاية لابن الأثير ٥: ٨٤ ترجمة وحشي الحبشي، البداية و النهاية لابن كثير ٤: ٢١ فصل في مقتل حمزة.

(٩) مسند أحمد ١: ٣٠٥، الطبقات الكبرى ٢: ٢٠٠، البداية و النهاية لابن كثير ٤: ٢٣٧.

وكان ﷺ غاية في الحياء والتواضع ، وقد جاء عن أبي سعيد الخدري: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه»^(١).
ونقل عنه ﷺ قوله: «أَكُلُ كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. فإنما أنا عبد»^(٢).

وكان يداعب أصحابه ولا يقول إلا حقاً. ولقد شارك أصحابه في بناء المسجد^(٣) وحفر الخندق^(٤) وكان يكثر من مشاورة أصحابه على الرغم من أنه كان أرجح الناس عقلاً.

* * *

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي ١: ٥٠، مسند أحمد ٣: ١، بحار الأنوار ١٦: ٢٣٠، صحيح البخاري ٨: ٣٥٣.

(٢) المصنف للصنعاني ١: ٤١٧، الطبقات الكبرى ١: ٣٧١.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١: ١٤٠، صحيح البخاري ٥: ١٥١، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٢٩.

(٤) تفسير القمي ٢: ١٧٧، مجمع البيان، الطبرسي ٨: ١٢٦، مسند أحمد ٤: ٢٨٢، صحيح البخاري ٥: ٢١٣.

الفصل الثاني

دور الولادة والنشأة

ولد النبي ﷺ وترعرع في عائلة تدين بالتوحيد وتتمتع بسمو الأخلاق وعلو المنزلة. ونلمس إيمان جدّه عبد المطلب بدعائه عند هجوم أبرهة لهدم الكعبة، إذ لم يدعُ الأصنام، بل توجه إلى الله لحماية الكعبة، ويمكن أن نقول: إنّ عبد المطلب كان عارفاً بشأن النبي ﷺ ومستقبله المرتبط بالسماء من خلال استسقائه به وهو رضيع^(١)، ما ذلك إلا لما كان يعلمه من مكانته عند الله المنعم الرازق، وتحذيره أمّ أيمن من الغفلة عنه عندما كان صغيراً^(٢).

وكذلك عمّه أبو طالب الذي واصل رعايته ودعمه في تبليغ رسالة الإسلام حتى آخر لحظات عمره المبارك متحملاً في ذلك أذى قريش وقطيعتها وحصارها له في الشعب.

وأما والد النبي ﷺ فالروايات دالة على نبذهما الشرك والأوثان، ومنها قوله ﷺ: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»^(٣).

وأما يوم ولادته، فقد حدّده أهل بيته ﷺ بأنه يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر^(٤)، وحدّده غيرهم بالثاني عشر من الشهر نفسه^(٥).

وتفيد مصادر التاريخ أنّ حوادث عجيبة وقعت يوم ولادته، مثل: انطفاء نار فارس، ووقوع زلازل هدمت الكنائس والبيع، وسقوط الأصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها^(٦).

(١) بحار الأنوار، المجلسي ١٥: ٤٠٥، تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر ٥٧: ١٤٩، شرح النهج، ابن أبي الحديد ٧: ٢٧١ - ٢٧٢، المنتظم، ابن الجوزي ٢: ٢٧٥.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١: ١١٨، المنتظم لابن الجوزي ٢: ٢٧٤.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٤: ٩٠، السيرة النبوية، أحمد زيني دحلان، بهامش السيرة الحلبية ١: ٥٩.

(٤) تهذيب الأحكام ٦: ٢، إعلام الوري ١: ٤٢، كشف الغمّة ١: ١٤، بحار الأنوار ١٥: ٢٤٩.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٥٨، البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٣٢٠، السيرة الحلبية ١: ٥٧.

واشتهر النبي ﷺ باسمين ذكرهما القرآن الكريم، وهما: أحمد ومحمد، وقد بشر به الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام، كما أخبر القرآن الكريم بذلك، وصدقته علماء أهل الكتاب^(٢).

وفي ما يخص رضاعه الميمون تقرّر إرساله الى بادية بني سعد، ليرتضع هناك وينشأ في بيئة نقيّة بعيداً عن الأوبئة التي كانت تهدّد الأطفال في مكّة، وزعم بعض المؤرّخين أنّ المراضع أعرضن عن قبول النبي ﷺ بسبب يثمه، وقبلته حليلة؛ لأنّها لم تجد رضيعاً غيره^(٣). ويردّ هذا الزعم مكانة البيت الهاشمي الرفيعة، وشخصية جدّه الذي عُرف بالجود والإحسان ومساعدة المحتاجين.

قالت حليلة: استقبلني عبد المطلب فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرأة من بني سعد. قال ما اسمك؟ قلت: حليلة. فتبسّم عبد المطلب وقال: بخ بخ سعد وحلم، خصلتان فيهما خير الدّهر وعزّ الأبد^(٤).

وتقول حليلة: عندما أخذنا رسول الله ﷺ عرفنا الخير والزيادة في معاشنا ورياشنا، حتى أثّرنا بعد الجذب والجهد.

لم يتمتع النبي ﷺ بطول رعاية أمه الحنون، فقد روي أنّ حليلة السعدية جاءت بالنبي ﷺ الى أهله وقد بلغ خمس سنين، ولما بلغ ﷺ السادسة من العمر، أرادت أمه آمنة أن تحمله معها وتزور قبر زوجها العزيز، ويزور النبي ﷺ أخواله من بني النجّار في يثرب، فذهبت به تصحبها أمّ أيمن باتجاه المدينة، ولكن هذه الرحلة لم تترك على النبي ﷺ إلا حُزناً آخر؛ إذ فقد أمّه في طريق العودة في منطقة تدعى (الأبواء) بعد أن زار الدار التي توفيّ ودفن فيها أبوه. فواصلت أمّ أيمن رحلتها نحو مكّة، وهي تصطحب النبيّ لتسلّمه إلى جدّه عبدالمطلب^(١).

(١) كمال الدين و تمام النعمة: ١٩١، إعلام الوري ١: ٥٥، كشف الغمّة ١: ٢٠، تاريخ يعقوبي ١: ٣٢٨.

(٢) بصائر الدرجات، الصّفار: ٤٨٩، تفسير القمّي ٢: ٣٦٥، المستدرك للحاكم النيسابوري ٢: ٣١٠.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١: ١١٠، المنتظم، ابن الجوزي ٢: ٢٦٢.

(٤) بحار الأنوار ١٥: ٣٨٨، السيرة الحلبيّة ١: ٨٩.

وقد بلغ محمد ﷺ في قلب جدّه مكانة لم يبلغها أحد من بنيه وأحفاده وهم سادات بطحاء مكّة، فقد روي أنّ عبد المطلب كان يجلس في فناء الكعبة على بساط كان يمد له، وحوله وجوه قريش وساداتها وأولاده، فإذا وقعت عيناه على حفيده محمد ﷺ، أمر بأن يفرج له حتى يتقدّم إليه، ثمّ يجلسه إلى جنبه على ذلك البساط الخاص به^(٢)، وهذه العناية من سيّد قريش قد عزّزت من مكانة محمد ﷺ في نفوس قريش، إضافةً إلى سموّ أخلاقه منذ نعومة أظفاره.

ولم يمض من عمر النبي ﷺ أكثر من ثمان سنوات حتى مُني بمحنة ثالثة وهي: فقد جدّه العظيم عبد المطلب، وقد حزن محمد ﷺ لموت جدّه حزناً لا يقلّ عن حزنه لموت أمه، وأجهش بالبكاء وهو يتبع نعشه إلى مشواه الأخير^(٣). ولم ينسَ ذكره أبداً؛ إذ كان يرعاه خير رعاية، وكان عارفاً بنبوّته فقد روي أنّه قال - لمن أراد أن ينحّي عنه محمدًا ﷺ - عندما كان طفلاً يدرج: دع ابني؛ فإنّ الملك قد أتاه^(٤).

دور الفتوة والشباب

منذ وفاة عبد المطلب بدأت مهمّة أبي طالب الشاقّة في المحافظة على النبي ﷺ، فكان يقيه بماله ونفسه وجاهه منذ صغره، ويدافع عنه وينصره بيده ولسانه طوال حياته، حتى نشأ رسول الله ﷺ وتلقّى النبوة وصدّع بالرسالة^(٥). وفي هذا الدور خرج أبو طالب في رحلة للتجارة الى الشام، مصطحباً رسول الله ﷺ، وفي هذه الرحلة شاهد بحيرا الرّاهب محمّداً ﷺ، ووجد فيه

(١) الطبقات الكبرى ١: ١١٦، السيرة الحلبية ١: ١٠٥، سبل الهدى والرشاد ٢: ١٢٠.

(٢) السيرة النبوية: ١ / ٦٨، الطبقات الكبرى ١: ١١٨.

(٣) الطبقات الكبرى ١: ١١٩، المنتظم لابن الجوزي ٢: ٢٨٢.

(٤) الكافي، الكليني ١: ٤٤٨، وعنه في بحار الأنوار، المجلسي ١٥: ١٥٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ١ / ٣٥، تاريخ البعقوبي: ٢ / ١٤.

علامات النبي الخاتم الذي كان قد بشر به عيسى عليه السلام، فنصح أبا طالب أن يعود به إلى مكة، وأن يحتاط عليه من اليهود لئلا يغتالوه^(١).

وزعم بعض المؤرخين أن النبي صلى الله عليه وآله شارك في بعض الحروب التي وقعت بين العرب، واستحلت فيها حرمة الأشهر الحرم، ومن أجل ذلك سميت حروب الفجار^(٢)، وشكك بعض المحققين في ذلك لأسباب منها: أن أحداً من بني هاشم لم يحضر هذه الحروب، وأن أبا طالب منعهم من المشاركة فيها بقوله: «هذا ظلم وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضره ولا أحد من أهلي»، وانسحب عبدالله بن جدعان، وحرب بن أمية - وهو قائد قريش وكنانة حينذاك - وقالوا: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم^(٣).

وقد شعرت قريش بعد حرب الفجار بضعفها وتفرق كلمتها، وخشيت من طمع العرب فيها بعد أن كانت قوية منيعة، فدعا الزبير بن عبد المطلب إلى حلف الفضول حيث اجتمع بنو هاشم وزهرة وتميم وبنو أسد في دار عبدالله بن جدعان، وغمس المتحالفون أيديهم في ماء زمزم، وتحالفوا على نصره المظلوم، والتأسي بالمعاش، والنهي عن المنكر، وكان أشرف حلف في العهد الجاهلي، وقد شارك محمد صلى الله عليه وآله، وكان يومئذ قد جاوز العشرين من عمره، وقد أثنى عليه بعد نبوته وأمضاه بقوله: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»^(٤).

وفي هذا الدور خرج محمد صلى الله عليه وآله للتجارة إلى الشام مضارباً بأموال خديجة بنت خويلد باقتراح من عمه أبي طالب الذي فاتح خديجة بالأمر، فرحبت به على الفور؛ لما اشتهر به محمد صلى الله عليه وآله من علو الهمة والخلق الرفيع، والأمانة والصدق، وسافر

(١) سيرة ابن هشام: ١ / ١٩٤، وعنه في الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله لجعفر مرتضى العاملي ١: ٩١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٣٥٣، السيرة الحلبية ١: ١٢٧.

(٣) تاريخ يعقوبي ١: ٣٣٧.

(٤) تاريخ يعقوبي ١: ٣٣٨.

محمد ﷺ إلى الشام يعينه (ميسرة) غلام خديجة، واستطاع بأمانته وحنكته أن يحصل على أرباح وافرة، وظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلمّا عادت القافلة أخبر ميسرة خديجة بما شاهد وسمع^(١)، ممّا زاد في رغبتها في الإقتران بالنبي ﷺ.

وقد زعم بعض المؤرخين أنّ النبي ﷺ كان أجيراً لخديجة في تجارتها، ويردّه أنّ يعقوبي قال في تاريخه الذي يُعدّ من أقدم المصادر المعتمدة: «إنّ ما كان ممّا يقول الناس: إنّها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قطّ»^(٢).
وقد ورد النصّ عن الإمام الهادي عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ كان يسافر إلى الشام مضارباً لخديجة بنت خويلد»^(٣).

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٦٨، إمتاع الأسماع ١: ١٧.

(٢) تاريخ يعقوبي ١: ٣٤١.

(٣) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ١٥٥.

الفصل الثالث

من الزواج الى البعثة

كان لابدّ لمثل محمّد ﷺ من الإقتران بامرأة تناسبه وتتجاوب مع عظيم أهدافه وقيمه، ولم يكن هناك امرأة تصلح لمحمّد ﷺ ولهذه المهمة سوى خديجة التي كانت من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، وأحسنهنّ جمالاً، وكانت تدعى في الجاهلية بـ (الطاهرة) و (سيدة قريش)^(١). وكان كلّ رجال قومها حريصين على الإقتران بها^(٢)، ولكنّها رفضتهم جميعاً واختارت محمّداً ﷺ لما عرفت فيه من الأخلاق الكريمة والقيم العالية.

وتضافرت النصوص التاريخية على أنّها هي التي أبدت رغبتها أولاً في الإقتران به^(٣)، فذهب أبو طالب في أهل بيته، ونفر من قريش لخطبتها من وليّها آنذاك وهو عمّها عمرو بن أسد^(٤)، وكان ذلك قبل البعثة بخمس عشرة سنة على المشهور. وقد ضمنت خديجة المهر في مالها.. فقال بعضهم: يا عجباً، المهر على النساء للرجال! فغضب أبو طالب، وقال: «إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأعلى الأثمان وأعظم المهر، وإن كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلّا بالمهر الغالي»^(٥).

ومن الحوادث المهمة في هذا الدور، إعادة وضع الحجر الأسود، ففي السنة الخامسة قبل البعثة، هدم السيل الكعبة، فأعادت قريش بناءها، واختلف في من يعيد الحجر الى موضعه، وكانت كلّ قبيلة تريد الاختصاص بهذا الشرف، ثم اجتمعوا في المسجد واتفقوا على أنّ يكون أوّل داخل على الاجتماع هو الحكم بينهم، فكان الداخل رسول الله ﷺ، فقالوا: (هذا الأمين، قد رضينا به)، فجعل النبي ﷺ الحجر في ثوب، وقال: «لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب، ثم قال: ارفعوا جميعاً ففعلوا، فلمّا

(١) السيرة الحليّة ١: ١٣٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) السيرة الحليّة ١: ١٣٧ .

(٥) الكافي، الكليني ٥: ٣٧٥ تاريخ يعقوبي ١: ٣٤١، السيرة الحليّة ١: ١٣٨ .

حاذوا موضعه أخذه بيده الشريفة ووضعوه حيث يجب أن يكون، وبعد ذلك أتموا بناءها»^(١).

وقد كان لهذا الموقف أثر كبير في نفوس تلك القبائل، عمق مكانة الرسول الاجتماعية، ولفت انتباههم إلى قدراته القيادية وكفاءته الإدارية.

وفي هذا الدور وُلد الإمام عليّ عليه السلام، الذي لم تكن علاقته بالنبي صلى الله عليه وآله تقتصر على النسب، بل تميّزت بأنها علاقة فكرية وعاطفية عميقة، فما أن خرجت فاطمة بنت أسد تحمل وليدها الذي وضعته في بطن الكعبة، حتى تقدّم إليها محمد صلى الله عليه وآله وأخذ عليّاً فضمّه إلى صدره^(٢) وكانت هذه بداية العناية به والإعداد الخاصّ له.

وقد انعكست هذه الرعاية المستمرة لسنوات طويلة بآثارها على سلوك عليّ وشعوره، وطفحت على لسانه، فأشار إليها بقوله: «وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه... ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به»^(٣).

وقد سطع اسم محمد صلى الله عليه وآله في مجتمع الجزيرة العربية، وبدأت استقامة شخصيته تظهر في كلّ جوانب سلوكه وكمالاته الأخلاقية، وكان الإمداد الغيبي يرفده، والتسديد الإلهي يصونه من كلّ المعاصي والمساوئ، وقد قال فيه الإمام عليّ عليه السلام الذي هو أكثر الناس التصاقاً به: «وقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»^(٤).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٩٦، تاريخ يعقوبي ١: ٣٣٩.

(٢) الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي: ٣٠.

(٣) نهج البلاغة: ٣١١ ضمن الخطبة ١٩٢ (الخطبة القاصعة).

(٤) نهج البلاغة: ٣١١ ضمن الخطبة ١٩٢ (الخطبة القاصعة).

البعثة النبوية المباركة وإرهاصاتها

إنّ نصوص القرآن الكريم هي أقدم النصوص التاريخية التي تتمتع بالصحة والدقة والمعاصرة لحوادث الرسالة الإسلامية، وبهذا تتميز عن الروايات التاريخية الواردة في كتب الحديث والسيرة التي تأخر تدوينها عن عصر تلك الحوادث، وتعرضت للدس والتزوير، فكان من الضروري عرضها على محكمات الكتاب والسنة والعقل، لنأخذ ما يوافقها ونرفض ما يخالفها.

ولما كانت النبوة سفارة إلهية تتعين من قبل الله تعالى؛ لرفد البشرية بالهداية اللازمة لها على مدى الحياة، كان من مقتضيات طبائع الأشياء أن يكون المرشح لهذه السفارة الإلهية الكبرى متمتعاً بكل الخصائص التي يتطلبها تحقيق هذه السفارة والقيام بأعبائها، وتحقيق أهدافها.

وإنّ الذين عاصروا الرسول ﷺ لم يقدّموا لنا تصويراً صحيحاً وواضحاً عن الرسول ﷺ قبل بعثته بل وحين بعثته، ولعلّ أقدم النصوص التي تعرضت لذلك هي ما جاء عن وصيّ رسول الله الذي عاشه طيلة حياته، إذ قال عن الفترة التي سبقت البعثة: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم. ليله ونهاره»^(١)، ويتفق هذا النصّ مع نصّ آخر عن حفيده الإمام الصادق عليه السلام يوضح بجلاء بعض معالم شخصية النبي ﷺ قبل البعثة، «ان الله عز وجل أدب نبيّه فأحسن أدبه فلما أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثم فوض إليه أمر الدين والأمة ليسوس عباده»^(٢).

والنصوص القرآنية التي تشير الى ظاهرة الوحي تصرّح بما كان عليه الرسول ﷺ من الطمأنينة والثبات والاستجابة التامة لأوامر الله تعالى ونواهيه التي كان يتلقاها قلبه الكريم، ومن هذه النصوص:

(١) نهج البلاغة: ٣١١ ضمن الخطبة ١٩٢.

(٢) الكافي ١: ٢٦٦ الحديث ٤.

١- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾^(١).

٢- ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾^(٢).

٣- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٣).

وفي ضوء هذه النصوص المُحكَّمة نستطيع أن نحدد الموقف من الروايات التي تصوّر النبي ﷺ خائفاً مضطرباً حين نزل عليه الوحي، ولم يتضح له أنه نبيّ يتلقّى الوحي من ربه، حتّى انطلقت به خديجة الى ابن عمّها النصراني ورقة بن نوفل، ليقوم بتطمينه وإعلامه، بأنّه نبيّ وأنّ ما رآه هو النّاموس الذي أنزل على موسى^(٤). إنّ القرآن الكريم يؤكّد في أكثر من آية أنّ الرّسل هم مصدر الهداية للناس، وهم أصحاب البَيِّنات، وليس العكس، بينما تشير هذه الرواية الى أنّ ورقة هو الذي عرف رسالة النبيّ قبله، فبعث فيه الطمأنينة.

وجاء في تاريخ الطبري ما هو أفضح من ذلك، وهو: أنّ النبيّ حينما جاءه الملك، ظنّ أنّه أُصيب بالجنون وأراد الانتحار برمي نفسه من شاهق^(٥)، ويحسن أن نقارن هذا بما جاء في بحار الأنوار من رواية عن الإمام عليّ الهادي عليه السلام، فيما يخصّ إرهابات الوحي الرسالي، وفيها: «إن رسول الله بعد أن تلقّى الوحي نزل من الجبل، وقد اشتدّ عليه ما يخافه من تكذيب قريش في خبره ونسبتهم إيّاه إلى الجنون، وإنّه يعتريه شياطين... فأراد الله عزّ وجلّ أن يشرح صدره ويشجّع قلبه، فأنطق الله الجبال والصخور والمدبر، وكلّما وصل إلى شيء منها ناداه: السلام عليك يا محمّد، السلام عليك يا وليّ الله، السلام عليك يا رسول الله»^(٦).

(١) سورة الأنعام: ٦: ٥٧.

(٢) سورة الأنبياء ٢١: ٤٥.

(٣) سورة يوسف ١٢: ١٠٨.

(٤) مسند أحمد ٦: ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٥) تاريخ الطبري ٢: ٤٨ - ٤٩.

(٦) بحار الأنوار ١٨: ٢٠٥ الحديث ٣٦، نقلاً عن التفسير المنسوب الى الإمام العسكري عليه السلام.

وبالمقارنة بين رواية الطبري ورواية البحار نلاحظ الفرق الكبير بين الصورتين عن بداية البعثة وشخصية الرسول ﷺ؛ إذ تصوّره الرواية الأولى شاكاً ومضطرباً، بسبب جهله بحقيقة ما يجري له، تصوّره الرواية الثانية عالماً بحقيقة رسالته منذ بداية الطريق، وهذه الصورة هي التي تنسجم مع محكمات الكتاب والسنة.

مراحل حركة الرسالة في العصر المكي

إنّ أوّل ما بدأ به النبي ﷺ في طريق نشر الرسالة هو دعوة أهل بيته، أمّا خديجة فكان من الطبيعي أن تصدّق النبي ﷺ بعد أن عاشرته عمراً طويلاً وعرفت فيه الطهر الروحي والتعلّق بالسماء.

ولم يتكلّف النبي ﷺ جهداً في دعوة ابن عمّه وربيبه عليّ عليه السلام الذي كان يحمل بين جوانحه قلباً طاهراً لم تلوثه عبادة الأصنام، فكان أوّل القوم إسلاماً^(١)، ثم التحق بهما زيد بن حارثة، فكانوا هم النواة الخيرة التي انفلق منها المجتمع الإسلامي. وقد مرّ تبليغ الرسالة الإسلامية بدورين:

١ - دور إعداد القاعدة:

وقد عمد النبي ﷺ في هذا الدور من الدعوة الى تنويع الاختيار لأتباعه من حيث الإنتماء القبلي والموقع الجغرافي والعمر؛ ليوضّح شمولية الرسالة ويضمن لها الانتشار في المجتمع، فاستجاب له المستضعفون في البداية، كما استجاب له من الأشراف، ذوو النفوس الطيبة والعقول المتفتحة الذين ينزعون الى السلوك النزيه. وقد اتخذ الرسول ﷺ في هذه المرحلة من دار الأرقم مكاناً للتخفي لممارسة العبادة، والاتّصال المنظم بأتباعه بعيداً عن أنظار قريش^(٢).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٤٥، حلية الأولياء ١: ٦١.

(٢) المستدرک، الحاكم النيسابوري ٣: ٥٠٢، السيرة الحلبية ١: ٢٨٣.

٢ - دور المواجهة الأولى وإنذار الأقربين:

وحينما بلغت الفئة المؤمنة المستوى الروحي الذي يؤهلها لخوض الصراع، كان لابد من الانتقال الى مرحلة الإعلان العام، وكانت أولى خطواته إنذار الأقربين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)؛ فأمر النبي ﷺ علياً بإعداد وليمة دعا إليها عشيرته الأقربين، وكانوا أربعين رجلاً، وحين تأهب الرسول ﷺ للحديث حتى قاطعه عمه عبد العزى - المعروف بأبي لهب - وحذره من الاستمرار في التبليغ والإنذار، وحال دون تحقيق هدف الرسول فانفض المجلس، ولما كان من غد جدّد النبي ﷺ أمره لعليّ ودعوته لعشيرته وبعد أن فرغوا من الطعام بادروهم ﷺ بقوله: «يا بني عبد المطلب إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتمكم به، إنّي جئتمكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عزّ وجلّ أن أدعوكم إليه فأأيكم يؤمن بي ويؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟» فستكوا جميعاً إلّا عليّ بن أبي طالب إذ نهض قائلاً: «أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله». فأمره رسول الله بالجلوس، وكرر الرسول ﷺ دعوته؛ فلم يجبه غير عليّ عليه السلام ملبياً الدعوة معلناً المؤازرة والنصرة. وعندها التفت رسول الله ﷺ الى الحاضرين من عشيرته وقال: «إنّ هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له وأطيعوا» فنهض القوم من مجلسهم وهم يخاطبون أبا طالب ساخرين: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»^(٢).

وبإنقضاء السنوات الثلاث - أو الخمس - من بداية الدعوة، نزل الأمر الإلهي بالإنذار العام بقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٢) روي هذا الحديث في مصادر عديدة وبألفاظ متقاربة في: تاريخ الطبري ٢: ٤٠٤، السيرة الحلبية ١: ٤٦٠، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢١٠. وراجع أيضاً: حياة محمد: ١٠٤ لمحمد حسين هيكل، الطبعة الأولى..

(٣) سورة الحجر ١٥: ٩٤.

فقام النبي ﷺ على الصفا، ونادى قريشاً من كل ناحية فأقبلوا نحوه فقال ﷺ: «أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فنهض أبو لهب ليرد على رسول الله فقال: تَبَّ لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعنا؟! - فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»^(١).

وقد كان هذا إنذاراً صارخاً أفزع قريشاً؛ إذ أصبح تهديداً علنياً لكل معتقداتها، ولكنها لم تتمكن من تحطيم هذه النهضة الفتية، إذ أصبح أتباعها أربعين رجلاً من العرب وغيرهم، وكانوا ينتمون إلى قبائل شتى، ومن هنا توسلت قريش بالمواجهة السلمية ابتداءً، وحذرت أبا طالب حامي الرسول وناصره في رسالته، ولكن أبا طالب ردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عن النبي ﷺ^(٢).

موقف بني هاشم من النبي ﷺ

لم ينش رسول الله ﷺ عن الإستمرار في نشر الرسالة الإسلامية، بل اتسع نشاطه ونشاط أتباعه، فاتصلت قريش بأبي طالب تحذّره وتهدده، وقالوا: إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهمنا، حتى تكفّ عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وحاول أبو طالب تسكين غضب قريش حتى يعالج الموقف مع النبي ﷺ ولكنه وجد رسول الله مصراً على تبليغ الرسالة مهما كانت النتائج، إذ قال ﷺ: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، فتأثر أبو طالب لذلك وقال: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

(١) المناقب لابن شهر آشوب: ١ / ٤٦، تاريخ الطبري ٢: ٦٢، الكامل في التاريخ ٢: ٦٠-٦١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٦٥.

وسارع أبو طالب لاتخاذ تدابير لحماية النبي ﷺ حين وجد الشرّ في نفوس قريش، فدعا بني هاشم وبني عبدالمطلب لمنع رسول الله والقيام دونه، فاستجابوا له سوى أبي لهب^(١).

وقررت قريش أن تلجأ الى الإهانة والسخرية من النبي ﷺ وأتباعه الذين كانوا يزدادون كل يوم، وكان من ذلك قيام أبي لهب وزوجته أم جميل بطرح الشوك على باب النبي ﷺ^(٢). وأخذ أبو جهل يتعرض للنبي ﷺ ويؤذيه بقوله الفاحش، فما كان من حمزة عم النبي ﷺ إلا أن ردّ على أبي جهل إهنته أمام الملائكة من قريش، معلناً إسلامه وتحديه لجمعهم أن يردّوا عليه أو أن يتعرضوا ثانية للرسول ﷺ^(٣).

ولمّا عجزت قوى الكفر والشرك عن أن تثني الرسول ﷺ وأصحابه عن مواصلة نشر الرسالة الإسلامية، عمدت إلى اتخاذ سبيل العنف والتعذيب، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، وجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والتجويع، فكان أمية بن خلف يُخرج بلالاً إلى رمضاء مكة إذا حُميت الظهيرة ليُمارس تعذيبه بأشنع صورة^(٤)، وكان عمر بن الخطّاب يعذب جاريته لإسلامها، فكان يُوسّعها ضرباً، حتى إذا عجز قال: إني لم أتركك إلا ملالة^(٥)، وكان بنو مخزوم يخرجون عمّاراً وأباه وأمه يعذبونهم في رمضاء مكة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر، فإنّ موعدكم الجنة».

وأدرك رسول الله ﷺ بعد عامين من الجهر بالرسالة أن لا قدرة له على حماية المسلمين من طغاة قريش، فحثّ المضطهدين على الهجرة إلى الحبشة،

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٢٦٩.

(٢) التبيان للطوسي ١٠: ٤٢٧، السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٩١ - ٢٩٢.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣١٧ - ٣١٨ سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَاد ٢: ٣٥٧ - ٣٦١.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢١١.

وأخبرهم ﷺ أن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فهاجر منهم بضعة وثمانون شخصاً عدا أبنائهم الصغار، وأمر رسول الله ﷺ عليهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب^(١).

ولما لم يستجب أبو طالب لأهواء قريش، وأصرّ على حماية الرسول ﷺ مهما كان الثمن باهضاً، كتبت قريش صحيفتها الظالمة بالمقاطعة الشاملة في البيع والشراء والمخالطة والزواج، ووُقعت الصحيفة من قبل أربعين زعيماً من زعماء قريش، وعمد أبو طالب إلى الشعب مع ابن أخيه وبني هاشم وبني المطلب، فقد كان أمرهم واحداً، وقالوا: نموت من عند آخرنا قبل أن يوصل إلى رسول الله ﷺ.

وكان لا يصل إلى المسلمين خلال مدة الحصار شيء إلا سرّاً، يحمله إليهم مستخفياً من أراد مساعدتهم من قريش بدافع من عصبية أو نخوة أو عطف.

وبعد أن مضت على المقاطعة ثلاث سنين قاسى خلالها المسلمون والنبى الأكرم ﷺ آلام الجوع والعزلة والحرب النفسية، أرسل الله دودة الأرضة على صحيفتهم المعلقة في جوف الكعبة، فأكلتها جميعاً غير (باسمك اللهم).

وأنبأ الله رسوله ﷺ، فأخبر عمه أبا طالب بالأمر، فخرج مع النبى ﷺ إلى المسجد الحرام، فاستقبله وجهاء قريش ظناً منهم أن الإسلام يقودهم إلى التخلي عن الرسالة، فقال لهم أبو طالب: إن ابن أخى أخبرني بأن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فأكلتها غير اسم الله، فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم، قالوا: قد أنصفتنا، ففتحوها، فوجدوا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، فنكسوا رؤوسهم حياءً وخجلاً مما حل بهم^(٢).

وفي السنة العاشرة من البعثة خرج المسلمون من الحصار وهم أصلب عوداً وأكثر قدرة على التحرك صوب الهدف، ولكن الرسالة الإسلامية تعرّضت لأخطر محنة في مسيرتها في مكة بوفاة أبي طالب رضي الله عنه، الذي كان المدافع القوي

(١) مجمع البيان ٣: ٤٠٠، دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٢٥٨، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٨٥ - ٨٦.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ١: ٦٣ - ٦٦، إعلام الورى ١: ١٢٥ - ١٢٩، الطبقات الكبرى ١: ٢٠٨ - ٢١٠، دلائل

النبوة للبيهقي ٢: ٣١١ - ٣١٤، الكامل في التاريخ ٢: ٨٧ - ٨٩.

عن الرسول والرسالة، وبعده بأيام توفيت أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها ثاني سندی رسول الله ﷺ، ولشدة تأثير الحادثتين في النبي ﷺ سمى رسول الله ﷺ ذلك العام «عام الحزن»، وصرّح قائلًا: «ما زالت قريش كاعّة عني حتى مات أبو طالب»^(١).

وفي هذه الفترة كانت حادثة الإسراء والمعراج؛ تثبيتاً للرسول على طريق المقاومة الطويل، رفعه الله إلى قلب السموات؛ ليريه جوانب من عظمة ملكه الباهرة، وليطلعه على أسرار الخليفة ومصير الإنسان الصالح والطالح.

ولم تستطع قريش أن تدرك المعاني السامية في أمر الإسراء، وراحوا يسألون عن الصورة المادية له وإمكان تحققها، فوصف لهم رسول الله ﷺ المسجد الأقصى وصفاً دقيقاً، وذكر لهم أنه مرّ بقافلة وهم يطلبون بغيراً قد ضلّ لهم، وفي رحلهم قعب ماء كان مكشوفاً وقد غطّاه، كما كان، فجاء كل ما قاله صحيحاً كما أخبر به^(٢).

وصدق الله، حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣).

سنوات ما قبل الهجرة

أدرك رسول الله ﷺ أنّ أذى قريش سيزداد، ومسايعها للقضاء على الرسالة لن تتوقف، بعد أن زال غطاؤها الأمني بوفاة أبي طالب ﷺ، فقرّر أن يتحرّك في مساحة أوسع من شعاب مكة، واختار التوجّه إلى الطائف التي تقطنها ثقيف أكبر القبائل العربية بعد قريش.

(١) كشف الغمّة ١: ١٦، مستدرك الحاكم ٢: ٦٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣٣٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٩٨-٣٩٩ و ٤٠٢-٤٠٣.

(٣) سورة الإسراء ١٧: ١.

ولما انتهى إليها بمرافقة زيد بن حارثة، قابله زعماؤها وأشرفها بردٌ عنيف، ولما قام لينصرف من عندهم حرّضوا عليه سفاههم وعبيدهم، فأخذوا يسبّونه ويرمون به بالحجارة، والتجأ الى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة - وكانا هناك - ففرّق عنه سفهاء الطائف وقدماه تنزفان دماً.

ولم يفتّ اضطهاد قريش للنبي ﷺ وأصحابه وصدود الطائف في عزيمة النبي ﷺ، فواصل التحرك بين الناس، يدعو الجميع الى دين الله، لا سيما في مواسم العمرة والحجّ، فكان يقف على منازل القبائل ويقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تتعبدوا إليه ولا تشرکوا به شيئاً، وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني، وتمنعوني حتى أُبين عن الله ما بعثني به».

ولم يتمكن النبي ﷺ من إقناع القبائل بالرسالة الإسلامية؛ إذ كانت قريش تتمتع بالمكانة الدينية بين القبائل الأخرى لما كانت تقوم به من سدانة البيت الحرام، وكانت تدير مركزاً تجارياً واقتصادياً مهماً في الجزيرة العربية، ولها شبكة من العلاقات والأحلاف مع ما يحيط بها من القبائل التي كان النبي ﷺ يعرض عليهم دعوته، فكان من الصعب كسر كل تلك القيود وإلغاء هيمنة قريش، فكان تردّد الناس في قبول الرسالة الإسلامية واضحاً.

وقد كانت مدينة يثرب تعيش صراعاً سياسياً وعسكرياً بين أقوى قطبين فيها وهما: الأوس والخزرج، وكان يؤجج هذا الصراع عناصر من اليهود بخبثهم وفسادهم في جوٍّ من ضياع القانون الإلهي.

والتقى النبي ﷺ ببعض شخصيات يثرب ممّن جاء يبحث عن تحالف مع قريش يزيد قوّته، فعرض عليهم دعوته، فوجد فيهم تجاوباً ولهفة لسماع المزيد من الآيات، وتأكدوا أنّه هو النبي الذي كان يقصده اليهود حينما كانوا يتوعّدون به المشركين في يثرب، كلّما وقع بينهم الشرّ، فكانوا يقولون لهم: إنّ نبياً سيبعث الآن وقد أطلّ زمانه، وستبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

فأعلن الشريون في الحال إسلامهم، وكانوا ستة أشخاص، وقالوا للنبي ﷺ: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك وإلى الدين الذي أجبتك عليه.

فلما كان موسم الحجّ للعام الحادي عشر من البعثة، قدّم وفد من أوس يثرب وخزرجها، وهم اثنا عشر رجلاً، من بينهم الستة الذين قد أسلموا من قبل، والتقوا برسول الله ﷺ سرّاً في العقبة، وأعلنوا هذه المرة بيعتهم للنبي ﷺ على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف^(١).

وأرسل النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير، لكي يتولّى شؤون التبليغ والتثقيف العقائدي بينهم، وهكذا تمّت بيعة العقبة الأولى.

وعندما اقترب موسم الحجّ من السنة الثانية عشرة من البعثة، خرجت وفود الحبيج من يثرب ومعها وفد المسلمين البالغ ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فالتقى بهم رسول الله ﷺ في العقبة سرّاً متكتمين من قريش، حيث تمّت بيعة العقبة الثانية، صريحة واضحة مكتملة على كلّ جوانب الإسلام وأحكامه وفي السلم والحرب معاً. فقال ﷺ: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فقاموا وبايعوا رسول الله ﷺ، ثمّ أذن لهم بأن يعودوا إلى رحالهم من دون أن يواجهاوا المشركين بالقوّة؛ إذ لم يأذن الله له بالقتال.

وأدركت قريش بوادر الخطر المحقق بها من نصرة مسلمي يثرب للنبي ﷺ، فشددت من اضطهادها للمسلمين في محاولة للقضاء عليهم قبل أن يستفحل أمرهم، فشكا المسلمون ذلك لرسول الله ﷺ واستأذنوه بالخروج من مكّة، فاستمهلهم أياماً ثم قال: «لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها»^(٢).

(١) إعلام الوری ١: ١٤١-١٤٢، المناقب لابن شهر آشوب ١: ١٨١ - ١٨٢، السيرة النبوية لابن هشام

٢: ٤٣٣

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١: ٢٢٦.

وشرع المسلمون يخرجون من مكة إلى يثرب سرّاً، لكي لا يثيروا هواجس قريش، وأمّا النبي ﷺ فكان ينتظر الأمر الإلهي بالهجرة، وأدركت قريش هدف النبي ﷺ وخطته، فسارعت لعقد اجتماع في دار الندوة؛ للبحث عن حلّ يواجهون به الخطر، وانتهى رأيهم إلى قتل النبي ﷺ وتفريق دمه بين القبائل؛ لكي يعجز بنو هاشم عن المطالبة بدمه^(١)، فنزل أمين الوحي جبرئيل وأخبر رسول الله بالمؤامرة، وبالأمر الإلهي بالتحرك والهجرة إلى يثرب، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

* * *

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٢: ٤٨٠ - ٤٨٢.

(٢) المناقب ١: ١٨٢ - ١٨٣، والآية في سورة الأنفال ٨: ٣٠.

الفصل الرابع

تأسيس الدولة الإسلامية الأولى

حينما أزمع النبي ﷺ على الخروج من مكة قال لعليّ ﷺ «يا علي إن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنه أوحى إليّ عن ربّي أن أهجّر دار قومي، فنم على فراشي والتحف ببردي الحضرمي؛ لتخفي بمبيتك عليهم أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال عليّ ﷺ: أَوْ تَسْلَمَنَّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟

قال: نعم، فتبسم عليّ ﷺ ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لله تعالى؛ لما أنبأه رسول الله ﷺ من سلامته، وقال: إمض لما أُمِرْتَ به، فذاك سمعي وبصري وسويداء قلبي»^(١).

وخرج رسول الله ﷺ بعد منتصف الليل تحيط به العناية الإلهية، مخترقاً طوق قوآت الشرك المحيطة بداره، وكانت خيبة أعداء الله كبيرة حين اقتحموا دار النبي ﷺ صباحاً شاهرين سيوفهم، فوثب عليّ ﷺ من مضجعه في وجوههم بشجاعته الفائقة. وحاولت قريش اقتفاء أثر النبي ﷺ، فقادهم الدليل الحاذق إلى باب غار ثور، فانقطع عنه الأثر، فقال: ما جاوز محمد ومَن معه هذا المكان، فإمّا يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا في الأرض.

وفي المساء التقى عليّ ﷺ وهندبن أبي هالة بالنبي ﷺ بعد أن علما بمكانه في الغار، وقد أوصى النبي ﷺ عليّاً ﷺ بأداء الأمانات التي كانت لديه للعرب، ثم يلتحق به مصطحباً الفواطم، وطمأنه بقوله: «إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمر تكرهه حتى تقدم عليّ، فأدّ أمانتي على أعين الناس ظاهراً، ثم إني مستخلفك على فاطمة ابنتي، ومستخلف ربّي عليكما ومستحفظه فيكما»^(٢).

وبعد ثلاثة أيّام حين عرف النبي ﷺ أنه قد سكن الناس عن طلبه، تحرّك نحو يثرب، وحينما وصل منطقة (قباء) تراث فيها ينتظر قدوم عليّ ﷺ والفواطم، وكان

(١) أمالي الطوسي: ٤٦٥ - ٤٦٦، المناقب لابن شهر آشوب ١: ١٨٣.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٦٧ - ٤٦٨.

أول عمل قام به في قباء هو كسر الأصنام فيها، وبناء مسجدها، وحينما وصل عليّ منهنكاً، اعتنقه رسول الله ﷺ، وبكى رحمةً لما به^(١).

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه يوم الجمعة، فأدركته صلاة الظهر في بطن وادي (رانواء)، فكانت أول صلاة جمعة في الإسلام، وخرج مسلمو يثرب بزينتهم وسلاحهم يستقبلون رسول الله ﷺ، وكلّ يريد أن يملأ عينيه من هذا الرجل الذي آمنوا به وأحبّوه^(٢). وكلّ يأخذ بزمام ناقته ويعرض عليه المقام عنده، وهو يقابلهم بطلاقة الوجه متجنباً أيّاً منهم، ويقول: «خلّوا الناقة إنّها مأمورة».

وأخيراً بركت الناقة عند مرّيد أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فأسّرت زوجته فأدخلت رحل رسول الله ﷺ في دارها، فنزل عندهم رسول الله ﷺ إلى أن تمّ بناء بيته والمسجد النبوي الذي أصبح مركزاً ومرتكزاً لحياة المسلمين العبادية والسياسية^(٣)، وقد غيّر النبي ﷺ إسم يثرب إلى طيبة^(٤)، واعتبر هجرته إليها مبدءاً للتاريخ الإسلامي^(٥).

ثمّ شرع النبي ﷺ في التخطيط لتكوين الدولة التي تحكمها قوانين الشريعة الإسلامية، وكانت أول خطوة لإقامة الدولة الجديدة والقضاء على بعض قيم النظام القبلي، من دون أن يمسّ القبيلة بشيء، جعل أساس العلاقة بين الأفراد رابطة العقيدة والدين، متجاوزاً علقه الدم والعصبية، فقال: «تأخّوا في الله أخوين أخوين، ثمّ أخذ بيد عليّ عليه السلام فقال: هذا أخي»^(٦)، وأخذ كلّ رجل من الأنصار أخاً من

(١) الكامل في التاريخ ٢: ١٠٦.

(٢) المصدر السابق ٢: ١٠٧.

(٣) إعلام الوري ١: ١٥٤ - ١٥٥، المناقب لابن شهر آشوب ١: ١٨٥ - ١٨٦، السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٩٤ - ٤٩٦ الطبقات الكبرى ١: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٤) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة ١: ١٦٣ - ١٦٥.

(٥) تاريخ الطبري ٢: ١١٠ - ١١٢، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٥١.

(٦) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٨٥، السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٠٤ - ٥٠٥.

المهاجرين، وبذلك طوت المدينة الصفحات الدامية، من أيامها التي كانت لا تخلو من صراع مرير بين الأوس والخزرج، وتوقّرت بذلك عناصر بقاء الأمة، وفاعليتها الإيمانية.

وعمد رسول الله ﷺ إلى كتابة معاهدة صلح وتعاون بين المسلمين واليهود لبناء دولة تعود بمركزيتها إلى النبي ﷺ يتمتع الجميع فيها بالحقوق الإنسانية على السواء، وأهم ما تضمنته الصحيفة من قرارات:

١ - تأكيد حرّية العقيدة بالسماح لليهود بالبقاء على ديانتهم واعتبارهم مواطنين في الدولة الإسلامية .

٢ - ترسيخ دعائم الأمن في المدينة بجعلها حرماً آمناً لا يجوز القتال فيه.

٣ - إقرار سيادة الدولة والنظام، وإرجاع قرار الفصل في الخصومات إلى القيادة الإسلامية المتمثلة في شخص الرسول ﷺ.

وفي هذه الفترة شرّعت أحكام الزكاة والصيام، وأحكام إقامة الحدود، ونزل الوحي يعلم رسول الله ﷺ صيغة الأذان للصلاة، فدعا رسول الله ﷺ بلاً وعلمه كيفية الأذان^(١).

وكان النبي ﷺ يتّجه في صلاته نحو بيت المقدس منذ أن كان في مكة حتى سبعة عشر شهراً من هجرته، فأخذ اليهود يفخرون على المسلمين بتبعيةهم لقلعة اليهود، وكان هذا يحزن النبي ﷺ فخرج في جوف الليل يطيل النظر إلى آفاق السماء، ينتظر نزول الوحي بتغيير القبلة، وفي اليوم التالي كان النبي ﷺ قد صلّى ركعتين من الظهر، فنزل جبرئيل عليه السلام، فأخذ بعضديه وحوله إلى الكعبة، وأنزل عليه قوله تعالى:

(١) الكافي ٣: ٣٠٢ الحديث ٢، تهذيب الأحكام للطوسي ٢: ٢٧٧، الوسائل ٥: ٣٦٩-٣٧٠.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^{(١)(٢)}.

كانت القوة هي التي تحكم الناس وتسودهم، ولذلك تحرك النبي ﷺ بعد الاستقرار النسبي في المدينة؛ ليؤكد لكل القوى المؤثرة في الجزيرة وخارجها كالروم والفرس، إصراره على نشر الرسالة وبناء الحضارة وفق تعاليم السماء، ولذلك بدأ النبي ﷺ ببعث سرايا وهي مجاميع صغيرة تتحرك لتعلن عن وجودها، وكانت وسيلة للضغط على قريش اقتصادياً، لعلها تسمع نداء الحق، أو تهادن المسلمين فلا تتعرض لهم وهم ينشرون الإسلام، كما أنها كانت وسيلة إشعار لليهود والمنافقين بقوة الإسلام وهيبة المسلمين.

وانطلقت أول سرية بعد سبعة أشهر على الهجرة بقيادة حمزة عم النبي ﷺ، وتلتها سرية بقيادة عبيدة بن الحارث. وثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص، وتحرك النبي ﷺ لمعاقبة المعتدي كرز بن جابر الفهري الذي أغار على أطراف المدينة لسلب الإبل والمواشي، فلاحقه النبي ﷺ مخلفاً زيد بن حارثة على المدينة. وكان النبي ﷺ ينطلق في حركته العسكرية من مبدأ الجهاد والتضحية من أجل الدين، بدلاً من مبدأ العصبية والثأر، محترماً أعراف وتقاليد الصلح والمواعدة وحرمة الأشهر الحرم.

الدفاع عن كيان الدولة الفتية

بنزول الأمر الإلهي بالقتال، دخلت الرسالة الإسلامية مرحلة جديدة من صراعتها لقوى الشرك، ورصد النبي ﷺ قافلة لقريش قد فاتته في طريق ذهابها إلى الشام، فعلم أهل مكة بالخبر، وتمكن أبو سفيان قائد القافلة من تحويل اتجاه القافلة بحيث

(١) سورة البقرة (٢): ١٤٤.

(٢) تفسير القمي ١: ٦٢ - ٦٣، أسباب النزول للواحدي: ٢٦.

لا يدركها المسلمون، وخرجت قريش بنحو ألف مقاتل في عدة ثقيلة لمقاتلة المسلمين، فالتقى الفريقان على مقربة من (ماء بدر).

وأراد النبي ﷺ أن يختبر نوايا المهاجرين والأنصار، فوقف وقال: «أشيروا علي أيها الناس»، فقام المقداد بن عمرو من المهاجرين فقال: «يا رسول الله إمض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(١)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»، وقام سعد بن معاذ من الأنصار فقال: «فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك»، عندها قال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم».

وقف النبي ﷺ يصف المسلمين صفوفاً، وأعطى رايته الكبرى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبرز من المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، يطلبون نظراء لهم من قريش ليبارزوهم. فقال النبي ﷺ لعبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب: «يا بني هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بُعث به نبيكم؛ إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله».

فقتل من برز من قريش، والتحم الجيشان، فأخذ النبي ﷺ كفاً من حصي ورمى بها جيش قريش وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبق منهم أحد إلا اشتغل بفرك عينيه، فكانت هزيمة قريش^(٢).

ووقف رسول الله ﷺ على قلب بدر بعد طرح جثث المشركين فيه، وناداهم بأسمائهم وقال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً،

(١) سورة المائدة ٥٥ : ٢٤.

(٢) تفسير القمي ١: ٢٥٨-٢٦٥، مغازي الواقدي ١: ٤٧-٥٣.

فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال ﷺ: إنهم ليسمعون كما تسمعون ولكن مُنعوا من الجواب»^(١).

وقد تركت معركة بدر نتائج عظيمة تمثلت بفرار المشركين نحو مكة خائبين، مخلفين سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً، وغنائم كثيرة، ونزل الأمر الإلهي في سورة الأنفال بتقسيم الغنائم وتشريع أحكام الخمس^(٢). وأعلن النبي ﷺ أن من علم من الأسرى عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، فذلك فداؤه^(٣)، وبدأت قريش تفقد هيبتها بين القبائل، بينما أخذت قوة المسلمين تتصاعد وتستحكم أواصرهم.

في هذه المرحلة بلغت فاطمة الزهراء في بيت النبوة مبلغ النساء، فتقدم لخطبتها أكابر قريش من أهل السابقة في الإسلام والشرف والمال، فردّهم النبي ﷺ بحكمة رداً جميلاً، بقوله: «إني انتظر فيها القضاء»^(٤)، أو قوله: «انتظر أمر السماء»^(٥).

وفرّح النبي ﷺ حينما تقدّم عليّ عليه السلام لخطبة فاطمة عليها السلام وقال له: «أبشرك يا عليّ، فإن الله عز وجل قد زوجكها في السماء من قبل أن أزوجه في الأرض»^(٦).

وأجرى رسول الله ﷺ عقد الزواج أمام جمع من المهاجرين والأنصار، لقاء مهر يسير؛ ليجعله سنة تقتدي به الأمة. ودعا للزوجين يوم الزفاف بقوله: «اللهم اجمع شملهما، وألف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنة النعيم، وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك، ويأمرون بما رضى»^(٧).

(١) المغازي للواقدي ١: ٤٧ - ٥٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٦٦.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ١: ٢٤٧، مجمع الزوائد ٤: ٩٦.

(٤) الطبقات الكبرى ٨: ١٩.

(٥) كشف اليقين: ١٩٥.

(٦) كشف الغمة: ١ / ٣٥٦ - ٣٥٨ المناقب للخوارزمي: ٣٤٦.

(٧) المناقب لابن شهر آشوب: ٣٥٦/٣.

وقد فجر النصر المؤزر للمسلمين في بدر روح العداء ونزعة الشر اليهودية، فأخذوا يتآمرون على المسلمين تعينهم أطراف النفاق، وتجاهروا بالإساءة للنبي الأكرم ﷺ والنيل من أعراض المسلمين^(١)، فخرج النبي ﷺ الى يهود بني قينقاع يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويحذرهم من مغبة تصرفاتهم اللا محمودة، فلم يزداهم ذلك إلا علواً واستكباراً، وقالوا: «يا محمد لا يغرتك من لقيت، إنك قهرت أقواماً أغماراً، وإننا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا»^(٢).

وانتهى الأمر إلى أن يسير النبي ﷺ بالمسلمين فحاصر يهود بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً، فلم يبق لهم إلا الاستسلام والنزول على حكم النبي ﷺ الذي قرّر جلاءهم عن المدينة تاركين عدّتهم وأدواتهم، وبذلك خلت المدينة من أهم عناصر الشر وساد فيها الهدوء.

وتضافرت الدواعي عند مشركي مكة ومن والاهم لخوض حرب جديدة ضد الإسلام تريخ عن كاهلهم كابوس الهزيمة في بدر، وكان ممّا أسهم في الإعداد للحرب تحريض يهود ومنافقي المدينة لقريش وغيرها على غزو المدينة والقضاء على الإسلام.

وسارع العباس بن عبد المطلب إلى الكتابة للنبي ﷺ يخبره باجتماع كلمة قريش على الحرب، وتهيئتهم للعدّة والعدد، ووصل الكتاب سرّاً الى النبي ﷺ فكتّم الخبر عن المسلمين حتى يستوضح الأمر، واقتربت جحافل الشرك من المدينة، فبعث النبي ﷺ الحباب بن المنذر سرّاً ليستطلع العدو، فجاء الوصف موافقاً لكتاب العباس^(٣).

وخرج النبي ﷺ في ألف مقاتل من المسلمين، ورفض أن يستعين باليهود على المشركين قائلاً: «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك» ولم يستطع المنافقون

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٥١ .

(٢) السيرة النبوية ٣: ٦٣ - ٦٤ .

(٣) المغازي للواقدي ١: ٢٠٣ - ٢٠٤ .

إخفاء حقدهم، فانخذل عبد الله بن أبي عن رسول الله بثلاثمائة، وبقي مع رسول الله سبعمائة، وكان المشركون أكثر من ثلاثة آلاف^(١).

وعند جبل أحد وضع النبي ﷺ خطة مُحَكَّمة ليضمن النصر المؤزر، واصطف المشركون للقتال الذي سرعان ما نشب، ولم يمض زمن طويل حتّى وُلّت قوى الشرك الأدبار، وبدا انتصار المسلمين واضحاً، لكنّ الشيطان وسوس لبعض الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ فوق الجبل، وأمرهم أن لا يتركوا مكانهم مهما كانت نتيجة المعركة، حتّى يتلقّوا أمراً جديداً منه، فعصّوا أمر الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم سعياً وراء الغنائم، فكثرت قوى الشرك ثانية بقيادة خالد بن الوليد، من موقع الثغرة التي نهى رسول الله ﷺ عن تركها.

فذهل المسلمون لذلك، وتفرقت جموعهم، وعادت فلول قريش المنهزمة الى الحرب، وأشاع المشركون نبأ مقتل رسول الله ﷺ، وكادت كتائب الشرك أن تصل الى النبي ﷺ لولا استبسال عليّ ؑ وحزمة وسهل بن حنيف، وقلة قليلة ثبتت في ساحة المعركة، إذ فرّت البقية الباقية من المسلمين بمن فيهم كبار الصحابة^(٢).

واستشهد حمزة بن عبد المطلب، وتعرّض رسول الله ﷺ للإصابة فكسرت رباطيته السفلى، وشُقّت شفته وسال الدم على وجهه، وطعن أبي بن خلف حين هجم عليه يريد قتله، طعنة مات أبي على أثرها، وانسحب النبي ﷺ والبقية الباقية من المسلمين الى الجبل، ورجع المشركون الى مكّة.

وفي اليوم التالي استنفر النبيُّ المسلمين لمطاردة العدو على أن لا يخرج إلا من حضر الغزوة، فخرج المسلمون على ما بهم من جراح إلى منطقة حمراء الأسد، ممّا جعل الخوف يسيطر على المشركين، فأسرعوا في مسيرهم نحو مكّة، وعاد المسلمون إلى المدينة وقد استردّوا كثيراً من معنوياتهم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٣-٦٤.

(٢) الإرشاد للمفيد: ٨٠-٨٢، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَاد ٤: ١٩٤-١٩٦.

ولجأ المشركون بعد ذلك الى أسلوب الغدر بالمسلمين، لكن النبي ﷺ كان يسرع في الرد قبل أن يدرك المشركون أهدافهم، فبعث سرية ترد غدر بني أسد بالمدينة^(١) وتمكن المسلمون أيضاً من رد كيد مشرك كان يعد لغزو المدينة^(٢)، وتمكنت جماعة من المشركين من اغتيال بعض المسلمين الدعاة في منطقة «ماء الرجيع»، وعدا آخرون على مجموعة أخرى من الدعاة في بئر «معونة» ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الذي قام في طريق عودته بقتل شخصين خطأ ظناً منه أنهما من العامريين الذين قتلوا أصحابه، وحزن النبي ﷺ لذلك وقال له: «بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما مني أمان وجوار، لأدفعن ديتهما»^(٣).

وبينما كان النبي ﷺ ذاهباً لدفع دية القتيلين، حاولت قبيلة (بني النضير) اغتياله بإلقاء حجر عليه، فأخبره الوحي بذلك وتمكن من النجاة، وبذلك استحل الله دماءهم؛ إذ نقضوا عهد المودعة مع النبي ﷺ، فحاصروهم المسلمون واضطروهم للجلاء من ديارهم حاملين مقدار ما تحمله إبلهم من الأمتعة فقط^(٤).

وقام زعيم بني المصطلق بالإعداد لغزو المدينة، فواجهه المسلمون عند ماء يدعى «المريسيع» ففر المشركون بعد قتل عشرة منهم، ولكن فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار بسبب بعض النعرات القبلية، وأسرع عبدالله بن أبي رأس النفاق يوجب الفتنة، ويلوم أهل المدينة إذ آووا المهاجرين ونصروهم، وقال: أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأمر النبي ﷺ بالعودة الى المدينة، ولم يأذن بالاستراحة في الطريق، فساروا يوماً وليلة، ثم أذن لهم بالاستراحة، فأخلد الجميع للنوم من شدة التعب، ولم تتح فرصة للتحدث وتعميق الخلاف.

(١) المغازي للواقدي ١: ٣٤٠.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢: ٥٠-٥١.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٢١٩-٢٢١.

(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢: ٥٧.

وعلى أبواب المدينة طلب عبدالله بن عبد الله بن أبي الإذن من النبي ﷺ في قتل أبيه بيده، لئلا يكلف النبي غيره بقتله، خشية أن تثيره العاطفة فيثار لأبيه، فقال نبي الرحمة ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

ثم وقف عبدالله (الابن) ليمنع أباه من دخول المدينة إلا بإذن من الرسول، وفي هذا الظرف نزلت سورة المنافقين لتفصح سلوكهم ونواياهم^(١).

تظاهر قوى الشرك والرد الإلهي الحاسم

في أواخر السنة الخامسة للهجرة كانت غزوة الخندق، حيث تجمعت أحزاب المشركين وتوجهت نحو المدينة في عشرة آلاف مقاتل بهدف استئصال الإسلام والمسلمين، فقام المسلمون بحفر خندق يُحصّن الجانب المكشوف من المدينة، وخرج النبي ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل لمواجهة العدو الذي حاصر المدينة ما يقرب من شهر عاجزاً عن اقتحامها.

وكانت هناك مواقف رائعة للمسلمين، كان بطلها الإمام عليّ عليه السلام، الذي برز لعمر بن عبد ودّ وقتله بعد أن أحجم المسلمون جميعاً عن مبارزته، وقد توجّ النبي ﷺ موقف عليّ عليه السلام البطولي بقوله: «برز الإيمان كلّهُ الى الشرك كلّهُ»^(٢).

وقد حاول يهود بني قريظة إعانة المشركين بفتح جبهة داخلية على المسلمين، على الرغم من أنهم كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يدخلوا حرباً ضدّ المسلمين.

وأحدثت ظروف الحصار كلاً وملاً في نفوس الأحزاب الى جانب ما واجههوه من التحصّن غير المترقّب من المسلمين وما أبدوه من ثبات بوجه المشركين، وأرسل الله سبحانه على الأحزاب ريحاً باردة عاتية أحدثت فيهم رعباً

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٨٩ - ٢٩٣.

(٢) كنز الكراكي: ١٣٧، الطرائف لابن طاووس: ٣٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٢٦١ و ١٩: ٦١.

وقلقاً، فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم، فنادى أبو سفيان بقریش للرحيل وفرّوا هاربين تتبعهم سائر القبائل، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(١).

وتحرّك النبي ﷺ فوراً لمحاصرة حصون يهود قريظة دون أن يعطي فرصة للاستراحة، مظهراً بذلك أهمية الحركة العسكرية الجديدة ولم يقبل النبي ﷺ عرض اليهود الإرتحال عن المدينة، وأصرّ على معاقبتهم بسبب موقفهم الخياني، وما كانوا يخططون له من الفتك بالمسلمين وطعنهم من خلف ظهورهم، لولا أن الله تعالى هزم الأحزاب.

وحاول الأوس بطلب من اليهود التوسّط لدى النبي ﷺ، وانتهى الأمر إلى رضاهم بجعل سعد بن معاذ حكماً في قضيتهم، وكان هذا من سوء حظّهم؛ لأنّ سعداً كان قد طلب منهم يوم الأحزاب الوقوف على الحياد فرفضوا، فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري، وتقسيم أموالهم على المسلمين، فقال له النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة»^(٢).

* * *

(١) الأحزاب ٣٣: ٢٥.

(٢) تفسير القمّي ٢: ١٨٩-١٩١، السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٣٤-٢٤٠.

الفصل الخامس

مرحلة الفتح

كان العام السادس للهجرة بالنسبة للمسلمين عام جهاد مستمرّ ودفاع مستميت، وقد أدرك كلٌّ من كان في جزيرة العرب عظمة الدين الإسلامي، وأنّ من المستحيل استئصاله والقضاء عليه.

وفي أواخر هذا العام قرّر النبي ﷺ أن ينطلق بالمسلمين في رحلة عباديّة لأداء العمرة، وقد أعرب النبي ﷺ عن احترامه للأشهر الحُرّم، فلم يحمل المسلمون في هذه الرحلة العباديّة سوى سلاح المسافر، وأبت قريش إلا العتوّ والمعاندة، وأخرجت مجموعه من مئتي فارس بقيادة خالد بن الوليد لمواجهة المسلمين، فأمر النبي ﷺ بالعدول عن طريق فرسان قريش تجنباً لوقوع قتال تتخذه قريش ذريعة لإثبات صحة موقفها^(١).

وأرسل النبي ﷺ خراش بن أمية ليفاوض قريشاً في الأمر، فعقروا ناقته وكادوا أن يقتلوه، وأراد النبي ﷺ أن يبعث الى قريش رسولاً آخر، وانتدب لذلك عمر بن الخطّاب، الذي خاف على نفسه من قريش على الرغم من أنّه لم يقتل فرداً من أفرادها، واقترح على النبي ﷺ أن يرسل عثمان بن عفّان؛ لكونه أُمويّاً وذا قرابة من أبي سفيان. وتأخّر عثمان في العودة من قريش وأُشيع خبر مقتله، وكان هذا إنذاراً بإخفاق كلّ المساعي السلميّة لدخول مكّة، ولم يجد الرسول ﷺ بداً من الاستعداد للقتال، وهنا كانت بيعة الرضوان؛ إذ جلس النبي ﷺ تحت شجرة وأخذ أصحابه يبائعونه على الثّبات مهما كلف الأمر، وهدأ استنفار المسلمين بعودة عثمان^(٢)، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة النبي ﷺ. وقد تمّ الاتّفاق في هذه المفاوضات على عدّة شروط، منها:

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٧٠ - ٢٨٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣١٥.

- ١ - تعهد الطرفین بترك الحرب عشر سنين.
 - ٢ - يرجع محمد ﷺ بأصحابه إلى المدينة عامه هذا فلا يدخل مكة إلا في العام القادم، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ليس معه سوى سلاح الراكب والسيوف في القرب.
 - ٣ - لا يستكره أحد على ترك دينه، ويعبد المسلمون الله بمكة علانية.
 - ٤ - لا تعين قريش على محمد ﷺ وأصحابه بنفس ولا سلاح^(١).
- وقد اعترض بعض المسلمين على بنود الصلح متصورين أن النبي ﷺ قد تراجع أمام قريش، ولم يدركوا أن النبي ﷺ مسدد من الله تعالى، فردهم رسول الله ﷺ بقوله: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»^(٢).
- وقد كان هذا الصلح في الواقع فتحاً مبيناً للمسلمين؛ إذ انقلبت شروطه لصالح المسلمين بعد قليل، وفي طريق الرجوع الى المدينة نزلت آيات سورة الفتح لتؤكد البعد الحقيقي للصلح مع زعيمة الوثنية، وتبشر المسلمين بدخول مكة قريباً.
- وكان من أهم النتائج الإيجابية لصلح الحديبية:
- ١ - أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ودخول قبائل كثيرة فيه.
 - ٢ - أمن المسلمون جانب قريش فحوّلوا جهودهم لمواجهة اليهود وسائر المناوئين.
 - ٣ - مكّن الصلح النبي ﷺ من أن يرسل الملوك ورؤساء الدول لدعوتهم إلى الإسلام.
 - ٤ - مهد الصلح لفتح مكة - التي كانت أهم قلاع الوثنية حينذاك - في مراحل لاحقة.
- وانطلق النبي ﷺ برسائله السماوية خارج الجزيرة العربية، فبعث بكتبه ورساله الى زعماء الدول المجاورة، وتوقع النبي ﷺ أن يكون رد فعل بعض الدول هجوماً

(١) تفسير القمي ٢: ٣١٣، السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣١٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣١٦.

عسكرياً يقصد المدينة مستعيناً بما فيها من بقية جيوب المنافقين واليهود الذين حفل تاريخهم بالغدر والخيانة، وكانت خيبر حصناً قوياً ومركزاً كبيراً لليهود، فقرر النبي ﷺ أن يقضي على هذه القوة المتبقية، فجهّز بعد عودته من الحديبية جيشاً من ألف وستمائة مقاتل، مؤكّداً لهم أن لا يخرجوا في ابتغاء الغنيمة، وقال: «لا يخرجنّ معنا إلاّ راغب في الجهاد»^(١).

وامتنع اليهود في حصونهم، وطالت مدة الحصار وعانى المسلمون من الجوع^(٢)، وأعطى رسول الله رايته الى عدد من الصحابة، فلم يحققوا إلاّ الفرار، فلمّا بلغ الجهد بالمسلمين قال النبي ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كزار غير فزار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»، ودعا في اليوم التالي عليّاً وأعطاه الراية، فتمّ الفتح على يديه^(٣).

وما أن تمّ نصر الله في خيبر حتى قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على نصف محاصيل فدك، وأن يعيشوا تحت راية الحكم الإسلامي مطيعين مسالمين، فوافق رسول الله على ذلك، وبهذا أصبحت فدك ملكاً لرسول الله ﷺ خاصّة بحكم القرآن؛ لأنّها ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا سلاح^(٤)، وقد وهب رسول الله ﷺ فدكاً لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.

ومضى عام على صلح الحديبية، وأصبح من حقّ النبي ﷺ والمسلمين زيارة البيت الحرام، فنادى منادي النبي ﷺ أن يتجهّز المسلمون لأداء عمرة القضاء، فخرج معه ألفان من المسلمين لا يحملون سلاحاً إلاّ السيوف في أغمادها، ولكنّ النبي ﷺ احتاط من احتمال الغدر بأن جهّز مجموعة مسلّحة عند (مرّ الظهران)، ليكونوا القوة المستعدة للدفاع عند الطوارئ.

(١) الطبقات الكبرى ٢: ١٠٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ١٢٥ - ١٢٧، السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣٣٤.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٩: ٢٠٣.

وطاف النبي ﷺ حول البيت على راحلته التي كان يقودها عبدالله بن رواحة، وأمر المسلمين أن ينادوا بصوت عال: «لا إله إلا الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده».

فانصدعت قلوب المشركين رعباً، وتملكهم الغيظ من مظاهر النصر الإلهي للنبي ﷺ الذي خرج منهم طريداً قبل سبع سنين، وصعد بلال على ظهر الكعبة، وأعلن نداء التوحيد مؤذناً لصلاة الظهر، وتفرق المهاجرون في مكة يزورون دورهم التي غادروها في سبيل الله، ويلتقون بأهلهم وذويهم بعد فراق طويل. وأمضى المسلمون ثلاثة أيام في مكة، ثم غادروها بموجب الاتفاق الذي كان بينهم وبين قريش^(١).

الإسلام خارج الجزيرة

عزم النبي ﷺ على بسط الأمن في شمال الجزيرة العربية ودعوة أهلها إلى الإسلام، فأرسل مجموعة من المسلمين يدعون أهلها إلى الإسلام، فعدا عليهم أهل تلك المناطق وقتلوهم، فبعث النبي ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل، فكانت معركة (مؤتة) التي لم يوفق فيها المسلمون لإحراز النصر؛ إذ فوجئوا بالعدة والعدد الضخم لجيش الروم إذ بلغ عددهم مائتي ألف مقاتل، واستشهد في هذه المعركة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة^(٢).

وكان ردّ قريش بعد هذه المعركة أن انبعثت فيهم الجرأة على المسلمين وسعت لنقض صلح الحديبية، وعدت على قبيلة بني بكر الحليفة للنبي ﷺ، وقتلت عدداً من أفرادها وهم في ديارهم آمنين، فكان ذلك سبباً لفتح مكة، فأعلن النبي ﷺ النفير العام، وجهّز جيشاً قارب عدده عشرة آلاف رجل، وتحرك باتجاه مكة في العاشر من رمضان، ولما وصل النبي ﷺ إلى (مر الظهران) أمر المسلمين

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٢) السيرة النبوية ٤: ٣٧٥ - ٣٧٩.

أن ينتشروا في الصحراء ويوقد كلّ منهم ناراً، فأضاء الليل البهيم وظهر المسلمون جيشاً عظيماً تضيع أمامه كلّ قوى قريش، وارتعد أبو سفيان خوفاً حين علم بزحف النبي ﷺ بهذا الجيش لفتح مكة، ولم يجد بداً من اصطحاب العباس عمّ النبي ﷺ لأخذ الأمان من رسول الله ﷺ.

واستسلم من بقي من زعماء المشركين بعد استسلام أبي سفيان، ودخلت قوات الإسلام الظافرة مكة من جهاتها الأربع، تجلّلتها مظاهر العزّ والنصر، ودخل النبي ﷺ مطأطئاً رأسه تعظيماً لله تعالى، ورفض أن يدخل دار أحد من أهالي مكة، مع كثرة عروضهم له، واغتسل بعد استراحة قصيرة، وركب راحلته وكبّر، فكبّر المسلمون، فدوى الصوت في الجبال التي فرّ إليها بعض رؤوس الشرك، وجعل النبي ﷺ يطوف في البيت ويشير إلى كلّ صنم موجود حوله ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١)، فيسقط الصنم لوجهه^(٢).

ثم أمر النبي ﷺ عليّاً أن يجلس ليصعد على كتفه، ولكن لم يستطع عليّ ﷺ أن يحمل النبي ﷺ على كتفه ليكسر الأصنام فوق الكعبة، ولذا صعد عليّ ﷺ على كتف ابن عمّه ﷺ، وكسر الأصنام^(٣).

ثم طلب النبي ﷺ مفاتيح الكعبة، وفتح بابها ودخلها ومسح ما فيها من صور، ثم وقف على بابها يخطب بالجموع الحاشدة خطبة الفتح العظيم، وكان ممّا قال ﷺ: «يا معشر قريش، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب... يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: إذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم ارتقى بلال سطح الكعبة ليؤدّن لصلاة الظهر، فصلّى المسلمون بإمامة النبي ﷺ في المسجد الحرام أوّل صلاة بعد هذا الفتح^(٤).

(١) الإسراء ١٧: ٨١

(٢) المغازي للواقدي ٢: ٨٢٥ و ٨٣١ - ٨٣٢.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٣٥، تاريخ بغداد ١٣: ٣٠٤، ينابيع المودة للقندوزي ٢: ٣٠٣.

وخشي الأنصار أن لا يرجع الرسول ﷺ معهم الى المدينة، حين رأوا تفاعل النبي ﷺ مع أهل مكة، فعلم الرسول ما يدور بينهم، فالتفت إليهم قائلاً: «معاذ الله المحيا محياكم والمات ماتكم»، معلناً أن المدينة ستبقى عاصمة الإسلام^(٢).
ثم أقبل الناس يبايعونه، فبايعه الرجال، وتشفع عدد من المسلمين لدى النبي ﷺ ليعفو عمن أهدر دمه من المشركين، فعفا وصفح.
وأكبرت قريش جميع مواقف النبي ﷺ من مكة وأهلها من عطف وسماحة ورحمة، فمالت قلوبهم إليه، وأقبلوا على اعتناق الإسلام آمنين مطمئنين^(٣).
وأرسل النبي ﷺ سراياه الى أطراف مكة وما حولها لهدم ما تبقى من الأصنام. وأمضى النبي ﷺ خمسة عشر يوماً في مكة، فسمع أن قبيلتي هوازن وثقيف قد أعدتا العدة لمحاربة الإسلام، فخرج إليهم النبي ﷺ باثني عشر ألفاً من المقاتلين، إلا أن هوازن وثقيف كانت قد أعدت كميناً لطلائع جيش المسلمين وقامت بمباغتتها وأرغمتها على الفرار، مما أدى الى فرار باقي قوات المسلمين فرعاً من أسلحة العدو، فأمر النبي ﷺ عمه العباس أن يصعد على صخرة وينادي فلول الأنصار والمهاجرين المدبرة قائلاً: «يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله!».

وكان وعياً عاد بعد غفلة، وحماساً دب بعد فتور، فسارعوا بالعودة للدفاع عن الإسلام والنبي ﷺ، وأيدهم الله بالنصر، فولّت جموع الكفر منهزمة تاركة وراءها ستة آلاف أسير وغنائم كثيرة جداً^(٤).

وواصلت قوات المسلمين ملاحقتها للعدو حتى الطائف، فحاصرتهم بضعاً وعشرين يوماً يترامون بالنبل من خلف الجدران والبساتين، ثم عدل النبي ﷺ عن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٤١٢-٤١٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٨: ٧١-٧٢، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ٣٥١.

(٣) المغازي للواقدي ٢: ٨٤٤-٨٤٥.

(٤) الطبقات الكبرى ٢: ١٥١-١٥٢.

محاصرتهم لاعتبارات عديدة^(١)، وبحكمة بالغة ودراية بنفوس الناس مَنْ الرسول ﷺ بعفوه حتى على مالك بن عوف مشير هذه الحرب إن جاءه مسلماً، فقال ﷺ: «أخبروا مالكا إنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل»، وسرعان ما أسلم مالك^(٢).

وأصبحت الدولة الإسلامية كيئاً يُهاب جانبه، وكان على المسلمين الحفاظ على حدوده وأراضيه، حتى تبلغ الرسالة الإسلامية أرجاء الأرض، ووردت أخبار تؤكد استعداد الروم لغزو الجزيرة وإسقاط الدولة ومحق الدين الإسلامي، فاستنفر النبي ﷺ المسلمين استعداداً لحرب الروم، ولمّا بلغ عدد جيش المسلمين ثلاثين ألف مقاتل، استخلف النبي ﷺ الإمام علياً خشيةً من قيام المنافقين بعمل تخريبيّ في المدينة، فقال ﷺ: «يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك»^(٣).

وانطلق المسلمون في طريق وعر طويل، وكان يتخلف عنه في الطريق جماعة ممّن خرجوا معه من المدينة، فكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «دعوه، فإن يكن به خيرٌ فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»^(٤)، وحين مرّ الجيش على أطلال قوم صالح قال النبي ﷺ لأصحابه وهو يعظهم: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلّا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٥)، وللصعوبات التي أحاطت بهذه الغزوة من حيث الماء والغذاء والنفقة، فقد سمّي هذا الجيش بـ«جيش العُسرة».

ولم يجد المسلمون جيش الروم؛ إذ كان قد تفرّق جمعهم، فقرّر النبي ﷺ العودة إلى المدينة، بعد أن اتصل بزعماء المنطقة الشماليّة للجزيرة وعقد معهم

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٢٦٦، إمتاع الأسماع ٢: ٢٣ - ٢٥، سُبُل الهدى والرشاد ٥: ٣٣٨ و ٣٨٧.

(٢) المغازي للواقدي ٢: ٩٤٩.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ١٥٥ المستدرك للحاكم: ٣٣٧.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٥٢٣.

(٥) المصدر السابق ٤: ٥٢١ - ٥٢٢.

معاهدة عدم تعرض واعتداء بين الجانبين، وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل خوفاً من تعاون زعيمها مع الروم في هجوم آخر، وتمكّن المسلمون من أسر زعيمهم وحمل غنائم كثيرة^(١).

وفي طريق العودة حاولت مجموعة من المنافقين اغتيال النبي ﷺ بتنفيذ نفاقه عند مرورها في العقبة، ليطرحوه في قعر الوادي، فرأى النبي ﷺ في ضوء القمر فرساناً قد تلثموا ولحقوا به في حركة مريبة، فصاح بهم وأمر حذيفة بن اليمان أن يضرب وجوه رواحلهم؛ فتملكهم الرعب، وعرفوا أن النبي ﷺ قد علم بما أضمرته نفوسهم، فأسرعوا تاركين العقبة ليختلطوا بالناس ولا تنكشف هويّتهم، وطلب حذيفة من الرسول أن يبعث إليهم من يقتلهم بعد ما عرفهم من رواحلهم، ولكن رسول الرحمة عفا عنهم وأوكل أمرهم إلى الله تعالى^(٢).

أضحت سيطرة الإسلام على الجزيرة أمراً واضحاً، وبدأت كل قبائل الجزيرة تسمع نداء الإسلام بأذان صاغية، فأخذت الوفود تقدم إلى المدينة لتعلن إسلامها بين يدي رسول الله ﷺ حتى سُمّي ذلك العام بـ (عام الوفود)، وقد كانت حكمة الرسول ﷺ بالغة إذ أجلّ فتح الطائف يوم امتنعت عليه ثقيف، وهاهي اليوم ترسل وفدها لتعلن إسلامها بعد أن عاندت وكابرت وقتلت سيّداً من ساداتها حين جاءها مسلماً يدعوها إلى الدين الجديد.

وفي غمرة أفراح النبي ﷺ بنجاح الإسلام، مرض ابنه إبراهيم وقد دخل عامه الثاني، فأقبل النبي ﷺ وإبراهيم يجود بنفسه في حضن أمّه (ماريا) وقال: «يا إبراهيم إنا لن نغني عنك من الله شيئاً، إنا بك لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب».

وقد ظنّ بعض المسلمين أن كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم إنما كان من آيات الله لموته، فسارع النبي ﷺ لردّ هذا الزعم؛ خشية أن تتحوّل الخرافة إلى

(١) الطبقات الكبرى ٢: ١٦٦.

(٢) التبيان للطوسي ٥: ٢٦٠، المغازي للواقدي ٢: ١٤٢.

معتقد لدى الجاهلين. فقال ﷺ: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته»^(١).

تصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة

لم يبقَ في الجزيرة العربية على الشرك والوثنية سوى أفراد قلائل، وكان لابد من إعلان صريح حازم يُلغي كل مظاهر الشرك والوثنية، واختار النبي ﷺ يوم النحر ومنطقة منى^(٢) مكاناً لهذا الإعلان، وأرسل أبا بكر ليقرأ هناك مطلع سورة التوبة التي نزلت لهذا الغرض، وتضمنت بنود البراءة: أن لا يطوف في البيت الحرام عُريان، ولا يحجّ بعد هذا العام مشرك، وأنّ من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدّته، ومن لم يكن له عهد، فإلى أربعة أشهر، ثم يقتل من وُجد في دار الإسلام مشركاً.

ونزل الوحي الإلهي ليبلغ النبي مبدءاً مهماً نصّه: «أنّه لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك». فأمر النبي ﷺ عليّاً أن يركب ناقته العضباء ويلحق بأبي بكر ويأخذ منه البلاغ ويؤدّيه للناس^(٣)، وكان أثر الإعلان على المشركين أن قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين.

واجتمع زعماء وحكماء نصارى نجران يتدارسون أمر كتاب النبي ﷺ الذي يدعوهم فيه إلى الإسلام. وأرسلوا وفداً يقابل شخص النبي ﷺ ليطلع على حقيقة الأمر، فاستقبلهم النبي ودعاهم للإسلام، وخلصوا إلى أن يُباهلهم النبي ﷺ، وكان ذلك بأمر من الله تعالى، وأتفقوا على اليوم اللاحق موعداً.

وخرج إليهم رسول الله ﷺ وهو يحمل الحسين ويده الحسن وخلفه ابنته فاطمة وابن عمّه عليّ عليه السلام، امتثالاً لأمر الله تعالى، ولم يصحب سواهم أحداً من

(١) الطبقات الكبرى ١: ١٣٧.

(٢) العاشر من ذي الحجة عام (٩ هـ).

(٣) تفسير القمي ١: ٢٨٢، الإرشاد للمفيد ١: ٦٥، مسند أحمد ١: ١٥١، السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٥٤٣.

المسلمين؛ ليثبت للجميع صدق نبوته، وهنا قال أسقف نجران: «يا معشر النصارى، إنني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني»، ولكنهم مع ذلك لم يقبلوا الدخول في الإسلام وصالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يغزوهم ولا يردّهم عن دينهم، ويؤدّوا إليه في كل عام ألفي حلة وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك^(١)، ورُوي أن السيّد والعاقب من زعمائهم لم يلبثا إلا يسيراً حتى عادا إلى النبي ﷺ ليعلنا إسلامهما^(٢).

وبحلول شهر ذي القعدة من العام العاشر للهجرة، عزم النبي ﷺ على أداء فريضة الحج، فخرج معه ما يقارب مائة ألف مسلم، واصطحب النبي ﷺ معه كل نسائه وابنته الصديقة فاطمة الزهراء، وتخلف زوجها عليّ عليه السلام لمهمة بعثه بها رسول الله ﷺ إلى اليمن، ولكنه التحق بالنبي ﷺ في مكة بعد أن قفل راجعاً من اليمن وساق معه (٣٤) هدياً.

وقد سميت هذه الحجة بـ (حجة الوداع)؛ لأنّ الرسول ﷺ ودّع فيها المسلمين وأشار إلى دنوّ وفاته، وسميت بـ (حجة البلاغ)؛ لأنّه ﷺ قد بلغ فيها ما أنزل إليه من ربّه في شأن الخلافة من بعده.

وحينما أتمّ النبي ﷺ والمسلمون حجّهم، قرّر الرسول ﷺ أن يعود إلى المدينة، ولمّا بلغ الحجيج العظيم منطقة (راغب) قرب (غدير خم) نزل الوحي الإلهي بآية التبليغ الآمرة والمحذرة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٣).

وأصدر النبي ﷺ أوامر بأن تقف القوافل حتى يلتحق آخرها بأولها، في يوم قائظ، ليتلووا عليهم أمر السماء، وجمعت الرحال وصنع منها منبر صعد عليه

(١) مجمع البيان للطبرسي ٢: ٣٠٩، الطرائف لابن طاووس: ٤٢ - ٤٣، العمدة لابن البطريق: ١٨٩، تفسير التعلبي ٣: ٨٥، تفسير الرازي ٨: ٨٠، تفسير البيضاوي ٢: ٤٧.

(٢) مجمع البيان ٢: ٣١٠.

(٣) سورة المائدة ٥: ٦٧.

النبي ﷺ بعد أن صَلَّى في جموع المسلمين وألقى عليهم خطاباً بليغاً يسمعه كلٌّ من حضر، وأوصاهم بالتمسك بالثقلين: كتاب الله وعترة النبي ﷺ أهل بيته، ثم أخذ بيد عليّ عليه السلام فقال: «إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه - يقولها ثلاث مرات - ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم أمر أن تنصب خيمة لعليّ عليه السلام وأن يدخل عليه المسلمون فوجاً فوجاً ليسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس كلهم ذلك، وأمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه أن يعلن ذلك، وكان في مقدمة المهتئين أبو بكر وعمر، كلٌّ يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمست مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(١).

وأبدى النبي ﷺ اهتماماً كبيراً بالحدود الشمالية للدولة الإسلامية، فجهز جيشاً كبيراً ضمَّ كبار الصحابة ما خلا علياً وبعض المخلصين معه؛ لأنه أراد أن يخلو الجوَّ السياسي من أمور قد تعيق عملية انتقال السلطة إلى عليّ عليه السلام، وعقد لواءً وسلمه إلى أسامة بن زيد، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتكَ هذا الجيش».

ولكنَّ بعض العناصر الطامعة في السلطة، ولعلها كانت عارفة بالأهداف التي قصدها النبي ﷺ حاولت أن تؤخِّر حركة الجيش المجتمع في معسكر «الجرف». فغضب رسول الله ﷺ، وخرج معصوب الرأس وقد ثقل عليه المرض، ليحثَّ على خروج الجيش قائلاً: «أنفذوا جيش أسامة»^(٢) ويزيدهم إصراراً بقوله: «جهّزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه»^(٣).

(١) الإرشاد للمفيد ١: ١٧٤، البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٣٨٣-٣٨٦. وانظر العمدة لابن البطريق ١٠٤ و١٠٦ و٣٤٤

ح ١٤٠ و١٤١ و٦٦٧، تاريخ بغداد ٨: ٢٨٤، ترجمة حبشون بن موسى رقم ٤٣٩٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٣٢ -

٣٣٣، ترجمة عليّ عليه السلام رقم ٤٩٣٣، المناقب للخوارزمي: ١٥٤ - ١٥٦، ح ١٨٢ - ١٨٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ١٩٠، تاريخ مدينة دمشق ٢: ٥٤-٥٦.

(٣) الملل والنحل ١: ٢٣.

ولكن المتقاعسين وذوي الأطماع في الخلافة تمكّنوا من عرقلة مسيرة الجيش بحجة أن النبي ﷺ يحتضر، على الرغم من تأكيد الرسول التعجيل في المسير وعدم التردد في المهمة التي جعلها على عاتق جيش أسامة.

أيام الرسول ﷺ الأخيرة

وعلى الرغم من ثقل الحمى وألم المرض، خرج النبي ﷺ مستنداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس ليصلي بالناس، وليقطع بذلك الطريق على الذين خططوا لمصادرة الخلافة، والتفت النبي ﷺ بعد الصلاة الى الناس فقال: «أيها الناس سُعِرَت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما أتمسكون عليّ بشيء، إني لم أُحِلْ إلا ما أحل الله، ولم أُحرّم إلا ما حرّم الله»^(١).

واشتد مرض النبي ﷺ واجتمع الصحابة في داره ولحق بهم من تخلف عن جيش أسامة، فلامهم النبي ﷺ على تخلفهم واعتذروا بأعذار واهية، وحاول النبي ﷺ أن يصون الأمة من التردّي والسقوط، فقال لهم: «ابتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده»، فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجد وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله^(٢)، وهكذا وقع التنازع والاختلاف، وقالت النسوة من وراء الحجاب: إئتوا رسول الله بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صويحات يوسف، إذا مرض عصرتن أعينكن، وإذا صحّ أخذتن بعنقه، فقال رسول الله ﷺ: «هّن خير منكم»^(٣)، ثم قال ﷺ: «قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع».

ولم يصرّ نبي الرحمة على كتابة الكتاب بعد اختلافهم عنده؛ خوفاً من تماديهم في الإساءة وإنكارهم لما هو أكبر.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٥٣-٦٥٤.

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٣٧، صحيح مسلم ٥: ٧٦، شرح نهج البلاغة ٢: ٥٥، إمتاع الأسماع ٢: ١٣٢.

(٣) الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٤.

وأقبلت الزهراء عليها السلام تجرّ أذيال الحزن، وتتطّلّع إلى أبيها وهو على وشك الالتحاق برّبّه، فجلست عنده منكسرة القلب دامعة العين وهي تردد:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمّال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح النبي ﷺ عينيه وقال بصوت خافت: «يا بنية هذا قول عمّك أبي طالب، لا تقوليه ولكن قولي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

وكأنّ النبي ﷺ كان يريد بذلك أن يهيئ ابنته فاطمة عليها السلام لما سيجري من أحداث مؤسفة، فإن ذلك كان هو الأنسب لتلك من قول أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

وفي الساعة الأخيرة قال رسول الله ﷺ: «أدعولي أخي - وكان قد بعثه في حاجة - فدعوه له بعض صحابته، فلم يعبأ بهم، حتّى جاء عليّ عليه السلام فقال ﷺ: أدن منّي، فدنا عليّ عليه السلام فاستند إليه، فلم يزل يكلمه حتّى بدت عليه علامات الاحتضار^(٢)»، وتوفي رسول الله ﷺ وهو في حجر عليّ عليه السلام. كما قد صرح بذلك عليّ عليه السلام نفسه في إحدى خطبه الشهيرة^(٣).

ولم يكن حول النبي ﷺ في لحظاته الأخيرة إلا الإمام عليّ عليه السلام وبنو هاشم ونسأؤه، وقد علم الناس بوفاته من الضجيج والصراخ الذي علا من بيت الرسول ﷺ، وخفقت القلوب هلعة لرحيل أشرف خلق الله. وهاجت المدينة بسكّانها، وازدادت حيرة المجتمعين حول دار الرسول ﷺ، حينما تكلم عمر وهو يهدّد بالسيف قائلاً: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ قد مات، إنّّه والله ما مات ولكنّه قد ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران^(٤)، ولم يهدأ عمر إلّا بعد أن جاء أبو بكر من (السّنج) وكشف عن وجه رسول الله ﷺ وقال: «أيّها

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.

(٢) الإرشاد للمفيد: ١، ١٨٥، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ٢٦٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٧.

(٤) الطبقات الكبرى ٢: ٢٦٨.

الناس، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(١) فهدأت فورة عمر، وزعم أنه لم يلتفت إلى وجود مثل هذه الآية في القرآن^(٢).

وأُسرع أبو بكر وعمر مع بعض أصحابهما إلى سقيفة بني ساعدة، بعد أن عرفا أن اجتماعاً طارئاً عقد هناك فيما يخص أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ^(٣)، متناسين تنصيب النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب، ومتناسين بيعتهم إياه بالخلافة، وغير مدركين أن تصرفهم هذا يعد استخفافاً بحرمة رسول الله وجسده المسجى.

وانشغل الإمام علي عليه السلام وأهل بيته بتجهيز الرسول ﷺ، فقد غسله علي من دون أن ينزع قميصه، وأعاناه على ذلك العباس بن عبد المطلب وابنه الفضل، ثم وضعوا جسد الرسول ﷺ على سرير، وقال علي عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِمَامُنَا حَيًّا وَمَيِّتًا، فَلِيَدْخُلْ عَلَيْهِ فَوْجٌ بَعْدَ فَوْجٍ، فَيَصْلُوكَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِمَامٍ وَيَنْصَرِفُونَ»، وأول من صلى على النبي ﷺ علي عليه السلام وبنو هاشم، ثم صلت الأنصار من بعدهم^(٤).

ووقف علي عليه السلام حيال رسول الله ﷺ وهو يقول: «سَلامٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَنُصِّحَ لِأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتَّبِعُ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَتُبُّنَا بَعْدَهُ، وَاجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ»، فيقول الناس آمين^(٥).

وحفر قبراً للنبي ﷺ في الحجرة التي توفي فيها. ونزل علي عليه السلام في القبر، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ ووضع خده على التراب، ثم أهال عليه التراب، ولم يحضر دفن النبي والصلاة عليه أحد من الصحابة الذين ذهبوا إلى السقيفة^(٦). فسَلامٌ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ وَلَدْتَ وَيَوْمَ مِتَّ وَيَوْمَ تَبْعَثُ حَيًّا.

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ٢٦٨.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٣.

(٤) الإرشاد للمفيد ١: ١٨٧-١٨٨.

(٥) الطبقات الكبرى ٢: ٢٩١.

(٦) الإرشاد للمفيد ١: ١٨٨ - ١٨٩.

الفصل السادس

من تراث خاتم المرسلين ﷺ

نماذج من تراث سيد المرسلين ﷺ

١ - العقل والعلم :

لقد اهتم الرسول الأعظم ﷺ بالعقل أشد الاهتمام، فعرفه وبيّن وظيفته ودوره في الحياة، على مستوى التكليف والمسؤولية، وعلى مستوى العمل والجزاء، كما بيّن عوامل رشده وتكامله، فقال:

«إنّ العقل عقلاً من الجهل، والنفس مثل أخبث الدوابّ، فإن لم يعقل حارت، فالعقل عقلاً من الجهل، وإنّ الله خلق العقل، فقال له: أقبل فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال له الله تبارك وتعالى: وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك ولا أطوع منك، بك أبدي وأعيد، لك الثواب وعليك العقاب.

فتشعب من العقل الحلم، ومن الحلم العلم، ومن العلم الرشd، ومن الرشd العفاف، ومن العفاف الصيانة، ومن الصيانة الحياء، ومن الحياء الرزاة، ومن الرزاة المداومة على الخير، وكراهية الشر، ومن كراهية الشر طاعة الناصح.

فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير، ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع...»^(١).

واهتم الرسول الرائد ﷺ بالعلم والمعرفة، مبيّناً دور العلم في الحياة وقيّمته إذا ما قيس بسائر أنواع الكمال، فقال:

(١) راجع تمام الحديث في باب مواعظ النبيّ وحكمه. وروي أنّ شمعون بن لاوي المسيحي دخل على رسول الله وناقشه طويلاً ثم اعتنق الإسلام فقال: أخبرني عن العقل ماهو؟ وكيف هو؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعب، وصفه وصف لي طوائفه كلها، فقال الرسول: ... إنّ العقل عقال من الجهل، تحف العقول: ١٥-١٦.

«طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانّه، واقتبسوه من أهله، فإنّ تعليمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قرينة إلى الله تعالى؛ لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السّراء والضّرّاء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قادة، تُقتبس آثارهم، ويُتهدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلّتهم. بأجنتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه. إنّ العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف. يبلغ بالعبد منازل الأخيار، ومجالس الأبرار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة. الذكر فيه يُعدّل بالصيام، ومدارسته بالقيام. به يطاع الرب، وبه توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام. العلم إمام العمل والعمل تابعه. يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله منه لحظة.^(١)

وصفة العاقل أن يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمّن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق من فوقه في طلب البر. وإذا أراد أن يتكلم تدبّر، فإن كان خيراً تكلم فغنم، وإن كان شراً سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة انتهز بها. لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص، فتلك عشر خصال يُعرف بها العاقل.

وصفة الجاهل أن يظلم من خالطه، ويتعدّى على من هو دونه، ويتناول على من هو فوقه. كلامه بغير تدبّر، إن تكلم أثم، وإن سكت سها، وإن عرضت له فتنة سارع إليها فأردته، وإن رأى فضيلة أعرض عنها وأبطأ عنها. لا يخاف ذنوبه القديمة، ولا يرتدع فيما بقي من عمره من الذنوب. يتوانى عن البرّ ويبطئ عنه، غير مكترث لما فاتته من ذلك أو ضيّمه، فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الذي حُرِمَ العقل^(٢).

(١) أمالي للطوسي: ٤٨٨/ح ١٠٦٩، بحار الأنوار ١: ١٧١/ح ٢٤.

(٢) تحف العقول: ٢٨-٢٩ (ذكر مواعظ النبي ﷺ في العلم والعقل)، بحار الأنوار ١: ١٢٩/ح ١٢.

٢ - مصادر التشريع

لقد رسم خاتم الرسل ﷺ للناس جميعاً طريق السعادة الحقيقية وضمن لهم الوصول إليها فيما إذا التزموا بالتعليمات التي يبينها لهم، ويتلخص طريق السعادة عند الرسول ﷺ بالتمسك بأصلين أساسيين لا غنى بأحدهما عن الآخر وهما الثقلان، حيث قال:

«أيها الناس! إني فرطكم، وانتم واردون عليّ الحوض، ألا وإني سائلكم عن الثقلين، فانظروا: كيف تحلفوني فيهما؟ فإن اللطيف الخبير نبأني: أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه، ألا وإني قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم. أيها الناس! لا ألفينكم بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجرّ السيل الجرّار. ألا وإنّ عليّ بن أبي طالب أخي ووصيي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله»^(١).

القرآن ودوره المتميز

وأفصح النبي ﷺ ببلغ بيانه عن عظمة القرآن الكريم مبيّناً دوره في الحياة وقيمة التمسك التامّ به حيث خاطب عامّة البشرية قائلاً:

«أيها الناس! إنكم في دار هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، فقد رأيتم الليل والنهار، والشمس والقمر، يلبيان كل جديد، ويقربان كلّ بعيد، ويأتيان بكل وعد ووعد، فأعدّوا الجهاز لبعث المجاز. إنّها دار بلاء وابتلاء، وانقطاع وفناء، فإذا التبتست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وماحل مصدّق. من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، ومن جعله الدليل يدلّه على

(١) الإرشاد للمفيد ١: ١٨٠ (فصل في حجة الوداع)، بحار الأنوار ٢٢: ٤٦٥-٤٦٦ / ح ١٩.

السبيل. وهو كتاب فيه تفصيل، وبيان وتحصيل. هو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم الله، وباطنه علم الله تعالى، فظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم، وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليُجَلَّ جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينبج من عطب، ويتخلص من نشب؛ فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص، وقلة التربص»^(١).

أهل البيت عليهم السلام أركان الدين

وعرّف الرسول الخاتم صلوات الله عليه وآله الثقل الكبير - أي أهل بيت الرسالة: عليّ وبنوه الأحد عشر - بأنواع التعريف، وكان مما قاله في آخر خطبة خطبها:

«يا معشر المهاجرين والأنصار! ومن حضري في يومي هذا، وفي ساعتى هذه، من الجنّ والإنس فليبلغ شاهدكم الغائب: ألا قد خلفت فيكم كتاب الله. فيه النور، والهدى، والبيان، ما فرط الله فيه من شيء، حجة الله لي عليكم. وخلفت فيكم العلم الأكبر، علم الدين، ونور الهدى، وصيّي: عليّ بن أبي طالب، ألا وهو جبل الله، فاعتصموا به جميعاً، ولا تفرقوا عنه، ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾»^(٢).

أيها الناس! هذا عليّ بن أبي طالب، كنز الله، اليوم وما بعد اليوم، من أحبّه وتولّاه اليوم وما بعد اليوم، فقد أوفى بما عاهد عليه، وأدّى ما وجب عليه، ومن عاداه اليوم وما بعد اليوم، جاء يوم القيامة أعمى وأصمّ، لا حجة له عند الله.

أيها الناس! لا تأتوني غداً بالدنيا، تزفونها زفّاً، ويأتي أهل بيتي شعثناء غبراء، مقهورين مظلومين، تسيل دماؤهم أمامكم، وبيعات الضلالة والشورى للجهالة في رقابكم. ألا وإنّ

(١) الكافي ٢: ٥٩٨-٥٩٩ / ح ٣ (باب في تمثيل القرآن)، تفسير الصافي ١: ١٥ (المقدمة الأولى) وأورد الخطبة

الهندي بتفاوت في كنز العمال ٢: ٢٨٨-٢٨٩ / ح ٤٠٢٧ (باب في القرآن فضل فضائل القرآن).

(٢) آل عمران (٣): ١٠٣.

هذا الأمر له أصحاب وآيات، قد سّاهم الله في كتابه، وعرفّكم، وبلّغكم ما أرسلت به إليكم، ولكنّي أراكم قوماً تجهلون. لا ترجعنّ بعدي كفّاراً مرتدّين، متأولين للكتاب على غير معرفة، وتبتدعون السنّة بالهوى؛ لأنّ كل سنّة وحديث وكلام خالف القرآن فهو ردّ وباطل.

القرآن إمام هدى، وله قائد يهدي إليه، ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. وهو وليّ الأمر بعدي، ووارث علمي وحكمتي، وسريّ وعلايتي، وما ورّثه النّبّيون من قبلي، وأنا وارث ومورّث، فلا يكذبنكم أنفسكم.

أيّها الناس! الله الله في أهل بيتي؛ فإنّهم أركان الدين، ومصايح الظلم، ومعدن العلم؛ عليّ أخي، ووارثي، ووزير، وأميني، والقائم بأمر، والموفي بعهدي على سنّتي. أوّل الناس بي إيماناً، وآخرهم عهداً عند الموت، وأوسطهم لي لقاء يوم القيامة، فليبلغ شاهدكم غائبكم ألا ومن أمّ قوماً إمامة عمياء، وفي الأمة من هو أعلم، فقد كفر. أيّها الناس! ومن كانت له قبلي تبعّة فيا أنا، ومن كانت له عدة، فليأت فيها عليّ بن أبي طالب، فإنّه ضامن لذلك كلّ، حتى لا يبقى لأحد عليّ تباعة»^(١).

٣ - أصول العقيدة الإسلامية

الخالق لا يوصف

«إنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة به؟ جلّ عمّا يصفه الواصفون، ناء في قربه، وقريب في نأيه، كيف الكيفيّة فلا يقال له، كيف؟ وآين الآين فلا يقال له، أين؟ هو منقطع الكيفيّة والآينوّة، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعتة، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

(١) خصائص أمير المؤمنين للشريف الرضي: ٧٤-٧٥ (ذكر خطبته ﷺ بعد الصلاة)، بحار الأنوار ٢٢: ٢٨٦ -

٢٨٧ / ح ٣٠.

(٢) كفاية الأثر للخزاز القمي: ١٢ (ما جاء عن عبدالله بن عباس من النصوص)، بحار الأنوار ٣: ٣٠٣-٣٠٤ / ح ٤٠.

شروط التوحيد

«إذا قال العبد: «لا إله إلا الله» فينبغي أن يكون معه تصديق وتعظيم، وحلاوة وحرمة، فإذا قال: «لا إله إلا الله» ولم يكن معه تعظيم، فهو مبتدع. وإذا لم يكن معه حلاوة فهو مرء. وإذا لم يكن معه حرمة فهو فاسق»^(١).

رحمة الله

«إن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما مجتهد في العبادة والآخر مذنّب، فجعل يقول المجتهد: أقصر عما أنت فيه، فيقول: خلّني وربي، حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، قال: خلّني وربي، أبعث عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة. فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال للمذنّب: أدخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا رب. قال: اذهبوا به إلى النار»^(٢).

لا جبر ولا اختيار

«إن الله لا يطاع جبراً، ولا يعصى مغلوباً، ولم يهمل العباد من المملكة، ولكنه القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملّكهم إياه؛ فإنّ العباد إن ائتمروا بطاعة الله لم يكن منها مانع، ولا عنها صاّد، وإن عملوا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبينها فعل، وليس من شاء أن يحول بينك وبين شيء ولم يفعله، فأتاه الذي فعله كان هو الذي أدخله فيه»^(٣).

(١) كلمة الرسول الأعظم: ٣٠.

(٢) مسند أحمد ٢: ٣٢٣ (ما أسند عن أبي هريرة)، تهذيب الكمال للمزي ١٣: ٣٢٦ (ترجمة ضمضم بن جوس تحت رقم ٢٩٤١).

(٣) تحف العقول: ٣٧ (في قصارى كلماته ﷺ، بحار الأنوار ١٤٠: ٧٤/ ح ٢٢).

الخاتمية

«فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ. وَجَعَلْتَ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا. وَأُرْسَلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(١).

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَانِي

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قَرِيشًا. وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾»^(٢) «^(٣).

مثلي مثل الغيث

«إِنَّ مَثْلَ مَا بَعَثَنِي بِهِ رَبِّي مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثْلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْعُشْبَ وَالْكَلَأَ الْكَبِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّهَا هِيَ قِيَعَاتٌ، لَا تَمْسُكُ وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَهَّمَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَتَفَقَّهَ فِيهَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(٤).

(١) مسند أحمد ٤١٢: ٢ (ما أسند عن أبي هريرة)، صحيح مسلم ٢: ٦٤ (كتاب الصلاة، باب المساجد)، امتاع الأسماع ٣: ٣١٧ (باب أنه بُعث صلى الله عليه وآله بجوامع الكلم).

(٢) التوبة (٩): ١٢٨.

(٣) أمالي المفيد: ٢١٦ / ٢٩ (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ)، أمالي الطوسي: ٢٤٦ / ح ٣٤٠، بحار الأنوار ١٦: ٣٢٣ / ح ١٠، مسند أحمد ٤: ١٠٧ (ما أسند عن رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ)، صحيح مسلم ٧: ٥٨ (كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ) و لم يذكروا الآية في ذيل الرواية.

(٤) بحار الأنوار: ١٨٤/١، ح ١٠٠، مسند أحمد ٤: ٣٩٩ (حديث أبي موسى الأشعري)، صحيح مسلم ٧: ٦٣ (كتاب الفضائل، باب شفقة النبي ﷺ).

الإمام بعد رسول الله ﷺ

«يا عمار! إنه سيكون بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضاً، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني: علي بن أبي طالب، فإن سلك الناس كلهم وادياً، وسلك علي وادياً فاسلك وادي علي، وخل عن الناس.

يا عمار! إن علياً لا يردك عن هدى، ولا يدلك على ردى.

يا عمار! طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله»^(١).

«من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي، فكأنما جحد نبوتي، ونبوة الأنبياء قبلي»^(٢).

فضل علي عليه السلام

«لولا أنني أشفق أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلت فيك اليوم مقالاً، لا تمر بملاً منهم إلا أخذوا التراب من تحت قدميك»^(٣).

الأئمة بعد رسول الله ﷺ

«الأئمة بعدي من عترتي بعدد نقباء بني إسرائيل، وحواري عيسى، من أحبهم فهو مؤمن ومن أبغضهم فهو منافق، هم حجج الله في خلقه وأعلامه في بريته»^(٤).

أئمة الحق

«يا علي! أنت الإمام والخليفة بعدي، وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسن فالحسين أولى بالمؤمنين من

(١) مجمع البيان ٤/ ٤٥٣ (في تفسير سورة الأنعام)، بحار الأنوار ٢٨: ٦٨ / ح ٢٧.

(٢) الطرائف لابن طاووس ٢: ٣٥ / ح ٢٤، الصراط المستقيم ٢: ٢٧، البحار ٢٧: ٦٠ / ح ٢١.

(٣) الإرشاد ١ / ١٦٥، قاله لأمر المؤمنين، بعد ما فتح الله على يديه في غزوة ذات السلاسل.

(٤) كفاية الأثر للخزاز القمي: ١٦٦، أبو المفضل الشيباني عن أحمد بن عامر بن سليمان الطائي عن محمد بن عمران الكوفي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن صفوان بن يحيى عن إسحاق بن عمار عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أخيه الحسن بن علي عليه السلام، قال: رسول الله ﷺ: ...

النبي ﷺ يبشر بالمهدي عليه السلام

وجاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: دفع النبي ﷺ الراية يوم خيبر الى عليّ ففتح الله على يده ثمّ في غدير خم أعلم الناس أنه مولى كل مؤمن ومؤمنة. وساق الحديث وذكر شيئاً من فضائل عليّ وفاطمة والحسن والحسين الى أن قال: «أخبرني جبرئيل أنهم يُظلمون بعدي وأنّ ذلك الظلم يبقى حتى إذا قام قائمهم وعلت كلمتهم واجتمعت الأمة على محبتهم وكان الشانئ لهم قليلاً والكاره لهم ذليلاً وكثر المادح لهم وذلك حين تغيّر البلاد وضعف العباد واليأس من الفرج فعند ذلك يظهر القائم المهدي

(١) كفاية الأثر للخزاز القمي: ١٩٥ - ١٩٦ (ما جاء عن فاطمة عليها السلام)، عن الحسين بن علي، عن هارون بن موسى عن محمد بن إسماعيل الفزاري، عن عبد الله بن الصالح كاتب الليث، عن رشد بن سعد، عن الحسين بن يوسف الأنصاري، عن سهل بن سعد الأنصاري قال: سئلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ عن الأئمة فقالت: كان رسول الله ﷺ يقول لعلي: ... وروى نصيب آخري عن جابر الأنصاري فراجع.

(٢) راجع مسند أحمد ٣: ٢٨ (ما أسند عن أبي سعيد).

من ولدي يقوم يظهر الله الحقّ بهم ويحمد الباطل بأسيا فهم - الى أن قال - : معاشر الناس أبشروا بالفرج فإن وعد الله حق لا يخلف ، وقضائه لا يرد وهو الحكيم الخبير وأنّ فتح الله قريب»^(١) .

وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(٢) .

وجاء عن حذيفة بن اليمان أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ . فذكر لنا ما هو كائن الى يوم القيامة ثم قال: «لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله عزّ وجلّ ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً من ولدي اسمه اسمي، فقام سلمان وقال: يا رسول الله إنه من أي ولدك؟ قال: هو من ولدي هذا وضرب بيده على الحسين»^(٣) .

٤ - أصول التشريع الإسلامي في تراث الرسول الأعظم ﷺ^(٤)

الف - خصائص الإسلام

١ - الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه

٢ - الإسلام يُجِبُّ ما قبله .

٣ - الناس في سعة ما لم يعلموا .

٤ - رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

٥ - رفع القلم عن ثلاثة : الصبي والمجنون والنائم .

(١) أمالي الطوسي: ٣٥١-٣٥٢/ ح ٧٢٦، بحار الأنوار ٢٨: ٤٥-٤٦/ ح ٨

(٢) الطرائف لابن طاووس: ١٧٥-١٧٦/ ح ٢٧٣، الصراط المستقيم ٢: ٢٤٢ (باب ١١)، العمدة لابن البطريق: ٤٣٣/

ح ٩٠٩ (فصل في ذكر ما جاء في المهدي ﷺ).

(٣) البيان في أخبار صاحب الزمان للحافظ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد النوفلي: ١٢٩ .

(٤) تراجع هذه النصوص وغيرها في أعيان الشيعة: ١ / ٣٠٣-٣٠٦ (ترجمة النبي ﷺ).

ب - العلم ومسؤولية العلماء

- ١ - من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية .
- ٢ - من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار .
- ٣ - من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار .
- ٤ - من أفتى بما لا يعلم لعنته ملائكة السماء والأرض .
- ٥ - كل مفت ضامن .
- ٦ - كل بدعة ضلالة وكل ضلالة سببها الى النار .
- ٧ - من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .
- ٨ - تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنها نصف العلم .
- ٩ - إذا أتاكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط .
- ١٠ - إذا ظهرت البدعة فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله .

ج - قواعد عامة للسلوك الإسلامي

- ١ - لا رهبانية في الإسلام .
- ٢ - لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
- ٣ - لا دين لمن لا تقية له .
- ٤ - لا خير في النوافل إذا أضرت بالفرائض .
- ٥ - في كل أمر مشكل القرعة .
- ٦ - إنما الأعمال بالنيات .
- ٧ - نية المرء أبلغ من عمله .
- ٨ - أفضل الأعمال أحمرها .
- ٩ - من دان بدين قوم لزمه حكمهم .

١٠ - من سنَّ سُنَّةَ حسنة كان له أجرها وأجر العامل بها إلى يوم القيامة ومن سنَّ سُنَّةَ سيئة كان عليه وزرها ووزر العامل بها إلى يوم القيامة .

د - خطوط عامة في القضاء والمحاكمات

١ - إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران .

٢ - إقرار العقلاء على أنفسهم جائز .

٣ - البينة على المدعي واليمين على من أنكر .

٤ - لا يمين إلا بالله .

٥ - ادروا الحدود بالشبهات .

٦ - من قتل دون ماله فهو شهيد .

٧ - على اليد ما أخذت حتى تؤدِّي .

٨ - جناية العجاوات جبار .

٩ - لا يؤاخذ الرجل بجريرة ابنه، ولا ابن بجريرة أبيه .

١٠ - الناس مسلطون على أموالهم .

هـ - العبادات في خطوطها العريضة

١ - إنَّ عمود الدين الصلاة .

٢ - خذوا عني مناسككم .

٣ - صلُّوا كما رأيتموني أُصلي .

٤ - زكَّوا أموالكم تقبل صلاتكم .

٥ - زكاة الفطرة على كل ذكر واثني .

٦ - جعلت لي الأرض مسجداً وتراها طهوراً .

٧ - جنبوا مساجدكم بيعكم وشراءكم وخصوماتكم .

٨ - سياحة أمتي الصوم .

٩ - كل معروف صدقة .

١٠ - أفضل الجهاد كلمة حق بين يدي سلطان جائر .

و - من أصول النظام العائلي الإسلامي

١ - النكاح سُنِّي فمن رغب عن سُنِّي فليس مَنِّي .

٢ - تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة .

٣ - تزوجوا ولا تطلقوا فإنَّ الطلاق يهتَزُّ منه عرش الرحمن .

٤ - تخيروا لنطفكم، فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم .

٥ - الولد للفراش وللعاهر الحجر .

٦ - جهاد المرأة حسن التَّبَعْل لزوجها .

٧ - ليس على النساء جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا إقامة ولا عيادة مريض ولا هرولة

بين الصفا والمروة ولا جهاد ولا استلام الحجر ولا تولي القضاء ولا الحلق .

٨ - المتلاعنان لا يجتمعان أبداً .

٩ - قذف المحصنة يحبط عمل مائة سخيئة .

١٠ - الرضاع ما أنبت اللحم وشدَّ العظم .

١١ - علّموا أولادكم السباحة والرمي .

١٢ - من كان عنده صبيّ فليتصابَّ له .

ز - نقاط مضيئة من النظام الاقتصادي الإسلامي

١ - العبادة سبعة أجزاء أفضلها طلب الحلال .

٢ - الفقه ثم المتجر .

٣ - ملعون من ألقى كلّهُ على الناس .

٤ - ابدأ بمن تعول .

٥ - اعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه .

- ٦ - على كلّ ذي كبد حرّى أجر .
- ٧ - المسلمون عند شروطهم .
- ٨ - المسلم أحقّ بماله أينما وجدته .
- ٩ - الوقوف على حسب ما يوقفها أهلها .
- ١٠ - لا يجلّ مال امرئ مسلم إلّا عن طيب نفسه منه .
- ١١ - الكفن ثمّ الدّين ثمّ الوصية ثمّ الميراث .
- ١٢ - الصلح جائز بين المسلمين إلّا ما أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً .
- ١٣ - مطل المוסر المسلم ظلم للمسلم .
- ١٤ - البيعان بالخيار ما داما في المجلس .
- ١٥ - شرّ المكاسب الرّبا .
- ١٦ - لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب .

ح - من أصول التعايش الاجتماعي

- ١ - قتال المؤمن كفر وأكل لحمه معصية .
- ٢ - حرمة المؤمن ميتاً كحرمة حيّاً .
- ٣ - كرامة الميت تعجيله في التجهيز .
- ٤ - المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .
- ٥ - الولاء للعتق .
- ٦ - الولاء لحمة كلحمّة النسب .
- ٧ - سباب المؤمن فسوق .
- ٨ - كلّ مسكر حرام .
- ٩ - ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام .
- ١٠ - عذاب القبر من النسيمة والغيبة والكذب .
- ١١ - لا غيبة لفاسق .
- ١٢ - حرّم لباس الذهب على ذكور أمتي وحلّ لإنائهم .

- ٥ - من جوامع الكلم في تراث الرسول الأعظم ﷺ
- ١ - إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .
- ٢ - أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا .
- ٣ - أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ .
- ٤ - إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا فَلْيَتَّقِنَهُ .
- ٥ - الْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ فِي الصَّبْرِ وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ .
- ٦ - اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُورِكُمْ بِالكَتْمَانِ .
- ٧ - الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الرِّزْقَ وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ .
- ٨ - الْأَيْدِي ثَلَاثَةٌ : سَائِلَةٌ وَمَنْفِقَةٌ وَمُمْسِكَةٌ ، فَخَيْرُ الْأَيْدِي الْمَنْفِقَةُ .
- ٩ - إِذَا سَادَ الْقَوْمُ فَاسِقُهُمْ وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَذْهَمَ وَأَكْرَمُ الرَّجُلِ الْفَاسِقُ فَلْيَنْتَظِرْ
البلاء .
- ١٠ - أَعْجَلُ الشَّرِّ عَقُوبَةُ الْبَغْيِ .
- ١١ - أَلَا إِنَّ شَرَّ أُمَّتِي الَّذِينَ يَكْرُمُونَ مَخَافَةَ شَرِّهِمْ . أَلَا وَمَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتَّقَاءُ شَرِّهِ
فليس مني .
- ١٢ - بِالْبَرِّ يَسْتَعْبِدُ الْحَرُّ .
- ١٣ - بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا .
- ١٤ - بَادِرْ بِأَرْبَعٍ قَبْلَ أَرْبَعٍ : شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ
فَقْرِكَ وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ .
- ١٥ - ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ
قَطَعَكَ وَتَحْلُمَ عَلَى مَنْ جَهِلَ عَلَيْكَ .
- ١٦ - ثَلَاثٌ تَحْرِقُ الْحَجَبَ وَتُنْتَهِي إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ : صَرِيرُ أَقْلَامِ الْعُلَمَاءِ وَوُطْءُ
الْمُجَاهِدِينَ وَصَوْتُ مَغَازِلِ الْمُحْصَنَاتِ .
- ١٧ - ثَلَاثٌ تَقْسِي الْقَلْبَ : اسْتِمَاعُ اللَّهْوِ ، وَطَلْبُ الصَّيْدِ وَاتِّبَانُ بَابِ السُّلْطَانِ .

- ١٨ - جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها .
- ١٩ - حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .
- ٢٠ - حبّ الدنيا رأس كل خطيئة .
- ٢١ - الحكمة ضالة المؤمن .
- ٢٢ - رأس الحكمة مخافة الله .
- ٢٣ - حُفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات .
- ٢٤ - حسّنوا أخلاقكم والطفوا بجيرانكم وكرموا نساءكم تدخلوا الجنة بغير حساب .
- ٢٥ - داووا أمراضكم بالصدقة .
- ٢٦ - رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك حقّ .
- ٢٧ - سادة الناس في الدنيا الأسخياء، سادة الناس في الآخرة الأتقياء .
- ٢٨ - السعيد من وعظ بغيره .
- ٢٩ - شرّ الناس من باع آخرته بدنياه ، وشرّ من ذلك من باع آخرته بدنياه غيره .
- ٣٠ - طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .
- ٣١ - عليك بالجماعة فإن الذئب يأخذ القاصية .
- ٣٢ - عليكم بالاعتصام فما افتقر قوم اقتصدوا .
- ٣٣ - عجبت لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء ، كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار؟!
- ٣٤ - عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس .
- ٣٥ - عُذ من لا يعودك، واهد لمن لم يهد إليك .
- ٣٦ - الغنيّ غنيّ النفس .

٦ - نماذج من أدعيته الشريفة ﷺ

ألف - من دعائه في شهر رمضان بعد المكتوبة : «اللهم أدخل على أهل القبور السرور، اللهم أغن كل فقير، اللهم أشبع كل جائع، اللهم اكس كل عريان، اللهم اقض دين كل مدين، اللهم فرج عن كل مكروب، اللهم رد كل غريب، اللهم فك كل أسير، اللهم أصلح كل فاسد من أمور المسلمين، اللهم اشف كل مريض، اللهم سد فقرنا بغناك، اللهم غير سوء حالنا بحسن حالك، اللهم اقض عنا الدين وأغننا من الفقر إنك على كل شيء قدير».

ب - دعاؤه ﷺ يوم بدر: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من كرب يضعف عنه الفؤاد وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه القريب، ويشمت به العدو، وتعييني فيه الأمور، أنزلته بك وشكوته إليك راغباً فيه إليك عمّن سواك ففرجته وكشفته عني وكفيتني، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حاجة، ومنتهى كل رغبة، فلك الحمد كثيراً ولك المنّ فاضلاً».

ج - دعاؤه ﷺ يوم الأحزاب : «يا صريخ المكروبين ويا مجيب دعوة المضطرين اكشف عني همّي وغمي وكربي فإنك تعلم حالي وحال أصحابي فاكفني هول عدوي فإنه لا يكشف ذلك غيرك».

د - دعاء علمه ﷺ لبعض أصحابه يتقي به شرّ العدو :

وذكر ابن طاووس في مهج الدعوات هذا الدعاء كما يلي:

«يا سامع كل صوت، يا محيي النفوس بعد الموت، يا من لا يعجل لأنه لا يخاف الفوت، يا دائم الثبات، يا مخرج النبات يا محيي العظام الرميم الدارسات. بسم الله، اعتصمت بالله وتوكلت على الحي الذي لا يموت، ورميت كل من يؤذيني بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

هـ- دعاؤه ﷺ لقضاء الدين علّمه عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«اللهم اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك».

و- دعاؤه ﷺ إذا وضعت المائدة بين يديه :

كان رسول الله ﷺ إذا وضعت المائدة بين يديه قال:

«سبحانك اللهم ما أحسن ما تتلينا، سبحانك اللهم ما أكثر ما تعطينا، سبحانك

اللهم ما أكثر ما تعافينا، اللهم أوسع علينا وعلى فقراء المؤمنين والمسلمين»^(١).

* * *

(١) أعيان الشيعة : ١ / ٣٠٦.

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

الفصل الأوّل انطباعات عن شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

عاصر الإمام عليه السلام حركة الوحي الرسالي منذ بدايتها حتى انقطاع الوحي برحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له مواقف مشرّفة يغبط عليها، سواء في دفاعه عن الرسول، أو دفاعه عن الرسالة طيلة ثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد المتواصل والدفاع المستميت عن قيم الإسلام الحنيف، وقد انعكست مواقفه وإنجازاته وفضائله في آيات الذكر الحكيم ونصوص الحديث النبوي الشريف.

ونشير فيما يلي الى بعض الآيات التي صرّح المحدثون بنزولها في حقّه:

١ - عن ابن عباس: أنّ عليّاً عليه السلام تصدّق بخاتمه وهو راعع، فقال النبي صلى الله عليه وآله للسائل: مَنْ أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراعع، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ^(١) ^(٢).

٢ و ٣ - وقد اعتبرت آية التطهير ^(١) عليّاً عليه السلام من أهل بيت الوحي المطهّرين من كلّ رجس، واعتبرته آية المباهلة ^(٢) نفس النبي صلى الله عليه وآله.

(١) سورة المائدة ٥: ٥٥.

(٢) الطرائف لابن طاووس: ٤٩، العمدة لابن البطريق: ١٢٣، الدر المنثور للسيوطي: ٢: ٢٩٣.

وعقد أرباب الصحاح وغيرهم من المحدثين فصولاً خاصة بفضائل عليّ عليه السلام في أحاديث رسول الله ﷺ، ولم يسجل لأحد من الفضائل ما سجل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال عمر بن الخطاب أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل عليّ، يهدي صاحبه إلى الهدى ويرده عن الردى»^(٣).

وقيل لعليّ عليه السلام: ما لك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثاً؟ فقال: «إنّي كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكّت ابتدأني»^(٤).

وعن أبي ليلى الغفاري أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون من بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا عليّ بن أبي طالب فإنّه أول من آمن بي، وأول من يضافحني يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمة، وهو يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين»^(٥).

مظاهر من شخصية الإمام عليّ عليه السلام

تحدّر عليّ عليه السلام من أطيب الأعراق، فوالده أبو طالب عظيم مشيخة قريش، وجدّه عبدالمطلب أمير مكة وسيد البطحاء، واختصّ بقرابته القرية من الرسول ﷺ، فكان ابن عمّه وزوج ابنته، لازمه فتىً يافعاً، حتى تخلّق بأخلاقه واتّسم بصفاته، فكان من أफقه أصحابه وأقضاهم وأدقّهم في الفتيا وأقربهم إلى الصواب، حتى قال فيه عمر: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن^(٦).

واشتهر عليّ عليه السلام بتقواه التي كانت علّة الكثير من تصرفاته مع نفسه وذويه والناس، وأمّا عبادته فإنّها لم تكن شيئاً من سلبية الخائف أو التاجر الراغب، وإنّما

(١) راجع سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٢) راجع سورة آل عمران ٣: ٦١.

(٣) ذخائر العقبى للطبري: ٦١، المعجم الصغير للطبراني ١: ٢٤١، مجمع الزوائد ١: ١٢١.

(٤) الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، أنساب الأشراف للبلاذري: ٩٨ ح ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٧٩.

(٥) بشارة المصطفى: ٢٤١ أسد الغابة ٥: ٢٨٧، الإصابة لابن حجر ٧: ٢٩٤، بحار الأنوار ٣٨: ٢١٧.

(٦) الإرشاد للمفيد ١: ٢٠٤، أنساب الأشراف للبلاذري: ١٠٠ ح ٢٩، المناقب للخوارزمي: ٩٧ ح ٩٨.

كانت تقواه دستوراً كاملاً لتقوى الأحرار، عبادته عبادة عظماء النفوس، قال عليه السلام: «وإنَّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وأنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار»^(١).

وكان عليه السلام صادقاً في زهده، كما كان صادقاً في كلِّ ما نتج عن يمينه أو بدَر من قلبه ولسانه، زهد في لذات الدنيا، ومناصب الدولة، وكلِّ ما يطمح لبلوغه الآخرون، وكان يسكن مع أولاده في بيت متواضع، يأكل الشعير الذي تطحنه امرأته بيديها، فيما كان عماله يعيشون على أطايب الشام وخيرات مصر ونعيم العراق، وأبى أن يسكن قصر الإمارة الذي كان معداً له بالكوفة لئلاَّ يترفع على مساكن الفقراء حوله، وكان يقول: «أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟!»^(٢)

وكان علي عليه السلام مثلاً في الشهامة والإباء والترفع، يكره أن أحداً من الناس بالأذى وإن آذاه، وهذه الروح هي التي ارتفعت به عن مقابلة الأمويين بالسباب يوم كانوا يرشقونه به، بل إنه منع أصحابه أن ينالوا الأمويين بالشتيمة المقذعة حتى قال لهم: «إنِّي أكره لكم أن تكونوا سبّايين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم؛ كان أصوب في القول...»^(٣).

وكان عليه السلام مع قوّته البالغة يتورّع عن البغي أيّاً كان الظرف، وكان يأنف من القتال إلا إذا حُمِّل عليه حملاً، ولم يقارع بطلاً إلا بعد أن يحاوره لينصحه ويهديه^(٤). وطبيعة التورّع عن البغي أصل من أصول نفسيّة علي عليه السلام وأخلاقه، وكان يقول: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلتُ، وإنَّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة»^(٥).

(١) نهج البلاغة ٤: ٥٣ الحكمة ٢٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ٣: ٧٢ (الكتاب ٤٥ إلى عثمان بن حنيف).

(٣) شرح نهج البلاغة ٢: ١٥٠ الخطبة ٢٠٦.

(٤) المصدر السابق ١: ٢٠ - ٢١.

(٥) شرح نهج البلاغة ٢: ٢١٨ الخطبة ٢٢٤.

ومن أصول أخلاقه عليه السلام أنه كان يعتمد البساطة ويكره التكلف. وكان يقول: «شر الإخوان من تُكَلِّف له»^(١).

وكان عليه السلام كريماً لا حدود لكرمه، وكان في كرمه يعبر عن جملة المروءات، فبينما كان يزجر ابنته إذ استعارت من بيت المال قلادة تتزين بها في أحد الأعياد. كان يسقي بيده النخل لقوم من يهود المدينة، فيتناول أجرته فيهبها لأهل الفاقة والعوز، ويشترى بها الأرقاء ويحررهم في الحال. وقد شهد معاوية على كرم علي عليه السلام قائلاً: لو ملك علي بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفذ تبره قبل تبنه^(٢).

وأما عدله عليه السلام، فليس غريباً أن يكون عليّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونه، وأخبار عليّ في عدله تراث يشرف المكانة الإنسانية والروح الإنساني، وكان عليه السلام يأبى الترفع على رعاياه في المخاصمة والمقاضاة، بل إنه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجبت لتشبعه بروح العدالة، وإن وصايا الإمام ورسائله للولاة تدور حول محور واحد هو العدل.

وأما علمه ومعارفه، فقد قال عنه ابن أبي الحديد: «وما أقول في رجل تُعزى إليه كل فضيلة، وتنتمي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة... وإن أشرف العلوم - وهو العلم الإلهي - من كلامه عليه السلام أقتبس عنه نقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ... وعلم الفقه هو أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه... وعلم تفسير القرآن عنه أخذ ومنه فُرع... وعلم النحو والعربية قد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله...

وأما الفصاحة، فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين)، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة... ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لا يُجارى في الفصاحة ولا يُبارى في البلاغة...

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ١١٠ الحكمة ٤٧٩.

(٢) الإمامة والسياسة للدينوري ١: ١٠١، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢، كشف الغمّة ٢: ٤٨.

وما أقول في رجل تحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنبوة، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة... وما أقول في رجل أحبّ كلُّ واحد أن يتكثّر به، وودّ كلُّ أحد أن يتجمل ويتحسنّ بالانتساب إليه .

وما أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى، لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلّا السابق لكلّ خير محمد رسول الله ﷺ^(١) !

* * *

(١) من مقدمة ابن أبي الحديد لشرح نهج البلاغة ١: ١٦ - ٣٠ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

الفصل الثاني

أسرة الإمام عليؑ

هو الإمام أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف.

جدّه عبدالمطلب شعبة الحمد، وعنده يجتمع نسبه بنسب النبي ﷺ، وكان مؤمناً بالله تعالى، كما كان يعلم بأنّ محمداً سيكون نبياً^(١).

ولمّا حضرت عبدالمطلب الوفاة دعا ابنه أبا طالب، فقال له: يا بُني، قد علمت شدة حبي لمحمد ﷺ ووجدي به، أنظر كيف تحفظني فيه، فقال أبو طالب: يا أبه، لا توصني بمحمد، فإنه ابني وابن أخي^(٢).

ووالده أبو طالب ﷺ ولد بمكة قبل ولادة النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة، وانتهت إليه بعد أبيه عبدالمطلب الزعامة المطلقة لقريش، وكان يروي الماء لوفود مكة كافة؛ لأنّ السقاية كانت له، ورفض عبادة الأصنام، فوحّد الله سبحانه، ومنع نكاح المحارم، وقتل المؤودة، والزنا، وشرب الخمر، وطواف العُرة في بيت الله الحرام.

وبعد وفاة عبدالمطلب؛ تكفل أبو طالب برعاية رسول الله ﷺ فكان يحبه حباً جماً ويفضله على أولاده، وروي أنّ أبا طالب دعا بني عبدالمطلب فقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ﷺ وما اتبعتم أمره، فاتبعوه وأعينوه ترشدوا^(٣).

(١) الطبقات الكبرى ١: ١١٨.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ١: ٦٢، بحار الأنوار ٣: ٨٦.

وقد ثبت أن أبا طالب كان موحدًا مؤمنًا بالله ومعتقدًا بالإسلام، ولكنه أخفى إيمانه ليتمكن من حماية رسول الله ﷺ ببقائه على اتصال بقريش، ليطلع على مكائدهم ومؤامراتهم، فكان يعيش حالة التقية، وكان مثله كأصحاب الكهف في قومهم، وهو ممن آتاهم الله أجرهم مرتين؛ لإيمانه وتقيته^(٢).

وأما والدة الإمام علي عليه السلام فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، تجتمع هي وأبو طالب في هاشم، أسلمت وهاجرت مع النبي ﷺ، وكانت من السابقات إلى الإسلام وبمنزلة الأم للنبي ﷺ، وحينما توفيت، غمضها رسول الله، وألبسها قميصه بعد غسلها، واضطجع في قبرها قبل دفنها وقال ﷺ: «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر، إنها كانت من أحسن خلق الله صنعا إليّ بعد أبي طالب، رضي الله عنهما ورحمهما»^(٣).

علي عليه السلام منذ الولادة حتى البعثة

ولد الإمام علي عليه السلام بمكة المشرفة داخل البيت الحرام وفي جوف الكعبة في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، ولم يولد في بيت الله الحرام أحد قبله، وهي فضيلة خصه الله تعالى بها؛ إجلالاً له، وإعلاءً لمرتبه.

روي عن يزيد بن قعنب أنه قال: كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب وفريق من بني عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق، فقالت: ياربّ إنني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنني مصدقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي في بطني، إلا ما يسّر عليّ ولادتي.

(١) الطبقات الكبرى ١: ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٥ / ٧٢، منية الطالب للطبسي، وأبو طالب مؤمن قريش للشيخ الخيزي.

(٣) فرائد السمطين ١: ٣٧٩، الفصول المهمة لابن الصبّاغ: ٣١.

قال يزيد: فرأيت البيت قد انشقَّ عن ظهره، ودخلت فاطمة فيه، وغابت عن أبصارنا، وعاد إلى حاله والتزق الحائط، فرمنا أن يفتح لنا قفل الباب، فلم يفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من أمر الله عزَّ وجلَّ، ثم خرجت في اليوم الرابع وعلى يدها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام^(١).

وأسرع البشير إلى أبي طالب وأهل بيته، فأقبلوا مسرعين والبشر يعلو وجوههم، وتقدم من بينهم محمد المصطفى ﷺ فضمه إلى صدره، وحمله إلى بيت أبي طالب - فقد كان الرسول في تلك الفترة يعيش مع خديجة في دار عمه - وانقذ في ذهن أبي طالب أن يسمي وليده علياً، وأقام وليمةً على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام^(٢).

وكان من نعم الله عزَّ وجلَّ على علي عليه السلام أن قریشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، فقال النبي ﷺ لعمه العباس: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفف عنه من عياله». وحينما عرضا الأمر على أبي طالب قال: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ماشئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً عليه السلام فضمه إليه، وكان عمره يومئذ ستة أعوام، وأخذ العباس جعفر^(٣)، وقد قال رسول الله ﷺ: «قد اخترت من اختاره الله لي عليكم علياً»^(٤).

علي عليه السلام من البعثة إلى الهجرة

إنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام الذي تربى في حجر الرسول الطاهر الموحَّد، لم يسجد لصنم قطٍّ ولم يشرك بالله طرفة عين، وعندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ كان

(١) أمالي الصدوق: ١٩٤ - ١٩٥، أمالي الطوسي: ٧٠٦، روضة الواعظين للنيسابوري: ٧٦ - ٧٧.

(٢) بحار الأنوار ٣٥: ١٨.

(٣) علل الشرائع للصدوق ١: ١٦٩، السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٦٢ الكامل في التاريخ ٢: ٥٨، المستدرک علی الصحيحین ٣: ٥٧٦.

(٤) شرح نهج البلاغة ١: ١٥ نقلاً عن البلاذري والإصفهاني.

عليّ عليه السلام الى جانبه، وكان أوّل من صدع بالإيمان برسالته، وقد شهدت بذلك عامّة مصادر التاريخ عند المسلمين.

قال أنس بن مالك: أنزلت النبوة على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء^(١).

وروي عن سلمان الفارسي: أوّل هذه الأمّة وروداً على نبيّها صلى الله عليه وآله الحوض أولها إسلاماً عليّ بن أبي طالب^(٢).

وكان عليّ عليه السلام يحاكي رسول الله صلى الله عليه وآله في أفعاله ويقتدي به ويطيعه في كلّ أوامره ونواهيه، قبل البعثة النبوية الشريفة حتى آخر لحظة من عمر النبي صلى الله عليه وآله، وقد أجمع المؤرّخون على أنّه لم يردّ على رسول الله كلمة قطّ.

وقد صرّح الإمام عليه السلام بأنّه أوّل من صلى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «لم يسبقني إلّا رسول الله بالصلاة»^(٣).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل ظهور الإسلام يصلي مستخفياً في شعاب مكّة هو وعليّ عليه السلام وحدث أن رآهما أبو طالب يُصلّيان، فسأل محمّداً صلى الله عليه وآله عن هذا الذي يدين به. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «هذا دين الله وملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به نبياً إلى العباد، وأنت ياعمّ أحقّ من أبيت النصيحة له ودعوته إلى الهدى، وأحقّ من أجابني إليه وأعانني عليه»، وقال له عليّ عليه السلام: «يا أبت، قد آمنتُ برسول الله صلى الله عليه وآله واتبعته وصليت معه لله»، فقال له: أما إنّه لم يدعك إلّا إلى الخير فالزمه^(٤).

وإنّ حديث الدار يوم الإنذار هو الحديث الخاص باجتماع عشيرة النبي صلى الله عليه وآله الأقربين بدعوة منه بهدف الإعلان عن رسالته ودعوتهم إلى بيعته ومؤازرته، وكان

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٢، ذخائر العقبى: ٥٩، المستدرک للحاكم ٣: ١١٢، البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٣٦٩، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٢: ٢٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٢٤٦، الاستيعاب ٣: ١٠٩، أسد الغابة لابن الأثير ٤: ١٧، كنز العمال ١٣: ١٤٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ٢: ١٤ الخطبة ١٣١.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٦٣، الكامل في التاريخ ٢: ٥٨، ذخائر العقبى: ٦٠، السيرة الحلبية ١: ٤٣٦.

أول من أعلن استجابته لرسول الله ﷺ يومئذ من عشيرته هو الإمام علي عليه السلام، فأخذ النبي ﷺ برقبته وقال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١).

وحينما تزايد انتشار الإسلام في مكة، وأصبح خطراً يهدد مصالح المشركين، عمدت قريش إلى مقاطعة المسلمين اقتصادياً واجتماعياً، فاضطر المسلمون وبنو هاشم إلى التجمع في شعب أبي طالب لتوفير سبل الحماية بصورة أفضل، وإيجاد خطوط دفاعية لمواجهة أي محاولة هجومية قد تقوم بها قريش^(٢)، وللمزيد من الاحتياط والحرص على سلامة رسول الله، كان أبو طالب يطلب من ولده علي أن يبيت في مكان الرسول ليلاً حرصاً على سلامته من الاغتيال من قبل الأعداء الواردين من خارج الشعب^(٣)، فكان علي عليه السلام لا يتوانى في امتثال أوامر والده مخاطراً بنفسه من أجل الرسول والرسالة.

ولم يكتف علي عليه السلام بهذا القدر من المخاطرة بنفسه، بل كان يخرج من الشعب إلى مكة سرّاً، ليأتي بالطعام إلى المحاصرين^(٤)، إذ اضطروا في بعض الأيام أن يقتاتوا على حشائش الأرض.

وحين تم الاتفاق على اللقاء التاريخي لطلائع المسلمين القادمين من يشرب بقائدهم الرسول الأمين ﷺ في بيت عبد المطلب سرّاً، وقف إلى جانب النبي ﷺ عمّه حمزة وعلي والعبّاس^(٥)، وتمت البيعة على أفضل شكل.

وعلى الرغم من كلّ التدابير التي اتخذت لسريّة اللقاء فقد تسرّب خبره إلى المشركين، فأقبلوا بأسلحتهم إلى مكان الاجتماع، فخرج إليهم حمزة ومعه علي عليه السلام بسيفيهما، فسألوا حمزة عن الاجتماع فأنكر ذلك، فرجعوا خائبين.

(١) أمالي الطوسي: ٥٨٢، تاريخ الطبري ٢: ٦٢، شواهد التنزيل ١: ٤٨٦، الكامل في التاريخ ٢: ٦٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٤، تاريخ الطبري ٢: ٧٤، الكامل في التاريخ ٢: ٨٧، البداية والنهاية ٣: ١٠٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤: ٦٤، روضة الواعظين: ٥٤.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٥٦.

(٥) إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ١٤٢، بحار الأنوار ١٩: ١٢.

ولما آخى النبي ﷺ بين أصحابه، ولم يؤاخ بين عليّ ﷺ وبين أحد منهم، قال عليّ ﷺ: «يا رسول الله! لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت بغيري، فإن كان هذا من سخط عليّ؛ فلك العُتْبَى والكرامة. فقال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق، ما أخرجت إلا لنفسي، وأنت مَنّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي. فقال عليّ ﷺ: وما أرث منك؟ قال ﷺ: ما ورث الأنبياء من قبلي، كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأنت معي في قصري في الجنة»^(١).

وحين تمادى طغاة قريش في إيذاء المسلمين والضغط عليهم لإرغامهم على ترك الدين الإسلامي، أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب، وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم داراً تأمنون بها وإخواناً»^(٢)، فخرجوا على شكل مجاميع صغيرة وبدفعات متفرقة خفية عن أنظار قريش.

وعلمت قريش بذلك، وتجسّدت لديها أخطار المستقبل إذا تمكّن النبي ﷺ من الالتحاق بأصحابه واتّخاذ يثرب منطلقاً لنشر دعوته، فكان القرار - بعد أن اجتمعوا في دار الندوة - أن يتدبوا من كلّ قبيلة شاباً جلدأً، ويعطى كلّ منهم سيفاً صارماً، ليهجموا على النبي ﷺ ليلاً وهو نائم في داره، ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويضع دمه بين القبائل، فأتى جبرئيل إلى النبي ﷺ وأخبره بالأمر، وأذن له بالهجرة، فأخبر النبي ﷺ عليّاً ﷺ بالأمر، وأمره أن يبيت في فراشه، فما كان جوابه ﷺ إلا أن قال للرسول ﷺ: «أوتسّلّم يا رسول الله إن فديتك نفسي؟ فقال له النبي ﷺ: نعم بذلك وعدني ربّي»؛ فتبسّم عليّ ﷺ، وأهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لله^(٣).

(١) مناقب أمير المؤمنين للكوفي ١: ٣١٦، كشف الغمّة ١: ٣٣٣، تاريخ مدينة دمشق ٢١: ٤١٥، كنز العمال ٩: ١٦٧.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ١: ٢٣٣، بحار الأنوار ١٩: ٢٦.

(٣) بحار الأنوار ١٩: ٦٠، المناقب لابن شهر آشوب ١: ٢٣٣.

ولما حلّ الليل؛ إتشح عليّ عليه السلام ببرد رسول الله ﷺ الذي اعتاد أن يتشح به، واضطجع في فراش النبي ﷺ مطمئناً رابط الجأش، ولما حانت ساعة التنفيذ هجم المشركون على الدار، وكان في مقدمتهم خالد بن الوليد، فوثب عليّ عليه السلام من فراشه، فأخذ منه السيف وشدّ عليهم، فأجفلوا أمامه وفرّوا إلى الخارج، وسألوه عن النبي ﷺ: فقال: لا أدري إلى أين ذهب^(١).

وقد أشاد الوحي بهذا الإيثار وخلّده بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢).

وقد باهى الله بهذه التضحية ملائكته؛ إذ روي أنّ الله تعالى أوحى إلى جبرئيل وميكائيل: أني قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فيا أيكما يؤثر صحابه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، حين آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فهبط جبرئيل فجلس عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وجعل جبرئيل يقول: بخ بخ، من مثلك يا ابن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة فوق سبع سموات^(٣).

وقام عليّ عليه السلام بمهمة ردّ الأمانات التي كانت مودعة عند النبي ﷺ إلى أصحابها، قبل أن يلتحق بالنبي ﷺ، وكان مقامه بعد النبي بمكة ثلاثة أيام فقط^(٤). رحل الإمام عليّ عليه السلام نحو يثرب تصحبه الفواطم: فاطمة بنت رسول الله، وأمّه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وفاطمة بنت حمزة، وتبعهم أيمن مولى رسول الله وأبو واقد الليثي.

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ٤٦٣، الطبقات الكبرى ١: ٢٢٧، مسند أحمد ١: ٣٣١، تاريخ الطبري ٩٨: ٢.

(٢) البقرة (٢): ٢٠٧.

(٣) أمالي الطوسي: ٤٦٩، المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٧٧، تفسير الثعلبي ٢: ١٢٦، شواهد التنزيل: ١٢٣.

(٤) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٥٨، بحار الأنوار ٣٨: ٣٨٩، مروج الذهب للمسعودي ٢: ٢٧٩.

ولما شارف الركب قريةً في الطريق تُسمى (ضجنان)، أدركته القوة التي أرسلتها قريش للقبض عليه ومن معه وإعادتهم إلى مكّة، وكانوا سبعة فوارس من قريش ملثمين، معهم مولىّ لحرب بن أمية اسمه (جناح)، فقال عليّ عليه السلام لأيمن وأبي واقد: «أنيخا الإبل واعقلاها»، وتقدّم هو فأنزل النسوة ثمّ استقبل الفوارس بسيفه، فقالوا له: أظننت يا غدار أنّك ناج بالنسوة، إرجع لا أباً لك. فقال عليه السلام: «فإن لم أفعل»؟.. فازدادوا حنفاً وغيظاً منه، فقالوا له: لترجعنّ راغماً أو لترجعنّ بأكثر شعراً، وأهون بك من هالك.

ودنا بعضهم نحو النياق ليفزعوها حتى يُدخلوا الرعب في قلوب النسوة، فحال عليّ عليه السلام بينهم وبين ذلك، فأسرع نحوه جناح وأراد ضربه بسيفه فراغ عنه عليّ عليه السلام وسارعه بضربة على عاتقه، فقسمه نصفين حتى وصل السيف الى كتف فرس جناح، ثمّ شدّ على بقيّة الفرسان وهو راجل، ففرّوا من بين يديه فزعين خائفين. وقالوا: إحبس نفسك عنّا يا ابن أبي طالب، فقال لهم: «فإني منطلق إلى أخي وابن عمّي رسول الله، فمن سرّه أن أفري لحمه وأريق دمه فليدنّ منّي»، فهرب الفرسان على أذبارهم خائبين. ثمّ أقبل عليه السلام على أيمن وأبي واقد وقال لهما: «أطلقا مطاياكما»، فواصل الركب مسيره باتجاه المدينة.

عليّ عليه السلام من الهجرة إلى وفاة النبي صلى الله عليه وآله

بعد أن انقضت سنتان من الهجرة النبويّة، بلغت ابنة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام مبلغ النساء، وشرع الخطّاب من الصحابة يتسابقون إلى النبي صلى الله عليه وآله لخطبتها، وهو يردهم ردّاً جميلاً ويقول: «إني أنظر فيها أمر الله»^(١). وكان عليّ عليه السلام من الراغبين في الزواج منها. ولكنّ الحياء كان يمنعه عن مفاتحة النبي صلى الله عليه وآله بذلك، ولكنّه بتشجيع من بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله تقدّم

(١) كشف الغمّة ١: ٣٥٣.

لخطبتها، فدخل على النبي وهو مطرق إلى الأرض من الحياء، فأحس النبي ﷺ بما في نفسه، وأقبل عليه يسأله برفق عن حاجته، فأجابه بصوت ضعيف: يا رسول الله «تزوجني من فاطمة؟»

فرد النبي ﷺ على سؤاله قائلاً: «مرحباً وأهلاً»، ودخل على بضعته الزهراء ليعرض عليها رغبة علي عليه السلام فيها، فقال ﷺ: «لقد سألت ربي أن يزوجه خير خلقه وأحبهم إليه، وقد عرفت علياً وفضله ومواقفه، وجاءني اليوم خاطباً فما ترين؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: سكوتها رضاها وإقرارها». ثم إن الرسول ﷺ جمع المسلمين وخطب فيهم، فقال: «إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة من علي...، ثم التفت إلى علي عليه السلام فقال: لقد أمرني ربي أن أزوجه فاطمة... أَرْضِيَتْ هَذَا الزَّوْاجَ يَا عَلِيُّ؟» فقال عليه السلام: رضيت يا رسول الله، وخرّ ساجداً لله. فقال النبي ﷺ: «بارك الله فيكما»، وجعل منكما الكثير الطيب^(١). وروي أن النبي ﷺ عوتب في زواج فاطمة عليه السلام فقال: «لو لم يخلق الله علي بن أبي طالب لما كان لفاطمة كفؤ»^(٢).

علي عليه السلام في معارك الإسلام

كان الإمام علي عليه السلام الذراع القوية التي يضرب بها رسول الله ﷺ، ونجد هذا واضحاً جلياً في كل معركة دخل فيها علي عليه السلام وخرج مرفوع الرأس، وكان من طبيعة المعارك أنها تتوقف على الجولة الأولى، فمن يفوز فيها تحسم المعركة لصالحه، كما في معركة بدر التي كانت بداية لأفول كل القوى العسكرية في الجزيرة، ومنطلقاً للانتصارات والفتوحات التي حققها المسلمون فيما بعد.

وروي أن عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة خرجوا في ساحة معركة بدر ودعوا إلى المبارزة، فأمر النبي ﷺ عمه حمزة وعبيدة بن الحارث وعلياً

(١) كشف الغمّة ١: ٣٦٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٢٤، المناقب للخوارزمي: ٣٤٢.

(٢) روضة الواعظين: ١٤٦، الصراط المستقيم ١: ١٧٢.

بمبارزتهم، فبارز عبدة بن الحارث عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز عليّ عليه السلام الوليد، فأما حمزة، فلم يمهل شيبة أن قتله، وقتل عليّ الوليد، واختلف عبدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما قد أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ على عتبة فقتلاه^(١). وتنصّ الروايات على أنّ عليّاً عليه السلام قتل العدد الأكبر، ففي أقلّ التقادير قتل أربعة وعشرين، وشارك في قتل ثمانية وعشرين آخرين، ويبدو أنّ الذين قتلهم عليّ عليه السلام هم أبطال قريش وصناديدها.

وأما في معركة أحد فقد كان المسلمون في بدايتها أن يُحققوا النصر الساحق، لولا أنّ الرماة الخمسين الذين جعلهم رسول الله ﷺ من وراء المسلمين لحماية ظهورهم، تركوا أماكنهم وانحدروا يشاركون إخوانهم في جمع الغنائم، ولم يبق منهم إلا عشرة، فكرّ عليهم المشركون بقيادة خالد بن الوليد فقتلوا الرماة، وباغتوا المسلمين من خلفهم، فتغيّر ميزان القوى ورجحت كفة المشركين، وتفرّق الناس عن رسول الله ﷺ، بعد أن استشهد حمزة ومصعب بن عمير، ولم يبق معه أحد إلا عليّ ونفر قليل من المهاجرين والأنصار، وقد سجّل التاريخ موقف الصمود والفداء الذي وقفه عليّ عليه السلام في الدفاع عن رسول الله ﷺ؛ إذ كان يحمل على كل جماعة تحاول الهجوم على رسول الله ﷺ، فيفرّق جمعهم، ولم يزل يقاتل بضراوة، حتى استطاع المحافظة على حياة النبي ﷺ وإيصال نتيجة المعركة إلى حالة من التوازن، دون أن يحرز أحد الطرفين نصراً حاسماً.

وفي هذه المعركة أصيب عليّ عليه السلام بجراحات عديدة في رأسه ووجه وصدره وبطنه ويديه، فأتى جبرئيل عليه السلام النبي ﷺ فقال: إنّ هذه لهي المواساة، فقال رسول الله ﷺ: إنّهُ مِنِّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما، فسمعوا صوتاً في السماء ينادي: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ»^(٢).

(١) الإرشاد للمفيد ١: ٦٨ - ٦٩، تاريخ الطبري ٢: ١٤٨، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٥، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٣٣٢.

(٢) الكافي ٨: ١١٠، علل الشرائع ١: ٧، تاريخ الطبري ٢: ١٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٥٤.

وأخذت قريش تتهياً مرةً أخرى لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين، بالتحالف مع القبائل الأخرى والاستعانة باليهود، حتى بلغ عدد جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، يقودهم أبو سفيان^(١)، وازداد غيظ المشركين حينما واجهوا الخندق ورأوا الأسلوب الدفاعي الجديد الذي اتّخذه رسول الله ﷺ.

وتمكن بعض فرسان المشركين من عبور الخندق من مكان ضيق فيه، وخرج علي عليه السلام في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، فوقف عمرو بن عبد ود يطلب المبارزة ويتحدّى المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «هل يبارزه أحد؟» فأجابه علي عليه السلام فقال: أنا له يارسول الله، فأجلسه النبي، وللمرة الثانية والثالثة طلب عمرو المبارزة، فلم يكن يجيبه إلا علي عليه السلام وفي كل مرة كان رسول الله ﷺ يطلب منه الجلوس^(٢).

ثم أذن النبي ﷺ لعلي بعد أن عمّمه بعمامته، وقلّده بسيفه، وألبسه درعه، ثم رفع يديه وقال: «اللهم إنك أخذت عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا علي أخي وابن عمي فلا تدرني فرداً وأنت خير الوارثين»^(٣).

وبرز علي عليه السلام إلى ساحة المعركة بعد أن قال رسول الله ﷺ: «برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ»^(٤).

وانحدر علي عليه السلام لملاقاة عمرو، وقال له: يا عمرو، إنك كنت في الجاهلية تقول: «لا يدعوني أحد إلى ثلاثة إلا قبلتها أو واحدة منها، قال: أجل. قال علي عليه السلام: فأني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأن تسلم لرب العالمين، قال: آخر عني هذه، قال علي عليه السلام: ترجع من حيث جئت، قال: لا تتحدّث نساء قريش بهذا أبداً، قال علي عليه السلام: تنزل تقاتلني.

(١) تفسير القمي ٢: ١٧٦، الطبقات الكبرى ٢: ٦٦، تاريخ الطبري ٢: ٢٣٦.

(٢) الإرشاد للمفيد ١: ١٠٠، المناقب للخوارزمي: ١٦٩، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ١٢١، السيرة الحلبية ٢: ٦٤١.

(٣) السيرة الحلبية ٢: ٦٤١ - ٦٤٢.

(٤) الطرائف للسيد لابن طاووس: ٣٥، بحار الأنوار ٢٠: ٢١٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١.

فغضب عمرو، ونزل عن فرسه وعقرها، ثم هجم على عليٍّ عليه السلام وضربه بسيفه، فأتقاه عليٌّ بدركته، فأثبت فيها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه عليٌّ على عاتقه، فسقط إلى الأرض يخور بدمه، وعندها كبر عليٌّ عليه السلام وكبر المسلمون خلفه، وفر أصحابه من هول ما شاهدوه، ودبّ الخوف في نفوس المشركين ولم يجسر أحد منهم على تكرار المحاولة، إلا أنهم بقوا محاصرين للمدينة بعض الوقت حتى أذن الله بهزيمتهم»^(١).

وفي السنة السادسة للهجرة تم عقد صلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وآله والمشركين، واطمأن المسلمون على مستقبل الرسالة من ناحية مداهمة قريش وباقي أطراف عرب الجزيرة الذين بقوا على شركهم، وبقيت قوة أخرى تثير الشغب وترصد فرص الغدر، وهي جموع اليهود الذين كانوا خارج المدينة، وخيانات اليهود ونقضهم العهود كانت قد تكررت في السنين الخمس الأخيرة، لذا قرّر النبي صلى الله عليه وآله غزو خيبر التي أصبحت معقل اليهود وحصنهم.

وامتنع اليهود في حصونهم، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وآله بضعا وعشرين يوماً، وبعث النبي صلى الله عليه وآله برايته أبا بكر وعمر، فعادا ولم يصنعا شيئاً، فقال النبي صلى الله عليه وآله بصوت رفيع يسمعه أكثر المسلمين: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله، كراماً غير فرار يفتح الله على يديه، جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله»^(٢).

وفي اليوم التالي، استدعى عليّاً عليه السلام وكان أرمداً، فوضع النبي رأسه في حجره، ثم بلّ يده من ريقه، ومسح بها عيني عليٍّ عليه السلام فبرأتا حتى كأن لم يكن بهما وجع^(٣)، ثم ألبسه درعه الحديد، وشدّ ذا الفقار الذي هو سيفه في وسطه، وأعطاه الراية

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٦٢، المستدرك للحاكم النيسابوري ٣: ٣٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٧٨، الفصول المهمة لابن الصبّاغ: ٥٨.

(٢) أمالي الصدوق: ٦٠٤، مسند أحمد بن حنبل ١: ٩٩، صحيح مسلم ٥: ١٩٥، مستدرك الحاكم ٤: ١٠٩، الإصابة لابن حجر ٤: ٤٦٨.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ١٢٦، المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٣٣٦، إمتاع الأسماع ١١: ٢٧٩، السيرة الحلبية ٢: ٧٣٥.

ووجهه نحو الحصن، فكان أول من خرج إليه الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فقتله علي عليه السلام، ثم برز إليه مرحب فاختلفا بضربتين، فضربه علي بسيفه، فقد الحجر الذي كان قد ثقبه ووضع على رأسه، وشق رأسه نصفين حتى وصل السيف أضراسه، فولى اليهود منهزمين إلى داخل الحصن وأغلقوا بابه، فعالجه علي عليه السلام حتى قلعه، وجعله على الخندق جسراً، عبر عليه المسلمون وظفروا بالحصن ونالوا الغنائم^(١).

وفي السنة السابعة للهجرة، عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على محاربة قريش؛ لأنها لم تلتزم ببند صلح الحديبية، واعتدت على أحلاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خزاعة، وجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً أعطى لواءه لعلي عليه السلام، ووزع الرايات على زعماء القبائل، ومضى يقطع الطريق باتجاه مكة.

ولما رأت قريش أنها لا طاقة لها أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين؛ استسلمت له، ليدخل مكة بذلك الجيش الكبير الذي لم تعرف له مكة نظيراً في تاريخها، ولوائه بيد علي عليه السلام، وأعلن العفو العام عنهم وهو على أبواب مكة^(٢).

علي عليه السلام يحطم الأصنام

روي عن علي عليه السلام أنه قال: «انطلق بي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسر الأصنام، فقال لي: اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة، ثم صعد الرسول على منكبي، فقال لي: انهض بي، فنهضت به، فلما رأى ضعفي تحته قال: اجلس، فجلست ونزل عني، وقال: يا علي اصعد على منكبي، فصعدت على منكبيه، ثم نهض بي حتى خيل لي أن لو شئت نلت السماء، وصعدت على الكعبة... فألقيت الصنم الأكبر، وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد»^(٣).

(١) إمتاع الأسماع ١٣: ٣٣٣، السيرة الحلبية ٢: ٧٣٧، سبل الهدى والرشاد ٥: ١٢٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٨٥١، تاريخ الطبري ٢: ٣٢٣، الإرشاد للمفيد ١: ١٣٠، الكامل في التاريخ ٢: ٢٣٩، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ٣١٧.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٥٥، تاريخ بغداد ١٣: ٣٠٤، المستدرک للحاكم ٢: ٣٦٧، المناقب للخوارزمي: ١٢٣.

وفي شوال من السنة الثامنة للهجرة حدثت غزوة حنين التي انهزم فيها المسلمون في البداية أمام جيش هوازن وثقيف، إذ خلى الله تعالى بين المسلمين وبين عدوهم بسبب إعجابهم بكثرتهم، ولم يثبت منهم مع رسول الله إلا نفر قليل من بني هاشم^(١). وخرج رجل من هوازن يدعى «أبو جرول» وكان شجاعاً، فتحاماه الناس، ولم يثبتوا له، فبرز إليه عليّ عليه السلام وقتله، فذبّ الذعر في نفوس المشركين، كما دبّ الحماس في نفوس المسلمين، فوضعوا سيوفهم في العدو يتقدمهم عليّ عليه السلام، الذي قتل وحده أربعين رجلاً من القوم، فكان النصر للمسلمين^(٢).

وفي شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، توجه النبي صلى الله عليه وآله يقود جيشاً في غزوة تبوك، فخلف علياً عليه السلام في المدينة قائلاً صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، إنّ المدينة لا تصلح إلا بي أو بك»، فأشاع المنافقون إنّ النبي صلى الله عليه وآله إنّما خلف علياً استقلاً ومقتاً له، فأراد عليّ عليه السلام تكذيبهم وفضيحتهم، فلحق بالنبي صلى الله عليه وآله وأخبره بأنّ المنافقين يزعمون أنّك خلفتني استقلاً ومقتاً، فقال صلى الله عليه وآله: «ارجع إلى مكانك فإنّ المدينة لا تصلح إلا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجري وقومي، أما ترضى - يا عليّ - أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي»؟ فرجع عليّ عليه السلام الى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله في سفره^(٣).

عليّ عليه السلام يبلغ سورة براءة

أشرفت السنة التاسعة للهجرة على الانتهاء، ونزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله سورة (براءة) وفيها التشريعات التي تحدّد موقفه من المشركين والأحلاف التي كان قد

(١) تفسير القمي ١: ٢٨٧، الطبقات الكبرى ٢: ١٥٠، تاريخ الطبري ٢: ٣٤٧.

(٢) الإرشاد للمفيد ١: ١٤٢، المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٦٩، المغازي للواقدي ٢: ٩٠٢، كشف الغمّة ١: ٢٢٢.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٣٦٧، المستدرك للحاكم النيسابوري ٢: ٣٣٧، مسند أحمد ١: ١٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨.

أبرمها معهم، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر ليقرأ السورة على الملائكة في اليوم العاشر من ذي الحجة، ولما انتهى أبو بكر إلى (ذي الحليفة) نزل الوحي على رسول الله ﷺ يأمره أن يرسل علياً ليأخذ الآيات من أبي بكر ويبلغها بنفسه، ورجع أبو بكر إلى المدينة خائفاً أن يكون قد نزل فيه ما أغضب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أنزل في شيء؟ فقال النبي ﷺ: «لا، ولكنني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل مني». وانطلق علي عليه السلام حتى بلغ مكة، وعندما اجتمع الناس لأداء مناسكهم؛ قرأ عليهم الآيات الأولى من السورة، ونادى في الناس: «لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد، فعهد إلى مدته»^(١).

إعداد علي عليه السلام لإمامة المسلمين

أعد النبي ﷺ علياً عليه السلام لكي يتسلم التجربة الإسلامية من بعده، فأشركه في كلِّ المواقف المهمة والصعبة، وثقفه ثقافة خاصة لم يشاركه أحد فيها، وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «علمني رسول الله ﷺ من العلم ألف باب، يفتح من كلِّ باب ألف باب»^(٢).

وحين توضحت معالم شخصية علي عليه السلام للأمة؛ بدأ النبي ﷺ يكلفه بأن ينوب عنه في المهمات التي لا يمكن أن يقوم بها أحد غير النبي ﷺ. وحين اضطر النبي ﷺ للمواجهات العسكرية لم يعط رأيه إلا لعلي عليه السلام، وأشار إلى طهارة علي عليه السلام وأهل بيته من الرجز المادي والمعنوي^(٣)، حتى لم يأذن لأحد بالمرور بمسجده على كلِّ حال إلا لعلي عليه السلام^(٤).

(١) علل الشرائع ١: ١٩٠، ذخائر العقبى: ٦٩، مسند أحمد ١: ٣، تاريخ الطبري ٢: ٣٨٢، الكامل في التاريخ ٢: ٢٩١.

(٢) دلائل الإمامة: ٢٣٥، الإرشاد للمفيد ١: ٣٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥ البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٣٩٦.

(٣) دلائل الإمامة: ٢٣٦، الطرائف لابن طاووس: ٥١٦، شرح نهج البلاغة ١: ١٥.

(٤) الكافي ٧: ٤٢٤، أمالي الصدوق: ٦٣، المناقب للخوارزمي: ٨٢، كنز العمال ١١: ٦١٤.

ولم يزل النبي ﷺ يوجه القاعدة الشعبية والجماهير المسلمة للالتفاف حول عليّ، ويأمرهم بحبّه والرجوع إليه عند حلول المشاكل المستعصية، فكانت الأحاديث النبوية تترى بالإشادة به مثل: «أقضاكم عليّ»^(١)، «أعلمكم عليّ»^(٢)، وقد أثبتت الأحداث والوقائع صحة ذلك.

لقد كانت تلك الخطوات تمهيداً لإعلان وسام الخلافة والإمامة، حين وقف النبي ﷺ بعد إتمام مناسك حجة الوداع ليعلن للأمة أنّه سيغادر الدنيا ويخلف عليّاً ﷺ قائداً ومرجعاً للأمة بعده، وقد كان هذا الإعلان والتنصيب صادراً عن الله تعالى، حتى تمت بيعة الناس لعليّ ﷺ بإمرة المؤمنين، ونزل الوحي الإلهي ببلاغ كمال الدين وتمام النعمة.

ثم بدأ النبي ﷺ بإعداد خطة لإتمام تنفيذ الأمر الإلهي بإمامة عليّ ﷺ، فأمر بإعداد جيش جرّار، يضم كل العناصر التي يحتمل أن تقف ضد زعامة الإمام عليّ ﷺ، لئلاّ ينحرف مسار الرسالة الإسلامية عن طريقها القويم، وقد أجمع المؤرّخون على أنّ النبي ﷺ لم يكن يعنيه في أيامه الأخيرة إلاّ إرسال الجيش الذي يضمّ وجوه الأنصار والمهاجرين بمن في ذلك أبو بكر وعمر إلى الحدود الشمالية لمنطقة الجزيرة العربية، واستثنى عليّاً ﷺ.

ولكنّ عدداً من الصحابة لم يرقّ لهم أمر النبي ﷺ فتشاقلوا عن الخروج في جيش أسامة، واعتذروا بأعذار واهية، وانطلقت ألسنتهم بالنقد اللاذع والإعتراض على تأمير أسامة، فخرج ﷺ - رغم كلّ آلام المرض - وخطب فيهم وحثهم على الإنضواء تحت قيادة أسامة^(٣)، وكان ممّا قال ﷺ: «أنفذوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»^(٤).

(١) كشف الخفاء للعجلوني ١: ١٦٢، تفسير القرطبي ١٥: ١٦٢.

(٢) الكافي ٧: ٤٢٤، خصائص الأئمة للشريف الرضي: ٨٤.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ١٨٩ - ١٩٠، بحار الأنوار ٢١: ٤١٠.

(٤) دعائم الإسلام ١: ٤١، المواقيف للإيجي ٣: ٦٥٠، الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٣، شرح نهج البلاغة

ويبدو أنّ الرسول ﷺ قد استشفّ من التحركات التي صدرت من بعض الصحابة الذين تمرّدوا على أوامره بالخروج مع جيش أسامة أنّهم يبغون لأهل بيته الغوائل، ومصرّون على صرف الخلافة عن الإمام عليّ عليه السلام، فصمّ على محاولة أخيرة لتثبيت خلافته من بعده كتباً، فقال: «إئتوني بالكتف والدواة أكتب إليكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً».

فعلم المتمردون بقصد رسول الله ﷺ، فمنعوا من تزويده بما يريد، وأكثروا التنازع واللفظ، واتّهموه - حاشاه - بالهجر، فأمرهم النبي ﷺ بالقيام عنه^(١). واشتدّ المرض على النبي ﷺ فأغمي عليه، فلمّا أفاق قال ﷺ: «أدعوا لي أخي وصاحبي» فبعث عائشة وحفصة إلى أبي بكر وعمر، فلمّا حضرا قال النبي ﷺ: «انصرفوا فإنّ تك لي حاجة أبعث إليكم»^(٢).

ثمّ دُعي أخوه عليّ عليه السلام فلمّا دنا منه أوماً إليه، فأكبّ عليه، فناجاه الرسول طويلاً، ثمّ ثقل النبي ﷺ وحضره الموت، فقال لعليّ عليه السلام: «ضع رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك، وامسح بها وجهك، ثمّ وجهني إلى القبلة، وتولّ أمري وصلّ عليّ أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله تعالى»^(٣).

وهكذا انتقل الرسول الأكرم ﷺ إلى جوار ربّه، ورأسه في حجر وصيّّه، بعد أن أدّى رسالته بأحسن وجه، وأوضح السبيل للأمة من بعده.

* * *

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٢، صحيح البخاري ٥: ١٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٤٣٦، الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٠.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٤٣٩.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ١٨٦ - ١٨٧.

الفصل الثالث

الإمام عليّ عليه السلام في عهد أبي بكر وعمر وعثمان

ما كانت الفئة المسيطرة لتتنازل عن السلطة بعد أن سعت وخطّطت للاستيلاء عليها، فثبتت على آرائها التي روجتها في السقيفة، واتّهمت كل من يعارضها بأنّه يسعى لإثارة الفتنة المحرّمة في شريعة الإسلام، واستعملت أسلوب الشدة والقمع مع الإمام عليّ عليه السلام ومن يؤيّده، حتى أنّ عمر بن الخطّاب هدّد بحرق دار الزهراء عليه السلام على الرغم من وجودها فيه^(١)، وقامت بعزل كل العناصر التي كانت تميل لنبي هاشم، حتى أنّ أبا بكر عزل خالد بن سعيد بن العاص، عن قيادة الجيش الذي وجّهه لفتح الشام، بعد أن أسندها إليه؛ لأنّ عمر نبّهه الى نزعته الهاشمية وذكره بموقفه المعارض لهم بعد وفاة رسول الله ﷺ^(٢).

ولكن الصفوة الخيرة من الصحابة الذين وقفوا مع الإمام عليّ عليه السلام احتجّوا لحقه في الخلافة بثقة وعلانية، وألقوا الحجة على الجميع؛ فقد وقف خزيمة بن ثابت في مسجد رسول الله فقال: أيّها الناس، أستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قبل شهادتي وحدي، ولم يرد معي غيري؟ فقالوا: بلى، قال: فأشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهل بيتي يفرّقون بين الحقّ والباطل، وهم الأئمة الذين يقتدى بهم»، وقد قلت ما علمت، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين.

وشهد سهل بن حنيف فقال: بأنّ رسول الله ﷺ أخذ بيد عليّ عليه السلام فقال: «هذا عليّ إمامكم من بعدي، ووصيّ في حياتي وبعد وفاتي».

وقال أبو الهيثم بن التيهان: إنّ رسول الله ﷺ سئل عن عليّ عليه السلام فقال: «هو وليّ المؤمنين بعدي، وأنصح الناس لأمتي»، وأنا أشهد بما حضرني، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً.

(١) كتاب سليم بن قيس: ١٤٩ - ١٥٠، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٧، الهداية الكبرى للخصيبي: ١٧٧.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٥٨٦، المستدرک للحاكم النيسابوري ٣: ٢٤٩.

ثمّ قام آخرون منهم: عمار بن ياسر، وأبو ذرّ، وأبو أيوب الأنصاري، وعتبة بن أبي لهب، والنعمان بن عجلان، وسلمان الفارسي فاحتجّوا على القوم^(١). وقد كان امتناع عليّ عليه السلام عن البيعة يشكّل خطراً على الحكم القائم، ولذلك قرّروا إجباره على البيعة فجاءوا به الى أبي بكر، وصاحوا به بعنف: بايع أبا بكر، فأجابهم عليه السلام بمنطق الواثق الجريء: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ ﷺ، وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً... فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون»^(٢).

فثار عمر بن الخطّاب بعد أن أعوزته الحجّة، وسلك طريق العنف قائلاً: إنك لست متروكاً حتى تباع، فزجره الإمام عليه السلام قائلاً: «إحلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم يردده عليك غداً، والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايه». وخاف أبو بكر من تطوّر الأحداث في غير ما يحب، وخشي من عواقب غضب الإمام عليّ عليه السلام فقال له: إن لم تباع فلا أكرهك^(٣).

الإمام عليّ عليه السلام ومضاعفات السقيفة

إذا كانت مواقف الإمام عليّ عليه السلام كلّها رائعة، فموقفه من الخلافة بعد رسول الله ﷺ من أكثرها روعة؛ فقد وقف عليّ عليه السلام عند مفترق طرق كلّها حرج وشديد على نفسه:

١ - أن يباع أبا بكر دون ممانعة، وهذا يعني إمضاءه لبيعة أبي بكر ومنحها الشرعية، وهذا مخالف لأوامر رسول الله ﷺ ومؤدّ إلى انحراف الإمامة عن مسارها الأصلي.

(١) الخصال للصدوق: ٤٦١ - ٤٦٥، الاحتجاج ١: ٨٩ - ١٠٦، تاريخ أبي الفداء ١: ١٥٦، بحار الأنوار ٢٨: ١٨٩.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢٨ - ٢٩.

(٣) السقيفة وفدك للجوهري: ٦٣، الإمامة والسياسة: ٢٩، شرح نهج البلاغة ٦: ١٢.

٢ - أن يعلن النهضة المسلّحة على خلافة أبي بكر، ويدعو الناس إليها ويدفعهم نحوها.

٣ - أن يسكت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، ويسلك سبيلاً معتدلاً يحفظ كيان الإسلام ويصون وجود المسلمين، ويجني ثمار هذا الموقف متأخراً. وقد اختار الامام علي عليه السلام الموقف الأخير؛ لأنه الأصلح في ضوء الظروف التي كان يمرّ بها المجتمع الإسلامي آنذاك، فقد رأى أن إعراض الأمة وعدم انقيادها للأطروحة الإلهية يقتضي الصبر والتخطيط العملي الواقعي لعمل تربوي جذري، ريثما تنهت الفرصة لاستلام الحكم وتحقيق تلك الأطروحة.

الإمام علي عليه السلام ومهمة جمع القرآن

اتفقت كل الروايات الصحيحة على أن الإمام علياً عليه السلام بعد أن انتهى من تجهيز النبي صلى الله عليه وآله ومواراته الثرى؛ اعتكف في داره مشغلاً بجمع آيات القرآن، وترتيبها ترتيباً يحفظ أسباب وتاريخ نزولها، وأنه خرج الى الناس يحمل القرآن وهم مجتمعون في المسجد، فوضعه بينهم قائلاً: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وهذا كتاب الله وأنا العترة...»^(١) لئلا تقولوا غداً: إنا كنا عن هذا غافلين، ثم قال: لا تقولوا يوم القيامة إني لم أدعكم إلى نصرتي ولم أذكركم حقّي، ولم أدعكم إلى كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته»^(٢). فقال له عمر: إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما»^(٣).

من مواقف الإمام علي عليه السلام في عهد أبي بكر

لئن كانت بيعة أبي بكر قد منعت الإمام من ممارسة إدارة شؤون الأمة مباشرة، فإنّها لم تمنعه من الإدلاء بآرائه الصائبة، موضّحاً قواعد الدين وأحكامه الصحيحة

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٤١، بحار الأنوار ٤٠: ١٥٥.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ١٤٧، بحار الأنوار ٢٨: ٢٦٥.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٤١، بحار الأنوار ٤٠: ١٥٥.

في كلِّ موقف كان يستعصي على الماسكين بزمَام إدارة الدولة تحديد التصرف الذي يقتضيه الشرع ومصلحة الأمة، فكان عليه السلام ميزان القضاء والافتاء في شؤون الحياة الإسلامية في عهد أبي بكر ومن تلاه في الحكم من غير أهل البيت عليهم السلام.

وصية أبي بكر إلى عمر بن الخطاب

لم تطل أيام أبي بكر، حتّى أَلَمَّت به الأمراض وأشرف على الموت، وقد صمَّم على أن يوَلِّي عمر الخلافة من بعده، فاعترض أكثر المهاجرين والأنصار، وأعلنوا كراهيتهم لهذا القرار؛ لما يعلمونه من خشونة أخلاق عمر وسوء تعامله مع الناس^(١).

ولكنَّ أبا بكر أصرَّ على موقفه، وأحضر عثمان بن عفَّان وحده ليكتب عهده الى عمر، فقال له: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد... ثمَّ أغمي عليه، فكتب عثمان: فإنِّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً، ثمَّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه، فكبر أبو بكر وقال: أراك خفتَ أن يختلف الناس إن مُتُّ في غشيتي، قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً^(٢).

وبهذا يستدلُّ البعض على حرص أبي بكر على الأمة، ويزعم أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله رحل الى ربِّه من دون وصية يصون بها الأمة من الفتنة التي وقع فيها صحابته.

المؤاخذات على وصية أبي بكر

لم يكن عليّ عليه السلام راضياً بما فعله أبو بكر، ولعلَّ مردَّ ذلك الى الأسباب التالية:

(١) الطبقات الكبرى ٣: ١٩٩، وتاريخ الطبري ٢: ٦١٨، الكامل في التاريخ ٢: ٤٢٥، شرح نهج البلاغة ١: ١٦٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٦١٨، الكامل في التاريخ ٢: ٤٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٢٠٠.

١ - إنَّ أبا بكر لم يستشر أحداً من المسلمين في تقرير مصير الخلافة إلاَّ عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفَّان، خشية أن يدفعه أهل الرأي من الصحابة المخلصين الى تغيير رأيه في استخلاف عمر.

٢ - إنَّ أبا بكر فرض عمر فرضاً على المسلمين، وكأَنَّ له الوصاية عليهم حيّاً وميتاً، وذلك بقوله: «استخلفت عمر بن الخطاب عليكم فاسمعوا له وأطيعوا»، على الرغم من أنَّه رأى الغضب ظاهراً في وجوه الكثير من الصحابة.

٣ - إنَّه ناقض نفسه في دعواه السير على منهاج رسول الله ﷺ؛ لأنَّه كان يدَّعي أنَّ النبي ﷺ توفي ولم يعهد لأحد في شأن الخلافة، في حين نجده يوصي لصاحبه عمر من بعده.

٤ - إنَّ أبا بكر قد مهَّد لمجيء بني أمية لزعامة المسلمين، هذا التمهيد الذي جلب الولايات للإسلام والمسلمين، وذلك بإثارة طمعهم في الخلافة وتشجيعهم عليها، بقوله لعثمان بن عفَّان الأموي: (لولا عمر ما عدوتك)^(١)، مع أنَّ أبا بكر يعلم بأنَّ عثمان ضعيف الإرادة، يميل لبني أمية، وأنَّهم سيغلبونه على أمره، وهذا ما حصل.

الإمام علي عليه السلام في عهد عمر

قبض عمر على زمام الحكم بقوة وساس الأمة بشدَّة حتى تحامى لقاءه أكابر الصحابة، وحققت قريش بذلك انتصاراً سياسياً، ومضت مصرَّة على أن لا تعطي بني هاشم مجالاً في الحكم، ولا تعترف لهم بأي حق، وقد أتقن عمر هذا النهج أيَّما إتقان.

أمَّا الإمام علي عليه السلام، فإنَّه لم يثار لحقه المغتصب، ووقف موقف الناصح الأمين للخليفة الجديد؛ شعوراً منه بالمسؤولية الكبيرة عن سلامة الرسالة والأمة، وساهم في

(١) شرح نهج البلاغة ١: ١٦٤.

الحياة العامة ما وسعه من جهد، حيث كانت الضرورة تقتضي ذلك؛ فقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واستجدت أحداث كانت بحاجة إلى أحكام يعجز عن استنباطها الخليفة ومن حوله من الصحابة، وكانت الحلول والإجابات تنحصر في من عصمه الله من الخطأ من أهل بيت الرسالة.

ولذا كان عمر يقف متصاعراً أمام علم عليّ عليه السلام، ويصرّح في أكثر من موقف حرج بقوله: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن ^(١)، وقد روي أنّ عمر أراد أن يرمي امرأةً مجنونةً اتّهمت بالزنا، فردّ عليّ عليه السلام قضاء عمر، وذكره بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل» حينذاك قال عمر: لولا عليّ لهلك عمر ^(٢).

محنة بدعة الشورى

إذا كانت السقيفة وبيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها - كما قال عمر - فإنّ الشورى التي ابتدئها عمر أشدّ فتنةً وأسوأ تأثيراً في الابتعاد عن مسير الرسالة الإسلامية، فقد امتحن المسلمون فيها امتحاناً عسيراً، وزرعت لهم الفتن، وجلبت لهم الويلات، وتبين فيها التخطيط السافر لإقصاء الإمام عليّ عليه السلام عن سدة الحكم، وتسليم زمام الأمة الإسلامية بيد غير الأكفأ من دون وازع ديني، أو حرص على مصير الإسلام والمسلمين.

فقد عيّن عمر ستة أشخاص، هم: عليّ وعثمان وعبدالرحمن والزبير بن العوام وسعد وطلحة بن عبيد الله، وأمر بحبسهم ثلاثة أيام حتى يختاروا واحداً منهم لمنصب الخلافة، وأن يضرب عنق المخالف لاتفاق الأغلبية، أو الجناح المخالف للذي فيه عبدالرحمن بن عوف ^(٣).

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٩٩، بحار الأنوار ٤٠: ١٤٨، المناقب للخوارزمي: ٩٦ - ٩٧، ينابيع المودة للقندوزي

١: ٢٧٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨.

(٢) الإرشاد للمفيد ١: ٢٠٣، تذكرة الخواص ١: ٥٦٠.

(٣) الإمامة والسياسة: ٤٢، طبقات ابن سعد ٣: ٢٦١، تاريخ الطبري ٣: ٢٩٤، الكامل في التاريخ ٣: ٦٨.

وهذا النظام الذي ابتدعه عمر لانتخاب الخليفة كان عارياً عن أي دليل قرآني، أو نبوي، وكان يحمل التناقض بين طيأته، ويلاحظ فيه أمور تبعده عن الدقة والموضوعية، منها:

١ - إنَّ الأعضاء المقترحين للشورى لم تشترك الأمة في ترشيحهم؛ لأنه لم يكن إلا ترشيح فرد واحد - وهو شخص عمر - لجماعة وفرضهم على الأمة، ومن ثمَّ أمر باجتماعهم تحت التهديد بالقتل والسلاح حتى يختاروا أحدهم، فلم تشترك القواعد الشعبية للمسلمين في الانتخاب، وإطلاق كلمة الشورى على هذا النظام المخطط له بذلك إنما هو تمرير للفرد المطلوب ترشيحه من خلال ما سمي بالشورى.

٢ - إنَّ عمر قد ناقض نفسه في اختيار هؤلاء الستة بدعوى أنَّ رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ، ولكنه حينما اجتمعوا لديه نسب إليهم عيوباً لا تجتمع مع الرضا عنهم، ثمَّ إنَّه أمر صهيياً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، لأنَّ إمامة المسلمين لا ترتبط بالخلافة ولا تستلزمها، وقد كان يناضل يوم السقيفة من أجل استخلاف أبي بكر، وكانت صلاته المزعومة دليلاً الأول على أهلية أبي بكر للخلافة.

٣ - إنَّ اختيار العناصر الستة يبدو أمراً مبيناً؛ لأنه حدّد نظاماً وخطوات يضمن بها وصول الأمر إلى عثمان دون علي عليه السلام، وهو العنصر المؤهل من الله ورسوله لخلافة الرسول ﷺ وزعامة الأمة.

٤ - إنَّه أمر بقتل أعضاء الشورى في حالة عدم التوصل إلى اتفاق، أو إبداء معارضة، وكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين قوله: إنَّ النبي ﷺ مات وهو راضٍ عنهم، وهل تكون مخالفة عمر موجبة لقتل الصحابة^(١)؟

وقد أيقن الإمام علي عليه السلام أنَّ هذه الشورى ماهي إلا مكيدة لإقصائه عن الخلافة من جديد، وما أن خرج الإمام من عند عمر، حتَّى تلقاه عمّه العباس، فبادره قائلاً: يا عمّ لقد عدلت عنا.

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢٩٣ .

فقال العباس: ومن أعلمك هذا؟

فقال عليّ عليه السلام: قُرْن بي عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلاً رجلاً ورجلاً رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عبد الرحمن عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرا معي لم ينفعاني ^(١).
وصدق الإمام عليه السلام في تفرّسه، فقد آلت الخلافة إلى عثمان بتواطؤ عبد الرحمن؛ فإنّ سعداً وهب حقّه في الشورى لابن عمّه عبد الرحمن، ومال طلحة لعثمان فوهبه حقّه، وتنازل الزبير للإمام عليه السلام.

وعرض عبد الرحمن بيعته بشرط السير على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الشيخين، فرفض الإمام عليه السلام سيرة الشيخين وقبلها عثمان، فتمّت له البيعة، فقال عليّ عليه السلام لعبد الرحمن: «ليس هذا أوّل يوم تظاهرت فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ^(٢).

ثمّ التفت عليّ عليه السلام إلى الناس ليوضح لهم خطأهم المتكرّر في الاستخلاف ورأيه في مصير الرسالة الإسلامية، فقال: «أيّها الناس! لقد علمتم أنّي أحقّ بهذا الأمر من غيري، أما وقد انتهى الأمر إلى ما ترون، فوالله لأسالنّ ما سلّمتم أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زُخرفه وزُبرجه» ^(٣).

إنّ الامام عليه السلام دخل مع الباقيين في الشورى وهو يعلم بما ستؤول إليه، محاولة منه لإظهار تناقضات عمر ومن سار على نهجه عند وفاة النبي ﷺ، وقد بيّن ذلك بقوله: «ولكنّي أدخل معهم في الشورى لأنّ عمر قد أهّلني الآن للخلافة، وكان قبل ذلك

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ٣: ٩٢٥، تاريخ الطبري ٣: ٢٩٤، الكامل في التاريخ ٣: ٦٧.

(٢) تاريخ المدينة ٣: ٩٢٩، تاريخ الطبري ٣: ٢٩٦، الكامل في التاريخ ٣: ٧٠ - ٧١.

(٣) نهج البلاغة ١: ١٢٤ الخطبة ٧٤، بحار الأنوار ٢٩: ٦١٢.

يقول: إنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ النبوة والإمامة لا يجتمعان في بيت، فأنا أدخل في ذلك لأظهر للناس مناقضة فعله لروايته^(١).

وكان رفض الإمام عليه السلام للبيعة بشرط أن يسير بسيرة الشيخين نابعاً من استناده الى القرآن والسنة النبوية؛ إذ لا يوجد في الرسالة مرجع شرعيّ يصحّ أن يسمّى بسيرة الشيخين الى جانب الكتاب والسنة، ولو أنّ الإمام رضي بهذا الشرط، لكان معناه إعطاء الشرعية لسيرة الشيخين كالسنة النبوية، مع أنّ سيرتهما كانت تتضمن أنواع التناقض والتهاافت فيما بينهما معاً، بل فيما بينهما وبين القرآن والسنة الشريفة. ثم إنّ الإمام عليه السلام كانت وظيفته وظيفة المربي في هذه الأمة، ولم يكن من شأنه أن يوافق على اتباع سيرة الشيخين، ثم يخالفها، كما فعل عثمان.

الإمام علي عليه السلام في عهد عثمان

استهل عثمان أعماله بأمور جعلت عامة المسلمين ينقمون عليه، سوى أفراد عشيرته بني أمية، ولم يعبأ بنصح وتحذير الصحابة وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام تجاه السيرة الخطيرة التي سلكها لتسليط بني أمية على رقاب المسلمين، وإهمال العناصر الصالحة، بل عمد جاهداً على إبعاد أهل البيت عليه السلام وأتباعهم عن كل ما يمتّ الى السلطة بصلة.

وقد قال الإمام علي عليه السلام واصفاً عهد عثمان في خطبته المعروفة: «إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حُضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه، يخضمون مال الله خُضْمَةً الإبل نَبْتَةَ الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكَبَتْ به بِطُنَّتُهُ»^(٢).

تعايش الإمام علي عليه السلام مع أبي بكر وعمر، ولم يظهر العداء العلنيّ لهما، فقد كان الانحراف في مسيرة الحكومة الإسلامية مستتراً، وكان الإمام عليه السلام يتدخل في أحيان كثيرة لإصلاح موقف الخليفة الخاطي، فيستجيب له، ولم يخشَ الشيخان أبو

(١) الطرائف لابن طاووس: ٤٨٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٩.

(٢) نهج البلاغة ١: ٣٥، الإرشاد للمفيد ١: ٢٨٨ - ٢٨٩ (الخطبة الشقشقية).

بكر وعمر من الإمام عليه السلام إلا لكونه الممثل الشرعي للأمة وصاحب الحق في الخلافة، والقائد لتيار المعارضة الذي يضم أجلاء الصحابة.

أما في فترة حكم عثمان، فقد استشرى الفساد ودب في أجهزة الدولة بصورة علنية مكشوفة، فوقف الإمام عليه السلام معلناً رفضه واستنكاره على عثمان، ووقف معه الصحابة الأجلاء ولم يرضوا على عثمان سوء إدارته وفساد حكومته.

واشتدت نقمة المسلمين على عثمان، وتصلب خيار الصحابة في مواقفهم تجاه انحراف الخليفة وجهازه الحاكم، وفي قبال ذلك أمعن عثمان بالتكيد بالمعارضين، والمنددين بسياسته المنحرفة، وبالغ في ذلك دون أن يرعى لصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله حرمة، فمن ذلك أن أبادر الصحابي الجليل أكثر من اعتراضه على مساوئ عثمان، فسيره إلى الشام، ولم يطق معاوية وجوده في الشام فأرجعه إلى المدينة، واستمر أبو ذر في جهاده وإنكاره السياسة الأموية، فضاق عثمان به ذرعاً، فقرّر نفيه إلى الرّبذة، ومنع الناس من توديعه.

ولكن الإمام علياً عليه السلام خفّ لتوديعه ومعه الحسنان وعقيل وعبد الله بن جعفر، فاعترضهم مروان بن الحكم ليردّهم، فثار الإمام علي عليه السلام، فحمل على مروان وضرب أذني دابته، وصاح به: «تنحّ نحاك الله إلى النار»، ووقف الإمام علي عليه السلام مودعاً أبا ذر فقال له: «يا أبا ذر! إنك غضبت لله فأرج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعهم! وما أغناك عما منعوك! وستعلم من الرابع غداً والأكثر حسداً!»^(١).

كانت حكومة عثمان استمراراً للخط السياسي الحاكم بإبعاد أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم عن الحكم، وتركت آثارها السيئة على مسيرة الحكومة الإسلامية والأمة بأكملها، وأضافت مثالب ومطاعن للحاكمين وبيّنت مدى ابتعادهم عن الرسالة الإسلامية، ونحن من خلال سبرنا للتاريخ نستنتج ما يلي:

(١) شرح نهج البلاغة ٨: ٢٥٢ - ٢٥٣.

- ١ - إنّ حكومة عثمان ابتعدت عن نهج الشريعة الإسلامية، فعطلت الحدود، وأشاعت الفساد، وتهاونت في محاسبة المسؤولين عن ذلك، فكان من نتائج ذلك شيوع الاستهتار والاستخفاف بالقيم والأحكام الإسلامية، فكانت بيوت الولاة والشخصيات المتنفذة تعجّ بحفلات الغناء ومجالس الخمر^(١).
- ٢ - خلقت حكومة عثمان طبقة كبيرة من الأثرياء^(٢) ترتبط مصالحها بالحكومة القائمة، فوقفت في مواجهة الحركات المطالبة بتطبيق الحق والشرع، ممّا أدّى إلى تحرك قطعات المسلمين الفقراء للمطالبة بإصلاح النظام المالي بالقوة.
- ٣ - إنّ استعمال العنف والقسوة في التعامل مع المعارضين وإهانتهم، ولّد ردّة فعل معاكسة، فثاروا على النظام وحاولوا تغييره بالقوة، وكان مقتل عثمان نقطة تحوّل في الصراعات الدائرة بين المسلمين، فعمل السيف عمله في أفراد الأمة، بسبب تعنّت بني أمية واصرارهم على تحدّي الحق ورغبة الأمة في الإصلاح.
- ٤ - خلف مقتل عثمان فتنةً يتأجّج أوارها كلّ حين، وشعاراً يرفعه النفعيون والخارجون على طاعة أئمة حكومة شرعية، كالحكومة التي تزعمها الإمام علي عليه السلام، وتكامل تأثير الفتنة والشقاق على يد معاوية فيما بعد، فحارب الإمام عليه السلام وأراق دماء المسلمين، ثم عمل على تشويه الدين، واستغلال مشاعر المسلمين لإحكام السيطرة على رقابهم، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض متوارث.

* * *

(١) الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ٧: ١٧٩.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٣٢ - ٣٣٤، أنساب الأشراف ٦: ١٣٣ - ١٣٨.

الفصل الرابع

الإمام عليّ عليه السلام بعد مقتل عثمان

سادت الفوضى أرجاء المدينة بعد مقتل عثمان، فأتجهت الأنظار إلى الإمام عليّ عليه السلام لينقذ الأمة من محتتها، ولم يكن الظرف السياسي قد أمهل عثمان ليتخذ قراراً بشأن الخلافة كما خطّط الشخان لمن يليهما الأمر.

وتحرّكت جماهير المسلمين نحو الإمام عليّ عليه السلام طالبةً منه أن يقبل قيادتها، ولكنّه استقبلهم بوجوم وتردد؛ فقد حُرِم من الخلافة وهو صاحبها، وجاءته بعد أن امتلأت الساحة انحرافاً، وهيمنت عليها المشاكل المستعصية، فقال لهم: «لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم فمن اخترتم رضيت به فاختاروا»^(١).

وأمام إصرار الجماهير على توليته الأمر، قال لهم: «إني إن أجبتكم ركبْتُ بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم، ألا وإني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم»^(٢).

لم يكن الإمام عليّ عليه السلام حريصاً على السلطة، بل كان حرصه على استنقاذ الأمة من الضياع، والمحافظة على الشريعة الإسلامية لتبقى نقيّةً من الشوائب والبدع، فقبل أن يتولّى أمر الخلافة، ولكنّه أخرّ القبول إلى اليوم الثاني، واشترط أن تكون البيعة علنيةً في المسجد، رافضاً بذلك أسلوب البيعة التي ابتدعت في السقيفة، والوصاية بلا بيعة، والوصاية من خلال الشورى، ومن هنا قال عليه السلام: «والله ما تقدّمت عليها - أي الخلافة - إلا خوفاً من أن ينزو على الأمة عالج من بني أمية فيلعب بكتاب الله عز وجل»^(٣).

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٥٠، الكامل في التاريخ ٣: ٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٨١، تاريخ الطبري ٣: ٤٥٦، الكامل في التاريخ ٣: ١٩٣.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٨٥٥.

وما أن أقبل الصباح حتى حَفَّت الجماهير بالإمام عليه السلام تسير معه نحو المسجد لمبايعته، فكان أول من بايع طلحة بيده الشلاء، والذي سرعان ما نكث بها عهد الله وميثاقه، وجاء بعده الزبير فبايع، ثم بايعه عامة الناس من أهل بدر والمهاجرين والأنصار^(١).

كانت بيعة الإمام عليه السلام أول حركة انتخاب جماهيرية، لم يحض أحدٌ من الخلفاء بمثل هذه البيعة، وقد وصف الإمام عليه السلام فرحة الناس بقبوله البيعة قائلاً: «وبلغ سرور الناس ببيعتهم إني أن ابتهج بها الصغير، وهَدَجَ إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحَسَرْتُ إليها الكعاب»^(٢).

ومع أن الإمام عليه السلام كان هو الخليفة الشرعي كما نصّت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة، وأن الأمة هي التي فزعت إليه تطلب منه قبول الخلافة، فإننا نجد بعض من بايع الإمام من الصحابة أخذ يتراجع عن بيعته، وتلكأ البعض فلم يبايع، وكان تخلفهم خرقاً لإجماع الأمة وتحدياً لبيعته، ومن هؤلاء المتخلفين: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان^(٣).

وأما موقف الإمام عليه السلام من هؤلاء، فإنه لم يتعرض لأحد منهم بأيّ سوء، وتركهم وحالهم في الأمة لهم ما للناس وعليهم ما عليهم، ولكن بعضهم ندم على تفريطه في أمر بيعة الإمام عليه السلام.

وكان ممّا أعاق حركة الإمام عليه السلام أن العناصر التي وقفت ضدّ حكومته على الخطّ المنحرف كان أغلبها ممّن له صحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ممّا انخدعت به أعداد من المسلمين، وعقد الأمر على حكومة الإمام عليه السلام وممارسته الحكم بشكل طبيعيّ.

وكان على الإمام عليه السلام إنجاز المهامّ الرئيسة التالية مع وجود الصراع الداخلي:

(١) الفتنة ووقعة الجمل: ٩٣ - ٩٤، تاريخ الطبري ٣: ٤٥٦، الكامل في التاريخ ٣: ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٢، بحار الأنوار ٣٢: ٥١.

إبتهج الصغير: أي فرح. وهَدَجَ الكبير: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً. وتحامل العليل: تكلف المجيء على مشقة.

وحسر الكعاب: أي كشفت عن وجهها حرصاً على حضور البيعة، والكعاب: الجارية التي قد نهت ثديها.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٤٥٢، الكامل في التاريخ ٣: ١٩١ - ١٩٢.

أولاً: هدم الكيان الطبقي الذي أنشأه الخلفاء وذلك عبر:

١ - الالتزام بالمساواة في العطاء بين المسلمين جميعاً، اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ التي أهملها من كان قبله من الخلفاء، وقد أوضح في خطبته سياسة التوزيع النابعة من حكم الله بقوله: «فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد»^(١).

٢ - استرجاع الأموال المنهوبة من بيت المال في عهد عثمان بغير حق، فقال عليه السلام: «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال»^(٢).

ولم ترق هذه السياسة لقريش، فبدأوا بإثارة الفتن أمام حكومة الإمام عليه السلام، وجاء طلحة والزبير يعترضان على ذلك، فقالا: إن لنا قرابة من نبي الله، وسابقةً وجهاداً، وإنك أعطيتنا بالسوية، ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلوننا على غيرنا.

فقال عليه السلام: «فهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حق فخذوه، قالوا: فسابقتنا؟ قال عليه السلام: أنتم أسبق مني؟ قالوا: لا، فقرابتنا من النبي ﷺ؟ قال عليه السلام: أقرب من قرابتي؟ قالوا: لا، فجهادنا؟ قال عليه السلام: أعظم من جهادي؟ قالوا: لا، قال عليه السلام: فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا بمنزلة سواء»^(٣).

ثانياً: التنظيم الإداري وإعادة السيطرة المركزية للدولة.

قام الإمام عليه السلام بعزل الولاة الذين عينهم عثمان من مناصبهم، ونصب ولايةً كانوا جديرين بهذه المهمة، ومحلاً لثقة المسلمين، وكان سبب هذه التغييرات سوء سيرة الولاة السابقين، واستثثارهم ببيت مال المسلمين حتى آخر لحظة، فقد استولى على ابن منبه على بيت مال اليمن وهرب به^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ٣٧، وعنه في بحار الأنوار: ٣٢: ١٧.

(٢) شرح الأخبار ١: ٣٧٣، شرح نهج البلاغة ١: ٢٦٩، بحار الأنوار ٣٢: ١٦.

(٣) الخرائج والجرائح ١: ١٨٧، بحار الأنوار ٣٢: ١١٠.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٤٦٢ - ٤٦٣، الفتنة ووقعة الجمل للضيبي: ١٠٠.

وقد كان الإمام عليه السلام دقيقاً وموضوعياً في اختيار الوُلاة الجدد، وأعاد الثقة للأُنصار بأنفسهم ورفع معنوياتهم إذ أشرَكهم في الحكم، ولم يكن مستعداً لقبول الحلول الملتوية أو أنصاف الحلول، بل كان حازماً في إجتثاث الفساد، حتّى رفض عليه السلام اقتراحاً عليه بأن يبقى معاوية على الشام مؤقتاً، حتّى يستقر حكم الإمام ثمّ يعزله فيما بعد ^(١).

وحاول الإمام عليه السلام فرض سيطرة الخلافة المركزية على ولاية الشام، بعد أن امتنع معاوية فيها عن البيعة، وحرك قوّة عسكرية لصدّ سهل بن حنيف والى الإمام الجديد على الشام ومنعه من ممارسة مهامّه في الشام، فعزم الإمام على تنحية معاوية بالقوّة، وجّهز جيشاً الى الشام، ولكن حال دون تحرّك هذا الجيش إليها، وصول خبر خروج طلحة والزبير على حكم الإمام في البصرة، بعد أن كانا قد استأذناه في الخروج للعمرة، فأذن لهما، وحذرهما في نفس الوقت من نكث البيعة ^(٢).

الإمام عليّ عليه السلام والناكثين

كانت بيعة الناس لأمر المؤمنين عليه السلام بمنزلة كارثة حلّت بقريش وكلّ من يكنّ العداء للإسلام، وعزّ على كثير من كبار قریش أن يكونوا على قدم المساواة مع أيّ مواطن آخر من أيّ فئة كانت في حكومة الإمام عليّ عليه السلام الذي طالت إصلاحاته وُلاة عثمان .

وقد كان كلّ من طلحة والزبير يرى نفسه قريناً لأمر المؤمنين عليه السلام، بعدما رشّحهما عمر للخلافة، وكان معاوية يتصرّف تصرّف الحاكم المطلق الطامع في تولّي أمور الأُمّة الإسلامية بصورة تامّة، إضافةً إلى تضرّر مجموعات كانت تستغلّ مناصبها للإثراء في عهد عثمان، وهي الآن قد فقدت مصدر ثرواتها بوجود الإمام عليه السلام على قمة السلطة، ومن هنا اجتمعت آراؤهم على إثارة الفتن للحيلولة

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٦١، شرح نهج البلاغة ١: ٢٣٢، البداية والنهاية ٧: ٢٥٥.

(٢) الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٠٧ - ١٠٨، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٣ - ٢٠٥.

دون استقرار الحكم الجديد، ولم يكن ذلك غريباً على الإمام علي عليه السلام الذي أخبره النبي صلى الله عليه وآله بتمرد بعض الفئات على حكمه وعهد إليه بقتالهم، كما أنه قد سمّاهم له بالناكثين والقاسطين والمارقين^(١).

وكان موقف عائشة من عثمان غريباً، إذ كانت تحرّض على التمرد عليه وقتله، وتقول: «اقتلوا نعثلاً»^(٢)، وكانت تطمع أن يقتل عثمان؛ ليفوز قريبتها طلحة بالخلافة، والاستيلاء على الحكم، وحينما علمت بأن المسلمين بايعوا علياً، أعلنت حزنها وتظلمها على عثمان، وحينما قيل لها: أنت التي حرّضت على قتله، اختلقت عذراً واهياً فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وكأنّها حاضرة تشهد مقتله، مع أنّها كانت قد ذهبت إلى مكة أثناء محاصرة عثمان.

وأعلنت عائشة حربها على الإمام علي عليه السلام، وبدأ معاوية تحرّكه السياسي لتأجيج الفتنة المشتعلة بسبب مقتل عثمان، وأخذ يستثمرها لصالحه، فخاطب الزبير وطلحة خطاباً حرّك فيهما الأطماع والرغبة للدخول في الصراع ضد الإمام عليه السلام، فاتفقا على نكث بيعة الإمام والخروج عليه، وأخذا يقولان: بايعنا مكرهين، وما أن وصلت إلى أسماعهما نداءات عائشة محرّضة على الإمام عليه السلام حتى خفا للوصول إليها.

واجتمع الناكثون لبيعة الإمام عليه السلام في بيت عائشة في مكة، بعد أن كانوا متحاربين متنافرين في عهد عثمان، وقرّروا أن يتخذوا من دم عثمان شعاراً لتعبئة الناس لمحاربة علي عليه السلام، وأخذوا يُشيعون أنّ الإمام علياً عليه السلام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان، وزحفوا نحو البصرة لاحتلالها، حيث إنّ معاوية يسيطر على الشام، والمدينة لا زالت تعيش حالة الاضطراب^(٣).

مضت عائشة في ما عازمت عليه من إثارة الفتنة والدخول في المواجهة المسلّحة للإمام علي عليه السلام وهو الخليفة الشرعي، فحشدت أعداداً من الناس كان يدفعهم

(١) أمالي الصدوق: ٤٦٤، المستدرك للحاكم ٣: ١٣٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٧١، البداية والنهاية ٧: ٣٣٩.

(٢) الفتوح للكوفي ٢: ٤٢١، الإمامة والسياسة ١: ٧٢، السيرة الحلبية ٣: ٤٥٦، شرح نهج البلاغة ٦: ٢١٥.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٤٦٩.

الحقد والكراهية للإسلام وللإمام عليه السلام ويحدوهم الطمع بالدنيا ونيل السلطان، وجَهَّزهم يعلى بن منبه بمستلزمات الحرب من السيوف والإبل التي سرقها من بيت المال في اليمن عندما عزله الإمام عنها، وقَدَّم إليهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً كان قد سرقه من البصرة التي عزله الإمام عن ولايتها. وجَهَّزوا لعائشة جملها المسمَّى (عسكر)، وقد احتفَّ بها بنو أُمَيَّة متوجَّهين نحو البصرة، تسبقهم كتبهم التي أرسلوها إلى عدد من وجوه البصرة، وفيها الدعوة للخروج على بيعة علي عليه السلام بدعوى المطالبة بدم عثمان^(١).

وصل جيش عائشة إلى البصرة، فخرج إليهم عثمان بن حنيف والي الإمام عليه السلام على البصرة وحاول أن يثني عائشة ومن معها عن غيِّهم لتجنُّب وقوع القتال، ولكن محاولاته باءت بالفشل^(٢)، فاصطدم الفريقان واقتتلا، ولم يحجز بينهم إلا الليل، فلمَّا عضَّت الحرب الطرفين تنادوا لعقد هدنة مؤقتة، على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة يسأل أهلها، فإن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة خرج ابن حنيف من البصرة، وإلا خرج عنها طلحة والزبير، وعاد كعب بن مسور رسول الطرفين إلى المدينة بادِّعاء أسامة بن زيد أنَّ طلحة والزبير بايعا مكرهين، وأن أهل المدينة مخالفون لرأي أسامة، فاستغلَّها زعماء جيش عائشة، فهجموا في ليلة ذات رياح ومطر على قصر الإمارة حيث يوجد عثمان بن حنيف، فقتلوا أصحابه وأسروه، واتفوا لحيته ورأسه وحاجبيه، ولكنهم خافوا من قتله؛ لأنَّ أخاه سهل بن حنيف كان والياً من قبل الإمام علي عليه السلام على المدينة^(٣).

حركة الإمام عليه السلام للقضاء على التمرّد^(٤)

وما أن علم الإمام عليه السلام بحركة عائشة وطلحة والزبير نحو البصرة وإعلانهم العصيان، حتى عدل عمّا كان يخطّطه لمعالجة موقف معاوية والشام، واتّجه نحو

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٥، الكامل في التاريخ ٣: ٢١٠، البداية والنهاية ٧: ٢٥٨.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٩، الكامل في التاريخ ٣: ٢١١.

(٣) الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٢٧ - ١٢٩، تاريخ الطبري ٣: ٣٨٣، الكامل في التاريخ ٣: ٢١٥.

(٤) الإمامة والسياسة: ٧٤، وتأريخ الطبري: ٥ / ٥٠٧.

البصرة بجيش يضمّ وجوه المهاجرين والأنصار، وكتب إلى الأمصار يوضح الأمر ويستمدّ العون، وأرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر، فلم يستجب إليها أبو موسى الأشعري للإمام عليه السلام، بل أخذ يثبّط الناس عن مناصرته، فأرسل الإمام عليه السلام ولده الحسن وعمار بن ياسر ثمّ تبعهم مالك الأشتر، فعزلوا أبا موسى، وتحركت الكوفة بكلّ ثقلها لنصرة أمير المؤمنين عليه السلام، ولحقت به في (ذي قار) (١).

وأكثر الإمام عليه السلام من مراسلة طلحة والزبير وإيفاد الرسل إليهم ينصحهم عسى أن يعودوا لرشداهم ويدركوا خطورة فتنهم، فيجنبوا الأمة المصائب وسفك الدماء (٢)، فخشيت عائشة ومن معها من اقتناع قادتها وجموع الناس معها بحجج الإمام عليه السلام، فاسرعوا لملاقاته، فلما توقفوا للقتال خرج الإمام عليه السلام إلى الزبير وطلحة، فوقفوا بين الصّفين، فقال الإمام عليه السلام لهما: «لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجلاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً، فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ألم أكن أخاكم في دينكما؟ تحرّمان دمي وأحرّمت دمكما، فهل من حدّث أحلّ لكما دمي؟» (٣). ثمّ قال لطلحة: «أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبّأت عرسك في البيت؟! أما بايعتني؟» ثمّ قال للزبير: «أتذكر يا زبير يوم مررت برسول الله ﷺ في بني غنم، فنظر إليّ، فضحك وضحكت إليه، فقلت له: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ: «ليس بمزّه - أي: ليس به زهو - لتقاتلته وأنت له ظالم»، قال الزبير: اللهم نعم» (٤).

وروي: أنّ الزبير أعتزل الحرب، وقتل بعيداً عن ساحة المعركة بعد أن استعرت الفتنة (٥). كما أنّ طلحة قتله مروان بن الحكم في ساحة المعركة (٦).

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣ - ٤٩٥ و ٥٠٠ - ٥٠٣.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٩٠.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ١٥٤، الكامل في التاريخ ٣: ٢٣٩، البداية والنهاية ٧: ٢٦٨.

(٤) الكامل في التاريخ ٣: ٢٣٩، البداية والنهاية ٧: ٢٦٨، إمتاع الأسماع ١٣: ٢٤٢.

(٥) الإمامة والسياسة ١: ٩٢، تاريخ الطبري ٣: ٥٣٩، مروج الذهب ٢: ٣٦٣.

(٦) تاريخ البعقوبي ٢: ١٧٨، مروج الذهب ٢: ٣٦٥، الإمامة والسياسة ١: ٩٧.

وكان الإمام عليه السلام يطمح حتى آخر لحظة قبل نشوب الحرب الى أن يرتدع الناكثون عن غيهم، فلم يبدأهم بالقتال، وقال لأصحابه: «لا يرمين رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح، حتى أحدث إليكم، وحتى يبدؤوكم بالقتال والقتل»^(١). وشرع أصحاب الجمل بالرمي، فقتل رجل من أصحاب الإمام، ثم قتل ثان وثالث، عندها أذن عليه السلام^(٢) بالرد عليهم والدفاع عن الحق والعدل، والتحم الجيشان واقتتلا قتالاً رهيباً، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يشرف على ساحة المعركة، فرأى أصحاب الجمل يستبسلون في الدفاع عن جملهم، فنادى بأعلى صوته: «ويلكم! اعقروا الجمل؛ فإنه شيطان».

وهجم الإمام عليه السلام وأصحابه حتى وصلوا إلى الجمل فعمروه، وفر من بقي من أصحاب الجمل من ساحة المعركة، وأمر عليه السلام بعد ذلك بحرق الجمل وتذرية رماده في الهواء، لئلا تبقى منه بقية يفتن بها السذج، ثم قال الإمام عليه السلام: «لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني اسرائيل»، ومدّ بصره نحو الرماد الذي تناثر في الهواء، فتلا قوله تعالى: ﴿...وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^{(٣)(٤)}.

مواقف الإمام بعد المعركة

كتب الله النصر لأمير المؤمنين عليه السلام على مخالفه، ووضعت الحرب أوزارها، فأعلن الإمام عليه السلام العفو العام، وأمر الإمام عليه السلام محمد ابن أبي بكر أن يتعهد أمر أخته عائشة، فأدخلها محمد البصرة في آخر الليل، وأنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة ٩: ١١١.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٩٥، مروج الذهب ٢: ٣٦١.

(٣) سورة طه ٢٠: ٩٧.

(٤) شرح نهج البلاغة ١: ٢٦٦.

(٥) تاريخ الطبري ٣: ٥٣٨، الكامل في التاريخ ٣: ٢٥٥.

وطاف الإمام عليه السلام بالقتلى، وخاطب كلاً منهم بقوله: «قد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقّاً، فهل وجدتُ ما وعدك ربُّك حقّاً؟»^(١).

وبعد ذلك دخل أمير المؤمنين عليه السلام بيت المال في البصرة، فقسّمه بين الناس بالسوية، فنال كلّ فرد منهم خمسمائة درهم، وأخذ الإمام أيضاً خمسمائة درهم كأحدهم، ولم يبقَ شيء من المال، فجاءه رجل لم يحضر الواقعة وطالبه بحصّته، فدفع إليه الإمام ما أخذه لنفسه، ولم يصب شيئاً^(٢).

ثم أمر الإمام علي عليه السلام بتجهيز عائشة وتسريحها إلى المدينة بصحبة أخيها وعدد من النساء ألبسهن ثياب الرجال وقلّدهن السيوف لرعاية شؤونها^(٣).

وبعد أن هدأت العاصفة التي أثارها أصحاب الجمل، تحرّك الإمام عليه السلام نحو الكوفة ليتّخذها مقراً له، بعد أن بعث لأهلها برسالة أوضح فيها بإيجاز تفاصيل الأحداث، وولّى على البصرة عبد الله بن عباس وشرح له كيفية التعامل مع سكّانها بعد الذي وقع منهم^(٤).

الإمام علي عليه السلام والقاسطين

سارع معاوية بالإعداد لمحاربة الإمام عليه السلام، واستعان بعمر بن العاص لما كان يتمتع به من قدرة على التحايل والمكر، وساومه على أن تكون حصته ولاية مصر^(٥). وبعد تعبئة أهل الشام للحرب، بدأ معاوية بتحريك قواته نحو أعالي الفرات في وادي صفّين، لاحتلالها ومنع تقدّم قوات الإمام عليه السلام وحبس الماء عنهم، وأضرّ الظمأ بقوات الإمام التي وصلت متأخرة إلى صفّين، فأذن الإمام عليه السلام لقواته بالهجوم

(١) الإرشاد للمفيد ١: ٢٥٥، بحار الأنوار ٣٢: ٢٠٨.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٧١، شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٩.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ٩٨، مروج الذهب ٢: ٣٧٠، تذكرة الخواص ١: ٣٩٤.

(٤) الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٨٢، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٥.

(٥) وقعة صفّين لابن مزاحم: ٣٤ - ٤٠، الفتوح لابن أعثم ٢: ٥١٠، الإمامة والسياسة ١: ١١٥.

على شاطئ الفرات، وتمت إزاحة قوات معاوية عن ضفة النهر، ولكن الإمام عليه السلام لم يقابل أهل الشام بالمثل، بل فسخ لهم المجال لأخذ الماء^(١). وفتح الإمام عليه السلام عدة قنوات للحوار، محاولاً إدخال معاوية في بيعته، وبعث إليه عدة مندوبين عنه، وقال لهم: «إئتوا هذا الرجل - أي معاوية - وادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة، فكان جواب معاوية لهم: انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف»^(٢).

وجرت مناوشات بين الجيشين قبل أن تستعر الحرب التي سقط خلالها عدد كبير من المسلمين، وخرج عمار بن ياسر فقال: «والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر؛ لكننا على الحق وكانوا على الباطل». وهجم على جيش معاوية، فاشتبكت عليه الرماح، وطعنه أبو العادية وابن جونس السكسكي، وروي أنهما اختصما في رأس عمار بن ياسر إلى معاوية، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص جالساً، فقال لهما: ليطب به أحد كما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية»^(٣).

وباستشهاد عمار وقعت الفتنة بين صفوف جيش معاوية؛ لما يعلمونه من حديث النبي ﷺ فيه، فأشاع معاوية أن الذي قتل عماراً هو من جاء به إلى الحرب، لا الذي قتله، وانطلقت على أهل الشام هذه الحيلة وهذا التوجيه^(٤)، وبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال راداً على هذه الخديعة: ونحن قتلنا حمزة؛ لأننا أخرجناه إلى أحد^(٥)؟ واستمر القتال حتى بدت الهزيمة على جيش معاوية، فاستدعى معاوية عمراً بن العاص، وطلب منه المشورة والحيلة، فقال له: ألق إليهم أمراً، إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا، أدهمهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم^(٦).

(١) وقعة صفين: ١٦١ - ١٦٣، الفتوح لابن أعمش ٣: ٥، مروج الذهب ٢: ٣٧٥، شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٢.

(٢) وقعة صفين: ١٨٧ - ١٨٨، الفتوح لابن أعمش ٣: ٢٠ - ٢١، تاريخ الطبري ٣: ٥٦٩، الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٥.

(٣) وقعة صفين: ٣٤٠، المناقب للخوارزمي: ٢٣٣، شرح نهج البلاغة ٨: ٢٤.

(٤) وقعة صفين لابن مزاحم: ٣٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨.

(٥) العقد الفريد ٥: ٩٠، تذكرة الخواص ١: ٤١٩.

(٦) وقعة صفين: ٤٧٦، شرح نهج البلاغة ٢: ٢١٠.

فأمر معاوية أن ترفع المصاحف على الرماح، ونادى أهل الشام: يا أهل العراق، هذا كتاب الله بيننا وبينكم حكماً، فانطلت هذه الخدعة على جيش الإمام عليه السلام وقالوا: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، وكان أشد الناس في ذلك أحد كبار قادة جيش الإمام، وهو الأشعث بن قيس.

وحاول الإمام عليه السلام توعية المخدوعين، وقال لهم عما عرضه معاوية: «إنها كلمة حق يراد بها باطل»، فخطبوا الإمام باسمه الصريح قائلين: «يا علي، أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت له، وإلا ندفعك برمّتك إلى القوم، أو نفعل بك كما فعلنا بابن عقّان، ولم يجد الإمام عليه السلام مع المخدوعين سبيلاً فقال: «فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما شئتم»^(١).

وانتهى الأمر إلى موادة مؤقتة، وتعيين حكمين للبت في الأمر، فأراد الإمام ترشيح عبد الله بن عباس أو مالك الأشتر، لما يعلم من إخلاصهما ووعيهما، فأصرّ المخدوعون على ترشيح أبي موسى الأشعري، وحضر عمرو بن العاص ممثلاً لأهل الشام بدون معارضة من أحد، وتمّ الاتفاق على تأجيل البت في قرار الحكمين إلى رمضان عام (٣٧ هـ).

ورجع الإمام عليه السلام إلى الكوفة مثقلاً بالهموم والآلام، يرى باطل معاوية قد استحکم، وأمره أوشك أن يتم، وينظر إلى جيشه وقد فتنه التمرّد لا يستجيب لأمره، وحن الأجل الذي ضرب لاجتماع الحكمين، أبو موسى الأشعري الذي يحمل الغباء السياسي وقلة الولاء للإمام علي عليه السلام، وعمرو بن العاص الماكر المخادع الطامع باقصاء خط أهل البيت عليه السلام من الميدان السياسي، طمعاً بالملك وشركته مع الطليق ابن الطليق معاوية، واتفق الإثنين في اجتماع مغلق على خلع الإمام عليه السلام ومعاوية، واختيار عبد الله بن عمر بن الخطاب ليكون الخليفة المقترح.

وبادر ابن عباس محدراً الأشعري من أن يخدعه ابن العاص، وقال له: «والله إنني لأظنه قد خدعك... إن اتّفقتما على أمر، فقدّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤ - ٣٥، مروج الذهب ٢: ٣٩٠، الكامل في التاريخ ٣: ٣١٦.

أنت بعده؛ فإنَّ عَمراً رجلاً غادر، لا آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك.

فقام الأشعري فخطب وخلع الإمام علياً عليه السلام، ثمَّ إنبرى عمرو فخطب وأكّد خلع الإمام عليه السلام وثبت معاوية لولاية الأمر^(١)، وتلك الغدرة ظفر معاوية بالنصر، ولكن بالجور والخداع، وهرب أبو موسى إلى مكّة، وغرق أهل العراق في الفتنة، وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه.

واعترلت فرقة - تناهز اثني عشر ألفاً - جيش الإمام عليه السلام، والتحقوا بحروراء، وخلعوا بيعة الإمام عليه السلام، واعترضوا على التحكيم ورفعوا شعار (لا حكم إلا لله) على الرغم من أنّهم هم الذين أصرّوا على الإمام عليه السلام ليقبل بالتحكيم^(٢).

الإمام علي عليه السلام والمارقين

لما بلغ الإمام عليه السلام خبر التحكيم تألم كثيراً، وخطب في الناس وهو يدلّهم على طريق إصلاح الخطأ قائلاً: «ألا إنّ هذين الرجلين - أبا موسى الأشعري وابن العاص - اللذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحيا ما أمات القرآن، واتّبع كلّ واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكمنا بغير حجة بينة ولا سنة ماضية... فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعدّوا وتأهبوا للمسير إلى الشام»^(٣).

وكتب الإمام عليه السلام إلى عبد الله بن عباس ليعبأ أهل البصرة ويلتحق به لقتال معاوية، ولكن تمرّد الخوارج الذين تجمّعوا من البصرة والكوفة متّجهين نحو النهروان وعبّثهم بأرواح المسلمين أقلق أصحاب الإمام عليه السلام وطلبوا منه أن يقضي على الخوارج أولاً^(٤)، فاتّجه الإمام بجيشه الى الخوارج المارقين، وبدأ ينصحهم وإعانتهم على

(١) وقعة صفّين لابن مزاحم: ٥٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٥١ - ٥٢، مروج الذهب ٢: ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٣، الكامل في التاريخ ٣: ٣٢٦.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٥٧، الكامل في التاريخ ٣: ٣٣٨.

(٤) تاريخ الطبري ٤: ٥٧ - ٥٩، الكامل في التاريخ ٣: ٣٣٩ - ٣٤١.

تشخيص الحق وتجنب الأمة إراقة المزيد من الدماء، لكنهم أصرّوا على غيهم، وطالبوا الإمام بتكفير نفسه وإعلان توبته، فقال لهم: «أبعد إيماني برسول الله ﷺ، وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين».

وهجم الخوارج وهم يتصايحون: لا حكم إلا لله... الرواح الرواح إلى الجنة، ولم تمض إلا ساعة حتى أريد أكثرهم، ولم ينج منهم إلا أقل من عشرة، ولم يقتل من أصحاب الإمام إلا أقل من عشرة أشخاص^(١).

واستغل معاوية أجواء الاضطراب في العراق، فوجّه جيشاً لاحتلال مصر، وحاول الإمام عليه السلام أن يمدّ محمد بن أبي بكر واليه على مصر بالعدة والعدد، لكنّ الأخبار سرعان ما وردت إليه باحتلال مصر واستشهاد محمد بن أبي بكر، فولى الإمام مالكا الأشر على مصر، وكتب إليه عهده المشهور في إدارة الحكم وسياسة الناس، ولكن معاوية بما كان يملك من وسائل شيطانية تمكّن من دس السم لمالك واغتياله^(٢).

الإمام علي عليه السلام سيد شهداء المحراب

واجتمعت زمر الشرّ على أن تطفئ نور الهدى ليسيّط الظلام وينتشر الفساد، فامتدت يد الشيطان لتصافح يد ابن ملجم الشقي في عتمة الليل، وفي ختلة وغدرة لتهوي بالسيف المسموم على هامة طالما استدبرت الدنيا واستقبلت بيت الله وهي ساجدة له؛ لتغادر الدنيا من بيت هو الله، وتخرج إلى الله. في الليلة التاسعة عشرة من شهر رمضان؛ كان الإمام عليه السلام يكثّر التأمل في السماء وهو يردّد «ما كُذِّبْتُ ولا كُذِّبَتْ إمّا الليلة التي وعدت بها»^(٣).

(١) تاريخ الطبري ٤: ٦٢ - ٦٧، مروج الذهب ٢: ٤٠٥، الكامل في التاريخ ٣: ٣٤٣ - ٣٤٨.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٧١ - ٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٣٥٢، شرح نهج البلاغة ٦: ٧٤ - ٧٥.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ١٦، روضة الواعظين للنيسابوري: ١٣٦، الصواعق المحرقة: ٨٠.

وأمضى الإمام ليلته بالدعاء والمناجاة، ثم خرج إلى بيت الله لصلاة الصبح، فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله، فينادي: الصلاة... الصلاة. ثم شرع عليه السلام في صلاته، وبينما هو منشغل بمناجاة ربه، أهوى المجرم الشقيّ ابن ملجم بالسيف على رأسه، وهو يصيح: (الحكم لله لا لك)، وقدّ السيف الرأس، فهتف الإمام عليه السلام: «فزت وربّ الكعبة»^(١).

ولما علت الضجّة في المسجد، أقبل الناس مسرعين، فوجدوا الإمام عليه السلام طريحاً في محرابه، فحملوه إلى داره وهو معصوب الرأس، وألقي القبض على المجرم ابن ملجم، وأوصى الإمام عليه السلام ولده الحسن عليه السلام وبنيه وأهل بيته أن يحسنوا إلى أسيرهم، وقال: «النفس بالنفس، فإن أنا مُتّ فاقتلوه كما قتلني، وإن أنا عشت رأيت رأيي فيه»^(٢).

وأوصى الإمام عليه السلام ولديه الحسن والحسين عليهما السلام وجميع أهل البيت بوصايا عامّة، فقال:

«أوصيكم بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحقّ واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، واعملا بما في الكتاب، ولا تأخذكما في الله لومة لائم»^(٣).

ولم يمهل الجرح أمير المؤمنين طويلاً، فدنا منه الأجل المحتوم، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(٤) ثم فاضت روحه الطاهرة إلى جنة المأوى^(٥).

ونفض الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام بغسل وتكفين الجثمان الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم صلى عليه الإمام الحسن عليه السلام ومعه ثلّة من أهل بيته وأصحابه، ثم

(١) روضة الواعظين: ١٣٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٢، مقاتل الطالبين: ٢٢، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٠.

(٢) روضة الواعظين: ١٣٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٢، مقاتل الطالبين: ٢٢، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ٣: ٧٦، تاريخ الطبري ٤: ١١٣، المناقب للخوارزمي: ٣٨٤.

(٤) سورة الصافات ٣٧: ٦١.

(٥) بحار الأنوار ٤٢: ٢٩٣، الطرائف لابن طاووس: ٤٤.

حملوه الى مثواه الأخير، فدفن في النجف قريباً من الكوفة، وتمت كل الإجراءات ليلاً^(١).

ثم وقف صمصعة بن صوحان ليؤبّن الإمام عليه السلام فكان ممّا قال:
«لقد شرف الله مقامك، وكنت أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ نسباً، وأولهم إسلاماً، وأوفاهم يقيناً... لقد كانت حياتك مفاتيح الخير ومغاليق الشر، وإنّ يومك هذا مفتاح كل شرّ ومغلاق كل خير، ولو أنّ الناس قبلوا منك؛ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة»^(٢).

* * *

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤٢ / ٢٩٥ - ٢٩٦.

الفصل الخامس

من تراث الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام

إنّ أوّل عمل اهتمّ به الإمام عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله - وقد كان بوصيّة منه صلى الله عليه وآله - هو جمعه للقرآن الكريم، وامتاز باشماله على ترتيب النزول وتضمّن معلومات فريدة عن شأن النزول والتفسير والتأويل الذي تحتاجه أمة محمد صلى الله عليه وآله، وقد عرضه على الخليفة الأوّل فردّ عرض الإمام عليه السلام قائلاً: لا حاجة لنا به، وعقب على جواب الخليفة بما يفيد أنّهم سوف لا يحصلون عليه بعد ذلك اليوم، وهكذا كان، والمعروف أنّه عند أهل البيت عليه السلام ويتوارثه الأئمة من أبنائه.

وأثر عن الإمام ما سمّي بالصحيفة التي تضمّنت أحكام الدّيّات، وقد روى عنها البخاري ومسلم وابن حنبل، كما أثر عنه ما سمّي بالجامعة التي تضمّنت أو جمعت كلّ ما يحتاج إليه الناس من حلال وحرام، ووصفها الإمام الصادق عليه السلام بأنّ طولها سبعون ذراعاً، وليس من قضية إلّا وهي فيها حتى أرش الخدش.

وتضمّن كتاب الجفر ما يرتبط بحوادث المستقبل وصحف الأنبياء السابقين، وقد يشبهه مصحف فاطمة وهو ما أملت عليه فاطمة الزهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها ممّا كانت تُلهم به من أمور^(١). وكلّ هذه الكتب تعتبر من موارث الإمامة التي يتناقلها الأئمة عليهم السلام إماماً بعد إمام.

وقد تصدّى عددٌ من علماء الأئمة إلى جمع ما أثر عن الإمام عليه السلام من خطب ورسائل وكلمات، وسمّيت بأسماء تتناسب مع أغراض جامعها، وأولّها وأشهرها ما سمّي بـ (نهج البلاغة) للشريف الرضي المتوفى (٤٠٤ هـ)، وقد انطوى على روائع

(١) أصول الكافي: الجزء الأول باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة. وراجع: سيرة الأئمة الاثني عشر: ١ / ٩٦ - ٩٩ و ٢٧٤ - ٢٩٤.

فكر الإمام في شتى المجالات العقائدية والأخلاقية وأنظمة الحكم والإدارة والتأريخ والاجتماع وعلم النفس والدعاء والعبادة وسائر العلوم الطبيعية والإنسانية، وهو ما اختاره الشريف الرضي من خطبه ورسائله ووصاياه وكلماته البليغة. ومن هنا فقد تصدّى علماء آخرون لجمع ما لم يجمعه الشريف الرضي وسمّى بمستدركات نهج البلاغة.

و جمع النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ) ما رواه الإمام عليّ عن رسول الله ﷺ وسمّاه بـ (مسند الإمام عليّ عليه السلام).

و جمع الآمدي (المتوفى بين ٥٢٠ و ٥٥٠ هـ) قصار كلماته الحكمية وسمّاه بـ (غرر الحكم ودرر الكلم).

و جمع أبو إسحاق الوطواط (المتوفى بين ٥٥٣ و ٥٨٣ هـ) من كلامه ما سمّاه بـ (مطلوب كل طالب من كلام عليّ بن أبي طالب). وأثرت عن الجاحظ المتوفى (٢٥٥ هـ) (مائة كلمة) للإمام عليّ عليه السلام و(نثر اللثالي) جمع الطبرسي صاحب مجمع البيان، وكتاب صفين لنصر بن مزاحم اشتمل على مجموعة من خطبه وكتبه. و(الصحيفة العلوية) وهي مجموعة من الأدعية التي أثرت عنه عليه السلام.

في رحاب نهج البلاغة

إذا كان (القرآن الكريم) هو معجزة النبوة؛ فإنّ (نهج البلاغة) معجزة الإمامة... فليست هذه العقلية العظيمة المتجلّية بذلك الأسلوب العلوي الواضحة في كلّ فقرة من فقرات (النهج) وفي كلّ شذرة من تلك الشذور إلّا غرس ذلك النبي العظيم المستمدّ من وحي الله تعالى، فما من موضوع يطرقه الإمام إلّا وترى نور الله يشعّ أمامه وهدى الرسول ينير له الطريق»^(١).

(١) حياة أمير المؤمنين في عهد النبي: ٤٠٢، تأليف: محمّد صادق الصدر.

وقال الشريف الرضي عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدّم وأخروا، لأنّ كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي^(١).

وإليك مجموعة مختارة من قصار كلماته وبيّنات حكمه في عدة محاور مختارة:

١ - في رحاب العقل والعلم والمعرفة :

قال عليه السلام:

١ - لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل، والعقل ينبوع الخير وأشرف مزيّة، وأجمل زينة.

٢ - العقل رسول الحقّ. العقل أقوى أساس. والإنسان بعقله. وبالعقل صلاح كلّ أمر.

٣ - العلم غطاء وسائر العقل حسام قاطع، فاسترّ خلل خلّقتك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك. والفكر مرآة صافية.

٤ - العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما فأيهما غلب كانت في حيّزه.

٥ - أفضل حظّ الرجل عقله، إن ذلّ أعزّه، وإن سقط رفعه، وإن ضلّ أرشده، وإن تكلم سدّده.

٦ - إنّ أفضل الناس عند الله من أحيا عقله وأمات شهوته وأتعب نفسه لإصلاح آخرته.

٧ - على قدر العقل يكون الدين. ما آمن المؤمن حتى عقل. قيمة كلّ امرئ عقله.

(١) نهج البلاغة ١: ١١ (مقدمة الشريف الرضي)، الصراط المستقيم للعالمي ١: ٢٢١ (باب ٧، فصل ١٩).

٢ - في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة :

١ - قال ﷺ: «وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء وعمر فيكم نبيّه أزماناً حتى أكمل له ولكم - فيما أنزل من كتابه - دينه الذي رضي لنفسه.

٢ - ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء داءكم، ونظم ما بينكم، و ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله، ولا يعوجّ فيقام ولا يزيغ فيستعجب... ولا تخلقه كثرة الردّ وولوج السمع... لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائب، ولا تكشف الظلمات إلّا به.

وأما سنة رسول الله ﷺ فقد دعا الإمام ﷺ إلى العمل بها، وبين موقع الأئمة المعصومين وموقفهم المشرف في إيصال السنة الصحيحة إلى الأمة وإحياء ما أماته المبطلون من سنة رسول الله ﷺ وأسباب انحراف من انحرف عن مدار السنة.

قال ﷺ: «اقتدوا بهدي نبيكم فإنّه أفضل الهدي، واستنوا بسنّته فإنّها أهدى السنن.

وقال ﷺ: أحبّ العباد إلى الله المتأسي بنبيّه ﷺ والمقتصّ أثره. وقال ﷺ: إرض بمحمّد ﷺ رائداً وإلى النجاة قائداً.

وقال ﷺ: إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً، ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وقال ﷺ: لا يُقاس بآل محمّد ﷺ من هذه الأمة أحد.. هم عيش العلم وموت الجهل.. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه.. هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته. عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية. هم موضع سرّ رسول الله ﷺ وحماة أمره وعيبة علمه

وموئل حكمه وكهوف كتبه وحبال دينه، هم مصابيح الظلم وينابيع الحكم ومعادن العلم ومواطن الحلم.

وقال عليه السلام: «وإني لعلى بيّنة من ربّي ومنهاج من نبّي، وإني لعلى الطريق الواضح ألفظه لفظاً»^(١).

٣ - في رحاب التوحيد والعدل:

قال عليه السلام في مجال إثبات وجوده تعالى: «الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم على أن لا شبه له.

وقال: عجبت لمن شكّ في الله وهو يرى خلق الله.. بل ظهر للعقول بما أَرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم».

وحين سئل عليه السلام: هل رأيت ربّك؟ أجاب: «وكيف أعبد ربّاً لم أره؟ ثمّ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.. عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بصّر».

وجاء في دعائه المعروف بدعاء الصباح: «يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملائمة كيفياته. يا من قرب من خطرّات الظنون وبعد عن لحظات العيون، وعلم بما كان قبل أن يكون...» .

لقد شحّن الإمام خطبه العلوية بآيات القدرة الإلهية السماوية والأرضية، وأطنب فيها إطناب الخير البصير، ففصّل آيات القدرة والعظمة تفصيلاً يعطي للمطالع إيماناً وخشوعاً لله وخضوعاً لعظمته، بحيث يلمس السامع لخطبه عليه السلام أنّه كما قال: «والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً».

(١) راجع المعجم الموضوعي لنهج البلاغة: ٤٢ - ٥٣ و ١٠١ وتصنيف غرر الحكم: ١٠٩ - ١١٧.

وقال ﷺ: مستدلاً على وحدانيته: «واعلم يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، واعلم يا بني أن أحداً لم ينبئ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسول ﷺ فارض به رائداً».

وقال عن عدله تعالى: «وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه وعدل في كل ما قضى. وقال: فإنه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح وإن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد. وما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً».

٤ - في رحاب النبوة والإمامة (القيادة الإلهية)

إن الهداية الإلهية عبر القادة المهيئين الذين اختارهم الله لهداية عباده هي سنة الله الدائمة لخلقهم الذين زودهم بالعقل والعلم وسلّحهم بسلاح الإرادة والاختيار. وتبدأ هذه السنة لهذه البشرية باختيار آدم خيرة من خلقه.. قال ﷺ: «فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضهم ممّا يؤكد عليهم حجة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً قرناً... فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام.. حتى أخرج آخرهم نبينا محمداً ﷺ من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناه».

ووصف الإمام ﷺ زهد الأنبياء وشجاعتهم وتواضعهم ورعاية الله لهم وتربيته لهم بالاختبار والابتلاء وتعريضهم للأذى في سبيل الله، وبين وظائفهم المتمثلة في التبليغ والدعوة إلى الله سبحانه والتبشير والإنذار وإقامة حكم الله في الأرض وهداية الناس بإخراجهم من الجهل والضلالة ومجاهدة أعداء الله.

وتستمر مسيرة القادة الهداة الربانيين على مدى العصور إلى يوم القيامة، «فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مستوراً لئلا تبطل

حجج الله وبيّناته...» وحيث خُتِمت النبوة بمحمد ﷺ لم تنقطع الهداية الإلهية بل انتهت أمر الهداية إلى عترته التي هي: «خير العتر، إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم ونبايح الحكم، والأعظمون عند الله قدراً.. يحفظ الله بهم حججه وبيّناته.. بهم عُلم الكتاب وبه عُلّموا، فيهم كرائم القرآن وكنوز الرحمن، فهم الراسخون في العلم... يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، فهم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، لهم خصائص حقّ الولاية وفيهم الوصية والوراثة».

لقد أكّد الامام على موقف أهل البيت القيادي - الفكري والسياسي - وأدان زحزحة القيادة عن موقعها الرفيع الذي عيّنه رسول الله ﷺ وخصّ بها أهل البيت عليه السلام واعترض على خطّ الخلفاء جملةً وتفصيلاً، بالرغم من اضطراره للتنازل عن حقّه، واجتهد وأخلص في تقديم الأطروحة النبوية للقيادة بعد الرسول بشكل ناصع، وجاهد من أجل إحقاق الحقّ بشكل حكيم وأسلوب كان ينسجم مع حساسية الظرف الذي كانت تمرّ به الدولة والأمة الإسلامية حينذاك، واستطاع أن يقدم النظرية كاملة ويعدّ العدة لتطبيقها حينما تسمح له الظروف^(١).

٥ - في رحاب الإمام المهدي عليه السلام:

إنّ التبشير بقضية الإمام المهدي عليه السلام لتحقيق العدل الإلهي المنتظر من القضايا الأساسية التي اهتمّ بها القرآن الكريم والنبي العظيم والإمام المرتضى عليّ بن أبي طالب عليه السلام على الرغم من التشتت الذي كان يعيشه ذلك المجتمع الناشئ بعد رحيل الرسول ﷺ، ويصوّر الإمام بعض معالم مجتمع الإمام المهدي عليه السلام لهم ولنا

(١) راجع المعجم الموضوعي لنهج البلاغة: ٨٧ - ١١٦ و ٣٧٤ - ٤٤٥.

بقوله: «ألا وفي غد - وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون - يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوئ أعمالها، وتُخرج له الأرض أفايد كبدها، وتلقي إليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدلُ السيرة، ويُحيي ميّت الكتاب والسنة».

إنّها رؤية دقيقة ومضيئة وواضحة المعالم لدولة إسلامية تقوم بإدارة المجتمع الإنساني في الأرض كلّها، تعتمد العدل أساساً في مسيرتها ومنهجها معتمدة على الكتاب والسنة اللذين أَمَاتَهُمَا الظالمون، وقال عليه السلام عن قائدها: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي»^(١).

وقال عليه السلام: «يا كميل، ما من علم إلا وأنا أفُتّحه، وما من سرٍّ إلا والقائم عليه السلام يختمه.. يا كميل، لا بدّ لماضيكم من أوبة، ولا بدّ لنا فيكم من غلبة...»^(٢).

بنا يختم الدين كما بنا فُتّح، وبنا يستنقذون من ضلالة الفتنة كما استنقذوا من ضلالة الشرك، وبنا يؤلّف الله قلوبهم في الدين بعد عداوة الفتنة كما ألّف بين قلوبهم ودينهم بعد عداوة الشرك^(٣). ولو قد قام قائمنا؛ لأنزلت السماء قطرها وأخرجت الأرض نباتها، وليذهب الشحناء من قلوب العباد، وأصلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة من العراق إلى الشام لا تضع قدمها إلا على النبات وعلى رأسها زيتها لا يهيجها سبع ولا تخافه»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٢: ٢١ / خ ١٣٨.

(٢) عن بشارة المصطفى: ٥١ و ٥٤ / ح ٤٣ (ذكر وصيته عليه السلام لكميل).

(٣) شرح الأخبار للمغربي ٣: ٣٨٤ / ح ١٢٥٨، الملاحم والفتن لابن طاووس: ١٧٧ (ذكر ما نقله عن كتاب ابن حماد باب ١٩٢ وص ٣١٨ (ما نقله من كتاب الفتن لأبي يحيى زكريا) باب ١٩).

(٤) الخصال للصدوق: ٦٢٦ / ح ١٠ (حديث الأربعمئة)، تحف العقول: ١١٥ (ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في آدابه لأصحابه).

٦ - في رحاب العبادات والفرائض :

قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سبحانه فرض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلّفوها، ولم يأمركم إلاّ بحسن، ولم ينهكم إلاّ عن قبيح.

وقال عليه السلام: عليك بحفظ كلّ أمر لا تعذر بإضاعته.

وقال: أوّل ما يجب عليكم الله سبحانه شكر أيّاديه وابتغاء مرضيه، وطوبى لمن حافظ على طاعة ربّه، وسارعوا إلى فعل الطاعات وسابقوا إلى فعل الصالحات، فإن قصّرتُم فيّاكم أن تقصّروا عن أداء الفرائض، ولا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض، ولا عبادة كأداء الفرائض.

واهتمّ الإمام عليه السلام ببيان فلسفة جملة من التشريعات قائلاً: فرض الله سبحانه الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبيحاً للرزق، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق، والحجّ تقوية للدين، والجهاد عزّاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الأرحام مناة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنا تحصيناً للأنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادة استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق، والإسلام أماناً من المخاوف، والإمامة نظاماً للأمة، والطاعة تعظيماً للإمامة.

وقال عليه السلام أيضاً: زكاة البدن الجهاد والصيام، وزيارة بيت الله أمن من عذاب جهنم .

وقال عليه السلام: وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وبأين من فعله بجُهدك، وغاية الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، والجهاد عماد

الدين ومنهاج السعداء، ومن جاهد على إقامة الحق وفق، والمجاهدون تفتح لهم أبواب السماء، وثواب الجهاد أعظم الثواب»^(١).

٧ - في رحاب الأخلاق والتربية :

اعتنى الإمام المرتضى عليه السلام بتربية المجتمع الإسلامي والإنساني وحاول أن يعالج الانحراف الأخلاقي في الإنسان من خلال التعرف على جذوره العميقة أولاً، فوصف الداء الأساس كما وصفه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله عليه السلام: ألا وإن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ثم بين السبب الأعظم الكامن في هذا الحب حينما أوضح الأسباب العميقة التي كانت تكمن وراء التآمر على الأطروحة النبوية للخلافة والسر في استلاب الحكم منه على الرغم من تواتر النصوص النبوية الكثيرة وإتمام الحجّة على المسلمين قائلاً: بلى لقد سمعوها ووعوها ولكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها.

والذي يترتب على هذا الحب الشديد أنّ الإنسان سوف يفقد بصيرته ويُسَلِّ عقله وحينئذ سيستخدم مختلف الوسائل للوصول إلى ما يأخذ بلبّه ويصبوا إليه فإنّ «حبّ للشيء يُعمي ويصم» ولهذا برّر الخلفاء تَقْمِصَهُم الخلافة بمختلف التبريرات التي دحضتها حجج الإمام عليه السلام الدامغة، ولكن استمرّ التحدي والإصرار على الموقف الذي أدانه الإمام عليه السلام. وإذا سألنا الإمام عليه السلام عن الدواء الناجع لعلاج هذا المستوى من الانحراف؛ وجدنا الجواب جاهزاً في الخطبة التي تضمّنت وصفه الدقيق للمتّقين وهي الخطبة المعروفة بخطبة همّام حيث وضّح السرّ الذي أوصلهم إلى هذه المرتبة من الكمال المتمثّل بالتقوى بقوله: «لقد عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم». وهكذا تكون المعرفة الحقيقية بالله العظيم سبباً في حقارة الدنيا في أعين عباده المتّقين، وإذا صغرت الدنيا في أعينهم؛ لم تكن الدنيا غاية همّتهم ولم يحرصوا على اقتنائها، كما لم يحرص عليّ بن أبي طالب عليه السلام عليها فقد

(١) تصنيف غرر الحكم: ١٧٥ - ١٩٠ و ٣٣١ - ٣٣٥، والمعجم الموضوعي لنهج البلاغة: ١٤٠ - ١٥٠ و ٢١٦ - ٢٣٩.

٨ - في رحاب الدعاء والمناجاة :

أ - من دعائه فى التوبة والإنابة الذى علّمه كميل بن زياد النخعى:

(۲) الفرقان (۲۵): ۷۷.

لِي الدُّنُوبِ الَّتِي تُنْزِلُ النَّقَمَ، اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي الدُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النَّعَمَ، اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي الدُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ، اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي الدُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ، اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي كُلَّ ذَنْبٍ اَدْبَيْتُهُ، وَكُلَّ خَطِيئَةٍ اَخْطَاْتُهَا».

ب - من دعائه البليغ في الإنابة والتوبة لصباح كل يوم:

«اَللّٰهُمَّ يَا مَنْ دَلَعَ لِسَانَ الصَّبَاحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ، وَسَرَّحَ قَطْعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغِيَاهِبِ تَلَجُّلِهِ، وَاتَّقَنَ صُنْعَ الْفَلَكَ الدَّوَّارِ فِي مَقَادِيرِ تَبَرُّجِهِ، وَشَعَشَعَ ضِيَاءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ، يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلَاءَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ، يَا مَنْ قَرَّبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحْظَاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، يَا مَنْ أَرْقَدَنِي فِي مِهَادِ أَمْنِهِ وَأَمَانِهِ وَأَيْقَظَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَفَّ أَكُفَّ الشُّوْءِ عَنِّي بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ، صَلِّ اَللّٰهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الْأَكِيلِ، وَالْمَاسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الْأَطْوَلِ، وَالنَّاصِعِ الْحَسْبِ فِي ذُرْوَةِ الْكَاهِلِ الْأَعْبَلِ، وَالثَّابِتِ الْقَدَمِ عَلَى رَحَالِيفِهَا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ، وَعَلَى آلِهِ الْأَخْيَارِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَبْرَارِ، وَافْتَحِ اَللّٰهُمَّ لَنَا مَصَارِيْعَ الصَّبَاحِ بِمِفَاتِيحِ الرَّحْمَةِ وَالْفَلَاحِ، وَالْبَسْنِي اَللّٰهُمَّ مِنْ أَفْضَلِ خَلْعِ الْهُدَايَةِ وَالصَّلَاحِ».



سيدة النساء

فاطمة الزهراء عليها السلام

الفصل الأوّل

يقع الكلام في هذا الفصل في نقطتين:

النقطة الأولى: انطباعات عن شخصيّة الزهراء عليها السلام

الزهراء فاطمة ابنة أعظم نبيّ، وزوجة أوّل إمام، وأمّ أئمة بزغتين في تاريخ الإمامة، وإنّها سيّدة نساء العالمين، وهي الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة، والمنبت الطيّب لعترة رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، وقد عرف العالم كلّهُ أنّ نسل رسول الله صلّى الله عليه وآله قد استمرّ في الأجيال وكثر عطاؤه المبارك بواسطة ابنته الزهراء البتول، كما صرّحت بذلك جملة من أحاديث النبي صلّى الله عليه وآله، كما دلّت النصوص المتضافرة على أنّ الله تعالى جعل ذريّة كلّ نبيّ في صلبه، وجعل ذريّة الرسول الخاتم صلّى الله عليه وآله في صلب عليّ بن أبي طالب ^(١).

الزهراء عليها السلام في آية التطهير

كان النبي صلّى الله عليه وآله في بيت أم سلمة، حينما ضمّ سبطيه الحسن والحسين وأباهما وأمّهما إليه، ثمّ غشاهم ونفسه بالكساء؛ تمييزاً لهم عن الآخرين ولا سيّما النساء،

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٣، المناقب للخوارزمي (باب فضائل أهل البيت عليهم السلام)، كشف الغمّة

فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١)؛ لتدلّ على عصمة أهل البيت عليهم السلام من الذنوب، وهذا هو كنه العصمة وحقيقتها.

الزهراء عليها السلام في آية المباهلة

أجمع أهل القبلة حتى الخوارج منهم على أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة من النساء سوى بضعته الزهراء، ومن الأبناء سوى سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام ومن الأنفس إلا أخاه علياً عليه السلام، فباهل بهم خصومه من أهل نجران فانتصر عليهم، وأمّهات المؤمنين كنّ يومئذ في حجراته صلى الله عليه وآله فلم يدع واحدةً منهنّ، فهذه الآية بحكم الضرورة خاصة بهم لا بسواهم^(٢).

الزهراء عليها السلام عند سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله

قال النبي صلى الله عليه وآله في حق ابنته الزهراء عليها السلام :

«إنّ الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»^(٣).

«فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني ومن أحبّها فقد أحبّني»^(٤).

«فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبي»^(٥).

«فاطمة سيّدة نساء العالمين»^(٦).

وقد تواترت هذه الشهادات وأمثالها في كتب الحديث والسيرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يتأثر بنسب أو سبب، ولا تأخذه في الله لومة لائم، إنّها أوسمة من خاتم الرسل على صدر فاطمة الزهراء عليها السلام، تزداد تألقاً على مرّ الزمن.

الزهراء عليها السلام عند الأئمة والصحابة والمؤرّخين

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «لم يولد لرسول الله صلى الله عليه وآله من خديجة على فطرة الإسلام إلا فاطمة»^(٧).

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٢) الكلمة الغراء: ١٨١.

(٣) أمالي الصدوق: ٤٦٧، ميزان الاعتدال ١: ٥٣٥، المستدرک للحاكم ٣: ١٥٤، كنز العمال ١٢: ١١١.

(٤) أمالي الصدوق: ١٦٥، أمالي الطوسي: ٢٤.

(٥) أمالي الصدوق: ١٧٥، كشف الغمّة ٢: ٩٤، الفصول المهمة لابن الصباغ: ٢١١.

(٦) مسند الطيالسي: ١٩٧، سنن النسائي ٤: ٢٥٢، المستدرک للحاكم ٣: ١٥٦.

(٧) الكافي ٨: ٣٤٠، مختصر بصائر الدرجات: ١٣١.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «والله لقد فطمها الله تبارك وتعالى بالعلم»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا سُمِّيتْ فَاطِمَةُ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ فَطَمُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا»^(٢).

وعن أم المؤمنين أم سلمة: «كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشْبَهَ النَّاسَ وَجْهًا وَشَبَهًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٣).

وعن أم المؤمنين عائشة: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ فَاطِمَةَ إِلَّا الَّذِي وَلَدَهَا»^(٤)... وكان الرسول دائماً يختصّها بسرّه ويرجع إليها في أمره»^(٥).

وعن الحسن البصري: «أَنَّهُ مَا كَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَعْبَدُ مِنْ فَاطِمَةَ، كَانَتْ تَقُومُ حَتَّى تَوَرِّمَ قَدَمَاهَا»^(٦).

ودخل عبد الله بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وهو حديث السنّ، وله وقرة، فرفع مجلسه وأقبل عليه وقضى حوائجه... فلما خرج لامّة أهله وقالوا: فعلت هذا بغلام حديث السن، فقال: إِنَّ الثِّقَةَ حَدَّثَنِي حَتَّى كَأَنِّي أَسْمَعُهُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَسِّرُنِي مَا يَسِّرُهَا» وأنا أعلم أنّ فاطمة عليها السلام لو كانت حيّة لسرّها ما فعلت بابنها»^(٧).

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي: «وأكرم رسول الله ﷺ فاطمة إكراماً عظيماً... فقال لمحضر الخاصّ والعامّ مراراً لا مرّة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: «إِنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّهَا عَدِيلَةُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَإِنَّهَا إِذَا مَرَّتْ فِي الْمَوْقِفِ نَادَى مُنَادٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرْشِ: يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ لَتَعْبُرَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَلَيْسَ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، وَكَمْ قَالَ لَا مَرَّةً: «يُؤْذِنِي مَا يُؤْذِيهَا، وَيَغْضِبُنِي مَا يَغْضِبُهَا، وَإِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يُرِيدُنِي مَا رَابَهَا»»^(٨).

(١) الكافي ١: ٤٦٠، علل الشرائع ١: ١٧٩، كشف الغمّة ٢: ٩١.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٦٥، تفسير فرات الكوفي: ٥٨١.

(٣) كشف الغمّة ٢: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٣: ٥٥.

(٤) ذخائر العقبى: ٤٤، الاستيعاب ٤: ٨٩٦، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣١.

(٥) أمالي الطوسي: ٤٠٠، السنن الكبرى للنسائي ٥: ٣٩٢، السنن الكبرى للبيهقي ٧: ١٠١.

(٦) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١١٩، بحار الأنوار ٤٣: ٧٦.

(٧) الصواعق المحرقة: ٢٣٢، الأغاني للإصبهاني ٨: ٣٠١، فضل آل البيت عليهم السلام للمقريزي: ٩٩ - ١٠٠.

(٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٩٣.

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الزهراء عليها السلام

الحديث عن الزهراء فاطمة عليها السلام يتجاوز الفسحة التي امتدت بين الساعة التي أبصرت فيها النور، والساعة التي انتقلت فيها الى جوار الله؛ فإنها ابنة نبيٍّ هزَّ جذور الفكر في الإنسان، وقفز به فوق الأجيال، كما أنها زوجة رجل هو ركنٌ من أركان الحق، وأمُّ أئمة هم إمتداد لأعظم نبيٍّ في تاريخ الإنسانية.

ومن هنا نعرف السرَّ فيما صرَّحت به عائشة من أنها لم تجد في الأرض امرأة كانت أحبَّ الى رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة، وقد علَّلت هي ذلك بقولها: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجةً من فاطمة، إلا أن يكون الذي ولَّدها صلى الله عليه وآله ^(١).

وإليك بعض مآثرها ومظاهر جمال شخصيتها وأوسمة كمالاتها:

١ - علمها ومعرفتها: لقد بذلت الزهراء عليها السلام جهداً متواصلاً في طلب العلم من أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله وبعلمها المرتضى عليه السلام، فبلغت درجة جعلتها من كبريات رواة الحديث حتى أصبح كتابها الكبير في الحديث يعرف باسم (مصحف فاطمة)، وتوارثه أبناؤها المعصومون كابراً عن كابر، ويكفي دليلاً على سمو معرفتها وكمال علمها ما جادت به قريحتها من خطبتين خطيرتين ألقتهما بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله إحداهما بحضور كبار الصحابة في مسجد الرسول الأعظم، والأخرى في بيتها، وقد تضمَّنتا صوراً رائعة من عمق معارفها، وسعة ثقافتها، وقوَّة منطقها، وصدق نبوءاتها بما ستنتهي إليه الأُمَّة بعد انحراف القيادة الحاكمة عن المسار النبوي.

٢ - مكارم أخلاقها: كانت عليها السلام، لا يجري لسانها بغير الحق، ولا تنطق إلا بالصدق، وكانت عزوفة عن الشرِّ، ميَّالة إلى الخير، زاهدة قنوعة، موقنة بأنَّ الحرص يفرِّق القلب ويشتت الأمر، مستمسكة بما قاله لها أبوها صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة، اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الأبد» ^(٢).

لقد كان همُّ الزهراء الآخرة، فلم تحفل بمباهج الدنيا، وهي ترى إغراض أبيها عن الدنيا وما فيها لذائذ وشهوات، وعُرف عنها صبرها على البلاء، وشكرها عند

(١) ذخائر العقبى: ٤٤، الاستيعاب ٤: ٨٩٦، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣١.

(٢) كنز العمال ١٢: ٤٢٢.

الرخاء، ورضاها بالقضاء، وقد روت عن أبيها عليها السلام: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، وَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ»^(١).

٣ - جودها وإيثارها: وكانت عليها السلام على هدي أبيها في جوده وسخائه، وقد سمعته يقول: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد عن النار، وَأَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ جَوَادٌ يَحِبُّ الْجَوَادَ»^(٢).

وكان الإيثار من شعار المصطفى عليه السلام، وكان يقول عليه السلام: «لَوْ شِئْنَا لَشَبَعْنَا وَلَكِنَّا نَوْثِرُ عَلَى أَنْفُسِنَا»^(٣)، وكانت الزهراء خير من يؤثر على نفسه اقتداءً بأبيها، حتى عُرف عنها إيثارها بقميص عرسها ليلة زفافها عليها السلام.

٤ - إيمانها وتعبدها لله: الإيمان بالله قيمة الإنسان الكامل، والتعبد لله سُلَّم الوصول إلى قمم الكمال، وقد حاز الأنبياء والأولياء دار الكرامة بما أخلصوا فيه من العبادة لله سبحانه.

وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام بإخلاص العبادة، فقال: «إِنَّ ابْنَتِي فَاطِمَةَ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهَا وَجَوَارِحَهَا إِيمَانًا إِلَى مَشَاشِهَا، ففَرَّغَتْ لَطَاعَةَ اللَّهِ»^(٤)، وقال الإمام الحسن عليه السلام: «رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام قَامَتْ فِي مَحْرَابِهَا لَيْلَةً جَمَعَتْهَا، فَلَمْ تَزَلْ رَاكِعَةً سَاجِدَةً حَتَّى إِتَّضَحَ عُمُودُ الصُّبْحِ، وَسَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَتَسْمِيَهُمْ وَتَكْثُرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ، وَلَا تَدْعُو لِنَفْسِهَا شَيْئًا، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ، لِمَ لَا تَدْعِينَ لِنَفْسِكَ كَمَا تَدْعِينَ لغيرِكَ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ الْجَارِ ثُمَّ الدَّارِ»^(٥).

٥ - حنوها وشفقتها: كانت الزهراء نعم البرّة بأبيها، وكانت تتولّى تدبير بيته، وتقوم بإدارته، وتهيئ له طعامه، وتغسل ثيابه، فضلاً عن اشتراكها مع النساء في

(١) مسكّن الفؤاد: ٨٠، بحار الأنوار ٧٩: ١٤٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٢٢، كنز العمال ٦: ٣٣٨، الجامع الصغير للسيوطي ٢: ٦٧.

(٣) جامع السعادات ٢: ٩١، فتح الباري ١١: ٢٤٠.

(٤) دلائل الإمامة: ١٣٩، المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١١٦، بحار الأنوار ٤٣: ٤٦.

(٥) علل الشرائع ١: ١٨١، دلائل الإمامة: ١٥٢، بحار الأنوار ٤٣: ٨١.

الغزو لحمل الطعام والشراب وسقاية الجرحى ومداواتهم، وفي غزوة أحد هي التي داوت جراح أبيها حينما رأت أن الدم لا ينقطع، فأخذت قطعة حصير فأحرقتة حتى صار رماداً، ثم ذرّته على الجرح فاستمسك الدم^(١).

ومن مواقف الأمومة والرعاية التي اتخذتها الزهراء تجاه أبيها عليها السلام نفهم السرّ فيما تكرر على لسانه عليه السلام من قوله: «فاطمة أم أبيها»^(٢).

٦ - جهادها المتواصل: لقد ولدت فاطمة الزهراء في حدة الصراع بين الإسلام والجاهلية، وعاشت سنوات الحصار الذي فرضته قريش على المسلمين في الشَّعب، وأذاقتهم فيها ألوان الحرمان، وما إن خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الحصار منتصراً حتى شاء الله أن يختار خديجة الى جواره في ذلك العام، ويتوفّى أبا طالب عمّ الرسول وحامي الدعوة وناصر الإسلام، وهكذا رُزئت فاطمة وهي لم تشبع بعد من حنان الأمومة، وكان الرسول يحاول أن يخفّف عنها عبء الألم ويحثّها على التجلّد قائلاً: «لا تبكي يا بنية، فإنّ الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته»^(٣).

وهاجرت الزهراء بعد هجرة أبيها إلى المدينة مع ابن عمّها عليّ بن أبي طالب، وانتقلت عليها السلام إلى بيت زوجها المتواضع في المدينة بعد أن أرسى أبوها خاتم النبيّين دعائم دولته المباركة، وكان لها موقف بارز في نصرة الحقّ والدفاع عن وصيّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، حينما وقفت موقفاً لا مثيل له إلى جانب الوصيّ من أتباع السقيفة، مؤكّدة أنّ الجبهة الداخلية في حياة الإمام عليه السلام صامدة لا تشعر بالضعف، ولكنها تترك تقدير الظروف وانتخاب الموقف لقائدها وزوجها الإمام المفترض الطاعة، فهو الذي يقرّر ويصمّم ويأمر فيطاع.

(١) صحيح مسلم ٥: ١٧٨، سنن ابن ماجه ٢: ١٤٧، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ٤٨، مجمع البيان ٤١٧: ٢.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ٣٩٧، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٥٨، المناقب لابن شهر آشوب ١: ١٤٠.

(٣) السيرة النبويّة لابن هشام ٢: ٢٨٣، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣٣٨.

الفصل الثاني

والكلام في هذا الفصل يقع في أربع نقاط:

النقطة الأولى: نشأة الزهراء فاطمة عليها السلام:

شخصية السيدة خديجة « أم فاطمة عليها السلام »

السيدة خديجة بنت خويلد أم فاطمة عليها السلام هي الزوجة الأولى للنبي صلى الله عليه وآله، وقد ولدت من أبوين قرشيين من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وقد كانت قبل زواجها بالنبي صلى الله عليه وآله تُعرف بالطاهرة وبسيدة نساء قريش، وكانت ذات ثراء وجاه، ومفطورة على التدبّر بعاملتي الوراثة والتربية، إذ كانت أسرتها معروفة بالعلم والديانة، وكان ذووها على الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام، ومن الذين ينتظرون ظهور الدين الحقّ في الجزيرة العربية^(١).

وقد أدركت السيدة خديجة بحدّة ذكائها عظمة شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسموّ أخلاقه قبل أن يكلف برسالة السماء، فاخترته زوجاً لها من دون الشخصيات المرموقة الذين كانوا قد تقدّموا لها، بل إنّها هي التي عرضت نفسها ورغبت في الإقتران به^(٢). على الرغم من الفارق الكبير بين حياتها المادية ذات الثراء العريض وحياته البسيطة.

وأما والد فاطمة عليها السلام، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله، ولد في بيت من أرفع بيوت العرب وأكثرها عزّة ومنعة، وقد تولّت العناية الإلهية تربيته وتأهيله ليحمل آخر رسالة عالميّة إلهيّة.

(١) الإصابة لابن حجر ٦: ٤٧٤، تاريخ مدينة دمشق ٦٣: ٣ - ٥، السيرة الحليّة ١: ٤٤٥.

(٢) الطبقات الكبرى ٨: ١٦، الثقات لابن حبان ١: ٤٥، البداية والنهاية ٢: ٣٥٨.

وحينما اجتمع شمل محمد ﷺ وخديجة رضي الله عنها، بذلت كل ما كان بوسعها من أجل تحقيق أهداف النبي ﷺ المقدسة، وجعلت ثروتها بين يدي رسول الله ﷺ وقالت: جميع ما أملك بين يديك في حكمك، اصرفه كيف تشاء في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه^(١).

وتحمّلت مع رسول الله ﷺ عذاب قريش ومقاطعتها وحصارها، وكانت تؤازره على أمره في تبليغ الدعوة، وتهوّن عليه معاناته، وكان الرسول ﷺ يسكن إليها ويشاورها في المهم من أموره^(٢)، وقد أوضح النبي ﷺ مكانتها بقوله: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»^(٣).

لقد هيأ الله سبحانه البيئة الصالحة لتكوين شخصية الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ﷺ التي قدر لها أن تكون ملتقى النبوة والإمامة، ونزل الوحي على النبي ﷺ يأمره باعتزال خديجة أربعين يوماً، فاقام النبي ﷺ هذه الأيام يصوم نهارها ويقوم ليلها، حتى هبط عليه جبرئيل ﷺ بطبق من الطعام وقال: «يا محمد! يأمرك ربك أن تجعل الليلة إفطارك على هذا الطعام»، فلما تناول الطعام بلغه جبرئيل أن يسرع الى منزل خديجة وقال: «إن الله عز وجل آلى على نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرية طيبة»، فامتثل النبي ﷺ أمر الله تعالى، وقد روي عن خديجة رضي الله عنها قولها: «فلا والذي سمك السماء وأنبع الماء، ما تباعد عني النبي ﷺ حتى أحسست بثقل فاطمة في بطني»^(٤).

(١) شرح الأخبار ٣: ١٦.

(٢) بحار الأنوار ١٦: ١٠ - ١١.

(٣) ذخائر العقبى: ٤٢، بحار الأنوار ٨: ١٧٨، مسند أحمد ١: ٢٩٣، فضائل الصحابة للنسائي: ٧٤.

(٤) أمالي الصدوق: ٥٤٥، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥: ٢٩٣، ينابيع المودة للقندوزي ٢: ١٣١.

أنس خديجة بفاطمة عليها السلام

لَمَّا تَزَوَّجَتْ خَدِيجَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَجَرَتْهَا نِسْوَةٌ مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يُكَلِّمُهَا وَلَا يَدْخُلْنَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِالزَّهْرَاءِ فَاطِمَةَ عليها السلام كَانَتْ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْزِلِهَا تَكَلِّمُهَا فَاطِمَةَ عليها السلام فِي بَطْنِهَا وَتَوَاسِسُهَا، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا وَسَمِعَ خَدِيجَةَ تَحَدَّثُ فَاطِمَةَ، فَقَالَ لَهَا: «يَا خَدِيجَةُ! مَنْ تَكَلِّمِينَ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْجَنِينَ الَّذِي أَنَا حَامِلٌ بِهِ إِذَا خَلَوْتُ بِهِ كَلَّمَنِي وَحَدَّثَنِي مِنْ ظُلْمَةِ الْأَحْشَاءِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا خَدِيجَةُ، هَذَا أَخِي جَبْرِئِيلُ عليه السلام يُخْبِرُنِي أَنَّهَا ابْنَتِي، وَأَنَّهَا نَسَمَةُ الطَّاهِرَةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُسَمِّيَهَا فَاطِمَةَ، وَسَيَجْعَلُ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهَا أُمَّةً يَهْتَدِي بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ»^(١).

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادتها عليها السلام، فالمشهور بين مؤرخي الإمامية أنَّ ولادتها كانت في يوم الجمعة في العشرين من شهر جمادى الآخرة في السنة الخامسة من البعثة^(٢)، وقال غيرهم: إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين^(٣). روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: «ولدت فاطمة في جمادى الآخرة يوم العشرين سنة خمس وأربعين من مولد النبي ﷺ، فأقامت بمكة ثمان سنين، وبالمدينة عشر سنين، وبعد وفاة أبيها خمسة وسبعين يومًا، وقُبِضَتْ في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء لثلاث خلون منه سنة إحدى عشرة من الهجرة»^(٤).

ومن أسمائها: (الصديقة) وهي الكثيرة التصديق، فإنها عليها السلام كانت مصدقة لأبيها، صادقة في أقوالها، صدوقة في أفعالها ووفائها و(المباركة) باعتبار الخير الكثير الذي يأتي من قبلها، لأنَّ النبي ﷺ قد انقطع نسله إلا منها، فهي أمُّ الأئمة الأطهار وأمُّ الذرية الطاهرة لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولقِّبَتْ بـ (المحدثة)، وهي التي كانت تحدِّثها

(١) الثاقب في المناقب: ٢٨٥، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ١٤٣، أمالي الصدوق: ٩٦٠.

(٢) الكافي ١: ٤٥٨، دلائل الإمامة: ٧٩، المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٣٢، كشف الغمّة ٢: ٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨: ١٩، الفصول المهمة لابن الصبّاغ: ٢٠٥، نظم درر السمطين: ١٧٥.

(٤) دلائل الإمامة: ٧٩، بحار الأنوار ٤٣: ٩.

الملائكة، كما كانت الملائكة تحدّث مريم ابنة عمران وأمّ موسى وسارة امرأة إبراهيم؛ إذ بشرتها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب^(١).
وكنّاها رسول الله ﷺ بـ (أمّ أبيها)؛ تعظيماً لشأنها، إذ لم يكن أحد يوازيها في محبّتها لها ورفعة مكانتها لديه، كما كُنيت بـ (أمّ الأئمة)؛ إذ أخبر النبي ﷺ أنّ الأئمة من ولدها وأنّ المهديّ المنتظر من نسلها^(٢).

النقطة الثانية: الزهراء ع مع أبيها رسول الله ﷺ

١ - فاطمة ع في شعب أبي طالب

لما رأت قريش أنّ الإسلام أخذ يعلو شأنه وينتشر في القبائل، وأنّها عاجزة عن صدّه، تأمرت على قتل الرسول ﷺ، فلمّا أحسّ أبو طالب بذلك، انحاز إلى شعبه، واجتمع إليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ليحموا الرسول ﷺ، فحاصرتهم قريش حصاراً اقتصادياً شديداً، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وكان الجوع يشتدّ ببني هاشم ويتعالى صراخ الأطفال الجياع أحياناً.

وفي هذا الظرف العصيب والقاسي، قضت الزهراء ع شطراً من أيام الرضاعة في شعب أبي طالب ثم فطمت من الرضاعة، ودرجت تمشي على رمضاء الشعب، وتعلّمت النطق وهي تسمع أنين الجياع وصراخ الأطفال المحرومين، وإذا ما استيقظت في هدأة الليل، وجدت الحرس يدورون بحذر وترقّب حول أبيها، يخافون عليه من غدر الأعداء في حلقة الليل.

٢ - وفاة السيّدة خديجة ع وعام الحزن

مرّت سنون الحصار صعبة ثقيلة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الحصار والمقاطعة، وقد كتب الله تعالى لهم النصر والغلبة، وخرجت خديجة وقد أثقلتها

(١) سورة آل عمران (٣): ٤٢، سورة القصص (٢٨): ٧، سورة هود (١١): ٧١.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٧٥، كنز العمال ١٢: ١٠٥، سبل الهدى والرشاد ١٠: ١٧٣.

السنون وأرهقها عناء الحصار والحرمان، وشاء الله تعالى أن يختارها لجواره، فتوفيت في ذلك العام وهو العاشر من البعثة .

وتوفي في العام ذاته عم الرسول صلى الله عليه وآله وحامي الدعوة، فشعر رسول الله صلى الله عليه وآله بالحزن والأسى لفقد خديجة وأبي طالب، وسمى ذلك العام بـ (عام الحزن)^(١). وقد رُزئت أيضاً فاطمة عليها السلام، الصغيرة في عمرها، والكبيرة في روحها، إذ لم تكن قد شبت بعد من حنان الأمومة، فشملتها المحنة في ذلك العام الحزين، وشعرت بغمامة الحزن واليتم تخيم على حياتها الزاخرة بالأحداث الجسام .

٣ - فاطمة الممتحنة عليها السلام

وشاء الله سبحانه وتعالى أن تشهد فاطمة عليها السلام فترة صراع الدعوة في مكة، وترى الأذى والاضطهاد يقع على أبيها صلى الله عليه وآله خاصة عند فقد عمه أبي طالب (رض)، حامي الدعوة والمدافع عن الرسالة، وقد تجرأ أحد سفهاء قريش وقذف وجه رسول الله صلى الله عليه وآله بحفنة من التراب، فتحمل رسول الله هذا الأذى، ويعود إلى بيته لتقوم فاطمة عليها السلام بنفض التراب عنه، وتأتي بالماء وتغسل رأسه ووجهه الكريم، وقد حز في نفسها وعظم عليها جرأة طغاة قريش على رجل يريد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم سبيل الهدى والرشاد، وشعر رسول الله صلى الله عليه وآله بحرارة الألم تمس قلبها، فحاول التخفيف عنها، فوضع يديه الكريمتين على رأسها، قائلاً: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك، وناصره على أعداء دينه ورسالته»^(٢).

ولم يقف أذى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله عند هذا الحد، فقد روي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان

(١) المناقب لابن شهر آشوب ١: ١٥٠، السيرة الحلبية ٣: ٤٩٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٨٣، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣٣٨، البداية والنهاية

يصلّي، ورهط من قريش جلوس، وسلى^(١) جزور قريب منه ، فقالوا: من يأخذ هذا السلى فيلقيه على ظهره؟

فقام رجل - وهو عقبة بن أبي معيط - وألقاه على ظهره، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة عليها السلام فأخذته عن ظهره، فقال صلى الله عليه وآله: « اللهم عليك الملأ من قريش، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأبي بن خلف وأمية بن خلف». قال عبدالله بن مسعود: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعاً، ثم سحبوا إلى القليب^(٢) غير أبي بن خلف أو أمية؛ فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع^(٣).

٤ - هجرة الزهراء عليها السلام إلى المدينة

هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله في السنة الثالثة عشرة للبعثة من مكة إلى يثرب (المدينة) حفاظاً على نفسه وإبقاءً على دعوته ، ولما وصل صلى الله عليه وآله منطقة (قُباء) على أميال من يثرب، وبعث إلى علي عليه السلام كتاباً مع أبي واقد الليثي، يأمره بالقدوم عليه مع الفواطم، وردّ الأمانات إلى أهلها.

خرج علي عليه السلام بالفواطم في وضح النهار، وهنّ: فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد الهاشمية أمّه، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، وتبعتهم حاضنة النبي صلى الله عليه وآله وخادمتة بركة أمّ أيمن، وابنها أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، وعاد مع الركب مبعوث النبي صلى الله عليه وآله أبو واقد الليثي، والتحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان ينتظرهم في قبا^(٤)، وبعد استراحة الركب، سار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمن معه من أصحابه وأهله متوجّهاً الى يثرب.

(١) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه ولد الماشية من بطن أمه .

(٢) القليب: البئر .

(٣) ذخائر العقبى: ٤٧، مسند أحمد ١: ٤١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٨، سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٣٦ .

(٤) أمالي الطوسي: ٤٦٣، حلية الأولياء ١: ١٣٩، بحار الأنوار ١٩: ٥٧ .

وبعد ما استقر رسول الله ﷺ في المدينة تزوج (سودة)، وهي أول من تزوجها بعد السيدة خديجة (رض)، ثم تزوج (أم سلمة) بنت أبي أمية^(١)، وفوض أمر ابنته الزهراء إليها.

قالت أم سلمة: تزوجني رسول الله ﷺ وفوض أمر ابنته فاطمة عليها السلام إليّ، فكنت أؤدبها وأدلّها، وكانت والله أأدب منّي وأعرف بالأشياء كلّها^(٢).

٥ - عليّ عليه السلام يتقدّم لخطبة الزهراء عليها السلام

فاقت فاطمة الزهراء عليها السلام نساء عصرها في الحسب والنسب، فهي بنت محمد رسول الله ﷺ وخديجة (رض)، وسليّة العلم والفضل والسجايا الخيرة، وغاية الجمال الخلقي والخلقي، وقد عاشت تحت ظلال النبي ﷺ حتى أدركت مدرك النساء، وما أنّ دخلت السنة الثانية للهجرة، حتى تقدّم لخطبتها أكابر قريش من أهل الفضل والسابقة في الإسلام، فكان النبي ﷺ يردهم ردّاً جميلاً بقوله: «إني انتظر فيها أمر الله»، وكان رسول الله قد حبسها على عليّ، ويرغب أن يخطبها منه^(٣).

وكان ربيب النبي ﷺ وابن عمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ذلك الفتى الذي آثر الرسول ﷺ على نفسه ليلة هجرته، يفكر في خطبة الزهراء فاطمة عليها السلام، لكنّه كان بين أمرين: الحالة التي يعيشها هو والمجتمع الإسلامي من فقر وفاقة، وواقعه الشخصي المتميّز؛ قد تجاوز الواحد والعشرين من العمر، وأنّ له أن يتزوج من فاطمة التي لا كفؤ لها سواه، ولا كفؤ له سواها.

وفي ذات يوم، أكمل الإمام عليه السلام عمله، وحلّ عن ناضحه، وأقبل متوجّهاً نحو منزل رسول الله ﷺ، وكان في بيت السيدة أم سلمة، وبينما هو في الطريق، هبط

(١) المصنف للصنعاني ٧: ٤٨٩، المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ٤٤٧، الاستيعاب لابن عبد البر ٤: ١٨٦٧.

(٢) دلائل الإمامة: ٨٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٠.

(٣) كشف الغمّة ١: ٣٦٣، المناقب للخوارزمي: ٣٤٣.

ملك من السماء، بأمر إلهي الى رسول الله ﷺ هو: أَنْ يَزُوجَ النور من النور، أي فاطمة من علي^(١).

فدقّ عليّ السلام الباب ، فقالت أمّ سلمة : مَنْ بالباب ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « قومي يا أمّ سلمة فافتحي له الباب ومُريه بالدخول ، فهذا رجل يحبّه الله ورسوله ويُحبّه » ، فقالت أمّ سلمة : فذاك أبي وأمي ، من هذا الذي تذكر فيه هذا وأنت لم تره ؟ فقال ﷺ : « مَهْ يا أمّ سلمة ، فهذا رجل ليس بالخرق ولا بالنزق ، هذا أخي وابن عمّي وأحبُّ الخلق إليّ » .

قالت أمّ سلمة : فقمّت مبادرة أكاد أعثر بمرطبي ، ففتحت الباب فإذا أنا بعليّ بن أبي طالب ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له النبي ﷺ : وعليك السلام يا أبا الحسن ، اجلس فجلس عليّ السلام بين يدي رسول الله ﷺ ، كأنه قصد لحاجة وهي يستحي أن يبينها... فقال له ﷺ : إني أرى أنّك أتيت لحاجة ، فقل حاجتك وابد ما في نفسك ، فكل حاجة لك عندي مقضية ، فقال عليّ السلام : فذاك أبي وأمي يا رسول الله... فقد أحببت مع ما شدد الله من عضدي بك ، أن يكون لي بيت وأن تكون لي زوجة أسكن إليها ، وقد أتيتك خاطباً راغباً ، أخطب إليك إبتك فاطمة ، فهل أنت مزوّجي يا رسول الله ؟ فتهلّل وجه رسول الله ﷺ فرحاً وسروراً ، وأتى فاطمة فقال : إنّ عليّاً قد ذكرك ، وهو من قد عرفت فسكتت عليّ ، فقال ﷺ : الله أكبر ، سكوتها رضاها ، ثم قال لعليّ السلام : أأبشرك يا عليّ ؟ فإنّ الله عزّ وجلّ قد زوّجكما في السماء قبل أن أزوّجكما في الأرض^(٢) .

وقد روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : إنّما أنا بشر مثلكم ، أنزّوج فيكم وأزوّجكم ، إلّا فاطمة ، فإنّ تزويجها نزل من السماء^(٣) » .

(١) الكافي ١: ٤٦٠ ، أمالي الصدوق: ٦٨٩ ، دلائل الإمامة: ٩٣ ، روضة الواعظين للنيسابوري: ١٤٦ .

(٢) كشف الغمّة ١: ٣٦٤ - ٣٦٧ ، بحار الأنوار ٣: ٤٣ : ١٢٦ ، المناقب للخوارزمي: ٣٤٤ - ٣٤٧ .

(٣) الكافي ٥: ٥٦٨ ، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٢٠٤ ، بحار الأنوار ٤٣: ٤٥ .

وفي ليلة الزفاف أنفذ رسول الله ﷺ إلى عليّ ودعاه، ثم دعا فاطمة فأخذ بيدها ووضعها في يد عليّ عليه السلام، وقال: «بارك الله في ابنة رسول الله، يا عليّ نعم الزوج فاطمة، ويا فاطمة نعم البعل عليّ»^(١).

وأمر النبي ﷺ بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة عليها السلام، وأن يفرحن ويرجنن ويكبرن ويحمدن، ولا يقلن ما لا يرضي الله، ثم قال: «يا عليّ، هذه فاطمة وديعة الله ووديعة رسوله عندك، فاحفظ الله واحفظني في وديعتي»^(٢).

ثم دعا لهما قائلاً: «اللهم اجمع شملهما، وألف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنة النعيم، وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما رضىت»^(٣).

ودخل رسول الله ﷺ على فاطمة عليها السلام في صبيحة عرسها بقدر فيه لبن، فقال: «اشربي فداك أبوك»، ثم قال لعليّ عليه السلام: «اشرب فداك ابن عمك»^(٤).

قال عليّ عليه السلام: «ومكث رسول الله ﷺ بعد ذلك ثلاثاً لا يدخل علينا، فلما كان في صبيحة اليوم الرابع جاءنا رسول الله ﷺ ليدخل علينا...»^(٥).

فلما دخل عليهما أمر عليّاً بالخروج، وخلا بابنته فاطمة عليها السلام وقال: «كيف أنت يا بُنية؟ وكيف رأيت زوجك؟».

قالت: «يا أبة خير زوج، إلا أنه دخل عليّ نساء من قريش، وقلن لي: زوجك رسول الله من فقير لا مال له»، فقال ﷺ لها: يا بُنية، ما أبوك ولا بعلك بفقير، ولقد عرضت عليّ خزائن الأرض، فاخترت ما عند ربّي... يا بُنية إن الله عز وجل إطلع إلى الأرض

(١) أمالي الطوسي: ٤٢ - ٤٣، بحار الأنوار ٤٣: ٩٦.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٢٥٤.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٣٢، بحار الأنوار ٤٣: ١١٧.

(٤) كشف الغمّة ١: ٣٧٨، المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٣٢، بحار الأنوار ٤٣: ١١٧.

(٥) كشف الغمّة ١: ٣٧١، بحار الأنوار ٤٣: ١٣٢.

فاختار من أهلها رجلين، فجعل أحدهما أباًك والآخر بعلك، يا بنية نعم الزوج زوجك، لا تعصي له أمراً».

ثم صاح رسول الله ﷺ بعليّ عليه السلام وقال: «أدخل بيتك، والطف بزوجتك وارفق بها، فإن فاطمة بضعة مني، يؤلمني ما يؤلمها ويسرني ما يسرها، أستودعكما الله، وأستخلفه عليكم»^(١).

النقطة الثالثة: الزهراء عليها السلام في بيت الزوجية

انتقلت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى بيت الزوجية وكان انتقالها من بيت الرسالة والنبوة إلى دار الإمامة والولاية، فهي تعيش في جو تكتنفه القداسة والنزاهة، وتحيط به عظمة الزهد وبساطة العيش.

وكان عليّ عليه السلام يحترم السيدة فاطمة الزهراء احتراماً لائقاً بها، لا لأنها زوجته فقط، بل لأنها أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ، ولأنها سيدة نساء العالمين، ولأن نورها من نور رسول الله ﷺ، ولأنها مجموعة الفضائل والقيم.

وإن البيت الوحيد الذي كان يضم بين جدرانها زوجين معصومين مطهرين منزّهين عن ارتكاب الذنوب واكتساب المآثم، يتصفان بالفضائل الأخلاقية والكمال الإنساني هو بيت عليّ وفاطمة عليها السلام.

وروي عن جابر الأنصاري أنه رأى النبي ﷺ فاطمة وعليها كساء من أجلة الإبل، وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: «يا بنتاه، تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه»^(٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يحتطب ويستقي ويكنس، وكانت فاطمة عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز»^(٣).

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٣: ١٠٩٩، تهذيب الكمال للمزي ٢٠: ٤٨٤.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٢٠، بحار الأنوار ٤٣: ٨٦.

(٣) الكافي ٥: ٨٦، أمالي الطوسي: ٦٦١، المناقب لابن شهر آشوب: ٣٧٢.

وإنَّ إلقاء نظرة فاحصة على حياة الزهراء عليها السلام يوضح لنا أنَّ حياتها الشاقة لم تتغيَّر حتى بعد أن أصبحت موفورة المال ، خصوصاً بعد فتح بني النضير وخير وتمليكها فداً، التي روي أنَّ دخلها (٢٤) ألف دينار ، وفي رواية (٧٠) ألف دينار سنوياً^(١).

فالزهراء لم تعمّر الدور ولم تبني القصور، ولم تلبس الحرير والديباج، بل كانت تنفق كل ذلك على الفقراء والمساكين، وفي سبيل الدعوة إلى الله ونشر الإسلام . وإنَّ الأمومة من الوظائف الحساسة والمهام الثقيلة التي أُلقيت على عاتق الزهراء عليها السلام، وقد أنجبت خمسة أولاد هم: الحسن والحسين وزينب وأمّ كلثوم، في حين سقط جنينها المحسن قبل ولادته.

وقد قدّر الله سبحانه أن يكون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وذريته من فاطمة عليها السلام كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله : « إِنَّ الله جعل ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب »^(٢).

النقطة الرابعة: الزهراء عليها السلام مع أبيها صلى الله عليه وآله في تثبيت دعائم الدولة

منذ أن دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة المنورة كان دائماً على هدم أركان الجاهلية، وبناء الدولة الإسلامية العظيمة ، ونشر الدعوة، وإيصالها إلى كل بقعة يمكن لصوت التوحيد أن يصل إليها، فراح رسول الله صلى الله عليه وآله يحارب بالكلمة والعقيدة تارةً، وبالسيف والقوة تارةً أخرى، وبالأسلوب الذي يمليه الهدف وتفرضه الحكمة . ولقد مرّت فاطمة عليها السلام بهذه الفترة الجهادية الصعبة، التي كانت تعي كامل ظروفها وأبعادها وهي تشارك أباهاً وزوجها الشدائد والمحن، وشاهدت أباهاً وهو

(١) كشف المحجّة لابن طاووس: ١٢٤، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٣ .

(٢) أمالي الصدوق: ٤٥٠، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٤، تاريخ بغداد ١: ٣٣٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٥٩ .

يُجرح في أُحُد وتُكسر رباعيته، ويخذله المنافقون ، ويستشهد عمّ أبيها حمزة أسد الله وأسَد رسولهِ، كما تستشهد النخبة من المؤمنين معه .

وقد روي أنّ فاطمة عليها السلام لما انتهت مع صفيّة - أي عمّة النبي صلى الله عليه وآله - إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - بعد معركة أُحُد - ونظرتا إليه، قال لعليّ عليه السلام: « أَمَا عَمَّتِي فَاحْبِسْهَا عَنِّي، وَأَمَّا فَاطِمَةُ فَدَعْهَا»، فلمّا دنت فاطمة عليها السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله ورأته قد شُجَّ وجهه وأدمي فوه ، صاحت وجعلت تمسح الدم وتقول : «اشتد غضب الله على مَنْ أدمى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله» ^(١).

وكانت فاطمة عليها السلام تحاول تضميد جرح رسول الله صلى الله عليه وآله وقطع الدم الذي كان ينزف من جسده الشريف، فكان زوجها يصبُّ الماء على جرح رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تغسله ، ولمّا يئست من انقطاع الدم أخذت قطعة حصير وأحرقتها حتى صار رماداً، فذرّته على الجرح حتى انقطع دمه ^(٢).

الزهراء عليها السلام في فتح مكّة

لقد أحسّت سيّدة النساء فاطمة عليها السلام بالسعادة وهي ترى القسم الأكبر من الجزيرة يخضع لسلطان الإسلام ويدين برسالة أبيها صلى الله عليه وآله، وها هي ترى قريشاً قد أرسلت زعيمها أبا سفيان - بعد أن أخلّت بالشروط التي تمّ الاتفاق عليها في صلح الحديبية - ليعرض على الرسول صلى الله عليه وآله تمديد الهدنة المتفق عليها، فلم يجد تجاوباً من النبي صلى الله عليه وآله، فرجع آيساً خائفاً منكسراً يتعثّر بأذيال الخيبة والخذلان ^(٣).

وأيقنت الزهراء عليها السلام من موقف أبيها من أبي سفيان أنّه سيفتح مكّة، وسرعان ما خرج الرسول صلى الله عليه وآله في عشرة آلاف من المسلمين، ولواؤه مع وصيّهِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وخرجت معه الزهراء فيمن خرج معه من النساء، لقد ظلّت إلى جانب

(١) إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ١٧٩، بحار الأنوار ٣٠: ٩٥.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٢: ٤١٧، صحيح مسلم ٥: ١٧٨، المعجم الكبير للطبراني ٦: ١٧٢ .

(٣) السيرة الحلبية ٣: ٧ - ٨ .

أبيها مزهوة بنصر الله، وقد رأت الأصنام تحت أقدام أبيها، ورأت قريشاً تلوذ به وتقول: أخ كريم وابن أخ كريم، وأبوها يقول لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

وقد رأت في تلك الرحلة المظفرة هوازن وثقيفاً وأحلافهما من العرب الذين ظلّوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلّب من الإسلام، رأتهم ينهارون وتندكّ حصونهم ومعقلهم، وتقع أموالهم في معركة حنين غنيمة للمسلمين.

وجاءت السنة العاشرة من الهجرة، حيث دعا النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله المسلمين لأداء مناسك الحجّ، وحجّ بهم حجة الوداع، وعند عودته توقّف عند غدير خم، وصعد النبيّ صلّى الله عليه وآله على منبر من أحداج الإبل، ونادى بصوت عال بعد تمهيدات عديدة: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه»^(٢)، فنصب عليّاً عليه السلام إماماً ووصياً يخلفه من بعده، ثم أمر المسلمين فبايعوا عليّاً وسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، ثم تفرّقوا إلى بلدانهم، وعاد النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية. وبدخول السنة الحادية عشرة من الهجرة، وفي الأيام الأخيرة من شهر صفر، اشتكى النبيّ صلّى الله عليه وآله من مرض ألمّ به، وكان قد عقد العزم على غزو الروم، وأعدّ لقيادة جيشه أسامة بن زيد وهو في مطلع شبابه، وأمر جميع المهاجرين والأنصار بأنّ ينضمّوا إليه، وجعل يحثّهم على الخروج^(٣)، ونصّ على بعضهم بالاسم ليخلي الساحة من المخالفين والمتربّصين ويفوّت الفرصة على المعارضين لخلافة الإمام عليه السلام.

وظنّ أكثر المسلمين في بداية الأمر أنّها وعكة صحيّة طارئة لا تلبث أن تزول، غير أنّ الزهراء عليها السلام لم تكّد تسمع بشكوى أبيها حتى اضطرب قلبها وكأنّها والموت على ميعاد، لا سيّما وقد سمعته قبل ذلك يقول في بعض المناسبات لأصحابه وهو

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨: ١١٨، إمتاع الأسماع ١: ٣٩١.

(٢) مسند أحمد ١: ١١٨، سنن النسائي ٥: ١٣٢، مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩، أمالي الصدوق: ١٨٤.

(٣) راجع الطبقات الكبرى ٢: ١٨٩، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٤ - ٣٣٦، تاريخ مدينة دمشق ٢: ٤٦ - ٦٠.

يعظمهم : «يوشك أن أدعى فأجيب»^(١)، وسمعت يقول في حجة الوداع: «لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»^(٢).

ومرّة رأت فاطمة عليها السلام في منامها - بعد حجة الوداع - أنها كانت تقرأ القرآن، وفجأة وقع القرآن من يدها واختفى، فاستيقظت مرعوبة وقصّت الرؤيا على أبيها عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «أنا ذلك القرآن يا نور عيني»^(٣) وسرعان ما أرحل. لقد كانت فاطمة عليها السلام وأمير المؤمنين أشدّ الناس لصوقاً وأقربهم إلى رسول الله ﷺ في فترة مرضه وحتى وفاته، فعن علي عليه السلام: أن معاذاً سأله عائشة كيف وجدت رسول الله ﷺ عند وجعه ووفاته؟ فقالت: يا معاذ ما شهدت عند وفاته، ولكن دونك هذه فاطمة ابنته فاسألها^(٤).

واشتد المرض على رسول الله ﷺ حتى أغمى عليه، فلمّا أفاق؛ وجد أبا بكر وعمر وآخرين عنده، فقال ﷺ: «ألم أمركم بالمسير في جيش أسامة؟!» فاعتذروا^(٥)، إلّا أنّ النبيّ كان يعلم ما تُكنّ صدورهم وما يبيّتون من بقائهم في المدينة مركز القيادة الإسلامية، فقال ﷺ: «إئتوني بدواة وبياض، أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً»، فتنازعوا فقالوا: إنّ رسول الله ﷺ يهجر، وفي نصّ آخر: قال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله، فاختلفوا وكثر اللغط، حتّى قال ﷺ: «قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع»^(٦).

لقد كانت الزهراء ترى كلّ ذلك بقلب حزين وعين دامعة، وكأنّها ترقب أيّاماً صعبة الأحداث.

ولمّا ثقل المرض برسول الله ﷺ وحضرته الوفاة أخذ أمير المؤمنين علي عليه السلام رأسه الشريف فوضعه في حجره، وفاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي، فأومأ إليها النبيّ ﷺ بالدنو منه، فأسرّ إليها شيئاً فتهلّل وجهها له، فقبل لها بعد وفاة رسول

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢١٩، البداية والنهاية ٧: ٣٨٥، السيرة الحلبية ٣: ٣٣٦.

(٢) الطبقات الكبرى ٨: ٣١٠، تاريخ الطبري ٢: ٤٠٢، الكامل في التاريخ ٢: ٣٠٢، البداية والنهاية ٥: ٢٠٣.

(٣) رباحين الشريعة ١: ٢٣٩.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ٨: ٢٥٣.

(٥) الطبقات الكبرى ٤: ١٦٧، تاريخ مدينة دمشق ٨: ٦٣، الإرشاد للمفيد ١: ١٨٤.

(٦) مسند أحمد ١: ٢٢٢، صحيح البخاري ٤: ٦٦، الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٢، تاريخ الطبري ٢: ٤٣٦.

الله ﷻ: ما الذي أسرَّ إليك رسول الله ﷺ فسرى عنك به ما كنت عليه من الحزن والقلق بوفاته؟ قالت عليها السلام: «إنَّه أخبرني أنَّني أوَّل أهل بيته لحوقاً به ، وأنَّه لن تطول المدَّة لي بعده حتى أدركه ، فسرى ذلك عني» ^(١).

(١) الإرشاد للمفيد ١: ١٨٦ - ١٨٧، إعلام الوری بأعلام الهدی ١: ٢٦٧، بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٠.

الفصل الثالث

يقع هذا الفصل في نقطتين:

النقطة الأولى: السيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله

إنّ من أهمّ المواقع التي أخذها الحاكمون الذين جاء بهم تيار السقيفة تجاه أهل البيت عليهم السلام أن سارعوا الى القضاء على القوّة الماديّة التي يمكن أن يستخدمها الإمام علي عليه السلام لإعادة الأمور الى نصابها وارجاع الحقّ الى أهله، وكانت أوّل خطوة في سبيل تحقيق هذا الهدف أن يقف الخليفة موقفه التاريخي المعروف من الزهراء عليها السلام في قضية (فدك)، وإن الدواعي السياسيّة التي بعثته لانتزاع فدك كانت تدعوه الى الاستمرار على تلك الخطّة ليسلب بذلك من خصمه الثروة التي كانت سلاحاً قوياً في عرف الحاكمين يومذاك، وإلا فما الذي كان يمنعه من تسليم فدك للزهراء بعد أن أعطته الوعد القاطع بأن تصرف منتوجاتها في سبيل الخير ووجوه المصلحة العامّة، وما الذي صدّه عن إرضاء فاطمة بالتنازل لها عن حصّته ونصيب الصحابة - إذا صحّ أن فدك للمسلمين - سوى أنّه أراد أن يقوّي بها خلافته؟

وإذا عرفنا أنّ الزهراء عليها السلام كانت سنداً قوياً لقرينها في دعوته إلى نفسه، ودليلاً يحتجّ به أنصار الإمام عليه السلام على أحقيّته بالأمر، أدركنا أنّ الخليفة اغتتم الفرصة المناسبة لإفهام المسلمين بصورة غير مباشرة أنّ فاطمة امرأة من النساء ولا يصحّ أن

تؤخذ آراؤها ودعاواها دليلاً في مسألة بسيطة كفدك فضلاً عن موضوع خطير كالخلافة^(١).

فدك بين النبي صلى الله عليه وآله والزهراء عليها السلام

قال الله تعالى لرسوله: ﴿قَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

نلاحظ أنّ هذه الآية خطاب من الله عز وجل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله يأمره أن يؤتي ذا القربى حقه، فمن هم ذوو القربى؟ وما هو حقهم؟ اتفق المفسرون على أنّ ذوي القربى هم أقرباء الرسول وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فيكون المعنى: أعط ذوي قرباك حقهم.

وجاء في الدر المنثور للسيوطي عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: لما نزلت الآية ﴿قَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ...﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء وأعطاهما فدكاً^(٣).

وجاء في بعض الروايات: أنّه عندما استقر الأمر لأبي بكر انتزع فدكاً من فاطمة عليها السلام^(٤)، ومعنى هذا الكلام أنّ فدكاً كانت في يد فاطمة وتحت تصرفها من عهد أبيها الرسول صلى الله عليه وآله، فانتزعها أبو بكر منها.

وروي أنّ الإمام علياً عليه السلام جاء إلى أبي بكر وهو في المسجد، فقال: «يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟ قال: نعم، فقال عليه السلام: أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٥) فيمن نزلت؟ فينا أو في غيرنا؟ قال: بل فيكم، قال عليه السلام: فلو أنّ شهوداً شهدوا على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بفاحشة ما كنت تصنع بها؟ قال: كنت أقیم عليها الحدّ كما أقیم على نساء العالمين، فقال علي عليه السلام:

(١) للمزيد من التفصيل راجع (فدك في التاريخ): ٩٢ - ٩٥.

(٢) سورة الروم ٣٠: ٣٨.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٧٧، تفسير الصافي ٤: ١٣٣، بحار الأنوار ٢٩: ٢٠٥.

(٤) الصواعق المحرقة: ٣٧ - ٣٨.

(٥) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.

كنتَ إذن عند الله من الكافرين، قال : ولمَ ؟ قال ﷺ : لأنك رددت شهادة الله بالطهارة وقبلت شهادة الناس عليها، كما رددت حكم الله وحكم رسوله أن جعل لها فداً وزعمت أنها فيءٌ للمسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ : البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر « فدمدم الناس ، وأنكر بعضهم بعضاً ، وقالوا: صدق والله عليّ »^(١).

وحينما أصرت السلطة على أن تمنع فاطمة ﷺ فداً، قرّرت الإعلان عن مظلوميّتها بالذهاب إلى المسجد وإلقاء خطاب مهم في الناس، وهزّ الخبر أرجاء المدينة واحتشد الناس في المسجد لسمعوا هذا الخطاب، فألقت الزهراء ﷺ خطبة مفصّلة مؤثّرة، قبل أن توجه الخطاب لأبي بكر بقولها: «يا بْنَ أَبِي قُحَافَةَ أفي كتابِ الله تَرِثُ أبَاكَ ولا أَرِثُ أبي؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً، أَفَعَلَى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اللهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ إِذْ يَقُولُ : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾»^(٢) ، وقال فيما اقتَصَصَ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إِذْ يَقُولُ : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»^(٣).

فحاول أبو بكر تلطيف الموقف وامتصاص النقمة، وادّعى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» وقال للزهراء ﷺ: أنت سيّدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك... حكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف أباك؟

وكانت هذه أولى محاولة لأبي بكر استطاع فيها إخماد عواطف المسلمين وحرف رأيهم عن مناصرة الزهراء ﷺ من خلال التظاهر باتباعه سنة النبي ﷺ، فأجابته الزهراء ﷺ : أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بُغِيَ له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً، وناطقاً فضلاً يقول: ﴿يَرِثُنِي

(١) الاحتجاج للطبرسي ١: ١١٩ - ١٢٣، تفسير القمي ٢: ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) سورة النمل ٢٧: ١٦.

(٣) سورة مريم ١٩: ٥ - ٦.

وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ^(١) ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾... ﴿كَلَّا بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

أنهت الزهراء عليها السلام خطابها، وقد أوضحت فيه الحق بأجلى صوره، وفضحت ما كان يضمه الحاكم بالأدلة والبراهين الساطعة المحكمة، وذكرت فضائل الخليفة الحقيقي في الإسلام وكمالاته المطلوبة، فتوترت الجوّ، وانساق الرأي العام لصالح الزهراء عليها السلام، وجعلت أبا بكر في زاوية حرجة وأمام طريق مسدود.

قال ابن أبي الحديد: «سألت ابن الفارقي مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، وقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فداً وهي عنده صادقة؟ فتبسّم ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا: لو أعطاه اليوم فداً لمجرد دعواها، لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه، ولم يمكن الاعتذار؛ لأنه يكون قد سجّل على نفسه أنها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة وشهود»^(٢).

اضطرب المجلس وتفرّق الناس وارتفعت الضجّة، وأصبحت خطبة الزهراء حديث الناس، فلجأ أبو بكر إلى التهديد والوعيد، إذ نادى الصلاة جامعة، ولما اجتمع الناس فصعد المنبر وقال: أيّها الناس، ما هذه الرّعة إلى كلّ قالة... إنّما هو ثعالة شهيد ذنبه، مربّ لكل فتنة^(٣).

ثم التفت إلى الأنصار فقال: يا معشر الأنصار قد بلغني مقالة سفهائكم... ألا إنّني لست باسطاً يداً ولساناً على من لم يستحقّ منّا، ثم نزل^(٤).

قال ابن أبي الحديد: قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن أبي يحيى بن زيد البصري، وقلت له: بمن يعرض؟ فقال: بل يصرّح، قلت: لو صرّح

(١) سورة مريم ١٩: ٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٨٤.

(٣) ثعالة من أسماء الثعلب، وهو تعريض بعلي عليه السلام ويريد بـ (ذنبه) التعريض بالزهراء عليها السلام.

(٤) دلائل الإمامة: ١٢٢ - ١٢٤.

لم أسألك، فضحك وقال : لعليّ بن أبي طالب، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال: هتفوا بذكر عليّ، فخاف من اضطراب الأمر عليهم فنهاهم^(١).

وبعد خطبة الزهراء عليها السلام في المسجد وكلام أبي بكر، قالت أم سلمة (رض): ألمثل فاطمة بنت رسول الله ﷺ يقال هذا القول ؟ هي والله الحوراء بين الإنس، وَالنَّفْسَ لِلنَّفْسِ ، رَبَّيْتُ فِي حُجُورِ الْأَتْقِيَاءِ ، وَتَنَاوَلْتُهَا أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ ، وَنَمْتُ فِي حُجُورِ الطَّاهِرَاتِ... أترعمون أنّ رسول الله ﷺ حرّم عليها ميراثه ولم يعلمها، وقد قال الله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢) أفأندرها وخالفت مطلبه، وهي خيرة النّسوان، وأمّ سادة الشّبان ، وعديلة مريم... رويداً ورسول الله ﷺ بمرآى منكم ، وعلى الله تردّون، واهاً لكم فسوف تعلمون.

قال: فحرمت من عطائها تلك السنة^(٣).

ولم تتوقّف الزهراء عليها السلام عند خطبتها، بل استمرت في جهادها، وقررت مقاطعة الحاكمين والاعتصام عن الكلام مع أبي بكر، فأعلنت رسمياً أمام الملاء : «والله لا أكلمك بكلمة ما حييت»^(٤).

ولم تكن فاطمة عليها السلام من سواد الناس ، بحيث لو قاطعت الخليفة لم تؤثر عليه، ولم يكن الأمر غير ذي بال ، ففاطمة عليها السلام عزيزة رسول الله ﷺ وحييته، ولم يخف على الناس اهتمامه بها، وهي التي قال النبيّ الأعظم ﷺ فيها: «فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني»^(٥).

وانتشر الخبر رويداً رويداً: إنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ساخطة على أبي بكر ولا تكلمه ، وسمع بذلك القاصي والداني من داخل المدينة وخارجها، فتساءل

(١) شرح نهج البلاغة : ١٦ / ٢١٥.

(٢) سورة الشعراء ٢٦ : ٢١٤.

(٣) دلائل الإمامة: ١٢٤، الدرّ النظيم: ٤٨٠.

(٤) كشف الغمّة ٢ : ١٠٦.

(٥) لهذا الحديث طرق متواترة عند الخاصّة والعامة، ومن مصادره: صحيح مسلم ٧ : ١٤١، سنن الترمذي

٥ : ٣٦٠، مستدرک الحاكم ٣ : ١٥٩، مسند أحمد ٤ : ٥، أمالي الصدوق: ١٦٥.

الناس وازدادوا نفوراً من الخليفة يوماً بعد يوم، ورغم محاولات الخليفة المصالحة مع الزهراء، إلا أنها عليها السلام استمرت في جهادها، وبقيت على صمودها حتى مضت إلى ربّها شهيدة مظلومة .

إنّ الحركة التصحيحية التي قام بها الإمام عليّ مع الزهراء عليها السلام لإعادة الخلافة الإسلامية إلى مجراها اكتسبت صيغاً متعدّدة وترعّمت الزهراء عليها السلام الجبهة السياسية العلنيّة منها، والباحث الموضوعي في دراسة خطوات الصراع لا يرى في مسألة فدك أنّها مسألة مطالبة بأرض ، وإنّما يتجلّى له أنّ الهدف منها استرداد حقّ إلهيّ مغتصب، وتصحيح مسيرة أمة انقلبت على أعقابها من حيث تشعر أو لا تشعر، وقد أحسّ الحزب الحاكم بذلك، فنراه يبذل قصارى جهده في التحدّي والثبات على موقفه .

ويكفيّنّا لإثبات ذلك أن نلقي نظرةً فاحصةً على خطبة الزهراء في المسجد أمام الخليفة وبين حشود المهاجرين والأنصار ، فإنّها تناولت في أغلب جوانبها امتداح الإمام عليّ عليه السلام والثناء على مواقفه الجهادية في خدمة الإسلام، وتسجيل الحقّ الشرعي لأهل البيت عليهم السلام الذين وصفتهم بأنّهم الوسيلة إلى الله في خلقه، وهم خاصّته وأمناء وحيه وحجّته، وورثة أنبيائه في الخلافة والحكم .

لقد حاولت الزهراء عليها السلام أن تنبّه المسلمين إلى غفلتهم وسوء اختيارهم المرتجل، وانقلابهم على أعقابهم بعد هداهم ، وإسنادهم أمرهم إلى غير أهله، والفتنة التي سقطوا فيها ، والدوافع التي دفعتهم إلى ترك كتاب الله ومخالفته فيما يحكم به في مسألة الخلافة والإمامة .

فالمسألة إذن ليست مسألة تقسيم ميراث أوقبض نحلة، بل هي في نظر الزهراء عليها السلام قضية إسلام وكفر ، وقضية إيمان ونفاق، ومسألة نصّ وشورى .

ونعلم من ذلك إنّ الهدف الأعلى للزهراء عليها السلام الذي كانت تعرفه السلطة جيّداً ليس هو إثبات النحلة أو الميراث فحسب، بل هو إدانة نتائج مؤتمر السقيفة ومحاولة القضاء عليها، وهذا ما يكشف عن مقدار تخوّف السلطة الحاكمة وإصرارها على

موقفها، ومحاولتها الاستمرار على تضليل الجماهير، كما يشهد لذلك ردّ الخليفة بعد أن انتهت الزهراء عليها السلام من خطبتها وخرجت من المسجد، فإنه فهم أن احتجاج الزهراء لم يكن حول الميراث أو النحلة، وإنما كان حرباً سياسية وتظلماً لحقّ الإمام علي عليه السلام ولذا نجده يهاجم الإمام علياً عليه السلام، فيصفه بأنه ثعالة وأنه مربّ لكل فتنة، وأنّ فاطمة ذنبه التابع له، ولم يتطرق في ردّه لموضوع الميراث أو النحلة قليلاً أو كثيراً.

لقد اندفعت الزهراء عليها السلام لتصحّح أوضاع الساعة، وتمسح عن جبين الحكم الإسلامي - الذي وُضعت قاعدته الأولى في السقيفة - الوحل الذي تلطّخ به، عن طريق اتّهام الخليفة الحاكم بالخيانة السافرة والعبث بكرامة القانون، واتّهام نتائج المعركة الانتخابية التي خرج منها أبو بكر خليفة بمخالفة الكتاب والصواب ^(١).

وقد توفّرت في المقابلة الفاطمية ناحيتان لاتتهيّتان للإمام فيما لو وقف موقف

قرينته:

إحدهما: إنّ الزهراء أقدر منه - بسبب ظروف فجيعتها الخاصة ومكانتها من أبيها - على استشارة العواطف، وإيصال المسلمين بسلك من كهرباء الروح بأبيها العظيم صلوات الله عليه وآياته الغراء، وتجنيد مشاعرهم لقضايا أهل البيت عليهم السلام.

والأخرى: إنّها مهما تتخذ لمنازعتها من أشكال فلن تكتسب لون الحرب المسلّحة التي تتطلّب زعيماً يهيمن عليها ما دامت امرأة، وما دام هارون النبوة في بيته محتفظاً بالهدنة التي أعلنها حتّى تجتمع الناس عليه، ومراقباً للموقف ليتدخل فيه متى شاء، مترعماً للثورة إذا بلغت حدّها الأعلى، أو مهدئاً للفتنة إذا لم يتهيأ له الظرف الذي يريده، فالحوراء فاطمة عليها السلام بمقاومتها إمّا أن تحقّق انتفاضاً إجماعياً على الخليفة، وإمّا أن لا تخرج عن دائرة الجدل والنزاع ولا تجرّ إلى فتنة وانشقاق.

إذن فقد أراد الإمام - صلوات الله عليه - أن يُسمع الناس يومئذ صوته من فم الزهراء، ويبقى هو بعيداً عن ميدان المعركة ينتظر اللحظة المناسبة للاستفادة منها، والفرصة التي تجعل منه رجل الموقف، وأراد أيضاً أن يقدم لأمة القرآن كلّها في

(١) الصواعق المحرقة: ٣٦، تاريخ يعقوبي: ٢: ١٥٨، شرح نهج البلاغة: ٢: ٢٦.

المقابلة الفاطمية برهاناً على بطلان الخلافة القائمة، وقد تمّ للإمام ما أراد حيث عبّرت الزهراء - صلوات الله عليها - عن الحقّ العلويّ تعبيراً واضحاً فيه ألوان من الجمال والنضال .

وتتلخّص المعارضة الفاطمية في عدّة مظاهر :

الأوّل: إرسالتها من ينازع أبا بكر في مسائل الميراث ويطالب بحقوقها^(١) وهذه هي الخطوة الأولى التي انتهجتها الزهراء صلوات الله عليها تمهيداً لمباشرتها للعمل بنفسها .

الثاني : مواجهتها بنفسها له في اجتماع خاص^(٢) وقد أرادت بتلك المقابلة أن تشتدّ في طلب حقوقها من الخمس وفدك وغيرهما، لتعرف مدى استعداد الخليفة للمقاومة .

الثالث : خطبتها في المسجد بعد عشرة أيام من وفاة النبي (ص) كما في شرح النهج^(٣) .

الرابع : حديثها مع أبي بكر وعمر حينما زارها بقصد الاعتذار منها، وإعلانها غضبها عليهما، وأنهما أغضبا الله ورسوله (ص) بذلك^(٤) .

الخامس : خطابها الذي ألقته على نساء المهاجرين والأنصار حين اجتماعهنّ عندها^(٥) .

السادس : وصيّتها بأن لا يحضر تجهيزها ودفنها أحد من خصومها^(٦) وكانت هذه الوصية الإعلان الأخير من الزهراء عن نقمتها على الخلافة القائمة.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١٦: ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق ١٦: ٢٣٠ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢١١ .

(٤) المصنف لابن أبي شيبه ٧: ٥٢٦، صحيح البخاري ٤: ٢١٠، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٥٦، شرح نهج البلاغة / ابن

أبي الحديد ١٦: ٢٨١، ٢٦٤، كنز العمال ١٢: ١٠٨ .

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١٦: ٢٣٣ .

(٦) المصدر السابق ٦: ٢٨١ .

تقييم الحركة الفاطمية

وقد انحسرت الحركة الفاطمية بمعنىً ونجحت بمعنىً آخر .
انحسرت لأنها لم تُطَح بحكومة الخليفة في زحفها الأخير الخطير الذي قامت به في اليوم العاشر من وفاة النبي ﷺ.

ولا نستطيع أن نتبين الأمور التي جعلت الزهراء تخسر المعركة ، غير أن الأمر الذي لا ريب فيه أن شخصية الخليفة من أهم الأسباب التي أدت إلى فشلها، لأنه من أصحاب المواهب السياسية ، وقد عالج الموقف بلباقة ملحوظة لا نجد لها مثيلاً، فيما أجاب به الزهراء من كلام، وفيما وجهه إلى الأنصار في خطاب بعد انتهائها من خطبتها في المسجد .

فبينما هو يذوب رقةً في جوابه للزهراء وإذا به يطوي نفسه على نار متأججة تندلع بعد خروج فاطمة من المسجد، في أكبر الظن، فيقول : ما هذه الرعة إلى كلّ قاله؟! إنما هو ثعالة شهيد ذنبه^(١) فإنّ هذا الانقلاب من اللين والهدوء إلى الغضب الفائر يدلنا على مقدار ما أوتي من سيطرة على مشاعره وقدرته على مسaire الظرف وتمثيل الدور المناسب في كلّ حين.

ونجحت معارضة الزهراء لأنها جهّزت الحقّ بقوة قاهرة، وأضافت إلى طاقته على الخلود في ميدان النضال المذهبي طاقة جديدة ، وقد سجّلت هذا النجاح في حركتها كلّها وفي محاورتها مع الصديق والفاروق عند زيارتهما لها بصورة خاصّة، إذ قالت لهما : أرأيتهما إن حدّثكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعّلان به ؟ فقالا : نعم ، فقالت : «نشدتكما الله، ألم تسمعا من رسول الله ﷺ يقول : رضا فاطمة من

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٤ - ٢١٥ .

رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة فقد أحبني، ومن أَرْضَى فاطمة فقد أَرْضَانِي، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني^(١) قالوا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله، قالت: فَإِنِّي أَشْهَدُ الله وملائكته أَنَّكُمَا أسخطتاني وما أَرْضيتاني وَلَسْن لَقِيتَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله لِأَشْكُونَكُمَا عِنْدَهُ^{(٢)(٣)}.

ويصور لنا هذا الحديث مدى اهتمامها بتركيز الاعتراض على خصمها ومجاهرتهم بغضبها ونقمتها، لتخرج من المنازعة بنتيجة هي الفوز المؤكّد في حساب العقيدة والدين، وأعني بها أن الصديق قد استحقّ غضب الله ورسوله صلى الله عليه وآله بإغضابها، وآذاهما بأذاها؛ لأنّهما يغضبان لغضبها ويسخطان لسخطها بنصّ الحديث النبويّ الصحيح، فلا يجوز أن يكون خليفة الله ورسوله^(٤)، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٦).
 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٧).
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٨).
 ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(٩).

(١) صحيح مسلم ٤: ١٩٠٢، مستدرک الحاكم ٣/ ١٥٨، ذخائر العقبى: ٤٧، مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤: ٣٢٣ و ٣٣٢، جامع الترمذي ٥: ٦٩٩، الصواعق المحرقة ابن حجر: ١٩٠.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٣١.

(٣) تجدد غضب فاطمة عليها السلام على أبي بكر في صحيح البخاري ٥: ٥، صحيح مسلم ٢: ٧٢ ومسند الإمام أحمد ١: ٦ تاريخ الطبري ٤: ٢٧، كفاية الطالب: ٢٦٦، سنن البيهقي ٦: ٣٠٠.

(٤) فدك في التاريخ: ١١٢ - ١١٩.

(٥) سورة الأحزاب ٣٣: ٥٣.

(٦) سورة الأحزاب ٣٣: ٥٧.

(٧) سورة التوبة ٩: ٦١.

(٨) سورة الممتحنة ٦٠: ١٣.

(٩) سورة طه ٢٠: ٨١.

الهجوم على دار الزهراء عليها السلام

رفض الإمام علي عليه السلام البيعة لأبي بكر، وأعلن سخطه على النظام الحاكم، ليتّضح للعالم أنّ هذه الحكومة التي أعرض عنها الرجل الأوّل في الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لا تمثّل الخلافة الواقعية لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك فعلت الزهراء فاطمة عليها السلام ليعلم الناس أنّ ابنة نبيّهم ساخطة عليهم وهي تدينها فلا شرعية لهذا الحكم .

وبدأ الإمام علي عليه السلام من جانب آخر جهاداً سلبياً ضد من سلبه الحقّ الشرعي ، ووقف مع الإمام علي عليه السلام عدد من أجلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار وخيارهم ومن أشاد النبي صلى الله عليه وآله بفضلهم مع إدراكهم لحقائق الأمور مثل : العباس بن عبد المطلب ، وعمار بن ياسر ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، والمقداد بن الأسود ، وخزيمة ذي الشهادتين ، وعبادة بن الصامت ، وحذيفة بن اليمان ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم، من الذين لم تستطع أن تسيطر عليهم الغوغائية، ولم ترهبهم تهديدات الجماعة التي مسكت بزمام الخلافة.

وقد قام عدد من الصحابة المعارضين لبيعة أبي بكر بالاحتجاج عليه، وجرت عدّة محاورات عليه في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وفي أماكن عديدة، ولم يهابوا من إرهاب السلطة مما ألهب مشاعر الكثيرين الذين انجرفوا مع التيار، فعاد إلى بعضهم رشده وندموا على ما ظهر منهم من تسرّعهم واندفاعهم لعقد البيعة بصورة إرتجالية لأبي بكر، بالإضافة إلى ما ظهر منهم من العداء السافر تجاه أهل بيت النبوة .

وكانت هناك بعض العشائر المؤمنة المحيطة بالمدينة مثل: أسد ، وفزارة، وبني حنيفة وغيرهم، ممن شاهد بيعة يوم الغدير « غدير خم » التي عقدها النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام بإمرة المؤمنين من بعده، ولم يطل بهم المقام حتى سمعوا بالتحاق النبي صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى والبيعة لأبي بكر وترّبعه على منصّة الخلافة، فاندھشوا لهذا

الحادث ورفضوا البيعة لأبي بكر^(١) جملةً وتفصيلاً، وامتنعوا من أداء الزكاة للحكومة الجديدة باعتبارها غير شرعية ، حتى ينجلي ضباب الموقف ، وكانوا على إسلامهم يقيمون الصلاة ويؤدون جميع الشعائر .

ولكن السلطة الحاكمة رأت أن من مصلحتها أن تجعل حداً لمثل هؤلاء الذين يشكّلون خطراً على الحكم القائم، ما دامت معارضة الإمام علي عليه السلام وصحابته تمثّل خطراً داخلياً للدولة الإسلامية، عند ذلك أحسّ أبو بكر وأنصاره بالخطر المحيط بهم وبحكمهم من خلال تصاعد المعارضة إن لم يبادروا فوراً إلى إيقاف هذا التيار المعارض ، وذلك بإجبار رأس المعارضة - علي بن أبي طالب عليه السلام - على بيعة أبي بكر .

وذكر بعض المؤرخين^(٢) : أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال له : ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة ؟ يا هذا لم تصنع شيئاً ما لم يبايعك علي ! فابعث إليه حتى يبايعك ، فبعث أبو بكر قنفاً ، فقال قنفاً لأمر المؤمنين عليه السلام : أجب خليفة رسول الله ﷺ . قال علي عليه السلام : «لأمر ما كذبتم على رسول الله ﷺ » فرجع فأبلغ الرسالة فبكى أبو بكر طويلاً ، فقال عمر ثانية : لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة ، فقال أبو بكر لقنفاً : عُدْ إليه فقل له : خليفة رسول الله ﷺ يدعوك لتبايع ، فجاءه قنفاً ، فأدّى ما أمر به ، فرفع علي عليه السلام صوته وقال : «سبحان الله ! لقد ادّعى ما ليس له» فرجع قنفاً فأبلغ الرسالة ، فبكى أبو بكر طويلاً ، فقال عمر : قم إلى الرجل ، فقام أبو بكر وعمر وعثمان وخالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة .

وظنّت فاطمة عليها السلام أنه لا يدخل بيتها أحدٌ إلا بإذنها ، فلما أتوا باب فاطمة عليها السلام ودقوا الباب وسمعت أصواتهم نادى بأعلى صوتها : «يا أبت يا رسول الله ﷺ ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة ، لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم ،

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٤٤٥ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٣٢٥ .

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ : ٣٠ .

تركتم رسول الله ﷺ جنازة بأيدينا وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقاً».

فلما سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تتصدع وأكبادهم تنفطر وبقي عمر ومعه قوم ، ودعا عمر بالحطب ونادى بأعلى صوته: والذي نفس عمر بيده لتخرجنَّ أو لأحرقنَّها على من فيها، فقبل له : يا أبا حفص إنَّ فيها فاطمة ، فقال : وإن^(١) .

فوقفت فاطمة رضي الله عنها خلف الباب وخاطبت القوم : «ويحك يا عمر ما هذه المرأة على الله وعلى رسوله ؟ تريد أن تقطع نسله من الدنيا وتطفئ نور الله ؟ والله متم نوره». فركل عمر الباب برجله فاخترت فاطمة رضي الله عنها بين الباب والحائط رعاية للحجاب، فدخل القوم إلى داخل الدار مما سبب عصرها سلام الله عليها، وكان ذلك سبباً في إسقاط جينها .

وتواثبوا على أمير المؤمنين وهو جالس على فراشه، واجتمعوا عليه حتى أخرجوه ملبياً بثوبه يجرونه إلى السقيفة ، فحالت فاطمة رضي الله عنها بينهم وبين بعليها وقالت : «والله لا أدعكم تجرون ابن عمي ظملاً، ويلكم ما أسرع ما خُنتم الله ورسوله فينا أهل البيت، وقد أوصاكم رسول الله ﷺ باتباعنا ومودتنا والتمسك بنا»، فأمر عمر قنفذاً بضربها فضربها قنفذ بالسوط فصار بعصدها مثل الدمليج^(٢) .

وأخرجوا الإمام علياً رضي الله عنه يسحبونه إلى السقيفة حيث مجلس أبي بكر ، وهو ينظر يميناً وشمالاً وينادي « واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم، واجعفراه ولا جعفر لي اليوم!! » وقد مروا به على قبر أخيه وابن عمه رسول الله ﷺ فنادى يا «ابن أمّ» إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني^(٣) »^(٤) .

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٣٠ .

(٢) مرآة العقول ٥: ٣٢٠، الهداية الكبرى للخصيبي: ٤٠٦ - ٤٠٨، بحار الأنوار ٥٣: ١٨ - ١٩ .

(٣) سورة الأعراف ٧: ١٥٠ .

(٤) بحار الأنوار ٢٩: ٦٢٤ .

وروي عن عدي بن حاتم أنه قال : والله ما رحمت أحداً قطّ رحمتي عليّ بن أبي طالب عليه السلام حين أتني به مليباً بثوبه ، يقودونه إلى أبي بكر وقالوا له : بايع ! قال : « فإن لم أفعل فمَه ؟ » قال له عمر : إذن والله أضرب عنقك ، قال عليّ : « إذن والله تقتلون عبدالله وأخا رسوله » فقال عمر : أمّا عبدالله فنعم ، وأمّا أخو رسول الله فلا ، فقال : « أتجحدون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخى بيني وبينه ؟ ! » وجرى حوار شديد بين الإمام عليه السلام وبين الحزب الحاكم .

وعند ذلك وصلت السيّدّة فاطمة عليها السلام وقد أخذت بيد ولديها الحسن والحسين عليهما السلام وما بقيت هاشمية إلا وخرجت معها ، يصحن ويولولن فقالت فاطمة عليها السلام : « خلّوا عن ابن عمّي !! خلّوا عن بعلي !! والله لأكشفن رأسي ولأضعن قميص أبي على رأسي ولأدعونّ عليكم ، فما ناقة صالح بأكرم على الله منّي ، ولا فضيلها بأكرم على الله من ولدي » ^(١) .

وجاء في رواية العياشي أنها قالت : « يا أبا بكر ، أتريد أن ترمّلي عن زوجي وتيسّم أولادي ؟ والله لئن لم تكفّ عنه لأنشرن شعري ولأشقنّ جيبي ولأتينّ قبر أبي ولأصرخنّ إلى ربّي » فأخذت بيد الحسن والحسين تريد قبر أبيها ^(٢) .

عند ذلك تصايح الناس من هنا وهناك بأبي بكر : ما تريد إلى هذا؟ أتريد أن تنزل العذاب على هذه الأمة؟

وراحت الزهراء وهي تستقبل المشوى الطاهر لرسول الله صلى الله عليه وآله تستنجد بهذا الغائب الحاضر : « يا أبت يا رسول الله صلى الله عليه وآله ! ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة؟ فما تركت كلمتها إلا قلوباً صدّعها الحزن وعيوناً جرت دمعا » ^(٣) .

وما كانت السيّدّة فاطمة الزهراء تتوقّع أن ترى في حياتها يوماً مثل ذلك اليوم ومأساة كتلك المأساة وإن كان النبي صلى الله عليه وآله قد أخبرها بذلك ، ولكن ليس الخبر

(١) الاحتجاج ١ : ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٦٧ .

(٣) الغدير ٣ : ١٠٤ ، الإمامة والسياسة ١ : ٢٠ .

كالمعينة. وإن كانت عليها السلام قد سمعت من أبيها أن رموز قريش سوف تنقلب على أهل بيت الرسالة وأن أحقاد قريش سوف تظهر بعد وفاته صلى الله عليه وآله فإنها قد شاهدت تلك الأحداث وعاشتها بكل وجودها، حتى هجم القوم على عرينها ليخرجوا زوجها وسيّد حماتها من بيت الوحي ومهبط الملائكة الذي ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخله إلا بعد الاستئذان من فاطمة عليها السلام.

كانت الزهراء تتذكر موقف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حين خرجت زينب من مكة وتجهّزت للحوق برسول الله صلى الله عليه وآله، على بعير لها، فخرج في طلبها هبار بن الأسود فروّعها بالرمح - وهي في الهودج - وكانت حاملاً، فلمّا رجعت طرحت ما في بطنها، فأباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة دم هبار بن الأسود لذلك.

ترى ماذا سيقول رسول الله صلى الله عليه وآله حين يرى القوم لا يراعون حرمة ولا كرامة لحبيته الزهراء؟ بل ماذا سيقول لو رآهم يضربونها ويروّعونها ترويعاً يُسقط جينها ويودي بحياتها؟

وبالرغم من أن المواجهة التي حصلت في دار الزهراء عليها السلام كانت لفترة قصيرة ووقعت في مكان محدود غير أن صداها قد بقي يدوي للأجيال حتى يومنا هذا دويّاً يوجع القلوب التي تشعر بمرارة التعدي والظلم الذي لحق بآل رسول الله صلى الله عليه وآله بعد رحيله بأيام قلائل.

من هذه المواجهة نستطيع أن نستنتج ما يلي:

١ - أن الزهراء عليها السلام هبت للدفاع عن الوصي، ووقفت خلف الباب بصلافة متناهية، وخاطبت القوم بالحجة البالغة عسى أن يرتدع الحاكمون، ولم تلتزم الصمت لأنها صاحبة حقّ والمهاجمون غاصبون.

٢ - حينما أخرجوا عليّاً عليه السلام راحت الزهراء عليها السلام تدافع في موقع آخر، فلحقت به لعلّها تمنعهم عنه رغم كل الآلام التي تعرّضت لها عند هجومهم على الدار، لأنّه

أصبح لديها حقان: حق الدفاع عن الوصي والمطالبة بالخلافة، وحق الظلامة التي جرت عليها من تعدّي القوم على حرمتها وهي ابنة رسول الله صلّى الله عليه وآله ^(١).
و حين أعيتها الحيل والسبل؛ انصرفت للدعاء عليهم صارخة مستغيثة بالله ورسوله صلّى الله عليه وآله على رؤوس الأشهاد.

إن موقف الزهراء عليها السلام سجل إعتراضاً صارخاً وواضحاً لكل متبّع لحقائق التاريخ ممّا يجعله يدرك أنّ الخلافة قد انحرفت عن مسارها الصحيح وعن أصحابها الشرعيين، وقد أدّت دورها العظيم في محاولة إعادة الحق في أمر الخلافة إلى صاحبها الشرعي وهو الإمام علي عليه السلام.

وعلى أقل تقدير إنّها قد أعادت أصول التجربة الإسلامية إلى مجراها الحقيقي عبر استنهاض الأمة وبث الوعي فيها وفضح المتقمّصين للخلافة، مع التأكيد على عدم كفاءتهم لتحمل أعباء مسؤولية زعامة المسلمين العامة ولم تزل الرسالة حديثة عهد بهم.

السيدة فاطمة عليها السلام في أيامها الأخيرة

لم تبق الزهراء عليها السلام بعد أبيها سوى شهور معدودة قضتها بالبكاء والنحيب والأنين حتى عُدت من البكّائين ، ولم تر ضاحكة قط ^(٢).

وكان لبكائها أسباب ودوافع كثيرة ، أهمّها انحراف المسلمين عن الطريق المستقيم وانزلاقهم في مهاوٍ تؤدي إلى الاختلاف والفرقة وإنهيار الأمة الإسلامية بالتدريج .

والزهراء عليها السلام التي عاشت بزوغ نور الرسالة وانتشار الدعوة الإسلامية أيام أبيها صلّى الله عليه وآله وضحت من أجلها بكل نفيس كانت تتوقّع إنتصار الإسلام وتشيد صرح العدل في ربوع الدنيا كلّها، هي اليوم تعيش مرارة انحراف المسيرة والتجربة متمثلة في تقمّص الخلافة. والأحداث التي تلتها قد ساعدت على هدم صرح آمالها

(١) فاطمة الزهراء ، إبراهيم الأميني : ١٢٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ٢ : ٣١٢ ، حلية الأولياء ٢ : ٤٣ .

وأدخلت الحزن على قلبها وروحها الطاهرة، حتى تحملت همًّا ثقيلاً فوق همّها وحزنها على أبيها النبي الأكرم ﷺ.

وذات يوم دخلت أم سلمة على فاطمة عليها السلام فقالت لها: كيف أصبحت عن ليلتك يا بنت رسول الله ﷺ؟ قالت عليها السلام: «أصبحت بين كمد وكرب، فقد النبي ﷺ وظلم الوصي عليه السلام، هنك والله حجاب من أصبحت إمامته مقبضة على غير ما شرع الله في التنزيل أو سنّها النبي ﷺ في التأويل، ولكنها أحقاد بدرية وترات أحدية»^(١).

وعن علي عليه السلام قال: «غسلت النبي ﷺ في قميصه، فكانت فاطمة تقول: أرني القميص، فإذا شمّته غشي عليها، فلما رأيت ذلك غيّته»^(٢).

وروي أنّه لما قبض النبي ﷺ امتنع بلال من الأذان قال: لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، وإنّ فاطمة عليها السلام قالت ذات يوم: «إني أشتي أن أسمع صوت مؤذن أبي ﷺ بلال» فبلغ ذلك بلالاً فأخذ في الأذان، فلما قال: الله أكبر الله أكبر، ذكرت أباه وأيامه فلم تتمالك من البكاء، فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ شهقت فاطمة عليها السلام وسقطت لوجهها وغشي عليها، فقال الناس لبلال: امسك يا بلال، فقد فارقت ابنة رسول الله ﷺ الدنيا، وظنوا أنّها قد ماتت، فقطع أذانه ولم يُتمّه، فأفاقت فاطمة عليها السلام وسألته أن يتمّ الأذان فلم يفعل، وقال لها: يا سيّدة النسوان، إنني أخشى عليك ممّا تنزليه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان، فأعفته عن ذلك^(٣).

وأخذت فاطمة عليها السلام بالبكاء والعويل ليلها ونهارها، ولم ترقأ لها دمة حتى جزع لذلك جيرانها، فاجتمع شيوخ أهل المدينة وأقبلوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: يا أبا الحسن! إنّ فاطمة تبكي الليل والنهار فلا أحد منّا يتهنّأ بالنوم في الليل على فراشنا ولا بالنهار لنا قرار على أشغالنا وطلب معاشنا، وإنّا نخبرك أن تسألها إمّا أن تبكي ليلاً أو نهاراً.

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٤٩، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٦.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام وما نزل من القرآن لابن مردويه الإصفهاني: ١٩٦، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٩٧ - ٢٩٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٧.

فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام حتى دخل على فاطمة عليها السلام فقال لها : «يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إن شيوخ المدينة يسألونني أن أسألك إما أن تبكي أباك ليلاً أو نهاراً»، فقالت : «يا أبا الحسن ، ما أقل مكثي بينهم ، وما أقرب مغيبني من بين أظهرهم » ، فاضطرَّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى بناء بيت خلف البقيع خارج المدينة وسمّاه «بيت الأحران» وكانت إذا أصبحت قدّمت الحسن والحسين عليهما السلام أمامها وخرجت إليه وهي تمرّ على البقيع باكية، فإذا جاء الليل أقبل أمير المؤمنين عليه السلام إليها ورافقها إلى منزلها^(١).

النقطة الثانية: مرض الزهراء عليها السلام واستشهادها

إنتشر خبر مرض السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في المدينة ، وهي لم تكن تشكو من داء عضال غير ما حدث لها بين الحائط والباب من عصرها وكسر ضلعها وسقوط جنينها.

وجاءت نسوة من أهل المدينة لعيادتها، فخطبت فيهنّ خطبة مؤثرة فيها تقرير للمهاجرين والأنصار الذين تقاعسوا عن نصره الحقّ الثابت للإمام عليه السلام .

قال سويد بن غفلة : فأعادت النساء قولها عليها السلام على رجالهنّ، فجاء إليها قوم من وجوه الأنصار والمهاجرين معتردين، وقالوا: يا سيّدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد ونحكم العقد، لما عدلنا الى غيره، فقالت: «إليكم عني، فلا عُذرَ بعدَ تعذيركم، ولا أمرَ بعدَ تقصيركم»^(٢).

لقد انتشر خبر استياء فاطمة الزهراء عليها السلام من السلطة ونقمتها على الذين آزرُوا الحزب الحاكم بسكوتهم، وتناسوا كلّ النصوص التي نزلت في آل الرسول صلى الله عليه وآله، وأعرضوا عن كلّ حديث سمعوه من شفّتي الرسول صلى الله عليه وآله في حقّ الزهراء عليها السلام وزوجها وولديها، وأخيراً تولّد شيء من الوعي عند الناس، وعرفوا أنّهم مخطئون

(١) بحار الأنوار ٤٣ : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) معاني الأخبار: ٣٥٤، أمالي الطوسي: ٣٧٤، الاحتجاج للطبرسي: ١٤٦ - ١٤٩، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام لابن عقدة: ٦١ - ٦٣، بلاغات النساء لابن طيفور: ١٩ - ٢٠ .

في دعم السلطة الحاكمة التي تنكّرت لشرعية الزعامة لآل الرسول ﷺ، لم تُعرَ للحقّ اهتماماً ولم تعرف منطقاً سوى القوة وحدّ السيف.

وكان الصحابة رجالاً ونساءً يعودون فاطمة ﷺ، إلّا أبا بكر وعمر لم يعوداها؛ لأنها قاطعتهم ورفضتهما ولم تأذن لهما بعيادتها، ولما ثقل عليها المرض وقاربها الوفاة لم يجداً بُدأً من عيادتها، لئلا تموت وهي ساخطة عليهما على رؤوس الأشهاد، فتبقى وصمة عار تلاحق الخليفة وجهازه الحاكم إلى يوم الدين، فانطلقا واستأذنا على فاطمة ﷺ فلم تأذن لهما، فأتيا عليّاً فكلماه، فأدخلهما عليها، فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلمّا عليها، فلم تردّ عليهما السلام، وتكلّم أبو بكر معتذراً إليها من منعها حقّها وميراثها، بادّعاء أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث، ما تركناه صدقه».

فقالت ﷺ: «أرأيكما إن حدّثكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟ فقالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة إبتني فقد أحبّني، ومن أَرْضَى فاطمة فقد أَرْضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟

قالا: نعم، وسمعناه من رسول الله ﷺ.

قالت: فإنّي أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتاني وما أرضيتاني، ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكوّنكما إليه، ثم قالت ﷺ: والله لأدعونّ عليكما في كلّ صلاة أُصليها»^(١).

وكانت فاطمة الزهراء ﷺ في ذلك اليوم الذي توفيت فيه، طريحة الفراش، وقد أخذ منها المرض مأخذه، ولم يسمع لها سوى الأنين والحنين لأبيها، لقد رأت أباها في المنام يقول لها: «هلمّي إليّ يا بُنَيّة، فإنّي إليك مُشْتاقٌّ»، ثم قال لها: «أنت الليلة عندي»^(٢).

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ١٧٩.

انتبهت من غفوتها واستعدت للرحيل إلى الآخرة، فقد سمعت من أبيها الصادق المصدق الذي قال : «من رآني فقد رآني»^(١). سمعت منه نبأ إرتحالها، فلا مجال للشك والتردد في صدق الخبر .

وفي الساعات الأخيرة من حياتها، كاشفت زوجها بما أضمرته في صدرها طيلة هذه المدة من الوصايا التي يجب تنفيذها.

وفي اللحظات الأخيرة اضطجعت الزهراء عليها السلام في فراشها وهي مستقبلة القبلة. وعندما حانت ساعة الاحتضار وانكشف الغطاء، فتحت فاطمة الزهراء عينيها ثم قالت : «هذه مواكب أهل السماوات، وهذا جبرئيل، وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا بنية أقدمي، فما أمامك خير لك»، ثم قالت : إليك ربي لا إلى النار»، ثم غمضت عينيها ومدت يديها ورجليها .

وجاء عن أسماء بنت عميس أن الزهراء عليها السلام لما حضرتها الوفاة توضأت وتطيأت، ثم تسجت بثوبها وقالت لها: «انتظريني هنيئاً وادعيني، فإن أجبتك وإلا فاعلمي أنني قدمت على أبي، فأرسلني إلى علي».

فنادتها أسماء فلم تجبها ، فكشفت الثوب عن وجهها، فإذا بها قد فارقت الحياة^(٢) .

وارتفعت أصوات البكاء من بيت علي عليه السلام فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء، ودهش الناس كيوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، واجتمعت نساء بني هاشم في دار فاطمة عليها السلام فصرخن وبكين ، وأقبل الناس إلى علي عليه السلام وهو جالس والحسن والحسين بين يديه يبكيان ، وخرجت أم كلثوم وهي تقول : يا أبتاه يا رسول الله! الآن حقاً فقد ناك فقداً لا لقاء بعده أبداً.

واجتمع الناس فجلسوا وهم يضجون ، وينتظرون خروج الجنازة ليصلوا عليها ، وخرج أبو ذر وقال : انصرفوا فإن ابنة رسول الله قد أخر إخراجها في العشية^(٣) .

(١) مسند أحمد ٣: ٥٥، المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ١١١ .

(٢) كشف الغمة ٢: ١٢٢ - ١٢٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٨٦ - ١٨٧ .

وأقبل أبو بكر وعمر يعزيان علياً عليه السلام ويقولان له : يا أبا الحسن لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٢).

وهكذا تفرّق الناس ، وهم يظنون أنّ الجنازة تشيع صباح غد، وروي أنّ وفاتها كانت بعد صلاة العصر أو أوائل الليل .

ولكنّ الإمام علياً عليه السلام غسلها وكفنها ثم صلى عليّ على الجنازة ورفع يديه إلى السماء فنادى « اللهم هذه بنت نبيك فاطمة أخرجتها من الظلمات إلى النور ، فأضاءت ميلاً في ميل » ^(٣).

فلما هدأت الأصوات ونامت العيون ومضى شطر من الليل تقدّم أمير المؤمنين والعباس والفضل بن العباس ورابع يحملون ذلك الجسد النحيف، وشيعها الحسن والحسين وعقيل وسلمان وأبو ذر والمقداد وبريدة وعمّار ^(٤).

ونزل عليّ عليه السلام إلى القبر ، واستلم جسد بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأضجعها في لحدها وقال : « يا أرض أستودعك وديعتي ، هذه بنت رسول الله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ، سلّمك أيتها الصديقة إلى من هو أولى بك مني ، ورضيت لك بما رضي الله تعالى لك »، ثم قرأ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ^(٥)، ثم خرج من القبر ، وتقدّم الحاضرون وأهالوا التراب على تلك الدرّة النبويّة، وسوّى عليّ عليه السلام قبرها ^(٦).

تأبين الإمام عليّ للزهراء عليها السلام

(١) روضة الواعظين: ١٥١ - ١٥٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٢.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٣٩٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٣: ٢١٥.

(٤) روضة الواعظين: ١٥٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٣، ح ٢٠.

(٥) سورة طه ٢٠: ٥٥.

(٦) بحار الأنوار ٧٩: ٢٧ - ٢٨ / ح ١٣.

انتهت مراسم الدفن بسرعة خوفاً من انكشاف أمرهم وهجوم القوم عليهم ، فلما نفّض الإمام يده من تراب القبر هاج به الحزن لفقد بضعة الرسول وزوجته الودود التي عاشت معه عيشة الصفاء والطهارة والتضحية والإيثار، وتحملت من أجله الأهوال والصعاب ، فأرسل دموعه على خديّه، ثم حوّل وجهه الى قبر رسول الله ﷺ، وأخذ يؤبّن الزهراء (عليها السلام)، وكان ممّا قال:

«إنا لله وإنا إليه راجعون ، قد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة، واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله!

أمّا حزني فسرمد ، وأمّا ليلي فمسهد ، لا يبرح الحزن من قلبي، أو يختار الله دارك التي أنت فيها مقيم، كمّد مقبّح، وهم مهيج، سرعان ما فرق الله بيننا وإلى الله أشكو، وستنبئك ابتك بتضاfer أمتك عليّ ، وعلى هضمها حقّها فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً ، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، والسلام عليكما يا رسول الله سلام مودّع لاسم ولا قال، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين، والصبر أيمن وأجل .

ولو لا غلبة المستولين علينا لجعلتُ المقام عند قبرك لزماً، والتلبّث عنده عكوفاً ، ولأعولتُ إعوالم الثكلي على جليل الرزية ، فبعين الله تُدفن ابتك سرّاً ، ويهضم حقّها قهراً، ويمنع إرثها جهراً ولم يطل منك العهد ، ولم يخلق منك الذكر، فإلى الله - يا رسول الله - المشتكى ، وفيك - يا رسول الله - أجمل العزاء ، فصلوات الله عليها وعليك ورحمة الله وبركاته»^(١).

وحين أصبح الصباح أقبل الناس ليشيعوا جنازة الزهراء (عليها السلام) فبلغهم الخبر الذي لم يتوقّعوه وعلموا أنّ عزيزة رسول الله ﷺ قد دفنت ليلاً وسراً.

(١) الكافي ١: ٤٥٨ - ٤٥٩، دلائل الإمامة: ١٣٧ - ١٣٨، أمالي الطوسي: ١٠٩ - ١١٠، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٣ - ١٩٤.

وكان الإمام عليّ عليه السلام قد سوّى في البقيع صور قبور سبعة أو أكثر ، وحيث إنّ البقيع كان في ذلك اليوم وإلى يومنا هذا مقبرة أهل المدينة فلهذا أقبل الناس إلى البقيع يبحثون عن قبر فاطمة عليها السلام فأشكل عليهم الأمر ولم يعرفوا القبر الحقيقي لسيدة نساء العالمين ، فضجّ الناس ، ولام بعضهم بعضاً وقالوا: لم يخلف نبيكم إلاّ بنتاً واحدة ، تموت وتدفن ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفون قبرها ، فقال بعضهم : هاتوا من نساء المسلمين من ينش هذه القبور حتى نخرجها فنصلي عليها .

وروي أنّ أبا بكر وعمر أقبلّا مع أناس يريدون الصلاة على فاطمة عليها السلام . فقال المقداد : قد دفنّا فاطمة عليها السلام البارحة ، فالتفت عمر إلى أبي بكر فقال: ألم أقل لك إنّهم سيفعلون ؟ قال العباس: إنّها أوصت أن لا تصلّي عليها، فقال عمر: لا تتركون - يا بني هاشم - حسدكم القديم لنا أبداً ، إنّ هذه الضغائن التي في صدوركم لن تذهب، والله لقد هممتُ أن أنبش قبرها فأصلي عليها^(١) .

ووصل خبر محاولات القوم لنش القبر إلى الإمام عليّ عليه السلام فلبس القباء الأصفر الذي كان يلبسه في الحروب ، وحمل سيفه ذا الفقار وقد احمرّت عيناه ودرّت أوداجه من شدة الغضب ، وقصّد البقيع .

وسبقت الأخبار عليّاً إلى البقيع ، فنادى مناديهم : هذا عليّ بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه ، يقسم بالله لئن حوّل من هذه القبور حجر ليطعن السيف في رقاب الآمرين، فقال رجل : ما لك يا أبا الحسن والله لننبش قبرها ولنصلي عليها! فضرب عليّ عليه السلام بيده إلى جوامع ثوب الرجل وهزّه ثم ضرب به الأرض، وقال له : « يا بن السوداء أما حقي فقد تركته مخافة أن يرتدّ الناس عن دينهم ، وأما قبر فاطمة فوالذي نفس عليّ بيده لئن رُمّت وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم » .

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣٨٥، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٩ .

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن بحق رسول الله وبحق فاطمة إلا خلّيت عنه، فإنّا غير فاعلين شيئاً تكرهه. فخلّى عنه وتفرّق الناس^(١).

تاريخ شهادتها عليها السلام

لا شك أنّ وفاة الزهراء عليها السلام كانت في السنة الحادية عشرة من الهجرة، لأنّ النبي صلّى الله عليه وآله حجّ حجّة الوداع في السنة العاشرة، وتوفي في أوائل السنة الحادية عشرة، واتفق المؤرّخون على أنّ السيّدّة فاطمة عليها السلام قد عاشت بعد أبيها أقلّ من سنة، علماً بأنّها كانت في ريعان شبابها كما كانت في أتمّ الصحة في حياة أبيها، نعم اختلفوا في يوم وشهر وفاتها اختلافاً شديداً. فقد روي أنّها عاشت بعد النبي صلّى الله عليه وآله ستة أشهر. وقيل: خمسة وتسعين يوماً. وقيل: خمسة وسبعين يوماً أو أقلّ من ذلك^(٢).

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «أنّها قبضت في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء لثلاث خلون منه، سنة إحدى عشرة من الهجرة»^(٣).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»^(٤). وهكذا انتهت حياتها الزاخرة بالفضائل والمناقب والمواقف المبدئية المشرفة، فالسلام عليها يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حيةً ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) دلائل الإمامة للطبري: ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٢٠٠ - ٢٠١، الإصابة لابن حجر ٨: ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) دلائل الإمامة: ١٣٤ (خبر وفاتها عليها السلام)، بحار الأنوار ٤٣: ٩/١٦ و ١٧٠/ح ١١.

(٤) الكافي ١: ٤٥٧/ح ١٠ (باب مولد الزهراء عليها السلام)، بحار الأنوار ٤٣: ٧/١٠.

الفصل الرابع

من تراث الزهراء عليها السلام

لقد كانت الزهراء ربيبة العلم والتقى وكان حظها منهما وفيراً ، ويدلنا على شيء من ذلك بعض ما أثر عنها من الأحاديث التي روتها عن رسول الله ﷺ بالمباشرة في الأحكام والآداب والأخلاق وفضائل أهل البيت عليهم السلام وقد جُمع في ما سُميَ بـ « مسند فاطمة الزهراء » لعدة مؤلفين ، أولهم السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ) ، والثاني للسيد حسين شيخ الإسلام التويسركاني ، وقد جمع فيه (٢٦٠) حديثاً مما نُقل عن الزهراء عن رسول الله ﷺ ، أو ممّا يرتبط بها صلوات الله عليها مع رسول الله ﷺ ، والثالث للشيخ عزيز الله العطاردي ، والرابع للشيخ أحمد الرحماني الهمداني ، حيث جمع في كتابه « فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى » حوالي (٨٤) حديثاً مما نُقل عنها في كتب الخاصة والعامة .

ومن هنا نعود إلى ما كتبه السيد هاشم معروف الحسني عن مصحف فاطمة الذي تشير الروايات إليه وتفصح مروياتها عن سعة علومها وفضلها عند الله وعند رسوله وأهل بيته ، قال رضوان الله عليه : « فليس بغريب - والحال هذه - أن تكون السيدة فاطمة عليها السلام قد جمعت قسماً ممّا سمعته منه ومن زوجها في التشريع والأخلاق والآداب وما سيحدث في مستقبل الزمان من الأحداث والتقلبات ، وقد ورث الأئمة من أبنائها في جملة ما ورثوه عنها هذا الكتاب واحداً بعد واحد » ^(١) .

نماذج مختارة من مسند فاطمة عليها السلام

١ - اهتمامها بالعلم وتدوين السنّة :

١ - قال أبو محمد العسكري عليه السلام : حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: إنّ لي والدّة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء ، وقد بعثتني إليك

(١) سيرة الأئمة الإثني عشر : ١ : ٩٦ - ٩٧ .

أسألك ، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك فننت فأجابت ، ثم ثلثت إلى أن عشت ، فأجابت ، ثم خجلت من الكثرة فقالت : لا أشقّ عليك يا ابنة رسول الله ، قالت فاطمة : هاتي وسلي عما بدا لك ، أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار ، أثقل عليه ؟ فقالت : لا ، فقالت : اكترت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً ، فأحرى أن لا يثقل عليّ ، سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول :

«إنّ علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتّى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلّة من نور ، ثمّ ينادي منادي ربّنا عزّ وجلّ : أيّها الكافلون لأيتام آل محمد صلى الله عليه وآله الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمّتهم ، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم ، فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا ، فيخلعون على كلّ واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم حتّى إنّ فيهم - يعني في الأيتام - من يخلع عليه مائة ألف خلعة ، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلّم منهم ، ثمّ إنّ الله تعالى يقول : أعيّدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتّى تتمّوا لهم خلعتهم وتضعّفوها لهم ، فيتّم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم ، ويضاعف لهم ، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلّم منهم ، ثمّ إنّ الله تعالى يقول : أعيّدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتّى تتمّوا لهم خلعتهم وتضعّفوها لهم ، فيتّم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم ، ويضاعف لهم ، وكذلك من يليهم ممّن خلع على من يليهم».

وقالت فاطمة عليها السلام : «يا أمة الله إنّ سلّة من تلك الخلع لأفضل ممّا طلعت عليه الشمس ألف ألف مرّة وما فضل فإنّه مشوب بالتنغيص والكدر»^(١).

٢ - التعريف بأهل البيت عليهم السلام :

١ - وعنهما سلام الله عليهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها : «أما ترضين أنّي زوّجتك أوّل المسلمين إسلاماً ، وأعظمهم علماً ؟ فإنّك سيّدة نساء العالمين كما سادت مريم نساء قومها»^(١).

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام : ٣٤٠ - ٣٤١ / ح ٢١٦ ، بحار الأنوار ٢ : ٣ / ح ٣.

٢ - عن يزيد عن عبد الملك النفلي، عن أبيه، عن جدّه قال: دخلت على فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قال: فبدأتني بالسلام، قال: وقالت: قال أبي وهو ذا حي: من سلّم عليّ وعليك ثلاثة أيّام فله الجنة. قلت لها: ذا في حياته وحياتك أو بعد موته وموتك؟ قالت: في حياتنا وبعد وفاتنا^(٢).

٣ - عن زينب ابنة عليّ، عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: أما إنّك يا عليّ وشيعتك في الجنة^(٣).

٤ - عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنّها دخلت على رسول الله ﷺ فبسط ثوباً وقال لها: اجلسي عليه، ثمّ دخل الحسن فقال له: اجلس معها، ثمّ دخل الحسين فقال له: اجلس معهما، ثمّ دخل عليّ فقال له: اجلس معهم، ثمّ أخذ بمجامع الثوب فضمّه علينا ثمّ قال: اللهمّ هم منّي وأنا منهم، اللهمّ ارض عنهم كما أنّي عنهم راض^(٤).

٥ - عن عليّ بن موسى الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن عليّ، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين، عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ: أنّ النبيّ ﷺ قال: من كنت وليّه فعليّ وليّه، ومن كنت إمامه فعليّ إمامه^(٥).

٦ - عن أبي الطفيل، عن أبي ذرّ رضي الله عنه، قال: سمعت فاطمة عليها السلام تقول: «سألت أبي ﷺ عن قول الله تبارك وتعالى {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَاهِهِمْ}»^(٦) قال: هم الأئمة بعدي: عليّ وسبطاي وتسعة من صلب الحسين، هم رجال الأعراف، لا

(١) كنز العمال ١١، ٦٠٥، حديث ٣٢٩٢٥، سبل الهدى والرشاد: ١١: ٢٩١ (ذكر جماع أبواب العشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة، باب ١٠).

(٢) «المناقب» لابن المغازلي الشافعي: ص ٣٦٤.

(٣) دلائل الإمامة: ٦٥ ح ٤ (ذكر مسندها عليه السلام).

(٤) دلائل الإمامة: ٦٨ ح ٥ (عن سندها عليه السلام).

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١٢: ٦٩ ح ٢٧٨، بحار الأنوار ٣٨: ١١٢ ح ٤٩. وقد مرّ ذكر هذا الحديث بأسانيد متعددة من طرق الفريقين في الجزء السابق تفصيلاً.

(٦) سورة الأعراف: ٧: ٤٦.

(٤) راجع كفاية الأثر: ١٩٣ - ٢٠٠ (في النصوص على الأئمة الاثني عشر عليهم السلام).

٣ - مصادر التشريع الإسلامي وفلسفته وأصوله :

١ - القرآن الكريم هو أول مصادر التشريع الإسلامي وأهمها، وأشارت الزهراء عليها السلام الى ذلك والى جملة من علوم القرآن بشكل موجز في خطبتها المعروفة إذ قالت: «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملته دينه ووَحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبُلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تُنال حجج الله المنورة، وعزائمهُ المُفسرة، ومحارمهُ المحذرة، وبيئاتهُ الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»^(١).

٢ - وقالت عن فلسفة التشريع في نفس الخطبة: «جعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل: تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، والصبر معونةً على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومناة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالندى تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازن تغييراً للبخل، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية»^(٢).

(١) دلائل الإمامة: ١١٢ - ١١٣ (حديث فذك)، الاحتجاج ١: ١٣٣ - ١٤٤ (احتجاج الزهراء عليها السلام على القوم)، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٢ - ٢٢٣ / ح ٨، السقيفة وفذك: ١٤١ - ١٤٢ (القسم الثاني).

(٢) دلائل الإمامة: ١١٢ - ١١٣ (حديث فذك)، الاحتجاج ١: ١٣٣ - ١٤٤ (احتجاج الزهراء عليها السلام على القوم)، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٢ - ٢٢٣ / ح ٨، السقيفة وفذك: ١٤١ - ١٤٢ (القسم الثاني).

٣ - عن عليّ عن فاطمة رضي الله عنهما قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: يا حبيبة أبيها كلّ مسكر حرام، وكلّ مسكر خمر»^(١).

٤ - عن سيّدة النساء فاطمة ابنة سيّد الأنبياء صلوات الله عليهم أنّها سألت أباه محمّداً ﷺ فقالت: «يا أبتاه! ما لمن تهاون بصلاته من الرجال والنساء؟» قال: «يا فاطمة من تهاون بصلاته من الرجال والنساء ابتلاه الله بخمس عشرة خصلة: ستّ منها في دار الدنيا، وثلاث عند موته، وثلاث في قبره، وثلاث في القيامة إذا خرج من قبره.

أما اللّواتي تصيبه في دار الدّنيا: فالأولى يرفع الله البركة من عمره، ويرفع الله البركة من رزقه، ويمحو الله عزّ وجلّ سيّء الصّالحين من وجهه، وكلّ عمل يعمل لا يؤجر عليه، ولا يرتفع دعاؤه إلى السّماء، والسادسة ليس له حظّ في دعاء الصّالحين.

وأما اللّواتي تصيبه عند موته: فأولهنّ أنّه يموت ذليلاً، والثانية يموت جائعاً، والثالثة يموت عطشاً، فلو سقي من أنهار الدنيا لم يرو عطشه.

وأما اللّواتي تصيبه في قبره: فأولهنّ يوكل الله به ملكاً يزعجه في قبره، والثانية يضيق عليه قبره، والثالثة تكون الظلمة في قبره.

وأما اللّواتي تصيبه يوم القيامة إذا خرج من قبره: فأولهنّ أن يوكل الله به ملكاً يسحبه على وجهه والخلائق ينظرون إليه، والثانية يحاسب حساباً شديداً، والثالثة لا ينظر الله إليه ولا يزكّيه وله عذاب أليم»^(٢).

٤ - الأخلاق والآداب والسلوك :

١ - عن الحسين (عليه السلام)، عن أمّه فاطمة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إياك والبخل، فإنّه عاهة لا تكون في كريم. إياك والبخل فإنّه شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخله النار. وعليك بالسّخاء، فإنّ

(١) دلائل الإمامة: ٦٩ / ح ٧ (مسندها ﷺ)، بحار الأنوار ٦٣: ٤٨٧ / ح ١٨.

(٢) فلاح السائل: ٢٢ (الفصل الأوّل في تعظيم الصلاة)، بحار الأنوار ٨٠: ٢١ / ح ٣٩.

السقاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلّية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة»^(١).

٢ - عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : «لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾^(٢) ، قالت فاطمة : فتهيئت النبي ﷺ أن أقول له : يا أبة ، فجعلت أقول له : يا رسول الله ، فأقبل عليّ فقال لي : يا بنيّة لم تنزل فيك ولا أهلك من قبل ، أنت منّي وأنا منك ، وإنّا نزلت في أهل الجفاء والبذخ والكبر ، قولي : يا أبة ، فإنه أحبُّ للقلب وأرضى للربِّ ثمّ قبل النبي ﷺ جبّهتي ، مسحني بريقه ، فما احتجت إلى طيب بعده»^(٣).

٣ - وقالت فاطمة ؑ : «من أصدد إلى الله خالص عبادته؛ أهبط الله إليه أفضل مصلحته»^(٤).

٤ - عن عليّ بن الحسين بن عليّ ؑ : «أنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ استأذن عليها أعمى فحجبته ، فقال لها النبي ﷺ لم حجبته وهو لا يراك؟ فقالت : يا رسول الله إن لم يكن يراني فأنا أراه ، وهو يشمّ الريح ، فقال النبي ﷺ : أشهد أنّك بضعة منّي»^(٥).

٥ - عن الزهراء صلوات الله عليها قالت : «دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد افترشت فراشي للنوم ، فقال : يا فاطمة لا تنامي إلّا وقد عملت أربعة : ختمت القرآن ، وجعلت الأنبياء شفعاؤك ، وأرضيت المؤمنين عن نفسك ، وحججت واعتمرت . قال هذا وأخذ في الصلاة ، فصبرت حتّى أتمّ صلاته ، قلت : يا رسول الله إنّك أمرت بأربعة لا أقدر عليها في هذا الحال ! فتبسّم ﷺ [وقال] : إذا قرأت (قل هو الله أحد) ثلاث مرّات

(١) دلائل الإمامة: ٧١ / ح ٩ (مسندها ؑ).

(٢) سورة النور ٢٤: ٦٣ .

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٠٢ (باب مناقب فاطمة ؑ)، كشف اليقين: ٣٥٤ - ٣٥٥ / المبحث ٢٠.

(٤) تفسير الإمام العسكري ؑ: ٣٢٧ / ح ١٧٧ ، عدة الداعي: ٢١٨ (في بيان علاج الرياء)، بحار الأنوار ٦٧: ٢٤٩ / ح ٢٥.

(٥) دعائم الإسلام ٢: ٢١٤ / ح ٧٩٢ ، بحار الأنوار ٤٣: ٩١ / ح ١٦.

فكأنك ختمت القرآن ، وإذا صليت علي وعلى الأنبياء قبلي كُنَّا شفعاك يوم القيامة، وإذا استغفرت للمؤمنين رضوا كلهم عنك ، وإذا قلت : سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر ، فقد حججت واعتمرت^(١).

٥ - نماذج من أدعيتها

كانت (عليها السلام) إذا جن الليل تقوم في محرابها صاقفة قدميها منقطعة إلى ربها مصلية مناجية متهجدة تدعو الله سبحانه بلسان الخائف الذليل المنقطع، وتقول في دعائها : « اللهم إني أسألك قوة في عبادتك ، وتبصراً في كتابك ، وفهماً في حكمك ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، ولا تجعل القرآن بنا ماحلاً ، والصراط زائلاً ومحمداً (ﷺ) عنا مولياً » . ومن دعائها أيضاً :

١ - « اللهم اجعل أول يومي هذا فلاحاً ، وأوسطه صلاحاً ، وآخره نجاحاً ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، واجعلنا من أناب إليك فقبلته ، وتوكل عليك فكفيت ، وتضرع إليك فرحمته^(٢) .

٢ - « اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى ، والعمل بما تحب وترضى ، اللهم إني أسألك من قوتك لضعفنا ، ومن غناك لفقرنا وفاقتنا ، ومن حلمك وعلمك لجهلنا ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأعنا على شكرك وذكرك وطاعتك وعبادتك يا أرحم الراحمين^(٣) .

٣ - دعاء النور المعروف عنها :

«بسم الله النور ، بسم الله نور النور ، بسم الله نور على نور ، بسم الله الذي هو مدبر الأمور ، بسم الله الذي خلق النور من النور ، الحمد لله الذي خلق النور من النور ، وأنزل النور على الطور ، في كتاب مسطور ، في رق منشور ، بقدر مقدور ، على نبي محبور ، الحمد لله الذي هو بالعز مذكور ، وبالفخر مشهور ، وعلى السراء والضراء مشكور ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين^(٤) .

(١) خلاصة الأذكار : ٧٠ ، صحيفة الزهراء (عليها السلام) : ١٦٥ - ١٦٦ / ح ٣٧ .

(٢) بحار الأنوار ٨٧ : ٣٣٨ - ٣٣٩ ، صحيفة الزهراء (عليها السلام) : ١٤٨ - ١٤٩ / ح ٢٨ و ٢٩ .

(٣) بحار الأنوار ٨٧ : ٣٣٩ / صحيفة الزهراء (عليها السلام) : ١٥٢ / ح ٣٢ .

(٤) الدعوات للراوندي : ٢٠٨ / ح ٥٦٤ ، بحار الأنوار ٤٣ : ٦٧ / ح ٥٩ .

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

الفصل الأول

يقع الكلام في هذا الفصل في نقطتين:

النقطة الأولى: انطباعات عن شخصية الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

ويقع الكلام على هذه النقطة في أربعة عناوين:

الأول: مكانة الإمام الحسن عليه السلام في القرآن الكريم

لم تتفق كلمة المسلمين على شيء كاتفاقهم على فضل أهل البيت عليه السلام، وانطوائهم على مجموعة الكمالات التي أراد الله للإنسانية أن تتحلّى بها، والإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو أحد أهل البيت المطهّرين من الرّجس، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)، وهو ابن رسول الله بنص آية المباهلة التي جاءت في حادثة المباهلة مع نصارى نجران، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.

حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(١).

وقد روى جمهور المحدثين والمفسرين بطرق مستفيضة أنها نزلت في أهل البيت عليه السلام وهم: رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام.

ولم ينص القرآن الكريم على عصمة أحد غير النبي صلى الله عليه وآله من المسلمين سوى أهل البيت عليه السلام، ومن هنا نستطيع أن نفهم السر الكامن في وجوب مودتهم والالتزام بخطهم، وقد ذكر عبد الله بن عباس أن آية المودة في القربى حينما نزلت سئل النبي صلى الله عليه وآله عن المقصود من القرابة الذين أوجبت الآية مودتهم، فقال صلى الله عليه وآله: «إنهم علي وفاطمة وابناهما»^(٢).

الثاني: مكانته عليه السلام لدى خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله

لقد خص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله سبطيه الحسن والحسين عليهما بأوصاف تدل على عظيم منزلتهما لديه، منها:

أ - هما إمامان قاما أو قعدا^(٣).

ب - هما من العترة (أهل البيت) التي لا تفرق عن القرآن الى يوم القيامة، ولن تضل أمة تمسكت بهما^(٤).

ج - وهما من أهل البيت الذين يضمنون لراكبي سفينتهم النجاة من الغرق^(٥).

(١) سورة آل عمران ٣: ٦١.

(٢) من المحدثين: الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف: ١١٢ / ح ١٦٧، ذخائر العقبى: ٢٥ (ذكر أنهم هم المراد بالقربى)، بحار الأنوار: ٢٩: ٣٤١ / ح ١٠، المعجم الكبير للطبراني: ٣: ٤٧ / ح ٢٦٤١، مجمع الزوائد: ٩: ١٦٨ (باب فضل أهل البيت عليه السلام)، الفتح السماوي للمناوي: ٣: ٩٨ / ح ٨٦٩، ومن المفسرين: خصائص الوحي المبين: ١٠٩ / ح ٥٠، تفسير الثعلبي: ٨: ٣٧ (في تفسير الآية)، شواهد التنزيل: ٢: ١٩٤ / ح ٨٢٧، تفسير البضاوي: ٥: ١٢٨ (في تفسير الآية).

(٣) علل الشرائع: ١: ٢١١، روضة الواعظين: ١٥٦.

(٤) مسند أحمد: ٣: ١٤، سنن الترمذي: ٥: ٣٢٨، أمالي الطوسي: ١٦٣.

د - هما ممّن قال عنهم جدّهم: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض من الاختلاف»^(٢).

الثالث: مكانته ﷺ لدى معاصريه

أ - ووفد المقدام الى معاوية، فقال معاوية: أعلمت أنّ الحسن بن عليّ توفي؟ فرجع المقدام (قال: إنّ الله وإنا إليه راجعون)، فقال له معاوية: أتراها مصيبة؟ فقال: ولم لا أراها مصيبة وقد وضعه رسول الله في حجره، وقال: «هذا منّي وحسين من عليّ رضي الله عنهما»^(٣).

ب - وحينما بادر ألدّ أعدائه - مروان بن الحكم - الى حمل جثمانه الطاهر واستغرب منه الحسين ﷺ قائلاً له: أتحمل جثمانه وكنت تجرّعه الغصص؟! قال مروان: كنت أفعل ذلك بمن كان يوازي حلمه الجبال^(٤).

ج - وأبّيه أخوه محمّد بن الحنفية بقوله: «لئن عزّت حياتك، فقد هدّت وفاتك... أنت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى، وخامس أصحاب الكساء، غدتك بالتقوى أكفّ الحقّ، وأرضعتك ثدي الإيمان، وربّيت في حجر الإسلام، طبّت حياً وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير سخيّة بفراقك»^(٥).

د - وأبّنه الإمام الحسين ﷺ قائلاً: «أنت ابن سلاله النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فألى رَوْح وريحان وجنة نعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حُسن الأسى عنه»^(٦).

الرابع: مكانته ﷺ لدى العلماء والمؤرّخين

(١) مستدرک الحاكم ٢: ٣٤٣، شرح الأخبار ٣: ٤٧٩.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٢، شرح الأخبار ٢: ٥٠٢، المستدرک للحاكم ٣: ١٤٩.

(٣) ذخائر العقبى: ١٣٣، مسند أحمد ٤: ١٣٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥٢، تهذيب الكمال ٦: ٢٣٥.

(٥) مروج الذهب ٣: ٧ - ٨.

(٦) عيون الأخبار للدينوري ٢: ٣١٤، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٦.

أ - قال عنه ابن عبد البر: «لا أسودَ ممّن سمّاه رسول الله ﷺ سيّداً، وكان رحمة الله عليه، حليماً ورعاً فاضلاً»^(١).

ب - وقال ابن كثير الدمشقي: «كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه، وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطّمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما»^(٢).

ج - ونقل عن محمّد بن إسحاق قوله: «ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله ما بلغ الحسن، كان يبسط له على باب داره، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، ما يمرّ أحد من خلق الله إجلالاً له، فإذا علم قام ودخل بيته فيمرّ الناس، ولقد رأيته في طريق مكّة ماشياً، فما من خلق الله أحد رآه، إلّا نزل ومشى»^(٣).

النقطة الثانية: من فضائل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ومظاهر شخصيته

ويقع البحث في هذه النقطة ضمن العناوين التالية:

أولاً: عبادة الإمام الحسن عليه السلام

روى المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن جدّه: «إنّ الإمام الحسن عليه السلام كان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربّه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنّة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله الجنّة وتعوّذ به من النار، وكان لا يقرأ من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا قال: لبيك اللهمّ لبيك، ولم ير في شيء من أحواله إلّا ذكراً لله سبحانه»^(٤).

(١) الاستيعاب ١: ٣٨٥.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٤١.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ٣٤٤.

(٤) أمالي الصدوق: ٢٤٤.

وكان عليه السلام إذا توضعاً ارتعدت مفاصله واصفرّ لونه، فقليل له في ذلك فقال: «حقٌّ على كلِّ من وقف بين يدي ربِّ العرش أن يصفرَّ لونه وترتعد مفاصله».

وكان إذا بلغ باب المسجد يرفع رأسه ويقول: «ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بحميل ما عندك يا كريم»^(١).

وللإمام الحسن المجتبي عليه السلام أدعية رويت عنه، تتضمن مجموعة من المعارف والآداب، وتحمل أدب التقديس لله تعالى والخضوع له والتذلل بين يديه، ومن أدعيته قوله عليه السلام: «إلهي من أحسنَ فبرحمتك، ومن أساء فبخطيئته، فلا الذي أحسنَ استغنى عن رفدك ومعونتك، ولا الذي أساء استبدل بك وخرج من قدرتك، إلهي بك عرفتكَ، وبك اهتديتُ الى أمرك... إلهي أطعتك ولك المنّة عليّ في أحبِّ الأشياء إليك: الإيمان بك والتصديق برسولك، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك: الشرك بك والتكذيب برسولك، فاغفر لي ما بينهما يا أرحم الراحمين»^(٢).

وعن ابن كثير: «أنَّ الحسن عليه السلام كان يقرأ كلَّ ليلة سورة الكهف في لوح مكتوب يدور معه حيث دار من بيوت أزواجه قبل أن ينام وهو في الفراش»^(٣).

ثانياً: حلمه وعفوه

لقد عُرف الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بعظيم حلمه، وأدلّ دليل على ذلك: تحمُّله لتوابع صلحه مع معاوية الذي نازع علياً حقّه وتسَلَّق الى منصب الحكم بالباطل، وتحمُّل عليه السلام بعد الصلح أشد أنواع التأييب من خيرة أصحابه، فكان يواجههم بعفوه وأناته، ويتحمَّل منهم أنواع الجفاء في ذات الله صابراً محتسباً.

وروى المبرّد وابن عائشة: أنَّ شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسَلَّم عليه وضحك، فقال: «أيها الشيخ! أظنك غريباً؟

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٨٠.

(٢) مهج الدعوات: ١٨١ - ١٨٢.

(٣) البداية والنهاية ٨: ٢١٠.

ولعلك شبّهت، فلو استعبتنا أعتبنك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت غريباً كسّوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيّاك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك؛ لأنّ لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً.

فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنّك خليفة الله في أرضه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ...»^(١).

ثالثاً: كرمه وجوده:

لقد تجلّى الجود والكرم بأجلى مظاهره في الإمام الحسن عليه السلام حتى لقّب بـ«كريم أهل البيت» عليه السلام.

قال الشبلنجي عند ذكره لمناقب الإمام الحسن عليه السلام «أنّه سُئل: لأيّ شيء لا نراك تردّ سائلاً؟ فأجاب: «إني لله سائل وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً وأردّ سائلاً، وإنّ الله عودني عادةً أن يفيض نعمه عليّ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنني العادة»^(٢).

ومرّ عليه السلام يوماً على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى، فقال له الإمام: ما حملك على ذلك؟ فقال الغلام: إنني لأستحي أن آكل ولا أطعمه.

وهنا رأى الإمام فيه خصلة حميدة، فأحبّ أن يجازيه على جميل صنعه، فقال له: لا تبرح من مكانك، ثم انطلق فاشتراه من مولاه، واشترى الحائط (البستان) الذي هو فيه، وأعتقه وملكه إيّاه^(٣).

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٨٤، بحار الأنوار ٤٣: ٣٤٤.

(٢) نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار: ١٣٥.

(٣) راجع البداية والنهاية: ٤٢/٨.

وروي أنّ جارية حيّته بطاقة من ربحان، فقال عليه السلام لها : أنت حرّة لوجه الله، فلامه أنس على ذلك ، فأجابه عليه السلام : « أدبنا الله فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ ^(١) وكان أحسن منها إعتاقها» ^(٢).

ومن مكارم أخلاقه أنّه ما اشترى من أحد حائطاً ثم افتقر البائع إلا ردّه عليه وأردفه بالثمن معه .

وجاءه فقير يشكو حاله ولم يكن عنده شيء في ذلك اليوم فعزّ عليه الأمر واستحى من ردّه، فقال عليه السلام له: إني أدلك على شيء يحصل لك منه الخير، فقال الفقير يا ابن رسول الله ما هو؟ قال عليه السلام : إذهب الى الخليفة، فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها، وما سمع من أحد تعزيةً بليغة، فعزّه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير، قال: يا ابن رسول الله حقّظني إيّاها، قال عليه السلام : قل له: «الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها، ولم يهتكها بجلوسها على قبرك»، وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء الى الخليفة فعزّاه بها، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة، ثم قال له: أكلامك هذا؟ فقال: لا، وإنما هو كلام الإمام الحسن، قال الخليفة: صدقت فإنّه معدن الكلام الفصيح، وأمر له بجائزة أخرى ^(٣).

رابعاً: تواضعه وزهده

إنّ التواضع دليل على كمال النفس وسموّها وشرفها ، والتواضع لا يزيد العبد إلا رفعةً وعظمةً، وقد حذا الإمام الحسن عليه السلام حذو جدّه وأبيه في أخلاقه الكريمة، وقد أثبت التاريخ بوادر كثيرة تشير الى سموّ الإمام في هذا الخلق الرفيع، نشير الى شيء منها :

(١) سورة النساء ٤ : ٨٦ .

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٣ : ١٨٣، بحار الأنوار ٤٣ : ٣٤٣ / ح ١٥ .

(٣) نور الأبصار : ١٣٥ - ١٣٦ .

أ - اجتاز الإمام عليه السلام جماعة من الفقراء قد وضعوا على الأرض كسيرات وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها ، فقالوا له: هلم يا بن بنت رسول الله الى الغذاء، فنزل عليه السلام وقال : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْرِينَ ﴾^(١) ، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته، ثم دعاهم الى ضيافته وأطعمهم وكساهم^(٢).

ب - ومر عليه السلام على صبيان يتناولون الطعام، فدعوه لمشاركتهم فأجابهم الى ذلك، ثم حملهم الى منزله فمنحهم برّه ومعروفه، وقال : « اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني، ونحن نجد ما أعطيناهم »^(٣).

ورفض الإمام جميع ملاذ الحياة ومباهجها متّجهاً الى الدار الآخرة التي أعدّها الله للمتّقين من عباده، فمن أهمّ مظاهر زهده : زهده في الملك طلباً لمرضاة الله، ويتجلّى ذلك إذا لاحظنا مدى حرص معاوية على الملك واستعماله لكلّ الأساليب اللا أخلاقية للوصول الى السلطة، بينما نجد الإمام الحسن عليه السلام يتنازل عن الملك حينما لا يراه يحقق شيئاً سوى إراقة دماء المسلمين.

* * *

(١) سورة النحل ١٦: ٢٣.

(٢) المناقب ٣: ١٨٧ .

(٣) إسعاف الراغبين لابن الصّبّان بهامش نور الأبصار : ١٩٦ .

الفصل الثاني

تولّى الإمام الحسن عليه السلام منصب الإمامة والقيادة بعد استشهاد أبيه المرتضى عليه السلام في الواحد والعشرين من رمضان سنة ٤٠ هجرية، وهو في السابعة والثلاثين من عمره المبارك، وقد عاش في هذه المرحلة مع جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ما يزيد على سبع سنوات، ومع أبيه المرتضى عليه السلام فترة إمامته البالغة ثلاثين سنة تقريباً، وعاصر خلالها كلاً من الخلفاء الثلاثة، وشارك بشكل فاعل في إدارة دولة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

واستمرّ بعد أبيه يحمل مشعل القيادة الربّانية حتى الثامن والعشرين أو السابع من صفر سنة ٥٠ هجرية، حيث انتقل الى الرفيق الأعلى وله من العمر ثمان وأربعون سنة^(١).

إذن تنقسم حياة هذا الإمام الى شطرين ، أولهما: حياته قبل إمامته، وثانيهما: حياته في عصر إمامته.

ويقع البحث في هذا الفصل عن الشطر الأوّل، ونتناول في الفصل الثالث البحث عن الشطر الثاني.

أمّا الشطر الأوّل فالكلام عليه يقع في ثلاث مراحل، نتناولها تباعاً:

المرحلة الأولى: حياة الإمام الحسن عليه السلام في عهد جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

ولد الإمام الحسن عليه السلام في حياة جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعاش في كنفه ما يزيد على سبع سنوات^(٢)، وقد تولّى الرسول صلى الله عليه وآله وهو المطّلع عن طريق الوحي على ما ينتظر هذا الوليد من موقع قياديّ مهمّ، تولّى إعداد الإمام الحسن عليه السلام وبناء

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ١٥ .

(٢) كشف الغمّة ٢: ١٣٦، الإرشاد للمفيد ٢: ٥، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ١٦٣ - ١٦٤.

شخصيته بناءً فذاً يتناسب مع المهام الجسام التي سيضطلع بها على صعيد هداية الأمة وقيادتها.

وإن كلمة الرسول ﷺ للإمام الحسن عليه السلام: «أشبهت خلقي وخلقي»^(١) تعدّ وسام الجدارة والاستحقاق لذلك المنصب الإلهي الذي هو وراثة الرسالة وخلافة النبي ﷺ بعد خلافة وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن هنا نعرف الهدف الذي كان يرمي إليه النبي ﷺ في تأكيدات المتكررة لذلك المنصب الذي كان ينتظر الإمام الحسن عليه السلام وأخاه، ومنها قوله: إنهما «إمامان قاما أو قعدا»^(٢) و«أنتما الإمامان، ولأكمما الشفاعة»^(٣).

وجاء عن أنس بن مالك: دخل الحسن على النبي ﷺ، فأردت أن أُميطه عنه، فقال: «ويحك يا أنس! دع ابني وثمره فؤادي، فإن من آذى هذا آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»^(٤).

ولقد بلغ من حب النبي ﷺ للحسن ولأخيه الحسين عليهما السلام أنه كان يقطع خطبته في المسجد وينزل عن المنبر ليحتضنهما، والكل يعلم أن الرسول ﷺ لم ينطلق في مواقفه من منطلق الأهواء الشخصية، والعواطف الذاتية، وإنما كان ينبّه الأمة الى عظمة هذين الإمامين ومقامهما الرفيع.

ومما يوضح المقام السامي للحسن والحسين عليهما السلام إخراج النبي ﷺ لهما عندما أراد مباهلة نصارى نجران، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٥).

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١٨٥، تاريخ يعقوبي ٢: ١٧، مسند أبي داود: ١٩ - ٢٠، تاريخ دمشق ١٣: ١٧٩، البداية والنهاية ٨: ٣٧ - ٣٨.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، إعلام الوري ١: ٤٢١، كشف الغمّة ٢: ١٥٦.

(٣) كشف الغمّة ٢: ٢٩، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ١: ٦٦٦.

(٤) مجمع الزوائد ١: ٢٨٤، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٣.

(٥) سورة آل عمران ٣: ٦١.

ولقد أجمع المفسرون على أنّ المراد به (أبنائنا) الحسن والحسين عليهما السلام ^(١)، وقال الزمخشري: وفيه دليل - لا شيء أقوى منه - على فضل أصحاب الكساء ^(٢).

إنّ إخراج الحسنين عليهما السلام إلى المباهلة بوصفهما ابني الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع إنّهما ابنا ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، له دلالة مهمّة، وهي: أنّ الحسن والحسين عليهما السلام صحّ أن يقال: إنّهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّه وعد أن يدعو أبناءه، ثم جاء بهما ^(٣)، كما أنّه يهدف إلى إزالة المفهوم الجاهلي القائل: أنّ الأبناء في الحقيقة هم أبناء الأبناء فقط، دون أبناء البنات، ومع ذلك فقد بقي بعض المناوئين لأهل البيت عليهم السلام يصرون على المفهوم الجاهلي، ومنهم عمرو بن العاص الذي أرسل إلى الإمام علي عليه السلام يعيبه بأشياء منها: أنّه يُسمّى الحسن والحسين ولديّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال علي عليه السلام لرسوله: «قل للشانئ ابن الشانئ: لو لم يكونا ولديه لكان أبتر، كما زعمه أبوك» ^(٤).

ولقد حرص الإمام الحسن عليه السلام في أكثر من مناسبة على تأكيد بنوّه لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ ليثبت من خلالها أنّ حقّ الإمامة والخلافة له وحده، ولا يمكن أن يصل إلى معاوية وأضرابه؛ لأنّ معاوية يفتقد المواصفات التي تؤهله للخلافة، بل يتّصف بما ينافيها.

ومن جملة كلمات الإمام عليه السلام بهذا الشأن أنّه خطب فور وفاة أبيه فقال: «أيّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي» ^(٥).

وقد اجتاز الحسنان مرحلة الصبا في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يكن يعاملهما معاملة الصبيان، بل كان يعاملهما معاملة شخصيتين إسلاميتين تنتظرهما مسؤوليات قيادية كبرى، ومن أدلّة ذلك إشهدهما على كتاب كتبه لثقيف ولم يشهد على ذلك غيرهما من الصحابة الذين كانوا حاضرين بكثرة، إشارة منه صلى الله عليه وآله.

(١) التبيان ٢: ٤٨٥، تفسير الطبري ٣: ٤٠٧، تفسير الثعلبي ٣: ٨٥، أحكام القرآن لابن عربي ١: ٣٦٠.

(٢) الكشف للزمخشري ١: ٣٧٠.

(٣) حقائق التأويل: ١٠٩، التبيان ٢: ٤٨٥، تفسير الطبري ٣: ٤٠٧، أحكام القرآن لابن عربي ١: ٣٦٠.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠: ٣٣٤.

(٥) ذخائر العقبى ١٣٨، مستدرک الحاكم ٣ / ١٧٢.

الى فضلهمما عليهما وآنها مؤهلان لتحمل المسؤوليات الجسام حتى في المعاهدات السياسية الخطيرة كهذه المعاهدة بالذات، التي كانت مع ثقيف المعروفة بعداؤها الشديد للإسلام والمسلمين.

وقد حضر الحسنان عليهما بيعة الرضوان واشتركا في البيعة لرسول الله ﷺ، وعرف ذلك عند المؤرخين، قال الشيخ المفيد: «وكان من برهان كمالهما وحبّة اختصاص الله تعالى لهما، بيعة رسول الله لهما، ولم يبايع صبيّاً في ظاهر الحال غيرهما»^(١)، ومعنى ذلك: أنّ النبي ﷺ رأى في الحسين - على صغر سنّهما - أهلية وقابلية لتحمل المسؤوليات والوفاء بالالتزامات التي أخذوا على عاتقهما الوفاء بها.

المرحلة الثانية: الإمام الحسن عليه السلام في عهد الخلفاء

لقد توفي الرسول الأعظم ﷺ وحدث بعده ما حدث من استئثار القوم بالأمر، وإقصاء علي عليه السلام عن الخلافة، وتعرّض فاطمة عليها السلام لاغتصاب إرثها من أبيها، وما دار بينها وبين أبي بكر من احتجاجات حتى طلب منها أن تأتي بالشهود لإثبات ما تدّعيه، فجاءت بأمر المؤمنين علي عليه السلام وبالحسين عليهما وبأمر أيمن (رض)، ولكنّ أبا بكر ردّ الشهود، ورفض إرجاع حقّها إليها^(٢).

إنّ إشهاد الزهراء عليها السلام للحسين عليهما، وهي المرأة المعصومة بحكم آية التطهير، له دلالة تامّة على أهليتهما لأداء الشهادة في مناسبة كهذه، مع أنّ عمرهما لم يكن يتجاوز آنذاك سبع سنوات.

وقد اعترض الحسن عليه السلام على أبي بكر، وهو يخطب على المنبر، فقال له: «انزل عن منبر أبي»، فأجابه أبو بكر: صدقت والله، إنّ لمنبر أبيك لا منبر أبي^(٣).

وبعد أن طعن عمر بن الخطّاب، ورّب قضية الشورى على النحو المعروف، أمر أن يحضرها شيوخ الأنصار والإمام الحسن عليه السلام وعبدالله بن عباس^(١)، وقد قبل

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩.

(٢) السقيفة وفدك للجوهري: ١٠٤ (القسم الثاني)، تاريخ الطبري، الكامل في التاريخ (حوادث سنة ١١ للهجرة).

(٣) شرح نهج البلاغة ٦: ٤٣، السقيفة وفدك للجوهري: ٦٨ (القسم الأول).

الإمام الحسن عليه السلام حضور جلسات الشورى، لينتزع الاعتراف من عمر بأنه ممن يحقّ له المشاركة السياسية في القضايا الخطيرة التي تواجهها الأمة، لكي يتمكن في المستقبل من إظهار رأيه في القضايا المصيرية وإن لم يقبل منه.

وحينما نفى عثمان بن عفّان أبا ذر الغفاري رضي الله عنه ومنع من توديعه، خرج لوداعه الإمام علي عليه السلام والحسن عليه السلام متحدّين السلطة ومعهم عقيل وعبدالله بن جعفر وابن عباس، وقال الحسن عليه السلام وهو يودّعه: «وقد أتى من القوم إليك ماترى، فضع عنك الدنيا بتذكّر فراغها، وشدة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها، واصبر حتّى تلقى نبيك وهو عندك راضٍ»^(٢).

وهي كلمات ناطقة معبرة عن موقف عميق تجاه تصرّفات الخط الحاكم، كان لا بدّ من إطلاقها لإيقاظ الأمة من سباتها، وإفهامها أنّ الحاكم لا يمكن أن يكون بمنأى عن المؤاخذه، وأنّه لا يحقّ له أن يستغلّ مركزه في خدمة أهوائه ومصالحه الشخصية؛ وأنّ بإمكان، بل من واجب كلّ مسلم أن يعلن حينئذ كلمة الحقّ، ويعمل لرفع الظلم والانحراف.

المرحلة الثالثة: الإمام الحسن عليه السلام في عهد الدولة العلوية

بينما كان الإمام علي عليه السلام يتهيأ لمواجهة معاوية الذي أعلن التمرّد على حكومته، فاجأه الخبر عن هياج بعض أهل مكة للطلب بدم عثمان بتحريض من طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم من الأمويين، فرأى الإمام عليه السلام أن يتصدّى لإخماد فتنة هؤلاء، لأنّ خطرهم أعظم، وأرسل الى أهل الكوفة يستنجد بهم وأوفد إليهم محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر.

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٨ .

(٢) السقيفة وفدك: ٧٩ (القسم الأوّل)، شرح نهج البلاغة ٨: ٢٥٣.

وعرض الرسولان رسالة الإمام علي عليه السلام على أبي موسى الأشعري والي الكوفة، فلم يجدا منه أية استجابة، وإنما وجداه يشبّط العزائم ويمنع الناس من الاستجابة لنداء الخليفة، وبرّر عناده قائلاً: «والله إنّ بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بدّ من القتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان...»^(١).

فأوفد الإمام علي عليه السلام للقي الأشعري رسولاً ثالثاً هو هاشم المرقال، وزوّده برسالة جاء فيها: «أنّي وجهت هاشماً لينهض بمن قبلك من المسلمين إليّ، فأشخص الناس، فإنّي لم أولك إلا لتكون من أعواني على الحق».

إلا أنّ الأشعري أصرّ على تمرّده، فأرسل هاشم الى الإمام رسالة يخبره فيها بفشله في مهمّته وإخفاقه في سفارته.

وبعد أن عرف الإمام علي عليه السلام إصرار أبي موسى وعدم إفلاح الرسل معه؛ بعث إليه ولده الحسن ومعه عمار بن ياسر، وأرسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى عن منصبه وتعيين قرصة بن كعب مكانه، وهذا نصّ رسالته: «أمّا بعد، فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك نصيباً منه، يمنعك عن ردّ أمري وقد بعثت الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر يستفزّان الناس، وبعثت قرصة بن كعب والياً على مصر، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن ينادبك»^(٢).

ووصل الإمام الحسن عليه السلام الى الكوفة فالتأم الناس حوله زمراً، وهم يعربون له عن انقيادهم وطاعتهم، ويظهرون له الولاء والإخلاص، وأعلن الإمام عليه السلام عزل الوالي المتمرد عن منصبه، وتعيين قرصة محلّه، ولكنّ أبا موسى بقي مصرّاً على موقفه، فأقبل على عمار بن ياسر يحدثه في أمر عثمان علّه أن يجد في حديثه فرجة، فيتّهمه بدم عثمان ليتّخذ من ذلك وسيلة الى خذلان الناس عن الإمام فقال له:

(١) الغارات للثقفى ٢: ٩٣٢، البداية والنهاية ٧: ٢٦٣.

(٢) حياة الإمام الحسن للقرشي ١: ٤٣٤.

«يا أبا اليقظان! أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار؟»
 فأجابه عمار: «لم أفعل ولم تسؤني» .
 وعرف الإمام الحسن عليه السلام غايته، فقطع جبل الجدال ، وقال له : «يا أبا موسى!
 لم تثبط عنا الناس؟» .
 وأقبل الإمام يحدثه برفق ولين لينزع روح الشرّ والعناد عن نفسه قائلاً : «يا أبا
 موسى! والله ما أردنا إلا الإصلاح ، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء» .
 فقال أبو موسى : صدقت بأبي أنت وأمي ، ولكنّ المستشار مؤتمن .
 فأجابه الإمام عليه السلام : «نعم» .

فقال أبو موسى : سمعت رسول الله يقول : إنّها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير
 من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب ، وقد جعلنا الله
 عزّ وجلّ إخواناً، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
 أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١) ، وقال عزّ وجل : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾^(٢) .

فردّ عليه عمار قائلاً : «أنت سمعت هذا من رسول الله؟» .

قال : أبو موسى : «نعم، وهذه يدي بما قلت» .

فالتفت عمار الى الناس قائلاً : «إنّما عنى رسول الله بذلك أبا موسى ، فهو قاعد
 خير من قائم»^(٣) .

وخطب الإمام الحسن عليه السلام في الناس قائلاً : «أيها الناس! قد كان في مسير أمير
 المؤمنين عليّ بن أبي طالب ورؤوس العرب ، وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما
 وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم ، وتعلمون أنّ وهن النساء وضعف رأيهنّ الى التلاشي ،

(١) سورة النساء ٤ : ٢٩ .

(٢) سورة النساء ٤ : ٩٣ .

(٣) حياة الإمام الحسن للقرشي ١ : ٤٣٤ - ٤٣٥ ، الفتنة ووقعة الجمل للضبي : ١٣٨ - ١٣٩ .

ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء ، وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم»^(١).
وبقي أبو موسى مصراً على موقفه يثبّط العزائم ، ويدعو الناس الى القعود وعدم نصرة الإمام ، فعنّفه الإمام الحسن عليه السلام قائلاً: «اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنحّ عن منبرنا لا أمّ لك» .

وقام الإمام عليه السلام خطيباً بالناس فقال لهم :

«أيها الناس! أجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا الى إخوانكم ، فإنه سيوجد الى هذا الأمر من ينفر إليه ، والله لئن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما أبتلينا به وأبتليتم ، وأنّ أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وأنّي أذكر الله رجلاً رعى حقّ الله إلّا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ، والله إنّ طلحة والزبير لأوّل من بايعني، وأوّل من غدرا، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً؟ فانفروا وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر»^(٢).

فأجابه الناس بالسمع والطاعة ، ولكن مالك الأشر رأى أنّ الأمر لا يتمّ إلّا بإخراج أبي موسى مهان الجانب محطّم الكيان ، فأقبل مع جماعة من قومه فأحاطوا بالقصر ثم أخرجوا الأشعري منه، وبعد أن استتبّ الأمر للإمام الحسن عليه السلام! أقبل يتحدث الى الناس بالخروج للجهاد قائلاً: «أيها الناس ، إنّني غاد، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر (أي على الدواب) ومن شاء فليخرج في الماء»^(٣).

واستجابت الجماهير لدعوة الإمام، وعجّت الكوفة بالنفير ونزحت منها آلاف كثيرة ، وقد بدا عليهم الرضا والقبول، وساروا وهم تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام،

(١) حياة الإمام الحسن : ١ / ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، أمالي الطوسي : ٧١٩ - ٧٢٠ ، الفتنة ووقعة الجمل للضبي : ١٤٢ ، تاريخ الطبري ٣ : ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٢) المصادر السابقة.

(٣) حياة الإمام الحسن : ١ / ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، وانظر أمالي الطوسي : ٧١٩ - ٧٢٠ ح / ١٥١٨ والفتنة ووقعة الجمل للضبي : ١٤٢ (ذكر موقف أبي موسى الأشعري)، تاريخ الطبري ٣ : ٤٩٩ - ٥٠٠ .

فانتھوا الى ذي قار^(١) وقد التقوا بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان مقيماً هناك، فسرّ بنجاح ولده، وشكر له جهوده ومسايعه.

وتحرّكت كتائب الإمام من ذي قار حتى انتهت الى الزاوية^(٢). وبعث عليه السلام الى عائشة يدعوها الى حقن الدماء وجمع كلمة المسلمين، كما بعث عليه السلام برسالة الى طلحة والزبير يدعوهما الى الوئام ونبد الشقاق^(٣) إلا أنّهم جميعاً لم يستجيبوا لنداء الحق، وأصرّوا على مقاومة الإمام ومناجزته.

وكان عبدالله بن الزبير من أشدّ المحرّضين على الفتنة وإراقة الدماء، وقد أفسد جميع الوسائل التي صنعها أمير المؤمنين عليه السلام لتحقيق السلم، وقد خطب في جموع البصريين ودعاهم الى الحرب، وهذا نصّ خطابه: «أيّها الناس! إنّ علي بن أبي طالب قتل الخليفة بالحقّ عثمان، ثمّ جهّز الجيوش إليكم ليستولي عليكم، ويأخذ مدينتكم، فكونوا رجالاً تطلبون بئار خليفتم، واحفظوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وذرائكم وأحسابكم وأنسابكم، أترضون لأهل الكوفة أن يردوا بلادكم؟ إغضبوا فقد غوضبتم، وقاتلوا فقد قوتلتهم، ألا وأنّ عليّاً لا يرى معه في هذا الأمر أحداً سواه، والله لئن ظفر بكم ليهلكنّ دينكم ودنياكم».

وبلغ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خطاب ابن الزبير، فأوعز الى ولده الإمام الحسن عليه السلام بالردّ عليه، فقام خطيباً، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي وقوله فيه: إنّ قتل عثمان، وأنتم يا معشر المهاجرين والأنصار وغيرهم من المسلمين، علمتم بقول الزبير في عثمان، وما كان اسمه عنده، وما كان يتجنّى عليه، وأنّ طلحة يومذاك ركز رايته على بيت ماله وهو حيّ، فأنى لهم أن يرموا أبي بقتله وينطقوا بدمّه؟! ولو شئنا القول فيهم لقلنا.

(١) ذي قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يقع بينها وبين واسط. معجم البلدان ٤: ٢٩٣.

(٢) الزاوية: موضع قريب من البصرة. معجم البلدان ٣: ١٢٨.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ١ / ٤٤٢ - ٤٤٣.

وأما قوله : إنّ علياً ابتزّ الناس أمرهم ، فإنّ أعظم حجّة لأبيه زعم أنّه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه ، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليعة ، فليأت على ما ادّعاه ببرهان وأنّى له ذلك؟ وأما تعجّبه من تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حقّ تورّدوا على أهل باطل! أمّا أنصار عثمان فليس لنا معهم حرب ولا قتال، ولكنّا نحارب راكبة الجمل وأتباعها»^(١).

وبعد أن وضعت حرب الجمل أوزارها توقّف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شهراً في البصرة ، ثم غادرها متوجّهاً الى الكوفة، مخلفاً عبدالله بن عباس على البصرة. وقد نقل العلامة المجلسي عليه السلام، عن كتاب «العدد» - رواية أشارت الى أنّ بعض أهل الكوفة اتّهموا الإمام الحسن عليه السلام بضعف الحجّة والعجز عن الخطابة، ولعلّ هذه الرواية متعلّقة بهذه الفترة.

وعندما سمع أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الاتهامات دعا ولده الإمام الحسن عليه السلام ليلقي في أهل الكوفة خطاباً، يفنّد فيه تلك المزاعم، وقد استجاب عليه السلام لدعوة أبيه عليه السلام، وألقى في حشود من الكوفيين خطاباً بليغاً، جاء فيه : «أيّها الناس! اعقلوا عن ربّكم، إنّ الله عزّ وجلّ اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم ، فنحن الذريّة من آدم والأسرة من نوح ، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل ، وآل من محمّد ﷺ نحن فيكم كالسما المرفوعة ، والأرض المدحوة ، والشمس الضاحية ، وكالشجرة الزيتون ، لا شرقية ولا غربية، التي بورك زيتها ، النبيّ أصلها ، وعليّ فرعها ، ونحن والله ثمرة تلك الشجرة ، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجا ، ومن تخلف عنها فإلى النار هوى ...» .

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ١ / ٤٤٤.

وقد ذكر الخطبتين بتفاوت واختصار الشيخ المفيد في كتاب الجمل: ١٧٥ وابن أعثم في كتاب الفتوح ٢: ٤٦٦ - ٢٦٧.

وبعد أن انتهى الحسن عليه السلام من خطبته صعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وقال : « يا بن رسول الله ! أثبتَّ على القوم حجَّتَكَ ، وأوجبَّت عليهم طاعتك ، فويل لمن خالفك »^(١).

لَمَّا أخفقت جميع الوسائل التي سلكها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من أجل السلم بعد إصرار معاوية على محاربة السلطة الشرعية والإطاحة بالخلافة الإسلامية وإعادة المثل الجاهلية وزحفه بجيشه الى صفين واحتلال الفرات ، تهيأ عليه السلام للحرب ، وقد استدعى المهاجرين والأنصار الذين خفّوا لنجدته ، فقال لهم : « إنكم ميامين الرأي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحقّ ، مباركوا الفعل والأمر ، وقد أردنا المسير الى عدونا فأشيروا علينا برأيكم ».

فانطلق عدد من كبار الشخصيات الإسلامية من أمثال: عمّار بن ياسر وسهل بن حنيف ومالك الأشتر وقيس بن سعد وعدي بن حاتم وهاشم بن عتبة ، ليعربوا عن دعمهم لقرار الإمام عليه السلام في السير الى العدو ومواجهته^(٢).

وخطب الإمام الحسن عليه السلام خطاباً هاماً وقتذاك قال فيه : « ... فإنّه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلاّ اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم ، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ، فإنّه قد حضر ، ولا تخاذلوا فإنّ الخذلان يقطع نياط القلب ، وإنّ الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة لأنّه لم يمتنع^(٣) قوم قطّ إلاّ رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح^(٤) الذلّة ، وهداهم معالم الملة .

وقد حفل خطابه البليغ بالدعوة إلى الوحدة والتعاون لمحاربة الطغاة البغاة ، واستجاب الناس لدعوته فاسرعوا لنصرة الحقّ والدفاع عن الدين الحنيف.

(١) بحار الأنوار : ٤٣ / ٣٥٨ ، عن العدد القويّة : ٣١-٣٢.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم : ٩٢ - ٩٤ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ١٧١ - ١٧٤ .

(٣) الامتناع : العزّة والقوة .

(٤) الجوائح : جمع ، مفردها جائحة وهي الدواهي والشدائد .

واحتشد الجيشان في صفين، وبذل الإمام علي عليه السلام العديد من المساعي لتفادي وقوع الحرب مع معاوية، إلا أنها لم تفلح، مما اضطر الإمام علي عليه السلام لخوض غمار حرب استمرت عدة أشهر، وراح خلالها - ضحيةً لسلطوية معاوية - الآلاف من المسلمين والمؤمنين.

وكان للإمام الحسن عليه السلام دور بارز في حرب صفين، فقد نقل المؤرخون: أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عندما نظم صفوف جيشه جعل اليمين بقيادة الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن جعفر ومسلم بن عقيل^(١)، وفي هذه الأثناء أراد معاوية أن يجسّ نبض الإمام الحسن عليه السلام فبعث إليه عبيد الله بن عمر يمينه بالخلافة ويخذه حتى يترك أباه عليه السلام فانطلق عبيد الله، فقال له: لي إليك حاجة.

فقال له عليه السلام: نعم، ما تريد؟

فقال له عبيد الله: «إنّ أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخرأً، وقد شنأوه فهل لك أن تخلفه ونوّلّك هذا الأمر؟».

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام بكلّ حزم: «كلا والله لا يكون ذلك»، ثم أردف قائلاً: «لكأنّي أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك، أما إنّ الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلق^(٢) وترى نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلأً».

ورجع عبيد الله الى معاوية وهو خائب حسير قد أخفق في مهمته، وأخبره بحديث الإمام عليه السلام فقال معاوية: «إنّه ابن أبيه».

وخرج عبيد الله في ذلك اليوم الى ساحة الحرب يقاتل مع معاوية، فلقي حتفه سريعاً على يد رجل من قبيلة همدان، واجتاز الإمام الحسن عليه السلام في ساحة المعركة،

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٣٥٢.

(٢) الخلق: الطيب.

فرأى رجلاً قد توسّد رجلاً قتيلاً وقد ركز رمحه في عينه وربط فرسه في رجله ، فقال الإمام عليه السلام لمن حوله : أنظروا من هذا؟ فأخبروه أن الرجل من همدان وأنّ القاتل عبيد الله بن عمر ^(١) .

ومن الواضح أنّ هذا الحادث من كرامات الإمام الحسن عليه السلام حيث أخبر عن مصير عبيد الله قبل وقوعه ، وأنبأه بنهايته الذليلة ، وقد تحقّق ذلك بهذه السرعة . ولم تكن المواجهة في صفّين على وتيرة واحدة ، فكانت تارةً على شكل مناوشات بين الفريقين ، وتارةً أخرى كانت بصورة التحام كامل بين الجيشين ، وفي أوّل مواجهة اتخذت شكل الالتحام العام رأى الإمام علي عليه السلام ابنه الإمام الحسن عليه السلام يستعدّ ليحمل على صفوف أهل الشام ، فقال لمن حوله : «إملكوا عني هذا الغلام لا يهدّي ^(٢) فإنّني أنفسي ^(٣) بهذين الغلامين - يعني الحسن والحسين - لئلاّ ينقطع بهما نسل رسول الله» ^(٤) .

وبعد أن مضت عدّة أشهر على المواجهة بين جيش الإمام علي عليه السلام وجيش معاوية ، وبعد الخسائر الكبيرة التي لحقت بالجانبين ، أوشك جيش الحقّ بقيادة أمير المؤمنين عليه السلام على تحقيق النصر ووضع حدّ لهذا النزف الذي أوجده معاوية في جسم الأمة الإسلامية ، إلّا أنّ عمرو بن العاص أنقذ جيش معاوية من الهزيمة المؤكدة، عندما دعا هذا الجيش الى رفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم القرآن بين الجانبين .

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٢٩٧-٢٩٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ٢٣٣ .

(٢) يهدّي : أي يهلكني .

(٣) أنفسي : أبخل .

(٤) نهج البلاغة ٢: ١٨٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٢٥، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦٢ .

واضطرَّ الإمام علي عليه السلام لقبول التحكيم بعد أن مارس جمع من المقاتلة ضغوطاً كبيرة عليه، فقد انطلت عليهم خدعة ابن العاص بسبب جهلهم، كما وظَّف المنافقون والانتهازيون القضية لتدعيم ضغوط الجبهة على الإمام المظلوم عليه السلام.

وبعد أن إنخدع أبو موسى الأشعري - ممثِّل العراقيين - بحيلة عمرو بن العاص - ممثِّل الشاميين - في قضية التحكيم؛ التفت الذين فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام إلى الخطأ الجسيم الذي وقعوا فيه، فتوجَّهوا إلى الإمام علي عليه السلام يطلبون منه أن ينقض تعهده التي أمضاها استجابة لضغوطهم، وأن يستأنف الحرب مع معاوية، وفوق ذلك كلِّه اعتبروا أنَّ الإمام عليه السلام أخطأ بقبوله التحكيم، فرفعوا شعار «لا حكم إلَّا لله»، الأمر الذي بات ينذر باضطراب آخر وفاجعة جديدة في أوساط جيش الإمام علي عليه السلام.

ومن هنا رأى الإمام عليه السلام ضرورة الحيلولة دون وقوع الفاجعة، وذلك بأن يدعو شخصاً يتمتع بثقة الجميع واحترامهم ليلقي فيهم خطاباً يتضمن إبطالاً لحكم أبي موسى الأشعري بالدليل والبرهان، ويبين لهم مشروعية القبول بأصل التحكيم، فاختار الإمام عليه السلام ابنه الإمام الحسن عليه السلام فقال له: قم يا بني، فقل في هذين الرجلين عبد الله بن قيس (يعني: أبو موسى الأشعري) وعمرو بن العاص، فقام الإمام الحسن عليه السلام فاعتلى أعواد المنبر، وهو يقول: «أيُّها الناس! قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنَّما بعثنا ليحكم بالكتاب على الهوى، فحكمنا بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمَّ حكماً ولكنه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنَّه خالف أباه إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى أنَّه لم يستأمره في نفسه، وثالثها أنَّه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس.

وأما الحكومة فقد حَكَمَ النبي ﷺ سعد بن معاذ في بني قريضة فحكم بما يرضى الله به ، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله ﷺ^(١).

لقد عرض الإمام الحسن عليه السلام في خطابه الرائع أهم النقاط الحساسة التي هي محور النزاع ومصدر الفتنة، فأبان ﷺ أن المختار للتحكيم إنما يتبع قوله، ويكون رأيه فيصلاً للخصومة فيما إذا حكم بالحق، ولم يخضع للنزعات والأهواء الفاسدة، وأبو موسى لم يكن في تحكيمه خاضعاً للحق، وإنما اتبع هواه فرشح عبدالله بن عمر للخلافة، مع أن أباه كان لا يراه أهلاً لها، مضافاً إلى أن الشرط الأساسي في الانتخاب اجتماع المهاجرين والأنصار على اختياره، ولم يحصل ذلك له، كما أعرب عليه السلام في خطابه عن مشروعية التحكيم الأمر الذي أنكرته الخوارج، مستندلاً عليه بتحكيم النبي ﷺ لسعد بن معاذ في بني قريضة.

وأدى نفاق وتمرد بعض الجهلاء والمتظاهرين بالتدين إلى أن تمرّد مجموعة كبيرة من جيش أمير المؤمنين عليه السلام فترفض الإنصياع لأوامره ، بل ذهب هؤلاء المارقون إلى أبعد من ذلك عندما أصدرُوا حكماً بتكفير الإمام عليه السلام .

وبعد الجرائم التي ارتكبتها المارقون في العراق؛ اتخذوا «النهر» قاعدة لتمرّدهم ، فاضطرّ الإمام عليه السلام إلى التوجه نحوهم ، وبعد أن تفاوض معهم وأتمّ الحجة عليهم؛ أعلن الحرب على من أصرّ منهم على انحرافه وعناده وكفره ، فقضى على عمدتهم إلا أربعمائة من الجرحى، وكان بين الأشخاص المعدودين الذين فرّوا في واقعة النهر وانضموا إلى عبد الرحمن بن ملجم المرادي الذي كان يختزن في قلبه حقداً أعمى على الإمام المظلوم، فخطط سراً للتآمر على حياة أمير المؤمنين عليه السلام وفي نهاية المطاف وبعد أن نسّق عمله مع عدد من الخوارج والمنافقين من أهل الكوفة؛ استطاع في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك في عام (٤٠) للهجرة أن يغتال

(١) شرح الأخبار ٢: ٦-٧، الإمامة والسياسة ١: ١٥٨ .

الإمام علياً عليه السلام وهو في محراب العبادة وفي بيت الله - مسجد الكوفة - لينطلق في الآفاق نداؤه الخالد : «فرت ورب الكعبة»^(١).

وسمع أهل الكوفة بالفاجعة ، فهرعوا الى المسجد وخفّ أبناء الإمام عليه السلام مسرعين ، وكان الإمام الحسن عليه السلام في مقدمة الذين وصلوا المسجد فوجد أباه عليه السلام صريعاً في محرابه وقد تخضّب وجهه ولحيته بدمه ، وجماعة حافّين به يعالجونه للصلاة ، ولما وقع نظره على ولده الحسن عليه السلام ؛ أمره أن يصلي بالناس ، وصلى الإمام وهو جالس والدم ينزف منه.

ولما فرغ الحسن عليه السلام من صلاته؛ أخذ رأس أبيه فوضعه في حجره ، وسأله: من فعل بك هذا؟ فأجابه قائلاً: عبدالرحمن بن ملجم، فقال الإمام الحسن: من أى طريق مضى؟ فقال الإمام علي عليه السلام: لا يمض أحد في طلبه إنّه سيطلع عليكم من هذا الباب ، وأشار الى باب كندة، وما هي إلا فترة قصيرة وإذا بالناس يدخلون ابن ملجم من الباب نفسها ، وقد جيء به مكتوفاً مكشوف الرأس ، فأوقف بين يدي الإمام الحسن عليه السلام فقال له: يا ملعون! قتلت أمير المؤمنين وإمام المسلمين؟ هذا جزاؤه حين آواك وقربك حتى تجازيه بهذا الجزاء؟

وفتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه وقال لولده الحسن عليه السلام يوصيه ببرّه والإحسان إليه : «يا بني! ارفق بأسيرك وارحمه واشفق عليه» .

فقال الإمام الحسن عليه السلام: «يا أبتاه ، قتلك هذا اللعين وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به».

فأجابه أمير المؤمنين : «يا بني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه مما تأكل ، واسقه مما تشرب ، فإن أنا متّ فاقتص منه بأن تقتله ، ولا تمثّل بالرجل فإنّي سمعت رسول

(١) شرح الأخبار ٢: ٤٣٧ - ٤٤٤ ، الاستيعاب ٣: ١٢٣ - ١٢٥ .

الله ﷺ يقول : إِيَّاكُمْ والمثلة ولو بالكلب العقور، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل البيت لا نزداد على المذنب إلينا إلاّ عفواً وكرماً»^(١) .

ولمّا علم أمير المؤمنين أنّه مفارق لهذه الدنيا وأنّ لقاءه برّبّه لقريب؛ عهد بالخلافة والإمامة لولده الحسن، فأقامه من بعده لترجع إليه الأُمَّة في شؤونها كافة ، ولم تختلف كلمة الشيعة في ذلك، فقد ذكر ثقة الإسلام الكليني أنّ أمير المؤمنين أوصى إلى الحسن، وأشهد على وصيته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته ، ثم دفع إليه الكتب والسلاح، وقال له: «يا بني! أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إلي رسول الله ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين» . وروي أيضاً أنّه قال له : «يا بني! أنت وليّ الأمر ووليّ الدم فإن عفوت فلك وإن قتلت فضربة مكان ضربة»^(٢) .

ولمّا فرغ الإمام أمير المؤمنين من وصاياّه أخذ يعاني آلام الموت وشدّته، وهو يتلو آي الذكر الحكيم ويكثر من الدعاء والاستغفار ، ولمّا دنا منه الأجل المحتوم كان آخر ما نطق به قوله تعالى : ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(٣) ثم فاضت روحه الزكية^(٤) إلى جنّة المأوى وسمت إلى الرفيق الأعلى، وارتفع ذلك اللطف الإلهي إلى مصدره، فهو النور الذي خلقه الله ليبدّد به غياهب الظلمات .

لقد مادّت أركان العدل وانطمست معالم الدين ، ومات عون الضعفاء وكهف الغرباء وأبو الأيتام .

وأخذ الحسن عليه السلام في تجهيز أبيه، فغسّل الجسد الطاهر وطيّبه بالحنوط، وأدرجه في أكفانه ، ولمّا حل الهزيع الأخير من الليل خرج ومعه حفنة من آله

(١) جميع النصوص التي وردت تحت عنوان (بجوار والده عليه السلام الجريح) نقلت في بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣ - ٢٨٨.

(٢) الكافي ١: ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) سورة الصافات ٣٧: ٦١ .

(٤) بحار الأنوار ٤٢: ٣٩٣ .

وأصحابه يحملون الجثمان المقدس إلى مقره الأخير فدفنه في النجف الأشرف حيث مقره الآن كعبة للوافدين ومقراً للمؤمنين والمتقين ومدرسة للمتعلمين ، ورجع الإمام الحسن بعد أن وارى أباه إلى بيته وقد استولى عليه الأسى والذهول وأحاط به الحزن^(١).

* * *

(١) حياة الإمام الحسن : ١ / ٥٦٨ - ٥٦٩ .

الفصل الثالث

يقع البحث في هذا الفصل في أربع مراحل:

المرحلة الأولى: منذ بيعة الإمام الحسن عليه السلام حتى صلحه مع معاوية

والنقاط المهمة التي ينبغي ذكرها في هذه المرحلة هي:

١ - خطبة الإمام الحسن عليه السلام يوم استشهاد أبيه عليه السلام

ذكر أغلب المؤرخين أنّ الإمام الحسن عليه السلام ألقى في صباح الليلة التي دُفِنَ فيها أباه عليه السلام خطبةً جاء فيها:

«أيّها الناس! في هذه الليلة نزل القرآن، وفي هذه الليلة رُفِعَ عيسى بن مريم، وفي هذه الليلة قُتِلَ يوشع بن نون، وفي هذه الليلة مات أبي أمير المؤمنين عليه السلام، والله لا يسبق أبي أحد كان قبله من الأوصياء إلى الجنّة، ولا من يكون بعده»^(١).

ثم خنقته العبرة، فبكى وبكى الناس معه، ثم قال:

«أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أنا من أهل بيت فرض الله مودّتهم في كتابه فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾^(٢)، فالحسنة مودّتنا أهل البيت»^(١).

(١) أمالي الصدوق: ٣٩٧، المعجم الأوسط للطبراني ٨: ٢٢٤، تاريخ الطبري ٤: ١٢٠ - ١٢١، الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٠ - ٤٠١، البداية والنهاية ٧: ٣٦٨.

(٢) سورة الشورى ٤٢: ٢٣.

٢ - بيعة الإمام الحسن عليه السلام

ولمّا أنهى الإمام عليه السلام خطابه، انبرى عبيد الله بن العباس فحفّز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلاً: «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم، ووصي إمامكم فبايعوه». فاستجاب الناس لهذه الدعوة المباركة، فهتفوا بالطاعة، وأعلنوا الرضا والانقياد قائلين: «ما أحبه إلينا، وأوجب حقّه علينا، وأحقّه بالخلافة».

وتمّت البيعة له في يوم الجمعة المصادف الحادي والعشرين من شهر رمضان في سنة (٤٠) للهجرة.

ثم نزل الحسن عن المنبر فرتب العمال وأمر الأمراء ونظر في الأمور، وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة.

كان أول شيء أحدثه الحسن بن علي عليه السلام أنه زاد أعطيات المقاتلة مائة مائة، وقد كان أبوه فعل ذلك يوم الجمل، والحسن عليه السلام فعله على حال الاستخلاف فتبعه الخلفاء بعد ذلك^(٢).

٣ - الإمام الحسن عليه السلام يقتصر من قاتل أمير المؤمنين عليه السلام

وفي اليوم الذي بايع الناس فيه الإمام الحسن عليه السلام وبعد إتمام البيعة أمر بإحضار عبد الرحمن بن ملجم، فلمّا مثل بين يديه قال له ابن ملجم: ما الذي أمرك به أبوك؟ فأجابه الامام عليه السلام:

«أمرني أن لا أقتل غير قاتله، وأن أشبع بطنك وأنعم وطاءك»^(٣).
ثم ضرب عنقه، ولم يمثّل به.

٤ - جهاد الإمام الحسن عليه السلام

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٨.

(٢) مقاتل الطالبين: ٣٤ - ٣٥، الإرشاد للمفيد ٢: ٨ - ٩، أعيان الشيعة ٤: ١٤.

(٣) تاريخ يعقوبي ٢: ٢١٤.

يكشف النص التاريخي - الذي نقلناه سابقاً من قيام الإمام عليه السلام بمضاعفة الأجور التي كان يتقاضاها المقاتلة - عن موقف الإمام عليه السلام الجاد من الحرب وإصراره الأكيد على مجابهة معاوية كما يتضح من عمله في إصلاح حال جيشه وبنائه له . وقد أخذ الإمام عليه السلام جانب الحزم في موقفه من معاوية، ذلك أن معاوية لما علم بوفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس للإمام الحسن عليه السلام دسّ رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة، ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الإمام عليه السلام الأمور ، فعرف ذلك الإمام فأمر باستخراج الحميري من عند لحام بالكوفة ، فأخرج وأمر بضرب عنقه، وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم، فأخرج وضربت عنقه^(١) .

ثم كتب الإمام عليه السلام إلى معاوية : « أمّا بعد ، فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحبّ اللقاء ، لا أشك في ذلك ، فتوقعه إن شاء الله »^(٢) . لقد كانت هذه الحادثة إنذاراً لمعاوية بالحرب وتهديداً له وقطعاً لآماله بالاستيلاء على الكوفة بسلام .

وفي كتاب آخر من الإمام عليه السلام لمعاوية جواباً على رسالته التي لمّح فيها للصالح وطلب فيها من الإمام عليه السلام أن يبايعه على أن يجعل له ولاية العهد، نلاحظ قوة موقف الإمام وعدم اهتمامه بمثل هذه العروض التي كان يحاول فيها معاوية استمالة جانب الإمام ، يقول عليه السلام :

« أمّا بعد ، فقد وصل إليّ كتابك، فتركت جوابك خشية البغي عليك ، فاتبع الحقّ تعلم أنّي من أهله ، والسلام »^(٣) .

٥ - تحرك معاوية نحو العراق وموقف الإمام عليه السلام

(١) مقاتل الطالبيين : ٣٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وبدأ معاوية يعبئ جيشه ويكتب لعمّاله بموافاته لغزو العراق ، وفي بعض كتبه لعمّاله يذكر أنّ بعض أشراف الكوفة وقادتهم كتبوا إليه يلتمسون منه الأمان لأنفسهم وعشائهم ، وإن صح هذا فهو أول الخذلان الذي ارتكبه أهل الكوفة بحق الإمام الحسن عليه السلام.

وبدأ الإمام عليه السلام من جانبه يستنهض الكوفة للجهاد والسير لقتال معاوية بعد أن بلغه توجّهه نحو العراق، فبعث حجر بن عدي يأمر العمّال والناس بالتهيؤ للمسير ونادي المنادي الصلاة جامعة، فأقبل الناس يتوثّبون ويجمعون. فقال الإمام الحسن عليه السلام للمنادي : « إذا رضيت جماعة الناس فأعلمني » وجاء سعيد بن قيس الهمداني فقال : اخرج فخرج الإمام الحسن عليه السلام فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أمّا بعد ، فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه وسّاه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : ﴿ اضْبُرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ فلستم - أيها الناس - نائلين ما تحبّون إلّا بالصبر على ما تكرهون ، إنّه بلغني أنّ معاوية بلغه أنّا كنّا أزمعنا المسير إليه فتحرك لذلك ، فاخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة .. » فسكتوا^(١).

٦ - استنكار الموقف المتخاذل :

وهكذا وقف أهل الكوفة هذا الموقف المتخاذل من قائدهم وإمامهم ، إذ سكتوا حين طلب منهم الإجابة على ندائه بالخروج إلى معسكرهم في النخيلة، فتحوّلت أعينهم وهلعت قلوبهم ، فلمّا رأى ذلك المخلصون من أصحاب الحسن، قام عديّ بن حاتم الطائي، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزباد بن صعصعة التيمي، فأنبوا الناس ولاموهم وحرّضوهم، فنشط الناس للخروج، وخرج الإمام الحسن عليه السلام إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وأمره ببحث الناس وإشخاصهم إليه ، فجعل يحثّهم

(١) مقاتل الطالبين: ٣٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٨ (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام).

ويخرجهم حتى يلتئم العسكر، وسار الإمام عليه السلام في عسكر عظيم وعدة حسنة حتى انتهى إلى النخيلة .

فأقام فيها ونظم الجيش، ثم ارتحل عنها وسار حتى انتهى إلى «دير عبد الرحمن» فأقام به ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده ، وأرسل مقدمة جيشه للاستطلاع على حال العدو وإيقافه في محله ، واختار إلى مقدمته خلص أصحابه وخيرة عناصر جيشه، وكان عددهم اثني عشر ألفاً ، وأعطى القيادة العامة إلى ابن عمه عبيد الله بن العباس .

٧ - خيانة قائد الجيش :

وصل عبيد الله بن العباس إلى «مسكن»^(١) فعسكر فيها ، وقابل العدو وجهاً لوجه ، وعندها بدأت تظهر بوادر الفتنة بوضوح، وانطلقت دسائس معاوية تشق طريقها إلى المعسكر حيث تجد المجال الخصب بوجود المنافقين ومن يؤثرون العافية ، وكانت الشائعة الكاذبة « أن الحسن يكتب معاوية على الصلح فلم تقتلون أنفسكم ؟ »^(٢).

فارتبك الموقف أمام قائد الجيش وسرت همهمة في الجيش عن صدق الشائعة أو كذبها ، فبين مصدق لها وبين مكذب ، وبين من يحاول إثباتها على أي حال ، ولم يحاول القائد عبيد الله أن يتأكد من كذب هذه الشائعة وبعدها عن الواقع ، لأن الإمام الحسن عليه السلام كان مشغولاً في تلك الأثناء ببعث الرسل إلى الأطراف وتهيئة الكتائب اللاحقة بالطلائع ومكاتبة معاوية بالحرب وبعث الحماس بخطبه اللاهبة المحرضة على القتال ، ولم يكتب في صلح ولم يكن من رأيه آنذاك أبداً .

(١) موضع قريب من «أوانا» على نهر الدجيل ، وبها كانت الواقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب ابن الزبير سنة ٧٢ هـ .

(٢) مقاتل الطالبين: ٤٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٤٢ .

وسرت الحيرة في نفس قائد الجيش ممّا دفعه للانطواء ، فأخذ يفكر في مصيره ، وكان قد بلغه تخاذل الكوفيين عن التحرك نحو المعركة وتباطؤهم عن تلبية نداء الجهاد ، فبدت في نفسه بعض التصورات من أنّه في موقف لا يغط عليه .

وبينا هو يعيش هذه الحيرة وصلته رسائل معاوية وهي تحمل في طياتها عوامل الإغراء التي تمسّ الوتر الحساس في نفس ابن عباس من حبه للتعاظم وتطلّعه للسبق ، وكان معاوية قد خبر نقاط الضعف التي يحملها عبيد الله هذا .

وكانت رسالة معاوية تحمل : « أنّ الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إليّ ، فإن دخلت في طاعتي كنت متبوعاً ، وإلاّ دخلت وأنت تابع » وجعل له فيها ألف ألف درهم^(١) .

وهكذا انكفأ عبيد الله بن عباس على نفسه واستجاب لداعي الخيانة ، وينبلج الصبح عن افتقاد المعسكر قائده ، فترقص قلوب المنافقين والمسالمين ، وتدمى عيون المخلصين ، هذا والحسن عليه السلام لا يزال في موقفه الصلب بضرورة مقاتلة معاوية .

٨ - توالي الخيانات في جيش الإمام عليه السلام

وصلت أنباء استسلام عبيد الله لعدوّه إلى المدائن ، وشاع جوّ من المحنة في النفوس ، وشعر الإمام عليه السلام بالطعنة في الصميم تأتيه من أقرب الناس إليه وأخصّهم به ، وتسربت إليه أنباء عن مكاتبة بعض رؤساء الأجناد والقوّاد لمعاوية وطلبهم الأمان لأنفسهم وعشائريهم ، ومكاتبة معاوية لبعضهم بالأمان والمواعيد^(٢) .

وقد ارتفعت أرقام الفارين إلى معاوية بعد فرار عبيد الله وخاصّته إلى ثمانية آلاف ، كما يذكر اليعقوبي في تاريخه فيقول : « إنّّه - يعني معاوية - أرسل إلى عبيد الله بن عباس ، وجعل له ألف ألف درهم ، فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه^(٣) » .

(١) مقاتل الطالبيين: ٤٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ - ٤٢ .

(٢) أعيان الشيعة ١: ٥٦٩ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤ (ذكر خلافة الحسن عليه السلام) .

وإذا أخذنا في اعتبارنا أنّ الجيش الذي كان في «مسكن» إثنا عشر ألفاً فستكون نسبة الفارّين منه إلى معاوية وهي ثلثا الجيش نسبة كبيرة ، في حين كان الجيش الذي يقوده معاوية لمواجهة الحسن عليه السلام ستين ألفاً يُضاف إليه آلاف الفارّين من جيش الحسن عليه السلام.

ومما زاد في انهيار الموقف حرب الإشاعات الكاذبة التي شنّها معاوية للقضاء على البقية الباقية من معنويات الجيش في مسكن والمدائن ، ونذكر هنا بعض هذه الشائعات ومدى تأثيرها في المعنويات العامة في جيش الإمام الحسن عليه السلام بكلا شقّيه في المدائن ومسكن .

وقد عمل معاوية بكلّ ما أمكنه من خبث ومكر من أجل الوقعة بالجيش الكوفي وتفتيت قواه، وكان اختياره للأكاذيب ينمّ عن خبرة دقيقة في حبكها وانتقائها ، فأرسل من يدسّ في معسكر المدائن : «... بأنّ قيس بن سعد وهو قائد مسكن بعد فرار ابن عباس قد صالح معاوية وصار معه ...» ^(١).

«ويوجّه إلى عسكر قيس في مسكن من يتحدّث أنّ الحسن قد صالح معاوية وأجابه ...» ^(٢).

ثم ينشر في المدائن إشاعةً هي : «... ألا إنّ قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فانفروا بسرّادق الحسن فنهبوا متاعه فنازعوه بساطاً تحته، فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً ، ودخل المقصورة البيضاء في المدائن ...» ^(٣).

وهكذا طوّقت موجة الشائعات المتدفّقة بمكر معاوية وخبثه جناحي الجيش في المدائن ومسكن ، وفصّمت ما تبقى فيه من تماسك ، وكانت سبباً في زلزلة فئات كثيرة من غوغاء الناس المتأرجحين بين الطاعة والعصيان ومحبي الفتن والاضطرابات.

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣: ٤٠٤.

وفي غمرة هذه الأحداث جاء وفد يمثل أهل الشام مؤلف من المغيرة بن شعبة وعبد الله بن كريز وعبد الرحمن بن الحكم ليعرض الصلح على الإمام بالشروط التي يراها مناسبة ، ولكن الإمام لم يشأ أن يعطيهم من نفسه ما يرضي به طموح معاوية ، وكان دقيقاً في جوابه ، بحيث لم يشعرهم فيه بقبول الصلح أو ما يشير إلى ذلك ، بل اندفع يعظهم ويدعوهم إلى الله عز وجل وما فيه نصح لهم وللأمة وذكّرهم بما هم مسؤولون به أمام الله ورسوله في حقّه .

وغادر الوفد مقصورة الإمام مستعرضاً مضارب الجيش الذي كان يترقب نتائج المفاوضات ، فرفع أحد أفراد الوفد صوته ليسمعه الناس : « إنّ الله قد حقن بآبن رسول الله الدماء وسكّن الفتنة وأجاب إلى الصلح ... »^(١) .

وهكذا مثّلوا دورهم أروع تمثيل ، وخلقوا جواً لاهباً من المأساة تدهور على أثرها الموقف ، وتفجّرت كوامن الفتنة واضطرب تماسك الجيش ولاحت في الأفق بوادر المحنة ، فأيّ غائلة هذه التي ألهب نارها المغيرة ورفاقه ؟.

المرحلة الثانية : في الصلح وأسبابه ونتائجه

ذكر المؤرخون : إنّ الإمام الحسن عليه السلام بعد أن رأى خيانات جيشه والمحيطين به ونفاقهم ، لم يبق له أيّ أمل في ثباتهم على مواجهة العدو ولكنه أراد أن يتمّ عليهم الحجة ، فعرض عليهم اقتراح معاوية الصلح ، وقال لهم : « إنّ معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عزٌّ ولا نصّة ، فإن أردتم الحياة قبلناه منه ، وأغضضنا على القذى ، وإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله ، وحاكمناه إلى الله » ، فنادى القوم بأجمعهم : بل البقية والحياة^(٢) .

فلم يبقَ أمام الإمام الحسن عليه السلام سبيلٌ غير القبول بالصلح ، ويتبيّن من خلال التمعّن في بنود معاهدة الصلح أنّ الإمام عليه السلام لم يقدم أيّ امتياز لمعاوية ، وأنّه عليه السلام لم

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ٢١٥.

(٢) الملاحم والفتن لابن طاووس: ٣٦٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢١ - ٢٢ .

يعترف به رسمياً باعتباره خليفةً وحاكماً للمسلمين، بل اعتبر الحكم والقيادة حقّه الشرعي ، مثبتاً بطلان ادّعاءات معاوية بهذا الشأن.

وكان من أهم البنود التي اشتمل عليها الصلح:

- ١ - تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ.
- ٢ - أن يكون الأمر للحسن من بعده ، فإن حدث به حَدَث فلاخيه الإمام الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد .
- ٣ - أن يترك سبّ أمير المؤمنين عليه السلام والقنوت عليه بالصلاة .
- ٤ - أن لا ينال أحداً من شيعة عليّ بمكروه ، وأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم^(١) .

ويمكن تلخيص أسباب الصلح فيما يلي:

- ١ - ضعف أنصار الإمام وتخاذلهم وعدم إنصياحهم لأوامره بعد تأثير دسائس معاوية فيهم، وبهذا سوف لا تجدي المقاومة بل سوف تتحتّم الإنتكاسة للخط الرسالي أمام مكر معاوية ، وعلى الإمام أن يحافظ على بقاء هذا الخط وتناميّه في مجتمع يسوده مكر معاوية وخدائعه .
- ٢ - و يترتب على إنتكاسة جيش الإمام الحسن عليه السلام استشهاده مع الخلّص من أهل بيته وأصحابه، أو أسرهم وبقاؤهم أحياء في سجن معاوية، أو إطلاق سراحهم مع بقائهم في موقع الضعف بعد الإمتنان عليهم بالحرية، وكل هذه النتائج غير محمودّة .
- فإنّ الاستشهاد إذا لم يترتب عليه أثر مشروع عاجل أو آجل لا مبرر له، ولا سيما إذا اقترن بتصفية الخط الإمامي وإبادته الشاملة .

(١) صلح الإمام الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين: ص ٢٥٩.

٣ - صيانة الثلة المؤمنة بحقانية أهل البيت عليهم السلام وحفظهم من التصفية والإبادة الأموية الشاملة بعد إحراز بقاء الحقد الأموي على بني هاشم ومن يحذو حذوهم، كما أثبتته حوادث التاريخ الإسلامي الدامي .

٤ - حقن دماء المسلمين حيث لا تجدي الحرب مع الفئة الباغية .

٥ - كشف واقع المخطط الأموي الجاهلي وتحصين الأمة الإسلامية ضده بعد أن مهدت الخلافة لسيطرة صبيان بني أمية على زمام قيادة الأمة المسلمة والتلاعب بمصير الكيان الإسلامي ومصادرة الثورة النبوية المباركة.

٦ - ضرورة تهيئة الظروف الملائمة لمقارعة الكفر والنفاق المستتر من موقع القوة .

لقد خفيت الأسباب الحقيقية التي كانت تكمن وراء الموقف الإلهي الذي اتخذته الإمام المعصوم على كثير من الناس المعاصرين للحدث وعلى بعض اللاحقين من أصحاب الرؤى السطحية، أو المضللين الذين وقعوا تحت تأثير التزييف للحقائق، لكن الأحداث التي أعقبت الصلح والسياسات العدوانية التي انتهجها معاوية وبقية الحكام الأمويين، والتي ألحقت أضراراً جسيمة بالإسلام والمسلمين كشفت عن بعض أسرار موقف الإمام الحسن عليه السلام.

وأما نتائج الصلح، فأهمها أنها كشفت الوجه القبيح لمعاوية، وابتعاده عن الإسلام روحاً وعملاً؛ فقد تهيأ للحسن عليه السلام بهذا الصلح أن يفرش في طريق معاوية كميناً من نفسه يثور عليه من حيث لا يشعر فيرديه ، وتسنى له أن يلغم نصر الأموية ببارود الأموية نفسها، فيجعل نصرها جفاءً وريحها هباءً .

لم يطل الوقت حتى انفجرت أولى القنابل المغروسة في شروط الصلح، انفجرت من نفس معاوية يوم نشوته بنصره ، إذ انضم جيش العراق إلى لوائه في النخيلة، فقال - وقد قام خطيباً فيهم - : « يا أهل العراق! إنني والله لم أقاتلكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتزكوا ، ولا لتحجوا ، وإنما قاتلكم لأتأمر عليكم ، وقد أعطاني الله

ذلك وأنتم كارهون، ألا وإن كل شيء أعطيته للحسن بن علي جعلته تحت قدمي هاتين»^(١).

ثم تتابعت سياسة معاوية، تتفجر بكل ما يخالف الكتاب والسنة من كل منكر في الإسلام، قتلاً للأبرار وهدماً للأعراض وسلباً للأموال وسجناً للأحرار، وختم معاوية منكراته هذه بحمل خليفه المهتوك على رقاب المسلمين، يعيث في دينهم وديارهم، فكان من خليفه ما كان يوم الطف، ويوم الحرّة، ويوم مكة إذ نصب عليهم العرّادات والمجانيق.

ومهما يكن من أمر فالمهم أنّ الحوادث جاءت تفسّر خطّة الإمام الحسن وتجلوها، وكان أهم ما يرمي إليه سلام الله عليه أن يرفع اللثام عن هؤلاء الطغاة، ليحول بينهم وبين ما يبتغون لرسالة جدّه من الكيد، وقد تمّ له كل ما أراد، حتى برح الخفاء وأذن أمر الأموية بالجلاء، والحمد لله رب العالمين.

وبهذا استتبّ لصنوه سيد الشهداء أن يثور ثورته التي أوضح الله بها الكتاب، وجعله فيها عبرة لأولي الألباب.

المرحلة الثالثة: ما بعد الصلح حتى الشهادة

بقي الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة أياماً بعد الصلح، ثمّ عزم على مغادرة العراق، والشخص إلى مدينة جدّه عليه السلام، وقد ألحّ عليه بعض أصحابه أن يمكث في الكوفة، فامتنع من إجابتهم قائلاً: «ليس إلى ذلك من سبيل»^(٢)، ولدى توجّهه عليه السلام وأهل بيته إلى عاصمة جدّه عليه السلام خرج أهل الكوفة بجميع طبقاتهم إلى توديعه، وهم ما بين باك وآسف^(٣).

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ١٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٦ (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام)، حياة الإمام الحسن ٢: ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) تحفة الأنام للفاخوري: ٦٧.

واستقام الإمام الحسن عليه السلام في المدينة عشر سنين، حافلة بالنشاط العلمي والسياسي، وقد تمثلت مرجعيته العلمية بتأسيس مدرسته الكبرى في يثرب، وتربيته لكوكة من طلاب المعرفة، وتصديّه للانحرافات الدينية التي كادت تؤدّي الى مسخ الشريعة، كما تصدّى لمؤامرة مسخ السنّة النبويّة، التي كان يخطط لها معاوية من خلال تنشيط وضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله، والمنع من تدوين وتداول الأحاديث الصادرة واقعاً بحق أهل البيت عليهم السلام.

وأما مرجعيته السياسيّة فقد تمثلت بكونه محور المعارضة، والشوكة التي تنغص على بني أميّة ومعاوية ملكهم وتكدر صفوهم، ومن الأمثلة التي تعكس نشاطه السياسي والاجتماعي:

أ - مراقبته للأحداث ومتابعتها ومراقبة سلوك الحاكمين وعمّاله، وأمرهم بالمعروف وردعهم عن المنكر ^(١).

ب - النشاط السياسي المنظم الذي كان يتمثّل باستقباله لوفود المعارضة، وتوجيههم ودعوتهم إلى الصبر، وأخذ الحزم وانتظار أوامر الإمام عليه السلام التي ستصدر في الوقت المناسب، كما تمثّل في تأكيده المستمرّ لاستحقاقه للخلافة والإمامة.

ج - عدم تعاطفه مع أركان النظام الحاكم بالرغم من محاولاتهم كسب عطف الإمام عليه السلام، وقد تمثّل ذلك برفضه مصاهرة الأمويين؛ فقد أراد معاوية أن يصاهر بني هاشم ليحوز بذلك الشرف والمجد، فكتب إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد زينب بنت عبد الله ابن جعفر على حكم أبيها في الصداق، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ، وعلى صلح الحيين بني هاشم وبني أمية، فبعث مروان خلف عبد الله، فلمّا حضر عنده فاوضه في أمر كريمته، فأجابه عبد الله: إنّ أمر نساءنا بيد الحسن بن عليّ فاخطب منه، فأقبل مروان إلى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله، فقال عليه السلام: «اجمع من أردت» فانطلق مروان فجمع الهاشميين والأمويين في صعيد واحد وقام فيهم خطيباً، وبين أمر معاوية له.

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢: ٢٩٣.

فرد الإمام عليه السلام عليه ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « أمّا ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق فإنّا لم نكن نلرغب عن سنّة رسول الله ﷺ في أهله وبناته ^(١) ، وأمّا قضاء دين أبيها فمتى قضت نساؤنا ديون آبائهن ؟ وأمّا صلح الحيين فإنّا عاديناكم لله وفي الله فلا نصالحكم للدنيا... » .

وفي ختام كلمته قال الإمام عليه السلام : « وقد رأينا أن نزوجها - يعني زينب - من ابن عمّها القاسم بن محمّد بن جعفر ، وقد زوجتها منه ، وجعلت مهرها ضيعتي التي لي بالمدينة ، وقد أعطاني معاوية بها عشرة آلاف دينار » ^(٢) .

المرحلة الرابعة : مصير شروط الصلح وشهادة الإمام الحسن عليه السلام

لم يف معاوية بأيّ واحد من شروط الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام ، فقد أكّد المؤرّخون أنّ الصلح بجميع شروطه لم يلقَ من معاوية أيّة رعاية تناسب العهد والمواثيق التي قطعها على نفسه، بل إنّه أعلن بصراحة أنّه يضع تلك الشروط تحت قدمه، وقد نفّذ ذلك عملياً، فقد عهد بالأمر من بعده لابنه يزيد ناقضاً بذلك شرطه بأن يكون الأمر من بعده للحسن عليه السلام ثم للحسين ^(٣) .

ولم يلتزم برفع السبّ عن الإمام علي عليه السلام ، بل أصرّ على لزوم اتباع طريقته في سبّ أمير المؤمنين عليه السلام في وصاياه وكتبه لعمّاله ^(٤) .

كما أنّه لم يف بعهده بالأمان لشيعة علي عليه السلام ، بل عاملهم بمتنهي الظلم والقسوة، ونكب الشخصيات الممتازة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد سجّل المؤرّخون نصوصاً كثيرة تصف الكوارث التي جُوبه بها الشيعة من معاوية ويزيد والحكام الأمويين من بعدهم.

(١) كانت سنّة رسول الله ﷺ في مهر أزواجه وبناته أربعمئة وخمسين درهماً .

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨١ - ١٨٢، بحار الأنوار ٤٤: ١١٩ - ١٢٠ .

(٣) صلح الإمام الحسن عليه السلام : ١٤٢ .

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٥٦ - ٥٨ .

لقد حاول معاوية أن يجعل الخلافة ملكاً عضوضاً وراثه في أبنائه ، وقد بذل جميع جهوده وصرف الأموال الطائلة لذلك ، فوجد أنه لا يظفر بما يريد والحسن ابن علي عليه السلام حيّ ينتظر المسلمون حكمه العادل وخيره العميم ، ومن هنا قرّر اغتيال الإمام المجتبي عليه السلام بما اغتال به من قبل مالك الأشر وسعد بن أبي وقاص وغيرهما. فأرسل الى الإمام غير مرّة سماً فاتكاً حين كان في دمشق فلم ينجح، حتى راسل ملك الروم وطلب منه بإصرار أن يرسل له سماً فاتكاً ، وحصل عليه بعد امتناعه حين أفهمه أنه يريد قتل ابن من خرج بأرض تهامة لتحطيم عروش الشرك والكفر والجاهلية وهدّد سلطان أهل الكتاب .

وقد دعا معاوية مروان بن الحكم إلى إقناع جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي- وكانت من زوجات الإمام الحسن عليه السلام - بأن تسقي الحسن السمّ وكان شربة من العسل بماء رومة^(١)، فإن هو قضى نحبه زوجها بيزيد ، وأعطاهها مائة ألف درهم .

وكانت جعدة هذه بحكم بنوّتها للأشعث بن قيس - المناق المعروف الذي أسلم مرتين بينهما ردّة منكرة - أقرب الناس روحاً إلى قبول هذه المعاملة النكراء . قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «إنّ الأشعث شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وابنته جعدة سمّت الحسن، وابنه محمّد شرك في دم الحسين عليه السلام»^(٢). وهكذا تمّ لمعاوية ما أراد ، وكانت شهادته عليه السلام بالمدينة يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة أو تسع وأربعين .

وحكم معاوية بفعلته هذه على مصير أمة بكاملها ، فأغرقها بالنكبات وأغرق نفسه وبنيه بالذحول والحروب والانقلابات ، وتمّ له بذلك نقض المعاهدة إلى آخر سطر فيها .

(١) ترجمة الإمام الحسن لابن عساكر: ٢١١ - ٢١٢، صلح الإمام الحسن : ٣٦٥ . وقد اشتهرت كلمة معاوية : « إنّ لله جنوداً من عسل » .

(٢) الكافي ٨: ١٦٧، بحار الأنوار ٤٢: ٢٢٨، صلح الإمام الحسن عليه السلام: ٣٦٥.

والنصوص على اغتيال معاوية للإمام الحسن عليه السلام بالسّم متضافرة كأوضح قضية في التاريخ^(١).

ودخل جنادة بن أبي أمية - الصحابي الجليل - على الإمام عائداً له ، فالتفت إلى الإمام قائلاً : عظمي يابن رسول الله .

فأجاب عليه طلبته وهو في أشد الأحوال حراجةً ، وأقساها ألماً ومحنةً ، فأتحفه بهذه الكلمات الذهبية التي هي أغلى وأثمن من الجوهر وقد كشفت عن أسرار إمامته ، ومن هذه الوصية قوله عليه السلام :

« يا جنادة! استعد لسفرك ، وحصل زادك قبل حلول أجلك ، واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، ولا تحمل همّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أن الدنيا في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب ، وفي الشبهات عتاب... واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعة الله عزّ وجلّ». وثقل حال الإمام عليه السلام واشتدّ به الوجد فأخذ يعاني آلام الإحتضار، فعلم أنه لم يبق من حياته الغالية إلا بضعة دقائق فالتفت إلى أهله قائلاً :

« أخرجوني إلى صحن الدار حتى أنظر في ملكوت السماء » .

فحملوه إلى صحن الدار ، فلمّا استقرّ به رفع رأسه إلى السماء وأخذ يناجي ربّه ويتضرع إليه، وأخذ يتلو آي الذكر الحكيم ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الزكية إلى جنة المأوى ، وسمت إلى الرفيق الأعلى.

(١) مستدرک الحاكم ٣: ١٧٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١١، مقاتل الطالبين: ٣١، الاستيعاب

١: ٣٨٩، درر السمط في خبر السبط: ٩١ - ٩٢ .

وأخذ سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في تجهيز أخيه ، وقد أعانه على ذلك عبدالله بن عباس وعبد الرحمن بن جعفر وعلي بن عبدالله بن عباس وأخواه محمد ابن الحنفية وأبو الفضل العباس ، فغسله وكفنه وحنطه وهو يذرف من الدموع مهما ساعدته الجفون ، وبعد الفراغ من تجهيزه ؛ أمر عليه السلام بحمل الجثمان المقدس إلى مسجد الرسول لأجل الصلاة عليه ^(١) .

وكان تشييع الإمام تشييعاً حافلاً لم تشهد نظيره عاصمة الرسول ، فقد بعث الهاشميون إلى العوالي والقرى المحيطة يثرب من يعلمهم بموت الإمام ، فنزحوا جميعاً إلى يثرب ليفوزوا بتشيع الجثمان العظيم ^(٢) وقد حدث ثعلبة بن مالك عن كثرة المشيعين فقال :

«شهدت الحسن يوم مات ، ودفن في البقيع ، ولو طرحت فيه إبرة لما وقعت إلا على رأس إنسان» ^(٣) .

وقد بلغ من ضخامة التشييع أن البقيع ما كان يسع أحداً من كثرة الناس .

دفن الإمام عليه السلام وفتنة عائشة :

ولم يشك مروان ومن معه من بني أمية أنهم سيدفنونهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتجمعوا لذلك ولبسوا السلاح ، فلما توجه به الحسين عليه السلام إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله ليجدد به عهداً ؛ أقبلوا إليهم في جمعهم ، ولحقهم عائشة على بغل وهي تقول: ما لي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب ، وجعل مروان يقول : يا رب هيجا هي خير من دعة ، أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبي ؟! لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف .

وكادت الفتنة أن تقع بين بني هاشم وبني أمية فبادر ابن عباس إلى مروان فقال له: ارجع يا مروان من حيث جئت فإننا ما نريد دفن صاحبنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله لكننا

(١) تذكرة الخواص ٢: ٦٤ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٨: ٢٢٨ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٧ / ترجمة ١٣٨٣ .

نريد أن نجدد به عهداً بزيارته ثم نردّه إلى جدّته فاطمة بنت أسد فندفنه عندها بوصيته بذلك، ولو كان أوصى بدفنه مع النبي ﷺ لعلمت أنك أقصر باعاً من ردّنا عن ذلك، لكنّه ﷺ كان أعلم بالله وبرسوله وبحرمة قبره من أن يطرق عليه هدماً، كما طرق ذلك غيره ودخل بيته بغير إذنه.

ثم أقبل على عائشة وقال لها: وا سوأتاه! يوماً على بغل ويوماً على جمل، تريدان أن تطفئي نور الله وتقاتلي أولياء الله، ارجعي فقد كُفيت الذي تخافين وبلغت ما تحبين والله منتصر لأهل البيت ولو بعد حين .

وقال الحسين عليه السلام: «والله لو لا عهد الحسن بحقن الدماء وأن لا أهريق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا».

ومضوا بالحسن فدفنوه بالبقيع عند جدّته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها^(١).

ووقف الإمام الحسين عليه السلام على حافة القبر، وأخذ يؤبّن أخاه قائلاً: «رحمك الله يا أبا محمد، إن كنت لتباصر الحقّ مظانّه، وتؤثر الله عند التداحض في مواطن التقيّة بحسن الروية، وتستشفّ جليل معاصم الدنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف، نقية الأسرة، وتردع بادرة غرب أعدائك بأيسر المؤونة عليك، ولا غرو فأنت ابن سلاله النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فيلى رَوْح وَرِجَان، وجنة ونعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حسن الأسى عنه»^(٢).

* * *

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ١٨ - ١٩، روضة الواعظين: ٦٨، بحار الأنوار ٤٤: ١٥٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٦.

الفصل الرابع

من تراث الإمام المجتبي عليه السلام

١ - نظرة عامة في تراث الإمام المجتبي عليه السلام

الإمام المجتبي عليه السلام كأبيه المرتضى وجده المصطفى قائد مبدئي تتلخص مهماته القيادية في كلمة موجزة ذات معنى واسع وأبعاد شتى هي: «الهداية بأمر الله تعالى» انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(١).

والهداية بأمر الله سبحانه تتجلى في تبيان الشريعة وتقديم تفاصيل الأحكام العامة أو المطلقة التي نص عليها القرآن الكريم والرسول العظيم، كما تتجلى في تفسير القرآن الحكيم وإيضاح مقاصد الرسول الكريم.

وتتجلى الهداية في تطبيق أحكام الله تعالى على الأمة المسلمة وصيانة الشريعة والنصوص الإلهية من أي تحريف أو تحوير يتصدى له الضالون المضلون.

والثورة التي فجرها الإسلام العظيم هي ثورة ثقافية قبل أن تكون ثورة اجتماعية أو اقتصادية، فلا غرو أن تجد الأئمة من أهل البيت عليه السلام يفرغون أنفسهم لتربية الأمة وتنقيتها على مفاهيم الرسالة وقيمها، وهم يرون أن مهمتهم الأولى هي التربية والتنقيف انطلاقاً من النص القرآني الصريح في بيان أهداف الرسالة والرسول الذي يرى الإمام نفسه استمراراً له وقيماً على ما أثمرته جهود الرسول ﷺ من «رسالة» و«أمة» و«دولة»، قال تعالى مفصلاً لأهداف الرسالة ومهمات الرسول: {يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} ^(٢).

(١) سورة الأنبياء ٢١: ٧٣.

(٢) سورة الجمعة ٦٢: ٢.

ولئن غَضَّ الإمام المجتبي الطرف عن الخلافة لأسباب دينية ومبدئية؛ فهو لم يترك الساحة وموارث الرسول ﷺ لتنهب بأيدي الجاهليين، بل نجده قد تصدَّى لتربية القاعدة التي على أساسها تقوم الدولة وعليها تطبق أحكام الشريعة. وقد خَلَفَ الإمام المجتبي تراثاً فكرياً وعلمياً ثراً من خلال ما قدّمه من نصوص للأُمَّة الإسلامية على شكل خطب أو وصايا أو احتجاجات أو رسائل أو أحاديث وصلتنا في فروع المعرفة المختلفة، ممّا يكشف عن تنوّع اهتمامات الإمام الحسن وسعة علمه وإحاطته بمتطلبات المرحلة التي كانت تعيشها الأُمَّة المسلمة في عصره المحفوف بالفتن والدواهي التي قلّ فيها من كان يعي طبيعة المرحلة ومتطلباتها إلاّ أن يكون محفوفاً برعاية الله وتسديده.

ونستعرض صوراً من اهتمامات الإمام العلمية، ونلتقط شيئاً من المفاهيم والقيم المثلى التي ظهرت على لسانه وعبر عنها ببلغ بيانه، أو تجلّت في تربيته لتلامذته وأصحابه.

٢ - في رحاب العلم والعقل :

أ- قال ﷺ في الحثّ على طلب العلم وكيفية طلبه وأسلوب تنميته :

١ - «تعلّموا العلم، فإنّكم صغار في القوم، وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب»^(١).

٢ - «علّم الناس، وتعلّم عِلْمَ غيرك، فتكون قد أتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم»^(٢).

٣ - «أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكّر، فإنّ التفكّر أبو كلّ خير وأُمّه»^(٣).

ب - إنّ العقل أساس العلم، ومن هنا فقد عرّف العقل من خلال لوازمه وآثاره

العلمية ومدى أهميته ودوره في كمال الإنسان بقوله :

١ - «العقل حفظ القلب كلّ ما استرعته»^(١).

(١) عن الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ١٤٢ (ذكر علمه ﷺ).

(٢) كشف الغمّة ٢ : ١٩٤ (ذكر مواظبه ﷺ)، بحار الأنوار ٧٥ : ١١١ / ح ٦.

(٣) مجموعة ورام : ٣٧، حياة الإمام الحسن : ١ : ٣٤٦.

٢ - «لا أدب لمن لا عقل له ، ولا مودة لمن لا همة له ، ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشره الناس بالجميل ، وبالعقل تدرك سعادة الدارين ، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً»^(٢).

٣ - في رحاب القرآن الكريم :

أ - قال عليه السلام في بيان حقيقة القرآن ورسائله وأهدافه وفضله وكيفية الارتواء من معينه الشر:

١ - «إنّ هذا القرآن فيه مصابيح النور ، وشفاء الصدور ، فليُجلّ جال بضوئه وليلجم الصفة قلبه ؛ فإنّ التفكير حياة قلب البصير ، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»^(٣).

٢ - « ما بقي من هذه الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتّخذوه إماماً ، وإنّ أحقّ الناس بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه ، وأبعدهم عنه من لم يعمل به وإن كان يقرؤه»^(٤).

ب - وروى المؤرّخون نماذج من تفسير الإمام المجتبي للقرآن الكريم ، وإليك نموذجاً واحداً منها :

« جاء رجل إلى مسجد الرسول ﷺ ليسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ وَمَشْهُودٌ﴾^(٥) فرأى ثلاثة أشخاص قد احتفّ بكل واحد منهم جمع من الناس يحدثهم عماً سمعه من رسول الله ﷺ ، فسأل أحدهم عن الشاهد والمشهود فقال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، ثم سأل الآخر فقال له : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر ، ثم سأل الثالث فأجابه : الشاهد رسول الله ﷺ والمشهود يوم القيامة لقوله تعالى :

(١) العدد القويّة: ٢٢ / ح ٢٢، بحار الأنوار ٧٥: ١١٢ / ح ٧.

(٢) كشف الغمّة ٢: ١٩٤ (قصار حكمه عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ١١١ / ح ٦.

(٣) كشف الغمّة ٢: ١٩٥ (قصار حكمه عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ١١٢ / ح ٦.

(٤) موسوعة كلمات الإمام الحسن عليه السلام: ٢١٣ / ح ١٩٧، عن إرشاد القلوب.

(٥) سورة البروج ٨٥: ٣.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، وقوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٢)، فسأل عن الأول فقيل له: عبدالله بن عباس، وسأل عن الثاني فقيل له: عبدالله بن عمر، وسأل عن الثالث فقيل له: الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام^(٣).
إنَّ المتتبع لخطب الإمام ومواعظه يلمس فيها الاستدلال والاستشهاد الدقيق بآيات الذكر الحكيم، ممَّا يفيدنا مدى إحاطته صلوات الله عليه بمقاصد القرآن وأسراره وبواطن آياته، وسوف تلاحظ نماذج من ذلك فيما سيأتي من كلامه.

٤ - في رحاب الحديث النبوي والسيرة النبوية الشريفة :

لقد اهتم الإمام الحسن المجتبي بنشر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسيرته ومكارم أخلاقه، ونختار من الأحاديث التي رواها عن جده صلى الله عليه وآله ما يلي :

- ١ - « إنَّ من واجب المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم .. » .
- ٢ - « يا مسلم! اضمن لي ثلاثاً أضمن لك الجنة : إن أنت عملت بما افترض عليك في القرآن فأنت أعبد الناس، وإن قنعت بما رزقت فأنت أغنى الناس، وإن اجتنبت ما حرم الله فأنت أروع الناس ... » .
- ٣ - « من صلى الفجر فجلس في مصلاه إلى طلوع الشمس ستره الله من النار » .
- ٤ - « حيثما كنتم فصلّوا عليّ، فإنّ صلاتكم تبلغني » .
- ٥ - « جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله ومعها ابناها فسألته فأعطاهما ثلاث تمرات، فأعطت كلّ واحد منهما ثمرة فأكلها، ثم نظرا إلى أمهما فشقت التمرة اثنتين فأعطت كلّ واحدة منهما شقّ ثمرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : رحما الله برحمتها ابنيها » .
- ٦ - «ودعاء صلى الله عليه وآله بهذا الدعاء : اللهم أقلني عثرتي، وآمن روعتي، واكفني من بغى عليّ، وانصرني على من ظلمني، وأرني ثأري منه ... » .

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٤٥.

(٢) سورة هود ١١: ١٠٣.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٣١٥ (تفسير سورة البروج).

٥ - في رحاب العقيدة :

١ - التوحيد : جاء إليه رجل فقال له : يا بن رسول الله! صف لي ربك كأنني أنظر إليه، فأطرق الحسن ملياً ثم رفع رأسه فأجابه: « الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه ، ولا قبل مدرك ولا بعد محدود ولا أمد بحثي ، ولا شخص فيتجزأ ، ولا اختلاف صفة فيتناهى ، فلا تدرك العقول وأوهامها ، ولا الفكر وخطراتها ، ولا الألباب وأذهانها ، صفته فيقول : متى ، ولا بدئ ممّا ، ولا ظاهر على ما ، ولا باطن فيما ، ولا تارك فهلاً ، خلق الخلق فكان بديناً بديعاً ، ابتداء ما ابتدع ، وابتدع ما ابتداء ، وفعل ما أراد ، وأراد ما استزاد ، ذلك الله رب العالمين »^(١).

٢ - إبطال الجبر : رفع أهالي البصرة إليه عليه السلام رسالة يطلبون منه رأيه في مسألة الجبر فأجابهم عليه السلام : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله لا يطاع استكراهاً ولا يُعصى لغلبة ؛ لأنه المليك لما ملّكهم ، والقادر على ما أقدرهم ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا ، فليس هو الذي أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة ، ولكن فيهم المشيئة التي غيبتها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت الحجة عليهم »^(٢).

٣ - تفسير صفاته تعالى : وسأله رجل عن معنى الجواد فقال : « ... وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى ، وهو الجواد إن منع ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له ، وإن منع منع ما ليس له »^(٣).

٦ - في رحاب ولاية أهل البيت عليه السلام :

١ - قال عليه السلام مبيناً لحقيقة أهل البيت عليه السلام :

(١) توحيد الصدوق: ٤٥ - ٤٦ / ح ٥ (باب التوحيد رقم ٢)، بحار الأنوار ٤: ٨٩ - ٩٠ / ح ٢٠.

(٢) المنية والأمل: ٢٢.

(٣) مجمع البحرين ١: ٤٢٥ (مادة جود).

والذي في كتب الحديث عن الإمامين الكاظم والرضا عليه السلام.

«أيها الناس، اعقلوا عن ربكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ [عَزَّ وَجَلَّ] اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»^(١)، فنحن الذرية من آدم والأسرة من نوح والصفوة من إبراهيم والسلالة من إسماعيل وآل محمد ﷺ نحن فيكم كالسما المرفوعة والأرض المدحوة والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتون لا شرقية ولا غربية التي يورك زيتها، النبي أصلها وعلي فرعها، ونحن والله ثمر تلك الشجرة، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن تخلف عنها في النار هوى...»^(٢).

٢ - وخطب قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه: «إِنَّ اللَّهَ لم يبعث نبياً إلا اختار له نفساً ورهطاً وبيتاً، فوالذي بعث محمداً بالحق لا ينتقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله مثله، ولا يكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة، ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدَ حِينٍ﴾»^(٣)»^(٤).

٣ - وقال عليه السلام: «نحن حزب الله المفلحون، وعتره رسول الله ﷺ الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ والثاني كتاب الله... فأطيعونا فإطاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الأمر مقرونة...»^(٥).

٤ - وخطب عليه السلام فتحدث عن فلسفة التشريع وعن ارتباط الأحكام بولاية أهل البيت، ثم قال: «ولو لا محمد ﷺ وأوصياؤه كنتم حيارى، لاتعرفون فرضاً من الفرائض، وهل تدخلون داراً إلا من بابها»^(٦).

وبعد أن استدلل عليه كمال الدين وإتمام النعمة وأشار إلى حقوق أولياء الله ودور أداء هذه الحقوق في سلامة الحياة ونمائها وأنّ البخل هو من يبخل بالمودة بالقربى... قال: «سمعت جدي ﷺ يقول: خلقت أنا من نور الله، وخلق أهل بيتي من نوري، وخلق محبّوهم من نورهم، وسائر الناس من الناس»^(٧).

(١) سورة آل عمران ٣: ٣٣ - ٣٤.

(٢) العدد القويّة: ٣٢ / ح ٢١، بحار الأنوار ٤٣: ٣٥٨ / ح ٣٧.

(٣) سورة ص ٣٨: ٨٨.

(٤) كشف الغمّة ٢: ١٩٦ (كلامه ومواعظه عليه السلام)، العدد القويّة: ٣٨ - ٣٩ / ح ٥٠.

(٥) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٣٦٣.

(٦) أمالي الطوسي: ٦٥٥ / ح ١٣٥٥، بحار الأنوار ٢٣: ١٠٠ / ح ٣.

(٧) ينابيع المودة ٣: ٣٦٦ / ح ١ باب ٩٠.

٧ - البشارة بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام :

١ - قال عليه السلام بعد أن صالح معاوية ودخل عليه الناس ولامه بعضهم على بيعته: «... أما علمتم أنه ما منّا من أحد إلّا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه، إلّا القائم الذي يصليّ روح الله عيسى بن مريم خلفه، فإنّ الله يخفي ولادته ويغيّب شخصه، لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين، ابن سيّدة الإمام، يطيل الله عمّره في غيبته ثم يظهره بقدرته في صورة شاب دون أربعين سنة...»^(١).

٢ - وروى عليه السلام حديثاً عن أبيه عليه السلام أخبره فيه عن ولاية بني أمية وبدعهم وفتكهم بأعدائهم حتى قال: «... حتى يبعث الله رجلاً في آخر الزمان وكلّب من الدهر وجهل من الناس، يؤيّده الله بملائكته، ويعصم أنصاره وينصره بآياته، ويظهره على أهل الأرض حتى يدينوا طوعاً وكرهاً، يملؤها قسطاً وعدلاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافراً إلّا آمن به، ولا طالح إلّا صلح، وتصطليح في ملكه السباع، وتخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركاتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً، فطوبى لمن أدرك أيامه وسمع كلامه»^(٢).

٨ - في رحاب الأخلاق والتربية :

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت الحسن عليه السلام يقول: «مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذم على الجار»^(٣)، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء»^(٤).

(١) كفاية الأثر: ٢٢٥ (ما جاء عن الحسن من النصّ على أخيه عليه السلام)، كشف الغمّة ٣: ٣٢٨ (في الأخبار الواردة في المهدي عليه السلام).

(٢) الاحتجاج ٢: ١١ (احتجاج الحسن عليه السلام على من أنكر الصلح)، بحار الأنوار ٤٤: ٢٠ - ٢١ / ح ٤.

(٣) أي: أخذه تحت حمايته.

(٤) راجع تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٢٢٦ (ذكرى وفاة الحسن عليه السلام).

وعرّف الإمام المجتبي عليه السلام مجموعة من (مكارم الأخلاق) في إجابته عن أسئلة أبيه المرتضى عليه السلام نختار منها ما يلي :

- ١ - السداد : دفع المنكر بالمعروف .
 - ٢ - الشرف : اصطناع العشيرة وحمل الجريرة (موافقة الإخوان)^(١) .
 - ٣ - الإخاء : الوفاء في الشدة والرخاء .
 - ٤ - الغنمة : الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا .
 - ٥ - الحلم : كظم الغيظ وملك النفس .
 - ٦ - الغنى : رضى النفس بما قسم الله وإن قلّ، فإنما الغنى غنى النفس .
- وأجاب الإمام بكل استرسال وعدم تكلف على مجموعة أخرى من أسئلة أبيه فيما يخصّ (مساوئ الأخلاق) ونختار منها ما يلي :
- ١ - الدنيئة : النظر في اليسير ومنع الحقير .
 - ٢ - الشحّ : أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً .
 - ٣ - الجبن : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .
 - ٤ - الكلفة : كلامك فيما لا يعينك .
 - ٥ - السفه : اتباع الدناة ومصاحبة الغواة .
 - ٦ - الغفلة : تركك المسجد وطاعتك المفسد .
- وتحدّث الإمام عن أصول الجرائم الأخلاقية وأمّهات الرذائل قائلاً: هلاك الناس في ثلاث : الكبر ، الحرص ، الحسد .
- الكبر : به هلاك الدين وبه تُعِن إبليس .
- الحرص : عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة .
- الحسد : رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل^(٢) .

(١) حياة الإمام الحسن : ١ / ٣٤٣ .

(٢) حياة الإمام الحسن : ١ / ٣٤٥ ، عن نور الأبصار : ١١٠ .

٩ - في رحاب المواعظ الحكيمة :

١ - قال عليه السلام في تعريف التقوى والحث عليها : «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَيْسَ بِنَارِكُمْ سُدًى، كَتَبَ آجَالَكُمْ، وَقَسَمَ بَيْنَكُمْ مَعَائِشَكُمْ لِيَعْرِفَ كُلُّ ذِي مَنْزِلَةٍ مَنْزِلَتَهُ، وَإِنَّ مَا قَدَّرَ لَهُ أَصَابَهُ، وَمَا صُرفَ عَنْهُ فَلَنْ يَصِيبَهُ ، قَدْ كَفَاكُمْ مَوْثُونَ الدُّنْيَا، وَفَرَّغَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الذِّكْرَ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَ التَّقْوَى مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَالتَّقْوَى بَابُ كُلِّ تَوْبَةٍ وَرَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ وَشَرَفُ كُلِّ عَمَلٍ ، بِالتَّقْوَى فَازَ مَنْ فَازَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾^(١) وَقَالَ : ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْفِتَنِ، وَيَسُدَّهُ فِي أَمْرِهِ، وَيُهَيِّئَ لَهُ رَشْدَهُ، وَيُفْلِحْهُ بِحُجَّتِهِ، وَيُبَيِّضَ وَجْهَهُ، وَيُعْطِهِ رَغْبَتَهُ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا»^(٣) .

٢ - وجاءه رجل من الأثرياء فقال له: يا بن رسول الله! إني أخاف من الموت، فقال له عليه السلام: «ذَاكَ لِأَنَّكَ أَخَّرْتَ مَالَكَ ، وَلَوْ قَدَّمْتَهُ لَسَرَّكَ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ»^(٤) .

٣ - وحدد السياسة تحديداً جامعاً ودقيقاً بقوله عليه السلام: «هِيَ أَنْ تَرَعَى حَقُوقَ اللَّهِ وَحَقُوقَ الْأَحْيَاءِ وَحَقُوقَ الْأَمْوَاتِ .

فَأَمَّا حَقُوقُ اللَّهِ : فَأَدَاءُ مَا طَلَبَ وَالاجْتِنَابُ عَمَّا نَهَى .

وَأَمَّا حَقُوقُ الْأَحْيَاءِ : فَهِيَ أَنْ تَقُومَ بِوَأَجْبِكَ نَحْوَ إِخْوَانِكَ، وَلَا تَتَأَخَّرَ عَنْ خِدْمَةِ أَمْتِكَ، وَأَنْ تَخْلَصَ لَوْلِي الْأَمْرِ مَا أَخْلَصَ لِأُمَّتِهِ ، وَأَنْ تَرْفَعَ عَقِيرَتَكَ فِي وَجْهِهِ إِذَا حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ.

وَأَمَّا حَقُوقُ الْأَمْوَاتِ : فَهِيَ أَنْ تَذْكُرَ خَيْرَاتِهِمْ، وَتَتَغاضَى عَنْ مَسَاوِيئِهِمْ، فَإِنَّ لَهُمْ رَبًّا يَحَاسِبُهُمْ»^(١) .

(١) سورة النبأ : ٧٨ : ٣١.

(٢) سورة الزمر : ٣٩ : ٦١.

(٣) تحف العقول : ٢٣٢ (ذكر موعظته عليه السلام)، بحار الأنوار : ٧٥ : ١١٠ / ح ٥.

(٤) تاريخ يعقوبي : ٢ : ٢٢٧ (ذكر وفاة الحسن عليه السلام).

ومن قصار كلماته الحكيمة وغرر حكمه الثمينة :

- ١ - إنَّ من طلب العبادة تزكَّى لها .
- ٢ - المصائب مفاتيح الأجر .
- ٣ - النعمة محنة فإن شكرت كانت كنزاً وإن كفرت كانت نقمة .
- ٤ - أشدَّ من المصيبة سوء الخلق .
- ٥ - من تذكَّر بعد السفر اعتدَّ .
- ٦ - فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها^(٢) .

١٠ - في رحاب الفقه وأحكام الشريعة :

- ١ - عن عاصم بن ضمرة قال: كنت أسير مع الحسن بن عليٍّ على شاطئ الفرات - وذلك بعد العصر ونحن صيام وماء الفرات يجري على رضراض^(٣) والماء صاف ونحن عطاش، فقال الحسن بن عليٍّ عليه السلام: «لو كان معي مئزر لدخلت الماء» قلت: إزاري أعطيك، قال : «فما تلبس أنت؟» قلت: أدخل كما أنا، قال: «فذاك الذي أكره، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنَّ للماء عوامر من الملائكة كعوامر البيوت استحيوهم وهابوهم وأكرمهم إذا دخلتم عليهم الماء فلا تدخلوا إلا بمئزر»^(٤) .
- ٢ - وقال: «علمني رسول الله صلى الله عليه وآله قنوت الوتر : ربِّ اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، إنَّك تقضي ولا يُقضى عليك، إنَّه لا يذل من واليت (تباركت) ربّنا وتعاليت»^(٥) .
- ٣ - وقال عليه السلام: «إذا أضرت النوافل بالفريضة فاتركوها»^(٦) .

(١) مجموعة ورام: ٣٠١، حياة الإمام الحسن ١ : ٣٥١ .

(٢) قد وردت هذه الكلمات له عليه السلام متفرقة ونحن جمعناها لتيسير الوصول إليها.

راجع تحف العقول: ٢٣٤ - ٢٣٦ و ٣٥٩ (قصار كلماته عليه السلام ومواظبه)، كشف الغمّة ٢: ١٩٥ و ٢٤١ (ترجمة الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، العدد القويّة: ٣٧ / ح ٤١ - ٤٤، بحار الأنوار ٧٥: ١٠٦ - ١٣٠ / ح ٩ و ٧ و ١٩ و ٢٤٦ / ح ٢٦، و ٧٠: ٢٤٣ / ذيل ح ٢٥.

(٣) رضراض : ما صغر من الحصى .

(٤) رجال إصبهان : ١ / ٣٣١ .

(٥) مسند أحمد ١: ١٩٩ (حديث الحسن عليه السلام)، المعجم الكبير ٣: ٧٤ - ٧٥ / ح ٢٧٠٥.

(٦) تحف العقول: ٢٣٦ (قصار كلماته عليه السلام).

١١ - في رحاب أدعية الإمام المجتبي عليه السلام:

وللإمام الحسن بن علي عليه السلام أنواع من الأدعية والابتهالات تدل على مدى اتصاله بالله ومدى تعلقه به وانقطاعه إليه، وإليك بعض نماذجها:

١ - كان عليه السلام يدعو بهذا الدعاء الشريف في قنوته، وكان يبدو عليه الخضوع والخشوع أمام الله، وهذا نصه:

« يا من بسلطانه ينتصر المظلوم، وبعونه يعتصم المكلم، سبقت مشيئتك، وتمت كلمتك، وأنت على كل شيء قدير، وبها تمضي خبر، يا حاضر كل غيب وعالم كل سر وملجأ كل مضطر، ضللت فيك الفهوم، وتقطعت دونك العلوم، أنت الله الحي القيوم، الدائم الديوم، قد ترى ما أنت به عليم، وفيه حكيم، وعنه حلیم، وأنت القادر على كشفه، والعون على كفه غير ضائق، وإليك مرجع كل أمر، كما عن مشيئتك مصدره، وقد أبنت عن عقود كل قوم، وأخفيت سرائر آخرين، وأمضيت ما قضيت، وأخرت ما لا فوت عليك فيه، وحملت العقول ما تحملت في غيبك، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وإنك أنت السميع العليم، الأحد البصير، وأنت الله المستعان، وعليك التوكّل، وأنت ولي من توليت، لك الأمر كله، تشهد الانفعال، وتعلم الاختلال، وترى تحاذل أهل الخبال، وجنوحهم إلى ما جنحوا إليه من عاجل فان، وحطام عقباه حميم آن، وقعود من قعد، وارتداد من ارتد.. وخليوي من النصار وانفرادي عن الظهار، وبك اعتصم، وبحبلك استمسك، وعليك أتوكل.

٢ - وكان يدعو بهذا الدعاء على الظالمين له والمعتدين عليه، ويطلب من الله أن يكفيه شرهم ويعلية عليهم:

« اللهم يا من جعل بين البحرين حاجزاً وبرزخاً، وحجراً محجوراً، يا ذا القوة والسلطان، يا علي المكان، كيف أخاف وأنت أمني، وكيف أضام وعليك متكلي، فغطني من أعدائك بستر، وأظهرني على أعدائي بأمر، وأيّدني بنصر، إليك ألاجأ ونحوك الملتجأ، فاجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، يا كافي أهل الحرم من أصحاب الفيل، والمرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، إرم من عاداني بالتنكيل.

اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الشِّفَاءَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالتَّوْفِيقَ لِمَا تَحِبُّ
وَتَرْضَى، يَا إِلَهَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، بِكَ اسْتَشْفِي، وَبِكَ اسْتَعْفِي،
وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(١).

* * *

(١) المصباح للكفعمي: ٢١٤ - ٢١٥ (الدعاء الثالث للحسن عليه السلام)، بحار الأنوار ٩١: ٣٧٣ (ذكر حجاب الحسن عليه السلام).

الإمام الحسين

سيد الشهداء عليه السلام

الفصل الأول

يقع البحث في هذا الفصل في مرحلتين:
المرحلة الأولى: انطباعات عن شخصية الإمام
الحسين عليه السلام

والكلام في هذه المرحلة يتألف من النقاط التالية:

١ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام في آيات الذكر الحكيم :

لم تتفق كلمة المسلمين على كاتفافهم على فضل أهل البيت عليهم السلام وعلو مقامهم العلمي والروحي، وقد صرح الذكر الحكيم بالموقع الخاص لأهل البيت عليهم السلام ونص على تطهيرهم من الررس، وعلى أنهم القربى الذين تجب مودتهم أجراً للرسالة، وأنهم الأبرار الذين أخلصوا الطاعة لله، وخافوا عذابه، فضمن لهم الجنة والنجاة من عذابه.

والإمام الحسين عليه السلام هو من أهل البيت عليهم السلام المطهرين من الررس بلا ريب، وهو ابن رسول الله صلوات الله عليه وآله بنص آية المباهلة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ

بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾.

وروى جمهور المحدثين بطرق مستفيضة أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وهم: رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، كما صرحوا بأن الأبناء هنا هما الحسنان بلا ريب.

وتضمنت هذه الحادثة تصريحاً من الرسول بأنهم خير أهل الأرض وأكرمهم على الله، ولهذا فهو يباهل بهم، واعترف أسقف نجران بذلك أيضاً قائلاً: «أرى وجوهاً لو سأل الله بها أحد أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله»^(٢).

وهكذا دلت القصة كما دلت الآية على عظيم منزلتهم وسمو مكانتهم وأفضليتهم، وأنهم أحب الخلق إلى الله ورسوله، وأنهم لا يداينهم في فضلهم أحد من العالمين. ولم ينص القرآن الكريم على عصمة أحد من المسلمين سوى النبي وأهل بيته عليهم السلام الذين أراد الله أن يطهرهم من الرجس تطهيراً^(٣).

ولئن اختلف المسلمون في دخول نساء النبي في مفهوم أهل البيت؛ فإنهم لم يختلفوا قط في دخول علي والزهراء والحسين عليهم السلام في ما تقصده الآية المباركة^(٤).

٢ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام لدى خاتم المرسلين صلوات الله عليه

لقد خصّ الرسول الأعظم صلوات الله عليه سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام بأوصاف تنبئ عن عظيم منزلتهما لديه، فهما:
أ - خير أهل الأرض^(٥).

(١) سورة آل عمران ٣: ٦١.

(٢) مسند أحمد ١: ٨٥، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، وراجع تفاسير: الكشاف، البضاوي، الرازي الجلالين، وروح البيان، سنن البيهقي ٧: ٦٣، ومصابيح السنة ٢: ٢٠١. نور الأبصار: ١٠٠، صحيح الترمذي ٢: ١٦٦.

(٣) كما نصّت على ذلك الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

(٤) مسند أحمد ٤: ١٠٧، صحيح مسلم ٢: ٣٣، خصائص النسائي: ٤، سنن البيهقي ٢: ١٥٠، مستدرک الحاكم ٢: ٤١٦، مشكل الآثار ١: ٣٣٤، أسد الغابة ٥: ٥٢١ وراجع التفسير الكبير للفخر الرازي وتفسير النيسابوري.

(٥) عيون أخبار الرضا ٢: ٦٢.

- ب - وهما سيّدا شباب أهل الجنة^(١).
 ج - وهما من العترة التي لا تفرق عن القرآن الى يوم القيامة، ولن تضلّ أمة تمسّكت بهما^(٢).
 د - وهما من أهل البيت عليه السلام الذين يضمنون لراكبي سفينتهم النجاة من الغرق^(٣).

٣ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام لدى معاصريه

- أ - قال عثمان بن عفّان في الحسن والحسين عليه السلام وعبدالله بن جعفر: فطموا العلم فطمًا، وحازوا الخير والحكمة^(٤).
 ب - قال أبو هريرة: دخل الحسين بن عليّ وهو معتمّ، فظننت أنّ النبيّ قد بُعث^(٥).
 ج - وقال معاوية لعبدالله بن عبّاس بعد وفاة الحسن عليه السلام: يا ابن عباس، أصبحت سيّد قومك، فقال: أمّا ما أبقي الله أبا عبدالله الحسين فلا^(٦).
 د - وقال محمّد بن الحنفية: إنّ الحسين أعلمنا علماً، وأثقلنا حلاًماً، وأقربنا من رسول الله ﷺ رحماً، كان فقيهاً قبل أن يخلق^(٧)!

المرحلة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الحسين عليه السلام

من الإمعان في شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، تتلمّس المظاهر التالية:

١ - تواضعه عليه السلام

جُبِلَ أبو عبدالله الحسين عليه السلام على التواضع ومجافاة الأنانية، وهو صاحب النسب الرفيع والشرف العالي والمنزلة الخصيصة لدى الرسول ﷺ فكان عليه السلام يعيش في الأمة لا يأنف من فقيرها ولا يترفع على ضعيفها ولا يتكبّر على أحد فيها.

(١) سنن ابن ماجه ١: ٥٦، سنن الترمذي: ٥: ٣٢١.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٣٢٨، مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩.

(٣) حلية الأولياء ٤: ٣٠٦.

(٤) الخصال: ١٣٦.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٥.

(٦) حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ٢: ٥٠٠.

(٧) الكافي ١: ٣٠٢، إعلام الوری ١: ٤٢٣.

فقد روي أنه عليه السلام قد مرّ بمساكين وهم يأكلون كسراً^(١) على كساء، فسلم عليهم، فدعوه الى طعامهم فجلس معهم وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا الى منزلي، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم. وروي: أنه عليه السلام مرّ بمساكين يأكلون في الصُفّة، فقالوا: الغداء، فقال عليه السلام: إنّ الله لا يحب المتكبرين، فجلس وتغذى معهم ثم قال لهم: قد أحببتكم فأجيئوني، قالوا: نعم، فمضى بهم الى منزله وقال لزوجته: أخرجي ما كنت تدّخرين^(٢).

٢ - حلمه وعفوه عليه السلام

تأدّب الحسين السبط عليه السلام بآداب النبوة، وحمل روح جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يوم عفا عمّن حاربه ووقف ضد الرسالة الإسلامية. فقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «لو شتمني رجل في هذه الأذن - وأوماً الى اليمنى - واعتذر لي في اليسرى لقبّلت ذلك منه، وذلك أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام حدّثني أنّه سمع جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يرد الحوض من لم يقبل العذر من محقّ أو مبطل^(٣)».

٣ - جوده وكرمه عليه السلام

وبنفس كبيرة كان الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام يعين الفقراء والمحتاجين، ويحنو على الأرمال والأيتام، ويثلج قلوب الوافدين عليه، ويقضي حوائج السائلين من دون أن يجعلهم يشعرون بذلّ المسألة، ويصل رحمه دون انقطاع، ولم يصله مال إلاّ فرقّه وأنفقّه وهذه سجيّة الجواد وشنشنة الكريم وسمة ذي السماحة.

(١) خبزاً يابساً.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ترجمة الإمام الحسين عليه السلام حديث ١٩٦، تفسير البرهان: ٢: ٣٦٣، أعيان الشيعة ١: ٥٨٠.

(٣) إحقاق الحقّ ١١: ٤٣١.

فكان يحمل في دجى الليل البهيم جراباً مملوءاً طعاماً ونقوداً الى منازل الأراميل واليتامى حتى شهد له بهذا الكرم معاوية بن أبي سفيان، وذلك حين بعث لعدة شخصيات بهدايا، فقال متنبئاً: أمّا الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين، فإن بقي شيء نحر به الجزور وسقى به اللبن^(١).

وفي موقف مفعم باللطف والإنسانية والحنان جعل العتق رداً للتحية، فقد روى عن أنس أنه قال :

كنت عند الحسين فدخلت عليه جارية بيدها طاقة ريحان فحيته بها، فقال لها: أنت حرّة لوجه الله تعالى. فقلت له: جارية تحييك بطاقة ريحان فتعتقها؟! فقال عليه السلام: كذا أدبنا الله، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٢)، وكان أحسن منها عتقها^(٣).

ومن كرمه وعفوه أنه وقف عليه ليقضي دين أسامة بن زيد ليفرج عن همه الذي كان قد اعتراه وهو في مرضه^(٤)، رغم أن أسامة كان قد وقف في الصف المناوئ لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

٤ - شجاعته عليه السلام

إنّ المرء ليعجز عن الوصف والقول حين يطالع صفحة الشجاعة من شخصية الإمام الحسين عليه السلام؛ فإنه ورثها عن آبائه وتربى عليها ونشأ فيها، فهو من معدنها وأصلها، وهو الشجاع في قول الحقّ والمستبسل للدفاع عنه، فقد ورث ذلك عن

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١: ١٢٨.

(٢) سورة النساء ٤: ٨٦.

(٣) كشف الغمّة ٢: ٢٤١، الفصول المهمة: ١٦٧.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٤: ٦٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩.

جده العظيم محمد ﷺ الذي وقف أمام أعتى قوة مشركة حتى انتصر عليها بالعقيدة والإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى.

ووقف مع أبيه - أمير المؤمنين عليه السلام - يعيد الإسلام حاكماً، وينهض بالأمة في طريق دعوتها الخالصة، يصارع قوى الضلال والانحراف بالقول والفعل وقوة السلاح ليعيد الحق إلى نصابه.

ووقف مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام موقف الأبطال المضحين من أجل سلامة الأمة ونجاة الصفوة المؤمنة المتمسكة بنهج الرسالة الإسلامية.

ووقف عليه يوم الطفّ موقفاً حير به الألباب وأذهل به العقول، فلم ينكسر أمام جليل المصاب حتى عندما بقي وحيداً، فقد كان طوداً شامخاً لا يدنو منه العدو هيبَةً وخوفاً رغم جراحاته الكثيرة حتى شهد له عدوه بذلك، فقد قال حميد بن مسلم: فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جنازاً منه، إن كانت الرجال لتشدّ عليه فيشد عليها بسيفه فيكشفهم عن يمينه وشماله إنكشف المعزى إذا اشتد عليها الذئب^(١).

٥ - إباؤه عليه السلام

لقد تجلّت صورة الثائر المسلم بأبهى صورها وأكملها في إباء الإمام الحسين عليه السلام ورفضه السكوت على الظلم، فسنّ بذلك للأجيال اللاحقة سنة الإباء والتضحية من أجل العقيدة وفي سبيلها، حين وقف ذلك الموقف الرسالي العظيم يهز الأمة ويشجّعها أن لا تموت هواناً وذلاً، رافضاً بيعة الطليق ابن الطليق يزيد بن معاوية قائلاً: «إنّ مثلي لا يبايع مثله»^(٢).

وها هو يصرّح لأخيه محمد بن الحنفية مجسّداً ذلك الإباء بقوله عليه السلام: «يا أخي! والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»^(٣).

(١) تاريخ الطبري ٥: ٥٤٠ وعنه في الإرشاد وعنه في اعلام الورى ١: ٤٦٨.

(٢) الفتوح لابن أعثم الكوفي ٥: ١٤، وعنه مقتل الحسين، الخوارزمي ١: ١٨٤.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٥: ٢٣، وعنه مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

ورغم أن الشيطان كان قد استحكم على ضمائر الناس فأماتها حتى رضيت بالهوان، لكن الإمام الحسين عليه السلام وقف صارخاً بوجه جحافل الشر والظلم من جيوش الردة الأموية قائلاً: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، إني عذت بربي وربكم أن ترجمون»^(١).

٦ - الصراحة والجرأة في الإصهار بالحق

وقد نهج الإمام الحسين عليه السلام منهج الصراحة والمكاشفة موضحاً للأمة الخلل والزيف والطريق الصحيح، فهذا هو بكل جرأة يقف أمام الطاغية يحذره ويمنعه عن التمادي في الغي والفساد... وتلك كتبه عليه السلام الى معاوية واضحة لا لبس فيها ينذره ويحذره من الاستمرار في ظلمه ويكشف للأمة مدى ضلالتة وفساده^(٢).

وبكل صراحة وقوة رفض البيعة ليزيد بن معاوية، وقال موضحاً للوليد ابن عتبة حين كان والياً ليزيد: «إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق فاجر، شارب للخمر، قاتل النفس المحترمة، معتل بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله»^(٣).

وكانت صراحته ساطعة مع أصحابه ومن أعلن عن نصرته، ففي أثناء المسير باتجاه الكوفة وصله نأ استشهد مسلم بن عقيل وخذلان الناس له، فقال عليه السلام للذين اتبعوه طلباً للعافية: «قد خذلنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فليصرف غير حرج، ليس عليه ذمام»^(٤).

فتفرق عنه ذوو الأطماع وضعاف اليقين، وبقيت معه الصفوة الخيرة من أهل بيته وأصحابه، ولم يخادع ولم يداهن في الوقت الذي كان يعز فيه الناصر.

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٠ وعنه في الإرشاد وعنه في إعلام الوري ١: ٤٥٩، مقتل الحسين للمقرم: ٢٨٠، أعيان الشيعة ١: ٦٠٢.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٨٩ و ١٩٥.

(٣) الفتوح ٥: ١٤، مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٣٠٣، الإرشاد ٢: ٧٥، البداية والنهاية ٨: ١٨٢، بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٤.

والحقّ أنّ من يطالع كلّ تفاصيل نهضة الإمام الحسين عليه السلام سيجد الصدق والصراحة والجرأة في كلّ قول وفعل في جميع خطوات نهضته المباركة.

٧ - عبادته وتقواه عليه السلام

ما انقطع أبو عبد الله الحسين عليه السلام عن الإتصال برّبّه في كلّ لحظاته وسكناته، فقد بقي يجسّد إتصاله هذا بصيغة العبادة لله، ويوثّق العرى مع الخالق جلّت قدرته. وإنّ نظرة واحدة الى دعائه عليه السلام في يوم عرفة تبرهن على عمق هذه المعرفة وشدة العلاقة بالله تعالى، وننقل مقطعاً من هذا الدعاء العظيم:

قال عليه السلام: «كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أياكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتّى تحتاج الى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً...

ماذا وجدَ مَنْ فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك؟!

لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك مُتحوّلاً...

يا مَنْ أذاق أحبّاءه حلاوة الموانسة فقاموا بين يديه متملّقين، ويا مَنْ ألبس أولياءه ملابس هيئته فقاموا بين يديه مستغفرين...»^(١).

ولقد بدا عليه عظيم خوفه من الله وشدة مراقبته له حتّى قيل له: ما أعظم خوفك من ربّك! فقال عليه السلام: «لا يأمن يوم القيامة إلّا من خاف من الله في الدنيا»^(٢).



(١) المنتخب الحسيني للأدعية والزيارات : ٩٢٤ - ٩٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ١٩٠.

الفصل الثاني

نشأة الإمام الحسين عليه السلام

النقطة الأولى: ومضات من نشأة الإمام الحسين عليه السلام

ونستعرض هذه النقطة ضمن العنوانين التاليين:

١ - ولادة الإمام الحسين عليه السلام

أكد أغلب المؤرخين أنه عليه السلام ولد بالمدينة في الثالث من شعبان في السنة الرابعة من الهجرة^(١)، وكانت أم أيمن قد فزعت حينما رأت في منامها أن بعض أعضاء رسول الله ﷺ ملقى في حجرها، فأول رسول الله ﷺ تلك الرؤيا بولادة الحسين عليه السلام، حيث سيحل في بيتها صغيراً للرضاعة.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يشرح هذه الرؤيا كما يلي:

أقبل جيران أم أيمن الى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن أم أيمن لم تنم البارحة من البكاء، لم تزل تبكي حتى أصبحت، فبعث رسول الله الى أم أيمن فجاءته فقال لها: «يا أم أيمن، لا أبكي الله عينك، إن جيرانك أتوني وأخبروني أنك لم تزالي الليل تبكين أجمع، فلا أبكي الله عينك ما الذي أبكاك؟ قالت: يا رسول الله، رأيت رؤياً عظيمة شديدة، فلم أزل أبكي الليل أجمع، فقال لها رسول الله ﷺ: فقصّيتها على رسول الله فإن الله ورسوله أعلم، فقالت: تعظم علي أن أتكلّم بها، فقال لها: إن الرؤيا ليست على ما ترى، فقصّيتها على رسول الله. قالت: رأيت في ليلتي هذه كأن بعض أعضائك ملقى في بيتي،

(١) مقاتل الطالبين : ٧٨، الإرشاد : ١٨، تاريخ ابن عساكر ٣١٣: ١٤، أسد الغابة ٢ : ١٨، مجمع الزوائد ٩ : ١٩٤ .

فقال لها رسول الله ﷺ : نامت عينك يا أم أيمن، تلد فاطمة الحسين فترينيه وتلبينه^(١) فيكون بعض أعضائي في بيتك»^(٢).

ووضعت سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وليدها العظيم، وزفت البشري الى الرسول ﷺ، فأسرع الى دار عليّ والزهراء عليها السلام، فقال لأسماء بنت عميس: «يا أسماء هاتي ابني، فحملته إليه وقد لفّ في خرقة بيضاء، فاستبشر النبي وضّمه إليه، وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ثم وضعه في حجره وبكى، فقالت أسماء: فذاك أبي وأمي، ممّ بكاءؤك؟ قال ﷺ: من ابني هذا. قالت: إنه ولد الساعة، قال ﷺ: يا أسماء! تقتله الفئة الباغية من بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي...»^(٣).

ثم إنّ الرسول ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «أي شيء سمّيت ابني؟ فأجابه عليّ عليه السلام: «ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله». وهنا نزل الوحي على حبيب الله محمد حاملاً اسم الوليد من الله تعالى، وبعد أن تلقى الرسول أمر الله بتسمية وليده الميمون، النفث الى عليّ عليه السلام قائلاً: سمّه حسيناً.

وفي اليوم السابع أسرع الرسول ﷺ الى بيت الزهراء عليها السلام فعقّ عن سبطه الحسين كبشاً، وأمر بحلق رأسه والتصدق بزنة شعره فضّة، كما أمر بختنه^(٤). وهكذا أجرى للحسين السبط ما أجرى لأخيه الحسن السبط من السنن.

٢ - اهتمام النبي ﷺ بالحسين عليه السلام

لقد تضافرت النصوص الواردة عن رسول الله ﷺ بشأن الحسين عليه السلام وهي تبرز المكانة الرفيعة التي يمثلها في دنيا الرسالة والأمة. ونختار هنا عدّة نماذج منها للوقوف على عظيم منزلته:

(١) أي: تسقينه اللبن.

(٢) الأُمالي، الشيخ الصدوق: ١٤٢، روضة الواعظين: ١٥٤، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٦، بحار الأنوار ٤٣: ٢٤٢.

(٣) إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ٤٢٧.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٥ وعنه في إعلام الوري ١: ٤٢٧.

١ - روى سلمان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في الحسن والحسين عليهما السلام: «اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من أحبهما»^(١).

٢ - «من أحب الحسن والحسين أحبته، ومن أحبته أحبه الله، ومن أحبه الله عز وجل أدخله الجنة، ومن أبغضهما أبغضته، ومن أبغضته أبغضه الله، ومن أبغضه الله خلده في النار»^(٢).

٣ - «إن ابني هذين ريحانتي من الدنيا»^(٣).

٤ - روي عن ابن مسعود أنه قال: كان النبي ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين عليهما السلام فارتدفاه، فلما رفع رأسه أخذهما أخذاً رقيقاً، فلما عاد عاداً، فلما انصرف أجلس هذا على فخذه الأيمن وهذا على فخذه الأيسر، ثم قال: «من أحبني فليحب هذين»^(٤).

٥ - «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(٥).

٦ - «الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأُمهما أفضل نساء أهل الأرض»^(٦).

٧ - «الحسن والحسين سيّد شباب أهل الجنة»^(٧).

(١) الإرشاد ٢: ٢٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢: ١٨٨، سنن الترمذي ٥: ٦١٥، الإرشاد ٢: ٢٨.

(٤) مستدرک الحاكم ٣: ١٦٦، وكفاية الطالب: ٤٢٢، وإعلام الوری ١: ٤٣٢.

(٥) مسند أحمد ٤: ١٧٢، صحيح الترمذي ٥: ٦٥٨، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦١.

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦١.

(٧) سنن ابن ماجه ١: ٥٦، سنن الترمذي ٥: ٦١٤، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٥.

النقطة الثانية: الإمام الحسين عليه السلام من الولادة إلى الإمامة

والكلام على هذه النقطة يقع في أربع مراحل:

المرحلة الأولى: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الرسول صلى الله عليه وآله

في حياة النبي صلى الله عليه وآله والرسالة الإسلامية مساحة واسعة لبيت علي وفاطمة وأبنائهما عليهم السلام ومعان ودلالات عميقة حيث إنه البيت الذي سيحتضن الرسالة ويتحمل عبء الخلافة ومسؤولية صيانة الدين والأمة.

وحين أشرقت الدنيا بولادة الحسين عليه السلام؛ أخذ مكانته السامية في قلب النبي صلى الله عليه وآله وموضعه الرفيع في حياة الرسالة.

وبعين الخير البصير والمعصوم المسدّد من السماء وجد النبي صلى الله عليه وآله في الوليد الجديد وريثاً للرسالة بعد حين، ثائراً في الأمة بعد زيف وسكون، مصلحاً في الدين بعد انحراف واندثار، محيياً للسنة بعد تضييع وإنكار، فراح النبي صلى الله عليه وآله يهيئه ويعدّه لحمل الرسالة الكبرى.

فها هو صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني، ومن أحبني أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله الجنة، ومن أبغضهما أبغضني، ومن أبغضني أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله النار»^(١).

وهل الحبّ إلا مقدمة الطاعة وقبول الولاية؟ بل هما بعينهما في المآل. حتّى إذا درج الحسين عليه السلام صبيّاً يتحرّك شرع النبي صلى الله عليه وآله يلفت نظر الناس إليه ويهيئ الأجواء لأن تقبل الأمة وصاية ابن النبي صلى الله عليه وآله عليها، فكم تأنّى النبي صلى الله عليه وآله في سجوده والحسين يعلو ظهره صلى الله عليه وآله ليظهر للأمة حبه له وكذا مكانته، وكم سارع النبي

(١) مستدرک الحاكم ٣: ١٦٦، تاريخ ابن عساکر ١٤: ١٥١: ترجمة الإمام الحسين عليه السلام الرقم ١٥٦٦، وإعلام الوری ١: ٤٣٢.

يقطع خطبته ليلقف ابنه القادم نحوه متعثراً فيرفعه معه على منبره^(١) ؟ كل ذلك ليدلّ على منزلته ودوره الخطير في مستقبل الأمة.

وحين قدم وفد نصارى نجران يحاجج النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام وعقيدة التوحيد الخالص وامتنع عن قبولها رغم وضوح الحقّ أمر الله تعالى بالمباهلة، فخرج النبي ﷺ إليهم ومعه خير أهل الأرض تقوىً وصلاًحاً، وأعزّهم على الله مكانةً ومنزلةً: عليّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، ليباهل بهم أهل الكفر والشرك وانحراف المعتقد، ومُدلّلاً بذلك - في الوقت نفسه - على أنّهم أهل بيت النبوة وبهم تقوم الرسالة الإسلامية، فعطأهم من أجل العقيدة لا ينضب^(٢).

وما كان من النصارى - إذ رأوا وجوهاً مشرقة وطافحة بنور التوحيد والعصمة - إلا أن تراجعوا عن المباهلة وخضعوا للجزية.

لقد كانت هذه الفترة القصيرة التي عاشها الحسين عليه السلام مع جدّه ﷺ من أهمّ الفترات وأروعها في تاريخ الإسلام كلّ، فقد وطّد الرسول ﷺ فيها أركان دولته المباركة، وأقامها على أساس العلم والإيمان، وهزم جيوش الشرك .

وفي غمرة هذه الانتصارات فوجئت الأمة بالمصائب الجلل حين توفي رسول الله ﷺ، فخيم الأسى العميق على المسلمين وخاصة على أهل بيته عليه السلام الذين أضنتهم المأساة، ولسعتهم حرارة المصيبة بغياب شخص النبي ﷺ.

وحضر الإمام الحسين عليه السلام عند جدّه الرسول ﷺ حينما كان يعاني آلام المرض ويقترب من لحظات الاحتضار، فلما رآه ضمّه الى صدره وجعل يقول: «مالي وليزيد؟! لا بارك الله فيه» ثم غشي عليه طويلاً، فلما أفاق أخذ يوسع الحسين تقبيلاً وعيناه تفيضان بالدموع، وهو يقول: «أما إنّ لي ولقاتلك موقفاً بين يدي الله عزّ وجلّ»^(٣). وفي اللحظات الأخيرة من عمره الشريف ﷺ ألقى السبطان عليهما بأنفسهما عليه وهما يذرفان الدموع والنبي ﷺ يوسعهما تقبيلاً، فأراد أبوهما أمير المؤمنين عليه السلام أن

(١) مسند أحمد ٥: ٣٥٤، صحيح الترمذي ٥: ٦١٦، إعلام الوري ١: ٤٣٣، كنز العمال ٧: ١٦٨.

(٢) مسند أحمد ١: ١٨٥، وصحيح مسلم ٢: ٣٦٠، سنن الترمذي ٤: ٢٩٣، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٠.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي ١: ٢١٨، نقلاً عن مشير الأحزان.

ينجيها عنه فأبى ﷺ وقال له: «دعها يتزودا مني وأتزود منها فستصيبها بعدي
أثرة»^(١).

ثم التفت ﷺ الى عواده فقال لهم: «قد خلفت فيكم كتاب الله وعترتي أهل
بيتي، فالمضيّع لكتاب الله كالمضيّع لستتي، والمضيّع لستتي كالمضيّع لعترتي، إنهما
لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٢).

المرحلة الثانية: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الخلفاء

١ - الحسين عليه السلام في عهد أبي بكر

كان لوفاة الرسول ﷺ وقع مؤلماً في روح الإمام الحسين الطاهرة، وهو لم
يكن بعد قد أنهى ربيع الثامن.

وما هي إلا مدة قصيرة وإذا بالحسين عليه السلام يُفجع باستشهاد أمّه فاطمة بنت رسول
الله بتلك الصورة المأساوية بعد أن ظلت تعاني من الظلم والقهر وآلام هضم حقوقها
وحقوق أهل البيت عليهم السلام طوال الأيام التي عاشتها بعد أبيها ﷺ.

وإذا أضفنا الى ذلك مأساة غضب حقوق أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ومأساة إبعاده
عن المسرح السياسي ليصبح جليس بيته؛ تجلّت لنا شدة المحن والمصائب التي
أحاطت بالحسين عليه السلام وهو في صغر سنّه.

ولقد تعمّقت مصائب الإمام الحسين عليه السلام بسبب أنواع الحصار المفروض من
قبل خطّ الخلافة وقتذاك على أصحاب الرسول ﷺ الأوفياء لخطّه الرسالي وعلى
عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام بشكل خاص، مثل منع الخمس وسائر
الحقوق من الوصول إليه، كما تجلّى ذلك بوضوح في الاستيلاء على «فدك» الذي
كان من أهدافه ممارسة ضغوط مالية أخرى على أهل بيت النبي ﷺ وأبناء أمير
المؤمنين عليه السلام.

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١١٤.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١١٤.

٢ - الحسين عليه السلام في عهد عمر بن الخطاب

وفي عهد عمر بن الخطاب اتخذ الحصار أبعاداً أكثر خطورة، فقد ذكر المؤرخون أن عمر حظر على أصحاب الرسول ﷺ الخروج من المدينة إلا بترخيص منه، وقد شمل الحظر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى مثل هذا الأمر نمطاً آخر من الضغوط التي مورست على أهل بيت الوحي الطاهرين .

أجل لقد أدّت هذه الممارسات القهرية والمواقف الظالمة الى إقصاء علي أمير المؤمنين عليه السلام، وجعلته حبيس بيته، ومن ثم تغييبه عن الميادين السياسية والاجتماعية حتى صار نسياً منسياً، وإن كان الخليفة يرجع إليه في بعض المسائل أحياناً، ولعلّ السبب في عدم إبعاده عن المدينة، هو حاجته إليه في القضايا التي كانت تستجد للخليفة، ولم يكن بمقدور أحد غير علي عليه السلام أن يقدم الحلّ المقبول لها.

ويروى : أن عمر ذات يوم كان يخطب على المنبر فلم يشعر إلا والحسين عليه السلام قد صعد إليه وهو يهتف: «إنزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك»، وبهت عمر واستولت الحيرة عليه، وراح يصدّقه ويقول له: صدقت لم يكن لأبي منبر، وأخذه فأجلسه إلى جنبه، وجعل يفحص عمّن أوعز إليه بذلك قائلاً له: من علّمك؟ فأجابه الإمام الحسين عليه السلام: «والله ما علّمني أحد»^(١).

وقد كان الحقّ يقضي بأن لا يكتفي عمر بالتصديق الكلامي للحسين من دون إعادة حقّه في فذك والخمس إليه، وإعادة حقّ والده في الخلافة إليه، إطاعةً لله وللرسول ﷺ.

٣ - الحسين عليه السلام في عهد عثمان

بخلق الرسالة وآداب النبوة وبالفضائل السامية يعيش الحسين عليه السلام أجواء أبيه المحتسب وهو يرى اللعبة السياسية تتلون والهدف واحد، وهو أن لا يصل علي عليه السلام وبنوه إلى زعامة الدولة الإسلامية بل تبقى الخلافة بعيدة عنهم، فهاهو ابن الخطّاب

(١) الإصابة ١: ٣٣٢.

لا يكتفي بحمل الأمة على ما لا تطيق والتحكّم بمصيرها بجفاء الطبع وكثرة الأخطاء؛ حتّى ابتلاها بالشورى السداسيّة المبدعة التي انبثقت منها خلافة عثمان ووصول بني أميّة الى أريكة الحكم.

ولقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام طبيعة هذه المرحلة وهو يؤثر مصلحة الدين والأمة على حقّه الخاص في الزعامة صابراً صبراً مُراً فيقول:

«فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً، أرى تراثي نهباً، حتى مضى الأوّل لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده، فصيرها في حوزة خشنة يغلظ كلمها ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم، فيالله وللشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر؟!»^(١).

وازدادت محنة أهل البيت عليهم السلام وتضاعفت مهمّتهم صعوبة، وهم يواجهون عصراً جديداً من الانحراف بالخلافة، وهو عصر يتطلّب جهوداً أضخم وسعيّاً أكبر لكي لا تضيع الأمة والرسالة، ولكنّ لوناً متميزاً من المعاناة القاسية بدأ واضحاً يصبغ حياة الأمة الإسلاميّة، فإنّ خيار رجالها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يهانون ويضربون وينفون في الوقت الذي كانت تتسابق على الوصول إلى مراكز الدولة شرارها من الطلقاء وأبنائهم، استغلالاً لضعف عثمان وجهله بالأمر تارة وعصبية القبليّة الأمويّة تارة أخرى^(٢).

وعاش الحسين عليه السلام معاناة الأمة وهي تنتفض على فساد حكم عثمان في مخاض عسير، فتمتدّ الأيدي المظلومة لتزيح الخليفة الحاكم بقوة السيف.

وكان أبوذر الغفاري - وهو من أقدم أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله الذين سبقوا إلى الإسلام - واحداً من المندّدين بسياسة عثمان والرافضين لها، وقد نهاه عثمان عن ذلك فلم ينته، فرأى عثمان أنّ خير وسيلة للتخلّص من معارضة أبي ذر هي نفيه الى

(١) نهج البلاغة : الحديث الشقيّة.

(٢) تاريخ الخلفاء: ٥٧.

جهة نائية لا سكن فيها، فأمر بإبعاده الى الربذة موعزاً الى مروان بن الحكم بأن يمنع المسلمين من مشايعته وتوديعه، ولكن أهل الحق أبوا إلا مخالفة عثمان، فقد انطلق لتوديعه - بشكل علني - الإمام علي عليه السلام والحسن عليه السلام وعقيل وعبد الله بن جعفر وعمار ابن ياسر رضي الله عنهم. وقد نقل المؤرخون كلمات حكيمة وساخنة للمودعين استنكروا خلالها الحكم العثماني الجائر ضده، وقد جاء في كلمة الإمام الحسين عليه السلام ما نصّه:

«يا عمّاه! إنّ الله تبارك وتعالى قادر أن يغيّر ما قد ترى، إنّ الله كلّ يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك، وأحوجهم الى ما منعتهم؟ فاسأل الله الصبر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإنّ الصبر من الدين والكرم، وإنّ الجشع لا يقدّم رزقاً والجزع لا يؤخّر أجلاً»^(١).

المرحلة الثالثة: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الخلافة العلوية

انتهى حكم الخلفاء الثلاثة بمقتل عثمان، وانتهى بذلك خمسة وعشرون عاماً، من العناية الناشئ عن إقصاء الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين.

وقد أيقن المسلمون أنّ الإمام علياً عليه السلام هو القائد الذي يحقق آمالهم وأهدافهم ويعيد لهم كرامتهم، وأنّهم سينعمون في ظلال حكمه بالحرية والمساواة والعدل فأصروا على مبايعته بالخلافة.

وشارك الإمام الحسين عليه السلام في جميع الحروب التي شنّها المنافقون ضدّ الإمام علي عليه السلام. وكان يبرز إلى ساحة القتال بنفسه المقدّسة كلّما اقتضى الأمر.

وقاتل الإمام الحسين عليه السلام في معركة صفّين كما قاتل في معركة الجمل، مع أنّ بعض الروايات أفادت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يمنع الحسين عليه السلام من النزول الى

(١) مروج الذهب ٢: ٣٥٠، بحار الأنوار ٢٢: ٤١٢.

ساحة القتال خشية أن ينقطع نسل رسول الله ﷺ؛ إذ كان عليه السلام يقول: «إملكوا عني هذا الغلام لا يهْدني، فإنني أنفُسُ بهذين - يعني الحسن والحسين عليهما السلام - على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ»^(١).

وتفيد الأخبار أن الإمام الحسين عليه السلام ظلَّ مع أبيه بعد صفين أيضاً في جميع الأحداث مثل قضية التحكيم ومعركة النهروان.

ومعلوم أن الأحداث التي عايشها الإمام الحسين مع أبيه عليه السلام كانت مأساوية ومرة جداً، وقد بلغت المأساة ذروتها عندما تأمر الخوارج على قتل أسمى نموذج للإنسان الكامل - بعد رسول الله ﷺ - أي عندما ضرب المجرم عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي إمامه أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه بالسيف وهو في محراب العبادة.

المرحلة الرابعة: الإمام الحسين عليه السلام في عهد أخيه الإمام الحسن عليه السلام

وقف الإمام الحسين عليه السلام إلى جانب أخيه الإمام الحسن عليه السلام وعاش جميع الأحداث التي مرَّ بها أخوه، وكانا على اتفاق تام في الرأي والموقف، يعاضده في توجيه الأمة وإنقاذها بعد أن رأى كيف أن انحراف السقيفة تكاملت أدواره في هذه المرحلة، وقد سرى هذا الانحراف في جسد الأمة حتى غدت لا تتحفز لنهضة الإمام الحسن عليه السلام ولا تستجيب لأوامره.

وأحاط الإمام الحسن عليه السلام بكلِّ مادِّه معاوية من المكائد والدسائس، وأصبحت الأكثرية من جيش العراق في قبضة معاوية بن أبي سفيان وطغمته، بعد أن كان يمثل جيش العراق العمود الفقري لجيش الإمام علي عليه السلام.

ولم يكن ليخفى على الإمام الحسين عليه السلام أن المعركة - لو قدر للإمام الحسن أن يدخلها مع معاوية - ستكون لصالح الأخير، وستنتهي حتماً إمَّا بقتل الحسن

(١) نهج البلاغة: من كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين، وقد رأى ابنه الحسن يتسرَّع إلى الحرب. باب خطب أمير المؤمنين: ٢٠٧.

والحسين وجميع الهاشميين وخلص شيعتهم، أو ستنتهي بأسرهم، في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة الإسلامية إلى وجود الإمام المعصوم بينها لإنقاذ ما تبقى وبناء ما تهدم؛ فإن الرسالة الإسلامية خاتمة الرسالات ولا بد من إتمام ما بناه الرسول ﷺ والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن ذلك تبين أن ما رواه بعض المؤرخين من أن الإمام الحسين عليه السلام كان كارهاً لما فعله الإمام الحسن عليه السلام وأنه قال له: «أنشدك الله أن لا تصدق أحداثة معاوية وتكذب أحداثة أبيك» وأن الحسن قال له: «أسكت أنا أعلم منك»... يتبين أن هذه المرويات لا أساس لها من الصحة^(١).

أقام الإمام الحسن عليه السلام بالكوفة أياماً بعد أن صالح معاوية، ثم عاد مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام وجميع أهل بيته إلى المدينة، فأقام بها كاضماً غيظه لازماً منزله منتظراً لأمر ربه جل اسمه^(٢). وكما ذكرنا فإن الإمام الحسين عليه السلام رفض التحرك ضد معاوية ما دام حياً، التزاماً بمعاهدة الصلح التي كان قد عقدها أخوه الحسن عليه السلام معه.

* * *

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٢٣.

(٢) الإرشاد ٢: ١٥.

الفصل الثالث

يقع الكلام في هذا الفصل في مرحلتين:

المرحلة الأولى: عصر الإمام الحسين عليه السلام

والبحث في هذه المرحلة يقع في نقطتين:

النقطة الأولى: حكومة معاوية ودورها في تشويه الإسلام

لقد رأى الامام الحسين عليه السلام ما وصل إليه حال المجتمع الإسلامي من التردّي عقائدياً واقتصادياً وأخلاقياً، بفعل سياسات معاوية التي أبعدت الأمة عن مسار الإسلام الأصيل، والتي بلغت ذروتها بفرض يزيد بالقوة على المسلمين، فهب عليه السلام - بعد هلاك - معاوية الى تفجير ثورته الكبرى التي أدّت الى إيقاظ النفوس وتحريك إرادة الأمة.

فعلى الصعيد الاقتصادي أشاع معاوية الفقر والحرمان في الأقطار التي كانت تضمّ المعارضين له، فلم ينفق على أهل يثرب أيّ شيء من المال، بل أجبرهم على بيع أملاكهم واشتراها بأبخس الأثمان، وفرض على أهل العراق عقوبات اقتصادية بصفته المركز الرئيس للمعارضة^(١).

واستخدم معاوية بيت مال المسلمين لتثبيت ملكه وسلطانه، واستخدام المال وسيلة للترغيب والترهيب، فحرم منه فئة من الناس، وأغدق أضعافاً مضاعفة على طائفة أخرى ثمناً لشراء ضمائرهم وضماناً لصمتهم^(٢)، ووهب خراج مصر لعمر بن العاص، وجعله طعمة له مادام حيّاً، لتعاونه معه على مناجزة أمير المؤمنين عليه السلام^(٣)،

(١) العقد الفريد ٤: ٢٥٩، حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ١٢٥.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ١٢٧.

(٣) الإمام الحسين عليه السلام ٢: ١٢٧.

وقد أعلن عن سياسته بكل صلافة ودناءة فقال: والله لأستملنّ بالأموال ثقات عليّ، ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلب دنيائي آخرته^(١).

وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين، إيماناً منه بأنّ الحكم لا يستقرّ له إلاّ بإشاعة العداء بين أبناء الأمة الإسلامية، وبالع في اضطهاد الموالي وإذلالهم، وقد رام أن يببدهم إبادةً شاملةً، فقال: قد رأيت أن أقتل شرطاً منهم، وأدعّ شرطاً لإقامة السوق وعمارة الطريق^(٢).

أحيى معاوية العصبية القبليّة، وعمد الى إثارة الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج، محاولاً بذلك التقليل من أهميتهم، وإسقاط مكانتهم أمام المسلمين^(٣).

وقد عُرف معاوية بالخلاعة والمجون والاستخفاف بالقيم الدينية، يقول ابن أبي الحديد: كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكلّ قبيح... ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام^(٤).

وأظهر الحقد على النبي ﷺ، فقد مكث في أيام خلافته أربعين يوماً لا يصليّ عليه، وقال: «لا يمنعني عن ذكره إلاّ أن تشمخ رجال بأنافها»^(٥)، وتمادى معاوية في عدائه لأمر المؤمنين ﷺ فأعلن سبه ولعنه في نواديه العامّة والخاصّة، واضطهد الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسمياً وصفه الإمام الباقر ﷺ: «وقتل شيعة بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره»^(٦).

إنّ جرائم معاوية تتطلّب كتاباً خاصاً بها لكثرتها، وإنّما أشرنا الى بعضها تمهيداً لذكر جريمته الكبرى التي أدّت بالإمام الحسين ﷺ إلى إعلان ثورته، وهذه

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٤٩٥، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٩٣.

(٢) العقد الفريد ٢: ٢٦٠.

(٣) حياة الإمام الحسين ﷺ ٢: ١٣٧.

(٤) حياة الإمام الحسين ﷺ ٢: ١٤٤ - ١٤٥.

(٥) النصائح الكافية: ٩٧.

(٦) الطبقات الكبرى ٥: ٩٥، شرح نهج البلاغة ٣: ١٥.

الجريمة التي تمثلت في فرض ابنه يزيد الفاسق ولياً للعهد، الذي جاء هتاكاً صريحاً للقيم الإسلامية، ولما عرفه المسلمون من أن الخلافة ليست حكماً قيصرياً ولا كسروياً لينتقل بالوراثة، ولا يستحق هذا المنصب إلا العالم بالكتاب والسنة، القادر على تطبيق الرسالة الإسلامية وتحقيق أهدافها.

النقطة الثانية: من هو يزيد بن معاوية ؟

ومن أجل الوقوف على فضاة هذه الجريمة، لابد أن نعرف أولاً من هو يزيد؟ وما هو السبب الذي جعله غير صالح للخلافة، ولماذا يكون فرض بيعته عدواناً صريحاً على الإسلام وارتداداً عنه، وعودة إلى الجاهلية التي ناهضها الإسلام.

وصف المؤرخون والمحدثون يزيد بأنه مستهتر إلى حد الإسراف، وممعن في الفحشاء والمنكرات إلى حد الغلو^(١)، وقد ذكر المؤرخون: أن أمه ميسون بنت بجلد الكلبيّة أمكنت عبد أبيها من نفسها فحملت بيزيد لعنه الله .

وفيما يتصل بصفاته الجسميّة فقد وصفه ابن كثير بأنه كان عظيم الجسم، كثير اللحم كثير الشعر مجدوراً^(٢)، وكانت طبيعته المنحلة وخلقه المنحط، لا تتسرب إليها شفقة ولا عدل، وكان يشعر بالنشوة واللذة وهو يمارس القتل والتعذيب.

وقد نشأ يزيد عند أخواله من بني كلاب الذين كانوا يعتنقون المسيحية قبل الإسلام، وكان مرسل العنان مع شبابهم الما جنين فكان يشرب معهم الخمر ويلعب معهم بالكلاب، وكان مولعاً بالقروود أيضاً، له قردٌ يكنّيه بأبي قيس، ويسقيه فضل كأسه، ويقول: هذا شيخ من شيوخ بني إسرائيل أصابته خطيئة فمسخ^(٣).

وينقل المؤرخون عن عبد الله بن حنظلة الذي خرج على يزيد بعد أن اصطحب وفداً من أهل المدينة إلى الشام في أعقاب استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وصفه ليزيد

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٤١.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٢٤٨.

(٣) أنساب الأشراف ٢: ٢.

بقوله: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء، إنه رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله بلاءً حسناً»^(١).

وقد ذكر المؤرخون أن يزيد ارتكب خلال فترة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز ثلاث سنين ونصف، ثلاث جرائم مروعة لم يشهد لها التاريخ نظيراً، بحيث لم تسود تاريخ المؤمنين إلى الأبد فحسب؛ وإنما شوّهت تاريخ العالم الإسلامي أيضاً، ومن هذه الجرائم:

١ - انتهاك حرمة أهل بيت الوحي بقتل الإمام الحسين السبط عليه السلام ومن معه من أسرته وأصحابه وسبي نسائه وأطفاله وعرضهم على الجماهير من بلد إلى بلد سنة (٦١ هـ) وهم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وملايين المسلمين تقدّسهم وتذكر فيهم الرسول صلى الله عليه وآله وكل ما في الإسلام من حق وخير.

٢ - إقدامه بعد ملحمة عاشوراء على انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وقتل أهلها وإباحة أعراضهم لجيش الشام، لأنهم استعظموا قتل الإمام الحسين عليه السلام وأنكروه عليه.

٣ - إقدامه على حصار مكة وتدمير الكعبة وقتل آلاف الأبرياء في الحرم الذي جعله الله حرماً آمناً.

المرحلة الثانية: مواقف الإمام الحسين عليه السلام وإنجازاته

الموقف الأول موقفه عليه السلام من البيعة ليزيد

أعلن الإمام الحسين عليه السلام رفضه القاطع لبيعة يزيد، فقرر معاوية أن يسافر إلى يثرب ليتولّى بنفسه إقناع المعارضين، واجتمع بالإمام عليه السلام وعبدالله بن عباس، فعرض بيعة ابنه يزيد ومنحه الألقاب الفخمة ودعاهما إلى بيعته، فانبرى إليه الإمام الحسين بخطاب بليغ، جاء فيه: «هيهات هيهات يا معاوية.. لقد فضّلت حتى أفرطت،

(١) تاريخ ابن عساكر ٧: ٣٧٢، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٨١.

واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجُرت حتى تجاوزت.. تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً وتنعت غائباً... ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنفاً في ظلم حتى ملأت الأسقية... تريد أن تلبس الناس شبهة يُسعد بها الباقي في دنياه، وتشقى بها في آخرتك، إنّ هذا لهو الخسران المبين».

وذهل معاوية من خطاب الإمام الحسين عليه السلام، وضافت عليه جميع السُّبل، فقال لابن عباس: ما هذا يا ابن عباس؟ فأجابه: «لعمرك إنّها لدرية رسول الله ﷺ، وأحد أصحاب الكساء، ومن البيت المطهر، فاسأله عما تريد؛ فإنّ لك في الناس مقنعا، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين»^(١).

وقد اتّسم موقف الإمام الحسين عليه السلام من معاوية بالشدة والصرامة، وأخذ يدعو المسلمين علناً الى مقاومة معاوية، ويحذّرهم من سياسته الهدامة التي تحمل الدمار الى الاسلام.

وعقد الإمام عليه السلام في مكة مؤتمراً سياسياً عاماً دعا فيه جمهوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحجّ من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين، فانبرى عليه خطيباً فيهم، وتحدّث عمّا ألمّ بعثرة النبي ﷺ وشيعتهم من المحن والإحن التي صبّها عليهم معاوية، وما اتّخذته من الإجراءات المشدّدة في إخفاء فضائلهم، وستر ما أثر عن الرسول ﷺ في حقّهم، وألزم الحاضرين بإذاعة ذلك بين المسلمين، وفيما يلي ما رواه سليم بن قيس عن هذا المؤتمر ونصّ خطاب الإمام عليه السلام حيث قال: ولما كان قبل موت معاوية بسنة حجّ الحسين بن عليّ وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر، فجمع الحسين بن هاشم ونساءهم ومواليهم ومن حجّ من الأنصار ممّن يعرفهم الحسين وأهل بيته، ثم أرسل رسلاً وقال لهم: لا تدعوا أحداً حجّ العام من أصحاب رسول الله ﷺ المعروفين بالصلاح والنسك إلّا اجمعوهم لي، فاجتمع إليه بمئى أكثر من سبعمئة رجل وهم في سرادق، عامتهم من التابعين، ونحو من مئى رجل من

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٩ - ٢٢٠.

أصحاب النبي ﷺ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا الطاغية - يعني معاوية - قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإنِّي أريد أن أسألكم عن شيء فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم فمن أمتم من الناس، ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون، فإنِّي أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون».

قال الراوي: فما ترك الحسين شيئاً مما أنزل الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسره، ولا شيئاً مما قاله رسول الله ﷺ في أبيه وأخيه وأمه وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه، وفي كل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا.

ثم ناشدهم أنهم قد سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «من زعم أنه يحبني ويبغض علياً فقد كذب، ليس يحبني ويبغض علياً، فقال له قائل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: لأنه مني وأنا منه، من أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله؟ فقالوا: اللهم نعم»، قد سمعناه، وتفرقوا على ذلك^(١).

موت معاوية :

لقد كان موت معاوية بن أبي سفيان في سنة ستين من الهجرة^(٢). واستقبل معاوية الموت غير مطمئن، فكان يتوجع ويظهر الجزع على ما اقترفه من الإسراف في سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم، وقد وافاه الأجل في دمشق محروماً من رؤية ولده الذي اغتصب له الخلافة وحمله على رقاب المسلمين، وكان يزيد فيما يقول المؤرخون مشغولاً عن أبيه - في أثناء وفاته - برحلات الصيد وغارقاً في عربدات السكر ونغمة العידان^(٣).

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣٢٠ - ٣٢٣، تحقيق محمد باقر الأنصاري.

(٢) انظر: الاحتجاج ١: ٢١٧ - ٢١٨، سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٥٤.

(٣) المعجم الكبير ١٩: ٣٠٥، مجمع الزوائد ٩: ٣٥٨، حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٢٣٩ - ٢٤٠.

الموقف الثاني: نهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد حكومة يزيد

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام على الرغم من معارضته الشديدة لحكم معاوية بن أبي سفيان - التي نقلنا صوراً منها - رفض التحرك لخلع معاوية؛ التزاماً منه بالعهد الذي وقَّعه أخوه الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية.

وقد سجَّل المؤرِّخون هذا الموقف المبدئي للإمام الحسين عليه السلام فقالوا: لما مات الحسن عليه السلام تحرَّكت الشيعة بالعراق، وكتبوا إلى الحسين عليه السلام في خلع معاوية والبيعة له، فامتنع عليهم، وذكر أنَّ بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك^(١).

من هنا كان معلوماً لشيعة وحتى للجهاز الحاكم أنَّ موت معاوية يعني بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام أنه في حلٍّ من أيِّ التزام، ومن ثم فإنَّه سيطلق ثورته على نظام الحكم الغاشم الذي يترأسه يزيد الفاسق، لذلك كان الإمام عليه السلام يمثل الهاجس الأكبر للطغمة الحاكمة.

قال المؤرِّخون: إنَّ يزيد كتب فور موت أبيه إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - وكان والياً على المدينة من قبل معاوية - أن يأخذ على الحسين عليه السلام البيعة ولا يرخص له في التأخر عن ذلك^(٢). وذكرت مصادر تاريخية أخرى أنه جاء في الرسالة: إذا أتاك كتابي هذا فأحضر الحسين بن عليّ وعبدالله بن الزبير فخذهما بالبيعة، فإن امتنعا فاضرب عنقيهما وابعث إليَّ برأسيهما وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم^(٣).

أرسل الوليد إلى الحسين عليه السلام يدعوهُ إليه ليلاً، فجاءه الرسول وهو في المسجد، ولم يكن قد شاع خبر موت معاوية بين الناس، وجال في خاطر الحسين عليه السلام أنَّ الوليد قد استدعاه ليخبره بذلك ويأخذ منه البيعة إلى الحاكم الجديد بناءً على

(١) الإرشاد ٢: ٣٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تاريخ يعقوبي ٢: ٢١٥.

الأوامر التي جاءت من الشام، فاستدعى الحسين مواليه وإخوته وبني عمومته وأخبرهم بأنّ الوالي قد استدعاه إليه وأضاف: «إني لا آمن أن يكلّفني بأمر لا أجيبه عليه»^(١).

وقال الإمام عليه السلام لمواليه بعد أن أمرهم بحمل السلاح: «كونوا معي فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه»^(٢).

ودخل الإمام عليه السلام على الوليد فقرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة منه له، فقال الحسين عليه السلام: «إني لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتى أبايعه جهراً».

فقال الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام: «فتصبح وترى رأيك في ذلك».

والتقى الإمام الحسين عليه السلام في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي أعلن فيها رفضه لبيعة يزيد، فبادره مروان قائلاً: إني ناصح فأطعني ترشد وتسدد فقال الإمام عليه السلام: «وما ذاك يا مروان؟».

قال مروان: إني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك. فردّ عليه الإمام عليه السلام ببلغ منطقته قائلاً: «على الإسلام السلام إذ قد بليت الأُمّة براع مثل يزيد... سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان وعلى الطلقاء وأبناء الطلقاء فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، فوالله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدّي فلم يفعلوا ما أمروا به»^(٣).

وذكر المؤرّخون أنّ الإمام الحسين عليه السلام أقام في منزله تلك الليلة وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب سنة ستين من الهجرة، واشتغل الوليد بن عتبة بمراسلة ابن الزبير في البيعة ليزيد وامتناعه عليهم، وخرج ابن الزبير من ليلته عن المدينة متوجّهاً إلى مكة، فلما أصبح الوليد سرح في أثره الرجال فبعث راكباً من موالي بني أمية في ثمانين راكباً، فطلبوه ولم يدركوه فرجعوا، فلما كان آخر نهار يوم السبت بعث الرجال إلى الحسين عليه السلام ليحضر فيبايع الوليد ليزيد بن معاوية، فقال لهم الحسين عليه السلام: «أصبحوا ثم ترون ونرى» فكفّوا تلك الليلة عنه ولم يلحّوا عليه.

(١) مقتل أبي مخنف: ٢٧، إعلام الوری: ١: ٤٣٤، تذكرة الخواص: ٢١٣، روضة الواعظين: ١٧١.

(٢) الإرشاد: ٢: ٣٣.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٥: ١٧، مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٤.

فخرج عليه السلام من تحت ليلته وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجّهاً نحو مكة ومعه بنوه وبنو أخيه وإخوته وجلّ أهل بيته إلا محمّداً بن الحنفية عليه السلام.

لقد استشف الإمام الحسين عليه السلام - وهو الخبير الضليع بكلّ ما كان يمرّ في معترك الساحة السياسية والمتغيّرات الاجتماعية التي كانت تتفاعل في الأمة - نوايا الغدر والحقّد الأموي على الإسلام وأهل البيت عليه السلام وتجارب السنين الأولى من الدعوة الإسلامية، ثم ما كان لمعاوية من مواقف مع الإمام علي عليه السلام ومن بعده مع الإمام الحسن عليه السلام.

وأيقن الحسين عليه السلام أنّهم لا يكفّون عنه وعن الفتك به حتى لو سالمهم، فقد كان يمثّل بقية النبوة والشخصية الرسالية التي تدفع الحركة الإسلامية في نهجها الحقيقي وطريقها الصحيح.

ولم يستطع يزيد أن يخفي نزعة الشرّ في نفسه، فقد روي أنّه صرّح قائلاً بوقاحة: لست من خندف إن لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل وقد أعلن الإمام الحسين عليه السلام أنّ بني أمية لا يتركونه بحال من الأحوال فقد صرّح لأخيه محمّداً بن الحنفية قائلاً: «لو دخلت في جحر هامة من هذه الهوام لا استخرجوني حتى يقتلونني».

وقال عليه السلام لجعفر بن سليمان الضبعي: «والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقه - يعني قلبه الشريف - من جوفي»^(١).

فتحرّك الإمام عليه السلام من مكة مبكراً ليقوم بالثورة قبل أن تتمكّن يد الغدر من قتله وتصفيته، وهو بعد لم يتمكّن من أداء دوره المفروض له في الأمة آنذاك، وسعى لتفويت أية فرصة يمكن أن يستغلّها الأمويون للغدر به، والظهور بمظهر المدافع عن أهل بيت النبوة.

وأقام الإمام عليه السلام في مكة أربعة أشهر وأياماً من ذي الحجة، كان فيها مهوى القلوب، فالتفّ حوله المسلمون يأخذون عنه الأحكام ويتعلّمون منه الحلال والحرام، ولم يتعرّض له أمير مكة يحيى بن حكيم بسوء، ولأنه ترك الإمام عليه السلام

(١) الإرشاد ٢: ٧٦.

وشأنه فقد عزله يزيد بن معاوية عنها، واستعمل عليها عمرو بن سعيد بن العاص. وفي شهر رمضان من تلك السنة (٦٠ هـ) ضمَّ إليه المدينة، وعزل عنها الوليد بن عتبة، لأنه كان معتدلاً في موقفه من الإمام عليه السلام.

وقد عرف الناس في مختلف الأقطار امتناع الإمام الحسين عليه السلام عن البيعة، فأتجهت إليه الأنظار وبخاصة أهل الكوفة، فقد كانوا يومذاك من أشدَّ الناس نقمةً على يزيد وأكثرهم ميلاً إلى الإمام عليه السلام فاجتمعوا في دار سليمان بن صرد الخزاعي فقام فيهم خطيباً فقال: «إنَّ معاوية قد هلك، وإنَّ حسيناً قد تقبَّض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنَّكم ناصروه ومجاهدو عدوه، فاكتبوا إليه وأعلموه، وإنَّ خفتم الفشل والوهن فلا تغرَّوا الرجل في نفسه، قالوا: لا، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه. قال: فاكتبوا إليه.

وتتابعت كتب الكوفيَّين كالسيل إلى الإمام الحسين عليه السلام وهي تدعوه إلى المسير والقدوم إليهم لإنقاذهم من ظلم الأمويَّين وبطشهم، وكانت بعض تلك الرسائل تُحمِّله المسؤولية أمام الله والأمة إن تأخَّر عن إجابتهم، ورأى الإمام - قبل كل شيء - أنَّ يختار للقياهم سفيراً له يُعرِّفه بآبائهم وصدق نيَّاتهم، وقد اختار ثقته وكبير أهل بيته مسلم بن عقيل، وهو من أمهر الساسة وأكثرهم قدرةً على مواجهة الظروف الصعبة والصمود أمام الأحداث الجسام.

وعندما علم الكوفيَّون بوصول مبعوث الحسين عليه السلام إلى مدينتهم؛ ازدحموا للقاءه وبيعته، وحسب قول بعض المؤرِّخين فقد أقبلت الشيعة تختلف إليه، فكلَّموا اجتمع إليه منهم جماعة قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام وهم يبكون وبايعه الناس، حتى بايعه منهم ثمانية عشر ألفاً^(١).

وظلَّ مسلم بن عقيل يجمع القواعد الشعبية ويأخذ البيعة للإمام عليه السلام وتوالى الوفود تقدم ولاءها، والجماهير تعلن عن استبشارها. وقد لاحظنا كيف أنَّ الناس

(١) الإرشاد ٢: ٤١، مناقب آل أبي طالب ٤: ٩٠، تذكرة الخواص: ٢٢٠.

كانوا يكون وهم يسمعون مسلماً يقرأ عليهم رسالة الإمام الحسين عليه السلام التي فيها يحييهم، ويعلن استعدادهم للقدوم إليهم وقيادة الثورة على الحكم الطاغوي.

وبعد أن لاحظ مسلم كثرة الأنصار؛ بادر بالكتابة إلى الإمام عليه السلام ناقلاً إليه صورة حية للأحداث والوقائع التي تجري أمام عينيه في الكوفة، وقيم له الموقف وأعرب عن تفاؤله وسأله القدوم.

وكان النعمان بن بشير والياً على الكوفة وقتذاك، ومع أنه كان عثماني الهوى وأموي الرغبة لكنه لم يكن راضياً عن خلافة يزيد، وبعد موت يزيد انضم إلى عبدالله بن الزبير وقاتل وقتل معه.

وعليه فإنه لم يتخذ موقفاً متشدداً من نشاطات مسلم بن عقيل في الكوفة، ولم يُنقل عنه في تلك المرحلة الحساسة سوى خطاب ألقاه في جمع الكوفيين كان - كما يتصور - لرفع العتب والتظاهر بأنه يقوم بواجبه كوال تابع لحكومة الشام.

ولكن كانت الكوفة تضم آنذاك فئة من أنصار الأمويين والمعارضين لأهل البيت عليه السلام وبين هذه الفئة كان بعض المنافقين الذين يتظاهرون بالتشيع لأمر المؤمنين عليه السلام فيما كانوا يُبطنون محبة الأمويين، الأمر الذي ساعدهم على اختراق صفوف شيعة أهل البيت عليه السلام والتجسس لصالح الحكم الأموي، وكان من بين هؤلاء عبدالله الحضرمي، الذي كتب رسالة إلى يزيد جاء فيها: «أما بعد، فإن مسلم ابن عقيل قد قدم الكوفة وبايعته الشيعة للحسين بن علي بن أبي طالب، فإن يكن لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعف»^(١).

قلق يزيد كثيراً من الأخبار التي وصلته من الكوفة، وهي تتحدث عن موقف الكوفيين من الحكم الأموي ومبايعتهم للإمام الحسين عليه السلام فدعا يزيد السيرجون الذي كان يعد غلاماً لمعاوية فقال له: ما رأيك؟

(١) الإرشاد ٢: ٤٢ وعنه في إعلام الوري ١: ٢٣٧.

فأشار عليه بأن يولي عبيد الله بن زياد على الكوفة، ليتولى الوقوف بوجه ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

وقد تعجل ابن زياد الانتقال إلى الكوفة ليصلها قبل الإمام الحسين عليه السلام، وباغت ابن زياد جماهير الكوفة وهو يخفي معالم شخصيته ويتستر على ملامحه، فقد تلبس ولبس عمامة سوداء، وراح يخترق الكوفة والناس ترحب به وتسلم عليه وتردد: مرحباً بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم^(١).

صمت ابن زياد وراح يقترب من باب القصر، حتى شخّص النعمان أن القادم هو ابن زياد، ففتح الباب ودخل ابن زياد القصر وأغلق بابه وبات ليلته، وبات الكوفة على وجل وترقب وفي منعطف سياسي خطير.

وفوجئ أهل الكوفة بابن زياد عند الصباح وهو يحتل القصر بالنداء: الصلاة جامعة، فقام خطيباً في الجموع المحتشدة وراح يمني المطيع والسائر في ركب السياسة القائمة بالأمان العريضة، ويهدد ويتوعد المعارضة والمعارضين والرافضين لحكومة يزيد، حتى قال: ... سوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي^(٢).

ثم فرض على الحاضرين مسؤولية التجسس على المعارضين، وهدد من لم يساهم في هذه العملية ويُنفذ هذا القرار بالعقوبة وقطع المخصصات المالية.

واتخذ ابن زياد كل وسيلة مهما كانت دنيئة للقضاء على الوجود السياسي والتحرك الذي برز منذراً بالخطر بوجود مسلم بن عقيل على النظام الأموي، وسارع للقضاء على مسلم بن عقيل وكل الموالين له قبل وصول الإمام الحسين عليه السلام.

ولما أراد الحسين عليه السلام التوجه إلى العراق طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وأحل من إحرامه وجعلها عمرة، لأنه لم يتمكن من إتمام الحج مخافة أن يُقبض عليه بمكة فينفذ به إلى يزيد بن معاوية، فخرج الحسين عليه السلام مبادراً بأهله وولده ومن انضم إليه من شيعته، ولم يكن خبر مسلم قد بلغه^(٣).

(١) الإرشاد ٢: ٤٣، وعنه في إعلام الوري ١: ٤٣٨.

(٢) مقاتل الطالبين ٩٧، إعلام الوري ١: ٤٣٨.

(٣) الإرشاد ٢: ٦٧.

وكان مسلم قد طلب من ابن الأشعث أن يكتب الى الحسين عليه السلام يخبره بما جرى في الكوفة، وينصحه بعدم الشخوص إليهم، فوعده ابن الأشعث بذلك، ولكنه لم يف بوعده^(١).

وواصل الإمام الحسين عليه السلام المسير، وليس لديه معلومات جديدة عن تطور الأحداث، فأرسل عبدالله بن يقطر إلى مسلم بن عقيل ليستجلي الموقف، إلا أن الحسين أخبر في الطريق في موضع يدعى «الثعلبية» بانتكاسة الثورة واستشهاد مسلم بن عقيل، أما رسوله الثاني هذا إلى مسلم فقد وقع أسيراً أيضاً بيد جنود الحصين فنقل إلى ابن زياد في الكوفة، وكان كرسول الحسين عليه السلام السابق مثالا للصلابة والجرأة والإخلاص.

ووصل خبر أسر الرسول واستشهاده إلى الإمام عليه السلام في موضع يدعى «زبالة» وهكذا راحت تتوارد على الإمام أنباء الانتكاسة، ولاحق له بوادر النكوص الخطير، وشعر بالخذلان ونقض العهد، فوقف في أصحابه وأهل بيته يبلغهم بما استجد من الحوادث، ويضع أمامهم الحقائق، ليكونوا على بصيرة من الأمر، فقال لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبدالله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فليصرف في غير حرج ليس معه ذمام».

فتفرق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ونفر يسير ممن انضموا إليه، وإنما فعل ذلك لأنه عليه السلام علم أن الأعراب الذين اتبعوه إنما اتبعوه وهم يظنون أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون^(٢). فلما كان السحر أمر أصحابه فاستقوا ماءً وأكثروا، ثم ساروا.

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٨٠ وعنه في الكامل في التاريخ ٤: ٣٢.

(٢) الإرشاد ٢: ٧٥ - ٧٦، البداية والنهاية ٨: ١٨٢، أعيان الشيعة ١: ٥٩٥.

وكان نزول الإمام في كربلاء في يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين (١)، ثم اقترح زهير على الإمام عليه السلام أن يلجأوا الى منطقة قريبة يبدو فيها بعض ملامح التحصين لمواجهة الجيش الأموي لو نشبت المعركة.

وسأل الإمام عليه السلام عن اسم هذه المنطقة ف قيل له: كربلاء، عندها دمعت عيناه وهو يقول: «اللهم أعوذ بك من الكرب والبلاء»، ثم قال: «ذات كرب وبلاء، ولقد مرّ أبي بهذا المكان عند مسيره الى صفّين وأنا معه فوقف، فسأل عنه فأخبر باسمه فقال: ها هنا محطّ ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم، فسئل عن ذلك فقال: ثقل لآل بيت محمد ينزلون ها هنا»^(٢).

وقبض الإمام الحسين عليه السلام قبضةً من ترابها فشتمّها وقال: «هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبرئيل رسول الله أنني أقتل فيها، أخبرني أم سلمة»^(٣). فأمر الإمام عليه السلام بالنزول ونصب الخيام إلى حين يتّضح الأمر ويتّخذ القرار النهائي لمسيرته.

وتوالت قطعات الجيش الأموي بزعامة عمر بن سعد فأحاطت بالحسين عليه السلام وأهله وأصحابه، وحالت بينهم وبين ماء الفرات القريب منهم. وقد جرت مفاوضات محدودة بين عمر بن سعد والإمام الحسين عليه السلام أوضح فيها الإمام عليه السلام لهم موقفه وموقفهم ودعوتهم له، وألقى عليهم كل الحجج في سبيل إظهار الحق، وبين لهم سوء فعلهم هذا وغدرهم ونقضهم للوعود التي وعدوه بها من نصرته وتأييده، وضرورة القضاء على الفساد.

ولكن عمر بن سعد كان أداة الشرّ المنفّذة للفساد والظلم الأموي، فكانت غاية همّته هي تنفيذ أوامر ابن زياد بانتزاع البيعة من الإمام عليه السلام ليزيد أو قتله وأهل بيته

(١) الأخبار الطوال: ٢٥٢، تاريخ الطبري ٣: ٣٠٩ وعنه في الإرشاد وعنه في إعلام الوري ١: ٤٥١، معجم البلدان ٤: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٠.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٥٣، حياة الحيوان للدميري ١: ٦٠، مجمع الزوائد ٩: ١٩٢.

(٣) تذكرة الخواص: ٢٦٠، ناسخ التواريخ ٢: ١٦٨، نفس المهموم: ٢٠٥، ينابيع المودة: ٤٠٦.

وأصحابه^(١)، متجاهلاً حرمة البيت النبوي بل وحاقدًا عليه كما جاء في رسالته لعمر: أن حُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء، فلا يذوقوا قطرة كما صُنِعَ بالتقي الزكي عثمان بن عفان^(٢).

وأخذ جيش عمر بن سعد يشدد الحصار على الإمام عليه السلام ولما رأى الحسين عليه السلام كثرتهم وتصميمهم على قتاله إذا لم يستسلم ليزيد بن معاوية، تعمم بعمامة رسول الله ﷺ وركب ناقته وأخذ سلاحه ثم دنا من معسكرهم بحيث يسمعون صوته وراح يقول: «يا أهل العراق - وجُلُّهم يسمعون -» فقال: أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم عليّ وحتى أُعذّر إليكم فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أقضوا إليّ ولا تُنظرون ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر الله تعالى بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه فلم يُسمع متكلّم قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه» ثم قال: «أما بعد فانسبوني فانظروا مَنْ أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حُرمتي؟ أَلَسْتُ ابْنَ بَنَتِ نَبِيِّكُمْ وَابْنَ وَصِيِّهِ وَابْنَ عَمِّهِ وَأَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَصْدُقَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بما جاء به من عند ربه؟ أَوَلَيْسَ حِمْزَةُ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَمِّي؟ أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الطَّيَّارِ فِي الْجَنَّةِ بِجَنَاحَيْنِ عَمِّي؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لي ولأخي: (هَذَا ابْنُ سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟) فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ - وَهُوَ الْحَقُّ - فَوَاللَّهِ مَا تَعَمَدْتُ كَذِبًا مِنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمَقُّتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِذَا سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ... وَيَحْكُم! أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتْلِ مَنْكُمْ قَتْلَتُهُ أَوْ مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكَتُهُ أَوْ بِقَصَاصِ جِرَاحَةٍ؟ فَأَخَذُوا لَا يَكْلُمُونَهُ، فَنَادَى: يَا شَبِثُ بْنُ رَبْعِي! وَيَا حَجَّارُ بْنُ أَبَجْر! وَيَا قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَث! وَيَا يَزِيدُ بْنُ الْحَارِث! أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ

(١) الفتوح ٥ : ٩٧، الإرشاد للمفيد ٢ : ٨٥، إعلام الوری ١ : ٤٥١، مقتل الحسين للخوارزمي ١ : ٢٤٥، البداية والنهاية ٨ : ١٨٩، بحار الأنوار ٤٤ : ٢٨٤.

(٢) إعلام الوری ١ : ٤٥٢.

النار وأخضر الجناب وإنما تقدم على جند لك مجندة؟ فقال له قيس بن الأشعث: ما ندري ما تقول، ولكن إنزل على حكم بني عمك. فقال له الحسين عليه السلام: «لا والله، لا أعطيك بيدي إعطاء الذليل ولا أقر أقرار العبيد». ثم نادى: «يا عباد الله! إني عدتُ بربي وربكم أن ترجئوني، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»^(١).

لقد أبى القوم إلا الإصرار على حربه والتمادي في باطلهم، وأجابوه بمثل ما أجاب به أهل مدين نبيهم كما حكى الله عز وجل عنهم في كتابه الكريم: (مانفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً)^(٢).

وحصن الإمام عليه السلام مخيمه وأحاط ظهره بخندق أوقد فيه النار ليمنع المباغته والالتفاف عليه من الخلف، وليحمي النساء والأطفال من العدوان المحقق.

نظر شمر بن ذي الجوشن إلى النار في الخندق فصاح: «يا حسين تعجلت النار قبل يوم القيامة؟ فرد عليه: أنت أولى بها صلياً»^(٣)، وحاول صاحب الحسين عليه السلام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم، فاعترضه الإمام ومنعه قائلاً: «لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم»^(٤).

واستحوذ الشيطان على ابن سعد فوضع سهمه في كبده قوسه ثم رمى باتجاه معسكر الحسين عليه السلام وقال: «إشهدوا أنني أول من رمى» ثم ارتمى الناس وتبارزوا^(٥). فخطب الإمام عليه السلام أصحابه قائلاً: «قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم»^(٦).

فتوجهوا إلى القتال كالأسود الضارية لا يبالون بالموت مستبشرين بلقاء الله جل جلاله، وكأنهم رأوا منازلهم مع النبيين والصديقين وعباده الصالحين، وكان لا يقتل

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، إعلام الوری ١: ٤٥٩.

(٢) سورة هود ١١: ٩١.

(٣) مقتل الحسين، للمقرم: ٢٧٧.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٣١٨، مقتل الحسين، للمقرم: ٢٧٧.

(٥) الإرشاد ٢: ١٠١ وعنه في إعلام الوری ١: ٤٦١، اللهوف: ١٠٠.

(٦) مقتل الحسين للمقرم: ٢٩٢.

منهم أحد حتى يقول: السلام عليك يا أبا عبد الله ويوصي أصحابه بأن يفدوا الإمام بالمهج والأرواح.

واستمرت رحى الحرب تدور في ساحة كربلاء، ولم يزل يتقدم رجل رجل من أصحاب الحسين عليه السلام فيقتل، حتى لم يبق مع الحسين عليه السلام إلا أهل بيته خاصة. فتقدم ابنه علي بن الحسين عليه السلام وكان من أصبح الناس وجهاً، فشد على الناس عدة مرات، حتى اعترضه مرة بن منقذ العبدى، فطعنه فصرع، واحتوشه القوم فقطعوه بأسيا فمهم. ثم برز القاسم بن الإمام الحسن عليه السلام للقتال.

قال حميد بن مسلم: فإننا لذلك إذ خرج علينا غلام كأن وجهه شقة قمر، فقال لي عمر بن سعيد بن نفيل الأزدي: والله لأشدن عليه، فقلت: سبحان الله، وما تريد بذلك؟! دعه يكفيكه هؤلاء القوم الذين ما يبقون على أحد منهم؛ فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف ففلقه، ووقع الغلام لوجهه فقال: يا عمّاه! فجلى^(١) الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر ثم شدّ شدة ليث أغضب، ف ضرب عمر بن سعيد بن نفيل بالسيف فاتقاها بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعها أهل العسكر، ثم تنحى عنه الحسين عليه السلام. وحملت خيل الكوفة لتستنقذه فوطأته بأرجلها حتى مات.

لم يبق مع الإمام الحسين عليه السلام سوى أخيه العباس الذي تقدم إليه يطلب منه الإذن في قتال القوم فبكى الحسين وعانقه ثم أذن له فكان يحمل على أهل الكوفة فينهزمون بين يديه كما تنهزم المعزى من الذئاب الضارية وضج أهل الكوفة من كثرة من قتل منهم، ولما قتل قال الحسين عليه السلام: «الآن انكسر ظهري وقّلت حيلتي وشمّت بي عدوي»^(٢).

وهكذا بقي الإمام الحسين عليه السلام وحده يحمل سيف رسول الله ﷺ وبين جنيبه قلب علي عليه السلام ويده راية الحق البيضاء، وعلى لسانه كلمة التقوى.

(١) جلى ببصره: إذا رمى به كما ينظر الصقر الى الصيد. «الصحاح - جلا - ٦: ٢٣٠٥».

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٤٠.

وحيثما التفت أبو عبد الله الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً ولم يرَ أحداً يذبّ عن حرم رسول الله أخذ ينادي هل من ذابّ يذبّ عنا؟ فخرج الإمام زين العابدين عليه السلام من الفسطاط وكان مريضاً لا يقدر أن يحمل سيفه وأمّ كلثوم تنادي خلفه: يابني ارجع. فقال: «يا عمّاه! ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله». وإذا بالحسين عليه السلام ينادي: «يا أمّ كلثوم! خذيه لئلاّ تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد صلى الله عليه وآله»^(١).

حمل الإمام الحسين عليه السلام سيفه وراح يرفع صوته على عادة الحروب ونظامها في البراز، وراح ينازل فرسانهم، ويواجه ضرباتهم ببسالة نادرة وشجاعة فذة، فما برز إليه خصم إلا وركع تحت سيفه ركوع الذل والهزيمة. قال حميد بن مسلم: فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناحاً منه، أن كانت الرّجالة لتشدّ عليه فيشدّ عليها بسيفه فتتكشف عن شماله إنكشاف المعزى إذا شدّ عليها الذئب^(٢).

ولما عجزوا عن مقاتلته، لجأوا إلى أساليب الجبناء؛ فقد استدعى شمر الفرسان فصاروا في ظهور الرّجالة، وأمر الرماة أن يرموه فرشقوه بالسهم حتى صار جسمه كالقنفذ فأحجم عنهم، فوقفوا بإزائه وخرجت أخته زينب إلى باب الفسطاط فنادت عمر بن سعد بن أبي وقاص: ويلك يا عمر! أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟! فلم يجبها عمر بشيء، فنادت ويحكم! أما فيكم مسلم؟ فلم يجبها أحد بشيء. ونادى شمر بن ذي الجوشن الفرسان والرّجالة فقال: ويحكم! ما تنتظرون بالرجل؟ ثكلتكم أمهاتكم، فحملوا عليه من كل جانب.

فضربه زُرعة بن شريك على كتفه اليسرى فقطعها، وضربه آخر منهم على عاتقه فكبا منها لوجهه، وطعنه سنان بن أنس النخعي بالرمح فصرعه، وبدر إليه خولى بن

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٦.

(٢) الإرشاد ٢: ١١١ وعنه في إعلام الوري ١: ٤٦٨.

يزيد الأصبحي فنزل ليحتز رأسه فأرعد فقال له شمر: فت الله في عضدك، مالك ترعد؟

ونزل شمر إليه فذبحه ثم رفع رأسه إلى خولى بن يزيد فقال: إحمله إلى الأمير عمر ابن سعد.

ثم أقبلوا على سلب الحسين عليه السلام فأخذ قميصه إسحاق بن حيوة الحضرمي، وأخذ سراويله أبجر بن كعب، وأخذ عمامته أخنس بن مرثد، وأخذ سيفه رجل من بني دارم، وانتهبوا رحله وإبله وأثقاله وسلبوا نساءه^(١).

وصيغ فرس الحسين عليه السلام ناصيته بدم الإمام الشهيد المظلوم وأقبل يركض مذعوراً نحو خيام الحسين عليه السلام ليعلم العيال بمقتله واستشهاده، وقد صوّرت زيارة الناحية المقدسة هذا المشهد المأساوي كما يلي:

«فلما نظرت النساء الى الجواد مخزياً والسرج عليه ملوياً خرجن من الخدور ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات وللوجوه سافرات وبالعويل داعيات وبعد العز مذلللات وإلى مصرع الحسين مبادرات».

ونادت عقيلة بني هاشم زينب بنت علي بن أبي طالب عليه السلام وهي تكلّى: «وا محمّداه! وا أبتاه! وا عليّاه! وا جعفره! وا حمزته! هذا حسين بالعراء، صريع بكرلاء، ليت السماء أطبقت على الأرض! ولت الجبال تدكدكت على السهل!!»^(٢).

وعمد المجرمون اللثام إلى حرق خيام الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام غير حافلين بمن في الخيام من بنات الرسالة وعقائل النبوة. قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «والله ما نظرت إلى عمّاتي وأخواتي إلا وخنقتني العبرة وتذكّرت فرارهن يوم الطف من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء، ومنادي القوم ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين!»^(٣).

(١) إعلام الوری ١: ٤٦٩، الإرشاد ٢: ١١٢.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٣٤٦.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام، نقلاً عن تاريخ المظفری: ٢٣٨.

وعمد أراذل جيش الكوفة إلى سلب حرائر النبوة وعقائل الرسالة فنهبوا ما عليهن من حليّ وحلل، كما نهبوا ما في الخيام من متاع. وحين حاصرت جيوش الضلالة أهل بيت النبوة ﷺ في عرصات كربلاء كتب ابن زياد إلى عمر بن سعد كتاباً يبين له ما يستهدفه من نتيجة للمعركة، وما تنطوي عليه نفسه الشريرة من حقد دفين على الرسالة والرسول ﷺ، وكل ما يمتّ إليهما بصلة أو قرابة، وقد جاء فيه ما يلي:

انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم مسلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم؛ فإنهم لذلك مستحقون، فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاقّ مشاقّ قاطع ظلوم وليس في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً، ولكن على قول، لو قد قتلت فعلت هذا به^(١).

وهكذا انبرى ابن سعد بعد مقتل ريحانة رسول الله ﷺ لينفذ أوامر سيّده الحاقد ابن زياد، فنادى في أصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة، فدا سوا جسد الحسين ﷺ بخيولهم حتى رضوا ظهره^(٢). ووقفت حفيدة الرسول ﷺ وابنة أمير المؤمنين ﷺ العقيلة زينب ﷺ على جثمان أخيها العظيم، وهي تدعو قائلة: «اللهم تقبل منّا هذا القربان»^(٣). إن الإنسانية لتحنّي إجلالاً وخضوعاً أمام هذا الإيمان الذي هو السر الوحيد في خلود تضحية الحسين ﷺ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، إعلام الوري ١: ٤٥٣.

(٢) إعلام الوري ١: ٤٧٠، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٩.

(٣) حياة الإمام الحسين بن علي ﷺ ٢: ٣٠١ عن الكبريت الأحمر للنهائوندي المتأخر مراسلاً بلا إسناد ولا ذكر مصدر.

الفصل الرابع

من تراث الإمام الحسين عليه السلام

نظرة عامة في تراث الإمام الحسين عليه السلام:

الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قائد مبدئي وأحد أعلام الهداية الربّانية الذين اختارهم الله لحفظ دينه وشريعته، وجعلهم أُمّاء على تطبيقها، وطهرهم من كل رجس ليصونوها من أي تحريف أو تحوير.

إنّ المحنة التي عاشها الأئمة الثلاثة عليّ والحسن والحسين عليهم السلام كانت أكبر محنة للعقيدة والأُمة؛ لأنّها قد بدأت بانحراف القيادة عن خط الرسالة؛ ولكنها لم تقتصر على الانحراف عن المبدأ الشرعي في ممارسة الحكم فحسب؛ وإنما كانت تمتد أبعادها إلى أعماق الأُمة والشريعة.

إنّ هذا الانحراف الخطير قد زاد في عزيمة هؤلاء الأئمة الهداة، ممّا جعلهم يهتمون بإحكام قواعد الشريعة في الأُمة وتعليمها وتربيتها بما يحول دون تسرّب الانحراف إليها بسرعة، وبما يحول دون تفتيتها وتمزيق قواها. ومن هنا كانت تربية الجماعة الصالحة والسهر على تنشئتها والاهتمام بقضاياها أمراً في غاية الأهميّة، ويظهر للمتتبع والمحقّق عظمة ذلك فيما لو أراد أن يقارن بين مواقف المسلمين تجاه أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله خلال خمسين عاماً بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله.

ومن هنا كان التراث الذي تركه لنا كل من الإمام المرتضى والحسن المجتبيّ والحسين الشهيد عليهم السلام بكر بلاء تراثاً عظيماً ومهماً جداً.

حيث نلمس الغناء في هذه الثروة الفكرية والعلمية التي وصلتنا عنهم عليهم السلام.

وها نحن نستعرض في ما يلي صوراً من اهتمامات هذا الإمام العظيم:

في رحاب العقل والعلم والمعرفة :

١ - سئل الإمام الحسين عليه السلام عن أشرف الناس، فقال: «من اتعظ قبل أن يوعظ واستيقظ قبل أن يوقظ»^(١).

٢ - وقال عليه السلام: «لا يكملُ العقلُ إلَّا باتباع الحق»^(٢).

٣ - «العقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يثق بمن يخاف غدره، ولا يرجو من لا يوثق برجائه»^(٣).

٤ - «العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل، والشرف التقوى، والقنوع راحة الأبدان، ومن أحببك نهاك ومن أبغضك أغراك»^(٤).

٥ - «من دلائل العالم انتقاده لحديثه وعلمه بحقائق فنون النظر»^(٥).

٦ - «لو أن العالم كلما قال أحسن وأصاب لأوشك أن يجن من العجب، وإنما العالم من يكثر صوابه»^(٦).

٧ - وفي دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام مقاطع بدیعة ترتبط بالمعرفة البشرية وسبل تحصيلها وقيمة كل سبيل وما ينبغي للعقل أن يسلكه من السبل الصحيحة الموصلة الى المقصود، نختار منها نماذج ذات علاقة ببحثنا هذا:
قال عليه السلام:

أ - «إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟...».

ب - «إلهي ترددي في الآثار يوجب بُعد المزار فأجمعني عليك بحزمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٧٤٣ عن إحقاق الحق: ١١ / ٥٩٠.

(٢) أعلام الدين: ٢٩٨، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٧٤٣. وورد هذا النص عن الإمام علي عليه السلام أيضاً.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٧٤٢ عن حياة الإمام الحسين عليه السلام: ١٨١/١.

(٤) أعلام الدين: ٢٩٨، بحار الأنوار: ١٢٨ / ٧٨، الحديث ١١، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٧٤٢ و ٧٤٣.

(٥) تحف العقول: ٢٤٨، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٧٤٢.

(٦) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٨٨٧.

حتى يكونَ هو المظهرَ لك؟! متى غبتَ حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعُدْتَ حتى تكونَ الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

ج - «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحّدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبّوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤمنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانتم لهم المعالم. ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك؟!»^(١).

د - «أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرّفت إليّ في كلّ شيء فرأيتك ظاهراً في كلّ شيء... كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟!»^(٢).

في رحاب القرآن الكريم :

لقد اعتنى أهل البيت الطاهرون بالقرآن الكريم اعتناءً وافراً فعكفوا على تعليمه وتفسيره وفقه آياته وتطبيقه وصيانتته من أيدي العابثين والمحرّفين، وتجلّت عنايتهم به في سلوكهم وهديتهم وكلامهم. وقد أثرت عن الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام كلمات جليلة حول التفسير والتأويل والتطبيق، وهي جديرة بالمطالعة والتأمل نختار نماذج منها:

أ - قال عليه السلام: «كتاب الله عزّ وجل على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»^(٣).

ب - «من قرأ آية من كتاب الله في صلّاته قائماً يُكْتَب له بكل حرف مئة حسنة، فإن قرأها في غير صلاة كتب الله له بكل حرف عشرًا، فإن استمع القرآن كان له بكل حرف

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين : ٨٠٣-٨٠٦ عن إقبال الأعمال : ٣٣٩.

(٢) معارج اليقين: ١١٦، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام : ٥٥١ عن جامع الأخبار : ٤٨.

حَسَنَةً، وَإِنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ لَيْلًا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإِنْ خَتَمَهُ نَهَارًا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْحَفَظَةُ حَتَّى يُمَسِيَ. وَكَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

ج - وعنه عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ يعني بها «أرض لم تكتسب عليها الذنوب، بارزة ليست عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة»^(٢).

د - وسأله رجل عن معنى ﴿كهيعص﴾ فقال له: لو فسرتها لك لمشيت على الماء^(٣).
هـ - وقال النصر بن مالك له: يا أبا عبد الله حدثني عن قول الله عز وجل ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: «نحن وبنو أمية اختصمنا في الله عز وجل، قلنا صدق الله، وقالوا: كذب الله، فنحن وإياهم الخصمان يوم القيامة»^(٤).

و - وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قال عليه السلام: «هذه فينا أهل البيت»^(٥).

ز - في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قال عليه السلام: «إنَّ القرابة التي أمر الله بصلتها وعظم حقها وجعل الخير فيها قرابتنا أهل البيت الذين أوجب حقنا على كل مسلم»^(٦).

ح - وفسر النعمة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ «بما أنعم الله على النبي صلى الله عليه وآله من دينه»^(٧).

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٥١، عن الكافي: ٢ / ٦١١، الحديث ٣.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٢٣٦، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦٠ عن تفسير البرهان: ٢ / ٣٢٣.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦١ عن ينابيع المودة: ٤٨٤.

(٤) الخصال، الشيخ الصدوق: ٤٣، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦٣ عن حياة الحسين: ٢ / ٢٣٤.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٧، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦٤ عن بحار الأنوار: ٢٤ / ١٦٦.

(٦) شواهد التنزيل ٢: ٢٠٨، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٦٥، بحار الأنوار: ٢٣ / ٢٥١، الحديث ٣٧.

(٧) موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٦٧، المحاسن: ١ / ٣٤٤، الحديث ١١.

في رحاب السُّنة النبوية المباركة :

لقد عاصر الحسين جدّه رسول الله ﷺ وعاش في كنف الوحي والرسالة وارتضع من ثدي الإيمان، فحمل هموم الرسالة الخاتمة كأبيه وأخيه، وعلم أنّ سنة الرسول وسيرته هي المصدر الثاني للإشعاع الرسالي، وأيقن بضرورة الاهتمام بهما وضرورة الوقوف أمام مؤامرات التحريف والتضييع، ومنع التدوين التي تزعمها جملة من كبار الصحابة وكيف واجهوا جدّه بكل صلف، حذراً من انكشاف الحقائق التي تحول دون وصولهم للسلطة أو تعكّر عليهم صفوها.

ومن هنا نجد الحسين عليه السلام يقف بكل شجاعة أمام هذا التآمر على الدين، ويضحّي بأغلى ما لديه من أجل إحياء شريعة جدّه سيد المرسلين، محققاً شهادة جدّه الخالدة في حقّه : «حسين منّي وأنا من حسين»، «ألا وإن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة».

وهكذا نجد في تراثه الرائع اعتناؤه البليغ بنقل السيرة النبوية الشريفة، والتحديث بسنّته والعمل بها وإحيائها، ولو بلغ مستوى الثورة على من يتسلّح بها لمسخها وتشويهها.

قال صلوات الله عليه :

١ - «كان رسول الله ﷺ أحسن ما خلق الله خلقاً»^(١).

٢ - وروى الحسين عليه السلام - كأخيه الحسن - وصفاً دقيقاً للرسول ﷺ وهديه في سيرته مع نفسه وأهل بيته وأصحابه ومجلسه وجلسائه، أخذاه من أبيهما علي عليه السلام وهو الذي ربّاه الرسول ﷺ منذ نعومة أظفاره حتى التحاقه بالرفيق الأعلى. ونشير إلى مقطع من هذه السيرة. قال الحسين عليه السلام فسألت عن سكوت رسول الله ﷺ، فقال:

«كان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكير. فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكيره ففيما يبقى أو يفنى. وجمع له الحلم في الصبر، فكان

(١) كنز العمال ٢١٧ / ٧ حديث رقم ١٨٦٩٤، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٧١.

لا يغضبه شيء ولا يستفزّه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح ليُنْتَهَى عنه، واجتهاده الرأي في صلاح أمته، والقيام في ما جمع له من خير الدنيا والآخرة^(١).

٣ - وروى أيضاً أنّ رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم، فقيل له: ما لك يا رسول الله؟ فقال: «إني رأيت في المنام كأنّ بني أمية يتعاورون منبري هذا». فقيل: يا رسول الله! لا تهتم فإنها دُنياً تنالهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ...﴾^(٢).

٤ - وروى أيضاً أنّ النبي ﷺ كان إذا أكل طعاماً يقول: «اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيراً منه»، وإذا أكل لبناً أو شرباً يقول: «اللهم بارك لنا فيه وارزقنا منه»^(٣). وكان يرفع يديه إذا ابتهل ودعا يفصل بينهما كما يستطعم المسكين^(٤).

٥ - وسُئِلَ عن الأذان وما يقول الناس فيه، قال: «الوحي ينزل على نبيكم، وتزعمون أنّه أَخَذَ الأَذَانَ عن عبدالله بن زيد؟! بل سمعت أبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: أهبّط الله عزّ وجلّ ملكاً حين عُرِجَ برسول الله ﷺ فأذن مثني مثني، وأقام مثني مثني، ثم قال له جبرئيل: يا محمد هكذا أذان الصلاة»^(٥).

في رحاب أهل البيت عليه السلام:

لقد دلّ حديث الثقلين - المتواتر والمقبول لدى عامة المسلمين - على أنّ خلود الإسلام رهن الأخذ بركنين مُتلازمين وهما: القرآن الكريم وعتره النبيّ المختار صلوات الله عليهم أجمعين فإنهما لن يفترقا حتى يردا الحوض على النبيّ ﷺ. فلا بد للمسلمين من التمسك بهما ليصونوا أنفسهم من الضلال في كل عصر وزمان.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٨٥، معاني الأخبار: ٧٩، مجمع الزوائد: ٨ / ٢٧٥، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٧١ - ٥٧٥.

(٢) الدر المنثور: ٤: ١٩١، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٧٥، الغدير: ٨ / ٢٤٨.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٤٢، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٧٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٦ / ٢٨٧، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ٥٧٨.

(٥) مستدرک الوسائل: ٤ / ١٧، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٨٣.

ومن هنا جهد أعداء الإسلام القدامى على التفريق بين هذين الركنين؛ تارةً بدعوى تحريف القرآن لفظاً أو معنىً، وأخرى بالمنع عن تفسيره أو تطبيقه، وثالثةً بانتقاص العترة، ورابعةً بعزلهم عن ممارسة دورهم السياسي والاجتماعي والتثقيفي، وخامسةً بطرح البديل عنهم ورفع شعار الاستغناء عنهم وعن علمهم ودراباتهم. والأئمة المعصومون المأمونون - على سلامة الرسالة الإسلامية بنصّ من الوحي الإلهي - كثفوا جهودهم وركّزوا جهادهم على صيانة هذين الأساسين من أيدي العابثين وإن كلفهم ذلك أنفسهم وأموالهم، بل كلّ ما يملكون تقديمه فداءً للرسالة المحمدية.

- ونشير إلى جملة من النصوص الماثورة عن الحسين بن علي عليه السلام في هذا الصدد:
- ١ - لما قضى رسول الله ﷺ مناسكه من حجة الوداع ركب راحلته وأنشأ يقول: «لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً». فقام إليه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه فقال: يا رسول الله: وما الإسلام؟ فقال ﷺ: الإسلام عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وملاكه الورع، وكماله الدين، وثمرته العمل، ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حبنا أهل البيت^(١).
 - ٢ - وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «من أحبنا كان منا أهل البيت». واستدلّ على ذلك بقوله تعالى تقريراً لقول العبد الصالح: «فمن تبعني فإنه مني»^(٢).
 - وواضح أنّ من أحبهم فسوف يتبعهم ومن تبعهم كان منهم.
 - ٣ - وقال عليه السلام: «أحبونا حبّ الإسلام فإنّ رسول الله ﷺ قال: لا ترفعوني فوق حقي؛ فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولا»^(٣).
 - ٤ - وقال عليه السلام: «ما كنّا نعرفُ المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلاّ يبغضهم علينا وولده عليهم»^(٤).

(١) أمالي الطوسي: ٨٤، وبشارة المصطفى، الطبري (الشيعة): ١٥١، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٨٢، أمالي الطوسي: ٨٢ / ١.

(٢) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٨٥، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٨٢.

(٣) المعجم الكبير: ١٢٨/٣، مجمع الزوائد: ٩ / ٢١، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٨٢.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٧٢ وكفاية الأثر: ١٠٢، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٨٥.

٥ - وروي أنّ المنذر بن الجارود مرّ بالحسين عليه السلام فقال: كيف أصبحت جعلني الله فداك - يا ابن رسول الله ؟ فقال عليه السلام: «أصبحتُ العربُ تعتدّ على العجم بأنّ محمداً منها، وأصبحتُ العجمُ مُقرّةً لها بذلك، وأصبحنا وأصبحتُ قريشٌ يعرفون فضلنا ولا يرونَ ذلكَ لنا، ومن البلاء على هذه الأمة أنّا إذا دعوناهم لم يُجيبونا وإذا تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»^(١).

بشائر الحسين عليه السلام بالمهدي المنتظر عليه السلام ودولته :

تراكمت البشائر النبوية حول غيبة الإمام المهدي المنتظر وظهوره وخصائص دولته وأوصافه ونسبه الشريف، كما توضّح الصحاح والمسانيد هذه الحقيقة في أبواب الملاحم والفتن وأشراف الساعة وغيرها.

واعتنى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بهذه القضية اعتناءً لا يقل عن عناية الرسول الخاتم ﷺ واستمراراً للخط الذي اختطّه والمنهج الذي سلكه في التمهيد لدولة الحق التي تتكفل تحقيق آمال الأنبياء والأوصياء جميعاً على مدى التاريخ. وقد كثرت النصوص الواصلة إلينا عن أبي الأئمة التسعة من ولد الحسين عليه السلام. فروى عن جدّه رسول الله ﷺ وعن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة فريدة من التصريحات المهمة بشأن المهدي عليه السلام نختار نماذج منها:

١ - قال عليه السلام: دخلت على جدّي رسول الله ﷺ فأجلسني على فخذه وقال لي: «إنّ الله اختار من صُلبك يا حسين تسعة أئمة تاسعهم قائمهم، وكلّهم في الفضل والمنزلة عند الله سواء»^(٢).

٢ - وسأله شعيب بن أبي حمزة قائلاً: أنت صاحبُ هذا الأمر؟ فأجابه: لا، فقال له: فمن هو؟ فأجاب عليه السلام: «الذي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً، على فترة من الأئمة تأتي، كما أنّ رسول الله ﷺ بُعث على فترة من الرسل»^(١).

(١) نزهة الناظر: ٨٥، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٨٦.

(٢) ينابيع المودة: ٥٩٠، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٦٥٩.

٣ - وقال عليه السلام: «لصاحب هذا الأمر غيبتان إحداها تطول حتى يقول بعضهم: مات وبعضهم: قتل، وبعضهم: ذهب، ولا يطلع على موضعه أحد من ولي ولا غيره إلا المولى الذي يلي أمره»^(٢).

٤ - وقال عليه السلام: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله عزّ وجلّ ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، كذلك سمعت رسول الله ﷺ يقول»^(٣).

٥ - وقال عليه السلام أيضاً: «لو قام المهديّ لأنكره الناس؛ لأنه يرجع إليهم شاباً موفّقاً، وإن من أعظم البلية أن يخرج إليهم صاحبهم شاباً وهم يحسبونه شيخاً كبيراً»^(٤).

في رحاب العقيدة والكلام

ونختار نماذج ممّا وصلنا من نصوص عن أبي الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام:

١ - ومما قاله عن توحيد الله سبحانه: «... ولا يقدر الواصفون كنهه عظمته، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته؛ لأنه ليس له في الأشياء عدل، ولا تدركه العلماء بألبابها ولا أهل التفكير بتفكيرهم إلا بالتحقيق إيقاناً بالغيب؛ لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين وهو الواحد الصمد، ما تصوّر في الأوهام فهو خلافه... يوجد المفقود ويُفقد الموجود، ولا تجتمع لغيره الصفتان في وقت، يصيب الفكر منه الإيمان به موجوداً، ووجود الإيمان لا وجود صفة، به توصف الصفات لا بها يوصف، وبه تُعرف المعارف لا بها يُعرف، فذلك الله، لا سميّ له، سبحانه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير»^(٥).

ومما قاله أيضاً لابن الأزرق: «أصف إلهي بما وصف به نفسه وأعرفه بما عرف به نفسه، لا يُدرَك بالحواس ولا يُقاس بالناس، فهو قريب غير ملتصق، وبعيد غير مُتَفَقِّص

(١) انظر الكافي ١: ٣٤١، عقد الدرر: ١٥٨، موسوعة الإمام الحسين: ٦٦٠.

(٢) عن عقد الدرر: ١٣٤، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٦٦٠.

(٣) كمال الدين: ٣١٧، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٦٦١.

(٤) عقد الدرر: ٤١، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٦٦٥.

(٥) تحف العقول: ١٧٣، موسوعة كلمة الإمام الحسين: ٥٣٠.

(تقص) يُوحَّد ولا يُبَعَّضُ، معروف بالآيات موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال^(١).

٢ - وخرج على أصحابه فقال: «أيها الناس! إن الله جلَّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه. ثم سأله رجل عن معرفة الله فقال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته^(٢).

٣ - واشتملت أدعيته عليه السلام على دُرر باهرة في التوحيد والمعرفة والهداية الإلهية ولا سيما دعاء العشرات المروي عنه^(٣)، ودعاء عرفة الذي عُرف به؛ لما يسطع به من معارف زاخرة وعلوم جمّة، بل هو دورة عقائدية كاملة. وإليك مطلعُه :

«الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع ولا لعطائه مانع ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع، فطر أجناس البدائع وأتقن بحكمته الصنائع، لا تخفى عليه الطلائع ولا تضيع عنده الودائع، أتى بالكتاب الجامع وبشرع الإسلام النور الساطع وهو للخلقة صانع وهو المستعان على الفجائع...»^(٤).

في رحاب الأخلاق والتربية الروحية

١ - سُئل عن خير الدنيا والآخرة فكتب عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد: فإنه من طلب رضى الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . والسلام»^(٥).

٢ - بين عليه السلام أقسام العبادة ودرجات العباد قائلًا: «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»^(٦).

(١) التوحيد: ٨٠، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٣٣.

(٢) علل الشرائع ١: ٩، كنز الفوائد: ١٥١، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٤٠ عن علل الشرائع.

(٣) البلد الأمين للكفعمي: ٢٤.

(٤) إقبال الأعمال: ٣٣٩، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٧٩٣-٨٠٦.

(٥) أمالي الصدوق: ١٦٧.

(٦) تحف العقول: ١٧٥.

٣ - قال عليه السلام عن آثار العبادة الحقيقية: «من عبد الله حقَّ عبادته آتاه الله فوق أمانيه وكفايته»^(١).

في رحاب مواعظه الجليلة :

١ - كتب إليه رجل : عطني بحرّفين فكتب إليه: «مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْوَتْ لَمَّا يَرْجُو وَأَسْرَعَ لِمَجِي مَا يَحْذَرُ»^(٢).

٢ - وجاءه رجل فقال له: أنا رجلٌ عاص ولا أصبر عن المعصية فعطني بموعظة فقال عليه السلام: «إفعل خمسة أشياء واذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله واذنب ما شئت، والثاني: اخرج من ولاية الله واذنب ما شئت. والثالث: اطلب موضعاً لا يراك الله واذنب ما شئت. والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك واذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك النار فلا تدخل في النار واذنب ما شئت»^(٣).

٣ - ومما جاء عنه عليه السلام في الموعظة : «يا ابن آدم! تفكّر وقل: أين ملوك الدنيا وأربابها؟ الذين عمّروا واحتفروا أنهارها وغرسوا أشجارها ومدّنوا مدائنها، فارقوها وهم كارهون وورثها قوم آخرون، ونحن بهم عمّا قليل لاحقون. يا ابن آدم! أذكر مصرعك، وفي قبرك مضجعك وموقفك بين يدي الله تشهد جوارحك عليك يوم تزل فيه الأقدام وتبلغ القلوب الحناجر وتبيض وجوه وتسود وجوه وتبدو السرائر، ويوضع الميزان القسط. يا ابن آدم! اذكر مصارع آبائك وأبنائك كيف كانوا وحيث حلّوا وكأنك عن قليل قد حللت محلّهم وصرت عبرة للمعتبر»^(٤).

(١) بحار الأنوار : ٧١ / ١٨٤ .

(٢) الكافي : ٢ / ٣٧٣ .

(٣) بحار الأنوار : ٧٨ / ١٢٦ .

(٤) إرشاد القلوب : ١ / ٢٩ .

في رحاب أدعية الإمام الحسين عليه السلام

لقد تميّز تراث أهل البيت عليهم السلام بظاهرة الدعاء تميّزاً فريداً في جانبي الكم والكيف معاً.

فالاهتمام بالدعاء في جميع الحالات والظروف التي يمرّ بها الإنسان في الحياة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(١) هو المظهر الذي ميّز سلوك أهل البيت عمن سواهم، وعلى ذلك ساروا في تربيتهم لشيعتهم.

والمسلمون بشكل عام يلمسون هذه الظاهرة بوضوح في موسم الحج وغيره من مواسم العبادة عند أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

وتفرّدت أدعية أهل البيت عليهم السلام في المحتوى والمقاصد والمعاني التي اشتملت عليها أدعيتهم؛ فإنّها تفصح بوضوح عن البون الشاسع بينهم وبين غيرهم فأين الثرى وأين الثريّا؟

وتدلّنا بعض النصوص المأثورة عن الإمام الحسين عليه السلام على سر هذا الاهتمام البالغ منهم بالدعاء.

١ - قال عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»^(٢).

٢ - وجاء عنه أنه كان يدعو في قنوت الوتر بالدعاء الذي علّمه رسول صلّى الله عليه وآله وهو: «اللهم إنك ترى ولا تُرى وأنت بالمنظر الأعلى وإنّ إليك الرجعى وإنّ لك الآخرة والأولى، اللهم إنا نعوذ بك من أن نذلّ ونخزى»^(٣).

٣ - من الأدعية القصيرة المأثورة عنه قوله عليه السلام: «اللهم لا تستدرجني بالإحسان ولا تؤدّبني بالبلاء»^(٤).

(١) سورة الفرقان ٢٥: ٧٧.

(٢) روضة الواعظين: ٤٥٩، بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٤، الأمالي، المفيد: ٣١٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: ١ / ٢٠١، كنز العمال: ٨ / ٨٢.

(٤) نزهة الناظر: ٨٣، كشف الغمّة ٢: ٢٤١، الدرّة الباهرة، الشهيد الأول: ٥، بحار الأنوار: ٧٨ / ١٢٨.

وقال في معنى الاستدراج : «الاستدراج من الله لعبده أن يُسبغ عليه النِّعَمَ وَيَسْلُبَهُ الشُّكْرَ»^(١).

٤ - ومن أدعيته في قنوته : «اللهمَّ مَنْ آوَى إِلَى مَأْوَى فَأَنْتَ مَأْوَايَ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى مَلْجَأٍ فَأَنْتَ مَلْجَايَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ واسمع ندائي وأجب دُعائي واجعل مآبي عندك ومثوأي، واحرُسني في بِلوأي من افتتانِ الامتحانِ وَلِمَّةِ الشَّيْطَانِ بعظمتك التي لا يشوبها وَلَعُ نفسٍ بَتَفْتينٍ، ولا وارِدُ طيفٍ بَتَظْنينٍ ولا يُلْمُ بها فَرَجٌ حتى تقلبني إليك بإرادتك غير ظنين ولا مظنون ولا مُرابٍ ولا مُرتابٍ، إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(٢).

* * *

(١) تحف العقول : ١٧٥ .

(٢) مهج الدعوات : ٤٩ .

الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

الفصل الأول شخصية الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: انطباعات عن شخصية الإمام زين العابدين عليه السلام

اتَّفَق المسلمون على تعظيم الإمام زين العابدين عليه السلام، وأجمعوا على أنه لا يدانيه أحد في فضائله وعلمه وتقواه، وكان من مظاهر تبجيلهم له: أنهم كانوا يتبركون بتقيل يده ووضعها على عيونهم^(١).
وقد سجّل المعاصرون للإمام عليه السلام من العلماء والفقهاء والمؤرخين انطباعاتهم عن شخصيته، وكلّها إكبار وتعظيم له، سواءً في ذلك من أخلص له الودّ أم أضمر له العداوة والبغضاء، وفيما يلي نبذة من كلماتهم:

(١) العقد الفريد ٢: ٢٥١.

١ - قال الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري: ما رُئي في أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين عليه السلام ^(١).

٢ - وقال الزهري، وهو عالم الحجاز والشام، ولم يكن من أتباع أهل البيت عليهم السلام: ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ^(٢)، وقال أيضاً: ما رأيت أحداً أفقه منه ^(٣). وقال سعيد بن المسيّب، وهو من الفقهاء البارزين في يثرب: ما رأيت قطّ أفضل من علي بن الحسين عليه السلام، وما رأيت قطّ إلا مَقَتُ نفسي ^(٤). وقال أيضاً: ما رأيت أروع منه ^(٥).

وقد اعترف بالفضل للإمام عليه السلام حتى أعدائه ومبغضيه فهذا يزيد بن معاوية حين ألح عليه أهل الشام بأن يخطب الإمام عليه السلام، أبدى مخاوفه منه قائلاً: إنه من أهل بيت زُفوا العلم زُفاً، إنه لا ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان ^(٦).

وهذا المنصور الدوانيقي، وهو من أعداء أهل البيت عليهم السلام قد أشاد بفضل الإمام عليه السلام في رسالته إلى ذي النفس الزكية بقوله: ولم يولد فيكم - أي: في العلويين - بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مولود مثله - أي: مثل زين العابدين - ^(٧).

وهذه أمثلة من أقوال العلماء والمؤرخين فيه:

١ - قول اليعقوبي: كان أفضل الناس وأشدّهم عبادة، وكان يسمّى ذا الثفّنات، لما كان في وجهه من أثر السجود ^(٨).

(١) أمالي الطوسي: ٦٣٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٠.

(٢) معرفة الثقات ٢: ١٥٣، تاريخ أسماء الثقات: ١٤١، الجرح والتعديل ٦: ١٧٩.

(٣) شذرات الذهب ١: ١٠٥، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٣.

(٥) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٨٩، تذكرة الحفاظ ١: ٧٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩١، البداية والنهاية ٩: ١٣٤.

(٦) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٨١ وعنه في بحار الأنوار ٤٥: ١٣٨.

(٧) العقد الفريد ٥: ٣١٠، الكامل للمبرد ٢: ٤٦٧ فَقَرِحَ فَطِيرٌ.

(٨) تاريخ اليعقوبي ٣: ٤٦.

٢ - قول ابن عساكر: كان علي بن الحسين ثقةً مأموناً، كثير الحديث، عالياً رفيعاً^(١).

٣ - قول الذهبي: كانت له جلالة عجيبة، وحق له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى؛ لشرفه وسؤدده وعلمه وتألهه وكمال عقله^(٢).

٤ - قول النسابة الشهير ابن عنبه: وفضائله عليه السلام أكثر من أن تحصى، أو يحيط بها الوصف^(٣).

٥ - قول الشيخاني القادري: سيدنا زين العابدين علي بن الحسين بن أبي طالب اشتهرت أياديه ومكارمه، وطارت بالجوّ في الجود محاسنه، عظيم القدر، رحب الساحة والصدر، وله الكرامات الظاهرة ما شوهد بالأعين الناضرة وثبت بالآثار المتواترة...^(٤).

٦ - قول محمد بن طلحة القرشي الشافعي: هذا زين العابدين، قدوة الزاهدين، وسيد المتقين، وإمام المؤمنين، شيمته تشهد له أنه من سلالة رسول الله ﷺ وسمته يثبت مقام قربه من الله زلفاً، وثفناته تسجل له كثرة صلاته وتهجّده، وإعراضه عن متاع الدنيا ينطق بزهده فيها، درّت له أخلاف التقوى فتفوّقها، وأشرقت لديه أنوار التأييد فاهتدى بها، وآلفته أوراد العبادة فآنس بصحبته، وحالفته وظائف الطاعة فتحلّى بحليتها، طالما اتخذ الليل مطيّة ركبها لقطع طريق الآخرة، وظمأ الهواجر دليلاً استرشد به في مفازة المسافرة، وله من الخوارق والكرامات ما شوهد بالأعين الباصرة، وثبت بالآثار المتواترة وشهد له أنه من ملوك الآخرة...^(٥).

٧ - قول الإمام الشافعي: وجدت علي بن الحسين وهو أفقه أهل المدينة^(٦).

(١) تاريخ دمشق ٤١ : ٣٦٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٩٨.

(٣) عمدة الطالب: ١٩٣.

(٤) الصراط السوي: الورقة ١٩، وقريب منه قاله المناوي في حقّه عليه السلام، انظر: جهاد الإمام السجّاد عليه السلام: ٣٥.

(٥) مطالب السؤل: ٤٠٨.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ : ٢٧٤، مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٢٥٨.

٨ - قول الجاحظ: وأما عليّ بن الحسين بن عليّ فلم أرَ الخارجي في أمره إلا كالشيعي، ولم أرَ الشيعي إلا كالمعتزلي، ولم أرَ المعتزلي إلا كالعامي، ولم أرَ العامي إلا كالخاصي، ولم أجد أحداً يمارى في تفضيله ويشك في تقديمه...^(١).

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام زين

العابدين عليه السلام

أولاً: الحلم :

كان الإمام من أعظم الناس حلماً، وأكظمهم للغيط، فمن صور حلمه التي رواها المؤرخون :

١ - سبّه لئيمٌ فأشاح عليه السلام بوجهه عنه، فقال له اللئيم: إياك أعني... وأسرع الإمام قائلاً: «وعنك أغضي...» وتركه الإمام ولم يقابله بالمثل^(٢).

٢ - ومن عظيم حلمه عليه السلام: أن رجلاً افتري عليه وبالغ في سبّه، فقال عليه السلام له: «إن كنّا كما قلت فنستغفر الله، وإن لم نكن كما قلت فغفر الله لك...»^(٣).

ثانياً: السخاء :

أجمع المؤرخون على أنه كان من أسخى الناس وأنداهم كفاً، وأبرّهم بالفقراء والضعفاء، وقد نقلوا نواذر كثيرة من فيض جوده، منها:

١ - مرض محمد بن أسامة فعاده الإمام عليه السلام، ولما استقرّ به المجلس أجهد محمد بالبكاء، فقال له الإمام عليه السلام: ما يبكيك؟ فقال: عليّ دين، فقال له الإمام: كم

(١) عمدة الطالب: ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٧١، البداية والنهاية ٩: ١٠٥، تهذيب التهذيب ٧: ٢٧٠.

(٣) الإرشاد ١: ١٤٦ عن نسب آل أبي طالب للعبيدلي النسابة م ٢٧٠ هـ.

هو؟ فأجاب: خمسة عشر ألف دينار، فقال له الإمام عليه السلام: هي عليّ، ولم يقم الإمام من مجلسه حتى دفعها له ^(١).

٢ - ومن كرمه وسخائه أنّه كان يطعم الناس إطعاماً عاماً في كلّ يوم، وذلك في وقت الظهر في داره ^(٢).

ثالثاً: العزّة والإباء:

ومن صفات الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام العزّة والإباء، فقد ورثها من أبيه الحسين سيّد الشهداء عليه السلام الذي تحدّى طغاة عصره قائلاً: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد» ^(٣). وقد تمثّلت هذه الظاهرة الكريمة في شخصيّة الإمام زين العابدين عليه السلام في قوله: «ما أحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم» ^(٤).

وقال في عزة النفس: «من كرمّت عليه نفسه هانت عليه الدنيا» ^(٥). ويقول المؤرخون: إنّ أحدهم أخذ منه بعض حقوقه بغير حقّ، وكان الإمام عليه السلام بمكّة، وكان الوليد بن عبد الملك حينئذ متربّعاً على كرسي الخلافة وقد حضر موسم الحج، ف قيل له: لو سألت الوليد أن يردّ عليك حقّك؟ فقال لهم كلمته الخالدة في دنيا العزّ والإباء: «ويحك أفي حرم الله أسأل غير الله عزّ وجلّ؟! إنّني آنف أن أسأل الدنيا من خالقها، فكيف أسألها مخلوقاً مثلي؟!» ^(٦).

رابعاً: الزهد:

(١) الإرشاد ٢: ١٤٩، مناقب آل أبي طالب ٤: ١٦٣، البداية والنهاية ٩: ١٠٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٢٣٩.

(٢) تاريخ يعقوبي ٢: ٢٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

(٤) الكافي ٢: ١٠٩ و ١١١، الخصال ١: ٢٣ الكافي في بحار الأنوار ٧١: ٤٠٦.

(٥) بحار الأنوار ٧٥: ١٣٥.

(٦) بحار الأنوار ٤٦: ٦٤، علل الشرائع ١: ٢٣٠ مع اختلاف يسير.

لقد اشتهر في عصره عليه السلام أنه من أزهّد الناس حتى أنّ الزهري حينما سُئل عن أزهّد الناس قال: عليّ بن الحسين ^(١).

نظر عليّ بن الحسين عليه السلام سائلاً يسأل وهو يبكي، فقال: «لو أنّ الدنيا كانت في كفّ هذا ثم سقطت منه ما كان ينبغي له أن يبكي عليها» ^(٢).

وقال سعيد بن المسيّب: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يعظ الناس ويزهّدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كلّ جمعة في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وحفظ عنه وكتب، وكان يقول: «أيّها الناس، اتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تُرجعون... فاتّقوا الله عباد الله، واعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لم يحبّ زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه، ولم يرغبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بهجتها، وإنّما خلق الدنيا وأهلها ليلوهم فيها أيّهم أحسن عملاً لآخريته، وأيم الله لقد ضرب لكم فيه الأمثال، وعرف الآيات لقوم يعقلون، ولا قوة إلّا بالله، فازهدوا فيما زهّدكم الله عزّ وجلّ فيه من عاجل الحياة الدنيا... ولا تركنوا إلى زهرة الدنيا وما فيها ركون من اتّخذها دار قرار ومنزل استيطان، فإنّها دار بُلغة، ومنزل قلعة، ودار عمل، فتزوّدوا الأعمال الصالحة فيها قبل تفرّق أيّامها، وقبل الإذن من الله في خرابها...» ^(٣).

خامساً: الإنابة إلى الله تعالى:

إنّ اشتهار الإمام بلقب زين العابدين وسيّد الساجدين ممّا يشير إلى وضوح عنصر الإنابة إلى الله، والانقطاع إليه في حياة الإمام وسيرته وشخصيته.

(١) علل الشرائع ١: ٢٣٠، بحار الأنوار ٤٢: ٧٥.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٣١٨ عن نثر الدرر للآبي مع اختلاف يسير، الفصول المهمّة ٢: ٨٦٧.

(٣) الكافي ٨: ٧٢-٧٦، تحف العقول: ٢٤٩-٢٥٢.

ومما رواه المؤرخون: أنه اجتاز على رجل جالس على باب رجل ثري فبادره الإمام قائلاً: «ما يقعدك على باب هذا المترف الجبار؟ فقال: البلاء، فقال عليه السلام: قم فأرشدك إلى باب خير من بابه وإلى رب خير لك منه...».

ونَهَضَ معه الرجل إلى مسجد رسول الله ﷺ وعَلَّمَهُ ما يعملُه من الصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، وطلب الحاجة من الله والالتجاء إلى حصنه الحريز^(١).

النقطة الثالثة: الإمام زين العابدين عليه السلام من الولادة إلى الإمامة

تتضمن هذه النقطة استعراض عصر الإمام عليه السلام وحياته قبل كربلاء، أي من الولادة حتى استشهاد أبيه عليه السلام من سنة (٣٨ أو ٣٦ هـ) إلى سنة (٦١ هـ).

لقد عاصر الإمام زين العابدين عليه السلام في مرحلتي الطفولة والفتوة حكم معاوية بن أبي سفيان الذي تميّز بالاضطراب، ثم تلاه القمع في العراق، والتأزم في الحجاز، وإقصاء السنة وظهور البدعة.

ولقد استشهد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في الكوفة في شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، فيما كان يعبئ الناس لحرب جديدة مع معاوية، وإثر استشهاد عليه السلام بايع أهل العراق ولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام خليفة عليهم، إلا أن قلوب أغلب المبايعين لم تكن تصدق ألسنتهم، فلا ينتظر من المتظاهرين بالتشيع في الكوفة وفي جيش الإمام علي عليه السلام - الذين آذوه إلى الدرجة التي تمنى فيها غير مرة الموت - أن يكون سلوكهم مع ولده الحسن عليه السلام أفضل مما كان معه.

وقد امتازت الفترة الواقعة بين سنة (٤١ هـ) وسنة (٦٠ هـ) بتشديد القهر والقمع على أتباع أهل البيت عليه السلام في العراق، ويتبين من خلال تعامل معاوية مع زعماء هذه المنطقة - الذين كانوا يلتقونه بين الحين والآخر - الدرجة التي بلغها سخطه على أهل العراق. وقد انكفأ السياسيون العراقيون - الذين خدعوا في حرب

(١) حياة الإمام زين العابدين عليه السلام دراسة وتحليل ١: ٩٣، بحار الأنوار ٨٨: ٣٧٥.

صَفِّينَ وَسَلَّطُوا أَهْلَ الشَّامِ عَلَى مَقْدَرَاتِهِمْ - فِي بَيوتِهِمْ إِبَّانَ حُكْمِ مَعَاوِيَةَ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ أَنْ تَسْنَحَ لَهُمْ فُرْصَةٌ جَدِيدَةٌ لِلتَّحَرُّكِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لِحَقِّ الْمُسْلِمِينَ الْمَخْلُصِينَ - الَّذِينَ نَشَأُوا عَلَى التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّقِيَّةِ وَارْتَفَعُوا عَنِ الْمَنْظَارِ الْقَوْمِيِّ وَالْقَبْلِيِّ، أَوْ نَظَرُوا مِنْ خِلَالِهِ بِالشَّكْلِ الَّذِي لَمْ يَضُرَّ بَدَنَهُمْ - أَذَىَّ أَكْبَرَ مِمَّا لِحَقِّ بِالطَّائِفَةِ الْأُولَى، إِذْ كَانُوا يَرُونَ فِي عَهْدِ مَعَاوِيَةَ - الَّذِي امْتَدَّ نَحْوَ عَشْرِينَ عَاماً - إِنْ دُرِاسَ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعِنْدَمَا مَاتَ مَعَاوِيَةَ اعْتَبَرَ الْفَرِيقَانِ الْمَتَنَفِّذَانِ فِي الْعِرَاقِ أَنَّ الْفُرْصَةَ بَاتَتْ مُؤَاتِيَةً: أ - فَرِيقَ أَهْلِ الدِّينِ الَّذِينَ عَاشُوا آلَامَ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْزَنَهُمْ غِيَابُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا يَسْتَهْدِفُونَ الْقَضَاءَ عَلَى النِّظَامِ الْمَلِكِيِّ وَإِعَادَةَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَا كَانَتْ فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ السَّابِقِينَ عَلَى الْأَقْل.

ب - السِّيَاسِيُّونَ الْمُحْتَرِفُونَ اللَّاهُثُونَ وَرَاءَ السُّلْطَةِ، الَّذِينَ كَانُوا يَرُومُونَ وَضْعَ حَدٍّ لِنَحْكَمِ الشَّامَ بِالْعِرَاقِ.

كَانَ يَزِيدُ فِي قَرْيَةِ حَوَارِينَ^(١) عِنْدَمَا هَلَكَ وَالِدُهُ مَعَاوِيَةَ، فَعَادَ بِمُسَاعَايِ وَالِيِ الشَّامِ «الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ» إِلَى دِمَشْقَ لِيُعْلَنَ نَفْسُهُ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَسْرَعَ إِلَى مُحَاوَلَةِ تَبْدِيدِ مَخَافِهِ مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ سَيَعَارِضُونَهُ، فَكَتَبَ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ خِلَافَتِهِ رِسَالَةً إِلَى حَاكِمِ الْمَدِينَةِ طَلَبَ مِنْهُ فِيهَا أَنْ يَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لَهُ مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ؑ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَكَانَ وَاضِحاً مِنَ الْبَدَايَةِ أَنَّ الْحُسَيْنَ ؑ لَنْ يَبَايَعَ يَزِيدَ، وَاعْتَبَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ نَفْسَهُ خَلِيفَةً، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ تَجَاهَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَابْنِ عَمْرٍ أَيُّ دَوْرٍ فِي الْأَوْضَاعِ، فَلَنْ تَحْقُقَ بَيْعَتُهُ أَوْ عَدَمُهَا أَيُّ ضَرَرٍ بِخِلَافَةِ يَزِيدَ، مِنْ هُنَا فَإِنَّ يَزِيدَ لَا يَخْشَى إِلَّا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ؑ وَيَتَعَجَّلُ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَوْقِفُهُ.

وَفِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَخْتَارَ الْعِرَاقُ - الَّذِي كَانَ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ - ابْنَ بَنْتِ الْبَيْ ﷺ قَائِداً لَهُ لِيَحْقُقَ أَهْدَافَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُصِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ الْمُحْتَرِفِينَ فِي آنٍ وَاحِدٍ، بِاعْتِبَارِهِ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُمْكِنُهُ إِحْيَاءُ سُنَّةِ

(١) قَرْيَةُ تَقَعُ بَيْنَ تَدْمَرَ وَدِمَشْقَ.

النبي صلى الله عليه وآله والقضاء على البدع، وأنه الوحيد القادر على استقطاب قلوب الناس بشرافة نسبه وجلالة قدره وكرامة نفسه وتقواه، وهو الأشدّ رفضاً للظلم، ولهذا السبب رفض مبايعة يزيد.

ومن هنا تشكّلت المجالس وانعقدت الجماعات في الكوفة فكانت النتيجة أن وُجّهت الدعوة إلى الحسين بن عليّ ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله في الحجاز لينتقل إلى العراق، وتضمّنت الدعوة المؤكدة أنّ أهل الكوفة على أهبة لقتال الأمويين - الذين غصبوا الحكم - تحت راية الحسين عليه السلام.

وقد بعث الحسين عليه السلام ابن عمّه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ومعه إجابات الإمام الحسين عليه السلام على رسائل الكوفيين. وقد التف الكوفيّون حول ابن عقيل ورحّبوا به، وأكّدوا له مرّةً أخرى استعدادهم لخوض الحرب ضدّ طُغاة الشام تحت قيادة الحسين، فأرسل إلى الحسين عليه السلام رسالة أوضح فيها أنّ في الكوفة مائة ألف رجل يتعهّدون بمناصرة الإمام، مشدّداً على ضرورة إسراع الإمام في التحرك إلى العراق.

والمدهش أنّ رسائل بعثت في تلك الأيام من الكوفة إلى الشام تؤكّد ليزيد أنّه إذا أراد الكوفة فإنّ عليه أن يبعث عليها حاكماً مقتدرًا، لأنّ حاكمها النعمان بن بشير أظهر ضعفًا في تعاطيه مع الأحداث.

وقد تباحث يزيد في هذا الأمر مع مستشاره الرومي السيرجون، الذي أشار عليه بتعيين عبيد الله بن زياد حاكماً على الكوفة، وبوصول ابن زياد إلى الكوفة تحلّى أهلها عن مسلم، وأتاحوا لابن زياد قتله مع مضيّقه هانئ بن عروة، ومن جهة أخرى كان الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وعدد من أنصاره في الطريق إلى العراق، والإمام زين العابدين عليه السلام يرافق والده في كل هذه الظروف العصيبة حتى وصلوا العراق ^(١).

(١) اقرأ أخبار هذه الأحداث مسندة موثقة في: وقعة الطف لأبي مخنف: ٧٠ - ١٤١، تحقيق محمد هادي اليوسفي الغروي.

النصّ على إمامة زين العابدين عليه السلام

لقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامة اثني عشر إماماً من أهل بيته الأطهار، وعيّنهم بذكر أسمائهم وأوصافهم، كما هو المعروف من حديث الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره عند العامّة والخاصّة ^(١).

كما نصّ كلّ إمام معصوم على الإمام الذي يليه قبل استشهاده في مواطن عديدة بما يتناسب مع ظروف عصره، وقد كان النصّ يكتب ويودع عند أحد سرّاً، ويجعل طلبه دليلاً على الاستحقاق، ونلاحظ تكرّر هذه الظاهرة في حياة أبي عبد الله الحسين عليه السلام بالنسبة لابنه زين العابدين عليه السلام تارة في المدينة وأخرى في كربلاء قبل استشهاده.

ومما روي من النصّ على إمامة ولده عليه السلام ما رواه الطوسي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «أنّ الحسين لمّا خرج الى العراق دفع الى أمّ سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله الوصيّة والكتب وغير ذلك وقال لها: «إذا أتاك أكبر ولدي فادفعي إليه ما قد دفعتُ إليك». فلما قُتل الحسين عليه السلام أتى عليّ بن الحسين عليه السلام أمّ سلمة فدفعت إليه كلّ شيء أعطاه الحسين عليه السلام.

وفي نصّ آخر: أنّه عليه السلام جعل طلبها منها علامة على إمامة الطالب لها من الأنام فطلبها زين العابدين عليه السلام ^(٢).

وروى الكليني عن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام: «أنّ الحسين عليه السلام لمّا حضره الذي حضره دعا ابنته فاطمة الكبرى فدفعت إليها كتاباً ملفوفاً ووصيّة ظاهرة،

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٣، إعلام الوري بأعلام الهدى ٢: ١٨١، ١٨٢ مناقب آل أبي طالب ١: ٢٤٢، إحقاق الحقّ وملحقاته: ١ - ٢٥، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ٢: ٢٨٥، منتخب الأثر: ٩٧، الإرشاد، النصوص على الأئمة الإثني عشر، قادتنا ٥: ١٤.

(٢) الكافي ١: ٢٤٢، الإرشاد ٢: ١٣٩، الغيبة للطوسي: ١٩٥، ح ١٥٩، إثبات الهداة ٥: ٢١٤ - ٢١٦.

وكان علي بن الحسين عليه السلام مريضاً لا يرون أنه يبقى بعده، فلما قُتل الحسين عليه السلام ورجع أهل بيته إلى المدينة دفعت فاطمة الكتاب إلى علي بن الحسين عليه السلام ^(١).
ونلاحظ في احتجاج الإمام عليه السلام مع عمه محمد بن الحنفية أنه قال له: «إنّ أبي صلوات الله عليه أوصى إليّ قبل أن يتوجّه إلى العراق وعهد إليّ في ذلك قبل أن يستشهد بساعة» ^(٢).

الإمام زين العابدين عليه السلام يوم عاشوراء

إنّ أشدّ ما كان يحزّ في نفوس أهل بيت الرسالة عليهم السلام ومحبيهم ما رواه حميد ابن مسلم، وهو شاهد عيان بعد ظهر اليوم العاشر من المحرم إثر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام إذ قال: «لقد كنت أرى المرأة من نسائه وبناته وأهله تنازع ثوبها من ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها».

ثمّ انتهينا إلى علي بن الحسين عليه السلام وهو منبسط على فراش وهو شديد المرض، ومع شمر جماعة من الرجال، فقالوا له: ألا تقتل هذا العليل؟ فقلت: سبحان الله أيقتل الصبيان؟! إنّما هذا صبيٌّ وإنّه لما به، فلم أزل حتى دفعته عنه.

وجاء عمر بن سعد فصاحت النساء في وجهه وبكين، فقال لأصحابه: لا يدخل أحد منكم بيوت هؤلاء النسوة ولا تتعرّضوا لهذا الغلام المريض... من أخذ من متاعهنّ شيئاً فليردّه عليهن، فوالله ما ردّ أحد منهم شيئاً ^(٣).

وهكذا شارك الإمام زين العابدين عليه السلام أباه الحسين السبط عليه السلام في جهاده ضد الطغاة، ولكنه لم يرزق الشهادة مع أبيه والأبرار من أهل بيته وأصحابه، فإنّ الله سبحانه كان قد حفظه ليتولّى قيادة الأمة بعد أبيه عليه السلام ويقوم بالدور المعدّ له لصيانة

(١) الكافي ١: ٢٤١، إثبات الوصية: ١٤٢، إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٤٧، بصائر الدرجات: ٥٢٢، الكافي ١: ٣٤٨.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٧ مع اختلاف يسير، الإرشاد ٢: ١١٢، قعة الطف لأبي مخنف: ٢٥٦ - ٢٥٧، روضة الواعظين: ١٨٩.

رسالة جده ﷺ من أيدي العتاة العابثين وانتحال الضالين المبطلين، ومن التيارات الوافدة على حضيرة الإسلام التي أخذت رقعتها بالانتساع والانتشار السريع.

الفصل الثاني

الإمام زين العابدين عليه السلام من كربلاء الى المدينة

والكلام في هذا الفصل يقع في خمس نقاط:

النقطة الأولى: الإمام زين العابدين عليه السلام بعد ملحمة عاشوراء

ذكر المؤرخون عن شاهد عيان أنه قال: قدمت الكوفة في المحرم من سنة إحدى وستين، منصرف علي بن الحسين عليه السلام بالنسوة من كربلاء ومعه الأجناد يحيطون بهم، وقد خرج الناس للنظر إليهم، فلما أقبل بهم على الجمال بغير وطاء جعل نساء الكوفة يبكين ويلتدمن^(١)، فسمعت علي بن الحسين وهو يقول بصوت ضئيل وقد نهكته العلة وفي عنقه الجامعة ويده مغلولة إلى عنقه: «إن هؤلاء النسوة يبكين فمن قتلنا؟!»^(٢).

النقطة الثانية: خطبتا زينب والإمام السجاد عليهما السلام في الكوفة

وقبل دخول سبايا آل الرسول صلى الله عليه وآله على ابن زياد وقفت السيده زينب الكبرى ابنة علي المرتضى موقفاً بطولياً أخذت تفرع به النفوس المغفلة والقلوب القاسية. فقد روى المفيد وغيره عن حذلم بن سير^(٣) أنه قال: رأيت زينب بنت علي عليها السلام ولم أر خفرة قط أنطق منها، كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام قال: وقد أومأت الى الناس أن اسكتوا فارتدت الأنفاس وسكنت الأصوات، فقالت: «الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين، أما بعد يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر!

(١) التدمت المرأة: ضربت صدرها في النياحة، وقيل: ضربت وجهها في المآثم.

(٢) الأمالي للطوسي: ٩١، الأمالي للمفيد: ٣٢١، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٩.

(٣) وفي اللهوف بشير بن خزيم الأسدي، وفي أعيان الشيعة: خزيم بن بشير الأسدي.

أَتَبْكُونَ؟ فَلَا رَقَاتِ الدَّمْعَةِ، وَلَا قَطْعَتِ الرَّثَّةِ، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ كَمِثْلِ الَّتِي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آبِيَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾^(١)...

أَتَبْكُونَ وَتَتَحَبُّونَ؟! إِي وَاللَّهِ فَابِكُوا كَثِيرًا وَاضْحَكُوا قَلِيلًا، فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا^(٢)، وَلَنْ تَرْحُضُوهَا^(٣) بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَنْتَى تَرْحُضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ؛ وَمَعْدَنَ الرِّسَالَةِ وَسِيدَ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَمِلَازِ حَيْرَتِكُمْ؛ وَمَفْزَعِ نَازِلَتِكُمْ؛ وَمَنَارِ حِجَّتِكُمْ (مَحِجَّتِكُمْ)، وَمَدْرَةِ^(٤) سِتِّكُمْ، أَلَا سَاءَ مَا تَزُرُّونَ، وَبَعْدًا لَكُمْ وَسَحَقًا: فَلَقَدْ خَابَ السَّعْيُ وَتَبَّتِ الْأَيْدِي وَخَسِرَتِ الصَّفَقَةُ، وَبُؤْتُمْ بِغَضَبِ مَنْ أَلَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ. وَيَلَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ! أَتَدْرُونَ أَيَّ كَبِدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرِيتُمْ^(٥) (فَرِثْتُمْ)؟ وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أُبْرِزْتُمْ؟ وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ؟ وَأَيَّ حَرَمَةٍ لَهُ انْتَهَكْتُمْ؟! أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ مَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا، فَلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَأَنْتُمْ لَا تَنْصَرُونَ، فَلَا يَسْتَخْفَنَّكُمْ الْمَهْلُ، فَإِنَّهُ لَا يَحْفِزُهُ الْبِدَارُ^(٦)، وَلَا يَخَافُ فُوتَ الثَّارِ، وَإِنْ رَبَّكُمْ لِبِالْمِرْصَادِ».

قال : فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى، يكونون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتى إخضلت لحيته، وهو يقول: بأبي أُنْتُمْ وَأُمِّي كَهَوْلُكُمْ خَيْرُ الْكُهُولِ، وَشَبَابُكُمْ خَيْرُ الشَّبَابِ، وَنِسَاؤُكُمْ خَيْرُ النِّسَاءِ، وَنَسْلُكُمْ خَيْرُ نَسْلِ لَا يَخْزَى وَلَا يَبْزَى^(٧).

(١) إشارة الى الآية: ٩٢ من سورة النحل.

(٢) الشنار: العيب.

(٣) ترحضوها: تغسلوها.

(٤) المدرة: كمنبر زعيم القوم والمتكلم عنهم والذي يرجعون الى رأيه.

(٥) الفري: القطع والفرث التفتيت.

(٦) لا يحفز: لا يعجله.

(٧) أي لا يغلب ولا يقهر.

(٨) الاحتجاج للطبرسي ١٠٩: ٢ - ١١٣، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٤٥ - ٤٧، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٩٢ -

١٩٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٠٨ - ١١٠ / ح ١.

ثم إنَّ زين العابدين عليه السلام أوماً الى الناس أن اسكتوا، فسكتوا، فقام قائماً فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي صلى الله عليه وآله بما هو أهله فصلى عليه، ثم قال: «أيها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي: أنا علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، أنا ابن من انتُهِك حريمه وسُلب نعيمه وانتُهب ماله وسُبي عياله، أنا ابن المذبوح بشطّ الفرات من غير ذحل ولا ترات، أنا ابن من قُتل صبراً وكفى بذلك فخراً. أيها الناس! ناشدكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم الى أبي وخذعتموه؟ وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقتلتموه وخذلتموه؟! فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم، بأية عين تنظرون الى رسول الله، إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتُهِكتم حرمتي فلستم من أمّتي؟!».

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية، وقال بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون.

ثم إنَّ ابن زياد جلس في القصر للناس وأذن إذناً عاماً وجيء برأس الحسين عليه السلام فوضع بين يديه، وأدخل نساء الحسين عليه السلام وصبياناه إليه فجلست زينب بنت علي عليها السلام متنكره، فسأل عنها، فلم تجبه .

فقال ابن زياد : من هذه؟ فلم تجبه، فأعاد الكلام ثانياً وثالثاً يسأل عنها فلم تجبه، فقال له بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فأقبل عليها ابن زياد، وخاطبها بما فيه الشماتة والجفاء والغلظة والجرأة على الله ورسوله، كما يقتضيه لؤم عنصره وخبث طينته، وأراد تصديق كونه دعياً ابن دعِيٍّ، فقال لها: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أبدوثلكم! فأجابته زينب عليها السلام بما أخرسه وأخزاه وفضحه فقالت: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبِيّه محمّداً صلى الله عليه وآله، وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنّما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا» .

فقال : كيف رأيت فعل الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت : «ما رأيت إلاّ جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحتاجون إليه وتختصمون عنده، فانظر لمن الفلج يومئذ هبلك أمك يا ابن مرجانة».

فغضب واستشاط حين أعياه الجواب، وكأنه همّ بها، فقال له عمرو بن حريث: أيها الأمير إنها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها، ولا تدم على خطيئتها. فلجأ ابن زياد حينئذ إلى البذاءة وسوء القول مما هو جدير به فقال لها: لقد شفى الله نفسي من طاغيتك الحسين، والعصاة المردة من أهل بيتك!! فرقت زينب وبكت، وقالت له: «لعمري لقد قتلت كهلي، وقطعت فرعي، واجتثت أصلي، فإن كان هذا شفاءك فقد اشتفيت»^(١).

النقطة الثالثة: الإمام زين العابدين عليه السلام يتحدّى كبرياء ابن زياد

ثم التفت ابن زياد إلى عليّ بن الحسين عليه السلام فقال: من أنت؟ فقال: عليّ بن الحسين، فقال: أليس قد قتل الله عليّ بن الحسين؟ فقال عليّ عليه السلام: «قد كان لي أخ أكبر مني يسمّى عليّاً قتله الناس، فقال ابن زياد: بل الله قتله، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فغضب ابن زياد وقال: وبك جرأة لجوابي وفيك بقية للردّ عليّ؟! اذهبوا به فاضربوا عنقه»^(٢).

فتعلقت به عمته زينب وقالت: يابن زياد، حسبك من دماثنا، واعتنقته وقالت: لا والله لا أفارقه فإن قتله فاقتلني معه، فقال لها عليّ عليه السلام: اسكتي يا عمّة حتى أكلّمه، ثم أقبل عليه فقال: أبالقتل تهددني يابن زياد؟ أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة؟ ثم أمر ابن زياد بعليّ بن الحسين عليه السلام وأهل بيته فحملوا إلى دار بجانب المسجد الأعظم^(٣).

(١) الإرشاد ٢: ١١٥ - ١١٧، الكامل في التاريخ ٤: ٨١ - ٨٤، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٧ - ٤٨، اللهوف في قتلى الطفوف: ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٢) الإرشاد للمفيد ٢: ١١٦، وقعة الطف: ٢٦٢، ٢٦٣، أعيان الشيعة ١: ٦١٤.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٤٣، اللهوف في قتلى الطفوف: ٩٥.

ولمّا أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين عليه السلام فطيف به في سكك الكوفة كلّها وقبائلها، ولمّا فرغ القوم من الطواف به في الكوفة ردّوه إلى باب القصر^(١).
ثمّ إنّ ابن زياد نصب الرؤوس كلّها بالكوفة على الخشب، وهي أوّل رؤوس نصبت في الإسلام بعد رأس مسلم بن عقيل من قبل الكوفة^(٢).
وكتب ابن زياد إلى يزيد يخبره بقتل الحسين عليه السلام وخبر أهل بيته^(٣). كما بعث إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة - وهو من بني أمية - يخبره بقتل الحسين عليه السلام.
ولمّا وصل كتاب ابن زياد إلى الشام أمره يزيد بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قتل معه إليه .

ثمّ أمر ابن زياد بنساء الحسين عليه السلام وصبياناه فجّهزوا، وأمر بعلي بن الحسين عليه السلام فغلّ بغلّ إلى عنقه، ثمّ سرح بهم في أثر الرؤوس مع مجفر بن ثعلبة العائذي وشمر بن ذي الجوشن، وحملهم على الأقتاب، وساروا بهم كما يسار بسبايا الكفار، فانطلقوا بهم حتى لحقوا بالقوم الذين معهم الرؤوس، فلم يكلم علي بن الحسين عليه السلام أحداً منهم في الطريق بكلمة حتى بلغوا الشام^(٤).

النقطة الرابعة: آل البيت عليهم السلام يساقون إلى دمشق

خضعت الشام منذ فتحها بأيدي المسلمين لحكام مثل خالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان، فلم يشاهد الشاميون النبي صلى الله عليه وآله ولم يسمعوا حديثه الشريف منه مباشرة، ولم يطلعوا على سيرة أصحابه عن كذب، أمّا النفر القليل من صحابة رسول

(١) الإرشاد ٢: ١١٧-١١٨.

(٢) تذكرة الخواص: ٢٥٩، الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ٤: ٨٣، وإنّ أوّل رأس حمل في الإسلام هو رأس عمرو بن الحمق الخزاعي الى معاوية.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ٢٠٧.

(٤) عن طبقات ابن سعد في ذيل تاريخ دمشق ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ١٣١، أنساب الأشراف: ٢١٤، الطبري ٥: ٤٦٠ و ٤٦٣، والإرشاد ٢: ١١٩.

الله ﷺ الذين انتقلوا إلى الشام وأقاموا فيها فلم يكن لهم أثر في الناس، فكانت النتيجة أن أهل الشام اعتبروا سلوك معاوية ابن أبي سفيان وأصحابه سنة للمسلمين، ولما كانت الشام خاضعة للإمبراطورية الرومية قروناً طويلة، فقد كانت حكومات العصر الإسلامي أفضل من سابقتها بالنسبة للشاميين.

ومن هنا ليس أمراً عجباً أن نقرأ في كتب التاريخ أن شيخاً شامياً دنا من الإمام السجاد عليه السلام عند دخول سبايا آل محمد ﷺ الشام وقال له: «الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم». فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يا شيخ، أقرأت القرآن؟ قال: بلى.

قال عليه السلام: فهل عرفت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك. فقال له علي عليه السلام: فنحن القربى، يا شيخ! فهل قرأت في بني إسرائيل ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾؟ فقال: قد قرأت ذلك.

قال علي عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت هذه الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾؟ قال: نعم.

فقال له علي عليه السلام: فنحن القربى. يا شيخ، ولكن هل قرأت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)؟ قال: قد قرأت ذلك.

قال علي عليه السلام: فنحن أهل البيت الذين اختصنا الله بآية الطهارة يا شيخ، قال: فبقي الشيخ ساكناً نادماً على ما تكلم به، وقال: بالله إنكم هم؟!!

فقال علي بن الحسين عليه السلام: تالله إنا لنحن هم من غير شكٍّ وحقٍّ جدًّا رسول الله ﷺ إنا لنحن هم.

فبكى الشيخ ورمى عمامته، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد^(١).

وذكر المؤرخون أنه لما قدم علي بن الحسين عليه السلام وقد قُتل الحسين بن علي عليه السلام استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقال: يا علي بن الحسين، من غلب؟ وهو مغطّ رأسه وهو في المحمل، فقال له علي بن الحسين: «إذا أردت أن تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة فأذن ثم أقم»^(٢).

لقد كان جواب علي بن الحسين عليه السلام أن الصراع إنما هو على الدين الذي تتجلى مظاهره في الأذان وتكبير الله تعالى والإقرار بوحدانيته، وليس الصراع صراعاً على الحكم والسلطان، وأنّ استشهاد الحسين والصفوة من أهل بيته وأصحابه هو سبب بقاء الإسلام المحمّدي وثباته أمام جاهلية بني أمية وعتوها وطغيانها وطغيان من حذا حدوهم ممّن لم يذوقوا حلاوة الإيمان والإسلام.

النقطة الخامسة: الإمام زين العابدين عليه السلام يتحدّى يزيد في مركز سلطانه

أدخل رأس الحسين عليه السلام ونساؤه ومن تخلف من أهله على يزيد، وهم مقرّبون في الجبال، وزين العابدين عليه السلام مغلول، فلما أوقفوا بين يديه على تلك الحال تمثّل يزيد بشعر حصين بن حمام المرّي قائلاً:

نفلقُ هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلماً^(٣)

(١) مقتل الخوارزمي ٢: ٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٠، مقتل الحسين للمقرم: ٤٤٩ عن تفسير ابن كثير والآلوسي، لواعج الأشجان: ٢١٩، كتاب الفتوح لابن أعثم: ٥: ١٣٠.

(٢) أمالي الطوسي: ٦٧٧.

(٣) الإرشاد ٢: ١١٩ - ١٢٠، وقعة الطف لأبي مخنف: ١٦٨ - ٢٧١، مقاتل الطالبين: ٨٠، العقد الفريد ٥: ١٢٤.

فردّ عليه الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(١).
 وتميّز يزيد غضباً، فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢).

وينقل المؤرّخون عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام قولها: فلما جلسنا بين يدي يزيد رقّ لنا فقام إليه رجل من أهل الشام أحمر، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية - يعني - فأرعدت وظننت أنّ ذلك جائز لهم، فأخذت بثياب عمّتي زينب وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون.

فقلت عمّتي للشامي: كذبت والله ولؤمت، والله، ما ذاك لك ولا له!
 فغضب يزيد وقال: كذبت إنّ ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت!
 قالت: كلاً والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغيرها، فاستطار يزيد غضباً، وقال: إياي تستقبلين بهذا؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك!
 قالت: بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدك وأبوك إن كنت مسلماً، قال: كذبت يا عدوة الله!

قالت: أنت أمير تشتم ظالماً وتقهّر بسلطانك، فكأنّه استحيى وسكت.
 فعاد الشامي فقال: هب لي هذه الجارية، فقال يزيد: اعزب، وهب الله لك حتفاً قاضياً^(٣).

ويبدو أنّ اعتماد يزيد لهجة أقلّ قسوة وشراسة من لهجة ابن زياد في الكوفة يعود إلى أنّ الأخير كان يريد أن يدلّل على إخلاصه لسيّده، بينما لا يحتاج يزيد

(١) سورة الحديد ٥٧: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة الشورى ٤٢: ٣٠.

(٣) الإرشاد ٢: ١٢١، وقعة الطف لأبي مخنف: ٢٧١، ٢٧٢، الأمالي للصدوق: ٢٣١.

ذلك، ولعل يزيد أدرك أنه قد ارتكب خطأ كبيراً في قتله الحسين عليه السلام وسببه أهل بيت النبوة، من هنا فإنه أراد تخفيف مشاعر السخط تجاهه.

وفي تلك الأيام أوعز يزيد إلى خطيب دمشق أن يصعد المنبر ويبالغ في ذم الحسين وأبيه عليه السلام فانبرى له الإمام زين العابدين عليه السلام فصاح به: «ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوءاً مقعدك من النار»^(١).

واتجه الإمام نحو يزيد فقال له: «أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنّ لله رضى، ولهؤلاء الجالسين أجرٌ وثواب...».

وبهت الحاضرون وعجبوا من هذا الفتى العليل الذي ردّ على الخطيب والأمر وهو أسير، فرفض يزيد إجابته، وألحّ عليه الجالسون بالسماح له فلم يجد بُدّاً من إجابتهم فسمح له، واعتلى الإمام أعواد المنبر، وكان من جملة ما قاله: «أيها الناس، أعطينا ستاً، وفُضِّلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفُضِّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار محمد صلى الله عليه وآله ومنّا الصديق ومنّا الطيّار ومنّا أسد الله^(٢) ورسوله ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمة وسيّدا شباب أهل الجنة.

وبعد هذه المقدمة البليغة في التعريف بآل محمد صلى الله عليه وآله أخذ في بيان فضائلهم، قائلاً: فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي. أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنا ابن خير من إئتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حُمِل على البراق في الهواء، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أُسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدره المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى

(١) مثير الأحزان: ٨٣، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٣.

(٢) في لواعج الأشجان: ٢٣٣ «وأسد رسوله» وكذا في بحار الأنوار.

بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله. أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وباع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين. أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقاطع الملحددين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين ورسول رب العالمين.

أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قریش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسهم من مرامي الله، وبستان حكمة الله، ... ذلك جدّي عليّ بن أبي طالب.

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول ﷺ، أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجنّ في الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء.

ولم يزل الإمام يقول: أنا أنا حتى ضجّ الناس بالبكاء، وخشي يزيد من وقوع الفتنة وحدوث ما لا تحمد عقباه، فقد أوجد خطاب الإمام انقلاباً فكرياً؛ إذ عرف الإمام نفسه لأهل الشام وأحاطهم علماً بما كانوا يجهلون.

فأوعز يزيد إلى المؤدّن أن يؤدّن ليقطع على الإمام كلامه، فصاح المؤدّن «الله أكبر» فالتفت إليه الإمام فقال له: «كبرت كبيراً لا يقاس، ولا يدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله، فلمّا قال المؤدّن: أشهد أن لا إله إلا الله قال الإمام ﷺ: شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ونخي وعظمي، ولمّا قال المؤدّن: أشهد أن محمداً رسول الله التفت الإمام إلى

يزيد فقال له: يا يزيد، محمد هذا جدِّي أم جدك؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت، وإن قلت: إنه جدِّي فلمَ قتلت عترته؟! ^(١)

ووجم يزيد ولم يستطع جواباً، فإنَّ الرسول العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو جدَّ زين العابدين، وأمَّا جدَّ يزيد فهو أبو سفيان العدوَّ الأوَّل للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبيَّن لأهل الشام أنَّهم غارقون في الإثم، وأنَّ الحكم الأمويَّ قد جهد في إغوائهم وإضلالهم، وتبيَّن بوضوح أنَّ الحقد الشخصيَّ وغياب النضج السياسيَّ هما السببان لعدم إدراك يزيد عمق ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ممَّا أدَّى إلى توهمه أنَّها لن تؤدِّي إلى نتائج خطيرة على حكمه.

ولعلَّ أكبر شاهد على هذا التوهم هو رسالة يزيد في بدايات تسلُّم الحكم لواليه على المدينة، التي أمره فيها بأخذ البيعة من الحسين عليه السلام أو قتله وبعث رأسه إلى دمشق إن رفض البيعة.

وفي سياق الحديث عن حسابات يزيد الخاطئة نُشير أيضاً إلى عملية نقل أسرى أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة، ومن ثمَّ إلى الشام، وما تخلَّل ذلك من ممارسات إرهابية عكست نزعته الإجرامية، ولم يلتفت يزيد إلى خطورة الجريمة التي ارتكبها إلاَّ بعد أن تدفَّقت عليه التقارير التي تتحدَّث عن ردود الفعل والاحتجاجات على قتله ريحانة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك حاول أن يلقي مسؤولية الجريمة البشعة على ابن مرجانة، قائلاً للإمام السجاد عليه السلام: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أنَّني صاحب

(١) نفس المهموم: ٤٤٨ - ٤٥٢، مناقب آل أبي طالب ٤: ١٨١ عن كتاب الأحمر عن الأوزاعي: الخطبة بدون المقدمة. والمقدمة عن الكامل للبهائي ٢: ٢٩٩ - ٣٠٢، حياة الإمام زين العابدين للقرشي: ١٧٥ - ١٧٧، لواعج الأشجان: ٢٣٦.

أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إيّاها، ولدفعت الحنف عنه بكل ما استطعت، ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبي من المدينة وأنه كل حاجة تكون لك^(١).

والتقى الإمام زين العابدين عليه السلام خلال وجوده في الشام بالمنهال بن عمرو، فبادره قائلاً: كيف أمسيت يا بن رسول الله؟ فرمقه الإمام بطرفه وقال له: «أمسينا كمثّل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمّداً منها، وأمسينا أهل بيته مقتولين مشرّدين، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»^(٢).

وعهد يزيد إلى النعمان بن بشير أن يصاحب ودائع رسول الله صلى الله عليه وآله وعقائل الرسالة فيردّهنّ إلى المدينة^(٣) وأمر بإخراجهنّ ليلاً خوفاً من الفتنة واضطراب الأوضاع^(٤).

* * *

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٦٢، الإرشاد ٢: ١٢٢، البداية والنهاية ٨: ٢١٢.

(٢) مثير الأحران: ٨٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٥.

(٣) الطبري ٥: ٤٦٢، الإرشاد ٢: ١٢٢ وعنهما في وقعة الطف لأبي مخنف: ٢٧٢.

(٤) تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ٩٣، والحدائق الوردية ١: ١٣٣.

الفصل الثالث

الإمام زين العابدين عليه السلام في مدينة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

ويقع الكلام في هذا الفصل في النقاط الست التالية:

النقطة الأولى: ردود الفعل على مقتل الإمام الحسين عليه السلام

بدأت ردود الفعل على مقتل الإمام الحسين عليه السلام بالظهور مع دخول سبايا أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة. فبالرغم من القمع والإرهاب اللذين مارسهما ابن زياد مع كل من كان يبدي أدنى معارضة ليزيد، فإن أصواتاً بدأت ترتفع محتجةً على الظلم السائد.

فعندما صعد ابن زياد المنبر وأثنى على يزيد وحزبه وأساء إلى الحسين عليه السلام وأهل بيت الرسالة «قام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي وقال له: يا عدو الله، إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولأك وأبوه يابن مرجانة، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟!»

فقال ابن زياد: عليّ به، فأخذته الجلاوزة فنادى بشعار الأزد، فاجتمع منهم سبعمائة فانتزعوه من الجلاوزة، فلما كان الليل أرسل إليه ابن زياد من أخرجته من بيته فضرب عنقه وصلبه^(١)، ومع أن هذه المواجهة انتهت لصالح ابن زياد لكنها كانت مقدمة لإعتراضات أخرى.

(١) الإرشاد ٢: ١١٧ وعنه في وقعة الطف لأبي مخنف: ٢٦٥ - ٢٦٦.

وظهرت في الشام - أيضاً - بوادر السخط والاستياء، الأمر الذي جعل يزيد ينحو باللائمة في قتل الحسين عليه السلام على ابن زياد، إلا أن أشدّ ردود الفعل كانت تلك التي برزت في الحجاز، فقد انتقل عبد الله بن الزبير إلى مكة في الأيام الأولى من حكومة يزيد، واتخذها قاعدة لمعارضته للشام، وقام بتوظيف فاجعة كربلاء للتنديد بنظام يزيد، وألقى خطاباً وصف فيه العراقيين بعدم الوفاء، وأثنى على الحسين بن علي عليه السلام ووصفه بالتقوى والعبادة.

وفي المدينة ألقى الإمام زين العابدين عليه السلام خطاباً في أهلها لدى عودته من الشام والعراق، يقول المؤرخون: إن الإمام عليه السلام جمع الناس خارج المدينة قبل دخوله إليها، وخطب فيهم قائلاً: «الحمد لله ربّ العالمين مالك يوم الدين بارئ الخلائق أجمعين، الذي بعد فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظام الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفجائع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاطمة الكاظمة الفادحة الجائحة.

أيها القوم، إن الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قُتل أبو عبد الله الحسين عليه السلام وعترته وسُبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية.

أيها الناس، فأَيّ رجالات منكم يسرون بعد قتله؟! أم أيّ فؤاد لا يحزن من أجله؟! أم أية عين منكم تحبس دمعها وتضنّ^(١) عن أنهارها؟! فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجهها، والسموات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقربون وأهل السماوات أجمعون.

يا أيها الناس، أيّ قلب لا ينصدع لقتله؟! أم أيّ فؤاد لا يحنّ إليه؟! أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصمّ؟!

(١) تضنّ: أي تبخل.

أيها الناس، أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين وشاسعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترك وكابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلّمة في الإسلام ثلّمنّاها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إنّ هذا إلّا اختلاق.

والله، لو أنّ النبيّ تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وأفضعها وأمرّها وأفدحها! فعند الله نحتسب فيما أصابنا وأبلغ بنا، فإنّه عزيز ذو انتقام»^(١).

لقد جسّد هذا الخطاب - على قصره - واقعة كربلاء على حقيقتها مركزاً على المظلومية التي لحقت بأهل البيت عليه السلام في قتل الحسين بن علي عليه السلام من جانب، وأسّر أهل بيته من جانب آخر، بالإضافة إلى المظلومية التي لحقتهم بعد واقعة الطفّ، إذ حملت رؤوس الشهداء بما فيهم سيّدهم الحسين عليه السلام فوق الأسنة من بلد إلى بلد.

وعقّب الإمام زين العابدين عليه السلام - بلمحة سريعة ومعبرة ومؤثّرة - واصفاً ما لقيه آل البيت من السبي والتشريد والتعامل السيّء والمهين، وهم أهل بيت الوحي ومعدن الرسالة، وهم قادة أهل الإيمان وأبواب الخير والرحمة والهداية.

وأنهى الإمام خطابه بوصف في منتهى الدقّة لفضاعة الجرائم التي ارتكبتها جيش السلطة الأموية في حقّ أهل البيت عليه السلام، فإن الرسول صلّى الله عليه وآله لو كان يأمر هؤلاء بالتمثيل بأهل البيت وتعذيبهم؛ لما كانوا يزيدون على ما فعلوا، فكيف بهم وقد نهاهم عن التمثيل حتى بالكلب العقور؟! وكيف يمكن توجيه كلّ ما فعلوه وقد أوصاهم النبيّ صلّى الله عليه وآله بحفظه في عترته، ولم يطالبهم بأجر للرسالة سوى المودّة في قريّاه؟!

(١) اللهوف: ١١٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٤٨ - ١٤٩.

فالإمام زين العابدين عليه السلام حاول في خطابه هذا تكريس مظلومية أهل البيت لاستنهاض الروح الثورية في أهل المدينة، وتحريك الوعي النهضوي ضدّ الظلم والجبروت الأموي والطغيان السفيفاني.

ولم تكن الأوضاع هادئة في المدينة في هذه السنة التي كانت تحت إدارة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأوضح شاهد على اضطراب الأوضاع في المدينة هو استبدال ثلاثة ولاة خلال عامين، حيث استبدل يزيد الوليد بن عتبة بعثمان بن محمد ابن أبي سفيان^(١).

النقطة الثانية: ثورة أهل المدينة على يزيد

وأراد عثمان أن يدلّل على كفاءته في إدارة المدينة ويكسب رضا وجوهاها عن يزيد وعنه، فأرسل وفداً من أبناء المهاجرين والأنصار إلى دمشق، ليشهدوا الخليفة الشاب عن كثب وينالوا نصيبهم من هداياه، إلا أنّ الوفد رأى في سلوك يزيد ما يشين ويقبح.

ولما رجعوا إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، وتعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده بالحراب - وهم اللصوص - وإنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

وقال عبد الله بن حنظلة: لو لم أجد إلاّ بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت عطاءه إلاّ لأتقوى به.

فخلعه الناس وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد ووّلوه عليهم^(٢). إنّ نقد الوفد المدني ليزيد لم يكن هو الدليل الوحيد عند أهل المدينة على انحراف يزيد وتنكّره للإسلام وجوره وطغيانه، بل إنّهم كانوا قد لمسوا جور يزيد

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٨٠، الكامل في التاريخ ٤: ١٠٣.

وعَمَّاله على البلدان الإسلامية وفسقهم وشدّة بطشهم، واستهتارهم بالحرّمات الإلهية التي لا مجال لتأويلها، إذ كيف يمكن تأويل ما ارتكبه من القتل الفظيع في حقّ الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ريحانة الرسول وسيّد شباب أهل الجنة وما اقترفه من السبي لأهله وحرّمه؟ وكيف يمكن تأويل ما أظهره من شربه للخمر التي حرّمها الله بالنصّ الصريح؟!

هذا، فضلاً عن حقد الأمويين على الأنصار، والذي لم يتردّد الأمويون في إظهاره لهم، ومن هنا لم يتلکأ أهل المدينة في اخراج عامل يزيد عليها، فحاصروا بني أمية وأتباعهم، وكلم مروان بن الحكم - وهو العدوّ اللدود لآل الرسول ﷺ - الإمام زين العابدين عليه السلام في منح الأمان له، فاستجاب الإمام عليه السلام لهذا الطلب تکرماً^(١) وإغضاءً عن كلّ ما ارتكبه هذا العدوّ في حقّ أهل البيت عليه السلام، في حادثة دفن الإمام الحسن عليه السلام وفي الضغط على الإمام الحسين عليه السلام من أجل أخذ البيعة ليزيد.

ولمّا بلغ أمر الثورة إلى مسامع يزيد أرسل مسلم بن عقبة ليقضي على ثورة أهل المدينة - وهي مدينة رسول الله ﷺ ومهبط وحى الله - وزوّده بتعليمات خاصّة تجاههم قائلاً له: أدع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلاّ فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبحها - أي المدينة - ثلاثاً، فما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند^(٢). وأمره أن يُجهز على جريحهم ويقتل مدبرهم^(٣).

وصل جيش يزيد إلى المدينة، وبعد قتال عنيف مع أهلها استبسل فيه الشائرون دفاعاً عن دينهم، واستشهد أغلب المدافعين بمن فيهم عبد الله بن حنظلة ومجموعة من صحابة رسول الله ﷺ نفّذ قائد الجيش أوامر سيّده يزيد، وأوعز إلى جنوده

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٨٥، الكامل في التاريخ ٤: ١١٣.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٨٤، الكامل في التاريخ ٤: ١١٣.

(٣) التنبيه والإشراف: ٢٦٣.

باستباحة المدينة، فهجم الجند على البيوت وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ، كما أسروا آخرين.

قال المؤرخ ابن كثير: أباح مسلم بن عقبة - الذي يقول فيه السلف (مسرف ابن عقبة) قبّحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد - لا جزاءه الله خيراً - وقتل خلقاً من أشrafها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرة منها... وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك وابني في الأسارى، فقال: عجلوه لها، فضرب عنقه، وقال: أعطوها رأسه، ووقعوا على النساء حتى قيل: إنّه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج.

قال المدائني، عن هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة من غير زوج. وروي عن الزهري أنّه قال: كان القتل يوم الحرّة سبعة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي ممّن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف^(١).

ثمّ نصب كرسيّ لمسلم بن عقبة، وجيء بالأسارى من أهل المدينة فكان يطلب من كلّ واحد منهم أن يبايع ويقول: إنني عبد مملوك ليزيد بن معاوية يتحكّم فيّ وفي دمي وفي مالي وفي أهلي ما يشاء^(٢). وكلّ من كان يمتنع ولم يبايع بالعبودية ليزيد وكان يصرّ على القول بأنّه عبد لله - سبحانه وتعالى - كان مصيره القتل^(٣).

(١) البداية والنهاية ٨: ٢٢٠، تاريخ الخلفاء: ٢٣٣. أمّا الطبري فلم يذكر إلّا إباحة القتال والأموال ثلاثة أيام ٥: ٤٩١، وترك ذكر الفروج وتبعه الجزري في الكامل.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٩٣ و ٤٩٥، الكامل في التاريخ ٤: ١١٨ وفي مروج الذهب ٣: ٧٠، البداية والنهاية ٨: ٢٢٢. وقد جاء في تاريخ يعقوبي ٢: ٢٥١: كان الرجل من قريش يؤتى به فيقال: بايع على أنّك عبد قنّ ليزيد، فيقول: لا. فيضرب عنقه.

(٣) الكامل في التاريخ ٤: ١١٨، مروج الذهب ٣: ٧٠.

وجيء له بيزيد بن عبد الله - وجدته أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله - مع محمد ابن حذيفة العدوي، فطلب إليهما أن يبايعا، فقالا: نحن نبايع على كتاب الله وسنة نبيه، فقال مسلم: لا والله لا أقبلكم هذا أبداً، فقدّمهما فضرب عنقيهما.

فقال مروان بن الحكم - وكان حاضراً -: سبحان الله! أقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت عنقيهما؟! فنخس مسلم مروان بالقضيب في خاصرته، ثم قال له: وأنت والله لو قلت بمقاتلتهما ما رأيت السماء إلا برقة. (أي لقتلت) ^(١).

ثم جيء بآخر فقال: إني أبايع على سنة عمر، فقال: اقتلوه، فقتل ^(٢).

وأتي بزين العابدين عليه السلام إلى مسلم بن عقبة، وهو مغتاط عليه فتبرأ منه ومن آبائه. فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد وقام له، وأقعده إلى جانبه، وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه.

فقال لعلي بن الحسين عليه السلام: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذي قلت؟

قال: «قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرك بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره، وتكفيني شره».

قال لمسلم: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتني به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد ملئ قلبي منه رعباً، ولم يبايع الإمام عليه السلام ليزيد كما لم يبايع علي بن عبد الله بن العباس، حيث امتنع بأخواله من كندة، فالحصين بن نمير نائب مسلم بن عقبة قال: لا يبايع ابن اختنا إلا كبيعة علي بن الحسين ^(٣).

وذكر المؤرخون: أن الإمام زين العابدين عليه السلام كفل في واقعة الحرّة أربعمائة امرأة من عبد مناف، وظلّ ينفق عليهنّ حتى خرج جيش مسلم من المدينة ^(٤).

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٩٢، الكامل في التاريخ ٤: ١١٨.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٩٣، الأخبار الطوال: ٢٦٥.

(٣) النظرية السياسية لدى الإمام زين العابدين، محمود البغدادي: ٢٧٣، جهاد الإمام السجاد عليه السلام: ٧١.

(٤) كشف الغمّة ٢: ٣١٩ عن نثر الدرر للآبي (ق ٤ هـ) عن ابن الأعرابي.

وجاء الحديث من غير وجه: أنَّ مسرف بن عقبة لما قدم المدينة أرسل إلى عليّ بن الحسين عليه السلام فأتاه، فلما صار إليه قرّبه وأكرمه وقال له: أوصاني أمير المؤمنين ببرك وتمييزك من غيرك...^(١).

وواضح أنَّ البيعة إذا ما عرضت بشرطها الاستعبادي على الإمام عليه السلام فإنه سيستمرّ على نهجه الرافض، وأنّ معنى الرفض هنا إنه يتصرّج بدمائه الزكية، وهذا يعني دخول صورة من صور النقمة العارمة ضد الممارسات الأموية القمعية التي سوف تزلزل أعمدة الكيان الحاكم.

وبعد انتهاء الأيام الدامية على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله قال مسلم بن عقبة: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله أحبّ إليّ من قتل أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة^(٢).

كان مسلم في تلك الأيام قد تجاوز التسعين من عمره، أي أنّه كان قريباً جداً من حتفه، وقد هلك بُعيد وقعة الحرّة وقبل أن يصل إلى مكة، وكان من الذين لم يحملوا من الإسلام إلا اسمه، ووظفوا ظاهر القرآن والحديث لتسويغ جرائمهم، فقد كان من المخلصين لمعاوية بن أبي سفيان، وفي صفين كان يقود معسكر معاوية بن أبي سفيان ضد الخليفة الشرعي للمسلمين، ألا وهو الإمام عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام^(٣).

ولعلّه لم يسمع حديث الرسول صلى الله عليه وآله الذي جاء فيه: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٤).

(١) الإرشاد ٢: ١٥٢.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٩٧، الكامل في التاريخ ٤: ١٢٣.

(٣) وقعة صفين: ٢٠٦ و ٢١٣، الإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٤٩٣ - ٤٩٤.

(٤) البداية والنهاية ٨: ٢٢٣، رواه عن النسائي، وروى مثله عن أحمد بن حنبل. أنظر أحاديث أخرى عن هذا الموضوع في كنز العمال، كتاب الفضائل الحديث ٣٤٨٨٦، ووفاء الوفاء: ٩٠، وسفينة البحار ٨: ٣٨، ٣٩ عن دعائم الإسلام، مسند أحمد ٤: ٥٥، السنن الكبرى ٢: ٤٨٣، المحلى ٧: ٢٨٢.

ولعله قد سمع هذا الحديث، لكنه لما وجد من يعتبر نفسه خليفة للنبي صلى الله عليه وآله قد تجرأ على قتل ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله وسبي بناته من مدينة إلى أخرى، دون أن يعترض عليه أحد، فممّ يخشى هو إن اعتدى على مدينة النبي صلى الله عليه وآله؟!

النقطة الثالثة: حرق الكعبة وهدمها

وبعد أن قمع بوحشية ثورة أهل المدينة وأجهض انتفاضتهم؛ توجه مسلم إلى مكة التي كان فيها عبد الله بن الزبير قد أعلن ثورته على الحكم الأموي، لكنّ مسلم ابن عقبة لقي حتفه في الطريق، فتسلّم الحصين بن نمير قيادة الجيش الأموي بناءً على أوامر يزيد، وعندما وصل أطراف مكة فرض حصاراً عليها وضرب الكعبة بالمنجنيق وأحرقها^(١).

وفي الوقت الذي كانت فيه مكة تحت حصار الجيش الأموي لقي يزيد حتفه، فعقد قائد الجيش الأموي - الذي لم يكن وقتذاك يعرف زعيمه الذي يقاوم معه - مفاوضات مع ابن الزبير أعرب له فيها عن استعدادة لقبول بيعته شريطة أن يرافقه إلى الشام، إلا أنّ ابن الزبير رفض الشرط، فعاد الحصين وجيشه إلى الشام.

مات يزيد في ربيع الأول من سنة (٦٤ هـ) وهو في سنّ الثامنة والثلاثين من عمره في حوَّارين، وكانت صحيفة أعماله في مدّة حكمه - الذي استمر ثلاث سنوات وبضعة أشهر - مسودة بقتل ابن بنت النبيّ وأسر أهل بيت الوحي وحرائر الرسالة إلى جانب القتل الجماعي لأهل المدينة وهدم الكعبة المشرفة.

وبعد موت يزيد بايع أهل الشام ولده معاوية، إلا أنّ حكمه لم يستمر أكثر من أربعين يوماً، إذ أعلن تنازله عن العرش، ومات بعدها في ظروف غامضة، فانشقت القيادات المؤيدة لبني أمية على نفسها إلى كتلتين: كتلة أيدت زعامة مروان بن

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٤٩٨ عنه الكامل في التاريخ ٤ : ٢٤ عن الكلبي عن عوانة بن الحكم، ثم روى أخباراً عن ابن عمر تحاول نسبة الحرق إلى أصحاب ابن الزبير خطأ، في محاولة لتبرئة يزيد الشرير.

الحكم، وقد مثل هذا الاتجاه القبائل اليمانية بقيادة حسان الكلبى، بينما أيدت قوى القيسيين بقيادة الضحّاك بن قيس الفهري، عبد الله بن الزبير.

وإبان خلافة يزيد القصيرة، امتدت أيدي الكلبيين تدريجياً إلى مراكز السلطة، فمارسوا ضغوطاً شديدة على القيسيين، الأمر الذي أزعج الضحّاك كثيراً فانتهاز الفرصة بعد موت يزيد ليبيع ابن الزبير - وهو من العرب العدنانية - واشتبك الكلبيون والقيسيون في «مرج راهط»^(١) في معركة أسفرت عن انتصار الكلبيين، فأصبح مروان بن الحكم خليفة، واستقرت الأوضاع المضطربة في الشام نسبياً.

النقطة الرابعة: تزايد المعارضة للحكم الأموي والثورات عليه

صعد عبد الله بن الزبير معارضته للشام التي بدأها بعد موت معاوية، حيث كان قد دعا الحجازيين لمبايعته خليفة للمسلمين، فاستجابت له الأكثرية الساحقة منهم، وشهد العراق من جديد تحرّكات ضد الحكم الأموي.

ويبدو أنّ الذين دعوا الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق عبر الرسائل المتوالية ورحبوا بممثله إليهم ثم تخلّوا عنه وعن الحسين عليه السلام بتلك الصورة المخزية ندموا على موقفهم المذلّ ذاك، لكن هل الذين تحرّكوا ضدّ الشام كانوا نادمين جميعاً؟
الجواب: كلا، فليس جميع الذين تحرّكوا بعد موت يزيد كانوا يحملون همّ الإسلام، فقد كان هناك من يريد إخضاع الشام للعراق وإعادة عاصمة الخلافة إلى العراق.

ثورة التوابين

وعلى أيّ حال، فقد أعلن المتديّتون والسياسيون معارضتهم حكم الشام، لكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر على صعيد إسقاط الحكم على المدى القريب، فقتل سليمان

(١) منطقة في شرق دمشق.

بن صرد قائد التوابين، ورجع من بقي من جيشه إلى الكوفة، وفي تلك الظروف أظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي دعوته حاملاً شعاراً لثارات الحسين عليه السلام.

ثورة المختار

بدأ المختار بإعداد الشيعة للثورة بعد فشل ثورة التوابين، وكان يعرف جيداً أنّ أيّ تحرّك شيعي يتطلّب زعامة من أهل بيت الرسالة عليه السلام، وأنّ الانطلاق ينبغي أن يتمّ باسمهم، ومن أفضل من عليّ بن الحسين عليه السلام؟ وإن رفض الإمام الاستجابة لذلك فليس أمامه غير محمد بن علي بن أبي طالب وهو عمّ الإمام زين العابدين عليه السلام.

من هنا كاتب المختار الإمام زين العابدين عليه السلام وعمّه معاً، أمّا الإمام عليه السلام فلم يعلن عن تأييده الصريح له، لكنّه عليه السلام أمضى عمله عندما ثار من قتله أبيه الحسين عليه السلام.

وأما عمه محمد بن الحنفية فقد أجاب عن سؤال الوفد الذي جاء من الكوفة ليستفسر عن مدى شرعية الانضواء تحت راية المختار قائلاً: أمّا ما ذكرت من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه^(١).

وفهم الوفد تأييد ابن الحنفية لحركة المختار، وهكذا استطاع المختار أن يستقطب كبار الشيعة مثل إبراهيم بن مالك الأشتر وغيره.

(١) تاريخ الطبري ٦: ١٢ - ١٤ برواية أبي مخنف. وابن نما الحلي في كتابه: شرح الثأر روى عن والده: أنّه قال لهم: قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين، فلمّا دخلوا عليه وأخبروه خبرهم الذي جاءوا لأجله قال لعمّه محمد: يا عمّ، لو أنّ عبداً زنجياً تعصّب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليت هذا الأمر فاصنع ما شئت. فخرجوا وهم يقولون: قد أذن لنا زين العابدين ومحمد بن الحنفية، كما روي عنه في بحار الأنوار ٤٥: ٣٦٥.

وأرسل المختار رأسِي عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد إلى الإمام فسجد عليه السلام شكراً لله تعالى وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى الله المختار خيراً»^(١).

وقال اليعقوبي: ووجه المختار بالرأس الخبيث (أي: رأس ابن زياد) إلى الإمام علي بن الحسين، وعهد إلى رسوله بأن يضع الرأس بين يدي الإمام وقت ما يوضع الطعام على الخوان بعد الفراغ من صلاة الظهر، وجاء الرسول إلى باب الإمام، وقد دخل الناس لتناول الطعام، فرفع الرجل عقيرته ونادى: يا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الملائكة، ومنزل الوحي، أنا رسول المختار بن أبي عبيدة الثقفي ومعِي رأس عبيد الله بن زياد... ولم تبقَ علوية في دور بني هاشم إلا صرخت^(٢)، ويقول المؤرخون: إن الإمام زين العابدين عليه السلام لم يُرَ صاحكاً منذ أن استشهد أبوه إلا في اليوم الذي رأى فيه رأس ابن مرجانة^(٣).

وعن بعض المؤرخين: أنه لما رأى الإمام رأس الطاغية قال: «سبحان الله، ما اغترّ بالدنيا إلا من ليس لله في عنقه نعمة، لقد أدخل رأس أبي عبد الله على ابن زياد وهو يتغذى»^(٤).

النقطة الخامسة: سنوات المحن والاضطرابات

كانت الفترة الممتدة بين عامي (٦٦ و ٧٥ هـ) بالنسبة للشام والحجاز والعراق فترة محن واضطرابات، فلم يتحقق في هذه المناطق الهدوء والأمن. وشهد الحجاز هجوم قوات عبد الملك على مكة ومقتل عبد الله بن الزبير، إلا أن نصيب العراق من الاضطرابات كان أكبر من المنطقتين السابقتين.

(١) رجال الكشي: ١٢٧ ح ٢٠٣ وعنه في. المختار الثقفي: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ٣٤٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٩.

(٤) العقد الفريد ٥: ١٤٣، درر السمط في خبر السبط: ١٠٨.

ويمكن القول بجرأة إن ما لحق بأهل العراق كان هو النتيجة الطبيعية لدعاء سبط الرسول الأعظم ﷺ عليهم، إذ رفع الإمام الحسين عليه السلام يده بالدعاء في كربلاء بعد أن أتم الحجاج عليهم ولم ير منهم استجابة له، فقال: «اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف فيسومهم كأساً مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا...»^(١).

وانتقم الله تعالى من أهل العراق الذين كذبوا الحسين بن علي عليه السلام وخذلوه بواسطة رجل إرهابي مستبد هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان «لا يصبر عن سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره»^(٢).

وقد اتخذ الحجاج سجونا لا تقي من حر ولا برد، وكان يعذب المساجين بأقسى ألوان العذاب وأشدّه، فكان يشدّ على بدن السجين القصب الفارسي المشقوق، ويُجرّ عليه حتى يسيل دمه.

يقول المؤرخون: إنه مات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة منهنّ ستة عشر ألف مجرّدات، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد^(٣) وأحصي في سجنه ثلاثة وثلاثون ألف سجين لم يحبسوا في دين ولا تبعة^(٤)، وكان يمرّ على أهل السجن فيقول لهم: إخسأوا فيها ولا تكلمون^(٥).

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٥١ وعنه في وقعة الطف: ٢٥٤ وقريباً منه في الإرشاد ٢: ١١٠، ١١١. وليس فيه: سنين كسني يوسف، ولا غلام ثقيف، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٠.

(٢) حياة الحيوان: ١٦٧.

(٣) حياة الحيوان ١: ١٧٠.

(٤) معجم البلدان ٥: ٣٤٩.

(٥) تهذيب التهذيب ٢: ٢١٢.

وقد كان يسخر من المسلمين الذين يزورون قبر النبي ﷺ ويقول: تبا لهم، إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هالاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله^(١)!

وعهد عبد الملك بن مروان بالملك من بعده إلى ولده الوليد، وأوصاه بالإرهابي الحجاج خيراً، وقال له: وانظر الحجاج فأكرمه، فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناواك، فلا تسمعنّ فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادع الناس إذا متّ إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا...^(٢). ومثلت هذه الوصية اندفاعاته نحو الشرّ حتى الساعات الأخيرة من حياته، إذ لم يبق بعدها إلا لحظات حتى وافته المنيّة، وكانت وفاته في شوال سنة (٨٦ هـ)^(٣) وقد سئل عنه الحسن البصري فقال: ما أقول في رجل كان الحجاج سيئة من سيئاته^(٤).

النقطة السادسة: استشهاد الإمام زين العابدين عليه السلام

وتقلّد الوليد أزمّة الملك بعد أبيه عبد الملك بن مروان، وقد وصفه المسعودي بأنّه كان جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً^(٥)، حتّى طعن عمر بن عبد العزيز الأموي في حكمته، فقال فيه: إنّ ممن امتلأت الأرض به جوراً^(٦). وفي عهد هذا الطاغية الجبار استشهد العالم الإسلامي الكبير سعيد بن جبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي أعتى عامل أموي. وقد كان الوليد من أحقد الناس على الإمام زين العابدين عليه السلام لأنّه كان يرى أنّه لا يتمّ له الملك والسلطان مع وجود الإمام زين العابدين عليه السلام.

(١) شرح النهج ١٥: ٢٤٢ عن كتاب: افتراق هاشم وعبد شمس للدّباس. وقد ورد الخبر قبله في الكامل للمبرّد ١: ٢٢٢. وفي سنن أبي داود ٤: ٢٠٩ والبداية والنهاية ٩: ١٣١ والنصائح الكافية لابن عقيل: ١١ عن الجاحظ، وفي رسائل الجاحظ ٢: ١٦، مناقب أهل البيت عليه السلام: ٤٧٦.

(٢) تاريخ يعقوبي ٢: ٢٨١، تاريخ الخلفاء: ٢٢٠، البداية والنهاية ٩: ١٨٣.

(٣) البداية والنهاية ٩: ٦٨.

(٤) مروج الذهب ٣: ٩٦.

(٥) مروج الذهب ٣: ٩٦.

(٦) تاريخ الخلفاء: ٢٢٣.

فقد كان الإمام عليه السلام يتمتع بشعبية كبيرة، حتى تحدّث الناس بإعجاب وإكبار عن علمه وفقهه وعبادته، وعجّت الأنديّة بالتحدّث عن صبره وسائر ملكاته، واحتلّ مكاناً كبيراً في قلوب الناس وعواطفهم، فكان السعيد من يحظى برؤيته، ويتشرف بمقابلته والاستماع إلى حديثه، وقد شقّ على الأمويين عامّة هذا الموقع المتميّز للإمام عليه السلام وأقضى مضاجعهم، وكان من أعظم الحاقدين عليه الوليد بن عبد الملك^(١) الذي كان يحلم بحكومة المسلمين وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله.

وروى الزهري عن الوليد أنّه قال : لا راحة لي وعليّ بن الحسين موجود في دار الدنيا^(٢).

فأجمع رأيه على اغتيال الإمام زين العابدين عليه السلام حينما آل إليه الملك، فبعث سماً قاتلاً إلى عامله على المدينة، وأمره أن يدسّه للإمام عليه السلام ونفّذ عامله ذلك، فسَمّت روح الإمام العظيمة إلى خالقها بعد أن أضاءت آفاق هذه الدنيا بعلومها وعباداتها وجهادها وتجردّها من الهوى.

وقام الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام بتجهيز جثمان أبيه، وبعد تشييع حافل لم تشهد المدينة نظيراً له؛ جيء بجثمانه الطاهر إلى بقيع الغرقد، فحفروا قبراً بجوار قبر عمّه الزكيّ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنزل الإمام الباقر عليه السلام جثمان أبيه زين العابدين وسيّد الساجدين عليه السلام فواراه في مقرّه الأخير.

فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً

* * *

(١) هناك من المؤرّخين من يرى أنّ هشام بن عبد الملك هو الذي دسّ السمّ للإمام عليه السلام، راجع بحار الأنوار ٤٦: ١٥٣، ويمكن الجمع بين الرأيين فيكون أحدهما آمراً والآخر منفذاً للجريمة.

(٢) راجع : حياة الإمام زين العابدين : ٦٧٨ .

الفصل الرابع

من تراث الإمام زين العابدين عليه السلام

ويقع الكلام في هذا الفصل في مقدمة وسبعة مجالات.

المقدمة

لم يذكر التاريخ أنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام قد درسوا عند أحد، أو تتلمذوا عند شخصية علمية سوى ما ورثوه من آبائهم الكرام عن النبي صلى الله عليه وآله. وقد تميّزوا بعلومهم الزاخرة ومعارفهم الباهرة، التي ظهر شيء منها في الأوساط التي اكتنفتهم، ونقل لنا بعض ما ظهر منهم. كما أجمع المؤرّخون على أنّ الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا من أوسع الناس علماً وأكثرهم دراية في أكثر من مجال علمي. ويمكن أن نصنّف بعض ما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام إلى علوم القرآن والحديث والفقه والأخلاق والعقائد. ونعرض بإيجاز صورة عن معارفه وعلومه التي سجّلها لنا التاريخ، في المجالات التالية:

المجال الأوّل: علوم القرآن الكريم

لقد شغف الإمام زين العابدين عليه السلام كآبائه الكرام - بشكل ملفت للنظر - بالقرآن الكريم وعلومه، وتمثّل ذلك في سلوكه اليومي وأدعيته واهتماماته، تلاوةً وتدبراً وتفسيراً وتعليماً وعملاً. وها نحن نعرض بعض ما يشير إلى مدى اهتمام الإمام عليه السلام بالقرآن العظيم من خلال دعائه عند ختم القرآن . قال عليه السلام: «اللهم إنّك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً، وجعلته مهيمناً على كلّ كتاب أنزلته، وفضّلته على كلّ حديث قصصته، وفرقنا فرقت به بين

حلالك وحرامك، وقرآنًا أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتاباً فصلته لعبادك تفصيلاً، ووحياً أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلاً، وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه، وشفاءً لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه، وميزان قسط^(١) لا يحيف^(٢) عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجا لا يضل من أم قصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته.

اللهم فإذا أددتنا المعونة على تلاوته، وسهلت جواسي ألسنتنا^(٣) بحسن عبارته، فاجعلنا ممن يرهه حق رعايته، ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه وموضحات بيناته، اللهم إنك أنزلته على نبيك محمد ﷺ مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكماً، وورثتنا علمه مفسراً، وفضلتنا على من جهل علمه، وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله^(٤).

إن القرآن هو معجزة الإسلام الكبرى، وقد تحدث سليل النبوة في هذا المقطع عن بعض معالمه وأنواره وهي:

١ - إن الله تعالى أنزل القرآن الكريم نوراً يهدي به الضال، ويرشد به الحائر، ويوضح به القصد.

٢ - إن الله تعالى جعل القرآن الحكيم مهيماً ومشرفاً على جميع كتبه التي أنزلها على أنبيائه، فهو يكشف عما حدث فيها من التغيير والتبديل والتحريف من قبل المنحرفين ودعاة الضلال.

٣ - إن الله تعالى فضل كتابه العزيز على كل حديث عرض فيه قصص الأنبياء وشؤونهم، فقد تناول الذكر الحكيم بصورة موضوعية وشاملة أحوالهم وشؤونهم واقتباس العبر منهم.

(١) القسط: العدل.

(٢) لا يحيف: لا يميل.

(٣) جواسي: جمع جاسية وهي الغليظة، والمراد غلاظ الألسنة.

(٤) الصحيفة السجادية: من دعائه في ختم القرآن (٤٢): ٢٠١.

٤ - إنَّ الله تعالى قد منح نبيّه العظيم فهمَ عجائب ما في القرآن الكريم وعلمه تفسيره، كما أشاد بأئمة الهدى من عترة الرسول صلّى الله عليه وآله الذين رفعهم الله عزّ وجلّ وأعلى درجاتهم، فجعلهم خزانة علمه والأدلاء على كتابه.

المجال الثاني: علوم الحديث الشريف

للحديث الشريف أهمية بالغة في العلوم الإسلامية، فقد بُني معظم الفقه الإسلامي عليه، فإنّه يعرض بصورة موضوعية وشاملة لتفصيل الأحكام الشرعية الواردة في القرآن الكريم .

وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام في عصر التابعين من أعظم الرواة وأهمّهم، فضلاً عن كونه أحد مصادر بيان الأحكام والمعارف الإلهية باعتقاد الشيعة الإمامية، باعتبار أنّ أحاديث الأئمة عليهم السلام هي أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم فتح لي من كلّ باب ألف باب»^(١). وأيد التاريخ هذا المعنى فيما روي عن عليّ عليه السلام من العلوم والمعارف وأقرّت الصحابة بفضل عليّ وبمرجعيتّه العلمية هو والأئمة من بنيّه، ولا غرو في ذلك بعد أن جعلهم الله أبواب الهدى وسفن النجاة كما صحّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»^(٢).

والنصوص التي وصلتنا عن الإمام زين العابدين عليه السلام قد صرّح في بعضها بأنّها عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أو عن جدّه أمير المؤمنين، هذا فضلاً عمّا رواه عن أبيه الحسين عليه السلام.

وقد اعتنى أئمة الحديث بأحاديثه اعتناءً فائقاً باعتباره الرائد العلمي في عصر التابعين، ولولا مدرسته العلمية وجهوده التثقيفية المباركة؛ لاندurst أعلام الدين

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٤، مع اختلاف يسير، الصراط المستقيم ٣: ٢٠٩.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٥١، مجمع الزوائد ٩: ١٦٨، نظم درر السمطين: ٢٣٥.

في عصر طغت فيه الميوعة ورُوِّجَت فيه الشهوات، وأريد للأمة الإسلامية أن تعود إلى جاهلية جهلاء.

المجال الثالث: أصول العقيدة ومباحث الكلام

كان الإمام عليه السلام في زمانه وحيد عصره في الإجابة عن الأسئلة العقائدية المعقدة، ولا سيما ما تعرضت له الأمة الإسلامية من تيارات فكرية مستوردة، أو دخيلة تحاول زعزعة كيان العقيدة الخالصة، كمباحث القضاء والقدر والجبر والاختيار، التي ظهرت بوادرها في حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأخذت بالنمو والانتشار، بحيث شكّلت ظاهرة فكرية تستدعي الانتباه وتتطلب العلاج. وبرز الإمام علي بن الحسين عليه السلام على الصعيد العلمي بربوياً جعله مناراً يشار إليه، وآمن به المسلمون جميعاً حتى قال الزهري عنه: ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ولا أفقه منه.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حكّام عصر الإمام من خلفاء بني أمية - وهم لا يعترفون بالفضل لمن يطاولهم في الخلافة والسلطان - حتى قال عبد الملك بن مروان للإمام زين العابدين عليه السلام: ولقد أوتيت من العلم والدين والورع ما لم يؤته أحد مثلك قبلك إلا من مضى من سلفك. ووصفه عمر بن عبد العزيز بأنه سراج الدنيا وجمال الإسلام^(١).

ومما ورد عنه في القضاء والقدر أن رجلاً سأله: جعلني الله فداك، أبقدر يصيب الناس ما أصابهم أم يعمل؟

فأجابه عليه السلام: «إنّ القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد، فالروح بغير جسد لا تحسّ، والجسد بغير روح صورة لا حراك بها، فإذا اجتمعا قويا وصلحا، كذلك العمل والقدر، فلو لم يكن القدر واقعاً على العمل لم يعرف الخالق من المخلوق،

(١) تاريخ البقوبي ٢: ٣٠٥.

وكان القدر شيئاً لا يحسّ، ولو لم يكن العمل بموافقة من القدر؛ لم يمض ولم يتم ولكنهما باجتماعهما، والله فيه العون لعباده الصالحين» .

ثم قال عليه السلام: «ألا إنّ من أجور الناس من رأى جوره عدلاً وعدل المهتدي جوراً، ألا إنّ للعبد أربعة أعين: عينان يبصر بهما أمر آخرته، وعينان يبصر بهما أمر دنياه، فإذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً فتح له العينين اللّتين في قلبه فأبصر بهما العيب^(١)، وإذا أراد غير ذلك ترك القلب بما فيه» ثمّ التفت إلى السائل عن القدر فقال: «هذا منه، هذا منه»^(٢).

وقال عليه السلام في بيان استحالة أن يوصف الله تعالى بالمحدودية التي هي من صفات الممكن: «يا أبا حمزة، إنّ الله لا يوصف بمحدودية، عظم ربّنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية من لا يُحدّ، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير؟»^(٣).

المجال الرابع: الفقه وأحكام الشريعة

إنّ علم الفقه بالمعنى المعروف فعلاً هو العلم بأحكام أفعال المكلفين في ضوء مصادر الشريعة الإسلامية، وكان الإمام هو المرجع الوحيد في عصره لإعطاء تفاصيل الأحكام الشرعية، وتعليم طريقة استنباطها من مصادرها الإسلامية، والمربي الفذّ الذي تخرّج على يديه فقهاء المدينة، وكانت مدرسته هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس فقهية.

وقد قال عنه الزهري: ما رأيت هاشمياً أفضل من زين العابدين ولا أفقه منه^(٤)، وعدّه الشافعي أفقه أهل المدينة.

(١) في نسخة: فأبصر بهما الغيب.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق: ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) الكافي ١: ١٠٠.

(٤) راجع ترجمة الإمام زين العابدين عليه السلام من تاريخ دمشق، تحقيق محمد باقر المحمودي: ٢٧.

وروى المؤرخون: أنَّ الزهري كان يعترف بالفضل والفقه للإمام عليّ ابن الحسين عليه السلام وكان ممّن يرجع إليه في ما يهمّه من الأحكام الشرعية، ورؤي أنّه رأى في منامه كأنّ يده مخضوبة، وفسّرت له رؤياه بأنّه يتلى بدم خطأ، وكان في ذلك الوقت عاملاً لبني أمّية، فعاقب رجلاً فمات في العقوبة، ففزع وخاف من الله، وفرّ هارباً فدخل في غار يتعبّد فيه، وكان الإمام عليه السلام قد مضى حاجاً إلى بيت الله الحرام فاجتاز على الغار الذي فيه الزهري، فقليل له: هل لك في الزهري حاجة؟ فأجابهم إلى ذلك، ودخل عليه فرآه فرعاً خائفاً، قانطاً من رحمة الله، فقال عليه السلام له: «إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك، فابعث بدية مسلّمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك».

فقال له: فرّجت عني يا سيّدي، الله أعلم حيث يجعل رسالته ^(١).

ودخل الزهري مع جماعة من الفقهاء على الإمام زين العابدين عليه السلام فسأل الإمام الزهريّ عمّا كانوا يخوضون فيه فقال له: تذاكرنا الصوم فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنّه ليس من الصوم واجب إلّا شهر رمضان. فنعى عليهم الإمام عليه السلام قلة معلوماتهم بشؤون الشريعة وأحكام الدين، وبينّ لهم أقسام الصوم قائلاً:

«ليس كما قلتم، الصوم على أربعين وجهاً، فعشرة أوجه منها واجبة كوجوب شهر رمضان، وعشرة أوجه منها صيامهنّ حرام، وأربعة عشر وجهاً منها صاحبها فيها بالخيار، إن شاء صام وإن شاء أفطر، وصوم الإذن - على ثلاثة أوجه - وصوم التأديب وصوم الإباحة وصوم السفر والمرض».

وبهر الزهري وبقية الفقهاء من سعة علم الإمام عليه السلام وإحاطته بأحكام الدين، وطلب منه الزهري إيضاح تلك الوجوه وبيانها، فقام الإمام عليه السلام بإلقاء بحث فقهي

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩٨، مع اختلاف يسير، مستدرك الوسائل ١٨: ٢٢٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٨.

يُن فيهِ تفاصيل هذه المسألة برواية منقولة في عدد من مصنفات علماء الشيعة الإمامية.

وانتهى هذا البحث الفقهي الذي ألقاه الإمام على العلماء والفقهاء، وقد كشف عن مدى إحاطة الإمام بأحكام الشريعة وفروع الفقه، فقد فرّع على الصوم هذه الفروع المهمة التي غفل عنها العلماء، ومن الجدير بالذكر أنّ فقهاء الإمامية استندوا إلى هذه الرواية في فتاواهم بأحكام الصوم^(١).

المجال الخامس: احتجاجات الإمام زين العابدين عليه السلام

إنّ فن الاحتجاج والمناظرة العلمية فنّ جليل؛ لما ينبغي أن يتمتع به المناظر من مقدرة علمية وإحاطة ودقّة ولياقة أدبية.

وقد تميّز أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين بهذا الفنّ، واستطاعوا من خلال هذا المجال إفحام خصومهم وإثبات جدارتهم العلمية بنحو لا يدع مجالاً للريب في أنّهم مؤيدون بتأييد ربّاني، وكما عبّر بعض أعدائهم: أنّهم أهل بيت قد زوّوا العلم زوّاً.

وقد جمع العلامة الطبرسي جملةً من احتجاجات المعصومين الأربعة عشر: الرسول صلى الله عليه وآله والزهراء عليها السلام والأئمة الاثني عشر عليهم السلام في كتابه المعروف بالاحتجاج، ونشير هنا إلى بعض احتجاجات الإمام زين العابدين عليه السلام.

١ - جاء رجل من أهل البصرة إلى عليّ بن الحسين عليه السلام فقال: يا عليّ بن الحسين، إنّ جدّك عليّ بن أبي طالب قتل المؤمنين، فهملت عينا عليّ بن الحسين دموعاً حتى امتلأت كفه منها، ثمّ ضرب بها على الحصى، ثم قال: «يا أخا أهل البصرة، لا والله ما قتل عليّ مؤمناً، ولا قتل مسلماً، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكنتموا الكفر وأظهروا الإسلام، فلمّا وجدوا على الكفر أعواناً أظهروه، وقد علمت

(١) الكافي ٤: ٨٤، الخصال: ٥٣٤ - ٥٣٧، تفسير القمّي: ١٧٢ - ١٧٥، المقنعة: ٥٨، التهذيب ١: ٤٣٥.

صاحبة الجمل والمستحفظون من آل محمد ﷺ أن أصحاب الجمل وأصحاب صفين وأصحاب النهروان لعنوا على لسان النبي الأمي، وقد خاب من افترى». فقال شيخ من أهل الكوفة: يا علي بن الحسين، إن جدك كان يقول: «إخواننا بغوا علينا».

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «أما تقرأ كتاب الله ﴿وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فهم مثلهم أنجى الله عز وجل هوداً والذين معه وأهلك عاداً بالريح العقيم»^(١).
٢ - وروي: أن زين العابدين عليه السلام مرّ بالحسن البصري وهو يعظ الناس بمنى، فوقف عليه ثم قال: «أمسك، أسألك عن الحال التي أنت عليها مقيم، أترضاها لنفسك فيما بينك وبين الله إذا نزل بك غداً؟»
قال: لا.

قال: «أفتحدث نفسك بالتحوّل والانتقال عن الحال التي لا ترضاها لنفسك إلى الحال التي ترضاها؟» قال: فأطرق ملياً ثم قال: إنني أقول ذلك بلا حقيقة.
قال: «أفترجو نبياً بعد محمد ﷺ يكون لك معه سابقة؟»
قال: لا.

قال: «أفترجو داراً غير الدار التي أنت فيها ترد إليها فتعمل فيها؟»
قال: لا.

قال: «أفرأيت أحداً به مسكة عقل رضي لنفسه من نفسه بهذا؟ إنك على حال لا ترضاها ولا تحدث نفسك بالانتقال إلى حال ترضاها على حقيقة، ولا ترجو نبياً بعد محمد، ولا داراً غير الدار التي أنت فيها فترد إليها فتعمل فيها، وأنت تعظ الناس»، قال: فلمّا ولى عليه السلام قال الحسن البصري: من هذا؟
قالوا: علي بن الحسين.

قال: أهل بيت علم، فما رؤي الحسن البصري بعد ذلك يعظ الناس^(٢).

(١) الاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٠.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٣.

المجال السادس: من غرر كلماته عليه السلام^(١)

«من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا».

«من قنع بما قسم الله له فهو من أغنى الناس».

«لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقلّ ما يتقبل؟»

«قيل له: من أعظم الناس خطراً؟» فقال عليه السلام: «من لم ير الدنيا خطراً لنفسه».

وقال بحضرته رجل: اللهم أغنني عن خلقك، فقال عليه السلام: «ليس هكذا، إنّما الناس

بالناس، ولكن قل: اللهم أغنني عن شرار خلقك».

«طلب الحوائج إلى الناس مذلة للحياة ومذهبة للحياء واستخفاف بالوقار

وهو الفقر الحاضر، وقلة طلب الحوائج من الناس هو الغنى الحاضر».

وقال عليه السلام لبعض بنيّه: «يا بُنَيَّ، أنظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في

طريق، فقال: يا أبة، من هم؟ قال عليه السلام: إياك ومصاحبة الكذاب، فإنّه بمنزلة السراب

يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، وإياك ومصاحبة الفاسق، فإنّه بايعك بأكلة أو أقلّ

من ذلك، وإياك ومصاحبة البخيل، فإنّه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، وإياك

ومصاحبة الأحق، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصاحبة القاطع لرحمه، فيأتي

وجدته ملعوناً في كتاب الله».

«كم من مفتون بحسن القول فيه، وكم من مغرور بحسن الستر عليه؟»

«ربّ مغرور مفتون يصبح لاهياً ضاحكاً، يأكل ويشرب وهو لا يدري لعلّه قد

سبقت له من الله سخطة يصلّي بها نار جهنم».

وقال لابنه محمّد عليه السلام: «افعل الخير إلى كلّ من طلبه منك، فإن كان أهله فقد

أصبت موضعه، وإن لم يكن بأهل كنت أنت أهله، وإن شتمك رجل عن يمينك ثم

تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره».

(١) كل ما جاء تحت هذا العنوان نقلناه عن تحف العقول ٢٠٠-٢٠٥.

(٢) خطراً: قدراً وشرفاً.

المجال السابع: في رحاب رسالة الحقوق وأدعية الإمام السجاد عليه السلام أولاً: رسالة الحقوق...

تكفلت رسالة الحقوق تنظيم أنواع العلاقات الفردية والاجتماعية للإنسان في هذه الحياة بنحو يحقق للفرد والمجتمع سلامة العلاقات، ويجمع لهما عوامل الاستقرار والرفق والازدهار.

« لقد نظر الإمام الحكيم عليه السلام بعمق وشمول للإنسان، ودرس جميع أبعاد حياته وعلاقاته بخالقه ونفسه وأسرته ومجتمعه وحكومته ومعلمه^(١) وكل من يرتبط به أدنى ارتباط.

ويمكن أن نقول: إنّ تنظيم العلاقات الاجتماعية على أساس تعيين مجموعة الحقوق بشكل دقيق هو الرصيد الأوّل للنظام الاجتماعي الإسلامي، وهو المبنى المعقول للتشريعات الإسلامية عامّة، فإنّ الذي يفهم بعمق هذه الرسالة، ويدرس بدقة حقوق الخالق وحقوق المخلوقين بعضهم تجاه بعض، يتسنى له أن يفهم أسرار التشريع الإسلامي، وفلسفة الأحكام التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لتنظيم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً.

إنّ العدالة الاجتماعية أو الاقتصادية أو الإدارية لن تتحقّق ما لم يُطبّق نظام الحقوق بشكل دقيق أولاً، وتنظّم الأحكام والتشريعات على أساس تلك الحقوق، وفيما نعلم أنّ الإمام عليه السلام قد سبق العلماء والقانونيين جميعاً في دنيا الإسلام، بل في دنيا الإنسان في هذا المضمار الذي على أساسه تركز أصول الأخلاق والتربية ونظم الاجتماع.

(١) حياة الإمام زين العابدين: ٤٧٧.

وقد كتب الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الرسالة العظيمة واتحف بها بعض أصحابه، ورواها العالم الكبير ثقة الإسلام ثابت بن أبي صفية المعروف بأبي حمزة الثمالي تلميذ الإمام عليه السلام، كما رواها عنه بسنده المحدث الصدوق في كتابه «الخصال»^(١)، وثقة الإسلام الكليني في «الكافي»، والحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني في «تحف العقول»^(٢) وهي من المصادر القديمة الموثوقة.

والإمام عليه السلام قبل بيانه للحقوق يشير إلى أنّ هناك حقوقاً محيطَةً بالإنسان، لا بد له من معرفتها، ثمّ يبيّن أكبر الحقوق وهو ما يرتبط بالله سبحانه بالنسبة لعبده، ثمّ يفرّع عليها حقوق الإنسان المفروضة من الله تجاه نفس الإنسان، فيبيّن أنواع علاقة الإنسان بنفسه من خلال المنظار الإلهي، ثمّ ينتهي إلى أنواع العلاقة بين الإنسان وبيئته التي تشتمل على قادة ومقودين ورعاة ورعية، مع بيانه لأنواع الأئمة والمأمورين ودرجاتهم، ثمّ يبيّن سائر العلاقات مع الأرحام والأسرة وأعضائها، ثمّ من تشتمل عليه الأسرة من الموالى والجواري، ثمّ سائر ذوي الحقوق كالمؤدّن والإمام في الصلاة، والجلس والشرى والغريم والخصم والمستشير والمشير، والمستنصح والناصح والسائل والمسؤول والصغير والكبير.. حتى ينتهي إلى من يشترك مع الإنسان في دينه من بني الإنسان، ثمّ حقوق من يشترك مع الإنسان في الإنسانية وفي النظام السياسي الذي يخضع له، وإن لم يكن من أهل ملّته ودينه.

وفيما يلي عرض إجماليّ للحقوق كما بيّنها الإمام في مُستهلّ الرسالة:

«اعلم، أنّ الله عزّوجلّ عليك حقوقاً محيطَةً بك في كلّ حركة تحرّكتها، أو سكنته سكنتها، أو حال حلتها، أو منزلة نزلتها، أو جارية قلبتها، أو آلة تصرّفت فيها، فأكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقّه الذي هو أصل الحقوق، ثمّ ما أوجب الله عزّوجلّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك، فجعل عزّوجلّ للسانك عليك حقّاً، ولسمعك عليك حقّاً، ولبصرك عليك حقّاً، وليدك عليك

(١) الخصال: ٥٦٤.

(٢) تحف العقول: ٢٥٥.

حقاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم جعل عز وجل لأفعالك عليك حقوقاً، فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهديك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً.

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، فأوجبها عليك حقوق أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك، فهذه حقوق تتشعب منها حقوق، فحقوق أئمتك ثلاثة، أوجبها عليك حق سائسك^(١) بالسلطان، ثم حق سائسك بالعلم، ثم حق سائسك بالملك، وكل سائس إمام.

وحقوق رعيتك ثلاثة، أوجبها عليك حق رعيتك بالسلطان، ثم حق رعيتك بالعلم، فإن الجاهل رعية العالم، ثم حق رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الأيمان، وحقوق رعيتك كثيرة متصلة بقدر اتصال الرحم في القرابة، وأوجبها عليك حق أمك، ثم حق أبك، ثم حق ولدك، ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب والأولى فالأولى، ثم حق مولاك المنعم عليك، ثم حق مولاك الجارية نعمته عليك^(٢)، ثم حق ذوي المعروف لديك، ثم حق مؤذنتك لصلاتك، ثم حق إمامك في صلاتك، ثم حق جليسك، ثم حق جارك، ثم حق صاحبك، ثم حق شريكك، ثم حق مالك، ثم حق غريمك الذي تطالبه؟ ثم حق غريمك الذي يطالبك، ثم حق خليطك، ثم حق خصمك المدعي عليك، ثم حق خصمك الذي تدعي عليه، ثم حق مستشيرك، ثم حق المشير عليك، ثم حق مستنصحك، ثم حق الناصح لك، ثم حق من هو أكبر منك، ثم حق من هو أصغر منك، ثم حق سائلك، ثم حق من سألته، ثم حق من جرى لك على يديه مساءة بقول أو فعل^(٣) عن تعمد منه أو غير تعمد، ثم حق أهل ملتك عليك، ثم حق أهل ذمتك، ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال وتصرف الأسباب.

فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه، ووفقه لذلك وسدده.

(١) السائس: القائم بأمر والمدير له.

(٢) والظاهر تصحيحه، والصواب كما سيأتي في تفصيله عليه السلام هذه الحقوق (حق مولاك الجارية نعمتك عليه).

(٣) زاد في تحف العقول: ٢٥٦ «أو مسرة بقول أو فعل».

ثم أخذ الإمام بذكر تفصيل الحقوق، بما نوجزه في العناوين التالية: (حق الله، حق النفس، حقوق الأعضاء، حقوق الأفعال، حقوق الأئمة، حقوق الرعية، حقوق الرّحم).

وقد تصدّى جملة من العلماء ^(١) والقانونيين لشرح هذه الرسالة الفريدة وبشتى اللغات وعلى مختلف المستويات، وإن شئت التفصيل والاستضاءة بأنوارها - أكثر ممّا مرّ - فراجعها .

ثانياً: الصّحيفة السجّادية

لقد خطّ القرآن الكريم لثورة ثقافية عظيمة، وكانت آياته الأولى تبشّر بحركة كبرى في عالم العلم والمعرفة، حيث ابتدأ الوحي الربّاني بالأمر بالقراءة أمراً مؤكداً والإشادة بنعمة التعليم الإلهي، والاهتمام بظاهرتي القلم والكتابة في التعليم وتدوين المعرفة ونقلها وتطويرها، وتطوير الإنسان من خلال تكامل المعرفة وتطوير العلوم. والرسول الأمين وإن عرف عنه أنّه لم يتعلّم القراءة والكتابة بالطريقة المتعارفة ولكنّه حتّى على طلب العلم ونشره وتدوينه بإلهام إلهي، وبالرغم من أنّ الجهاز الحاكم الذي خلف الرسول صلّى الله عليه وآله أصدر قراراً بمنع تدوين حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وبذلك وجّه ضربةً كبيرةً للثقافة الإسلامية المتمثلة في أحاديث الرسول الأعظم، لكنّها قد تدوركت - بعد أن خلفت مضاعفات كبيرة لا زال العالم الإسلامي والإنساني يدفع ضريبتهما حتى يومنا هذا - بعد أن لمسوا تلك المضاعفات الكبرى - التي ترتبت على مثل هذا القرار.

وأما الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فإنّهم قد أدركوا في وقت مبكر مضاعفات منع التدوين، والنكسة التي سوف يصاب بها العالم الإسلامي، بل الإنساني، فبادروا إلى التدوين وشجّعوا أصحابهم على عملية التدوين بالرغم من أنّ ذلك كان يشكّل

(١) منهم العلامة السيد حسن القبانجي فقد شرحها في جزئين كبيرين باسم : شرح رسالة الحقوق.

تحدّياً للسلطات آنذاك، لأنّ حفظ الشريعة والدفاع عنها يعدّ من أعظم الأهداف التي جُعِلَ للأئمة المعصومون حُرّاساً لها أمناء عليها.

فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم الرواد الأوائل الذين خطّطوا لمسيرة الأمة الثقافية، وفجّروا لها ينابيع العلم والحكمة في هدي الكتاب الحكيم وتعاليم الرسول العظيم، ولم يقتصر النشاط الثقافي للأئمة عليهم السلام على جانب خاص، وإنّما تناول أنواع العلوم وشتى مجالات المعرفة .

فالإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو رائد هذه النهضة العلمية، والفتاح لأبواب العلوم العقلية والنقلية، والمؤسس لأصولها وقواعدها، وقد اعترف بهذه الحقيقة جملة من العلماء الكبار وألف السيّد حسن الصدر كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» فأثبت فيه تاريخياً صحة هذه الدعوى .

وممّن اعترف بذلك الأستاذ عباس محمود العقّاد في كتابه «عبقريّة الإمام عليّ» قائلاً: إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد فتق أبواب اثنين وثلاثين علماً، فوضع قواعدها وأسس أصولها.

وقال العلامة ابن شهر آشوب في كتابه «معالم العلماء»: الصحيح أنّ أوّل من صنّف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ سلمان ثمّ أبو ذر ثمّ الأصمغ بن نباتة ثمّ عبيد الله بن أبي رافع ، ثمّ صنّفت الصحيفة الكاملة^(١).

فالصحيفة السجّادية من ذخائر التراث الإسلامي ومن مناجم كتب البلاغة والتربية والأخلاق والأدب في الإسلام، ومن هنا سمّيت بـ «إنجيل أهل البيت» و «زبور آل محمد»^(٢).

(١) الذريعة ١٥: ١٨ .

(٢) حياة الإمام زين العابدين : ٣٧٣ - ٣٧٤ .

مميزات الصحيفة السجادية :

- ١ - إنها تمثل التجرد التام من عالم المادة والانقطاع الكامل إلى الله تعالى والاعتصام به، والذي هو أضمن ما في الحياة.
- ٢ - إنها تكشف عن كمال معرفة الإمام عليه السلام بالله تعالى وعميق إيمانه به .
- ٣ - امتازت الصحيفة السجادية على سائر أدعية المعصومين عليهم السلام بتكرار الصلاة على محمد وآل محمد، لأنه من الأرجح أن هذه الأدعية أنشئت في أعقاب واقعة كربلاء، التي كان منشؤها يزيد، الذي كان هو وأبوه وجده ومن ورائهم بنو أمية يسعون في إطفاء النور المحمدي صلوات الله عليه.
- والأرجح أن الإمام كان يريد من خلال هذه الأدعية تكريس مبادئ الإسلام، وترسيخها في النفوس في مواجهة المساعي الأموية الهدامة.
- ٤ - فتحت الصحيفة للإنسان المسلم أبواب الأمل والرجاء برحمة الله الواسعة.
- ٥ - كما فتحت للمناظرات البديعة مع الله تعالى باباً مهماً يتضمن أنواع الحجج البالغة لاستجلاب عفو الله وغفرانه، مثل قوله عليه السلام: « إلهي إن كنت لا تغفر إلا لأوليائك وأهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون ؟ ! وإن كنت لا تُكرِّم إلا أهل الوفاء لك فبمن يستغيث المسيئون ؟ ! »^(١).
- وهكذا قوله عليه السلام: « فارحمني اللهم فإني امرؤ حقير وخطري »^(٢) يسير، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ... »^(٣).
- ٦ - تضمّنت الصحيفة برامج أخلاقية روحية وسلوكية مهمة لتربية الإنسان، ورسمت له أصول الفضائل النفسية والكمالات المعنوية.
- ٧ - إحتوت على حقائق علمية لم تكن معروفة في عصره .

(١) الصحيفة السجادية (أبطحي): ٢٣٢.

(٢) خطري: قدري ومنزلتي.

(٣) الصحيفة السجادية (أبطحي): ٣٧٦.

٨ - تصدّت الصحيفة لمواجهة الفساد الفردي والاجتماعي والسياسي في عصر أشاعت فيه السياسة الأموية الفساد الأخلاقي والخلاعة والمجون بين المسلمين، فكانت الصحيفة خير وسيلة للإصلاح في أحلك الظروف التي اتّبع فيها الأمويون سياسة القمع والإرهاب.

٩ - والصحيفة بعد هذا هي منجم من مناجم البلاغة والفصاحة وينبوع ثرّ للأدب الإسلامي الهادف، فهي لا تفترق عن «نهج البلاغة» في هذا المضمّار.

١٠ - ضمّن الإمام زين العابدين عليه السلام أدعيته - التي تمثّلت في الصحيفة الكاملة وسائر الأدعية التي وصلت عنه وجمعت مؤخراً في ما سمّي بـ «الصحيفة الجامعة» - منهاجاً كاملاً للحياة الإنسانية الفريدة ، ولم يترك الإمام جانباً ممّا تحتاجه الأمة الإسلامية إلّا وتعرّض له، وعالج به بأسلوبه الفذّ وبلاغته البديعة.

الدور التاريخي للصحيفة السجّادية :

قلنا: إنّ المسلمين في عصر الإمام زين العابدين عليه السلام واجهوا خطرين كبيرين خارج النطاق السياسي والعسكري، وكان لا بدّ من البدء بعمل حاسم للوقوف في وجههما :

أحدهما : الخطر الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوّعة، وأعراف تشريعية وأوضاع اجتماعية مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجا، وكان لا بدّ من عمل على الصعيد العلمي يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدة من الكتاب والسنة، وكان لا بدّ من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير والممارس الذكي، الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيد في كلّ ما يستجدّ له من حالات.

كان لا بد إذن من تأصيل للشخصية الإسلامية ومن زرع بذور الاجتهاد، وهذا ما قام به الإمام علي بن الحسين عليه السلام فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله...

وأما الخطر الآخر: «فقد نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل، لأن موجات الرخاء تعرّض أي مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذّات الدنيا، والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة، وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله واليوم الآخر، وبما تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة، وهذا ما وقع فعلاً، وتكفي نظرة واحدة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصبهاني ليّتضح الحال.

وقد أحسّ الإمام علي بن الحسين بهذا الخطر، وبدأ بعلاجه، واتّخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج، وكانت الصحيفة السجادية من نتائج ذلك، فقد استطاع هذا الإمام العظيم بما أُوتي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي، وذهنية ربّانية تتفتّق عن أروع المعاني وأدقّها في تصوير صلة الإنسان برّبّه، ووجده بخالقه وتعلّقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبر عنه ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات.

أقول: قد استطاع الإمام علي بن الحسين بما أُوتي من هذه المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جَوْاً روحياً في المجتمع الإسلامي، يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات، وشدّه إلى ربّه حينما تجرّه الأرض إليها وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحية، لكي يظلّ أميناً عليها في عصر الغنى والثروة كما كان أميناً عليها وهو يشدّ حجر المجاعة على بطنه.

وهكذا نعرف أنّ الصحيفة السجّادية تعبّر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام، إضافةً إلى كونها تراثاً ربّانياً فريداً يظلّ على مرّ الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، وتظلّ الإنسانية بحاجة إلى هذا التراث المحمّدي العلوي، وتزداد حاجة كلّما ازداد الشيطان إغراءً والدنيا فتنة^(١).

* * *

(١) نقلاً عن مقدمة السيد الشهيد محمد باقر الصدر على الصحيفة السجّادية الكاملة .

الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام

الفصل الأول شخصية الإمام محمد الباقر عليه السلام

والكلام في هذا الفصل يقع في نقطتين:

النقطة الأولى: مظاهر من شخصية الإمام محمد الباقر عليه السلام

تميّز هذا الإمام العظيم بمواهبه الروحية والعقلية العظيمة وفضائله النفسية والأخلاقية السامية ممّا جعل صورته صورة متميّزة من بين العظماء والمصلحين، كما تميّز بحسبه الوضّاح، بكل ما يمكن أن يسمو به هذا الإنسان. ولقد احتاط النبي صلى الله عليه وآله أشد ما يكون الاحتياط في شأن أمته، ولم يرض أن تكون في ذيل قافلة الأمم والشعوب، فقد أراد لها العزّة والكرامة، وأراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، فأولى مسألة الخلافة والإمامة المزيد من اهتمامه، ونادى بها أكثر من أية قضية أخرى من القضايا الدينية؛ لأنّها القاعدة الصلبة لتطور أية أمة في مجالاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية، وقد خصّ بها الأئمة الطاهرين من أهل بيته الذين لم يخضعوا في أي حال من الأحوال لأية نزعة مادية، وإنّما آثروا طاعة الله ومصلحة الأمة على كل شيء.

وكان الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام جامعاً للكمالات الإنسانية في سيرته وسلوكه، فكان أهلاً للإمامة الكبرى بعد أبيه زين العابدين.

وما دوتته كتب التاريخ من فضائله الجمّة هو غيظ من فيض، ونشير إلى شيء يسير منها تباعاً:
أولاً: حلمه

كان الحلم من أبرز صفات الإمام أبي جعفر عليه السلام فقد أجمع المؤرخون على أنه لم يسيء إلى من ظلمه واعتدى عليه، وإنما كان يقابله بالبرّ والمعروف، ويعامله بالصفح والإحسان، وقد روي صوراً كثيرة عن عظيم حلمه، كان منها: أن شامياً كان يختلف إلى مجلسه عليه السلام، ويستمع إلى محاضراته، وقد أعجب بها، فأقبل يشتدّ نحو الإمام وقال له:

يا محمد إنما أغشى مجلسك لا حباً مني لك، ولا أقول: إن أحداً أبغض إليّ منكم أهل البيت، واعلم أنّ طاعة الله، وطاعة أمير المؤمنين في بغضكم، ولكنني أراك رجلاً فصيحاً لك أدب وحسن لفظ، فإنما اختلف إليك لحسن أدبك .

ونظر إليه الإمام عليه السلام بعطف وحنان، وأخذ يغدق عليه ببرّه ومعروفه حتى تنبّه الرجل وتبين له الحقّ، وانتقل من البغض إلى الولاء للإمام عليه السلام، وظلّ ملازماً له حتى حضرته الوفاة فأوصى أن يصلي عليه ^(١).

وحاكي الإمام الباقر عليه السلام بهذه الأخلاق الرفيعة جدّه الرسول صلى الله عليه وآله، الذي استطاع بسموّ أخلاقه أن يؤلّف بين القلوب، ويوحّد بين المشاعر والعواطف، ويجمع الناس على كلمة التوحيد بعد ما كانوا فرقاً وأحزاباً.

ثانياً: صبره

لقد كان الصبر من الصفات الذاتية للأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام فقد صبروا على مكاره الدهر، ونوائب الأيام، وصبروا على تجرّع الخطوب التي تعجز عن حملها الجبال، فقد استقبل الإمام الحسين عليه السلام على صعيد كربلاء أمواجاً من

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٢٣٣، مناقب آل أبي طالب ٤: ١٨٦ .

المحن الشاقة التي تذهل كل كائن حي، مترنماً بقوله عليه السلام: «صبراً على قضائك يا رب، لا معبود سواك».

وصبر الإمام الباقر عليه السلام كآبائه على تحمل المحن والخطوب. وإليك بعض تلك المحن:

١ - انتقاص السلطة لآبائه الطاهرين، وإعلان سبهم على المنابر والمآذن، وهو عليه السلام يسمع ذلك، ولا يتمكن أن ينسب بنت شفة فصبر وكظم غيظه، وأوكل الأمر إلى الله الحاكم بين عباده بالحق.

٢ - ومن بين المحن الشاقة التي صبر عليها: التنكيل الهائل بشيعة أهل البيت عليهم السلام وملاحقتهم تحت كل حجر ومدر وقتلهم بأيدي الجلادين من عملاء السلطة الأموية، وهو لا يتمكن أن يحرك ساكناً، وقد فرضت عليه السلطة الرقابة الشديدة، ورفضت كل طلب له في شأن شيعته.

٣ - وروى المؤرخون عن عظيم صبره أنه كان جالساً مع أصحابه إذ سمع صيحة عالية في داره، فأسرع إليه بعض مواليه فأسرّ إليه بشيء فقال عليه السلام:

«الحمد لله على ما أعطى، وله ما أخذ، إنهم عن البكاء، وخذوا في جهازه، واطلبوا السكينة، وقولوا لها: لا ضير عليك أنت حرة لوجه الله لما تداخلك من الروع...».

ورجع إلى حديثه، فتهيب القوم سؤاله، ثم أقبل غلامه فقال له: قد جهّزناه، فأمر أصحابه بالقيام معه للصلاة على ولده ودفنه، وأخبر أصحابه بشأنه فقال لهم: «إنه قد سقط من جارية كانت تحمله فمات»^(١).

ثالثاً: كرمه وسخاؤه

لقد فطر الإمام محمد الباقر عليه السلام على حب الخير وصلة الناس وإدخال السرور عليهم.

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار: ٢١٨.

وذكر المؤرخون: أنه كان أقل أهل بيته مالاً وأعظمهم مؤونة^(١)، ومع ذلك كان وجود بما عنده لإنعاش الفقراء والمحرومين. وقد نقل الرواة بوادر كثيرة من هذا الجود وإليك نماذج منها:

١ - روى سليمان بن قرم فقال: كان أبو جعفر يجيزنا بالخمسمائة درهم إلى الستمائة إلى الألف درهم، وكان لا يملّ من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمليه وراحيه^(٢).

٢ - قال الأسود بن كثير: شكوت إلى أبي جعفر محمد بن عليّ الحاجة وجفاء الإخوان، فتأثر^{عليه السلام} وقال: «بئس الأخ أخّ يركاك غنياً، ويقطعك فقيراً، ثم أمر غلامه فأخرج كيساً فيه سبعمائة درهم، وقال: استنفق هذه فإذا نفدت فأعلمني»^(٣).

٣ - روت مولاته سلمى فقالت: كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويلبسهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم، وقد عدلته سلمى عن ذلك فقال لها: «يا سلمى ما يؤمّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان..»^(٤). وكان يقول: «ما حسنت الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف»^(٥).

رابعاً: عبادته

كان الإمام أبو جعفر الباقر^{عليه السلام} من أئمة المتقين في الإسلام، فقد عرف الله معرفة استوعبت دخائل نفسه، فأقبل على ربه بقلب منيب، وأخلص في طاعته كأعظم ما يكون الإخلاص.

(١) في رحاب أئمة أهل البيت^{عليهم السلام} ٤: ١٢.

(٢) الإرشاد ٢: ١٦٧، شرح شافية أبي فراس ٢: ٥٨٩.

(٣) صفة الصفوة ٢: ١١٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

وقد أثرت عنه بعض الأدعية في سجوده منها:

ما رواه إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: كنت أمهد لأبي فراشه فانتظره حتى يأتي، فإذا آوى إلى فراشه ونام قمت إلى فراشي. وقد أبطأ عليّ ذات ليلة فأتيت المسجد في طلبه، وذلك بعدما هدا الناس، فإذا هو في المسجد ساجد، وليس في المسجد غيره فسمعت حنينه وهو يقول: «سبحانك اللهم، أنت ربي حقاً حقاً، سجدت لك يا رب تعبدّاً ورقاً، اللهم إن عملي ضعيف فضاعفه لي... اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»^(١).

خامساً: زهده في الدنيا

وزهد الإمام أبو جعفر عليه السلام في جميع مباهج الحياة وأعرض عن زينتها فلم يتخذ الرياش في داره، وإنما كان يفرش في مجلسه حصيراً^(٢).
لقد نظر إلى الحياة بعمق وتبصر في جميع شؤونها فزهد في ملاذها، واتّجه نحو الله تعالى بقلب منيب.

فعن جابر بن يزيد الجعفي: قال لي محمد بن علي عليه السلام: «يا جابر إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب».

فأنبرى إليه جابر قائلاً: «ما حزنك؟ وما شغل قلبك؟».

فأجابه عليه السلام قائلاً: «يا جابر إنّه من دخل قلبه صافي دين الله عزّ وجلّ شغله عمّا سواه. يا جابر ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هي إلا مركب ركبتة؟ أو ثوب لبسته؟ أو امرأة أصبتها؟!»^(٣).

(١) فروع الكافي ٣: ٣٢٣.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٦٠.

(٣) البداية والنهاية ٩: ٣٣٩، حياة الإمام محمد الباقر ١: ١٣٣ - ١٣٤ بتصرف.

النقطة الثانية: انطباعات عن شخصية الإمام محمد الباقر عليه السلام

١ - قال الأبرش الكلبي للإمام محمد الباقر عليه السلام: أنت ابن رسول الله حقاً. ثم صار إلى هشام فقال: دَعُونَا مِنْكُمْ يَا بَنِي أُمِيَّةَ؛ إِنَّ هَذَا أَعْلَمُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِمَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَهَذَا وَلَدُ رَسُولِ اللَّهِ ^(١).

٢ - قال عبد الله بن عطاء المكي: ما رأيت العلماء عند أحد قطّ أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة - مع جلالته في القوم - بين يديه كأنه صبي بين يدي معلّمه ^(٢).

٣ - كتب عبد الملك بن مروان إلى عامل المدينة: إبعث إليّ محمد بن عليّ مقيداً.

فكتب إليه العامل: ليس كتابي هذا خلافاً عليك يا أمير المؤمنين، ولا ردّاً لأمرك، ولكن رأيت أن أراجعك في الكتاب نصيحة لك، وشفقة عليك. إنّ الرجل الذي أردته ليس اليوم على وجه الأرض أعفّ منه ولا أزهد ولا أورع منه، وإنّه من أعلم الناس، وأرقّ الناس، وأشدّ الناس اجتهاداً وعبادة، وكرهت لأmir المؤمنين التعرض له ف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. فسُرّ عبد الملك بما أنهى إليه الوالي وعلم أنه قد نصحه ^(٣).

٤ - وقال له قتادة بن دعامة البصري: لقد جلست بين يدي الفقهاء، وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدام أحد منهم ما اضطرب قدامك ^(٤).

٥ - وقال له عبد الله بن معمر الليثي: ما أحسب صدوركم إلاّ منابت أشجار العلم، فصار لكم ثمره وللناس ورقه ^(٥).

(١) المناقب ٤: ١٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٦: ٢٨٥، تذكرة الخواص: ٣٣٧.

(٣) أئمتنا ١: ٣٩٠، الخرائج والجرائح ٢: ٦٠٢، بحار الأنوار ٤٦: ٣٣٠.

(٤) في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ٤: ١٠، الكافي ٦: ٢٥٦، مدينة المعاجز ٥: ٥٩.

٦ - قال شمس الدين محمد بن طولون: أبو جعفر محمد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، الملقب بالباقر، وهو والد جعفر الصادق رضي الله عنهما، كان الباقر عالماً، سيداً كبيراً، وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم، أي توسّع، والتبقر التوسيع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبي على الأجل^(٢)

٧ - قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: كان محمد بن علي بن الحسين سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلّم الناس الفقه^(٣).

٨ - قال أحمد بن يوسف الدمشقي القرماني: منبع الفضائل والمفاخر، الإمام محمد بن علي الباقر (رضي الله عنه)، وإنما سمي بالباقر لأنه بقر العلم، وقد قيل: لقب بالباقر لما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا جابر يوشك أن تلحق بولد من ولد الحسين، اسمه كاسمي يقر العلم بقرّاً، - أي يفجره تفجيراً - فإذا رأته فاقرأه مني السلام...» وكان خليفة أبيه من بين إخوته، ووصيه والقائم بالإمامة من بعده^(٤).

* * *

(١) كشف الغمّة ٢: ٣٦٢.

(٢) الأئمة الاثنا عشر: ٨١.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٧٧.

(٤) أخبار الدول: ١١١.

الفصل الثاني

ويتألف هذا الفصل من نقطتين:

النقطة الأولى: نشأة الإمام محمد الباقر عليه السلام

لقد ازدهرت الحياة الفكرية والعلمية في الإسلام بهذا الإمام العظيم الذي التقت فيه عناصر الشخصية من السبطين الحسن والحسين عليهما السلام، وامتزجت به تلك الأصول الكريمة والأصلاّب الشامخة، والأرحام المطهّرة، التي تفرّع منها. فالأب: هو سيد الساجدين وزين العابدين وألمع سادات المسلمين. والأم: هي السيدة الزكية الطاهرة فاطمة بنت الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة، وتكنى أم عبد الله ^(١) وكانت من سيدات نساء بني هاشم، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يسمّيها الصّديقة ^(٢) ويقول فيها الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «كانت صديقة لم تدرك في آل الحسن مثلاً» ^(٣) وحسبها سموّاً أنها بضعة من ريحانة رسول الله، وأنها نشأت في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ففي حجرها الطاهر تربى الإمام الباقر عليه السلام.

المولود المبارك: وأشرقت الدنيا بمولد الإمام الزكي محمد الباقر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله قبل ولادته، وكان أهل البيت عليهم السلام ينتظرونه بفارغ الصبر؛ لأنّه من أئمة المسلمين الذين نصّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله وجعلهم قادة لأئمّته، وقرنهم بمحكم التنزيل وكانت ولادته في يثرب في اليوم الثالث من شهر صفر سنة (٥٦هـ) ^(٤) وقيل سنة (٥٧هـ) في غرة رجب يوم الجمعة ^(٥) وقد ولد قبل استشهاد جده الإمام

(١) تهذيب اللغات والأسماء ١: ٨٧، وفيات الأعيان ٤: ١٧٤.

(٢) الدر النظيم: ٦٠٤.

(٣) أصول الكافي ١: ٤٦٩.

(٤) وفيات الأعيان ٤: ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١: ١٢٤.

(٥) دلائل الإمامة: ٢١٥.

الحسين عليه السلام بثلاث سنين^(١) وقيل بأربع سنين كما أدلى عليه السلام بذلك^(٢) وقيل بستين وأشهر في سنة (٥٨)^(٣).

وقد أجريت له فور ولادته مراسيم الولادة كالأذان والإقامة في أذنيه وحلق رأسه والتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، والعق عنه بكبش والتصدق به على الفقراء.

وكانت ولادته في عهد معاوية والبلاد الإسلامية تعج بالظلم، وتموج بالكوارث والخطوب من ظلم معاوية وجور ولاته الذين نشروا الإرهاب وأشاعوا الظلم في البلاد.

تسميته : وسماه جده رسول الله صلى الله عليه وآله بمحمد، ولقبه بالباقر قبل أن يولد بعشرات السنين، وكان ذلك من أعلام نبوته، وقد استشف صلى الله عليه وآله من وراء الغيب ما يقوم به سبطه من نشر العلم وإذاعته بين الناس فبشر به أمته، كما حمل له تحياته على يد الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري.

كنيته : « أبو جعفر »^(٤) ولا كنية له غيرها .

لقابه الشريفة : وقد دلت على ملامح من شخصيته العظيمة وهي :

١ - الأمين .

٢ - الشبيه : لأنه كان يشبه جده رسول الله صلى الله عليه وآله .^(٥)

٣ - الشاكر .

٤ - الهادي .

٥ - الصابر .

(١) أخبار الدول : ١١١، وفيات الأعيان ٤ : ١٧٤ .

(٢) تاريخ يعقوبي ٢ : ٢٤٨ .

(٣) عن عيون المعجزات : ٦٦ للحسين بن عبد الوهاب .

(٤) دلائل الإمامة : ٢١٦ .

(٥) لاحظ أعيان الشيعة ١ : ٦٥٠، تاريخ يعقوبي ٢ : ٣٢٠، أئمتنا ١ : ٣٣٥ .

٦ - الشاهد^(١).

٧ - الباقر^(٢). وهذا من أكثر ألقابه ذيوعاً وانتشاراً، وقد لقب هو وولده الإمام الصادق بـ (الباقرين) كما لقبا بـ (الصادقين) من باب التغليب^(٣).
ويكاد يجمع المؤرخون والمترجمون للإمام على أنه إنما لقب بالباقر لأنه بقر العلم أي شقه، وتوسع فيه فعرف أصله وعلم خفيه^(٤).
وقيل : إنما لقب به لكثرة سجوده فقد بقر جبهته أي فتحها ووسعها^(٥).

تحيات النبي صلى الله عليه وآله الى الباقر عليه السلام : ويجمع المؤرخون على أن النبي صلى الله عليه وآله حمل الصحابي العظيم جابر بن عبد الله الأنصاري تحياته، الى سبطه الإمام الباقر، وكان جابر ينتظر ولادته بفارغ الصبر ليؤدي إليه رسالة جده، فلما ولد الإمام وصار صبياً يافعاً التقى به جابر فأدى إليه تحيات النبي صلى الله عليه وآله وقد روى المؤرخون ذلك بصورة متعددة منها :

ما رواه ابن عساكر أن الإمام زين العابدين عليه السلام ومعه ولده الباقر دخلا على جابر بن عبد الله الأنصاري، فقال له جابر: من معك يا ابن رسول الله؟ قال: معي ابني محمد، فأخذه جابر وضمه إليه وبكى، ثم قال: اقترب أجلي، يا محمد! رسول الله صلى الله عليه وآله يقرؤك السلام. فسئل: وما ذاك؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «للحسين بن علي يولد لابني هذا ابن يقال له علي بن الحسين، وهو سيد العابدين إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقيم سيد العابدين فيقوم علي بن الحسين، ويولد لعلي بن الحسين ابن يقال له: محمد إذا رأيته يا جابر فاقرأه مني السلام، يا جابر اعلم أن المهدي من ولده، واعلم يا جابر أن بقاءك بعده قليل»^(٦).

(١) راجع جنات الخلود، وناسخ التواريخ. حياة الإمام الباقر عليه السلام.

(٢) تذكرة الحفاظ ١ : ١٢٤ ، نزهة الجليس ٢ : ٣٦.

(٣) عن جامع المقال للشيخ الطريحي: ١٨٥.

(٤) لاحظ عيون الأخبار وفنون الآثار ١ : ٢١٢ - ٢١٣ ، عمدة الطالب: ٣٤٥ ، تذكرة الحفاظ ١ :

١٢٤ - ١٢٥.

(٥) أعيان الشيعة ١ : ٦٥٠ ، الأنوار البهية: ١١٦.

(٦) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥٤ : ٢٧٦.

ثم قال: يا باقر نعت إليّ نفسي فمات في تلك الليلة»^(١).
 ملاحظه: كانت ملامح الإمام محمد الباقر عليه السلام كملامح رسول الله صلّى الله عليه وآله وشماله^(٢) وكما شابه جده النبي صلّى الله عليه وآله في معالي أخلاقه التي امتاز بها على سائر النبيين فقد شابهه في هذه الناحية أيضاً.
 ووصفه بعض المعاصرين له فقال: إنه كان معتدل القامة أسمر اللون^(٣) رقيق البشرة له خال، ضامر الكشح، حسن الصوت مطرق الرأس^(٤).
 ذكاؤه المبكر: وكان عليه السلام في طفولته آية من آيات الذكاء حتى أن جابر ابن عبد الله الأنصاري على شيخوخته كان يأتيه فيجلس بين يديه فيعلمه... وقد بهر جابر من سعة علوم الإمام ومعارفه وطفق يقول:
 «يا باقر اشهد بالله إنك قد أوتيت الحكم صبياً»^(٥).
 وقد عرف الصحابة ما يتمتع به الإمام منذ نعومة أظفاره من سعة الفضل والعلم الغزير فكانوا يرجعون إليه في المسائل التي لا يهتدون إليها ويقول المؤرخون إن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقف على جوابها فقال للرجل: اذهب إلى ذلك الغلام - وأشار إلى الإمام الباقر - فاسأله، وأعلمني بما يجيبك، فبادر نحوه وسأله فأجابه عليه السلام عن مسألته وخف إلى ابن عمر فاخبره بجواب الإمام، وراح ابن عمر يبيدي إعجابه بالإمام قائلاً: «إنهم أهل بيت مفهّمون»^(٦).
 لقد خص الله أئمة أهل البيت عليهم السلام بالعلم والفضل، وزوّدهم بما زوّد أنبياءه ورسله من الفهم والحكمة حتّى أنه لم يخف عليهم جواب مسألة تعرض على أحد

(١) الوافي بالوفيات ٤: ١٠٣، عيون الأخبار ٢: ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) أصول الكافي: ١ / ٤٦٩.

(٣) أخبار الدول: ١١١، جوهره الكلام في مدح السادة الأعلام: ١٣٢.

(٤) أعيان الشيعة ١: ٦٥١.

الكشح: ما بين الخصرة إلى الضلع الخلف، والضامر هو الهزيل والخفيف اللحم. راجع مختار الصحاح.

(٥) علل الشرائع ١: ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٦) المناقب ٤: ١٩٧.

منهم، ويقول المؤرخون: إنّ الإمام كان عمره تسع سنين وقد سئل عن أدق المسائل فأجاب عنها.

هيئته ووقاره: وبدأت على ملامح الإمام عليه السلام هيبة الأنبياء ووقارهم، فما جلس معه أحد إلّا هابه وأكبره وقد تشرف قتادة وهو فقيه أهل البصرة بمقابلته فاضطرب قلبه من هيئته وأخذ يقول له:

«لقد جلست بين يدي الفقهاء وأمام ابن عباس فما اضطرب قلبي من أي أحد منهم مثل ما اضطرب قلبي منك»^(١).

النقطة الثانية: الإمام محمد الباقر في ظلّ جدّه وأبيه عليه السلام

مرّ الإمام الباقر عليه السلام بمرحلة رافقت الكثير من الأحداث والظواهر في ظلّ جدّه وأبيه عليه السلام ويمكن تلخيصها بالشكل التالي:

١ - عاش الإمام الباقر عليه السلام في ظلّ جدّه الحسين عليه السلام منذ ولادته حتى الرابعة من عمره الشريف وقد مكّنه ذلك من الإطلاع على الأحداث والوقائع الاجتماعية والسياسية وإدراك طبيعة سيرها وفهم اتجاه حركتها بما أوتي من ذكاء وفهم منذ صباه.

لقد عاش الإمام الباقر عليه السلام في مستقبل عمره حادثة مصرع أعمامه وأهل بيته الطاهرين، وشاهد بأمر عينيه ملحمة عاشوراء ومقتل جدّه الحسين عليه السلام، وأخذ مأسوراً إلى طواغيت الكوفة والشام وشارك سبايا أهل البيت عليهم السلام فيما جرى عليهم من المحن والمصائب الأليمة التي تتصدّع لها القلوب.

كما استمع إلى أقوال أبيه الساخنة وهو يخاطب الطاغية المتغطرس يزيد في الشام والتي كان منها قوله عليه السلام: «يا يزيد! محمّد هذا جدي أم جدّك؟ فإن زعمت أنه جدّك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدي فلم تقتل عترته؟!»^(٢).

(١) إثبات الهداة ٥: ١٧٦.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٥: ١٥٥، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٩، العوالم: ٤٣٩، لواعج الأشجان: ٣٣٦.

٢ - وعاصر الإمام الباقر عليه السلام في سنة (٦٣ هـ) واقعة الحرّة التي ثار فيها أهل المدينة على حكم يزيد وهو في السادسة من عمره الشريف، حيث شاهد نقض أكابر أهل المدينة وفقهائها لبيعة يزيد الفاجر^(١) ورأى مدينة جدّه عندما أباحها يزيد لجيشه الجاهلي ثلاثة أيام متواليات يقتلون أهلها ، وينهبون أموالهم ويهتكون أعراضهم^(٢).

٣ - عاصر الإمام الباقر عليه السلام في هذه المرحلة من حياته الانحراف الفكري الذي تسبب الأمويون في إيجاده مثل بثّهم للعقائد الباطلة كالجبر والتفويض والإرجاء خدمةً لسلطانهم؛ لأنّ هذه المفاهيم تستطيع أن تجعل الأمة مستسلمة للحكام الطغاة ما دامت تبرّر طغيانهم وعصيانهم لأوامر الله ورسوله.

٤ - ومن الظواهر التي عاصرها الإمام محمّد الباقر عليه السلام وهو في ظلّ أبيه السجّاد عليه السلام ظاهرة الانحراف السياسي وتتمثل في تحويل الأمويين للخلافة إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويوزعون فيه المناصب الحكومية على ذويهم وأقاربهم .

وعاصر عليه السلام محنة عداء الأمويين للعلويين الذي تمثل في ظاهرة سبّهم لجدّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام على المنابر طيلة ستة عقود.

٥ - ومن الأحداث البارزة في حياة الإمام الباقر عليه السلام توالي الثورات المسلحة على الحكم الأموي بعد واقعة كربلاء الخالدة، ففي سنة (٦٣ هـ) ثار أهل المدينة، وفي سنة (٦٥ هـ) ثار التوابون ، وفي سنة (٦٦ هـ) ثار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وثار الزبيريون، وفي سنة (٧٧ هـ) ثار المطرّف بن المغيرة بن شعبة، وفي سنة (٨١ هـ) تمرّد عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث على حكومة عبد الملك بن مروان^(٣).

(١) تاريخ الخميس ٢ : ٣٠٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ٤ : ١١٣ .

(٣) البداية والنهاية ٩ : ٤٤ .

٦ - وانتشرت في هذه الفترة ظاهرة وضع الحديث المؤلمة فقد ركّز الأمويون على هذه الأداة لخدمة سلطانهم ، حتّى روى ابن عرفة المعروف بنفطويه في تاريخه أنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة كانت في أيام بني أمية تقريباً إليهم بما يظنون أنهم يُرغمون أنوف بني هاشم ^(١).

٧ - أما الانحراف الأخلاقي والاجتماعي فقد استشرى في أوساط الأمة حيث اشتهر يزيد بن معاوية بفسقه إذ كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب والقروذ ويقضي أوقاته بين المغنّين والمغنّيات وشاع عنه ذلك وعرفه عامّة الناس. وكان مروان بن الحكم أيضاً فاحشاً بذيئاً ، كما كان أولاده وأحفاده على شاكلته ^(٢).

وأشاع الأمويّون بين المسلمين روح التعصّب فقرّبوا العرب وأبعدوا غير العرب وأثاروا الشعوبية فمزّقوا بذلك وحدة الصف الإسلامي وأثاروا الأحقاد وزرعوا بذور الشر في قلوب أبناء المجتمع الإسلامي .

٨ - وعاش الإمام الباقر عليه السلام في هذه المرحلة من حياته في ظلّ سيرة أبيه عليه السلام بكل وجوده الذي كان يركّز نشاطه على إعادة بناء المجتمع الإسلامي وتشديد دعائم العقيدة الإسلامية القويمة، حيث كان يحاول الإمام زين العابدين عليه السلام من خلال بثّ القيم العقائدية والأخلاقية عبر الأدعية وتوجيه رسائل الحقوق وما شابه ذلك صياغة كيان الجماعة الصالحة التي كان عليها أن تتولى عمليّة التغيير في المجتمع الذي راح يتردّى باستمرار.

٩ - وقف الإمام الباقر عليه السلام مواقف أبيه من الثورات والحركات المسلحة التي كانت تهدف إلى إسقاط النظام الفاسد إذ كان يرشدها ويقودها بصورة غير مباشرة من دون أن يعطي للحكام أي دليل يدل على التنسيق مع الثوّار ضد الحكم الأموي الغاشم .

(١) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ١١ : ٤٦ .

١٠ - إنَّ التنصيب من الإمام السَّجَّادِ (ع) على إمامة ابنه الباقر يعود تاريخاً إلى النصوص التي وردت عن رسول الله ﷺ والأئمة من بعده ونصّت على إمامة اثني عشر إماماً بعد رسول الله كلهم من قریش وبنی هاشم، وتداولها الصحابة والتابعون واستند إليها أهل البيت (ع).

ومن تلك النصوص التي ورد فيها اسم الإمام الباقر (ع) بشكل خاص: النصّ الذي رواه جابر بن عبد الله الأنصاري وقد جاء في هذا النصّ ما يلي: «...فقال: يا رسول الله وَمَنْ الأئمة من ولد عليّ بن أبي طالب؟ قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ثم سيد العابدين في زمانه عليّ بن الحسين، ثم الباقر محمد بن عليّ وستدركه يا جابر، فإذا أدركته فاقرأه مني السلام»^(١).

وجاء في نصّ آخر أنّ رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يولد لابني هذا - يعني الحسين - ابن يقال له: عليّ، وهو سيد العابدين... ويولد له محمد، إذا رأيته يا جابر فاقرأه مني السلام، واعلم أنّ المهدي من ولده...»^(٢).

١١ - وكان الإمام زين العابدین (ع) يوجّه الأنظار إلى إمامة ابنه الباقر (ع)، ويستثمر الفرص لإعلانها أمام أبنائه أو بعض أبنائه أو خاصّته وثقاته، يصرّح تارة بها ويلمّح إليها تارة أخرى.

فحينما سأله ابنه عمر عن سرّ اهتمامه بالباقر (ع) أجابه: «إنّ الإمامة في ولده إلى أن يقوم قائمنا (ع) فيملأها قسطاً وعدلاً، وإنّه الإمام أبو الأئمة...»^(٣).

وفي مرضه الذي توفي فيه سأله الزهري قائلاً: فإلى من نختلف بعدك؟ فأجاب (ع): «يا أبا عبد الله إلى ابني هذا - وأشار إلى محمد ابنه - وإنّه وصيّ ووارثي وعيبة علمي ومعدن العلم وباقر العلم»، فقال له الزهري: يا ابن رسول الله هلاًّ أوصيت

(١) كفاية الأثر: ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٣: ٧٨، تاريخ يعقوبي ٢: ٢٤٩، سير أعلام النبلاء ٤: ٤٠٤.

(٣) كفاية الأثر: ٢٣٧ - ٢٣٨.

إلى أكبر أولادك؟ فقال عليه السلام: «يا أبا عبد الله ليست الإمامة بالصغر والكبر، هكذا عهد إلينا رسول الله ﷺ وهكذا وجدنا مكتوباً في اللوح والصحيفة»^(١).

وفي أيامه الأخيرة جمع الإمام زين العابدين عليه السلام أولاده: محمد والحسن وعبد الله وعمر وزيد والحسين، وأوصى إلى ابنه محمد... وجعل أمرهم إليه^(٢).

وفي الساعات الأخيرة من حياته التفت عليه السلام إلى ولده وهم مجتمعون عنده، ثم التفت إلى ابنه الباقر عليه السلام فقال: «يا محمد هذا الصندوق اذهب به إلى بيتك». أما أنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكن كان مملوءاً علماً^(٣).

* * *

(١) كفاية الأثر: ٢٤٣.

(٢) كفاية الأثر: ٢٣٩.

(٣) الكافي ١: ٣٠٥، لاحظ إعلام الوري ١: ٥٠٠.

الفصل الثالث

الحركة الإصلاحية العامة للإمام الباقر عليه السلام

ويقع الكلام في هذا الفصل في المحاور التالية:
المحور الأول: الإصلاح الفكري والعقائدي

من الأزمات التي خلفتها سيرة الحكّام السابقين أزمة ارتباك المفاهيم وما رافقها من تقليد وسطحية في الفكر، فلم تتجلّ حقيقة التصور الإسلامي عند الكثير من المسلمين لكثرة التيارات الهدّامة ونشاطها في تحريف المفاهيم السليمة وتزييف الحقائق.

وقد مارس الإمام عليه السلام عدة نشاطات لإصلاح الأفكار والعقائد، نشير الى أهمها وهي:

١ - الردّ على الأفكار والعقائد الهدّامة والمذاهب المنحرفة

وجد المنحرفون لأفكارهم وعقائدهم الهدّامة أوساطاً تتقبّلها وتروج لها - جهلاً أو طمعاً أو تأمراً على الإسلام الخالد، وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام نشطت حركة الغلاة بقيادة المغيرة بن سعيد العجلي.

روى عليّ بن محمّد النوفلي أنّ المغيرة إستأذن على أبي جعفر عليه السلام وقال له: اخبر الناس أنّي أعلم الغيب، وأنا أطعمك العراق، فزجره الإمام عليه السلام زجراً شديداً وأسمعه ما كره، فانصرف عنه، ثم أتى أبا هاشم عبدالله بن محمّد ابن الحنفية فقال له مثل ذلك، فوثب عليه، فضربه ضرباً شديداً أشفى به على الموت، فلمّا برئ أتى الكوفة وكان مشعبداً فدعا الناس الى قوله واستغواهم فاتّبعه خلق كثير ^(١).

واستمرّ الإمام عليه السلام في محاصرة المغيرة والتحذير منه وكان الإمام الصادق عليه السلام يلعنه أمام الناس ويقول: « لعن الله المغيرة بن سعيد كان يكذب على أبي » ^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة ٨ : ١٢١.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ : ٢٩٧.

ولعن عليه السلام بقية رؤساء الغلاة ومنهم بنان التبان، فقال: «لعن الله بنان التبان، وإن بنانا لعنه الله كان يكذب على أبي»^(١).

وكان عليه السلام يحذر المسلمين وخصوصاً أنصار أهل البيت عليهم السلام من أفكار الغلو، ويرشدهم الى الاعتقاد السليم، بقوله:

«لا تضعوا عليّ دون ما وضعه الله، ولا ترفعوه فوق ما رفعه الله»^(٢).

وكان عليه السلام يخاطب أنصاره قائلاً: «يا معشر الشيعة شيعة آل محمد كونوا النمرقة الوسطى: يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي»^(٣).

وحذر عليه السلام من المرجئة ولعنهم حين قال: «اللهم العن المرجئة فإنهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»^(٤).

وكان ممّا ركّز عليه الإمام عليه السلام في هذا المجال بيان مقومات التوحيد ونفي التشبيه والتجسيم لله تعالى.

قال عليه السلام: «يا ذا الذي كان قبل كل شيء، ثم خلق كل شيء، ثم يبقى ويفنى كل شيء، ويا ذا الذي ليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى، ولا فوقهنّ، ولا بينهنّ ولا تحتهنّ إله يعبد غيره»^(٥).

كما ركّز الإمام الباقر عليه السلام على العبودية الخالصة لله ونهى عن الممارسات التي تتضمن الشرك بالله تعالى.

قال عليه السلام: «لو أنّ عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله عزّ جلّ والدار الآخرة، فأدخل فيه رضى أحد من الناس كان مشركاً»^(٦).

(١) بحار الأنوار ٢٥ : ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق ٢٥ : ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق ٦٧ : ١٠١.

(٤) المصدر السابق ٤٦ : ٢٩١.

(٥) المصدر السابق ٣ : ٢٨٥.

(٦) المصدر السابق ٦٩ : ٢٩٧.

ومما ركّز عليه الإمام الباقر عليه السلام الردع عن اتباع المذاهب المنحرفة والأفكار الهدّامة وبيان عاقبة أهل الشبهات والأهواء والبدع، واستهدف الإمام عليه السلام من التركيز على عاقبة المنحرفين فكرياً وعقائدياً إبعاد المسلمين عن التأثير بهم، وإزالة حالة الأُنس والألفة بينهم وبين الأفكار والعقائد المنحرفة.

٢ - إدانة فقهاء البلاط

جاء قتادة بن دعامة البصري إلى الإمام عليه السلام وقد هياً له أربعين مسألة ليمتحنه بها، فقال له عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال قتادة: نعم، فقال عليه السلام: «ويحك يا قتادة إنّ الله عزّ وجل خلق خلقاً، فجعلهم حجباً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه، قوّام بأمره، نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه»، فسكت قتادة طويلاً، ثم قال: أصلحك الله، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء، وقدّام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدّام أحد منهم ما اضطرب قدّامك^(١).

وأدان الإمام الباقر عليه السلام أبا حنيفة لقوله بالقياس، وعلّق الأستاذ محمّد أبوزهرة على هذه الإدانة قائلاً: تتبيّن إمامة الباقر للعلماء، يحاسبهم على ما يبدو منهم، وكأنّه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادة، وهم يقبلون طائعين تلك الرئاسة^(٢).

٣ - الدعوة إلى أخذ الفكر من مصادره النقيّة

لقد حذّر الإمام عليه السلام الناس من الوقوع في شرك الأفكار والآراء والعقائد المنحرفة، وحذّر من البدع وجعلها أحد مصاديق الشرك فقال: «أدنى الشرك أن يبتدع الرجل رأياً فيُحبّ عليه ويبغض»^(١).

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٣٥٧.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية: ٦٨٩.

كما حذّر من الإفتاء بالرأي فقال: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه»^(٢).

ومن هنا كان يدعو الناس الى أخذ العلم والفكر من منابعه النقية وهم أهل البيت المعصومون من كل زيغ وانحراف. قال عليه السلام لسلمة بن كهيل وللحكم بن عتيبة: «شرفاً وغرباً فلا تجدان علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا»^(٣).

٤ - نشر علوم أهل البيت عليهم السلام

قد فتح الإمام عليه السلام أبواب مدرسته العلمية لعامة أبناء الأمة الإسلامية، حتى وفد إليها طلاب العلم من مختلف البقاع الإسلامية، وأخذ عنه العلم عدد كبير من المسلمين بشتى اتجاهاتهم وميولهم، منهم: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والزهري، وربيعه الرأي، وابن جريج، والأوزاعي، وبسام الصيرفي^(٤)، وأبو حنيفة وغيرهم^(٥).

وفي ذلك قال عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه متعلم^(٦).

وكانت أحاديثه مسندة عن آبائه عن رسول الله ﷺ، كما كان يرسل الحديث ولا يسنده. وحينما سئل عن ذلك، قال: «إذا حدثت بالحديث فلم اسنده، فسندي فيه أبي زين العابدين عن أبيه الحسين الشهيد عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن الله عز وجل»^(٧).

(١) المحاسن: ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٥.

(٣) الكافي ١: ٣٩٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤: ٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) تاريخ المذاهب الإسلامية ٢: ١٣٦.

(٦) مختصر تاريخ دمشق ٢٣: ٧٩.

(٧) إعلام الوري ١: ٥٠٨ - ٥٠٩.

المحور الثاني: تأسيس المدرسة الفقهية النموذجية^(١)

لقد جهد الإمام الباقر وولده الصادق عليهما السلام على نشر الفقه الإسلامي وتبنيًا نشره بصورة إيجابية في وقت كان المجتمع الإسلامي غارقاً في الأحداث والاضطرابات السياسية، حيث أهملت الحكومات في تلك العصور الشؤون الدينية إهمالاً تاماً، حتى لم تعد الشعوب الإسلامية تفقه من أمور دينها القليل ولا الكثير، يقول الدكتور علي حسن: «وقد أدى تتبعنا للنصوص التاريخية إلى أمثلة كثيرة تدل على هذه الظاهرة - أي إهمال الشؤون الدينية - التي كانت تسود القرن الأول سواء لدى الحكام أو العلماء أو الشعب، ونعني بها عدم المعرفة بشؤون الدين، والتأرجح وعدم الجزم والقطع فيها حتى في العبادات، فمن ذلك ما روي أن ابن عباس خطب في آخر شهر رمضان على منبر البصرة فقال: اخرجوا صدقة صومكم فكان الناس لم يعلموا، فقال: من ها هنا من أهل المدينة؟ فقوموا إلى إخوانكم فعلموهم، فإنهم لا يعلمون فرض رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٢).

فأهل البلاد الإسلامية لم يعرفوا شؤون دينهم معرفة كافية، وقد كان يوجد في بلاد الشام من لا يعرف عدد الصلوات المفروضة، حتى راحوا يسألون الصحابة عن ذلك^(٣).

إنّ النشاط الذي قام به الإمام الباقر والصادق عليهما السلام في نشر الفقه وبيان أحكام شريعة الله كان من أعظم الخدمات التي قدّماها للعالم الإسلامي.

وسعى إلى الأخذ من علومهما أبناء الصحابة والتابعون، ورؤساء المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة ومالك وغيرهما، وتخرج على يد الإمام أبي جعفر عليه السلام جمهرة كبيرة من الفقهاء كزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم وأبان بن تغلب، وإليهم يرجع الفضل في تدوين أحاديث الإمام عليه السلام وقد أصبحوا من مراجع الفتيا بين

(١) حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام، باقر شريف القرشي ١: ٢١٥ - ٢٣١.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢: ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٣) سنن النسائي ١: ٢٣٠.

المسلمين، وبذلك أعاد الإمام أبو جعفر عليه السلام للإسلام نضارته وحافظ على ثرواته الدينية من الضياع والضمور.

ومن الجدير بالذكر أنّ الشيعة هم أول من سبق إلى تدوين الفقه . فقد قال مصطفى عبد الرزاق: «ومن المعقول أن يكون النزوع إلى تدوين الفقه أسرع إلى الشيعة لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حرياً إلى تدوين أفضيتهم وفتاواهم»^(١).

المحور الثالث : الإصلاح السياسي

استثمر الإمام عليه السلام بعض ظروف الانفراج السياسي النسبي من أجل بناء وتوسعة القاعدة الشعبية، وتسليحها بالفكر السياسي السليم المنسجم مع رؤية أهل البيت عليهم السلام، وتعبئة الطاقات لاتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب، ولهذا لم تنطلق أي ثورة علوية في عهده، لعدم إكمال شروطها من حيث العدد والعدد. وكان الإمام عليه السلام يقدم للأمة المفاهيم والأفكار السياسية الأساسية مع الحيطة والحذر؛ وكانت له مواقف سياسية صريحة من بعض الحكام لإعادتهم الى جادة الصواب.

وقد تجلّى نشاطه الإصلاحي السياسي في الممارسات التالية :

١ - الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقد جاءت تأكيدات الإمام عليه السلام على هذه الفريضة التي جعلها شاملة لجميع مرافق الحياة الإنسانية حيث قال: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر، فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم...»^(٢).

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: ٢٠٢.

(٢) تهذيب الأحكام ٦ : ١٨١.

وحذر عليه السلام من مغبة التخلي عن المسؤولية، ومداهنة المنحرفين حكماً كانوا أم من سائر أفراد الأمة فقال: «أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام إنني لمعذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟

فأوحى الله عز وجل إليه: إنهم داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي»^(١). وحث عليه السلام على هذه المسؤولية وبيّن آثار التخلي عنها فقال: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله عز وجل، فمن نصرهما أعزه الله، ومن خذلهما خذله الله عز وجل»^(٢).

٢ - نشر المفاهيم السياسية السليمة

وجّه الإمام عليه السلام الأنظار إلى دور أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأمة، وتوجيهها نحو الاستقامة والرشاد فقال: «نحن ولادة أمر الله وخزائن علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبنا إيمان، وبغضنا كفر، محبتنا في الجنة، ومبغضنا في النار»^(٣). وحذر الأمة من الابتعاد عن نهج أهل البيت عليهم السلام فقال عليه السلام: «برئ الله ممن يبرأ منّا، لعن الله من لعننا، أهلك الله من عادانا»^(٤).

وأكد على أنّ طرق تولّي الإمام لمنصب الإمامة منحصرة بالنصّ والوصية، ولا عبرة بما هو الشائع من البيعة والعهد والغلبة، ومما جاء في ذلك قوله عليه السلام: «كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهل فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شائن لأعماله...»^(٥).

(١) تهذيب الأحكام ٦ : ١٨١.

(٢) الخصال ١ : ٤٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٤ : ٢٠٦.

(٤) بحار الأنوار ٢٧ : ٢٢٢.

(٥) الكافي ١ : ١٨٣.

وبين مواصفات الإمام لكي تتمكن الأمة من التمييز والتشخيص في خضم الأحداث التي حُرِّفت فيها المفاهيم وزُوِّرت فيها الحقائق فقال عليه السلام: «إنَّ الإمامة لا تصلح إلا للرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي، حتى يكون له كالوالد الرحيم»^(١).

٣ - فضح الواقع الأموي

كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأموي وكيفية وصوله الى الحكم، وما مارسه من أعمال لإدامة السيطرة على رقاب المسلمين، ووضَّح الجرائم التي ارتكبتها سلف هؤلاء الحكَّام في حقَّ أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم، فبعد أن بيَّن ملابسات الخلافة، وكيفية الاستحواذ عليها وإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم فيها، قال: «... وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام فَقَتَلَتْ شِيعَتُنَا بِكُلِّ بَلَدَةٍ، وَقَطَعَتْ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ عَلَى الظَّنَّةِ، وَكَانَ مِنْ يَذْكُرُ بَحْبِنًا وَالْأَنْقِطَاعَ إِلَيْنَا سُجْنًا أَوْ نُهْبَ مَالِهِ، أَوْ هُدِمَتْ دَارِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ يَشْتَدُّ وَيَزْدَادُ إِلَى زَمَانِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ قَاتِلِ الْحُسَيْنِ عليه السلام ثُمَّ جَاءَ الْحِجَاجُ فَقَتَلَهُمْ كُلَّ قَتْلَةٍ، وَأَخَذَهُمْ بِكُلِّ ظَنٍّ وَتَهْمَةٍ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيُقَالُ لَهُ: زَنْدِيقٌ أَوْ كَافِرٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُقَالَ: شِيعَةٌ عَلِيٌّ، وَحَتَّى صَارَ الرَّجُلُ الَّذِي يَذْكُرُ بِالْخَيْرِ - وَلَعَلَّهُ يَكُونُ وَرِعًا صَدُوقًا - يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثٍ عَظِيمَةٍ عَجَبِيَّةٍ، مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضٍ مِنْ قَدِ سَلَفٍ مِنَ الْوَلَاةِ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْهَا، وَلَا كَانَتْ وَلَا وَقَعَتْ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهَا حَقٌّ لِكَثْرَةِ مَنْ قَدْ رَوَاهَا مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ بِكَذِبٍ، وَلَا بِقُلَّةِ وَرَعٍ»^(٢).

(١) الخصال ١: ١١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٤٣ - ٤٤.

٤ - الدعوة الى مقاطعة الحكم القائم

دعا عليه السلام الى مقاطعة الحكم الجائر ونهى عن إسناده بأي شكل من أشكال المساندة وإن كانت لا تتعلق بسياستهم، فقال عليه السلام - في معرض جوابه عن العمل معهم -: «ولا مدة قلم، إن أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينه مثله»^(١). ووضح أساسيات التعامل مع الحكام الجائرين والفاستين بقوله: «لا دين لمن دان بطاعة من عصي الله»^(٢).

وأكد عليه السلام أن تكون العلاقة بهم علاقة التوجيه والإرشاد، والقيام بأداء مسؤولية الوعظ فقال: «من مشى الى سلطان جائر، فأمره بتقوى الله، وخوفه ووعظه كان له مثل أجر الثقلين من الجن والإنس، ومثل أعمالهم»^(٣).

واستثنى عليه السلام المواقف التي تتخذ من أجل مصلحة الإسلام الكبرى، فجوز إسنادهم بالسلاح إن كان القتال مع أعداء الإسلام، لأنهم يدفعون بالسلاح العدو المشترك، قال عليه السلام لمن كان يحمل إليهم السلاح: «إحمل إليهم، فإن الله يدفع بهم عدونا وعدوكم - يعني الروم - وبهم، فإذا كانت الحرب بيننا فلا تحملوا»^(٤).

وقال عليه السلام في حق حكام الجور: «إن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله والحق، قد ضلوا بأعمالهم التي يعملونها»^(٥).

المحور الرابع : الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي

بذل الإمام عليه السلام عناية فائقة لإصلاح الأخلاق وتغيير الأوضاع الاجتماعية باتجاه القواعد والموازن والقيم العليا الثابتة في الشريعة الإسلامية.

(١) الكافي ٥ : ١٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٢ : ١٢١.

(٣) المصدر السابق ٧٢ : ٣٧٥.

(٤) الكافي ٥ : ١١٢، كتاب المعيشة، باب بيع السلاح منهم.

(٥) المحاسن: ٩٣.

وكان عليه السلام يستثمر جميع الفرص المتاحة للإصلاح والتغيير وبناء واقع جديد، ولهذا تعددت أساليبه الإصلاحية والتغيرية في المجال الأخلاقي والاجتماعي. وإليك بعض نشاطاته في هذا المجال:

١ - الدعوة لتطبيق السنة النبوية

قام الإمام عليه السلام بنشر الأحاديث النبوية الشريفة المرتبطة بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية لكي تكون هي الحاكمة على الممارسات السلوكية والعلاقات الاجتماعية، ولكي تكون نبراساً لأفراد المجتمع بمختلف طبقاتهم في مسيرتهم الإنسانية، تنطلق بهم نحو السمو والتكامل، والارتقاء للوصول الى المقامات العالية التي وصل إليها الصالحون والأولياء.

وكان عليه السلام - من خلال نشر هذه الأحاديث النبوية - يشير الى العوامل الأساسية في صلاح الأخلاق والأوضاع الاجتماعية، وهي صلاح الفقهاء والأمراء، فقد روى عليه السلام قول جده عليه السلام: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي... الفقهاء والأمراء»^(١).

ودعا عليه السلام الى إخلاص النصيحة والإيثار في الممارسة الإصلاحية في ضوء ما جاء عن جده رسول الله عليه السلام: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»^(٢).

وأكد عليه السلام دعوة رسول الله عليه السلام الى العفة وتعجيل الخير بقوله: «إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف»^(٣). وقوله عليه السلام: «إن الله يحب من الخير ما يعجل»^(٤).

وأكد عليه السلام الأحاديث الداعية الى حسن الخلق والكف عن أعراض المؤمنين منها قوله عليه السلام: «والذي لا اله الا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة الا بحسن ظنه بالله ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين»^(٥).

(١) الخصال ١: ٣٦ - ٣٧.

(٢) الكافي ٢: ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ٢: ١١٢.

(٤) المصدر السابق ٢: ١٤٢.

(٥) المصدر السابق ٢: ٧٢.

وقال عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال»^(١).

ودعاء عليه السلام إلى إدخال السرور على المؤمن كما ورد في قول رسول الله ﷺ: «من سرَّ مؤمناً فقد سرنى ومن سرنى فقد سر الله»^(٢).
وحدث عليه السلام على صلة الرحم بقوله عليه السلام: «إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم»^(٣).

٢ - الدعوة إلى مكارم الأخلاق

كثف الإمام عليه السلام دعوته إلى إصلاح مكارم الأخلاق لتكون هي العلامة الفارقة لتعامل المسلمين فيما بينهم، فكان عليه السلام يدعو إلى إفشاء السلام وهو مظهر من مظاهر روح الإخاء والود والمحبة والصفاء في العلاقات الاجتماعية حتى قال عليه السلام: «إن الله يحب إفشاء السلام»^(٤).

ودعا إلى العفة واعتبرها أفضل العبادة، فقال: «أفضل العبادة عفة البطن والفرج»^(٥).

ودعا إلى تطهير اللسان وتقييده بقيود شرعية، لإدامة العلاقات بين الناس، فقال عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله يبغض اللعان السبّاب الطعان على المؤمنين، الفاحش المتفحش، السائل الملحف، ويحب الحيي الحليم العفيف المتعفف»^(٦).

ووضّح كيفية التعامل مع مختلف طبقات المجتمع فقال: «صانع المنافق بلسانك، وأخلص مودتك للمؤمن، وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته»^(٧).

(١) الكافي ١ : ٦٠.

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٨٨.

(٣) المصدر السابق ٢ : ١٥٢.

(٤) تحف العقول : ٣٠٠.

(٥) المصدر السابق : ٢٩٦.

(٦) المصدر السابق : ٣٠٠.

(٧) المصدر السابق : ٢٩٢.

وبين أسس التعامل مع مختلف الأصناف من الناس فقال: «أربع من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه»^(١).

ودعاء النبي إلى الارتباط بأهل التقوى وتعميق أواصر العلاقات بهم لما اختصوا به من خصائص تؤثر على المصاحبين لهم تأثيراً إيجابياً لتجسيد المثل والقيم الإسلامية في الواقع، قال النبي: «إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله»^(٢).
ووضح النبي بعض حقوق المؤمن على المؤمن فقال: «إن المؤمن أخ^(٣) المؤمن لا يشتمه ولا يجرمه ولا يسيء به الظن»^(٤).

وقال النبي: «من اغتیب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره، ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه خفضه الله في الدنيا والآخرة»^(٥).

وحذر من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم فقال: «من أعان على مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله»^(٦).
ودعا إلى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة فقال: «ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك»^(٧).

* * *

(١) الخصال ١: ٢٢٣.

(٢) صفة الصفوة ٢: ١٠٩.

(٣) هكذا جاء في الروايات والصحيح هو «أخو».

(٤) تحف العقول: ٢٩٦.

(٥) المحاسن: ١٠٣.

(٦) المصدر السابق.

(٧) تحف العقول: ٢٩٣.

الفصل الرابع

الإمام الباقر عليه السلام وبناء الجماعة الصالحة^(١)

إن إصلاح الأوضاع الاجتماعية يتوقف على وجود جماعة صالحة تقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الإسلام وإلى المنهج السليم الذي تبناه أهل البيت عليهم السلام، إستناداً إلى الأوامر الإلهية في تشكيل الأمة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر .

ولهذا سعى الأئمة المعصومون عليهم السلام إلى بناء الجماعة الصالحة ورسم المعالم واللامح اللازمة لها لتكون الطليعة الواعية المخلصة لتبني مسؤولية الإصلاح والتغيير طبقاً لمنهج أهل البيت عليهم السلام.

وقد شرع أهل البيت عليهم السلام في تكوين الجماعة الصالحة منذ عهد رسول الله ﷺ، فإنه إلى جانب تبليغه العام قام بإعداد مجموعة صالحة تهتم بالدعوة إلى الله على بصيرة ووعي وأبدى لهم عناية فائقة حيث خصص لهم أوقاتاً خاصة، وكلف الإمام علياً عليه السلام بإعداد آخرين .

واستمر الإمام علي عليه السلام بعد رحيل رسول الله ﷺ بإنجاز هذه المهمة، وكرّس جهوده لتهيئة الطليعة والكوادر الرسالية. وقد أثمرت نشاطاته حينما عادت له السلطة، وكان لتلك الكتلة الصالحة دور كبير في إخماد الفتن الداخلية وتقرير منهج أهل البيت عليهم السلام في الواقع العملي.

(١) اعتمدنا في هذا البحث بشكل أساسي على الكتاب القيم الذي نشره المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) «دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة» لسماحة السيد محمد باقر الحكيم رحمته الله واستخلصنا منه ما يناسب حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام بشكل خاص من هذه الموسوعة.

وواصل الإمام الحسن عليه السلام مسيرة جده وأبيه ، حيث كان أحد بنود الهدنة مع معاوية هو إيقاف الملاحقة لأنصاره وأنصار أبيه ، وتفرغ الإمام عليه السلام بعد الهدنة لتوسيع قاعدة الجماعة الصالحة لتقوم بأداء دورها في الوقت والظرف المناسب . وبالفعل قامت بالتصدي للانحراف الأموي في عهد يزيد ، وشاركت مع الإمام الحسين عليه السلام في حركته المسلحة للإطاحة بالحكم الجائر .

وكان للجماعة الصالحة دور كبير في قيادة الثورات المسلحة ضد الحكم الأموي على طول الخط، كثورة أهل المدينة ، وثورة المختار ، وثورة التوابين، التي أعقبت ثورة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية وكان لمجموعها دور كبير في إرساء دعائم منهج أهل البيت عليهم السلام وتعميقه وتجذيره في العقول والقلوب والممارسات السلوكية والتعجيل في زوال الحكومات الجائرة.

واستمر الإمام زين العابدين عليه السلام في استثمار الفرص المتاحة لتكملة البناء الذي شيده من سبقه من الأئمة الأطهار، فقد تمتع بحرية نسبية في إعداد الطليعة الرسالية في عهد عبد الملك بن مروان ، لتكون ذراعاً لحركة أهل البيت عليهم السلام في عهده.

واستمر الإمام الباقر عليه السلام في تشييد هذا الصرح ورفده بعناصر جديدة لتستمر الحركة الإصلاحية على منهج أهل البيت عليهم السلام وتقريره في واقع الحياة ، فقد ربّى عليه السلام مجموعة من الفقهاء المصلحين وعلى رأسهم : زرارة بن أعين ، ومعروف بن خربوذ ، وأبو بصير الأسدي ، والفضيل بن يسار ، ومحمد بن مسلم الطائفي ، وبريد بن معاوية العجلي .

وتنوّعت مهمة الجماعة الصالحة ، فمنهم الفقهاء ، ومنهم قادة الثورات ، ومنهم المصلحون الذين كانوا يجوبون الأمصار لتعميق منهج أهل البيت عليهم السلام في القلوب والنفوس .

وكانت المهمة الأساسية للإمام الباقر عليه السلام بعد العقود الثلاثة من النشاط المستمر للإمام زين العابدين عليه السلام بهذا الاتجاه هي رسم المعالم التفصيلية للجماعة الصالحة وبيان كل ما يلزم لتكوين المجتمع الإسلامي النموذجي في وسط التيارات المنحرفة

التي ملأت الساحة الإسلامية العامّة، وهي الى جانب كونها النموذج المطلوب للأمة المسلمة الرائدة تكون الذراع الحقيقي للأئمة عليهم السلام لإقرار الإسلام الشامل في المجتمع الإسلامي الآخذ بالتمادي في الانحراف والانهيار؛ إذ من خلالها يكون النشاط الحقيقي للإمام الباقر عليه السلام في مرحلته الخاصة التي تجلّت في رسم هذه المعالم وإقرارها وتربية الأجيال عليها. وهي المهمة التي اشترك فيها أبوه الإمام زين العابدين وابنه الإمام الصادق وحفيده الإمام الكاظم عليهم السلام.

وسوف نستعرض في ما يلي بعض جوانب نشاط الإمام الباقر عليه السلام في هذا المجال في النقاط التالية:

النقطة الأولى: الإمام الباقر عليه السلام ومقومات الجماعة الصالحة

١ - العقيدة السليمة

في خضم الأحداث والمواقف المتباينة والمتناقضة جراء تعدد التيارات الفكرية والعقائدية ، واضطراب عقول الكثير من المسلمين ، لابتعادهم عن إدراك أسس العقيدة السليمة ، قام الإمام عليه السلام بدور كبير في بيان العقيدة السليمة للجماعة الصالحة؛ لتقوم بدورها في إصلاح المفاهيم والأفكار ، ونشر عقيدة أهل البيت عليهم السلام في مختلف الأوساط وعلى جميع المستويات .

لقد بين الإمام عليه السلام الأسس العامة للتوحيد ، فعن حريز بن عبدالله ، وعبدالله بن مسكان قالا : قال أبو جعفر عليه السلام : « لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبعة : بمشيئة ، وإرادة ، وقضاء ، وإذن ، وكتاب ، وأجل ، فمن زعم أنه يقدر على نقض واحدة منهن فقد كفر » ^(١).

(١) المحاسن : ٢٤٤ .

وَبَيَّنَ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ تَمَيِّزاً لِعَقِيدَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الْعَقَائِدِ الْآخَرَى فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « لَمْ تَرَهُ الْأَبْصَارُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ ، لَا يَدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ ، مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ ، مَنَعُوتٌ بِالْعَلَامَاتِ ، لَا يَجُورُ فِي قَضِيَّتِهِ ، بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَبَانَ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ »^(١).

وَبَيَّنَ حُدُودَ الْوَصْفِ لِلَّهِ تَعَالَى فَنَهَى عَنِ التَّكَلُّمِ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهُ مِنْ آرَاءٍ وَمُفَاهِيمٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « تَكَلَّمُوا فِيمَا دُونَ الْعَرْشِ ، وَلَا تَكَلَّمُوا فِيمَا فَوْقَ الْعَرْشِ ، فَإِنَّ قَوْمًا تَكَلَّمُوا فِي اللَّهِ فَتَاهُوا . . . »^(٢).

وَبَيَّنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْيَارِي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فَقَالَ: « الْإِيمَانُ إِقْرَارٌ وَعَمَلٌ ، وَالْإِسْلَامُ إِقْرَارٌ بِلَا عَمَلٍ »^(٣).

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « الْإِيمَانُ مَا كَانَ فِي الْقَلْبِ ، وَالْإِسْلَامُ مَا عَلَيْهِ التَّنَاقُحُ وَالتَّوَارُثُ وَحَقْنَتْ بِهِ الدَّمَاءُ ، وَالْإِيمَانُ يَشْرِكُ الْإِسْلَامَ ، وَالْإِسْلَامُ لَا يَشْرِكُ الْإِيمَانَ »^(٤).

وَبَيَّنَ حُدُودَ وَلَايَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحُدُودَ شَفَاعَتِهِمْ فَقَالَ: « يَا جَابِرُ! وَاللَّهِ مَا يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا بِالطَّاعَةِ ، وَمَا مَعْنَا بَرَاءَةٍ مِنَ النَّارِ ، وَلَا عَلَى اللَّهِ لِأَحَدٍ مِنْ حُجَّةٍ ، مَنْ كَانَ لِلَّهِ مَطِيعًا فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ ، وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ ، وَلَا تَنَالُ وَلَا يَتَنَا إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ »^(٥).

وَحَذَّرَ أَتْبَاعَهُ مِنَ التَّأَثُّرِ بِأَفْكَارٍ وَاعْتِقَادَاتٍ الْغَلَاةِ لِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِلتَّوْحِيدِ ، وَمُخَالِفَةٌ لِلْمَنْهَجِ الْعَقَائِدِيِّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢ - مَرَجِعِيَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) مختصر تاريخ دمشق: ٢٣ / ٨٠ - ٨١.

(٢) المحاسن: ٢٣٨.

(٣) تحف العقول: ٢٩٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكافي: ٢ / ٧٤ - ٧٥.

إنّ المنهج الإسلامي هو منهج واقعي للحياة ، بكل ما للحياة من تشكيلات وتنظيمات وأوضاع وقيم وأخلاق وآداب وعبادات وشعائر، وهو كمنهج نظري يراد تطبيقه في الواقع بحاجة الى قدوة تجسده في الواقع كي يقتدي بها الناس ليندفعوا أشواطاً الى الأمام في مسيرة التنفيذ والتطبيق ، ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على القدوة الناطقة بالكتاب والسنة وهم أهل البيت عليه السلام تمييزاً عن غيرهم من الذين تنكبوا طريق الاستقامة وانحرفوا عن المنهج انطلاقاً من أهوائهم ومصالحهم التي تخدم السلاطين والحكام وانفلاتاً من قيود العقيدة والشرعية .

فقد أكد الإمام عليه السلام على الولاية باعتبارها أهم أركان الإسلام فقال: «بني الإسلام على خمس : على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ، ولم يناد بشيء كما نوذي بالولاية»^(١) ، التي أوضحها في نص آخر بأنها الولاية لأهل البيت عليه السلام^(٢).

وأورد الأحاديث الشريفة عن رسول الله ﷺ التي تؤكد على ولاية أهل البيت عليه السلام ومرجعيتهم في الأمة ، ومنها توجيه الأنظار الى ولاية أول الأئمة أعني الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام متمثلة بالولاء العاطفي له ، قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وقد خلص ودي الى قلبه ، وما خلص ودي الى قلب أحد إلا وقد خلص ودي علي الى قلبه ، كذب يا علي من زعم أنه يحبني ويبغضك»^(٣).

وفسر الآيات النازلة في حق أهل البيت عليه السلام وبين مؤداهما بشكل دقيق وهو مرجعية أهل البيت عليه السلام في جميع شؤون الحياة فكرية وعاطفية وسلوكية.

ففي قوله تعالى:

﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) ، قال عليه السلام: نحن أهل الذكر .

وفي قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٥) ، قال عليه السلام: نحن هم .

(١) الكافي : ٢ / ١٨ .

(٢) لاحظ الخصال : ١ / ٢٧٨ .

(٣) المحاسن : ١٥١ .

(٤) سورة النحل : ٤٣:١٦ .

(٥) سورة البقرة : ٢ / ١٤٣ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١)، قال عليه السلام: نحن الأمة الوسط.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢)، قال عليه السلام: أي مع آل محمد^(٣).
وأما أحاديثه التي رواها عن رسول الله حول ولاية أهل البيت عليهم السلام ومرجعيتهم للأمة فمنها قوله عليه السلام: «أنا رسول الله إلى الناس أجمعين ولكن سيكون بعدي أئمة على الناس من أهل بيتي من الله، يقومون في الناس فيكذبونهم ويظلمونهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم، ألا فمن والاهم واتبعهم وصدقهم فهو مني ومعهم وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وأعان على ظلمهم وكذبهم، فليس مني ولا معي وأنا منه بريء»^(٤).
وحث عليه السلام على الرجوع إلى القرآن والسنة، وأكد مرجعية أهل البيت عليهم السلام باعتبار أن سنتهم امتداد للسنة النبوية الشريفة، وباعتبار أعلميتهم بمنهج القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم؛ فإنهم أهل بيت الوحي والرسالة فهم أدري بما في البيت.

٣ - خصائص الإنتماء لأهل البيت عليهم السلام

بين الإمام عليه السلام خصائص الإنسان الشيعي وهو الإنسان الموالي والمتبع لأهل البيت عليهم السلام تمييزاً له عن سواه ممن يحمل شعار الولاء والمشايعه لهم، قال عليه السلام: «فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه...»^(٥).

وقال أيضاً: «لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل»^(٦).

(١) سورة البقرة ٢: ١٤٣.

(٢) التوبة ٩: ١١٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٤ / ١٧٩.

(٤) المحاسن: ١٥٥.

(٥) الكافي: ٢ / ٧٤.

(٦) المصدر السابق: ٢ / ٧٣.

وبيّن الخصائص الولائية والسلوكية للجماعة الصالحة من حيث علاقاتهم فيما بينهم وعلاقاتهم مع الآخرين. فقال عليه السلام: «إنما شيعة عليّ: المتبازلون في ولايتنا. المتحابون في مودّتنا. المتزاورون لإحياء أمرنا. الذين إذا أغضبوا لم يظلموا. وإذا رضوا لم يسرفوا. بركة على من جاوروا. سلم لمن خالطوا»^(١).

وقال أيضاً: «إنما شيعة عليّ: من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناؤه بدنه، لا يمدح لنا قالياً. ولا يواصل لنا مبغضاً. ولا يجالس لنا عائياً»^(٢).
وقال أيضاً: «إنما شيعة عليّ: الحلماء العلماء، الذبل الشفاه، تعرف الرهبانية على وجوههم»^(٣).

وقال أيضاً: «إنما المؤمن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرج منه سخطه من قول الحق، والذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق»^(٤).

وبيّن عليه السلام أسس التقييم الموضوعي لمن يريد إثبات صحة إنتمائه للجماعة الصالحة. ومن هذه الأسس عرض الإنسان نفسه على كتاب الله.
قال عليه السلام: «يا جابر واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصر، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك. ولكن إعرض نفسك على كتاب الله؛ فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فائت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك. وإن كنت مبائناً للقرآن فما الذي يغرك من نفسك؟!...»^(٥).

(١) تحف العقول: ٣٠٠.

(٢) بحار الأنوار: ١٦٨ / ٦٥.

(٣) بحار الأنوار: ١٨٩ / ٦٥.

(٤) الكافي: ٢٣٤ / ٢.

(٥) تحف العقول: ٢٨٤.

والعلامة المميّزة لأفراد الجماعة الصالحة هي التزامهم بمبادئ القرآن الكريم وقيمه في مختلف مجالات الحياة الإسلامية ، في العبادة والارتباط بالله تعالى ، وفي العلاقات الاجتماعية ، وقد بيّن ذلك بقوله عليه السلام - كما مرّ سابقاً - :
 «فوالله ما شيعتنا إلّا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخضع والأمانة . وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة . والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء ، وأهل المسكنة ، والغارمين ، والأيتام . وصدق الحديث وتلاوة القرآن . وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير . وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء» ^(١).

النقطة الثانية : الإمام الباقر عليه السلام والتزكية

لا تتحقّق التزكية إلّا بعد أن تنطلق من القلب والضمير وتتفاعل مع الشعور بخشية مستمرة وحذر دائم وتوقّ من الرغائب والشهوات ، والمطامع والمطامح ، فلا بد أن تكون شعوراً في الضمير ، وحالة في الوجدان ، وصفاء في المشاعر لتتّهيأ النفوس لتلقي أسسها وتقريرها في الواقع ، ولهذا ركّز الإمام عليه السلام في الجانب النظري على أهم المقومات التي تدفع النفس للتزكية وهي :

أ - تحكيم العقل.

ب - تبعية الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية.

ج - استشعار الرقابة الإلهية.

د - التوجّه الى اليوم الآخر.

أ - تحكيم العقل :

إنّ الله تعالى خلق الإنسان مزوداً بعقل وشهوة ، ومنحه معرفة سبل الهداية من خلال البينات والحقائق الثابتة ، وهو مكلف بإعداد القلب للتلقي والاستجابة والتطلع

(١) الكافي ٢ : ٧٤ .

الى أفق أعلى واهتمامات أرفع من الرغبات والشهوات الحسية، ولهذا ركز الإمام عليه السلام على تحكيم العقل على جميع الرغبات والشهوات ، ليكون للإنسان واعظ من نفسه يعينه على تزكية نفسه.

قال عليه السلام: « من لم يجعل الله له من نفسه واعظاً ، فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً »^(١).

وقال أيضاً : « من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه »^(٢).

ب - تبعية الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية :

إنّ تكامل النفس لا يتم إلا من خلال التطابق بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية وذلك باتباع المنهج الإلهي في الحياة ، وهذا التطابق يحتاج الى مجاهدة الهوى والهيمنة على الشهوات وتقييدها بقيود شرعية؛ فإنّ مجاهدة النفس تجعل الإنسان مستعداً بالفعل لتلقّي الفيض الإلهي لإكمال نفسه وتزكيته على أساس المنهج الربّاني للإنسان في هذه الحياة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « يقول الله عزّ وجلّ : وعزّي وجلالي ، لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا جعلت غناه في قلبه ، وهمّه في آخرته . . . »^(٣).

ج - استشعار الرقابة الإلهية :

لا تتم التزكية إلا باستشعار الرقابة الإلهية في العقل والضمير والوجدان ، والإحساس بأنّ الله تعالى محيط بالإنسان، يحصي عليه حركاته وسكناته ، ولهذا ركز الإمام الباقر عليه السلام على هذه الرقابة لتكون هي الدافع لإصلاح النفس وتزكيته ،

(١) تحف العقول : ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) جامع الأخبار : ٢٧٠ .

ففي موعظته لجماعة من أنصاره قال: « ويلك . . . كلما عرضت لك شهوة أو ارتكاب ذنب سارعت اليه وأقدمت بجهلك عليه ، فارتكبتك كأنك لست بعين الله ، أو كأن الله ليس لك بالمرصاد ! . . . »^(١).

د - التوجه الى اليوم الآخر :

إنّ التوجه الى الحياة الأخرى الخالدة يمنع الإنسان من الانحراف ويدفعه لتخليص النفس من ربة الشهوات وظلمة المطامع وأدناس الهوى. وقد وجّه الإمام عليه السلام الجماعة الصالحة الى ذلك اليوم ليجعلوه نصب أعينهم ليكون حافزاً لهم لإصلاح النفس وتزكيتها ، ومما جاء في موعظته لجماعة منهم قوله عليه السلام: « ... يا طالب الجنة ما أطول نومك وأكَل مطيتك ، وأوهى همتك ، فله أنت من طالب ومطلوب !

ويا هارباً من النار ما أحت مطيتك إليها وما أكسبك لما يوقعك فيها !
يا ابن الأيام الثلاث : يومك الذي ولدت فيه ، ويومك الذي تنزل فيه قبرك ، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربك ، فياله من يوم عظيم ! يا ذوي الهيئة المعجبة والهيم المعطنة ما لي أرى أجسامكم عامرة وقلوبكم دامرة ؟! »^(٢).
وبين الإمام عليه السلام أنّ الدنيا دار بلاء وامتحان، وأنّ هذا الابتلاء يتناسب مع درجة إيمان الإنسان فقال : « إنّما يتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه »^(٣).

النقطة الثالثة: الإمام الباقر عليه السلام وتشخيص هوية الجماعة الصالحة

اهتم الإمام الباقر عليه السلام بتشخيص هوية الجماعة الصالحة ، وتمييزها عن غيرها من الهويات التي ترافق سائر الوجودات والكيانات والتيارات القائمة في الواقع .

(١) تحف العقول : ٢٩١ .

(٢) تحف العقول : ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٣) جامع الأخبار : ٣١٣ .

وقد كان للجماعة الصالحة وجود مميز من حيث الاسم والصفات ومن حيث الولاء والافتداء ، ومن حيث التقييم والدرجة والمرتبة من بين الدرجات والمراتب ، فهي تنتمي الى الإسلام أولاً والى منهج أهل البيت ثانياً. وتشخيص الهوية له آثار إيجابية على تجذر الانتماء وإدامته ، وله آثار عملية على الأفكار والعواطف والممارسات السلوكية، حيث إنها تتبع الانتماء ، وتتحرك في ضوء الأهداف المحددة للهوية المشخصة ، ومن هذه الآثار :

- ١ - الشعور بالانتماء وهو أمر فطري يدفع الإنسان للاعتزاز بانتمائه ، لأنه يشعر بأن شخصيته ووجوده يحددها الانتماء والهوية الظاهرة .
- ٢ - إنّ تشخيص الهوية دوراً كبيراً في وحدة الأهداف ووحدة البرامج ، ووحدة المصير ، ووحدة المصالح ، ولهذه الوحدة دور أساسي في تحريك المنتمين الى العمل الجاد والحركة الدؤوبة لتحقيق الأهداف المنشودة والتضحية من أجلها.
- ٣ - إنّ تشخيص الهوية دوراً كبيراً في تعميق علاقات الأخوة داخل الجماعة الصالحة ، ودفعها نحو التآزر والتكاتف والتعاون من أجل رفع مستواها الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي ، كما يمنحها القوة والمنعة والعزة.
- ٤ - إنّ تشخيص الهوية والشعور بالانتماء الموحد يدفع الحركة باتجاه توسيع قاعدتها الشعبية على أساس تقوية مظاهر الهوية في الواقع الموضوعي ويدفعها نحو التنافس المشروع مع الوجودات القائمة لربط بقية أفراد الأمة بالمفاهيم والقيم الصالحة ، وتجسيدها في الواقع .

محاوّر الانتماء في الجماعة الصالحة

الإسلام هو المحور الأساسي للانتماء عند الجماعة الصالحة ، وهو المحرك الأوّل للعمل والحركة والسلوك ولللاقات ، والمصلحة الإسلامية العليا هي الحاكمة على جميع المصالح .

والإسلام هو الانتماء الأساسي الذي يدفع بالمنتمين إليه نحو التعالي على الأواصر الضيقة والروابط الثانوية ، ويوجّه الأنظار والمواقف الى الهدف المشترك

والى الأفق الأرحب الذي تنضوي تحته جميع الإنتماءات ، لتكون العلاقات في ظله قائمة على أساس التكافل والتراحم والتناصح ، والأمانة والعدل والسماحة والمودة والإحسان ، وهذه العلاقات تتطلب التحرر من ضغط القيم والأوضاع المحدودة ، والمصالح والمطامع الذاتية العارضة .

والإسلام هو الإنتماء الأرحب الذي يضم جميع من نطق بالشهادتين ، فهو في رأي الإمام الباقر عليه السلام: « . . . والإسلام ما عليه التناكح والتوارث وحققت به الدماء »^(١) . وعلى ذلك فإن الجماعة الصالحة هي جزء من المجتمع الإسلامي الكبير بمختلف تياراته ومذاهبه الفكرية والسياسية ، ومسؤولة عن الحفاظ على هذا الوجود من التصدّع .

والفكر المشترك أو العقيدة المشتركة بين الجماعة الصالحة وسائر الجماعات القائمة هي : الإيمان بالله ورسله وكتبه ، والإيمان برسالة خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم ، والإيمان بيوم القيامة .

والإنتماء الى منهج أهل البيت عليهم السلام هو الهوية المشخصة للجماعة الصالحة لتمييزها عن غيرها من الجماعات التي تنتمي الى مناهج أخرى . والإنتماء الى أهل البيت عليهم السلام يعني الولاء لهم بجميع مراتبه ومصاديقه المتمثلة في حبهم ونصرتهم، والاستسلام لأوامرهم ونواهيهم التي هي أوامر الله ورسوله للإنسان المسلم على مدى الحياة وفي جميع مجالات الحياة؛ بحيث تكون العقول والقلوب والأفعال منسجمة مع منهجهم العقائدي والسياسي في آن واحد ، لأنهم الإمتداد الحقيقي للرسالة الإسلامية وهم القيّمون على المنهج الإلهي الذي أرسى دعائمه رسول الله صلوات الله عليه في حديث الثقلين وغيره من النصوص النبوية الشريفة. ومن هنا قال الإمام الباقر عليه السلام: « نحن أهل بيت الرحمة وشجرة النبوة ومعدن الحكمة ، ومختلف الملائكة ومهبط الوحي »^(٢) .

(١) تحف العقول : ٢٩٧ .

(٢) الإرشاد ٢ : ١٦٩ .

وهذا الإنتماء يجعل جميع أفراد الجماعة الصالحة مكلفين بأداء دور القدوة
أزاء الإنتماء الرحب وهو الإسلام ، فينبغي أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وقد وصفهم
الإمام عليه السلام في أحاديث متقدمة بمواصفات خاصة ومنها : طاعة الله ، والتقوى ،
الإنتماء لا يتحقق إلا بالتقوى والورع والعمل الصالح .

الفصل الخامس

اغتيال الإمام محمد الباقر عليه السلام واستشهاده

لم يمت الإمام أبو جعفر عليه السلام حتف أنفه، وإنما اغتالته بالسم أيد أموية أثيمة لا
تؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، وقد اختلف المؤرخون في الأثيم الذي أقدم على
اقتراف هذه الجريمة.

فمنهم من قال: إن هشام بن عبد الملك هو الذي أقدم على اغتيال الإمام فـدسّ
إليه السم^(١) والأرجح هو هذا القول لأن هشاماً كان حاقداً على آل النبي بشدة
وكانت نفسه مترعة بالبغض لهم وهو الذي دفع بالشهيد العظيم زيد بن علي عليه السلام إلى
إعلان الثورة عليه حينما استهان به، وقابله بمزيد من الجفاء والتحقير، ومن المؤكد
أن الإمام العظيم أبا جعفر قد أقض مضجع هذا الطاغية، وذلك لذيوع فضله وانتشار
علمه، وتحدّث المسلمين عن مواهبه، ومن هنا أقدم على اغتياله ليتخلص منه.
ومنهم من قال: إن الذي أقدم على سم الإمام هو إبراهيم بن الوليد^(٢).

(١) بحار الأنوار ٤٦ : ٢١٧.

(٢) أخبار الدول : ١١١.

ويرى السيد ابن طاووس أنّ إبراهيم بن الوليد قد شرك في دم الإمام عليه السلام^(١) ومعنى ذلك أن إبراهيم لم ينفرد باغتيال الإمام عليه السلام وإنما كان مع غيره. وأهملت بعض المصادر اسم الشخص الذي اغتال الإمام عليه السلام واكتفت بالقول إنه مات مسموماً^(٢).

(١) بحار الأنوار: ٢١٦/٤٦.

(٢) نور الأبصار: ٨٣، الصواعق المحرقة: ١٢٠، ينابيع المودة ٣: ١١١.

دوافع اغتيال الإمام الباقر عليه السلام

أما الأسباب التي أدت بالأمويين الى اغتيال الإمام عليه السلام فهي:

١ - سمو شخصية الإمام الباقر عليه السلام:

لقد كان الإمام أبو جعفر عليه السلام أسمى شخصية في العالم الإسلامي فقد أجمع المسلمون على تعظيمه، والاعتراف له بالفضل، وكان مقصد العلماء من جميع البلاد الإسلامية.

لقد ملك الإمام عليه السلام عواطف الناس واستأثر بإكبارهم وتقديرهم لأنه العلم البارز في الأسرة النبوية، وقد أثارت منزلته الاجتماعية غيظ الأمويين وحقدهم فأجمعوا على اغتياله للتخلص منه.

٢ - أحداث دمشق:

لا يستبعد الباحثون والمؤرخون أن تكون أحداث دمشق سبباً من الأسباب التي دعت الأمويين الى اغتياله عليه السلام وذلك لما يلي:

أ - تفوق الإمام في الرمي على بني أمية وغيرهم حينما دعاه هشام الى الرمي ظاناً بأنه سوف يخفق في رمية فلا يصيب الهدف فيتخذ ذلك وسيلة للحط من شأنه والسخرية به أمام أهل الشام. ولما رمى الإمام وأصاب الهدف عدة مرات بصورة مذهلة لم يعهد لها نظير في عمليات الرمي في العالم، ذهل الطاغية هشام، وأخذ يتميز غيظاً، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وصمم منذ ذاك الوقت على اغتياله.

ب - مناظرته لهشام في شؤون الإمامة، وتفوق الإمام عليه حتى بان عليه العجز مما أدى الى حقد عليه.

ج - مناظرته لعالم النصارى، وتغلبه عليه حتى اعترف بالعجز عن مجاراته أمام حشد كبير منهم معترفاً بفضل الإمام وتفوقه العلمي في أمة محمد عليه السلام، وقد

أصبحت تلك القضية بجميع تفاصيلها الحديث الشاغل لجماهير أهل الشام^(١).
ويكفي هذا الصيت العلمي أيضاً أن يكون من عوامل الحقد على الإمام عليه السلام
والتخطيط للتخلص من وجوده.

نصّه على الإمام الصادق عليه السلام

ونصّ الإمام أبو جعفر عليه السلام على الإمام من بعده قبيل استشهاده فعين الإمام
الصادق عليه السلام مفخرة هذه الدنيا، ورائد الفكر والعلم في الإسلام، وجعله مرجعاً عاماً
للأمة من بعده، وأوصى شيعته بلزوم أتباعه وطاعته.

وكان الإمام أبو جعفر عليه السلام يشيد بولده الإمام الصادق عليه السلام بشكل مستمر ويشير
إلى إمامته، فقد روى أبو الصباح الكناني، أنّ أبا جعفر نظر إلى أبي عبد الله يمشي،
فقال: «ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾»^(٢).

وصاياه

وأوصى الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى ولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعدة وصايا
كان من بينها ما يلي:

- ١ - إنّه قال له: «يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً، فقال له الإمام الصادق: جعلت
فداك والله لأدعنهم والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً»^(٣).
- ٢ - أوصى ولده الصادق عليه السلام: أن يكفنه في قميصه الذي كان يصلي فيه^(٤)
ليكون شاهد صدق عند الله على عظيم عبادته، وطاعته له.

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٣٠٩ - ٣١١.

(٢) أصول الكافي ١: ٣٠٦ والآية ٥ من سورة القصص.

(٣) أصول الكافي ١: ٣٠٦.

(٤) صفة الصفوة: ١١٢/٢، تاريخ ابن الوردي: ٢٤٨/١، تاريخ أبي الفداء: ٢٠٣/١.

٣ - إنه أوقف بعض أمواله على نوادب تندبه عشر سنين في منى^(١). ولعل السبب في ذلك يعود الى أن منى أعظم مركز للتجمع الإسلامي، ووجود النوادب فيه مما يبعث المسلمين الى السؤال عن سببه، فيخبرون بما جرى على الإمام أبي جعفر عليه السلام من صنوف التنكيل من قبل الأمويين واغتيالهم له، حتى لا يضيع ما جرى عليه منهم ولا تخفيه أجهزة الإعلام الأموي.

وسرى السم في بدن الإمام أبي جعفر عليه السلام، وأثر فيه تأثيراً بالغاً، وأخذ يدنو إليه الموت سريعاً، وقد اتجه في ساعاته الأخيرة بمشاعره وعواطفه نحو الله تعالى، فأخذ يقرأ القرآن الكريم، ويستغفر الله، فوفاه الأجل المحتوم ولسانه مشغول بذكر الله فارتفعت روحه العظيمة الى خالقها، تلك الروح التي أضاءت الحياة الفكرية والعلمية في الإسلام والتي لم يخلق لها نظير في عصره.

وقد انطوت برحيله أروع صفحة من صفحات الرسالة الإسلامية التي أمدّت المجتمع الإسلامي بعناصر الوعي والإزدهار.

وقام ولده الإمام الصادق عليه السلام بتجهيز الجثمان المقدس فغسله وكفنه، وهو يذرف أحر الدموع على فقد أبيه الذي ما أظلت مثله سماء الدنيا في عصره علماً وفضلاً وحريجة في الدين.

ونقل الجثمان العظيم - محفوفاً بإجلال وتكريم بالغين من قبل الجماهير - الى بقيع الغرقد، فحفر له قبراً بجوار الإمام الأعظم أبيه زين العابدين عليه السلام وبجوار عم أبيه الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة عليه السلام وأنزل الإمام الصادق أباه في مقره الأخير فواراه فيه، وقد وارى معه العلم والحلم، والمعروف والبر بالناس.

لقد كان فقد الإمام أبي جعفر عليه السلام من أفجع النكبات التي مُني بها المسلمون في ذلك العصر، فقد خسروا القائد، والرائد، والموجه الذي بذل جهداً عظيماً في نشر العلم، وبلورة الوعي الفكري والثقافي بين المسلمين.

والمشهور بين الرواة أنه توفي وعمره الشريف ٥٨ سنة .

وكانت سنة وفاته - بحسب الرأي المشهور - سنة ١١٤ هـ.

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٢٢٠.

تعزية المسلمين للإمام الصادق عليه السلام

هرع المسلمون وقد قطع الحزن قلوبهم الى الإمام الصادق عليه السلام وهم يعزونه بمصابه الأليم، ويشاركونه اللوعة والأسى بفقد أبيه، وممن وفد عليه يعزیه سالم بن أبي حفصة، قال: لما توفي أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قلت لأصحابي: انتظروني حتى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد فأعزیه به، فدخلت عليه فعزيت، وقلت له: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله ﷺ: فلا يسأل عمن بينه وبين رسول الله ﷺ والله لا يرى مثله أبداً قال: وسكت الإمام أبو عبد الله عليه السلام ساعة، ثم التفت الى أصحابه فقال لهم: قال الله تعالى: «إن من عبادي من يتصدق بشق من ثمرة فأربيها له، كما يربي أحدكم فلوه»^(١).

وخرج سالم وهو منبهز فالتفت الى أصحابه قائلاً: ما رأيت أعجب من هذا!! كنا نستعظم قول أبي جعفر عليه السلام قال رسول الله ﷺ بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام قال الله، بلا واسطة^(٢).



(١) الفلو بفتح الفاء، وضم اللام وتشديد الواو - المهر الصغير، والائى فلو، والجمع أفلا.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ١: ١٢٥، حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام لفضيلة الشيخ باقر شريف القرشي ٢: ٣٨٦ - ٣٩٤.

الفصل السادس

من تراث الإمام محمد الباقر عليه السلام

لقد كانت المرحلة التي عاشها الإمام الباقر عليه السلام تتطلب منه أن يقوم بتشييد أسس الحضارة الإسلامية وتحصين الأمة المسلمة بروافد المعرفة الإسلامية لتقف في وجه المدّ الثقافي الذي كان يخترق الحياة الإسلامية بسبب الفتوحات والانفتاح الحضاري على ثقافات الأمم الوافدة على الدولة الإسلامية العظمى.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إنّ المعالم الرئيسة لرسالة الأئمة بعد الحسين عليه السلام تتلخص في التحصين المعرفي والثقافي للأمة المسلمة بشكل عام وللجماعة الصالحة بشكل خاص .

فإنّ الوقوف على تراثهم الذي قدّموه للأمة الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري حتى بداية القرن الثالث الهجري يكشف عن عظمة هذا التراث وتفردّه عمّا سواه من التراث الذي نجده لدى عامة الفرق الإسلامية، ويتميّز عن كل ذلك بالاستيعاب لكل حقول المعرفة، وسلامة المصدر، ونقاء المحتوى، ووضوح الارتباط بمصادر المعرفة الربّانية المتمثلة بكتاب الله وسنة رسوله صلّى الله عليه وآله.

وقد اخترنا من تراثه الثرّ نماذج في مختلف حقول العلم والمعرفة الإسلامية وهي:

أولاً: التراث التفسيري للإمام محمد الباقر عليه السلام

لا ريب في أنّ القرآن الكريم هو أوّل مصادر التشريع الإسلامي وأهم مصادر الثقافة الإسلامية التي تعطي للأمة الإسلامية وللرسالة الإلهية هويّتها الخاصة وتسير بالأمة الى حيث الكمال الإنساني المنشود .

ومن هنا خصص الإمام عليه السلام للتفسير وقتاً من أوقاته وتناول فيه جميع شؤونه. وقد أخذ عنه علماء التفسير - على اختلاف آرائهم وميولهم - الشيء الكثير^(١).

وقد نهج الإمام الباقر عليه السلام في تفسير القرآن الكريم منهجاً علمياً خاصاً متسقاً مع أهداف الرسالة وأصولها ونعى على أهل الرأي والاستحسان وأهل التأويل والظنون، فكان مما اعترض به على قتادة أن قال له :
بلغني أنك تفسر القرآن ! .
فقال له : نعم .

فانكر عليه الإمام عليه السلام قائلاً : « يا قتادة إن كنت قد فسر القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك ، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلك ، يا قتادة ويحك إنما يعرف القرآن من خوطب به »^(٢).

وقد قصر الإمام أبو جعفر عليه السلام معرفة الكتاب العزيز على أهل البيت عليهم السلام فهم الذين يعرفون المحكم من المتشابه ، والناسخ من المنسوخ وليس عند غيرهم هذا العلم ، فقد ورد عنهم عليهم السلام : « إنه ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن ، الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف الى وجوه »^(٣).

أما الأخذ بظواهر الكتاب فلا يعد من التفسير بالرأي المنهي عنه.
وألف الإمام الباقر عليه السلام كتاباً في تفسير القرآن الكريم نص عليه محمد بن إسحاق النديم في « الفهرست » عند عرضه للكتب المؤلفة في تفسير القرآن الكريم

(١) حياة الإمام محمد الباقر ، باقر شريف القرشي ١ : ١٧٤ .

(٢) البيان في تفسير القرآن : ٢٦٨ .

(٣) فرائد الأصول ١ : ١٤١ ، بحار الأنوار ٨٩ : ٩١ ، ميزان الحكمة ٢ : ٢٥٣٢ ، تفسير العياشي ١ : ١١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩ .

حيث قال : « كتاب الباقر محمد بن علي بن الحسين رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية ».

نماذج من تفسيره :

- ١ - فسر الإمام الباقر عليه السلام الهداية في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(١) بالولاية لأئمة أهل البيت حين قال : « فوالله لو أن رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام ، ولم يجيء بولایتنا إلا أكبه الله في النار على وجهه »^(٢).
- ٢ - وعن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٣) . قال عليه السلام: « إن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه »^(٤).
- ٣ - وفي قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾^(٥) ، قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: « إنها نزلت في قوم وصفوا عدلاً بالسنتهم ثم خالفوه الى غيره »^(٦).
- ٤ - وفي قوله تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧) . روى محمد ابن مسلم قال : قلت : للإمام أبي جعفر إن من عندنا يزعمون أن المعنيين بالآية هم اليهود والنصارى. قال : « إذا يدعونكم إلى دينهم ! ثم أشار عليه السلام الى صدره فقال: نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون »^(٨).

(١) سورة طه ٢٠ : ٨٢ .

(٢) مجمع البيان ٧ : ٣٥ .

(٣) سورة المائدة ٥ : ٦٧ .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٢٧٩ .

(٥) سورة الشعراء ٢٦ : ٩٤ .

(٦) أصول الكافي ١ : ٤٧ .

(٧) سورة الأنبياء ٢١ : ٧ .

(٨) أصول الكافي ١ : ٢١١ .

٥ - في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْامِهِمْ﴾^(١) روى جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : « لما نزلت هذه الآية قال المسلمون : يا رسول الله ألسنت إمام الناس كلهم أجمعين ؟ فقال صلى الله عليه وآله : أنا رسول الله الى الناس أجمعين ، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من أهل بيتي يقومون في الناس فيكذبون ، ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم ، فمن والاهم وأتبعهم ، وصدقهم فهو مني ومعى ، وسيلقاني ، ألا ومن ظلمهم وكذبهم فليس مني ، ولا معى ، وأنا منه بريء »^(٢).

ثانياً: التراث الحديثي للإمام الباقر عليه السلام

يعدّ الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ، وله أهميته البالغة ودوره الكبير في بناء الصرح الثقافي للأمة الإسلامية بشكل عام وبناء الصرح الفقهي والتشريع العملي للحياة الإنسانية بشكل خاص .

وقد زاد من اهتمام أهل البيت عليهم السلام بنشر سنة رسول الله وتبليغها ما واجهه الحديث النبوي الشريف من مآسي الدس والتزوير والوضع والتضييع خلال فترة منع الخلفاء من تدوينه وكتابته بل التحديث به في بعض الأحيان . واعتنى الإمام الباقر عليه السلام بشكل خاص بحديث الرسول صلى الله عليه وآله حتى روى عنه جابر بن يزيد الجعفي سبعين ألف حديث^(٣) ، كما روى عنه أبان بن تغلب وغيره من تلامذته وأصحابه مجموعة كبيرة من هذا التراث الضخم .

ولم يكتف الإمام بنقل الحديث ونشره بل دعا الى الاهتمام بفهم الحديث والوقوف على معانيه ، حتى جعل المقياس في فضل الراوي هو فهم الحديث ودرايته بمعانيه وأسراره .

(١) سورة الإسراء ١٧ : ٧١ .

(٢) أصول الكافي ١ : ٢١٥ .

(٣) راجع مقدمة صحيح مسلم ، الاختصاص : ٦٦ ، رجال الكشي : ١٩٤ .

روى يزيد الرزاز عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام أنه قال له : « اعرف منازل الشيعة على قدر رواياتهم ومعرفتهم؛ فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدراية للرواية يعلو المؤمن الى أقصى درجات الإيمان^(١) ».

ثالثاً: التراث الكلامي للإمام الباقر عليه السلام

وبحث الإمام أبو جعفر في كثير من محاضراته المسائل الكلامية ، وسئل عن أعقد المسائل وأدقها في بحوث هذا العلم فأجاب عنها.

ومن الجدير بالذكر أنّ عصر الإمام كان من أشد العصور الإسلامية حساسية؛ فقد امتدّ فيه الفتح الإسلامي الى أغلب مناطق العالم وشعوب الأرض فأثار ذلك موجة من الحقد في نفوس المعادين للإسلام من الشعوب المغلوبة على أمرها ، فقاموا بحملة دعائية ضد العقيدة الإسلامية وأذاعوا الشكوك بين أبناء المسلمين ، وقد شجّعت الحكومات الأموية التيارات ذات الأفكار المعادية للإسلام؛ إذ لم يؤثر عن أي واحد من ملوك بني أمية أنه قاومها أو تصدّى لإيقافها بين المسلمين، ولم يكن هناك أحد قد انبرى الى انقاذ المسلمين في ذلك العصر سوى الإمام أبي جعفر عليه السلام حيث تصدى لتزييفها والرد عليها ببالغ الحجة والبرهان .

وإليك نماذج من بحوثه :

١ - عجز العقول عن إدراك حقيقة الله :

سئل عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٢) فقال عليه السلام : « أوهام القلوب أدق من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند

(١) حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام ، للأستاذ باقر شريف القرشي ١ : ١٤٠-١٤١ عن ناسخ التواريخ ٢ : ٢١٩.

(٢) سورة الأنعام ٦ : ١٠٣ .

والبلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك. وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون؟!»^(١).

٢ - أزلية واجب الوجود :

سأله رجل فقال له : أخبرني عن ربك متى كان ؟ فأجابه الإمام عليه السلام : «ويلك ! إنما يقال لشيء لم يكن ، متى كان ؟

ويلك أيها السائل !! إنَّ ربي لا تغشاه الأوهام ، ولا تنزل به الشبهات ، ولا يحار ، ولا يجاوزه شيء ، ولا تنزل به الأحداث ، ولا يسأل عن شيء ، ولا يندم على شيء ، ولا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى»^(٢).

٣ - وجوب طاعة الإمام عليه السلام :

طاعة الإمام واجب ديني أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣) وتواترت الأخبار بذلك ، وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : « ذروة الأمر وسنانه ، ومفتاحه ، وباب الأشياء ، ورضا الرحمن تبارك وتعالى ، الطاعة للإمام بعد معرفته... إنَّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾»^(٤).

رابعاً: التراث التاريخي للإمام الباقر عليه السلام

والكلام عليه في نقاط:

النقطة الأولى: مع السيرة النبوية المباركة

١ - استعارة النبي عليه السلام السلاح من صفوان :

وروى الطبري بسنده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال : «لما أجمع رسول الله ﷺ السير الى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً ،

(١) نسب هذا الحديث الى الإمام الجواد عليه السلام.

(٢) أصول الكافي ١: ٨٨ - ٨٩.

(٣) سورة النساء ٤: ٥٩.

(٤) أصول الكافي ١: ١٨٥ والآية ٨٠ من سورة النساء.

فأرسل إليه فقال : يا أبا أمية - وهو يومئذ مشرك - أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً. فقال له صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة ، حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح ، وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله سأل أن يكفيه حملها ففعل .

قال الإمام أبو جعفر عليه السلام : فمضت السنة أن العارية مضمونة^(١) .

وقد أجمع الإمام إلى أن هذه الحادثة قد استفيد منها القاعدة الفقهية وهو أن العارية مضمونة مع التفريط ، فمن استعار شيئاً فقد ضمنه حتى يؤديه إلى صاحبه .

٢ - مسيرة خالد إلى بني جذيمة :

وروى ابن هشام بسنده عن الإمام أبي جعفر عليه السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة حين فتح مكة داعياً إلى الله ، ولم يبعثه مقاتلاً إلا أن خالداً أغار عليهم فأوجسوا منه خيفة فبادروا إلى أسلحتهم فحملوها ، فلما رأى خالد ذلك قال لهم : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، ووثقوا بقوله ، فوضعوا سلاحهم ، إلا أنه غدر بهم ، فأمر بتكتيفهم ثم عرضهم على السيف ، فقتل منهم من قتل ، ولما انتهى خبرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله بلغ به الحزن أقصاه ورفع يديه بالدعاء ، وقال :

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». ودعا النبي صلى الله عليه وآله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : «اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». وخرج علي عليه السلام حتى جاءهم ، ومعه مال ، فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال ، حتى أنه ليدي ميلغة الكلب^(٢) حتى إذا لم يبق شيء من دم

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٧٣ .

(٢) الميلغة : الإناء يلع فيه الكلب أو يسقى فيه . فقد أعطى علي عليه السلام ديتة .

ولا مال إلا وداه ، وبقيت معه بقية من المال ، فقال لهم عليّ : « هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يؤدّ لكم ؟ قالوا : لا . قال : فإني أعطيك هذه البقية من هذا المال ، احتياطاً لرسول الله ﷺ مما يعلم ولا تعلمون ، فأعطاهم ثم رجع الى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال ﷺ : أصبت وأحسن . » وقام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة شاهراً يديه ، حتى كان يرى ما تحت منكبيه ، وهو يقول : « اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وكرر ذلك ثلاث مرات^(١).

النقطة الثانية: مع سيرة الإمام عليّ ﷺ

وتحدث الإمام أبو جعفر ﷺ في كثير من أحاديثه عن سيرة جدّه الإمام أمير المؤمنين ﷺ رائد الحقّ والعدالة بعد رسول الله ﷺ وإليك نموذجاً من ما رواه :

روى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن الإمام أبي جعفر ﷺ قال : « كان عليّ ﷺ إذا صلى الفجر لم يزل معقباً الى أن تطلع الشمس ، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس فيعلمهم الفقه والقرآن ، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ، فقام يوماً ، فمرّ برجل فرماه بكلمة هجر - ولم يسم أبو جعفر ذلك الرجل - فرجع الإمام ، وصعد المنبر ، وأمر فنودي الصلاة جامعة ، فلما حضر الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال : (أيها الناس انه ليس شيء أحب الى الله ، ولا أعم نفعاً من حلم إمام وفقهه ، ولا شيء أبغض إلى الله ، ولا أعم ضرراً من جهل إمام وخرقه ، ألا وإنّه من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ، ألا وإنّه من أنصف من نفسه لم يزد الله إلا عزاً ، ألا وإنّ الذل في طاعة الله أقرب الى الله من التعزّز في معصيته ، ثم قال : أين المتكلم أنفاً ؟ فلم يستطع الانكار ، فقال : ها أنا ذا يا أمير المؤمنين ، فقال : أما إني لو أشاء لقلت. فقال : إن تعف وتصفح فأنت أهل لذلك فقال : قد عفوت وصفحتم^(٢) » .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ٧٢ - ٧٤ .

(٢) شرح النهج ٤ : ١٠٩ - ١١٠ .

النقطة الثالثة: من الملاحم التي أخبر بها الإمام الباقر عليه السلام:

١ - قال أبو جعفر الدوانيقي: كنت هارباً من بني أمية أنا وأخي أبو العباس، فمررنا بمسجد النبي صلى الله عليه وآله ومحمد بن علي عليه السلام، فقال عليه السلام لرجل إلى جانبه: كأني بهذا الأمر قد صار إلى هذين، وأشار إلينا، فجاء الرجل وأخبرنا بمقالته، فملنا إليه وقلنا له: يا بن سول الله! ما الذي قلت؟ فقال عليه السلام: « هذا الأمر صائر إليكم عن قريب، ولكنكم تسيئون إلى ذريتي، وعترتي فالويل لكم^(١) ». فكان كما أخبر عليه السلام وقد أساء المنصور حينما ولي الخلافة إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته، فنكّل بهم كأفطع ما يكون التنكيل وقد قاست عترة رسول الله صلى الله عليه وآله في عهد هذا الطاغية من صنوف العذاب ما لم تره عين في عهد الأمويين فقد كانت أيامه عليهم كلها محنة وألماً وعذاباً.

٢ - ومما أنبأ به الإمام أبو جعفر عليه السلام أنه أخبر عن الحجر الأسود وأنه يعلق في الجامع الأعظم في الكوفة^(٢). وتحقق ذلك أيام القرامطة فقد أخذوه من الكعبة، وجعلوه في جامع الكوفة؛ معتقدين أنّ الحجّ يدور مداره، وقد أرادوا أن يكون الحجّ إلى مسجد الكوفة، وبقي فيه مدة تقرب من عشرين عاماً ثم أُرْجِعَ إلى مكانه.

٣ - ومن الملاحم التي أخبر عنها: غزو نافع بن الأزرق لمدينة النبي صلى الله عليه وآله، وإباحتها لجنوده، يقول الإمام الصادق عليه السلام: « كان أبي في مجلس عام إذ أطرق برأسه إلى الأرض ثم رفعه وقال: يا قوم كيف أنتم إذا جاءكم رجل يدخل عليكم مدينتكم هذه في أربعة آلاف حتى يستعرضكم على السيف ثلاثة أيام متوالية، فيقتل مقاتلكم، وتلقون منه بلاءً لا تقدرون عليه ولا على دفعه، وذلك من قاتل - أي السنة التي تأتي - فخذوا حذركم، واعلموا أنّ الذي قلت لكم هو كائن لا بد منه »، فلم يلتفت أهل المدينة إلى كلامه، وقالوا: لا يكون هذا أبداً، فلما كانت السنة المقبلة حمل أبو جعفر عليه السلام عياله، واصطحب معه جماعة من بني هاشم، وخرجوا من المدينة، فجاء نافع بن الأزرق

(١) دلائل الإمامة : ٢١٩ .

(٢) اتعاظ الحنفاء للمقرئزي ١ : ١٨٤ .

فدخلها في أربعة آلاف واستباحها ثلاثة أيام، وقتل فيها خلقاً كثيراً^(١) واستبان لأهل المدينة مدى صدق الإمام في إخباره .

٤ - وأخبر الإمام الباقر عليه السلام عن شهادة أخيه زيد بن عليّ فقد قال زيد ابن حازم: كنت مع أبي جعفر عليه السلام فمرّ بنا زيد بن عليّ أخوه فقال لي أبو جعفر عليه السلام: «أما رأيت هذا؟ ليخرجنّ بالكوفة، وليقتلنّ، وليطافن برأسه»^(٢). ولم تمض الأيام حتى قتل زيد بالكوفة وطيف برأسه في الأقطار والأمصار .

خامساً: من التراث الفقهي للإمام الباقر عليه السلام

والكلام عليه في نقاط:

النقطة الأولى: المسح على الخفين

جوّز فقهاء المذاهب الإسلامية المسح على الخفين في الوضوء، ولم يشترطوا مماسة اليد لظاهر القدمين^(٣). وأمّا أئمة أهل البيت عليهم السلام فقد اعتبروا المماسّة واشترطوها ولم يسوغوا غيرها، يقول الربيع: سألت أبا إسحاق عن المسح، فقال: أدركت الناس يمسحون - يعني على الخفين - حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط يقال له: محمّد بن عليّ بن الحسين فسألته عن المسح، فنهاني عنه، وقال: «لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يمسح، وكان يقول: سبق الكتاب المسح على الخفين»^(٤).

لقد دلّ الكتاب العظيم على اعتبار المماسّة إذ قال تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ والآية ظاهرة أشد الظهور فيما حكم به أهل البيت عليهم السلام.

(١) نور الأبصار: ٨٢، جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام: ١٣٤، الخرائج والجرائح: ٢٥٧.

(٢) نور الأبصار: ٨٢.

(٣) الخلاف: ١: ٩٧.

(٤) روضة الواعظين: ١: ٤٥٩ - ٤٦٠، وهذا النصّ يفيد أنّ الكتاب الكريم لا يوافق المسح على الخفين، بحار الأنوار

النقطة الثانية: مس الفرج لا ينقض الوضوء

وذهب الشافعي إلى أن مس الفرج من نواقض الوضوء، وتمسك لذلك بما روي عن ابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار من أن مس الفرج من نواقض الوضوء. أما الإمام أبو جعفر عليه السلام وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنهم لا يرون ذلك، فقد روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ليس في القبلة ولا المباشرة، ولا مس الفرج وضوء»^(١).

النقطة الثالثة: الجهر في صلاة الإخفات

وذهب فقهاء المذاهب الإسلامية إلى أن الجهر في صلاة الإخفات أو الإخفات في صلاة الجهر متعمداً غير مبطل للصلاة، أما في فقه مذهب أهل البيت عليهم السلام فإنه مبطل للصلاة، فقد روى زرارة عن الإمام أبي جعفر عليه السلام في رجل جهر فيما لا ينبغي الإجهار فيه أو أخفى فيما لا ينبغي الإخفاء فيه، فقال عليه السلام: «إن فعل ذلك متعمداً فقد نقض صلاته وعليه الإعادة، وإن فعل ذلك ناسياً أو ساهياً أو لا يدري فلا شيء عليه وقد تمت صلاته»^(٢).

النقطة الرابعة: الصلاة على آل النبي في التشهد

وذهب أكثر فقهاء المسلمين إلى وجوب الصلاة على آل النبي عليهم السلام في التشهد، وقد روى جابر الجعفي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام عن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يصل فيها عليّ، ولا على أهل بيتي لم تقبل منه»^(٣).

(١) الخلاف ١: ١١٢ - ١١٤.

(٢) المصدر السابق ١: ٣٧١ - ٣٧٢.

(٣) المصدر السابق ١: ٣٧٣.

الإمام جعفر بن محمد

الصادق عليه السلام

الفصل الأول

ويقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: نشأة الإمام جعفر الصادق عليه السلام

الأسرة الكريمة :

إنَّ أسرة الإمام الصادق عليه السلام، هي أجلُّ وأسمى أسرة في دنيا العرب والإسلام، فإنَّها تلك الأسرة التي أنجبت خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ، وأنجبت أيضاً عظماء الأئمة وأعلام العلماء، وهي على امتداد التاريخ لا تزال مهوى أفئدة المسلمين، ومهبط الوحي والإلهام.

من هذه الأسرة التي أغناها الله بفضله، والقائمة في قلوب المسلمين وعواطفهم تفرَّع عملاق هذه الأمة، ومؤسس نهضتها الفكرية والعلمية الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وقد ورث من عظماء أسرته جميع خصالهم العظيمة فكان ملء فم الدنيا في صفاته وحر كاته.

الأب الكريم :

هو الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام سيد الناس لا في عصره، وإنما في جميع العصور على إمتداد التاريخ علماً وفضلاً وتقوى، ولم يظهر من أحد في ولد

الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والسنن وعلم القرآن والسير، وفنون الأدب والبلاغة مثل ما ظهر منه ^(١).

لقد فجر الإمام الصادق عليه السلام ينابيع العلم والحكمة في الأرض، وساهم مساهمة إيجابية في تطوير العقل البشري، وذلك بما نشره من مختلف العلوم. لقد أزهرت الدنيا بهذا المولود العظيم الذي تفرع من شجرة النبوة ودوحة الإمامة ومعدن الحكمة والعلم، ومن أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

الأم الزكية:

هي السيدة المهذبة الزكية (أم فروة) بنت الفقيه القاسم ^(٢) بن محمد بن أبي بكر ^(٣) وكانت من سيدات النساء عفةً وشرفاً وفضلاً، فقد تربت في بيت أبيها وهو من الفضلاء اللامعين في عصره، كما تلقت الفقه والمعارف الإسلامية من زوجها الإمام الأعظم محمد الباقر عليه السلام، وكانت على جانب كبير من الفضل، حتى أصبحت مرجعاً للسيدات من نساء بلدها وغيره في مهام أمورهن الدينية، وحسبها فخراً وشرفاً أنها صارت أمّاً لأعظم إمام من أئمة المسلمين.

ولادة النور:

ولم تمض فترة طويلة من زواج السيدة (أم فروة) بالإمام محمد الباقر عليه السلام حتى حملت، وعمت البشرية أفراد الأسرة العلوية، وتطلعوا إلى المولود العظيم تطلعهم لمشرق الشمس، ولما أشرقت الأرض بولادة المولود المبارك سارعت القابلة لتزف

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ، ٢: ٨٧٨.

(٢) أصول الكافي ١: ٤٧٢، تاريخ أهل البيت: ١٢٢، الإرشاد ٢: ١٨٠، تذكرة الخواص: ٣٠٦ و ٣٠٧.

(٣) القاسم بن محمد بن أبي بكر كان من الفقهاء الأجلاء، وكان عمر بن عبد العزيز يجله كثيراً وقد قال: لو كان لي من الأمر شيء لوليت القاسم بن محمد الخلافة، وقد عمر طويلاً وذهب بصره في آخر عمره. راجع ترجمته في صفة الصفوة ٢: ٥١ - ٥٢، والمعارف: ١٠٢، ومعجم البلدان ٣: ٣١٣، ووفيات الأعيان ٤: ٥٩.

البشرى إلى أبيه فلم تجده في البيت، وإنما وجدت جده الإمام زين العابدين عليه السلام، فهنأته بالمولود الجديد، وغمرت الإمام موجات من الفرح والسرور لأنه علم أن هذا الوليد سيحدد معالم الدين، ويحيي سنة جده سيد المرسلين ﷺ وأخبرته القابلة بأن له عينين زرقاوين جميلتين، فتبسم الإمام عليه السلام وقال: «إنه يشبه عيني والدتي»^(١).

وبادر الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الحجرة فتناول حفيده فقبله، وأجرى عليه مراسيم الولادة الشرعية، فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى.

لقد كانت البداية المشرقة للإمام الصادق عليه السلام أن استقبله جده الذي هو خير أهل الأرض، وهمس في أذنه:

«الله أكبر...»

«لا إله إلا الله»

وقد غذاه بهذه الكلمات التي هي سرّ الوجود لتكون أنشودته في مستقبل حياته.

تاريخ ولادته:

اختلف المؤرخون في السنة التي وُلد فيها الإمام الصادق × فمن قائل إنه وُلد بالمدينة المنورة سنة (٨٠ هـ)^(٢).

وقال آخرون إنه وُلد سنة (٨٣ هـ) يوم الجمعة أو يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول^(٣).

وقال ثالث إنه وُلد سنة (٨٦ هـ)^(٤).

(١) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ٧٢.

(٢) تاريخ ابن الوردي ١: ٢٦٦، الإتحاف بحب الأشراف: ٥٤، سر السلسلة العلوية لأبي نصر البخاري: ٣٤، يناير المودة: ٤٥٧، تذكرة الحفاظ ١: ١٥٧، نور الأبصار للشبلنجي: ١٣٢، وفيات الأعيان ١: ١٩١.

(٣) أصول الكافي ١: ٤٧٢، تاريخ أهل البيت عليه السلام: ٨١، والإرشاد ٢: ١٧٩، إعلام الوري ١: ٥١٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٠٨.

تسميته وألقابه:

أمّا اسمه الشريف فهو (جعفر) ونصّ كثير من المؤرخين على أنّ النبي ﷺ هو الذي سماه بهذا الاسم، ولقّبه بالصادق^(١).

لقد لُقّب الإمام ﷺ بألقاب عديدة يمثل كلُّ منها مظهراً من مظاهر شخصيته وإليك بعض هذه الألقاب الكريمة :

١ - الصادق: لقّبه بذلك جدّه الرسول ﷺ باعتباره أصدق إنسان في حديثه وكلامه^(٢).

وقيل: إنّ المنصور الدوانيقي الذي هو من ألد أعدائه، هو الذي أضفى عليه هذا اللقب، والسبب في ذلك: أنّ أبا مسلم الخراساني طلب من الإمام الصادق ﷺ أن يدلّه على قبر جدّه الإمام أمير المؤمنين ﷺ فامتنع، وأخبره أنه إنّما يظهر القبر الشريف في أيام رجل هاشميّ يقال له أبو جعفر المنصور، وأخبر أبو مسلم المنصور بذلك في أيام حكومته وهو في الرصافة ببغداد، ففرح بذلك، وقال: هذا هو الصادق^(٣).

٢ - الصابر: ^(٤) ولقب بذلك لأنه صبر على المحن الشاقة والخطوب المريرة التي تجرّعها من خصومه الأمويين والعباسيين.

٣ - الفاضل^(٥): لقب بذلك لأنه كان أفضل أهل زمانه وأعلمهم لا في شؤون الشريعة فحسب وإنما في جميع العلوم، فهو الفاضل وغيره المفضل.

٤ - الطاهر^(٦): لأنه أظهر إنسان في عمله وسلوكه واتجاهاته في عصره.

(١) موسوعة الإمام الصادق ﷺ للقريني ١: ١٦٢.

(٢) قال السمعي في أنسابه ٣: ٥٠٧، الصادق لقب لجعفر الصادق لصدقه في مقاله.

(٣) موسوعة الإمام الصادق، للقريني ١: ٢٢.

(٤) تذكرة الخواص: ٣٠٧، مرآة الزمان: ٥: ورقة ١٦٦ من مصورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين.

(٥) تاريخ أهل البيت: ١٣١، وتذكرة الخواص: ٣٠٧.

(٦) مرآة الزمان: ٥: ورقة ١٦٦.

ذكاؤه:

كان الإمام الصادق عليه السلام في سنه المبكر آيةً من آيات الذكاء، فلم يجاره أحدٌ بمثل سنه على امتداد التاريخ في هذه الظاهرة التي تدعو إلى الإعجاب والإكبار، والتي كان منها أنه كان يحضر دروس أبيه وهو صبيٌّ يافعٌ لم يتجاوز عمره الثلاث سنين، وقد فاق بتلقيه لدروس أبيه جميع تلاميذه من كبار العلماء والرواة. ومن الجدير بالذكر أنّ دروس أبيه وبحوثه لم تقتصر على الفقه والحديث، وتفسير القرآن الكريم، وإنّما شملت جميع أنواع العلوم، وقد أَلَمَّ بها الإمام الصادق عليه السلام أحسن إلمام. ويدل على ذلك ما نقله الرواة من أنّ الوليد بن عبد الملك أمر عامله على يثرب عمر بن عبد العزيز بتوسعة المسجد النبوي، وجاء إلى يثرب، ودخل إلى الجامع النبوي ليشاهد ما أنجز من أعمال التعمير، وقد رأى الإمام الباقر عليه السلام على المنبر، وهو يلقي محاضرة على تلاميذه فسلم عليه، فرد الإمام السلام عليه، وتوقف عن التدريس تكريماً له، فأصرَّ عليه الوليد أن يستمرَّ في تدريسه، فأجابه إلى ذلك، وكان موضوع الدرس (الجغرافيا) فاستمع الوليد، وبهر من ذلك، فسأل الإمام: ما هذا العلم؟

فأجابه الإمام: «إنَّه علمٌ يتحدث عن الأرض والسماء، والشمس والنجوم». ووقع نظر الوليد على الإمام الصادق، فسأل عمر بن عبد العزيز: من يكون هذا الصبيُّ بين الرجال؟

فبادر عمر قائلاً: إنه جعفر بن محمد الباقر...

وأسرع الوليد قائلاً: هل هو قادرٌ على فهم الدرس واستيعابه؟ فعرفه عمر بما يملكه الصبيُّ من قدرات علمية، قائلاً: إنه أذكى من يحضر درس الإمام وأكثرهم سؤالاً ونقاشاً.

وبهر الوليد، فاستدعاه، فلما مثل أمامه بادر قائلاً: «ما اسمك؟».

وأجابه الصبيُّ بطلاقة قائلاً: «اسمي جعفر..».

وأراد الوليد امتحانه، فقال له: «أتعلم من كان صاحب المنطق - أي

مؤسسه -؟».

فأجابه الصبي: «كان أرسطو ملقباً بصاحب المنطق، لقبه إياه تلامذته وأتباعه». ووجه الوليد إليه سؤالاً ثانياً قائلاً: «من صاحب المعز؟». فأنكر عليه الإمام وقال: «ليس هذا اسماً لأحد، ولكنه اسمٌ لمجموعة من النجوم، وتسمى ذو الأعنة...»^(١).

واستولت الحيرة والذهول على الوليد، فلم يدر ما يقول، وتأمل كثيراً ليستحضر مسألة أخرى يسأل بها سليل النبوة، وحضر في ذهنه السؤال الآتي فقال له: «هل تعلم من صاحب السواك؟».

فأجابه الإمام فوراً: «هو لقب عبد الله بن مسعود صاحب جدِّي رسول الله ﷺ».

ولم يستحضر الوليد مسألة يسأل بها الإمام، ووجد نفسه عاجزاً أمام هذا العملاق العظيم، فراح يبغي إكباره وإعجابه بالإمام، ويرحب به، وأمسك بيده، ودنا من الإمام الباقر عليه السلام، يهتته بولده قائلاً: إنَّ ولدك هذا سيكون علامة عصره...^(٢).

وصدق توسم الوليد، فقد أصبح الإمام الصادق عليه السلام أعلم علماء عصره على الإطلاق، بل أعلم علماء الدنيا على امتداد التاريخ، وليس هناك تعليل مقنع لهذه الظاهرة التي اتَّصف بها سليل النبوة في حال طفولته، إلا القول بما تذهب إليه الشيعة من أن الله تعالى منح أئمة أهل البيت عليهم السلام العلم والحكمة في جميع أدوار حياتهم كما منح أنبياءه ورسله.

معرفته بجميع اللغات:

وكان في سنه المبكر عارفاً بجميع لغات العالم إذ كان يتكلم مع كلِّ أهل لغة كأنه واحد منهم.

(١) هذه المجموعة من النجوم تسمى في اصطلاح العلم الحديث «أوريكا» أو «أريجا».

(٢) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ١٠٨ - ١١٢.

روى أبان بن تغلب قال: غدوت من منزلي بالمدينة وأنا أريد أبا عبد الله فلما صرت بالباب وجدت قوماً عنده لم أعرفهم، ولم أرقوماً أحسن زياً منهم، ولا أحسن سيماً منهم كأنَّ الطير على رؤوسهم، فجعل أبو عبد الله عليه السلام يحدثنا بحديث فخرجنا من عنده، وقد فهم خمسة عشر نفرًا، متفرقي الألسن، منهم العربيُّ، والفارسيُّ، والنبطيُّ، والحبشيُّ، والصقلبيُّ، فقال العربيُّ: حدثنا بالعربية، وقال الفارسيُّ: حدثنا بالفارسية، وقال الحبشيُّ: حدثنا بالحبشية، وقال الصقلبيُّ: حدثنا بالصقلبية وأخبر عليه السلام بعض أصحابه بأنَّ الحديث واحد، وقد فسر له لكل قوم بلغتهم ^(١).

ودار الحديث بين الإمام عليه السلام وبين عمار الساباطي باللغة النبطية فبهر عمار وراح يقول: (ما رأيت نبطياً أفصح منك بالنبطية..). فقال عليه السلام له: «يا عمار وبكلِّ لسان» ^(٢).

هيئته ووقاره:

كانت الوجوه تعنو لهيبة الإمام الصادق عليه السلام ووقاره، فقد حاكى هيئة الأنبياء، وجلالة الأوصياء، وما رآه أحدٌ إلا هابه إذ كانت تعلوه روحانية الإمامة، وقداسة الأولياء. وكان ابن مسكان وهو من خيار الشيعة وثقاتها لا يدخل عليه شفقة أن لا يوافيه حقُّ إجلاله وتعظيمه، فكان يسمع ما يحتاج إليه من أمور دينه من أصحابه، ويأبى أن يدخل عليه ^(٣).

(١) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ٤٦ - ٤٧، انظر بحار الأنوار، المجلسي: ٤٧: ٩٩ وفي الرواية (متفرقو الألسن) وما في متن الكتاب مضمون الرواية وليست نصّها.

(٢) الاختصاص: ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٣.

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الصادق عليه السلام

سعة علمه:

لقد شقَّ الإمام الصادق عليه السلام العلوم بفكره الثاقب وبصره الدقيق، حتَّى ملأ الدنيا بعلومه، وهو القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحدٌ بعدي بمثل حديثي»^(١). ولم يقل أحدٌ هذه الكلمة سوى جده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأدلى عليه السلام بحديث أعرب فيه عن سعة علومه فقال: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾»^(٢).

وقد كان من مظاهر سعة علمه أنه قد ارتوى من بحر علومه أربعة آلاف طالب وقد أشاعوا العلم والثقافة في جميع الحواضر الإسلامية ونشروا معالم الدين وأحكام الشريعة^(٣).

كرمه وجوده :

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام، من أندى الناس كفاً، وكان وجود بما عنده لإنعاش الفقراء والمحرومين، وقد نقل الرواة بوادر كثيرةً من كرمه، كان من بينها ما يلي:

١ - دخل عليه أشجع السلمي فوجده عليلاً، وبادر أشجع فسأل عن سبب علته،

فقال عليه السلام: تعدّ عن العلة، واذكر ما جئت له فقال:

ألبسك الله منه عافيةً في نومك المعتري وفي أرقك
يُخرج من جسمك السقام كما أخرج ذلَّ السؤال من عنقك

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٦: ٤٥، تذكرة الحفاظ ١: ١٥٧، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٥: ٧٩.

(٢) أصول الكافي ١: ٢٢٩، والآية في سورة النحل (١٦) الآية ٨٩.

(٣) الإرشاد ٢: ١٧٩، عنه في إعلام الوری: ٣٢٥، ومناقب آل أبي طالب ٤: ٢٤٧. المعتبر للمحقّق الحلي: ٥، حياة

الإمام الصادق عليه السلام، باقر شريف القرشي ١: ٦٢.

وعرف الإمام حاجته فقال لغلامه: أي شيء معك؟ فقال: أربعمائة. فأمره بإعطائها له ^(١).

٢ - ودخل عليه المفضل بن رمانة وكان من ثقات أصحابه ورواته فشكا إليه ضعف حاله، وسأله الدعاء، فقال عليه السلام لجاريته: «هاتِ الكيس الذي وصلنا به أبو جعفر، فجاءته به، فقال له: هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن به، فقال المفضل: لا والله جُعِلت فداك ما أردت هذا، ولكن أردت الدعاء، فقال عليه السلام: لا أدعُ الدعاء لك» ^(٢).

٣ - سأله فقيرٌ فأعطاه أربعمائة درهم، فأخذها الفقير، وذهب شاكرًا، فقال عليه السلام لخادمه: ارجعه، فقال الخادم: سئلت فأعطيت، فماذا بعد العطاء؟ قال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: خير الصدقة ما أبقت غني، وإنّا لم نغنه، فخذ هذا الخاتم فاعطه فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم، فإذا احتاج فليبعه بهذه القيمة» ^(٣).

٤ - ومن بوادر جوده وسخائه وحبه للبرّ والمعروف أنه كانت له ضيعةٌ قرب المدينة تسمى (عين زياد)، فيها نخلٌ كثيرٌ، فإذا نضج التمر أمر الوكلاء أن يثلموا في حيطانها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا من التمر.

وكان يأمر لجيران الضيعة الذين لا يقدرّون على المجي كالشيخ والعجوز والمريض لكل واحد منهم بمدٍّ من التمر، وما بقي منهم يأمر بحمله إلى المدينة فيفرّق أكثره على الضعفاء والمستحقين، وكانت قيمة التمر الذي تنتجه الضيعة أربعة آلاف دينار، فكان ينفق ثلاثة آلاف منها، ويبقى له ألف ^(٤).

(١) أمالي الطوسي: ١: ٢٨٧، مناقب آل أبي طالب: ٤: ٣٤٥.

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للطوسي: ٢: ٤٢٢ رقم ٣٢٢، ترجمة مفضل بن قيس بن رمانة.

(٣) الإمام جعفر الصادق، أحمد مغنية: ٤٧.

(٤) الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤: ٤٧، انظر الكافي: ٣: ٥٦٩.

٥ - ومن بوادر كرمه أنه كان يطعم ويكسو حتى لم يبق لعياله شيء من كسوة أو طعام^(١).

ومن كرمه أنه مرَّ به رجلٌ، وكان عليه السلام يتغذى، فلم يسلم الرجل فدعاه الإمام إلى تناول الطعام، فأنكر عليه بعض الحاضرين، وقال له: السنة أن يسلم ثم يُدعى، وقد ترك السلام على عمد ... فقابلته الإمام عليه السلام ببسمات مليئة بالبشر وقال له: «هذا فقه عراقي، فيه بخل...»^(٢).

صدقاته في السر:

أما الصدقات في السر فإنها من أفضل الأعمال وأحبها لله لأنها من الأعمال الخالصة التي لا يشوبها أيُّ غرض من أغراض الدنيا، وقد ندب إليها أئمة أهل البيت عليهم السلام، كما أنها كانت منهجاً لهم، فكل واحد منهم كان يعول جماعة من الفقراء وهم لا يعرفونه. وكان الإمام الصادق يقوم في غلس الليل البهيم فيأخذ جراباً فيه الخبز واللحم والدراهم فيحمله على عاتقه ويذهب به إلى أهل الحاجة من فقراء المدينة فيقسمه فيهم، وهم لا يعرفونه، وما عرفوه حتى مضى إلى الله تعالى فافتقدوا تلك الصلات فعلموا أنها منه^(٣).

ومن صلاته السرية ما رواه إسماعيل بن جابر قائلاً: أعطاني أبو عبد الله عليه السلام خمسين ديناراً في صرة، وقال لي: «ادفعها إلى شخص من بني هاشم، ولا تعلمه أني أعطيتك شيئاً»، فأتيته ودفعتها إليه فقال لي: من أين هذه؟ فأخبرته أنها من شخص لا يقبل أن تعرفه، فقال العلوي: ما يزال هذا الرجل كل حين يبعث بمثل هذا المال، فنعيش بها إلى قابل، ولكن لا يصلني جعفر ب درهم مع كثرة ماله^(٤).

(١) تاريخ الإسلام ٦: ٤٥، مرآة الزمان ٦: ١٦٠، تهذيب الكمال ٥: ٨٧.

(٢) حياة الإمام الصادق عليه السلام ١: ٦٤ عن نثر الدرر، بحار الأنوار ٧٥: ٢٠٥.

(٣) الإمام جعفر الصادق: ٤٧، وانظر الكافي ٤: ٨.

(٤) مجموعة ورام ٢: ٨٢، الأمالي: ٦٧٧.

إكرامه للضيوف:

ومن بوادير كرمه وسخائه حبه للضيوف وتكريمه لهم، وقد كان يشرف على خدمة ضيوفه بنفسه، كما كان يأتيهم بأشهى الطعام والدّه، وأوفره، ويكرر عليهم القول وقت الأكل: «أشدكم حباً لنا أكثركم أكلاً عندنا...»^(١).

تواضعه:

ومن مظاهر شخصيته العظيمة نكرانه للذات وحبه للتواضع وهو سيّد المسلمين، وإمام الملايين، وكان من تواضعه أنه كان يجلس على الحصير^(٢)، ويرفض الجلوس على الفرش الفاخرة، وكان ينكر ويشجب المتكبرين حتّى قال ذات مرة لرجل من إحدى القبائل: «من سيّد هذه القبيلة؟ فبادر الرجل قائلاً: أنا، فأنكر الإمام عليه السلام ذلك، وقال له: لو كنت سيّدهم ما قلت: أنا...»^(٣).

ومن مصاديق تواضعه ونكرانه للذات: أن رجلاً من السواد كان يلازمه، فافتقده فسأل عنه، فبادر رجلٌ فقال مستهيناً بمن سأل عنه: إنه نبطيٌّ... فردّ عليه الإمام قائلاً: «أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدمٍ مستوون...». فاستحى القائل^(٤).

سموّ أخلاقه:

كان الإمام الصادق عليه السلام على جانب كبير من سموّ الأخلاق، فقد ملك القلوب، وجذب العواطف بهذه الظاهرة الكريمة التي كانت امتداداً لأخلاق جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله الذي سما على سائر النبيين بمعالي أخلاقه.

(١) الكافي، الكليني ٦: ٢٧٨.

(٢) النجوم الزاهرة ٥: ١٧٦.

(٣) شرح إحقاق الحقّ، المرعشي النجفي ١٩: ٥٣٢ و ٢٨: ٤١، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ)، مكتبة المرعشي النجفي.

(٤) حياة الإمام الصادق عليه السلام ١: ٦٦، مطالب السؤل في مناقب الرسول، لمحمّد طلحة الشافعي: ٤٤٠.

وكان من مكارم أخلاق الإمام وسمو ذاته أنه كان يحسن إلى كل من أساء إليه، وقد روي أن رجلاً من الحجاج توهم أن هميانه^(١) قد ضاع منه، فخرج يفتش عنه فرأى الإمام الصادق عليه السلام يصلي في الجامع النبوي فتعلق به، ولم يعرفه، وقال له: أنت أخذت همياني..؟

فقال له الإمام بعطف ورفق: ما كان فيه؟..

قال: ألف دينار، فأعطاه الإمام ألف دينار، ومضى الرجل إلى مكانه فوجد هميانه، فعاد إلى الإمام معتذراً منه، ومعه المال فأبى الإمام قبوله وقال له: شيء خرج من يدي فلا يعود، إليّ، فبهر الرجل وسأل عنه، فقليل له: هذا جعفر الصادق، وراح الرجل يقول بإعجاب: لا جرّم هذا فعال أمثاله^(٢).

وقال عليه السلام: «إنا أهل بيت مروءتنا العفو عمن ظلمنا»^(٣).

وكان يفيض أخلاقه الندية على حضار مجلسه حتى قال رجل من العامة: والله ما رأيت مجلساً أنبل من مجالسته^(٤).

صبره:

ومن الصفات البارزة في الإمام عليه السلام الصبر وعدم الجزع على ما كان يلاقه من عظيم المحن والخطوب، ومن مظاهر صبره أنه لما توفي ولده إسماعيل الذي كان ملاً العين في أدبه وعلمه وفضله - دعاه عليه السلام جمعاً من أصحابه فقدم لهم مائدة جعل فيها أفرخ الأطعمة وأطيب الألوان، ولما فرغوا من تناول الطعام سأله بعض أصحابه، فقال له: يا سيدي لا أرى عليك أثراً من آثار الحزن على ولدك؟ فأجابه عليه السلام: «وما لي

(١) الهميان: وهو كيس يجعل فيه النقود ويشد على الوسط، وجمعه همايين، وهو معرب عن الفارسية، كما نقله الطريحي عن الأزهر في مجمع البحرين ٦: ٣٣٠.

(٢) الإمام جعفر الصادق: ٤٨، مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب ٣: ٣٩٤.

(٣) الخصال: ١١.

(٤) أصول الكافي ٢: ٦٥٧.

لا أكون كما ترون، وقد جاء في خبر أصدق الصادقين - يعني جده رسول الله ﷺ - إلى أصحابه إني ميت وإياكم»^(١).

إقباله على العبادة:

أما الإقبال على عبادة الله تعالى وطاعته فإنه من أبرز صفات الإمام، فقد كان من أعبد الناس لله في عصره، وقد أخلص في طاعته لله كأعظم ما يكون الإخلاص، وإليك صورة موجزة عن عباداته:

أ - صلاته: إن الصلاة من أفضل العبادات وأهمها في الإسلام، وقد أشاد بها الإمام الصادق عليه السلام في كثير من أحاديثه:

قائلاً عليه السلام: «ما تقرب العبد إلى الله بعد المعرفة بأفضل من الصلاة»^(٢).

وقال عليه السلام: «إن أفضل الأعمال عند الله يوم القيامة الصلاة، وما أحسن من عبد توضأ فأحسن الوضوء»^(٣).

وقال عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقى»^(٤).

وقال عليه السلام: «أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء، فما أحسن الرجل يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يتنحى حيث لا يراه أنسي فيشرف الله عليه وهو راكع أو ساجد إن العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس: يا ويله أطاعوا وعصيت، وسجدوا وأبيت»^(٥).

وقال أبو بصير: دخلت على أم حميدة - زوجة الإمام الصادق عليه السلام - أعزبها بأبي عبد الله عليه السلام فبكت وبكى لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله عند

(١) الإمام جعفر الصادق: ٤٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام، للصدوق ١: ٥.

(٢) مجموعة ورام ٢: ٨٦ في المصادر الأصلية: «ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة» الكافي ٣: ٢٦٤.

(٣) وسائل الشيعة ٦: ٤٣٢ و ٨: ١٢٩.

(٤) المصدر السابق ٤: ٤٣ - ٤٤ و ٧: ٢٦٢.

(٥) المصدر السابق ٣: ٢٦.

الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه ثم قال: «اجمعوا كل من بيني وبينه قرابة. قالت فما تركنا أحداً إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة»^(١).

ب - صومه: إن الصوم من العبادات المهمة في الإسلام، وذلك لما يترتب عليه من الفوائد الاجتماعية والصحية والأخلاقية، «وهو جنة من النار» - كما قال الإمام الصادق عليه السلام -^(٢).

وقد حث الإمام الصادق عليه السلام الصائم على التحلي بالأخلاق والآداب التالية، قال عليه السلام: «وإذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، ولسانك من القبيح والحرام، ودع المراء، وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، ولا تجعل يوم صومك مثل يوم فطرك سواء...»^(٣).

وكان عليه السلام صائماً في أغلب أيامه تقريباً إلى الله تعالى. أما شهر رمضان المبارك فكان يستقبله بشوق بالغ، وقد أثرت عنه بعض الأدعية المهمة عند رؤيته لهلاله، كما أثرت عنه بعض الأدعية في سائر أيامه وفي ليالي القدر المباركة وفي يوم عيد الأضحى الأغر^(٤).

ج - حجّه: أما الحج فهو بالإضافة إلى قدسيته من أهم المؤتمرات العبادية السياسية التي تعقد في العالم الإسلامي، حيث تُعرض فيه أهم المشاكل التي تواجه المسلمين سواء أكانت من الناحية الاقتصادية، أم الاجتماعية، أو المشاكل السياسية الداخلية والخارجية، مضافاً إلى أنه من أهم الروابط التي يعرف بها المسلمون بعضهم بعضاً.

وقد حج الإمام الصادق عليه السلام مرات متعددة والتقى بكثير من الحجاج المسلمين، وقد كان المعلم والمرشد لهم إلى مسائل الحج، فقد جهد هو وأبوه الإمام محمد

(١) وسائل الشيعة ٣: ١٧، الأمالي للصدوق: ٥٧٢.

(٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق ١: ١٦٥.

(٤) راجع الصحيفة الصادقية، باقر شريف القرشي ٥: ١١٩ - ١٤٧، تهذيب الأحكام، للطوسي ٣: ٩٤.

الباقر عليه السلام لى بيان أحكام الحجّ بشكل تفصيليٍّ، وعنهما أخذ الرواة والفقهاء أحكام هذه الفريضة، ولولاهما لما عُرفت مسائل الحج وأحكامه.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يؤدي بخضوع وخشوع مراسيم الحجّ من الطواف، والوقوف في عرفات ومنى، وقد روى بكر بن محمد الأزدي فقال: خرجت أطوف، وإلى جنبي الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام حتّى فرغ من طوافه ثم مال فصلّى ركعتين بين ركن البيت والحجر، وسمّته يقول في أثناء سجوده: «سجد وجهي لك تعبدًا ورقًا، لا إله إلا أنت حقًا حقًا، الأوّل قبل كلّ شيء، والآخر بعد كلّ شيء، وها أنا ذا بين يديك، ناصيتي بيدك فاغفر لي إنه لا يغفر الذنب العظيم غيرك، فاغفر لي، فإني مقرّ بذنوبي على نفسي، ولا يدفع الذنب العظيم غيرك».

ثم رفع رأسه الشريف، ووجهه كأنما غُمس في الماء من كثرة البكاء ^(١).

النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام الصادق عليه السلام

أشاد الإمام الباقر عليه السلام أمام أعلام شيعته بفضل ولده الصادق عليه السلام قائلاً: هذا خير البرية ^(٢).

وأفصح عمّه الشهيد زيد ابن الإمام عليّ زين العابدين (رض) عن عظيم شأنه فقال: «في كلّ زمان رجلٌ منّا أهل البيت يحتج الله به على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضلّ من تبعه ولا يهتدي من خالفه» ^(٣).

وقال مالك بن أنس: «ما رأيت عينٌ ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً» ^(٤).

(١) قرب الإسناد، للحميري عبد الله بن جعفر: ٢٨.

(٢) الكافي ١: ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق: ٣٠٦.

(٤) تهذيب التهذيب ٢: ١٠٤.

وقال المنصور الدوانيقي مؤبناً الإمام الصادق عليه السلام: «إن جعفر بن محمد كان ممن قال الله فيه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١) وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات»^(٢).

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ): سمعت أبي يقول: «جعفر ابن محمد ثقة لا يُسأل عن مثله».

وقال: سمعت أبا زرعة وسئل عن جعفر بن محمد عن أبيه وسهيل بن أبي صالح عن أبيه والعلاء عن أبيه أيما أصح؟ قال: «لا يُقرن جعفر بن محمد إلى هؤلاء»^(٣).

وقال ابو حاتم محمد بن حبان (ت ٣٥٤ هـ) عنه: «كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً»^(٤).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي (٣٢٥ - ٤١٢ هـ) عنه: «فاق جميع أقرانه من أهل البيت عليه السلام وهو ذو علم غزير وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات وأدب كامل في الحكمة»^(٥).

وعن صاحب حلية الأولياء (ت ٤٣٠ هـ): «ومنهم الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أقبل على العبادة والخضوع وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»^(٦).

(١) سورة فاطر ٣٥: ٣٢.

(٢) تاريخ يعقوبي ٣: ١٧.

(٣) الجرح والتعديل ٢: ٤٨٧.

(٤) الثقات ٦: ١٣١.

(٥) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٥٨.

(٦) حلية الأولياء ١: ٧٢.

ومن الجدير ذكره أن الإمام عليه السلام نهى عن الرئاسة وآثر العزلة والخشوع، لئلا يتعرض للملاحقة العباسية وأن الوضع السياسي آنذاك يتطلب من الإمام عليه السلام بناء القاعدة الأساسية الأولى ووضع حجر الزاوية في ذلك البناء ليرسخ مبادئ الفكر الإسلامي السليم ويثبت قواعد الفقه وستر العلوم خشية أن تتعرض هي الأخرى إلى الانحراف والتشويه، وإلا فهو يؤمن بأن الرئاسة حقٌّ إلهيٌّ له منصوصٌ عليها من قبل الله تبارك وتعالى باعتباره إماماً معصوماً مفترض الطاعة ورئيساً للدولة الإسلامية المعصومة.

وأضاف الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) على ما قاله السلمي عنه: «وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع في الخلافة أحداً^(١)، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حطّ»^(٢).

وذكر الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ) في مناقب أبي حنيفة أنّه قال: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد. وقال: لولا الستتان لهلك النعمان. مشيراً إلى الستين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق»^(٣).

وقال محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢ هـ) عنه: «هو من عظماء أهل البيت عليه السلام وساداتهم ذو علوم جمّة وعبادة موفورة وأوراد متواصلة وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن الكريم ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكر الآخرة، واستماع كلامه يزهد في الدنيا، والإقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدع بأنه من ذرية الرسالة، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم .. وعدّوا أخذهم عنه منقبةً شرفوا بها وفضيلةً اكتسبوها.

وأما مناقبه وصفاته فتكاد تفوت عدّ الحاصر ويحار في أنواعها فهم اليقظ الباصر حتّى أنّ من كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجال التقوى، صارت الأحكام التي لا تدرك عللها، والعلوم التي تقصر الأفهام عن الإحاطة بحكمها، تضاف إليه وتروى عنه.

(١) إذا كان يقصد بذلك التعرض الظاهر للإمامة كما يُفهم من قوله «ولا نازع في الخلافة» فهذا صحيح وإلا فلا.

(٢) الملل والنحل ١: ١٤٧ منشورات الشريف الرضي.

(٣) مناقب أبي حنيفة ١: ١٧٢، والنحفة الاثني عشرية: ٨.

وقد قيل أنّ كتاب الجفر الذي بالمغرب ويتوارثه بنو عبد المؤمن هو من كلامه عليه السلام وأنّ في هذه لمنقبةً سنّيةً، ودرجةً في مقام الفضائل عليّةً، وهي نبذةٌ يسيرةٌ مما نُقلَ عنه^(١).

وفي تهذيب الأسماء (٦٣١ - ٦٧٦ هـ) عن عمرو بن أبي المقدام قال: «كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنّه من سلالة النبيين»^(٢).

وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) : «جعفر الصادق ... أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية وكان من سادات أهل البيت، ولُقّب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر وله كلامٌ في صنعة الكيمياء، والزجر والغال ... ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجدّه عليّ زين العابدين وعمّ جدّه الحسن بن عليّ (رضي الله عنهم أجمعين) فلله درّه من قبر ما أكرمه وأشرفه»^(٣).

وقال البخاري في فصل الخطاب (٧٥٦ - ٨٢٢ هـ) : «اتفقوا على جلالة الصادق عليه السلام وسيادته»^(٤).

وقال ابن الصبّاغ المالكي (٧٨٤ - ٨٥٥ هـ) : «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته وذكره في سائر البلدان، ولم يُنقل من العلماء عن أحد من أهل بيته ما نُقل عنه من الحديث.

وروى عنه جماعةٌ من أعيان الأمة.. وصّى إليه أبو جعفر عليه السلام بالإمامة وغيرها وصيّةً ظاهرةً، ونصّ عليها نصّاً جليّاً»^(٥).

* * *

(١) مطالب السؤل ٢: ٥٦.

(٢) تهذيب الأسماء ١: ١٤٩.

(٣) وفيات الأعيان ١: ٣٢٧.

(٤) ينابيع المودة: ٣٨٠ ط اسلامبول.

(٥) الفصول المهمة: ٢٢٢.

الفصل الثاني

حكومة المنصور حتى استشهاد الإمام الصادق عليه السلام

المنصور والتضييق على الإمام الصادق عليه السلام

حين تولّى الحكم أبو جعفر المنصور بعد أخيه أبي العباس السفّاح سنة (١٣٦هـ) عبّر عن مكنون حقه على الإمام الصادق عليه السلام وصحبه من العلويين وغيرهم، وقال عنه المؤرّخون: وكان المنصور خداعاً لا يتردّد في سفك الدماء وكان سادراً في بطشه مستهتراً في فتكه^(١). ووصفه ابن هبيرة وهو أحد معاصريه بقوله: مارأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشدّ تيقظاً من المنصور^(٢). لقد بادر المنصور إلى قتل أبي مسلم الخراساني الذي كان يبغضه، وأبو مسلم هو القائد الأوّل للإنقلاب العبّاسي، وذلك بعد أن أعدّ له المنصور مكيدة وأغراه بالمجيء إلى بغداد. وجرّده من جميع مناصبه العسكرية. ولمّا دخل أبو مسلم الخراساني على المنصور قابله بقساوة بالغة وأخذ يعدّد عليه أعماله وأبو مسلم يعتذر من ذلك.

(١) الكامل في التاريخ ٤ : ٣٥٥.

(٢) تاريخ يعقوبي ٢ : ٣٩٩، تاريخ الطبري ٦ : ٣٢١، والكامل في التاريخ، ابن الأثير ٦ : ٣١.

ثم صفق المنصور عالياً حسب الاتفاق مع حراسه لتكون الصفقة بمثابة ساعة الصفر ، فدخل الحراس وبأيديهم السيوف ، فقال أبو مسلم للمنصور متوسلاً: استبقني لعدوك. فصاح به: وأيِّ عدو أعدى لي منك؟! وبمثل هذا الأسلوب أيضاً قد غدر بعمه عبد الله بن عليّ حيث أرسل عليه بعد أن أعطاه الأمان ثم قتله بعد ذلك^(١) .

أما مخطّطه الخبيث ضدّ الإمام الصادق عليه السلام ونهضته الإسلامية بشكل عام فقد أخذ ثلاثة اتجاهات:

الاتّجاه الأوّل :

اتّخذ المنصور في هذا الاتّجاه أسلوباً مرناً محاولاً فيه الاستفادة من جهد الإمام عليه السلام واحتوائه ضمن سياسة الخلافة العباسية فقد كتب إليه: «لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة مانرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنّك بها ولا تراها نقمةً فنعزيزك بها ، فما نضع عنك؟!»

فكتب إليه : تصحبنا لتصحنا .

فأجابه عليه السلام: «من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك» .

قال : المنصور : والله لقد ميّز عندي منازل الناس ، من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة وإنه ممّن يريد الآخرة لا الدنيا^(٢) .

ومن أساليب المنصور مع الإمام عليه السلام في هذا الاتّجاه ما جاء عن عبد الوهّاب عن أبيه حيث قال :

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦٩ وتاريخ الأمم والملوك، الطبري ٦: ٢٦٦ .

(٢) كشف الغمّة، الإربلي ٢: ٤٢٠ عن تذكرة ابن حمدون، وعنه في بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٤ .

بعث أبو جعفر المنصور إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام وأمر بفرش فطرح له إلى جانبه ، فأجلسه عليها ثم قال عليّ بمحمد ، عليّ بالمهدي . فأقبل المنصور على جعفر عليه السلام فقال : يا أبا عبد الله حديث حدثتني في صلة الرحم ، اذكره ، يسمعه المهدي .

قال : نعم ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال ، قال رسول الله ﷺ : «إنّ الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين ، فيصيرها الله عزّ وجلّ ثلاثين سنة ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة ، فيصيرها الله ثلاث سنين» ثم تلا عليه السلام : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ^(١) .

قال : هذا حسن يا أبا عبد الله ، وليس إياه أردت ، قال أبو عبد الله عليه السلام : نعم حدثني أبي عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : «صلة الرحم تعمّر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير أخيار» .

قال هذا حسن يا أبا عبد الله ، وليس هذا أردت .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : نعم حدثني أبي عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال ، قال رسول الله ﷺ : «صلة الرحم تهوّن الحساب وتقي ميتة السوء» . قال المنصور : نعم إياه أردت ^(٢) .

إنّ السلاطين يخافون الموت ، فالإمام عليه السلام ركّز على هذه الناحية وربطها بصلة الرحم لتعالج الحقد والكيد الذي يشغل ذهن المنصور ضدّ الإمام والعلويين من أهل بيته ، لذا أكّد عليه السلام عن طريق الأحاديث بأنّ طول العمر يرتبط بصلة الرحم .

الإتجاه الثاني:

كما تحرّك المنصور بقوة نحو الإمام عليه السلام عن طريق نشر عيونه وجواسيسه التي كانت تراقب حركة الإمام الصادق وترصد نشاطاته لتزوّده بآخر المعلومات ، ليتّخذ

(١) سورة الرعد ١٣: ٣٩ .

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٤٨٠ ح ١٠٤٩ وعنه في بحار الأنوار ٤٧: ١٦٣ ، البرهان ٢: ٢٩٩ .

منها مسوَّغاً للنيل من الإمام عليه السلام والتضييق على حركته التي كان يرى فيها المنصور خطراً حقيقياً على سلطانه وبالتالي تمهِّد له تلك التقارير أن يصوغ ما يريد من الاتِّهامات لأجل أن يتخذها ذريعة لقتله. وقد تضمَّن هذا الاتِّجاه جملةً من الأساليب.

الأسلوب الأوَّل : عن رزَّام بن مسلم مولى خالد القسري قال : بعثني أبو جعفر المنصور إلى المدينة ، وأمرني إذا دخلت المدينة أن أفضَّ الكتاب الذي دفعه إليّ وأعمل بما فيه ؛ قال : فما شعرت إلاَّ بركب قد طلَّعوا عليَّ حين قربت من المدينة ، وإذا رجلٌ قد صار إلى جانبي ، فقال : يا رزَّام اتقِ الله ، ولا تشرك في دم آل محمَّد قال : فأنكرت ذلك فقال لي : دعاك صاحبك نصف الليل ، وخاط رقعةً في جانب قباك ، وأمرك إذا صرت إلى المدينة ، تفضَّها وتعمل بما فيها .

قال : فرميت بنفسي من المحمل ، وقبَّلت رجله ، وقلت : ظننت أنَّ ذلك صاحبي وأنت يا سيِّدي صاحبي ، فما أصنع ؟ قال : ارجع إليه ، واذهب بين يديه وتعال ، فإنَّه رجلٌ نساء ، وقد أنسي ذلك ، فليس يسألك عنه ، قال : فرجعت إليه ، فلم يسألني عن شيء ، فقلت صدق مولاي^(١) .

الأسلوب الثاني: ومن أساليبه باتِّجاه سياسة التضييق التي فرضها على الإمام عليه السلام محاولة تسليط الضوء على بعض الشخصيات لجعل منها بدائل علميةً تغطِّي على الإمام وتؤيِّد سياسته وتساهم من جانب آخر في تضعيف القدسية والانجذاب الجماهيريِّ نحو الإمام وتؤدِّي بالنتيجة إلى شق وحدة التيار الإسلامي الذي يقرُّ بزعامة الإمام عليه السلام وأعلميته وإيجاد الفرقة والاختلاف .

وقد نجح المنصور بهذه الخطوة فكسب البعض من طلاب الإمام عليه السلام حين أحاطهم بهالة من الاحترام والتقدير وخلق منهم وجوداً قبال مذهب الإمام ونهجه الإسلامي الاصيل.

(١) دلائل الإمامة : ١٢٩ ، ومدينة المعاجز : ٣٦٤ ، وإثبات الهداة : ٥ : ٤٥٦ .

ذكر أبو القاسم البغّار في مسند أبي حنيفة فقال: قال الحسن بن زياد سمعت أبا حنيفة وقد سئل: من أفقه من رأيت؟ قال جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ، فقال يا أبا حنيفة! إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيء له من مسائلك الشداد.

فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته. فدخلت عليه، وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلمت عليه، فأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليه، فقال:

يا أبا عبد الله: هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه. ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألقِ عليّ أبي عبد الله عليه السلام من مسائلك.

فجعلت ألقى عليه فيجيبني، فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا» فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً. حتى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخلّ منها بشيء ثم قال أبو حنيفة: أليس إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟! ^(١).

الأسلوب الثالث: لقد كانت سياسة الإمام عليه السلام أزاء حكومة المنصور ذات طابع غير ثوري، وإنما سلك الإمام نفس نهجه السابق في التغيير والإصلاح، وقد أوحى للمنصور في وقت سابق بأنه لم يكن بصدد التخطيط للثورة ضده بل صرح له في أكثر من مرة بذلك، إلا أنّ المنصور لم يطمئن لعدم تحرك الإمام وثورته التغييرية وذلك بسبب ما كان يشاهده من كثرة مؤيديه.

يحدثنا الإمام الصادق عليه السلام عن الشكوك والتساؤلات التي أثارها المنصور بوجه الإمام عند لقائه به كما في النصّ التالي:

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٦: ٢٥٨ ومناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٩ طبعة (١٣٧٥ هـ: ١٩٥٦ م) المطبعة الحيدرية، النجف، عن مسند أبي حنيفة لأبي القاسم البغّار.

عن حمران قال : «قال أبو عبد الله عليه السلام وبعد ذكر هؤلاء عنده وسوء حال الشيعة عندهم فقال : «إني سرت مع أبي جعفر المنصور وهو في موكبه ، وهو على فرس وبين يديه خيلٌ ومن خلفه خيلٌ، وأنا على حمار إلى جانبه»، فقال لي :
يا أبا عبد الله ! قد كان ينبغي لك أن تفرح بما أعطانا الله من القوة وفتح لنا من العزّ ، ولا تخبر الناس أنك أحقُّ بهذا الأمر منا وأهل بيتك ، فتغرينا بك وبهم .
قال : فقلت : «ومن رفع هذا إليك عني فقد كذب». فقال: أتحلف على ما تقول؟
قال : فقلت : «إنّ الناس سحرة يحبّون أن يفسدوا قلبك عليّ ، فلا تمكّتهم من سمعك، فأنا إليك أحوج منك إلينا».

فقال لي : تذكر يوم سألتك هل لنا ملك ؟ فقلت : «نعم طويلٌ عريضٌ شديدٌ ، فلا تزالون في مهلة من أمركم وفسحة في دنياكم حتى تصيبوا منّا دماً حراماً في شهر حرام في بلد حرام !
فعرفت أنه قد حفظ الحديث، فقلت: لعلّ الله (عزّ وجلّ) أن يكفيك ، فإني لم أخصك بهذا ، وإنما هو حديثٌ رواه، ثم لعلّ غيرك من أهل بيتك يتولّى ذلك ، فسكت عني»^(١).

الاتّجاه الثالث:

واستخدم المنصور مع الإمام عليه السلام أيضاً سياسة الاستدعاء والمقابلة المصحوبة بالتهمة والافتراءات ، أو الاستدعاءات الفارغة من أيّ سؤال، محاولاً عن طريق هذه السياسة شلّ حركة الإمام وجعله تحت ضوء رقابة أجهزته ليطمئنّ المنصور من خطر الإمام ، كما استخدم بعض الأساليب التي من شأنها أن تنال من كرامة الإمام عليه السلام، فمن أساليبه بهذا الاتّجاه :

(١) الكافي، الكليني ٨: ٣٧ حديث الصادق مع المنصور في موكبه، وعنه في بحار الأنوار ٥٢: ٢٥٥، وإثبات الهداة ٥: ٣٥١.

١ - ما جاء عن بشير النبال أنه قال : كنت على الصفا وأبو عبد الله عليه السلام قائم عليها إذ انحدر وانحدرت معه ، وأقبل أبو الدوانيق على حمارته ، ومعه جنده على خيل وعلى إبل ، فزاحموا أبا عبد الله عليه السلام حتى خفت عليه من خيلهم وأقبلت أقيه بنفسي وأكون بينهم وبينه ، قال : فقلت في نفسي : يا ربّ عبدك وخير خلقك في أرضك ، وهؤلاء شرّ من الكلاب قد كانوا يفتنونهم !

قال : فالتفت إليّ وقال : «يا بشير ! قلت : لبيك. قال : «ارفع طرفك لتنظر» .
قال : فإذا - والله - واقيةً من الله أعظم مما عسيت أن أصفه .
قال فقال : «يا بشير ! إنا أعطينا ما ترى ، ولكنّا أمرنا أن نصبر ، فصبرنا»^(١) .

تحرك العلويين نحو الثورة

بعد أن تأكّد المنصور عن طريق المعلومات التي كانت تصله من جواسيسه من أنّ السادة الحسينيين يخططون للثورة عليه، انتظر المنصور موسم الحجّ فلمّا حان الموسم سافر هو وحاشيته إلى بيت الله الحرام ، وبعد انتهائه من مناسك الحجّ رجع إلى يثرب وقد صحب معه عقبة بن مسلم الجاسوس الذي عيّنه المنصور لمراقبة تحرك آل الحسن وكان قد أوصاه قبل سفره فقال له : إذا لقيني بنو الحسن وفيهم عبد الله فأنا مكرمه ورافع محمله وداع بالغذاء فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتك فامثل بين يديه فإنه سيصرف عنك بصره ، فاستدر حتى ترمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك .

ولمّا انتهى المنصور إلى يثرب استقبله السادة الحسينيون وفيهم عبد الله ابن الحسن ، فأجلسه المنصور إلى جانبه ودعا بالغذاء فأصابوا منه فقام عقبة ، ونقذ ما عهد إليه المنصور ، وجلس أمامه ففزع منه عبد الله وقال للمنصور: أقلني أقالك الله... فصاح به: لا أقلني الله إن لم أقلتك^(٢) .

(١) الأصول الستة عشر، لعدّة من المحدثين : ١٠٠ ، وإثبات الهداة ٥ : ٤٦٥ .

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٤ : ٣٧١ .

ثورة محمد بن عبد الله (ذي النفس الزكية)

إنَّ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ الملقَّب بذي النفس الزكية قد رُشِّح باتِّفاق الهاشميين للخلافة، وكان المنصور يسير بخدمته ويسوِّي عليه ثيابه ويمسك له دابته تقرِّباً إليه، وقد بايعه مع أخيه السفاح مرّتين. وبعد اختلاس العباسيين للحكم واستبدادهم وشياع ظلمهم تألَّم محمد فأخذ يدعو الناس إلى نفسه فاستجاب له الناس وظلَّ مختفياً مع أخيه إبراهيم، وقد انتشرت دعائهم في البلاد الإسلامية داعية المسلمين إلى بيعة محمد هذا.

ولمَّا انتهت الأنباء بشهادة عبد الله وسائر السادة الذين كانوا معه إلى محمد ؛ أعلن محمدُ ثورته في المدينة وبايعه الناس وحتى الفقهاء منهم وقد استبشروا بيعته، وحينما انتشر الأمر سارع أهالي اليمن ومكة إلى بيعته وقام خطيباً فيهم فقال :
أما بعد : أيها الناس فإنَّه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخفَ عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه تصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أخذ فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإنَّ أحقَّ الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار المواسين .

اللهم إنهم قد أحلّوا حرامك وحرّموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ، اللهم فاحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً^(١).

ولمَّا علم المنصور بالثورة وجّه جيشاً يقدر بأربعة آلاف فارس بقيادة عيسى ابن موسى، وبعد أن اندلعت الحرب بين الفريقين - خارج المدينة - رغبةً من محمد وحفاظاً على سكّانها من عبث جيش المنصور وأصيب محمد بن عبد الله بجراح خطيرة بسبب تفرّق جنده، وبرك إلى الأرض، فبادر الأثيم حميد بن قحطبة فاحتزَّ رأسه الشريف^(٢).

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٦: ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) اليعقوبي ٢: ٣٧٦ والمسعودي ٣: ٢٩٤ - ٢٩٦ وعن الطبري في الكامل في التاريخ ٥: ٥٤٩ .

موقف الإمام عليه السلام من الثورة

لقد حذر الإمام الصادق عليه السلام عبد الله بن الحسن من الترويج لابنه محمد على أساس أنه المهدي لهذه الأمة، وأخبر عليه السلام بمستقبل الأحداث وتبّه على أنها ستنتهي باستشهاد محمد وأخيه إبراهيم، وأن الخلافة بعد أبي العباس السفاح ستكون للمنصور العباسي.

وحينما سئل عليه السلام عن محمد بن عبد الله ودعوته قبل أن يعلن محمد ثورته أجاب عليه السلام: «إنّ عندي كتابين فيهما اسم كلّ نبي وكلّ ملك يملك، لا والله ما محمد بن عبد الله في أحدهما»^(١).

ولما ثار محمد بن عبد الله (ذي النفس الزكية) ترك الإمام الصادق عليه السلام المدينة، وذهب إلى أرض له بالفرع، فلم يزل هناك مقيماً حتى قتل محمد، فلما قتل واطمأنّ الناس وأمنوا رجع إلى المدينة^(٢).

الإمام الصادق عليه السلام يهيئ الخط الشيعي للمواصلة

لقد كانت الفترة الأخيرة من حياة الإمام الصادق عليه السلام مع حكومة المنصور فترة تشدّد ومراقبة لحركة الإمام، تخللتها محاولات اغتيال عديدة، لكن الإمام عليه السلام علم أنّ المنصور قد صمّم على قتله، ولهذا مارس جملة من الأنشطة ليهيئ فيها الخط الشيعي لمواصلة الطريق من بعده.

النشاط الأوّل: حاول الإمام الصادق عليه السلام أن يجعل من الصفّ الشيعي صفّاً متماسكاً في عمله ونشاطه، وركّز على قيادة الإمام الكاظم عليه السلام من بعده فيما لو تعرّض لعملية قتل من قبل المنصور. وقد قطع الطريق أمام المنتفعين والأدعياء الذين كانوا يتربّصون الفرص؛ لأنّ إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام الذي كان قد توفي

(١) بحار الأنوار ٢٦: ١١٥ عن بصائر الدرجات: ١٦٩.

(٢) كشف الغمّة، الإربلي ٢: ١٦٢، عنه في بحار الأنوار ٤٧: ٥.

في هذه الفترة كان يصلح كفكرة لتفتيت الصفّ الشيعي باعتباره الابن التقي الأكبر للإمام عليه السلام.

وهنا يقوم الإمام الصادق عليه السلام بجملة من الخطوات لمعالجة هذه المشكلة التي سوف تُفتت الصفّ الشيعي من بعده.

قال زرارة بن أعين: دعا الإمام الصادق عليه السلام داود بن كثير الرقي وحميران بن أعين ، وأبا بصير ، ودخل عليه المفضل بن عمر وأتى بجماعة حتى صاروا ثلاثين رجلا فقال: « يا داود اكشف عن وجه إسماعيل » ، فكشف عن وجهه ، فقال: « تأمله يا داود ، فانظره أحيّ هو أم ميّت؟ » فقال: بل هو ميّت . فجعل يعرضه على رجل رجل حتى أتى على آخرهم فقال : « اللهم اشهد » . ثم أمر بغسله وتجهيزه .

ثم قال : « يا مفضل احسر عن وجهه ، فحسر عن وجهه » ، فقال: « أحيّ هو أم ميّت؟ » انظروه أجمعكم » فقال : بل هو يا سيدنا ميّت .

فقال : « شهدتم بذلك وتحققتموه؟ » قالوا : نعم ، وقد تعجبوا من فعله .

فقال : « اللهم أشهد عليهم » . ثم حمل إلى قبره ، فلما وضع في لحدّه ، قال : « يا مفضل ، اكشف عن وجهه » فكشف ، فقال للجماعة: « انظروا أحيّ هو أم ميّت؟ » فقالوا : بل ميّت ، يا وليّ الله .

فقال: « اللهم اشهد فإنه سيرتاب المبطلون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ » ثم أومى إلى موسى عليه السلام وقال: « وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) .

ثم حنّوا عليه التراب ، ثم أعاد علينا القول فقال: « الميّت المكفّن المدفون في هذا اللحد من هو؟ » قلنا : إسماعيل ولدك .

فقال: « اللهم أشهد » . ثم أخذ بيد موسى فقال : « هو حقّ ، والحقّ معه ومنه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها » ^(٢) .

(١) سورة الصف ٦١ : ٨ .

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ١ : ٣٢٧ عن الصدوق وعنه في بحار الأنوار ٤٧ : ٢٥٣ .

النشاط الثاني : رغم الحرب الباردة التي كانت بين المنصور والإمام الصادق عليه السلام نلاحظ أنّ الإمام قد مارس بعض الأدوار مع السلطة لغرض الحفاظ على الأمة وسلامة مسيرتها وإبقاء روح الرفض قائمةً في نفوسها ، مخافة أن تسبب ممارسات المنصور حالة من الانكسار للشيعه حين الاستجابة لمخططاته .

١ - قال أبو جعفر المنصور للإمام الصادق عليه السلام : إني قد عزمت على أن أخرب المدينة ولا أدعُ فيها نافخ ضربة .

فقال : « يا أمير المؤمنين ! لا أجد بداً من النصيحة لك ، فاقبلها إن شئت أو لا » .

ثم قال عليه السلام : « إنّه قد مضى لك ثلاثة أسلاف : أيوب عليه السلام ابتلي فصبر ، سليمان عليه السلام أعطي فشكر ، ويوسف عليه السلام قدر فغفر . فاقنّد بأيهم شئت » . قال : قد عفوت ^(١) .

٢ - قال عبد الله بن سليمان التيمي : لما قتل محمّد وإبراهيم ابنا عبد الله ابن الحسن صار إلى المدينة رجلٌ يقال له شبة عقّال ، ولأه المنصور على أهلها ، فلمّا قدمها وحضرت الجمعة صار إلى المسجد فرقى المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد فإنّ عليّ بن أبي طالب شقّ عصا المسلمين ، وحارب المؤمنين ، وأراد الأمر لنفسه ، ومنعه أهله فحرّمه الله عليه وأمّاته بغصّته . وهؤلاء ولده يتبعون أثره في الفساد وطلب الأمر بغير استحقاق له ، فهم في نواحي الأرض مقتولون ، وبالدماء مضرّجون .

قال : فعظم هذا الكلام منه على الناس ، ولم يجسر أحدٌ منهم أن ينطق بحرف . فقام إليه رجلٌ عليه إزارٌ قوميٌّ سخينٌ فقال : « ونحن نحمد الله ونصلي على محمّد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى رسل الله وأنبيائه أجمعين . أمّا ما قلت من خير فنحن أهله ، وما قلت من سوء فأنت وصاحبك به أولى وأحرى . يا من ركب غير راحلته وأكل غير زاده ، ارجع مأزوراً .

(١) أمالي الطوسي : ٥٠ ح ٦٦ ، وعنه في بحار الأنوار ٤٧ : ١٨٤ وانظر مناقب آل أبي طالب ٤ : ٢٥١ ، كشف الغمّة ٢ : ٤٢٠ .

ثم أقبل على الناس ، فقال : ألا آتيناكم بأخفّ الناس ميزاناً يوم القيامة ، وأبينهم خسراناً ؟ : من باع آخرته بدنياه غيره ، وهو هذا الفاسق».

فأسكت الناس ، وخرج الوالي من المسجد ولم ينطق بحرف.
فسألت عن الرجل: فقيل لي : هذا جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(١).

النشاط الثالث : وهو نشاط الإمام الصادق عليه السلام الخاص مع الشيعة في هذا الظرف العصيب وأساليب الاتصال بهم.
وقد ركّز الإمام على مبادئ إسلامية وممارسات إصلاحية في نفوس شيعته، مثل التقيّة ، وكتمان السر ، والعلاقة بالثورة الحسينية لتحافظ هذه المبادئ والممارسات على الوجود الشيعي وتقيه من الضربات والمخططات الخارجية .

والرواية التالية تصوّر لنا نشاط الإمام السريّ مع صحبه في هذه الفترة .
روي أنّ الوليد بن صبيح قال : كنا عند أبي عبد الله عليه السلام في ليلة إذ طرق الباب طارقاً، فقال للجارية : انظري من هذا ؟

فخرجت ثم دخلت فقالت : هذا عمّك عبد الله بن عليّ عليه السلام فقال : أدخله .
وقال لنا : ادخلوا البيت فدخلنا بيتاً ، فسمعنا منه حسّاً ، ظننا أنّ الداخل بعض نسائه ، فلصق بعضنا ببعض ، فلما دخل أقبل على أبي عبد الله عليه السلام فلم يدع شيئاً من القبيح إلّا قاله في أبي عبد الله عليه السلام ثم خرج، وخرجنا ، فأقبل يحدثنا من الموضع الذي قطع كلامه .

فقال بعضنا : لقد استقبلك هذا بشيء ما ظننا أنّ أحداً يستقبل به أحداً، حتى لقد همّ بعضنا أن يخرج إليه فيوقع به .
فقال عليه السلام : «مه، لا تدخلوا فيما بيننا».

فلما مضى من الليل ما مضى ، طرق الباب طارقاً فقال للجارية : انظري من هذا؟ فخرجت ، ثم عادت ، فقالت : هذا عمّك عبد الله بن عليّ عليه السلام فقال لنا : عودوا إلى مواضعكم، ثم أذن له.

(١) أمالي الشيخ الطوسي : ٦٦ ، وبحار الأنوار : ٤٧ : ١٦٥ وحلية الأبرار : ٢ : ٢١٥ .

فدخل بشهيق ونحيب وبكاء وهو يقول : يا بن أخي ، اغفر لي غفر الله لك ،
اصفح عني صفح الله عنك .

فقال : «غفر الله لك يا عمّ ، ما الذي أحوجك إلى هذا؟» .

قال : إنني لما آويتُ إلى فراشي أتاني رجلان أسودان فشدّا وثاقي ، ثم قال
أحدهما للآخر : انطلق به إلى النار : فانطلق بي ، فمررت برسول الله فقلت : يا رسول
الله ، لا أعود . فأمره فخلّى عني ، وأني لأجد ألم الوثاق .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : أوص .

قال : بَمَ أوصي ؟ ما لي مالٌ ، وأنّ لي عيالاً كثيرةً وعليّ دينٌ .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : «دينك عليّ ، وعيالك عيالي ، فأوص» .

فما خرجنا من المدينة حتى مات ، وضمّ أبو عبد الله عليه السلام عياله إليه ، وقضى
دينه ، وزوّج ابنه ابنته ^(١) .

وأغلب الظن أنّ نشاط الإمام الصادق عليه السلام من هذا النوع قد تركّز أيام المنصور
لكثرة الجواسيس والعيون التي كانت ترصد حركة الإمام عليه السلام ممّا دفع بالإمام إلى
أن يلجأ إلى عقد الاجتماعات في بيته سرّاً لغرض مواصلة دوره الإلهي مع الأمة عن
طريق توجيه النخبة الصالحة التي وفقت لهذا الدور .

محاصرة الإمام عليه السلام قبيل استشهاده

صعد المنصور من تضييقه على الإمام الصادق عليه السلام ، ومهد لقتله .

فقد روى الفضل بن الربيع عن أبيه ، فقال : دعاني المنصور ، فقال : إنّ جعفر
بن محمّد يلحد في سلطانني ، قتلني الله إن لم أقتله . فأتيته ، فقلت : أجب أمير
المؤمنين . فتطهّر ولبس ثياباً جدداً .

فأقبلت به ، فاستأذنت له فقال : أدخله ، قتلني الله إن لم أقتله .

(١) الخرائج والجرائح ، قطب الدين الراوندي ٢ : ٦١٩ وعنه في بحار الأنوار ٤٧ : ٩٦ ، وإثبات الهداة ٥ : ٤١٠

فلما نظر إليه مقبلاً ، قام من مجلسه فتلقاه وقال : مرحباً بالتقي الساحة البريء من الدغل والخيانة ، أخي وابن عمي .
فأقعده على سريريه ، وأقبل عليه بوجهه ، وسأله عن حاله ، ثم قال :
سلني حاجتك ، فقال عليه السلام : «أهل مكة والمدينة قد تأخر عطاؤهم ، فتأمر لهم به» .

قال : أفعل ، ثم قال : يا جارية ! إئتني بالتحفة فأتته بمدھن زجاج ، فيه غالية ، فغلّفه بيده وانصرف فأتبعته ، فقلت :
يا بن رسول الله ! أتيت بك ولا أشك أنه قاتلك ، فكان منه ما رأيت ، وقد رأيتك تحرك شفّيتك بشيء عند الدخول ، فما هو ؟
قال قلت : «اللهم احرسني بعينك التي لاتنام ، واكنفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بقدرتك عليّ ، ولا تهلكني وانت رجائي ...» ^(١) .
ولم يكن هذا الاستدعاء للإمام من قبل المنصور هو الاستدعاء الأوّل من نوعه بل إنّه قد أرسل عليه عدّة مرات وفي كلّ منها أراد قتله ^(٢) .
لقد صوّر لنا الإمام الصادق عليه السلام عمق المأساة التي كان يعانيتها في هذا الظرف بالذات والأذى الذي كان المنصور يصبه عليه ، حتى قال عليه السلام - كما ينقله لنا عنبسة -
قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : «أشكو إلى الله وحدتي وتقلّقي من أهل المدينة حتى تقدموا ^(٣) وأراكم أسرّ بكم ، فليت هذا الطاغية أذن لي فاتخذت قصرًا في الطائف فسكنته ، وأسكنتكم معي ، وأضمن له أن لا يجيء من ناحيتنا مكروهٌ أبداً» ^(٤) .

الإمام الصادق عليه السلام في ذمة الخلود

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٦ : ٢٦٦ ، ملحقات إحقاق الحق ١٩ : ٥١٣ ، والفرج بعد الشدة : ٧٠ عن التذكرة لابن الجوزي : ٣٠٨ - ٣٠٩ مسنداً .

(٢) الكافي ٢ : ٥٥٩ و ٦ : ٤٤٥ وعنه في الخرائج والجرائح ٢ : ١٩٥ وتاريخ مدينة دمشق ١٩ : ٥١٦ .

(٣) الموالون لأهل البيت أو خاصة الإمام .

(٤) الكافي ٨ : ٢١٥ ورجال الكشي : ٣٦٥ وبحار الأنوار ٤٧ : ٨٥ .

وتتابعت المحن على سليل النبوة وعملاق الفكر الإسلامي - الإمام الصادق عليه السلام - في عهد المنصور الدوانيقي - فقد رأى ما قاساه العلويون وشيعتهم من ضروب المحن والبلاء، وما كابده هو بالذات من صنوف الإرهاق والتنكيل، فقد كان الطاغية يستدعيه بين فترة وأخرى، ويقابله بالشتم والتهديد ولم يحترم مركزه العلمي، وشيخوخته، وانصرافه عن الدنيا إلى العبادة، وإشاعة العلم، ولم يحفل الطاغية بذلك كله، فقد كان الإمام شبيحاً مخيفاً له... ولما أيقن الإمام عليه السلام بدنو الأجل المحتوم منه وأن لقاءه بربه قريب، أعلن الإمام الصادق عليه السلام للناس ذلك. وسنعرض بإيجاز الشؤون الأخيرة من حياة الإمام ووفاته من خلال بعض ما أخبر به:

أ- قال شهاب بن عبد ربه: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «كيف بك إذا نعاني إليك محمد ابن سليمان؟» قال: فلا والله ما عرفت محمد بن سليمان من هو. فكنيت يوماً بالبصرة عند محمد بن سليمان، وهو والي البصرة إذ ألقى إليّ كتاباً، وقال لي: يا شهاب، عظم الله أجرك وأجرنا في إمامك جعفر بن محمد. قال: فذكرت الكلام فخنقنني العبرة^(١).

ب - أخبر الإمام عليه السلام المنصور بدنو أجله لما أراد الطاغية أن يقتله فقد قال له: «ارفق فوالله لقل ما أصحبك». ثم انصرف عنه، فقال المنصور لعيسى بن علي: قم أسأله، أبي أم به؟ - وكان يعني الوفاة -.

فلحقه عيسى، وأخبره بمقالة المنصور، فقال عليه السلام: لا بل بي^(٢). وتحقق ما تنبأ به الإمام عليه السلام فلم تمض فترة يسيرة من الزمن حتى وافته المنية. كان الإمام الصادق عليه السلام شجياً يعترض في حلق الطاغية الدوانيقي، فقد ضاق ذرعاً به، وقد حكى ذلك لصديقه وصاحب سره محمد بن عبد الله الإسكندري.

(١) اختيار معرفة الرجال، الطوسي: ٤١٤ ح ٧٨١ ودلائل الإمامة: ١٣٨ وإعلام الوري: ١: ٥٢٢، ٥٢٣ ومناقب آل أبي طالب ٤: ٢٤٢.

(٢) مهج الدعوات، لابن طاووس: ٢٣١.

يقول محمد: دخلت على المنصور فرأيتُه مغتَمًّا، فقلت له: ما هذه الفكرة؟ فقال: يا محمد لقد هلك من أولاد فاطمة عليها السلام مقدار مائة ويزيدون - وهؤلاء كلهم كانوا قد قتلهم المنصور - وبقي سيدهم وإمامهم.

فقلت: من ذلك؟

فقال: جعفر بن محمد الصادق.

وحاول محمد أن يصرفه عنه، فقال له: إنه رجلٌ أنحلته العبادَة، واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة.

ولم يرض المنصور مقالته فردّ عليه: يا محمد قد علمتُ أنك تقول به، وبإمامته ولكنّ المُلْك عقيم^(١).

وأخذ الطاغية يضيق على الإمام، وأحاط داره بالعيون وهم يسجلون كل بادرة تصدر عن الإمام، ويرفعونها له، وقد حكى الإمام عليه السلام ما كان يعانيه من الضيق، حتى قال: «عزّت السلامة، حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن طُلبت في الخمول فلم توجد فيوشك أن تكون في الصمت، والسعيد من وجد في نفسه خلوةً يشتغل بها»^(٢).

لقد صمّم على اغتياله^(٣) غير حافل بالعار والنار، فدرس إليه سمًّا فاتكأ على يد عامله، فسقاه به، ولمّا تناوله الإمام عليه السلام تقطّعت أمعائه وأخذ يعاني آلاماً قاسيةً، وأيقن بأنّ نهاية حياته قد دنت.

ولمّا شعر الإمام عليه السلام بدنوّ الأجل المحتوم منه أوصى بعدّة وصايا كان من بينها ما يلي:

أ - إنه أوصى للحسن بن عليّ المعروف بالأفطس بسبعين ديناراً، فقال له شخص: أعطني رجلاً حمل عليك بالشفرة؟ فقال عليه السلام له: ويحك ما تقرأ

(١) مهج الدعوات، ابن طاووس: ٢٤٧.

(٢) كشف الغمّة، الإربلي ٢: ٣٧١.

(٣) نور الأبصار: ١٣٣، الاتحاف بحب الاشراف: ٥٤، سبائك الذهب: ٧٢.

القرآن؟! ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(١)^(٢).

لقد أخلص الإمام عليه السلام كأعظم ما يكون الإخلاص للدين العظيم، وآمن بجميع قيمه وأهدافه، وابتعد عن العواطف والأهواء، فقد أوصى بالبر لهذا الرجل الذي رام قتله لأن في الإحسان إليه صلة للرحم التي أوصى الله بها.

ب - إنه أوصى بوصاياه الخاصة، وعهد بأمره أمام الناس الى خمسة أشخاص: وهم المنصور الدوانيقي، ومحمد بن سليمان، وعبدالله، وولده الإمام موسى، وحميدة زوجته.

وإنما أوصى بذلك خوفاً على ولده الإمام الكاظم عليه السلام من السلطة الجائرة، وقد تبين ذلك بوضوح بعد وفاته، فقد كتب المنصور الى عامله على يثرب، بقتل وصي الإمام، فكتب إليه: إنه أوصى الى خمسة، وهو أحدهم، فأجابه المنصور: ليس الى قتل هؤلاء من سبيل^(٣).

ج - إنه أوصى بجميع وصاياه الى ولده الإمام الكاظم عليه السلام وأوصاه بتجهيزه وغسله وتكفينه، والصلاة عليه، كما نصبه إماماً من بعده، ووجه خواص شيعته إليه وأمرهم بلزوم طاعته.

د - إنه دعا السيدة حميدة زوجته، وأمرها باحضار جماعة من جيرانه، ومواليه، فلما حضروا عنده قال لهم: «إِنَّ شَفَاعَتَنَا لَا تَنَالُ مُسْتَخْفًا بِالصَّلَاةِ...»^(٤).

وأخذ الموت يدنو سريعاً من سليل النبوة، ورائد النهضة الفكرية في الإسلام، وفي اللحظات الأخيرة من حياته أخذ يوصي أهل بيته بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ويحذّرهم من مخالفة أوامر الله وأحكامه، كما أخذ يقرأ سوراً وآيات من القرآن الكريم،

(١) سورة الرعد ١٣: ٢١.

(٢) الغيبة للطوسي: ١٩٧، بحار الأنوار ٤٧: ٢٧٦.

(٣) الكافي ١: ٣١٠ وانظر مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤٥.

(٤) بحار الأنوار ٤٧: ٢ عن عقاب الأعمال للصدوق: ٢٧٢.

ثم ألقى النظرة الأخيرة على ولده الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وفاضت روحه الزكية الى بارئها.

لقد كان استشهاد الإمام من الأحداث الخطيرة التي مُني بها العالم الإسلامي في ذلك العصر، فقد اهتزّت لهوله جميع أرجائه، وارتفعت الصيحة من بيوت الهاشميين وغيرهم وهرع الناس نحو دار الإمام وهم ما بين واجم ونائح على فقد الراحل العظيم الذي كان ملاذاً ومفزعاً لجميع المسلمين.

وقام الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وهو مكلوم القلب، فأخذ في تجهيز جثمان أبيه، فغسل الجسد الطاهر، وكفّنه بثوبين شطويين^(١) كان يحرم فيهما، وفي قميص وعمامة كانت لجده الإمام زين العابدين عليه السلام، ولقّنه ببرد اشتراه الإمام موسى عليه السلام بأربعين ديناراً، وبعد الفراغ من تجهيزه صلّى عليه الإمام موسى الكاظم عليه السلام وقد ائتمّ به مئات المسلمين.

وحُمِل الجثمان المقدّس على أطراف الأنامل تحت هالة من التكبير، وقد غرق الناس بالبكاء وهم يذكرون فضل الإمام وعائده على هذه الأمة بما بثّه من الطاقات العلمية التي شملت جميع أنواع العلم. وجيء بالجثمان العظيم الى البقيع المقدّس، فدفن في مقرّه الأخير بجوار جده الإمام زين العابدين وأبيه الإمام محمّد الباقر عليه السلام وقد واروا معه العلم والحلم، وكلّ ما يسمو به هذا الكائن الحيّ من بني الإنسان^(٢).

ويناسب أن نختم الكلام على الإمام الصادق عليه السلام برثائه على لسان أحد أصحابه وهو أبو هريرة العجلي بقوله:

أقولُ وقد راحوا به يحملونهُ على كاهل من حامله وعاتق
أتدرونَ ماذا تحملونَ الى الثرى ثبيراً ثوى من رأسِ عليّ شاهق
غداةَ حتّى الحاثونَ فوقَ ضريحهِ تراباً، وأولى كان فوقَ المفارق^(٣)

(١) شطويين: مفردة شطا إحدى قرى مصر.

(٢) عصر الإمام الصادق، باقر شريف القرشي: ١٦٧ - ١٧٠.

(٣) مقتضب الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر، ابن عيَّاش الجوهري: ٥٢.

الفصل الثالث

دور الإمام عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة

لم يقتصر نشاط الإمام عليه السلام على بناء الجامعة العلمية وغيرها من الأنشطة العامة؛ لأنه كان يدرك جيداً أنّ هدفه الكبير هو الحفاظ على الإسلام الذي سوف يتعرض للتعطيل إذا اقتصر على ذلك ولم يستهدف المحتوى الداخلي للأفراد ولم يسع لبناء الشخصيات الصالحة التي تمتد الساحة الإسلامية العامة بعوامل القوة والبقاء والحفاظ على الأمة والدفاع عن مقدّساتها .

الهدف من إيجاد الجماعة الصالحة

من هنا كان تحرّك الإمام نحو بناء الجماعة الصالحة بهدف تغيير المجتمع الإسلامي وفق أطروحة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ وجود مثل هذا التيار المتماسك يوفر جملةً من المكاسب، والمنافع، والأهداف، التي كان يسعى الإمام عليه السلام لتحقيقها في حركته الرسالية.

إنّ الجماعة الصالحة تحقّق ديمومة خط أهل البيت عليهم السلام، حيث يشكّل وجودها خطوة عملية باتجاه مشروعهم الكبير.

ونلخص فيما يلي بعض النقاط التي يُحقّقها وجود هذه الجماعة الصالحة^(١).

١ - المحافظة على المجتمع الإسلامي

إنّ وجود هذا الخط في وسط الأمة سوف يوسّع من دائرة الأفراد الصالحين والواعين، وكلّما اتّسعت هذه الدائرة، كان الإمام عليه السلام أكثر اقتداراً على التغيير وإدارة العمل السياسي الذي يخوضه مع الحكّام .

(١) راجع للتفصيل : السيد محمّد باقر الحكيم، دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة ، الجزء الأول .

ويمثل هذا الخط القوة التي تقف بوجه التحدي الفكري والأخلاقي الذي واجهه العالم الإسلامي حينذاك، وقد كان من المشهود تاريخياً ما لهذه الجماعة الصالحة من دور فعال ومتميز في تزييف الثبني الفكرية والسياسية التي تعتمدها الفرق الضالة، من خلال مطارحاتهم ومناقشاتهم مع أقطاب تلك الفرق كالزنادقة والمجبرة والمرجئة وغيرها.

وامتاز أصحاب الإمام الصادق عليه السلام عن غيرهم بالمواقف الشجاعة والتمسك بالمثل والقيم العليا، وعدم المداينة وعدم الركون لإغراءات السلاطين، وتحملوا جرأ التزامهم بالقيم المثلى شتى ألوان القمع والاضطهاد، وكان لمواقفهم الشجاعة الأثر الكبير في ثبات ومقاومة المجتمع الإسلامي أمام موجات الانحراف .

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام، يطلب من شيعته أن يكون كلُّ منهم القدوة والمثل الأعلى في الوسط الذي يعيش فيه ، فقد روي عن زيد الشحام أنه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله والأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري»^(١).

وكان عليه السلام يطرح للشيعية الأفق الإسلامي الرحيب في السلوك ليتحركوا باتجاهه، وأن لا يكتفوا بالمستويات الدانية مخافة أن تهزهم ريح التحدي والإغراء فيصف الشيعة لهم قائلاً: «فإن أبي حدثني أن شيعتنا (أهل البيت) كانوا خيار من كانوا منهم: إن كان فقيهاً كان منهم، وإن كان مؤدباً كان منهم، وإن كان إماماً كان منهم، وإن كان كافلاً يتيماً كان منهم، وإن كان صاحب أمانة كان منهم، وإن كان صاحب وديعة كان منهم، وكذلك كونوا، حبيونا إلى الناس ولا تبغضونا إليهم»^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ٥/١٢ ح ٢ عن أصول الكافي: ٤٦٤/٢ ح ٥.

(٢) مشكاة الأنوار: ١٤٦، وبحار الأنوار: ٧٤ / ١٦٢.

وكان عليه السلام يبذل جهده في توجيه الناس وتقويم أخلاقهم وإصلاح شؤونهم ما استطاع ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض ويأمرهم بالعمل ويدعو ذوي اليسر إلى الإنفاق على ذوي العسرة بأن يوسعوا على المضيق منهم حتى يمنعواهم من ذلك السؤال وكان ينفق حتى لا يبقى شيء لعياله^(١).

٢ - الحفاظ على الشريعة الإسلامية

وقف الإمام الصادق عليه السلام ضد حملات التشويه التي أرادت أن تعصف بالشريعة الإسلامية، وتعرضها للانحراف الذي أصاب الشرايع الأخرى من خلال دخول أفكار غريبة عن الشريعة بين أتباعها، واستخدام أدوات جديدة لفهم الشريعة كالقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة.

ونتيجةً للمستوى العلمي الرفيع الذي كان يتمتع به أصحاب الإمام وشيعته، لم تصبح مسألة الإفتاء والاستنباط خاضعة لمصلحة السلاطين وأهوائهم أو منسجمة مع متبنياتهم الفكرية، بل بقي الفهم الصحيح للكتاب والسنة مستقلاً عن تلك المؤثرات، وبعيداً عن استخدام تلك الأدوات الدخيلة على التشريع.

وعندما استخدمت الجماعات الأخرى تلك الأدوات الاجتهادية أدت هذه الجرأة إلى آثار سلبية مما اضطرها إلى أن تلجأ إلى غلق باب الاجتهاد، وكان هذا القرار قد ترك أيضاً آثاراً سلبية في المجتمع الإسلامي لعدم قدرتها على معالجة التطورات الجديدة التي كانت تواجهها البلاد الإسلامية فيما بعد.

لقد أكد الإمام الصادق عليه السلام قضية مهمة واعتبرها رصيماً مهماً لفهم النصوص وتبيينها والاستنباط منها تلك هي ملكة التقوى والعدالة التي لابد للفقهاء أن يتمتع بها ليكون حارساً أميناً للشريعة، والأمة التي تريد تطبيقها في الحياة.

وهذه المزية لها دور كبير في حفظ الشريعة وحفظ النصوص الإسلامية؛ فبها تميّزت هذه المدرسة عن غيرها كما أن أصحاب الإمام عليه السلام لم يتعاملوا مع

(١) أخبار الدول، القرمانى: ١٢٨، وكشف الغمّة للإربلي: ٢٢٣: ١.

النصوص الواردة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام كما تعاملوا مع النص القرآني القطعي الصدور ، بل تناولوها بالدراسة والنقد والتحليل لأن الراوي قد لا يكون معصوماً عندهم بالرغم من إيمانهم بعصمة الإمام المروي عنه.

٣ - المطالبة بالحكم الإسلامي

إن القيادة السياسية حق مشروع للأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وفق النصوص الإسلامية الثابتة عن الرسول ﷺ والتي تواترت عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ومن هنا كانت القيادة السياسية التي تولت الحكم بعد الرسول ﷺ ونخص بالذكر القيادة السياسية المتمثلة بالحكام الذين توالوا على طول الحكم الأموي والعباسي الذين عاصرهم الإمام الصادق عليه السلام حيث مارسوا شتى الطرق لإبعاد الإمام عليه السلام وآبائه الكرام عن هذا الموقع الريادي .

والإمام عليه السلام كان يرى ضرورة العمل من أجل إيجاد الكيان الإسلامي الصحيح، والمطلوب، وذلك من خلال وجود المجتمع الإسلامي الصالح، الذي يؤمن بالقيادة الشرعية الحقيقية المتمثلة في الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا كان الإمام عليه السلام يلفت النظر الى ضرورة وجود هذه القاعدة الصالحة، حين كان يجيب عن التساؤلات التي كانت تدور في نفوس أصحابه، كجوابه لسدير الصيرفي، الذي جاء فيه أن المطالبة بالحكم وإعلان الثورة المسلحة، يعتمد الجماعة الصالحة التي تطيع وتضحي وتحمل مسؤولية التغيير، وتكون لها القدرة على التصدي لكل عوامل الانحراف .

وهكذا تبدو أهمية السعي لتكوين وترشيد حركة الجماعة الصالحة في هذه المرحلة من حياة الإمام عليه السلام وتوسيع رقعتها في أرجاء العالم الإسلامي. وسنبين الدور الخاص للإمام الصادق عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة من خلال دراسة هذا التكوين وتكامل البناء وذلك بطرح الجوانب الثلاثة التالية وهي:

- أ - البناء الجهادي.
- ب - البناء الروحي.
- ج - البناء الاجتماعي.

أ: البناء الجهادي

لقد كان عطاء الثورة الحسينية كبيراً جداً، فقد أرجعت هذه الثورة الخالدة الأمة الإسلامية إلى مستوى التصدي للثورة على الحكام المنحرفين، واستطاعت الأمة المسلمة بفضل هذه الثورة المباركة أن تتجاوز الهالة المزيّفة التي صنعها الأمويون لإضفاء طابع من الشرعية على سلطانهم، وهذا الوعي الثوري والعمل الجهادي الذي شكلته الأمة خلال عدّة عقود، قد يأخذ بالهبوط إذا لم يقترن بعوامل البقاء والاستمرار والتكامل .

من هنا نجد الإمام الصادق عليه السلام قد تحرك نحو صياغة العمل الثوري والجهادي، ورسم هيكلته، وبالتالي تجذيره في النفوس. ويبدو هذا واضحاً من خلال موقفه من ثورة عمّه زيد بن علي عليه السلام، حيث صرّح قائلاً: «أشركني الله في تلك الدماء . مضى والله زيد عمّي وأصحابه شهداء مثل ما مضى عليه عليّ بن أبي طالب وأصحابه»^(١).

ب : البناء الروحي والإيماني

لقد تعرّض الواقع الإيماني والروحي في زمن الإمام الصادق (عليه السلام) إلى الخواء، والذبول، وبروز الأنانية، وفصل الإيمان عن الأنشطة الحياتية الأخرى، وإعطائه صورة مشوّهة، وقد جاء ذلك بسبب عبث التيارات الفكرية التي استندت إلى دعم السلاطين، والتي كانت تؤمن بلزوم طاعة الحاكم الأموي والعباسي؛ تبريراً لدعمها للخط الحاكم .

(١) بحار الأنوار : ٤٦ / ١٧١ .

من هنا بذل الإمام نشاطاً واسعاً لاستعادة الإيمان، وبناء الذات وسموها، وفق الخط القرآني، وترشيح قواعد إيمانية رصينة، والانطلاق بالإيمان إلى آفاق أرحب، وأوسع بدل التوقع والنظرة الأحادية المجزئة للدين؛ لأنّ الإيمان بهذا المعنى يمنح المؤمن القوة في اقتحام الميادين الصعبة، وتحمل المسؤوليات ويمدّه بالنشاط والحيوية في مواصلة العمل والجهد .

ونقتصر فيما يلي على بعض الأنشطة التي رسّخ الإمام عن طريقها الإيمان في نفوس أصحابه وخاصته.

١ - حذر الإمام من تكوين علاقات إيمانية بمن كانوا يسمون بالعلماء - الذين انتشروا في زمانه - ومنع من الإقتداء بهم، لأنّ ما يتحقق من خلال التعاطف معهم والمحبة لهم من دون معرفة لواقعهم النفسي والأخلاقي يكفي لبناء صرح إيمانيّ خاطئ ومنحرف؛ فإنّ العلم الذي يتمتع به هؤلاء إنّما يكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً .

والإمام عليه السلام يشير إلى أن هذا النوع من العلاقة ينتهي إلى فساد العلاقة بالله والابتعاد عنه سبحانه ، قال عليه السلام: «أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي ؛ فإنّ أولئك قطاع طريق عبادي المريدين ، إنّ أدنى ما أنا صانعٌ بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»^(١).

٢ - ومن الأمور التي صحّحها الإمام عليه السلام ونبّه عليها أصحابه: مفهوم الإيمان ومعناه ، فحاول أن يبلور صورته الصحيحة ويكشف عنه الإبهام في نفوس أصحابه، وذلك من طريق تشخيص صفات المؤمن فإنّ المؤمن هو ذلك الإنسان الذي يعكس المفهوم الإلهي بصورته الشاملة للحياة، وليس هو ذلك النموذج المستسلم في حياته الفاقد لإرادته والذي يطمع فيه أهل السياسة لاستثمار طاقاته باتجاه مصالحهم.

ولهذا نرى الإمام عليه السلام يشير إلى مسألة مهمّة تستبطن بعداً اجتماعياً وسياسياً ينبغي للمؤمن أن يعيها ويتحرّك بموجها، حين قال عليه السلام: «إنّ الله فوّض إلى المؤمن أمره

(١) الكافي: ١ / ٤٦، وعلل الشرائع: ٣٩٤ ح ١٣، وبحار الأنوار: ١٠٧ / ٢.

كلّه ، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً ، أما تسمع الله تعالى يقول: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ)^(١)
فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً^(٢).

ثم قال عليه السلام: « المؤمن أعز من الجبل ، والجبل يستقل منه بالمعاول ، والمؤمن لا يُستقل من دينه بشيء »^(٣).

٣ - كما بين الإمام عليه السلام أن القلب الخالي من مخافة الله - التي هي معيار الكمال والقوة لقلب المؤمن - ليس بشيء فالقلب المملوء خوفاً من الله الكبير المتعال تتصاغر عنده سائر القوى، مثل قوة السلطان، وقوة المال، وكلّ قوة بشرية، والقلب الذي لا يستشعر الرقابة الإلهية ويتغافل عن هيمنتها يكون ضعيفاً وساقطاً مهما بدا قوياً وعظيماً. إنّ هذا النمط من العلاقة السلبية بالله يؤدي إلى إهتزاز الذات وقلقها وهزيمتها أمام التحديات الصادرة من تلك القوى المخلوقة الضعيفة أمام قدرة الله وعظمته وجبروته .

عن الهيثم بن واقد قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء »^(٤).

٤ - ومن جملة تنبيهاته للشيعة أنّه قد حذّر من الثروة في الكلام وأمرهم بضبط اللسان وأشار إلى خطورة الكلام وما يترتب عليه من آثار سيئة وآثام تضرّ بالإيمان . كما حذّر أيضاً من الاستجابة لهوى النفس قائلاً : « إن كان الشؤم في شيء فهو في اللسان ، فاخزنوا السنتكم كما تحزنون أموالكم واحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم ، فليس أقتل للرجال من اتباع الهوى وحصائد السنتهم »^(٥).

(١) سورة المنافقون ٦٣ : ٨ .

(٢) مشكاة الأنوار، الطبرسي: ١٠٣ .

(٣) تهذيب الأحكام : ٦ / ١٧٩ .

(٤) الكافي : ٢ / ٦٨ .

(٥) وسائل الشيعة : ٨ / ٥٣٤ .

٥ - كما لفت الإمام أنظار شيعته الى أن لا يتجاهل أحدهم الإشاعات التي يطلقها الخصوم ضد أصحابه، فقد تكون مُصيبةً وصحيحةً ولتكن مدعاةً لمراجعة النفس قال عليه السلام: «من لم يبالِ ما قال وما قيل فيه ، فهو شرك الشيطان، ومن لم يبالِ أن يراه الناس مسيئاً فهو شرك الشيطان»^(١).

ج: البناء الاجتماعي:

رسم الإمام الصادق عليه السلام الخطّ العام للعلاقات الاجتماعية للجماعة الصالحة ، وبيّن نظامها ووضع الأسس والقواعد المبدئية لهذا النظام ورسّخها في نفوسهم ليتمكن الفرد الصالح من العيش في المجتمع في الظروف الصعبة ، ويمتلك القدرة على مواجهة المخططات التي تسعى لتفتيت مثل البناء الذي يهدف له الإمام وهو النظام الاجتماعي الذي خطّط له الإمام وأمدّه بعناصر البقاء والاستمرار ليمتدّ بجذوره في أوساط الأمة .

الانفتاح على الأمة

لقد أكّد الإمام عليه السلام على محور مهمّ يمدّ الجماعة الصالحة بالقدرة والانتشار، هو محور الانفتاح على الأمة وعدم الانغلاق على أنفسهم، وقد حثّ الإمام شيعته على توسيع علاقاتهم بالناس وشجعهم على الإكثار من الأصحاب والأصدقاء، فقد جاء عنه عليه السلام: «أكثرُوا من الأصدقاء في الدنيا فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فحوائجٌ يقومون بها وأما في الآخرة فإنّ أهل جهنم قالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم»^(٢).

وجاء عنه أيضاً: «استكثروا مصادقة الإخوان فإنّ لكلّ مؤمن دعوةً مستجابة»^(٣).

(١) وسائل الشيعة: ١١ / ٢٧٣ ح ١٠، عن من لا يحضره الفقيه: ٤ / ٤١٧.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٤٠٧.

(٣) مصادقة الإخوان، الصدوق: ٤٦.

وقال: «استكثروا من الإخوان فأن لكل مؤمن شفاعَةً»^(١) كما أكد الإمام عليه السلام على مواصلة هذا الانفتاح وشده بآداب وأخلاق تدعو للتلاحم والتعاطف بين المؤمنين فقال: «التواصل بين الإخوان في الحضر التزاور، والتواصل في السفر المكاتبَة»^(٢).

وقال عليه السلام: «إنَّ العبد ليخرج إلى أخيه في الله ليزوره فما يرجع حتى يغفر له ذنوبه وتقضى له حوائج الدنيا والآخرة»^(٣) ومن الآداب والأخلاق التي تصبّ في رافد التواصل الاجتماعيّ هو المصافحة التي حثَّ الإمام (عليه السلام) عليها فقال: تصافحوا فإنّها تذهب بالسخيمة»^(٤).

وقال أيضاً: «مصافحة المؤمن بألف حسنة»^(٥).

تأكيد علاقة الأخوة:

كان الإمام عليه السلام يعمّق ويجذّر علاقة الأخوة في الله ويضع لها التوجيهات المناسبة التي تزيد في التلاحم والتفاهم ، فمنها ما قاله عليه السلام لخيشمة : «أبلغ موالينا السلام وأوصهم بتقوى الله والعمل الصالح وأن يعود صحيحهم مريضهم وليعد غنيهم على فقيرهم ، وأن يشهد جنازة ميتهم ، وأن يتلاقوا في بيوتهم وأن يتفاوضوا علم الدين فإنّ ذلك حياة لأمرنا رحم الله عبداً أحيا أمرنا»^(٦).

وقال عليه السلام في المواساة بين المؤمنين: «تقربوا إلى الله تعالى بمواساة إخوانكم»^(٧).

قال محمد بن مسلم: أتاني رجلٌ من أهل الجبل فدخلت معه على أبي عبد الله فقال له حين الوداع أوصني فقال عليه السلام: «أوصيك بتقوى الله وبرّ أخيك المسلم، وأحبّ

(١) وسائل الشيعة : ٨ / ٤٠٨ .

(٢) تحف العقول : ٣٥٨ ، بحار الأنوار : ٧٨ / ٢٤٠ .

(٣) مشكاة الأنوار : ٢٠٩ .

(٤) الكافي : ٢ / ١٨٣ ، وتحف العقول : ٣٦ ، وبحار الأنوار : ٧٨ / ٢٤٣ .

(٥) مشكاة الأنوار : ٢٠٣ .

(٦) وسائل الشيعة : ٨ / ٤٠٠ .

(٧) الخصال : ٨ وبحار الأنوار : ٧٤ / ٣٩١ .

له ما تحبُّ لنفسك واكره له ما تكره لنفسك، وإن سألك فأعطه وإن كفّ عنك فأعرض عليه، لا تملّه خيراً فإنه لا يملك وكن له عضداً فإنه لك عضدٌ وإن وجد عليك فلا تفارقه حتى تحلّ سخيمته^(١) وإن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فاكفه واعضده ووازره، وأكرمه ولاطفه فإنه منك وأنت منه^(٢).

كما حذر عليه السلام من المجاملة على حساب المبدأ والتعاطف مع الخصوم فقال: « من قعد الى سبّ أولياء الله فقد عصى الله ومن كظم غيظاً فيما لا يقدر على إمضائه كان معنا في السنام الأعلى »^(٣).

وقال أيضاً: « مَنْ جالس لنا عائباً، أو مدح لنا قالياً أو واصل لنا قاطعاً، أو قطع لنا واصلاً، أو ولى لنا عدواً، أو عادى لنا ولياً فقد كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم »^(٤).

الخط التربوي للإمام الصادق عليه السلام

لم تكن علاقة الإمام الصادق عليه السلام مع جماعته وأصحابه من الناحية التربوية قائمةً على أساس الوعظ والإرشاد العام من دون تشخيص لمستويات وواقع سامعيه فكرياً وروحياً وما يحتاجون إليه، بل كان عليه السلام يستهدف البناء الخاص ويميّز بينهم ويزقّ لهم الفكرة التربوية التي تحركهم نحو الواقع ليكونوا على استعداد تامٍّ لتحمل مسؤولية إصلاح الأمة، فكان يزودهم بالأسس والقواعد التربوية الميدانية التي تؤهلهم لتجاوز الضغوط النفسية والاقتصادية ويمتلكوا الأمل الإلهي في تحقيق أهدافهم.

ونشير الى بعض ما رُفد به الإمام أصحابه من توجيهات ضمن عدّة نقاط:

(١) السخيمة: الحقد والضغينة حتى تسل سخيمته والسل الانتزاع والاخراج في رفق.

(٢) وسائل الشيعة : ٨ / ٥٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الأمالي للصدوق: ٥٥ وبحار الأنوار: ٢٧/٢٢، وسائل الشيعة : ١١/٥٠٦.

النقطة الأولى : في الدعوة والإصلاح

قال عليه السلام: «إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عالمٌ بما يأمر، عالمٌ بما ينهى. عادلٌ فيما يأمر، عادلٌ فيما ينهى. رفيقٌ بما يأمر، رفيقٌ بما ينهى»^(١).
واعتبر الإمام عليه السلام النقد البناء سبباً لسد الفراغ والضعف الذي يصيب الأفراد عادةً، فقال عليه السلام: «أحبّ إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي»^(٢).
وقال عليه السلام: «إذا بلغك عن أخيك ما تكره، فاطلب له العذر الى سبعين عذراً فإن لم تجد له عذراً، فقل لنفسك لعلّ له عذراً لا نعرفه»^(٣).

النقطة الثانية : التعامل التربوي في مجال العلم والتعلم

أكّد الإمام الصادق عليه السلام على الخطورة التي تترتب على الرسالة العلمية إذا انفكت عن قاعدتها الأخلاقية، ووُظِفَ العلم لأغراض دنيوية وما ينجم عنه من تشويه لهذه الرسالة المقدسة. وقد لعب هذا الفصل بين العلم وقاعدته الأخلاقية دوراً سلبياً حيث أنتج ظاهرة وعاظ السلاطين التي وُظِفَ الدين لمصلحة السلطان، من هنا حذّر الإمام عليه السلام من هذه الظاهرة ضمن تصنيفه لطلبة العلم قائلاً: «طلبة العلم ثلاثة فاعرفوهم بأعيانهم وصفاتهم: صنفٌ يطلبه للجهل والمراء وصنفٌ يطلبه للاستطالة والختل، وصنفٌ يطلبه للفقهِ والعقل.

فصاحب الجهل والمراء، مؤذٍ ممار متعرّض للمقال في أنديّة الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم قد تسربل بالخشوع وتخلّى من الورع، فدقّ الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه.

وصاحب الاستطالة والختل، ذو خبٍّ ومَلَقٍ يستطيل على مثله من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوائهم هاضمٌ، ولدينه حاطمٌ، فأعمى الله على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

(١) تحف العقول: ٣٥٨، وبحار الأنوار: ٢٤٠/٧٨.

(٢) تحف العقول: ٣٦٦، وبحار الأنوار: ٢٤٩/٧٨.

(٣) إحقاق الحق: ٢٧٩/١٢، والمشروع الروي: ٣٥/١.

وصاحب الفقه والعقل، ذو كآبة وحزن وسهر، قد تحنّك في برنسه، وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه»^(١).

النقطة الثالثة : الضابطة التربوية للتصدي والقيادة

وضع الإمام عليه السلام قاعدةً أخلاقيةً عامةً وضابطةً يتعامل بها المؤمن ويطبقها في كل ميادين الحياة، وبها تنمو الفضيلة، وتكون أيضاً سبباً للتنافس الصحيح والبناء والتفاضل المبدئي. وبغياب هذه القاعدة واستبدالها بمقاييس مناقضة لها سوف يتقدم المفضلون على الفاضل وتضيع القيم وتهدر الطاقات، قال عليه السلام: «من دعا الناس الى نفسه، وفيهم من هو أعلم منه، فهو مبتدعٌ ضالٌّ»^(٢).

النقطة الرابعة: المحنة والقدرة على المقاومة

لقد عبّأ الإمام الصادق عليه السلام شيعته، وعاهدهم في أكثر من مرّة قائلاً: إنّ الإنتماء لخطئه سوف يترتب عليه من الاضطهاد والابتلاء ما لا يطيقه أحد إلا من اختاره الله سبحانه، كما أن التشيع لا يستحقه إلا أولئك الذين لديهم الاستعداد للتضحية العالية، وتحمل البلاء. وهذا أسلوبٌ إلهيٌّ استخدمه الله مع أوليائه، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عندما ذكر عنده البلاء وما يخصُّ به المؤمن قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشد الناس بلاءاً في الدنيا؟ فقال: «النبون ثم الأمل فالأمل، ويأتي المؤمن بعدد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صحَّ إيمانه وحسن عمله اشتد بلاءؤه ومن سخط إيمانه وضعف عمله قلَّ بلاءؤه»^(٣).

(١) الكافي: ٤٩/١، وبحار الأنوار: ٨٣ / ١٩٥.

(٢) تحف العقول: ٣٧٥، وبحار الأنوار: ٢٥٩/٧٨.

(٣) وسائل الشيعة: ٩٠٦/٢.

وروى الحسين بن علوان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام إنه قال وعنده سديرة: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً غتّه بالبلاء غتّاً»^(١).

وقال عليه السلام: «قد عجز من لم يُعدّ لكلِّ بلاء صبراً، ولكلِّ نعمة شكراً، ولكلِّ عسر يُسراً، اصبر نفسك عند كلِّ بليّة ورزقيّة في ولد أو في مال، فإنَّ الله إنما يقبض عاريتَه وهبته وليبلو شكرَكَ وصبرَكَ»^(٢).

وقال عليه السلام: «إنا لنصبر، وإنَّ شيعتنا لأصبر منّا، قال الراوي فاستعظمت ذلك، فقلت: كيف يكون شيعتكم أصبر منكم؟! فقال عليه السلام: إنا لنصبر على ما نعلم، وأنتم تصبرون على ما لا تعلمون»^(٣).

* * *

(١) المصدر السابق: ٩٠٨/٢.

(٢) تحف العقول: ٣٦١، وبحار الأنوار: ٢١٦/٦٧.

(٣) مشكاة الأنوار، الطبرسي: ٢٧٤.

الفصل الرابع

من تراث الإمام جعفر الصادق عليه السلام

إنَّ الحقبة الزمنية التي نشط فيها الإمام الصادق عليه السلام لإرساء دعائم منهج أهل البيت عليهم السلام ورسم خطوطه التفصيلية تبلغ ثلاثة عقود ونصف عقد تقريباً. وقد تميّزت بأنها كانت تعاصر نهايات الدولة الأموية وبدايات الدولة العباسية، وهي فترة ضعف الدولتين سياسياً وبالتالي كانت فرصة متميّزة وفريدة لنشر الوعي والثقافة الإسلامية الأصيلة. وقد عرف أتباع أهل البيت عليهم السلام بأنهم أتباع وشيعة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ووسم الشيعة بأنه جعفري؛ ولهذا الوسام دلالاته التاريخية ومغزاه الثقافي.

من هنا نعرف السرّ في عظمة التراث الذي خلفه لنا الإمام الصادق عليه السلام ومدى سعته وثرائه في جانبي الكم والكيف معاً، الى جانب كثرة من تتلمذ على يدي الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام ممّن حمل تراثه ورواه الى الأجيال المتعاقبة. وبهذا الصدد ينقل لنا الشيخ المظفر جملة من الاشارات والتصاريح التي أدلى بها كبار رواة أهل السنّة وعلمائهم بفضل الإمام الصادق ورجوع أئمة المذاهب وأهل الحديث إليه، وإليك بيانها.

«كان رواية أبي عبدالله عليه السلام أربعة آلاف أو يزيدون كما أشرنا إليه، قال الشيخ المفيد طاب ثراه في الإرشاد: فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقامات، فكانوا أربعة آلاف رجل^(١). ولا يزيده كثرة الرواة عنه رفعةً وجلالة قدر، وإنّما يزداد الرواة فضلاً وعلو شأن بالرواية عنه، نعم إنّما يكشف هذا عن علو شأنه في العلم والإشادة بفضل من طلاب العلم والفضيلة على اختلافهم في المقالات والنحل.

(١) الإرشاد للمفيد: ٢٧١.

أعلام السنّة الذين أخذوا عن الإمام الصادق عليه السلام

أخذ عنه عدّة من أعلام السنّة وأئمتهم ، وما كان أخذهم عنه كما يأخذ التلميذ عن الأستاذ، بل لم يأخذوا عنه إلاّ وهم متّفقون على إمامته وجلالته وسيادته، كما يقول الشيخ سليمان في الينابيع، والنووي في تهذيب الأسماء واللغات، بل عدّوا أخذهم عنه منقبةً شَرّفوا بها، وفضيلةً اكتسبوها كما يقول الشافعي في مطالب السؤل، ونورد لك شطراً من أولئك الأعلام.

منهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي من الموالي وأصله من كابل ولد بالكوفة، وبها نشأ ودرس، وكانت له فيها حوزةً وانتقل الى بغداد وبها مات عام ١٥٠، وقبره بها معروف، وهو مؤسس أحد المذاهب الأربعة عند أهل السنّة، وحاله أشهر من أن يذكر.

وأخذه عن الصادق عليه السلام معروف، وممّن ذكر ذلك الشبلنجي في نور الأبصار، وابن حجر في الصواعق، والشيخ سليمان في الينابيع ، وابن الصبّاغ في الفصول، الى غير هؤلاء ، وقال الآلوسي في مختصر التحفة الاثني عشرية (ص ٨) : وهذا أبو حنيفة وهو، هو بين أهل السنّة كان يفتخر ويقول بأفصح لسان: «لولا السنتان لهلك النعمان» يريد السنتين اللتين صحب فيها - لأخذ العلم - الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ومنهم: مالك بن أنس المدني رئيس أحد المذاهب الأربعة أيضاً.

وأخذه عن أبي عبد الله عليه السلام معلوم مشهور، وممّن أشار الى ذلك النووي في التهذيب، والشبلنجي في نور الأبصار، والسبط في التذكرة ، والشافعي في المطالب، وابن حجر في الصواعق، والشيخ سليمان في الينابيع ، وأبو نعيم في الحلية، وابن الصبّاغ في الفصول، الى ما سوى هؤلاء.

ومنهم: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ورد بغداد عدّة مرّات، وروى عن الصادق عليه السلام جملة أشياء، وأوصاه الصادق بأموال ثمينّة، وارتحل الى

البصرة وبها مات في عام (١٦١ هـ)، وولادته في نيف وتسعين ، قيل شهد وقعة زيد الشهيد وكان في شرطة هشام بن عبد الملك.

ومنهم: سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي المكي ولد بالكوفة عام (١٠٧ هـ) ومات بمكة عام (١٩٨ هـ) ، ودخل الكوفة وهو شاب على عهد أبي حنيفة. ذكر أخذه عن الصادق عليه السلام في التهذيب، ونور الأبصار ، والمطالب، والصواعق، والينابيع، والحلية، والفصول، وما سواها، وذكر ذلك الرجاليون من الشيعة أيضاً.

ومنهم: يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري من بني النجار تابعي، كان قاضياً للمنصور في المدينة، ثم قاضي القضاة، مات بالهاشمية عام (١٤٣ هـ). انظر المصادر المتقدمة في روايته عن الصادق عليه السلام وما عداها كما ذكر ذلك الرجاليون من الشيعة .

ومنهم: عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريح المكي، سمع جمعاً كثيراً من العلماء، وكان من علماء العامة، الذين يرون حلية المتعة كما رأى حليتها آخرون منهم . وقال ابن خلكان : «عبد الملك أحد العلماء المشهورين، وكانت ولادته سنة (٨٠ هـ) وقدم بغداد على أبي جعفر المنصور، وتوفي سنة (١٤٩ هـ) وقيل (١٥٠ هـ)، وقيل (١٥١ هـ)».

وذكرت المصادر السابقة أخذه عن الصادق عليه السلام، كما ذكره رجال الشيعة. ومنهم: أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان البصري، كان من أئمة الحديث بل عُدد محدث زمانه، واحتج به أصحاب الصحاح الستة وغيرهم، توفي عام (١٩٨ هـ) . ذكره في رجال الصادق عليه السلام التهذيب، والينابيع، وغيرهما من السنة، والشيخ، وابن داود، والنجاشي، وغيرهم من الشيعة.

ومنهم: محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي والسير، مدني سكن مكة، أثنى عليه ابن خلكان كثيراً، وكان بينه وبين مالك عداء، فكان كلُّ منهما يطعن في الآخر، قدم الحيرة على المنصور فكتب له المغازي.

وقدم بغداد وبها مات عام (١٥١ هـ) على المشهور، ذكر أخذه عن الصادق عليه السلام في التهذيب، والينابيع، وغيرهما من السنّة، والشيخ في رجاله، والعلامة في الخلاصة، والكشي في رجاله، وغيرهم من الشيعة.

ومنهم: شعبة بن الحجاج الأزدي كان من أئمة السنّة وأعلامهم وكان يفتي بالخروج مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، وقيل كان ممّن خرج من أصحاب الحديث مع إبراهيم بن عبدالله.

وعده في أصحاب الصادق عليه السلام جماعة من السنّة منهم صاحب التهذيب، والصواعق، والحلية، والينابيع، والفصول، والتذكرة وغيرها، وذكرته كتب الشيعة في رجاله أيضاً.

ومنهم: أيوب بن أبي تميمة السجستاني البصري، وقيل السخيتاني، والأول أشهر، مولى عمّار بن ياسر، وعدّوه في كبار الفقهاء التابعين، مات عام (١٣١ هـ) بالطاعون بالبصرة عن (٦٥) سنة.

عده في رجال الصادق عليه السلام في نور الأبصار، والتذكرة، والمطالب، والصواعق، والحلية، والفصول، وغيرها، وذكرته كتب رجال الشيعة في أصحابه أيضاً.

إنّ التراث الذي جمعه علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام والذي روّاه عن الإمام الصادق عليه السلام يفوق تراث كل واحد من المعصومين من حيث الكمّ ومن حيث الاهتمام بشتّى العلوم الإنسانية والطبيعية جميعاً.

وإتماماً للفائدة سوف نلمّ بطرف من رواياته وتراثه في شتّى فروع المعرفة الإسلامية، في النقاط التالية:

أولاً: مصادر المعرفة وآثارها

١ - عن عليّ بن الحكم، عن هشام، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي وعليك أثيب»^(١).

(١) المحاسن ١: ١٩٢، كتاب مصابيح الظلم، باب ١، باب العقل، ح ٧.

٢ - عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: «قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إن الله ركب^(١) في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»^(٢).

٣ - عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل»^(٣).

ثانياً: الأنبياء والأئمة

١ - عن أبي حمزة الثمالي، قال أبو عبد الله عليه السلام: «إياك والرياسة وإياك أن تطأ أعقاب الرجال - الى أن قال - : إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال»^(٤).

٢ - عن الفضيل، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟ فقال: «كل إمام هاد للقرن الذي هو فيهم»^(٥).

٣ - عن عمّار الساباطي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام، يعلم الغيب؟ قال: «لا ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء، أعلمه الله ذلك»^(٦).

٤ - وعن بريدة بن معاوية، عن أحدهما عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٧)، «فرسول الله أفضل الراسخين في العلم قد علمه

(١) ركب: أي خلق.

(٢) علل الشرائع، الصدوق ١: ٤، باب ٦.

(٣) الكافي ١: ٢٥، كتاب العقل والجهل: ٢٢.

(٤) معاني الأخبار ١: ١٦٤، باب معنى وطء أعقاب الرجال.

(٥) الكافي ١: ١٩١، كتاب الحجة، باب أن الأئمة عليهم السلام هم الهداة، ح ١.

(٦) الكافي ١: ٢٥٧، كتاب الحجة، باب نادر فيه ذكر الغيب، ح ٤.

(٧) سورة آل عمران ٣: ٧.

الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصيائه من بعده يعلمونه كله، الى أن قال: والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه»^(١).

ثالثاً: الإسلام والإيمان

١ - عن جميل بن صالح، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أخبرني عن الإسلام والإيمان، أهما مختلفان؟ قال: «إنَّ الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان، فقلت: فصفهما لي قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، به حققت الدماء وعليه جَرَتْ المناكح والموارث وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى وما ثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل، والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة»^(٢).

رابعاً: التفقه في الدين

١ - عن عبدالرحمن بن زيد عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا وأنَّ الله يحب بغاة العلم»^(٣).

٢ - عن أبي جعفر الأحول عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لا يسع الناس حتى يسألوا ويتفقها ويعرفوا إمامهم . ويسعهم أن يأخذوا بما يقول وإن كان تقيّة»^(٤).

٣ - عن أبي البختري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنَّما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه فإنَّ فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(٥).

(١) الكافي ١: ٢١٣، كتاب الحجّة باب أن الراسخين في العلم هم الأئمة عليهم السلام، ح ٢.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٥، كتاب الإيمان والكفر باب أنَّ الإيمان يشارك الإسلام، ح ١.

(٣) الكافي ١: ٣٠، كتاب فضل العلم الباب ١، باب فرض العلم، ح ١.

(٤) المصدر السابق ١: ٤٠، كتاب فضل العلم، الباب ٩، باب سؤال العالم وتذاكره، ح ٤.

(٥) المصدر السابق ١: ٣٢، كتاب فضل العلم، الباب ٢، باب فضل العلماء، الحديث ٢.

خامساً: مصادر التشريع الإسلامي

١ - عن حمّاد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «ما من شيء إلا وفيه كتابٌ أو سنة»^(١).

٢ - عن مُرازم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كلِّ شيء، حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا وقد أنزل الله فيه»^(٢).

٣ - عن المعلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان، إلا وله أصلٌ في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال»^(٣).

سادساً: علم الأئمة عليهم السلام

١ - عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، قال: «علّم رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام ألف باب، يفتح كلُّ باب منها ألف باب، إلى أن قال: فإنّ عندنا الجامعة، صحيفةٌ طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ﷺ وإملائه من فلق فيه^(٤) وخطّ عليّ عليه السلام بيمينه، فيها كلُّ حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرض في الخدش»^(٥).

٢ - عن الحسين بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ عندي الجفر الأبيض، قال: قلت: فأأي شيء فيه؟ قال: زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، ما ازعم أن فيه قرآناً وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحد حتى فيه الجلدة، ونصف الجلدة، وربع الجلدة، وأرشد الخدش»^(٦).

(١) الكافي ١: ٥٩، كتاب فضل العلم، الباب ٢٠، باب الرد إلى الكتاب، ح ٤.

(٢) المصدر السابق ١: ٥٩، كتاب فضل العلم، الباب ٢٠، باب الرد إلى الكتاب، ح ١.

(٣) المصدر السابق ١: ٦٠، ح ٦.

(٤) أي من شق فمه.

(٥) الكافي ١: ٢٣٨، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الصحيفة، ح ١.

(٦) المصدر السابق ١: ٢٤٠، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الصحيفة، الحديث ٣.

سابعاً: المناهج المنحرفة

١ - قال الصادق عليه السلام: «دع القياس والرأي وما قال قوم في دين الله ليس له برهان»^(١).

٢ - وجاء في رسالة له الى أصحاب الرأي والمقاييس: «وقالوا لا شيء إلا ما أدركته عقولنا وأدركته ألبابنا، فولاّهم الله ما تولّوا وأهمّهم وخذلهم، حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون، ولو كان الله رضي منهم ارتيأهم واجتهادهم في ذلك، لم يبعث الله إليهم رسولاً فاصلاً لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم...»^(٢).

٣ - وفي وصية المفضل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: «من شكّ أو ظنّ فأقام على أحدهما، فقد حبط عمله، إنّ حجة الله هي الحجة الواضحة»^(٣).

٤ - عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الكذب»^(٤).

ثامناً: نماذج من مواظب الإمام الصادق عليه السلام

١ - قال عليه السلام: «ليس منّا ولا كرامة من كان في مصر فيه مائة ألف أو يزيدون وفيهم من هو أروع منه»^(٥).

٢ - قال الصادق عليه السلام: «أيما أهل بيت أعطوا حظّهم من الرفق فقد وسّع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خيرٌ من السعة في المال، والرفق لا يعجز عنه شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء، إنّ الله عزّ وجلّ رفيقٌ يحب الرفق»^(٦).

٣ - قال الصادق عليه السلام لرجل: «أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك رشداً فأَمْضِهِ وإن يك غيًّا فانتَه عنه»^(١).

(١) علل الشرائع ١: ٨٨، الباب ٨١، باب علّة المراجعة في الأذنين...، ح ٤.

(٢) المحاسن ١: ٢٠٩، كتاب مصاييح الظلم، الباب ٧، ح ٧٦.

(٣) الكافي ٢: ٤٠٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكّ، ح ٨.

(٤) قرب الإسناد: ٢٩، الأحاديث المتفرقة، ح ٩٤.

(٥) الكافي ٢: ٧٨.

(٦) المصدر السابق ٢: ١١٩.

- ٤ - وقال عليه السلام: «إنّ الذنب يحرم العبد الرزق»^(٢).
- وقال الصادق عليه السلام: «لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»^(٣).
- ٥ - قال الصادق عليه السلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على من أمكنه ذلك ولم يخف على نفسه ولا على أصحابه»^(٤).
- ٦ - قال عليه السلام: «من شهد أمراً فكرهه، كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمر فريضه، كان كمن شهد»^(٥).
- ٧ - قال الصادق عليه السلام: «إنّ الله فوّض الى المؤمن كلّ شيء إلاّ إذلال نفسه»^(٦).
- ٨ - قال الصادق عليه السلام: «لا يتكلّم الرجل بكلمة حقّ فيؤخذ بها إلاّ كان له مثل أجر من أخذ بها، ولا يتكلّم بكلمة ضلال يؤخذ بها إلاّ كان عليه مثل وزر من أخذ بها»^(٧).

* * *

(١) الكافي ٨: ١٥٠.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٧١.

(٣) المصدر السابق ٢: ٢٨٨.

(٤) الخصال، الصدوق: ٦٠٩.

(٥) تهذيب الأحكام، الطوسي ٦: ١٧٠.

(٦) الكافي، الكليني ٥: ٦٣.

(٧) ثواب الأعمال، الصدوق: ١٣٢.

الإمام موسى بن جعفر

الكاظم عليه السلام

الفصل الأول

ويقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: نشأة الإمام موسى الكاظم عليه السلام

هو سابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، الكبير القدر العظيم الشأن، الجاد في العبادة المشهور بالكرامات، الكاظم الغيظ والعافي عن الناس، العبد الصالح، وباب الحوائج إلى الله كما هو المعروف عند أهل العراق.

١ - الأب: هو سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله أبو عبد الله جعفر ابن محمد الصادق معجزة الإسلام ومفخرة الإنسانية على مرّ العصور وعبر الأجيال، لم تسمع الدنيا بمثله فضلاً ونبلاً وعلماً وكمالاً.

٢ - الأم: لقد كانت أم الإمام موسى الكاظم عليه السلام السيّدة حميدة من تلكم النسوة اللاتي جُلبن لأسواق يثرب، وقد خصّها الله بالفضل وعناها بالشرف فصارت وعاءاً للإمامة والكرامة وتزوج بها أبو عبد الله، فكانت من أعزّ نسائه وأحبّهن إليه، وآثرهن عنده.

واختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً في نسبها فقيل: أنّها أندلسية، وتكنّى لؤلؤة^(١) وقيل: إنّها رومية^(٢)، وقيل: إنّها من أجلّ بيوت الأعاجم^(٣)، وكانت السيّدة حميدة

(١) الكافي ١: ٣٩٧، دلائل الإمامة: ١٤٦، مؤسسة البعثة (١٤١٣ هـ)، مرآة العقول: ١: ٤٥١، معالم العترة.

(٢) تحفة الأزهار وزلال الأنهار، للسيد ضامن ابن شذقم، مخطوط، يوجد في قسم المخطوطات، من مكتبة الإمام كاشف الغطاء في النجف الأشرف.

(٣) الأنوار البهية: ١٥٢.

تعامل في بيتها معاملة كريمة، فكانت موضع عناية وتقدير عند جميع العلويات، كما أن الإمام الصادق عليه السلام كان يغدق عليها معروفه، وقد رأى فيها وفور العقل والكمال، وحسن الإيمان وأثنى عليها ثناءً عاطراً، فقال فيها: «حميدة مصفاة من الأدناس كسبيكة الذهب، مازالت الأملاك تحرسها حتى أدبت إليّ كرامة من الله وللحجة من بعدي...»^(١)، وقد غداها الإمام الصادق بعلمه حتى أصبحت في طليعة نساء عصرها علماً وورعاً وإيماناً، وعهد إليها بتفقيه النساء المسلمات وتعليمهن الأحكام الشرعية^(٢)، وأجدر بها أن تحتل هذه المكانة، وأن تكون من ألمع نساء عصرها في العفة والفقّه والكمال.

٣- الوليد المبارك : امتدّ الزمن بعد زواج الإمام بها، وسافر الإمام أبو عبدالله الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، فحملها معه، وبعد الانتهاء من مراسيمه قفلوا راجعين الى يثرب، فلما انتهوا الى «الأبواء»^(٣). أحسّت حميدة بالطلق فأرسلت خلف الإمام تخبره بالأمر، لأنه قد عهد إليها أن لا تسبقه بشأن وليده، وكان أبو عبدالله يتناول طعام الغداء مع جماعة من أصحابه، فلما وافاه النبا المسرّ قام مبادراً إليها فلم يلبث قليلاً حتى وضعت حميدة سيّداً من سادات المسلمين، وإماماً من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

لقد أشرقت الدنيا بهذا المولود المبارك الذي ما ولد - في عصره - أيمن، ولا أكثر عائداً ولطفاً على الإسلام منه. لقد ولد أبرّ الناس، وأعطفهم على الفقراء، وأكثرهم عنايةً ومحبة في سبيل الله وأعظمهم عبادة وخوفاً من الله.

(١) أصول الكافي ١ : ٤٧٧، بحار الأنوار ٤٨ : ٦، أعيان الشيعة ٢ : ٥.

(٢) الأنوار الإلهية: ١٥٣.

(٣) الأبواء : بالفتح ثم السكون، و واو وألف ممدودة، قرية من أعمال الفرع بالمدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وبه قبر الزاكية آمنة بنت وهب أم النبي العظيم ﷺ، معجم البلدان ١ : ٧٩.

وبادر الإمام أبو عبد الله فتناول وليده فأجرى عليه مراسيم الولادة الشرعية فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى.
وانطلق الإمام أبو عبد الله عائداً إلى أصحابه، وقد علت على ثغره ابتسامة فبادره أصحابه قائلين:

أسرك الله، وجعلنا فداك، يا سيدنا ما فعلت حميدة؟

فبشرهم بمولوده المبارك، وعرفهم عظيم أمره قائلاً:

«قد وهب الله لي غلاماً، وهو خير من برأ الله».

أجل إنه خير من برأ الله علماً وتقوى وصلاً، وتحرّجاً في الدين، وأحاط الإمام أصحابه علماً بأن وليده من أئمة أهل البيت عليه السلام الذين فرض الله طاعتهم على عباده قائلاً لهم:

«فدونكم، فوالله هو صاحبكم»^(١).

وكانت ولادته في سنة (١٢٨ هـ)^(٢) وقيل سنة (١٢٩ هـ)^(٣) وذلك في أيام حكم عبد الملك بن مروان.

٤ - حب وتكريم: وقطع الإمام موسى شوطاً من طفولته وهو ناعم البال يستقبل الحياة كل يوم بحفاوة وتكريم، فأبوه يغدق عليه عطفه المستفيض، وجماهير المسلمين تقابله بالعناية والتكريم، وقد قدمه الإمام الصادق عليه السلام على بقية ولده، وحمل له من الحب ما لا يحمله لغيره، فمن مظاهر ودّه أنه وهبه قطعة من أرض تسمى البسرية، كان قد اشتراها بستة وعشرين ألف ديناراً^(٤).

وتكلّم الإمام موسى وهو طفل بكلام أثار إعجاب أبيه فاندفع أبوه قائلاً:

(١) الكافي ١: ٣٨٥، بحار الأنوار ٤٨: ٢، عن بصائر الدرجات: ١٢٩، ب ١٢، ح ٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤٩، وتهذيب التهذيب ١٠: ٣٤.

(٣) وفيات الأعيان ٥: ٣١٠، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، أعيان الشيعة ٢: ٥، وعن تحفة الأزهار أنه ولد قبل طلوع فجر يوم الثلاثاء من صفر سنة (١٢٧ هـ) وعن بحر الأنساب أنه ولد يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر.

(٤) دلائل الإمامة: ٤٩ - ٥٠.

«الحمد لله الذي جعلك خلفاً من الآباء، وسروراً من الأبناء، وعوضاً عن الأصدقاء»^(١).

٥ - صفته : كان أسمر شديد السمرة^(٢)، ربع القامة، كث اللحية^(٣) ووصفه شقيق البلخي فقال: كان حسن الوجه ، شديد السمرة، نحيف الجسم.
وحاكي الإمام موسى في هيئته هيبة الأنبياء، وبدت في ملامح شكله سيماء الأئمة الطاهرين من آبائه، فما رآه أحد إلا هابه وأكبره.

٦ - ألقابه : أمّا القابه فتدل على بعض مظاهر شخصيته، وجملة من جوانب عظمته، وهي كما يلي:

الصابر : لأنه صبر على الآلام والخطوب التي تلقاها من حكام الجور، الذين قابلوه بجميع ألوان الإساءة والمكروه.
الزاهر : لأنه زهر بأخلاقه الشريفة وكرمه المضيء الذي مثل به خلق جده الرسول ﷺ.

العبد الصالح : ولقب بالعبد الصالح لعبادته، واجتهاده في الطاعة، حتى صار مضرب المثل في عبادته على مرّ العصور والأجيال وقد عرف بهذا اللقب عند رواة الحديث فكان الراوي عنه يقول: حدثني «العبد الصالح».

السيد : لأنه من سادات المسلمين ، وإمام من أئمتهم، وقد مدحه بهذا اللقب الشاعر الشهير أبو الفتح بقوله:

أنا للسيد الشريف غلامٌ حيثما كنت فليبلغ سلامي
وإذا كنت للشريف غلاماً فأنا الحر والزمان غلامي^(٤)

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٥، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، بحار الأنوار ٤٨: ٢٤.

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٢٢، أخبار الدول: ١١٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤٨.

(٤) أخبار الدول: ١١٣.

الكاظم: وإنَّما لُقِّبَ بذلك لما كظَّمه من الغيظ عما فعل به الظالمون من التنكيل والارهاق حتى قضى شهيداً مسموماً في ظلمات السجون لم يبد لأحد آلامه وأشجانه، بل قابل ذلك بالشكر لله والثناء عليه، ويقول ابن الأثير: «إنَّه عرف بهذا اللقب لصبره، ودماثة خلقه، ومقابلته الشر بالإحسان»^(١).

باب الحوائج: وهذا أكثر ألقابه ذكراً، وأشهرها ذيوعاً وانتشاراً، فقد اشتهر بين العام والخاص أنه ما قصده مكروب أو حزين إلا فرَّج الله آلامه وأحزانه وما استجار أحد بضريحه المقدس إلا قضيت حوائجه، ورجع إلى أهله مثلج القلب مستريح الفكر مما ألم به من طوارق الزمن وفجائع الأيام، وقد آمن بذلك جمهور شيعته بل عموم المسلمين على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم، فهذا شيخ الحنابلة وعميدهم الروحي أبو عليّ الخلال يقول:

«ما همَّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر الا سهَّل الله تعالى لي ما أحب»^(٢).

وقال الإمام الشافعي: «قبر موسى الكاظم الترياق المجرب»^(٣).

لقد كان الإمام موسى في حياته مفزَعاً وملجأً لعموم المسلمين وكذلك كان بعد وفاته حصناً منيعاً لمن استجار به^(٤).

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الكاظم عليه السلام

١ - غزارة علمه :

لقد شهد للإمام موسى الكاظم عليه السلام بوفور علمه أبوه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إذ قال عنه:

(١) مختصر تاريخ العرب: ٢٠٩.

(٢) تاريخ بغداد ١: ١٣٣.

(٣) تحفة العالم ٢: ٢٠.

(٤) لقد اعتقد أغلب المسلمين أنَّ الله يكشف البلاء، ويدفع الضرر بالالتجاء إلى ضريح الإمام عليه السلام، وقال ابن شهر آشوب في مناقبه: رُوي في بغداد امرأة تهوّل فقيل: إلى أين؟ قالت: إلى موسى بن جعفر فأنه حبس ابني، فقال لها حنبلي: إنّه قد مات في الحبس، فقالت: بحقّ المقتول في الحبس أن تريني القدرة، فإذا بابنها قد أطلق، وأخذ ابن المستهزئ بجنايته. المناقب ٤: ٣٠٥.

«إنّ ابني هذا لو سألتَه عمّا بين دفتي المصحف لأجابك فيه بعلم»^(١).
 وقال أيضاً: «وعنده علم الحكم، والفهم والسخاء، والمعرفة بما يحتاج إليه الناس فيما
 اختلفوا فيه من أمر دينهم»^(٢).
 ويكفي لمعرفة وفور علومه رواية العلماء عنه جميع الفنون من علوم الدين
 وغيرها مما ملأوا به الكتب، وألّفوا المؤلفات الكثيرة، حتى عرف بين الرواة بالعالم.
 وقال الشيخ المفيد: وقد روى الناس عن أبي الحسن موسى فأكثرُوا، وكان أفقه
 أهل زمانه^(٣).

٢ - عبادته وتقواه :

لقد رأى الإمام الكاظم عليه السلام جميع صور التقوى ماثلة في بيته، فصارت من
 مقومات ذاته ومن عناصر شخصيته، وحدث المؤرخون أنه كان أعبد أهل زمانه^(٤)
 حتى لُقّب بالعبد الصالح، وبزين المجتهدين إذ لم تر عين انسان نظيراً له قط
 في الطاعة والعبادة. ونعرض نماذج من مظاهر طاعته وعبادته:
 أ - صلاته : إنّ أجمل الساعات وأثمنها عند الإمام عليه السلام هي الساعات التي يخلو
 بها مع الله عزّ اسمه فكان يقبل عليه بجميع مشاعره وعواطفه وقد ورد: أنه إذا وقف
 بين يدي الله تعالى مصلياً أو مناجياً أو داعياً أرسل ما في عينيه من دموع، وخفق
 قلبه، واضطرب خوفاً منه، وقد شغل أغلب أوقاته بالصلاة، فكان يصلي نوافل الليل
 ويصلها بصلاة الصبح، ثم يعقب حتى تطلع الشمس، ويخرّ الله ساجداً فلا يرفع رأسه
 من الدعاء والتمجيد حتى يقرب زوال الشمس^(٥)، من مظاهر طاعته أنه دخل مسجد

(١) قرب الإسناد، الحميري القمي: ٣٣٥، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث.

(٢) الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ٧٨، نحوه في الكافي ١: ٣١٤.

(٣) الإرشاد ٢: ٢٢٥.

(٤) جوهرة الكلام: ١٣٩.

(٥) الإرشاد ٢: ٢٣١ وعنه في كشف الغمّة ٣: ١٨.

النبي ﷺ في أول الليل فسجد سجدة واحدة وهو يقول بنبرات تقطر إخلاصاً وخوفاً منه:

«عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك»^(١).

ولما أودعه طاغية زمانه الملك هارون الرشيد في ظلمات السجون تفرغ للطاعة والعبادة حتى بهر بذلك العقول وحير الألباب، فقد شكر الله على تفرغه لطاعته قائلاً: «اللهم انني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد»^(٢).

ب - صومه: كان الإمام عليه السلام يصوم في النهار ويقوم مصلياً في الليل، خصوصاً لما سجنه هارون فإنه لم يبارح العبادة الاستحبابية بجميع أنواعها من صوم وغيره، وهو يشكر الله ويحمده على هذا الفراغ الذي قضاه في عبادته.

ج - حجّه: وما من شيء يحبه الله وندب إليه إلا فعله الإمام عن رغبة وإخلاص، فمن ذلك أنه حج بيت الله ماشياً على قدميه، والنجائب تقاد بين يديه، وقد حج معه أخوه علي بن جعفر وجميع عياله أربع مرات.

د - تلاوته للقرآن: كان الذكر الحكيم رفيق الإمام في خلواته، وصاحبه في وحشته وكان يتلوه بإمعان وتدبر، وكان من أحسن الناس صوتاً به، فإذا قرأ يحزن، ويبكي السامعون لتلاوته^(٣).

وحدث حفص عن كيفية تلاوته للقرآن فقال: وكان قراءته حزناً، فإذا قرأ فكأنه يخاطب إنساناً^(٤) بهذه الكيفية كان يتلو آيات الذكر الحكيم فكان يمعن في تعاليمه ويمعن في آدابه، ويتبصر في أوامره ونواهيه وأحكامه.

هـ - عتقه للعبيد: ومن مظاهر طاعة الإمام عليه السلام عطفه وإحسانه على الرقيق فقد أعتق ألف مملوك^(٥) كل ذلك لوجه الله، وابتغاء مرضاته، والتقرب إليه.

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٢٧، وفيات الأعيان ٤: ٢٩٣، كنز اللغة: ٧٦٦، الأنوار البهية: ١٩٠، عن تاريخ بغداد.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤٣، وفيات الأعيان ٤: ٢٩٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٤: ٣٤٨.

(٤) أصول الكافي ٢: ٦٠٦ وعنه في بحار الأنوار ٤٨: ١١١.

٣ - زهده :

كان الإمام في طليعة الزاهدين في الدنيا والمعرضين عن نعيمها وزخارفها، فقد اتجه الى الله ورغب فيما أعدّه له في دار الخلود من النعيم والكرامة، وقد حدثنا عن مدى زهده إبراهيم بن عبد الحميد فقال: دخلت عليه في بيته الذي كان يصلي فيه، فاذا ليس في البيت شيء سوى خضفة، وسيف معلق، ومصحف^(٢)، لقد كان عيشه زهيداً، وبيته بسيطاً فلم يحتو شيئاً حتى من الأمتعة البسيطة التي تضمها بيوت الفقراء الأمر الذي دل على تجرده من الدنيا، وإعراضه عنها. على أنه كانت تجبى له الأموال الطائلة، والحقوق الشرعية من العالم الشيعي، بالإضافة الى أنه كان يملك البسرية^(٣) وغيرها من الأراضي الزراعية التي تدر عليه الأموال الخطيرة، وقد أنفق جميع ذلك بسخاء على البائسين والمحرومين في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وكان عليه السلام دوماً يتلو على أصحابه سيرة أبي ذر الصحابي العظيم الذي ضرب المثل الأعلى لنكران الذات والتجرد عن الدنيا والزهد في ملاذها، فقال عليه السلام:

«رحم الله أبا ذر . فلقد كان يقول: جزي الله الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير، أتغدى بأحدهما، وأتعشى بالآخر، وبعد شملتني الصوف أئترز بإحدهما وارتي بالآخرى...»^(٤).

٤ - جوده وسخاؤه :

لقد تجلّى الكرم الواقعي، والسخاء الحقيقي في الإمام فكان مضرب المثل في الكرم والمعروف، فقد فزع إليه البائسون والمحرومون لينقذهم من كابوس الفقر

(١) دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري (الشيعي): ٣٠٩، الدر النظيم، في مناقب الأئمة اللهايم ليوسف بن حاتم الشامي: ٢٤٤.

(٢) بحار الأنوار ٤٨: ١٠٠، ح ١ عن قرب الإسناد.

(٣) البسرية: قرية على فرسخين من بغداد . سير أعلام النبلاء ١٨: ٤٠٢ الهامش .

(٤) أصول الكافي ٢: ١٣٤.

وجحيم البؤس وقد أجمع المؤرخون على أنه أنفق عليه جميع ما عنده عليهم كل ذلك في سبيل الله لم يتغ من أحد جزاءً أو شكوراً، وكان عليه السلام في صلواته يتطلب الكتمان وعدم الذبوع لئلا يشاهد على الآخذ ذلة الحاجة، وكان يلتمس في ذلك وجه الله ورضاه، ولهذا كان يخرج في غلس الليل البهيم فيصل الطبقة الضعيفة ببره وإحسانه وهي لا تعلم من أي جهة تصلها تلك المبرة .

وحدث عيسى بن محمد القرطي قال : « زرت بطيخاً وقثاءً وقرعاً^(١) في موضع بالجوانية^(٢) على بئر يقال لها أم عظام.

فلما استوى الزرع بغتني الجراد، فأتى على الزرع كله، وكنت قد غرمت عليه مع ثمن جملين مائة وعشرين ديناراً. فبينما أنا جالس إذ طلع عليّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فسلم ثم قال لي: كيف حالك؟

فقلت: أصبحت كالصريم بغتني الجراد فأكل كل زرع .

فقال: كم غرمت فيه؟

فقلت: مائة وعشرين ديناراً مع ثمن الجملين.

فالتفت عليه السلام لعرفة وقال له: زن لابن المغيث مائة وخمسين ديناراً. ثم قال لعيسى:

فربحك ثلاثون ديناراً مع الجملين^(٣) .

٥ - حلمه :

وكان الحلم من أبرز صفات الإمام موسى عليه السلام فقد كان مضرب المثل في حلمه وكظمه للغيط، وكان يعفو عن أساء إليه، ويصفح عن اعتدى عليه، ولم يكتف بذلك وإنما كان يحسن لهم ويغدق عليهم بالمعروف ليمحو بذلك روح الشر والأنانية من نفوسهم، وقد ذكر المؤرخون بوادر كثيرة من حلمه فقد رووا: «أن

(١) القرع : نوع من اليقطين ، الواحدة قرعة .

(٢) منطقة قرب المدينة انظر معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢: ١٧٥ .

(٣) تاريخ بغداد ١٣: ٢٩، وكشف الغمّة ٢: ٢١٧.

شخصاً من أحفاد عمر بن الخطاب كان يسيء للإمام، ويكيل السب والشتم لجده أمير المؤمنين عليه السلام فأراد بعض شيعة الإمام اغتياله فنهاهم عليه السلام عن ذلك ورأى أن يعالجه بغير ذلك فسأل عن مكانه ف قيل: أنه يزرع في بعض نواحي المدينة، فركب عليه السلام بغلته ومضى إليه متنكراً، فوجده في مزرعته فأقبل نحوه، فصاح به: لا تطأ زرعنا، واستمر الإمام حتى وصل إليه، ولما انتهى إليه جلس الى جنبه وأخذ يلاطفه ويحدثه بأطيب الحديث، وقال له بلطف ولين :

- كم غرمت في زرعك هذا ؟

- مائة ديناراً .

- كم ترجو أن تصيب منه ؟ .

- أنا لا أعلم الغيب !!

- إنما قلت لك : كم ترجو أن يجيئك منه ؟

- أرجو أن يجيئني منه مائتا دينار .

فأعطاه عليه السلام ثلاثمائة ديناراً، وقال: هذه لك وزرعك على حاله، فتغير العمري، وخجل من نفسه على ما فرط من قبل في حق الإمام، وتركه عليه السلام ومضى الى الجامع النبوي، فوجد العمري قد سبقه، فلما رأى الإمام مقبلاً قام إليه تكريماً وانطلق يهتف: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ في من يشاء».

فبادر إليه أصحابه منكرين عليه هذا الانقلاب، فأخذ يخاصمهم، ويتلو عليهم مناقب الإمام ومآثره، ويدعو له، فالتفت الإمام عليه السلام إلى أصحابه قائلاً: أيما كان خيراً؟ ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار؟^(١).

ومن آيات حلمه عليه السلام أنه اجتاز على جماعة من حسّاده وأعدائه، وكان فيهم ابن هياج فأمر بعض أتباعه أن يتعلق بلجام بغلة الإمام ويدعيها، فمضى الرجل الى

(١) الإرشاد ٢: ٢٣٣، إعلام الوري ٢: ٢٦، ٢٧، واختصر في مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤٤ تاريخ بغداد ١٣ :

٢٨ - ٢٩، وكشف الغمة ٣: ١٨، ١٩.

الإمام وتعلق بزمام بغلته فادعاها له فعرف الإمام غايته فنزل عن بغلته وأعطاهَا له^(١).
 لقد أقام عليه السلام بذلك أسمى مثل للإنسانية الفذّة والحلم الرفيع.
 وكان عليه السلام يوصي أبناءه بالتحلي بهذه الصفة الرفيعة ويأمرهم بالصفح عمن
 أساء إليهم فقد جمعهم وأوصاهم بذلك فقال:
 «يا بني: إني أوصيكم بوصية من حفظها انتفع بها، إذا أتاكم آت فأسمع أحدكم في
 الأذن اليمنى مكروهاً ثم تحوّل الى اليسرى فاعتذر لكم، وقال: إني لم أقل شيئاً فاقبلوا
 عذره»^(٢).

النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام

أجمع المسلمون - على اختلاف نحلهم ومذاهبهم - على أفضلية أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وأعلميتهم، وسمو مقامهم، ورفع منزلتهم، وقدسية ذواتهم وقرب مكانتهم من الرسول الأعظم ﷺ حتى تنافسوا في الكتابة عنهم، وذكر أحاديث الرسول الأعظم ﷺ فيهم، وبيان سيرهم وأخلاقهم، وذكر ما ورد من حكمهم وتعاليمهم.
 ولا غرو في ذلك بعد أن قرنهم الرسول الأعظم ﷺ بالقرآن الكريم - كما ورد في حديث الثقلين^(٣) - ووصفهم النبي ﷺ بسفينة نوح التي من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى^(٤)، ومثلهم بباب حطة الذي من دخله كان آمناً^(٥). الى كثير من أحاديثه ﷺ في بيان فضلهم، والتنويه بعظمة مقامهم.

(١) الكافي، الشيخ الكليني ٨: ٨٧.

(٢) كشف الغمّة ٣: ٨ عن الجنابدي، والفصول المهمة لابن الصباغ: ٢٣٥.

(٣) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ٣: ١٤، و٥: ١٨٢ و١٨٩، سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ وغيرها من المصادر.

(٤) المعجم الأوسط ٤: ١٠، و٥: ٣٥٤، و٦: ٨٥، المستدرک، الحاكم النيسابوري ٢: ٣٤٣.

(٥) مجمع الزوائد ٩: ١٦٨ باختلاف يسير كما في المعجم الصغير للطبراني ٢: ٢٢.

ونقدّم في هذا الفصل بعض الانطباعات ممّن عاصر الإمام الكاظم عليه السلام عنه وممّن تلا عصره.

١ - قال عنه الإمام الصادق عليه السلام: «فيه علم الحكم، والفهم والسخاء والمعرفة بما يحتاج الناس إليه فيما اختلفوا فيه من أمر دينهم، وفيه حسن الخلق، وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله عزّ وجلّ»^(١).

٢ - كتب عيسى بن جعفر للرّشيد: «لقد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي، وقد اختبرت حاله ووضعت عليه العيون طول هذه المدّة، فما وجدته يفترعن العبادة، ووضعت من يسمع منه مايقوله في دعائه فما دعا عليك ولا عليّ، ولا ذكرنا بسوء، وما يدعو لنفسه إلّا بالمغفرة والرحمة، فإن أنت انفذت اليّ من يتسلّمه مني وإلّا خليت سبيله، فإني متحرّج من حبسه»^(٢).

٣ - قال أبو عليّ الخلال - شيخ الحنابلة -: «ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسّلت به، إلّا وسهّل الله تعالى لي ما أحبّ»^(٣).

٤ - قال الخطيب البغدادي: «كان سخيّاً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنّه يؤذيه، فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصرّ الصرر: ثلاثمائة دينار، وأربعمائة دينار، ومائتي دينار ثم يقسمها بالمدينة، وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرة فقد استغنى»^(٤).

٥ - قال ابن الصّبّاغ المالكي: «وأما مناقبه وكراماته الظاهرة، وفضائله وصفاته الباهرة، فتشهد له بأنّه افترع قبة الشرف وعلاها، وسما الى أوج المزايا فبلغ علاها،

(١) بحار الأنوار ٤٨ : ١٢ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٣٥٢.

(٣) تاريخ بغداد ١ : ١٢٠.

(٤) مقاتل الطالبين: ٤٩٩، تاريخ بغداد ١٣ : ٢٧.

وذلك له كواهل السيادة وامتطائها، وحكم في غنائم المجد فاختر صفاياها فأصطفاهَا...»^(١)

٦ - قال سبط ابن الجوزي: «موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ويلقب بالكاظم والمأمون والطيب والسيد، وكنيته أبو الحسن، ويدعى بالعبد الصالح لعبادته، واجتهاده وقيامه بالليل»^(٢).

٧ - قال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: «هو الإمام الكبير القدر، العظيم الشأن، الكبير المجتهد الجاد في الاجتهاد، المشهور بالعبادة، المواظب على الطاعات، المشهور بالكرامات، يبيت الليل ساجداً وقائماً، ويقطع النهار متصدّقاً وصائماً، ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دعي (كاظماً). كان يجازي المسيء بإحسانه إليه، ويقابل الجاني بعفوه عنه، ولكثرة عبادته كان يسمى بـ (العبد الصالح) ويعرف في العراق بـ (باب الحوائج الى الله) لنجح مطالب المتوسّلين الى الله تعالى به، كراماته تحار منها العقول، وتقضي بأنّ له عند الله قدم صدق لا تزال ولا تزول»^(٣).

٨ - قال أحمد بن يوسف الدمشقي القرماني: «هو الإمام الكبير القدر، الأوحد، الحجّة، الساهر ليله قائماً، القاطع نهاره صائماً، المسمّى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين (كاظماً) وهو المعروف عند أهل العراق بـ (باب الحوائج) لأنه ما خاب المتوسّل به في قضاء حاجة قط... له كرامات ظاهرة، ومناقب باهرة، افترع قمة الشرف وعلاها، وسما الى اوج المزايا فبلغ علاها»^(٤).

(١) الفصول المهمة : ٢١٧ وكشف الغمّة ٣ : ٤٦.

(٢) تذكرة الخواص : ٣١٢.

(٣) مطالب السؤل : ٨٣.

(٤) أخبار الدول : ١١٢.

٩ - قال محمد بن أحمد الذهبي : « كان موسى من أجود الحكماء ، ومن عباد الله الأتقياء ، وله مشهد معروف ببغداد ، مات سنة ثلاث وثمانين وله خمس وخمسون سنة »^(١) .

١٠ - قال ابن الساعي : « الإمام الكاظم : فهو صاحب الشأن العظيم ، والفخر الجسيم ، كثير التهجد ، الجاد في الاجتهاد ، المشهود له بالكرامات ، المشهور بالعبادات ، المواظب على الطاعات ، يبيت الليل ساجداً وقائماً ، ويقطع النهار متصدّقاً وصائماً »^(٢) .

١١ - قال عبدالمؤمن الشبلنجي : « كان موسى الكاظم رضي الله عنه أعبد أهل زمانه ، وأعلمهم ، واسخاهم كفاً ، وأكرمهم نفساً ، وكان يتفقد فقراء المدينة فيحمل إليهم الدراهم والدنانير الى بيوتهم ليلاً ، وكذلك النفقات ، ولا يعلمون من أيّ جهة وصلهم ذلك ، ولم يعلموا بذلك إلا بعد موته . وكان كثيراً ما يدعو : « اللهم إني أسألك الراحة عند الموت ، والعفو عند الحساب ... »^(٣) .

١٢ - قال عبد الوهاب الشعراني : « أحد الأئمة الاثني عشر ، وهو ابن جعفر ابن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، كان يكنى بـ (العبد الصالح) لكثرة عبادته واجتهاده وقيامه الليل ، وكان إذا بلغه عن أحد يؤذيه يبعث إليه بمال »^(٤) .

١٣ - قال عبد الله الشبراوي الشافعي : « كان من العظماء الاسخياء ، وكان والده جعفر يحبه حباً شديداً ، قيل له : ما بلغ من حبك لموسى ؟ قال : وددت أن ليس لي ولد غيره ، لئلاّ يشرك في حبي أحد . ثم تحدث عن الإمام عليه السلام ونقل بعض كلامه »^(٥) .

(١) ميزان الاعتدال ٣ : ٢٠٩ .

(٢) مختصر تاريخ الخلفاء : ٣٩ .

(٣) نور الأبصار : ٢١٨ .

(٤) الكامل في التاريخ ٦ : ١٦٤ ، وتذكرة الخواص : ٣٤٨ .

(٥) الإتحاف بحبّ الأشراف : ٥٤ .

١٤ - قال محمد خواجه البخاري: «ومن أئمة أهل البيت: أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، كان رضي الله عنه صالحاً، عابداً، جواداً، حليماً، كبير القدر، كثير العلم، كان يدعى بـ (العبد الصالح) وفي كل يوم يسجد لله سجدة طويلة بعد ارتفاع الشمس الى الزوال. وبعث الى رجل يؤذيه صرة فيها ألف دينار.

طلبه المهدي بن المنصور من المدينة الى بغداد فحبسه، فرأى المهدي في النوم علياً كرم الله وجهه يقول: يا مهدي «فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» فأطلقه..»^(١).

ومما تقدم يظهر مدى سعة الانطباعات الإسلامية والإنسانية عن الإمام الكاظم عليه السلام التي تركت تأثيرها في حياة الناس على مدى العصور.

* * *

(١) ينابيع المودة : ٤٥٩.

الفصل الثاني

والكلام فى هذا الفصل يقع فى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الإمام موسى الكاظم فى ظلّ أبيه عليه السلام

لقد تميّزت المرحلة التي نشأ فيها الإمام موسى الكاظم عليه السلام وعاصرها مع أبيه - منذ ولادته سنة (١٢٨ هـ) حتى وفاة أبيه سنة (١٤٨ هـ) بعدة منعطفات تاريخية ونشاطات نوعية من قبل الإمام الصادق عليه السلام حيث استطاع بقدراته الإلهية وحنكته الربانية أن يتجاوز تلك التحديات ، ويرسم الخط الإلهي الأصيل ويُنجز مهام الإمامة ويهيئ لولده الإمام الكاظم عليه السلام الطريق لكي يمارس دوره المستقبلي .

ولمّا كنّا بصدد إلقاء الضوء على أهم ما امتازت به حياة الإمام الكاظم مع أبيه عليه السلام لتتصوّر من خلالها الأدوار المقبلة له أثناء تصديّه للإمامة كان من المهم أن نلخص الظواهر البارزة في هذه المرحلة من حياته مع أبيه عليه السلام كما يلي :

١ - ظاهرة تمرّد المسلمين على السلطة والاعتقاد بأهميّة الثورة ، والندم على موقف السكوت أمام الباطل ، والدعوة للعلويين الذين يشكّلون الخط المناهض للحكم الأموي ، فظاهرة التمرّد أفقدت المركزية للسلطة وانتهت الى عدم الطاعة للأمراء، حتى أصبح شعار الدعوة الى الرضا من آل محمّد ﷺ في هذه المرحلة حديث الساعة الذي كان يتداوله الناس هنا وهناك .

وهذه الظاهرة أتاحت للإمام الصادق عليه السلام أن ينفذ من خلالها لتطبيق برنامجه ما دامت السلطة مشغولة بالاضطرابات التي خلّفتها الثورة الحسينية .

٢ - في هذه الفترة ظهرت على المسرح السياسي مقدمات نشوء الدولة العباسية . وكان موقف الإمام الصادق عليه السلام من الحركة العباسية هو الحياد وعدم المشاركة فيها وعدم دعمها وإخباره وتنبؤه بنتائجها، مع عدم توفر الظرف الملائم للثورة العلوية؛ وذلك لفقدان الشروط الموضوعية لها ، وقد تجلّى ذلك بوضوح من

خلال موافقه عليه من العروض التي تقدّم بها قادة الدعوة العباسية للإمام عليه السلام أمثال أبي سلمة وأبي مسلم الخراساني حيث صرّح لهم مرّة بأنّ الزمان ليس بزمانه، ومرّة أخرى أحرق الرسالة التي وصلته من أحدهم. لقد كانت عروضاً سياسية مصلحية وكان الإمام عليه السلام يدرك خلفياتها. وبهذا تخلّص الإمام عليه السلام من هذه المنزلقات وخلّص شيعته ليفتح لهم آفاقاً أرحب للعمل والجهاد في سبيل الله تعالى .

٣ - تركّزت نشاطات الإمام الصادق عليه السلام في البناء الخاص ومعالجة التحديات التي كانت تعصف بالوجود الشيعي ضمن عدّة اتجاهات :

أ - التغيير الثقافي والفكري : حين قرّر الإمام عليه السلام لزوم الحياد السياسي والميداني كان قد أعدّ برنامجاً الذي يستوعب عن طريقه طاقات الأمة ويلبّي حاجاتها الاجتماعية والأخلاقية من خلال جامعة أهل البيت عليه السلام التي أسّسها وطوّرها كي يتمكّن عن طريقها من مواجهة المدّ الفكري المنحرف الذي روّج له الأمويون.

ب - وفي الوقت الذي كان الإمام الصادق عليه السلام يطور هذا التيار الفكري كان يهيّء الأذهان الخاصة لقبول قيادة الإمام الكاظم عليه السلام والإيمان بإمامته، فقد جاء عن المفضل بن عمر أنّه قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل أبو إبراهيم موسى وهو غلام، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : «استوص به وضع أمره عند من تثق به من أصحابك»^(١).

ج - وتحرك الإمام الصادق عليه السلام لقطع الطريق أمام الدعوات المشبوهة التي كانت تهدف إلى تمزيق وحدة الصفّ الشيعي وتطرح نفسها بديلاً للإمام عليه السلام، فمن أساليبه عليه السلام خلال مواجهته للتيار الإسماعيلي إخباره الشيعة بأنّ إسماعيل ليس هو الإمام من بعده، وعندما توفّي إسماعيل أحضر الإمام الصادق عليه السلام حشداً من الشيعة ليخبرهم بحقيقة موت إسماعيل، لئلاّ يستغلّ المنحرفون موت إسماعيل لتمزيق الكيان الشيعي بالتدريج .

(١) أصول الكافي ١ : ٣٠٨، ح ٤، والإرشاد ٢ : ٢١٦.

٤ - عاصر الإمام الكاظم عليه السلام معاناة أبيه الصادق عليه السلام وشاهد الاستدعاءات المتكررة له من قبل المنصور حتى استشهاد عليه السلام بعد الوصية لابنه الإمام الكاظم عليه السلام وإبلاغها لخواص شيعته وربط عامة الشيعة بإمامته.

وهنا نقف قليلاً عند بعض نصوص الإمام الصادق عليه السلام على إمامة ابنه موسى عليه السلام.

١ - عن يعقوب السراج قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو واقف على رأس أبي الحسن موسى وهو في المهد، فجعل يساره طويلاً، فجلست حتى فرغ، فقامت إليه فقال لي: «ادن من مولاك فسلم، فدنوت فسلمت عليه فرد علي السلام بلسان فصيح، ثم قال لي: اذهب فغير اسم ابنتك التي سميتها أمس، فانه اسم يغيضه الله، وكان ولدت لي ابنة سميتها بالحميراء. فقال أبو عبد الله: انتبه الى أمره ترشد، فغيرت اسمها»^(١).

٢ - عن فيض بن المختار قال: «إني لعند أبي عبد الله عليه السلام إذ أقبل أبو الحسن موسى عليه السلام - وهو غلام - فالتزمته، وقبّله فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنتم السفينة وهذا ملاّحها، قال: فحججت من قابل ومعي ألف دينار فبعثت بألف الى أبي عبد الله عليه السلام وألف إليه، فلما دخلت على أبي عبد الله عليه السلام قال: يا فيض عدلته بي؟ قلت: إنّما فعلت ذلك لقولك، فقال: أما والله ما أنا فعلت ذلك، بل الله عز وجلّ فعله به»^(٢).

٣ - عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال له منصور بن حازم: بأبي أنت وأمي إنّ الأنفس يُغدا عليها ويراح، فإذا كان ذلك، فمن؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا كان ذلك فهو صاحبكم»، وضرب بيده على منكب أبي الحسن عليه السلام الأيمن - في ما أعلم - وهو يومئذ خماسي وعبد الله بن جعفر جالس معنا^(٣).

٤ - عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صاحب هذا الأمر فقال: «إنّ صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب، وأقبل أبو الحسن موسى وهو صغير ومعه

(١) أصول الكافي ١: ٣١٠، ح ١١.

(٢) المصدر السابق ١: ٣١١، ح ١٦.

(٣) أصول الكافي ١: ٣٠٩، ح ٦، والإرشاد ٢: ٢١٨.

عناق مكّية وهو يقول لها: اسجدي لربك، فأخذه أبو عبد الله عليه السلام وضمّه إليه وقال: بأبي وأمي من لا يلهو ولا يلعب»^(١).

٥ - عن يزيد بن أسباط قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام في مرضته التي مات فيها، قال عليه السلام:

«يا يزيد أترى هذا الصبي؟ - وأشار لولده موسى - إذا رأيت الناس قد اختلفوا فيه، فاشهد عليّ بأنّي أخبرتك أنّ يوسف إنّما كان ذنبه عند إخوته حتى طرحوه في الحب، الحسد له، حين أخبرهم أنّه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر وهم له ساجدون، وكذا لا بد لهذا الغلام من أن يحسد، ثم دعا موسى وعبد الله وإسحاق ومحمّد والعباس، وقال لهم: هذا وصيّ الأوصياء وعالم علم العلماء وشهيد على الأموات والأحياء، ثمّ قال: يا يزيد ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾^(٢)»^(٣).

المرحلة الثانية: موقف الإمام الكاظم عليه السلام في عهد الرشيد

ويقع الكلام على هذه المرحلة في نقطتين:

النقطة الأولى: الإمام عليه السلام وسياسة الرشيد

إنّ سيرة الإمام عليه السلام ومواقفه من الرشيد لم تكن استسلامية، بل كان الإمام عليه السلام صلباً في مواقفه يتحدّى بها الرشيد، وإن كان في بعضها شيء من المرونة في بعض الأحيان وذلك لمعرفة الإمام عليه السلام به وبنواياه فكان يراعي في مواقفه المصالح العليا. ونختار بعض المشاهد التي تعبّر عن حقيقة موقف الإمام عليه السلام من حكومة الرشيد.

(١) أصول الكافي ١ : ٣١١، ح ١٥، والإرشاد ٢ : ٢١٩.

(٢) سورة الزخرف ٤٣ : ١٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ٣ : ٤٣٥، المطبعة الحيدرية، بحار الأنوار ٤٨ : ٢٠، ح ٣١.

المشهد الأول: عن محمد بن طلحة الأنصاري قال: كان مما قال هارون لأبي الحسن عليه السلام حين أدخل عليه:

«ما هذه الدار؟»

فقال عليه السلام: هذه دار الفاسقين، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾^(١).

فقال له هارون: فدار من هي؟ قال عليه السلام: هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنه.

قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

فقال: «أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة».

قال: فأين شيعتك؟ فقرأ أبو الحسن عليه السلام: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٢).

قال: فقال له: فنحن كفار؟ قال عليه السلام: لا، ولكن كما قال الله ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(٣).

فغضب عند ذلك وغلظ عليه إذ قد لقيه أبو الحسن عليه السلام بمثل هذه المقالة وما ربه، وهذا خلاف قول من زعم أنه هرب منه من الخوف^(٤).

المشهد الثاني: إن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام: «حُدِّ فِدْكَأَ حَتَّى أَرُدَّهَا إِلَيْكَ، فَيَأْبَى حَتَّى أَلْحَ عَلَيْهِ».

فقال عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها. قال: وما حدودها؟

قال عليه السلام: إن حددتها لم تردّها. قال: بحق جدك إلا فعلت.

قال عليه السلام: أمّا الحد الأول فعدن. فتغير وجه الرشيد وقال: إِيهًا.

(١) سورة الأعراف ٧: ١٤٦.

(٢) سورة البينة ٩٨: ١.

(٣) سورة إبراهيم ١٤: ٢٨.

(٤) تفسير العياشي ٢: ٢٩، والاختصاص ٢٥٦، بحار الأنوار ٤٨: ١٥٦.

قال عليه السلام: والحد الثاني سمرقند. فاربذ وجهه.

قال عليه السلام: والحد الثالث إفريقية. فأسود وجهه وقال: هيه

قال عليه السلام: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية. قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء،

فتحوّل إلى مجلسي!

قال موسى عليه السلام: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردّها. فعند ذلك عزم على قتله^(١).

المشهد الثالث: ولما دخل هارون الرشيد المدينة توجه لزيارة النبي صلى الله عليه وآله ومعه

الناس فتقدم الرشيد الى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ، مفتخرًا بذلك على غيره.

فتقدم أبو الحسن عليه السلام فقال «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك

يا أبة»، فتغيّر وجه الرشيد وتبيّن الغيظ فيه^(٢).

النقطة الثانية: المناظرات في عصر الإمام الكاظم عليه السلام

من الأنشطة الفكرية الواسعة الصيت في عصر الإمام الكاظم عليه السلام والمؤثرة

في تبلور فكر الأمة: المناظرة العلمية، وكان الإمام الصادق عليه السلام ثم الإمام

الكاظم عليه السلام من بعده قد استثمرا هذه الظاهرة وأعدّا لها نخبة من العلماء

المتخصصين في هذا الميدان تعاقدوا الدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام وتعريفه

للناس واستطاعوا رغم المنع السلطوي والحصار الفكري أن يروّجوا للمذهب

ويحققوا انتصارات مشهودة. كما قد نشطوا من جانب في دحض الشبهات

والإتهامات التي كانت تثار ضد الفكر الإسلامي أو الشيعي واستطاعوا أن يقفوا

بوجه الموجات الفكرية الانحرافية والحركات الإلحادية.

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٣١ وعنه في تذكرة الخواص: ٣١٣ وفي مناقب آل أبي طالب ٤ : ٣٤٦ وعنه في بحار الأنوار

٤٨ : ١٤٤.

(٢) كامل الزيارات: ١٨ ب ٣ وعنه في بحار الأنوار ٤٨ : ١٣٦، وفي مناقب آل أبي طالب ٤ : ٣٤٥.

ومن جملة أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام البارزين في هذا الميدان هشام بن الحكم، الذي كان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وبعد وفاته اتصل بالإمام الكاظم عليه السلام.

واختصّ بعلم الكلام، فكان من كبار المتكلمين في عصره .
ونظراً لاختصاصه بهذا الفن، فقد زين يحيى بن خالد البرمكي مجلسه به وجعله قِيماً لمجالس كلامه^(١).

وخاض هشام مع علماء الأديان والمذاهب مستدلاً على صحة مبدئه وبطلان أفكارهم.

ونظراً لخطورة استدلاله وقوة حجته، كان الرشيد يحضر من وراء الستار فيصغي إليها ويعجب بها، ولقد خاض في عدة مناظرات مع زعيم المعتزلة الروحي عمرو بن عبيد^(٢).

ووجه يحيى بن خالد البرمكي سؤالاً لهشام بحضرة الرشيد من أجل إحراجه قائلاً له: أخبرني عن عليّ والعباس لما اختصما إلى أبي بكر في الميراث أيهما كان المحقّ من المبطل؟

فاستولت الحيرة على هشام لأنه قال في نفسه: إن قلت: عليّ كان مبطلاً كفرت، وإن قلت: العباس كان مبطلاً ضرب الرشيد عنقي.

فقال هشام: لم يكن من أحدهما خطأ وكانا جميعاً محقين، ولهذا نظير قد نطق به القرآن في قصة داود عليه السلام حيث يقول الله: ﴿وَهَلْ أَنَاكَ نَبِيُّ الْخُصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فأَي الملكين كان مخطئاً؟ وأيهما كان مصيباً؟ أم تقول: إنهما كانا مخطئين؟ فجوابك في ذلك جوابي بعينه.

(١) الفهرست لابن النديم : ٢٦٣.

(٢) رجال الكشي : ٢٢٥ ح ٤٧٥، ٢٨٠ ح ٥٠٠، والأمالى ١ : ٥٥، ومروج الذهب ٣ : ١٩٤ و ٤ : ٢١ - ٢٣.

فقال يحيى: لست أقول: الملكين أخطأ، بل أقول إنهما أصابا وذلك أنهما لم يختصما في الحقيقة ولا اختلفا في الحكم وإنما أظهرنا ذلك لينبها داود على الخطيئة ويعرفاه الحكم ويوقفاه عليه.

فقال هشام: كذلك عليّ والعباس لم يختلفا في الحكم ولا اختصما في الحقيقة وإنما أظهرنا الاختلاف والخصومة لينبها أبا بكر على غلظه ويوقفاه على خطيئته ويدلّاه على ظلمه في الميراث ولم يكونا في ريب من أمرهما. فتحير يحيى ولم يطق جواباً، واستحسن الرشيد هذا البيان الرائع الذي تخلص به هشام^(١).

المرحلة الثالثة: اعتقال الإمام عليه السلام حتى استشهاده

لقد أصبح الإمام عليه السلام بعد عقد من حكم الرشيد وجوداً ثقيلاً على هارون لقوة تأثيره في الأمة واتساع الإمتداد الشيعي حتى وجدناه يقدر المتطوعين في جيش الإمام بمائة ألف سيف. من هنا ضاق صدره وأزعجه انتشار صيت الإمام عليه السلام لأنّ الناس غدت تتناقل مآثر الإمام وعلمه وأخلاقه.

وبعد زيارة الرشيد لقبر الرسول صلى الله عليه وآله ولقائه بالإمام عليه السلام أمر الطاغية هارون باعتقال الإمام عليه السلام وفعلاً أُلقي القبض على الإمام وهو قائم يصلي عند رأس جده النبي صلى الله عليه وآله ولم يمهله لإتمامها.

فحمل وقيد فشكى الإمام لجده الرسول صلى الله عليه وآله قائلاً: «إليك أشكو يا رسول الله»^(٢)، وبعد اعتقال الإمام غدت الناس تتحدث فيما بينها باستنكار هذا الحدث المهم، فخافت السلطات أن يكون اعتقال الإمام محفزاً للثورة عليها. فحمل جملين، واحداً الى البصرة والثاني الى الكوفة لغرض الإيهام على الناس، أي: لئلا يعرف محل حمل الإمام في أيهما.

(١) الفصول المختارة: ٤٢ ووردت المناظرة باختصار في عيون أخبار الرضا ٢: ١٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٨٥ ح ١٠.

وسارت القافلة تطوي البيداء حتى وصلت البصرة، حيث تم تسليم الإمام إلى عيسى بن أبي جعفر فحبسه في بيت من بيوت المحبس وأقفل عليه أبواب السجن، فكان لا يفتحها إلا في حالتين: إحداهما في خروجه للطهور، والأخرى لإدخال الطعام له عليه السلام.

وأوعز الرشيد إلى عيسى يطلب منه فوراً القيام باغتيال الإمام لكن لما وصلت أوامر الرشيد لعيسى باغتيال الإمام عليه السلام ثقل عليه الأمر، وجمع خواصه وثقته فعرض عليهم الأمر فأشاروا عليه بالتحذير من ارتكاب الجريمة فاستصوب رأيهم، وكتب إلى الرشيد رسالة يطلب فيها إعفائه من ذلك.

واستجاب الرشيد لطلب عيسى وخاف أن يساهم في إطلاق سراح الإمام عليه السلام ويخلى سبيله، فأمره بحمله إلى بغداد، ولما وصل الإمام عليه السلام إلى بغداد أمر الرشيد باعتقاله عند الفضل فأخذه وحبسه في بيته.

وأشرف هارون على سجن الإمام عليه السلام إذ كان يتوجس في نفسه الخوف من الإمام عليه السلام فلم يثق بالعيون التي وضعها عليه في سجنه فكان يراقبه ويتطلع على شؤونه خوفاً من أن يتصل به أحد أو يكون الفضل قد رفّه عليه، فأطل من أعلى القصر على السجن فرأى ثوباً مطروحاً في مكان خاص لم يتغير عن موضعه.

فقال للفضل: ماذاك الثوب الذي أراه كل يوم في ذلك الموضع؟!

فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، وما ذاك بثوب، وإنما هو موسى بن جعفر له في كل يوم سجدة بعد طلوع الشمس إلى وقت الزوال، فانبهر هارون وقال: أما إن هذا من رهبان بني هاشم!

والتفت إليه الربيع بعد ما سمع منه اعترافه بعبادة وزهد الإمام قائلا له:

يا أمير المؤمنين مالك قد ضيقت عليه في الحبس؟! فأجابه هارون قائلا:

هيهات، لا بد من ذلك^(١).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٥، وعنه في بحار الأنوار ٤٨: ٢٢٠.

دعاء الإمام عليه السلام وإطلاق سراحه

ولمّا طالت مدة الحبس على الإمام عليه السلام وهو رهين السجون، قام في غلس الليل البهيم فجدّد طهوره وصلى لربه أربع ركعات وأخذ يدعو الله تعالى بإطلاق سراحه. واستجاب الله دعاء العبد الصالح فأنقذه من سجن الطاغية هارون وأطلقه في غلس الليل^(١).

وبقي عليه السلام بعد إطلاق سراحه في بغداد لم يخرج منها الى يثرب، وكان يدخل على الرشيد في كل أسبوع مرة يوم الخميس^(٢).

الاعتقال الثاني للإمام عليه السلام

ولمّا شاع ذكر الإمام عليه السلام وانتشرت فضائله ومآثره في بغداد، ضاق الرشيد بذلك ذرعاً، وخاف منه فاعتقله ثانية فاودعه في بيت الفضل بن يحيى. ولما رأى الفضل عبادة الإمام عليه السلام وإقباله على الله وانشغاله بذكره أكبر الإمام، ولم يضيّق عليه وكان في كل يوم يبعث إليه بمائدة فاخرة من الطعام، وقد رأى عليه السلام من السعة في سجن الفضل ما لم يرها في بقية السجون. ولمّا أوعز الرشيد للفضل بإغتيال الإمام عليه السلام امتنع ولم يجبه الى ذلك وخاف من الله؛ لأنه كان ممّن يذهب الى الإمامة ويدين بها، وهذا هو السبب الذي دعا الرشيد للتكيد بالفضل، واتهام البرامكة^(٣).

الاعتقال الثالث للإمام عليه السلام

وبعد سجن الفضل أمر هارون بنقل الإمام عليه السلام الى سجن السندي بن شاهك وأمره بالتضييق عليه، فاستجاب هذا الأتيم لذلك فقابل الإمام عليه السلام بكل جفوة

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٤ ح ١٣ وراجع مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ٤: ٣٣٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٣ ح ١٣، وعنه في بحار الأنوار ٤٨: ٢١٩ ح ٢٠.

(٣) راجع مقاتل الطالبين: ٥٠٣ - ٥٠٤.

وقسوة، والإمام صابر محتسب فأمره الطاغية أن يقيّد الإمام عليه السلام بثلاثين رطلا من الحديد ويقفل الباب فيوجهه ولا يدعه يخرج إلا للوضوء.

وامثل السندي لذلك فقام بإرهاق الإمام عليه السلام وبذل جميع جهوده للتضييق عليه، ووكل بشّاراً مولاه، وكان من أشد الناس بغضاً لآل أبي طالب ولكنه لم يلبث أن تغير حاله وآب الى طريق الحق؛ وذلك لما رآه من كرامات الإمام عليه السلام ومعاجزه، وقام ببعض الخدمات له ^(١).

وكتب الإمام موسى الكاظم عليه السلام رسالة من داخل السجن لهارون جواباً منه عليه السلام لمحاولات هارون الفاشلة بالإغراء أو التنكيل بالإمام بأنها لا تقدم ولا تؤخر شيئاً.

عن محمد بن إسماعيل قال: بعث موسى بن جعفر عليه السلام الى الرشيد من الحبس رسالة كانت: «إنّه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً الى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون» ^(٢).

لقد عانى الإمام الكاظم عليه السلام أقسى ألوان الخطوب والتنكيل، فتكبل بالقيود، وتضييق شديد في التعامل معه ومنعه من الاتصال بالناس، وأذى مرهق، وبعد ما صبّ الرشيد عليه جميع أنواع الأذى أقدم على قتله بشكل لم يسبق له نظير محاولاً التخلص من مسؤولية قتله، وذهب أكثر المؤرخين والمترجمين للإمام الى أنّ الرشيد أوعز الى السندي بن شاهك الأثيم بقتل الإمام عليه السلام فاستجاب لذلك وأقدم على تنفيذ أفضع جريمة في الإسلام فاغتال حفيد النبي العظيم صلّى الله عليه وآله.

(١) اختيار معرفة الرجال : ٤٣٨ ح ٨٢٧.

(٢) تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢ وعنه في تذكرة الخواص : ٣١٤، الكامل في التاريخ ٦ : ١٦٤، كشف الغمّة ٣ : ٨ عن الجنابي عن أحمد بن إسماعيل وعنه في بحار الأنوار ٤٨ : ١٤٨، الفصول المهمة : ٢٢٢ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٣، وسير اعلام النبلاء ٦ : ٢٨٣.

فعمد السندي الى رطب فوضع فيه سمّاً فاتكاً وقدمه للإمام عليه السلام فأكل منه عشر رطبات فقال له السندي «زد على ذلك» فرمقه الإمام عليه السلام بطرفه وقال له: «حسبك قد بلغت ما تحتاج إليه».

إلى الرفيق الأعلى

وبعد أكله للرطب سرى السمّ في جميع أجزاء بدن الإمام عليه السلام وقد علم أنّ لقاءه برّبّه قد حان فاستدعى السندي. «فلما مثل عنده أمره أن يحضر مولى له ينزل عند دار العباس بن محمّد في مشرعة القصب ليتولى غسله، وسأله السندي أن يأذن له في تكفينه فأبى وقال عليه السلام:

«إنّا أهل بيت مهوّر نساءنا وحجّ صرورتنا وأكفان موتانا من طاهر أموالنا، وعندي كفني»^(١).

واحضر له السندي مولاه، وثقل حال الإمام عليه السلام، وأشرف على النهاية المحتومة، فأخذ يعاني آلام الموت فاستدعى المسيب بن زهرة فقال له: «إني على ما عرفتك من الرحيل الى الله عزّ وجلّ فإذا دعوت بشربة من ماء فشربتها ورأيتني قد انتفخت، واصفرّ لوني واحمرّ واخضرّ وتلونّ ألواناً فاخبر الطاغية بوفاتي. قال المسيب: فلم أزل أراقب وعده حتى دعاء عليه السلام بشربة فشربها ثم استدعاني، فقال لي:

يا مسيب ، إنّ هذا الرجس السندي بن شاهك سيزعم أنه يتولى غسلي ودفني. وهيئات هيئات أن يكون ذلك أبداً.

فإذا حملت الى المقبرة المعروفة بمقابر قريش فالحدوني بها، ولا ترفعوا قبري فوق أربعة أصابع مفرّجات، ولا تأخذوا من تربتي شيئاً لتبركوا به فإنّ كل تربة لنا محرمة إلاّ تربة جدّي الحسين بن عليّ فإنّ الله عزّ وجلّ جعلها شفاءً لشيعتنا وأوليائنا.

(١) مقاتل الطالبين : ٣٣٣ وعنه في الغيبة للطوسي: ٢٦ - ٣١ وعنه في بحار الأنوار ٤٨: ٢٣٤ ح ٣٨ .

قال المسيب: ثم رأيت شخصاً أشبه الاشخاص به جالساً الى جانبه، وكان عهدي بسيدي الرضا عليه السلام وهو غلام، فأردت أن أسأله، فصاح بي سيدي موسى، وقال: أليس قد نهيتك؟

ثم إن ذلك الشخص قد غاب عني، فجئت الى الإمام وإذا به جثة هامدة قد فارق الحياة فأنهيت الخبر الى الرشيد بوفاته.

لقد لحق الإمام عليه السلام بالرفيق الأعلى وفاضت نفسه الزكية الى بارئها فأظلمت الدنيا لفقده وأشرقت الآخرة بقدومه، وقد خسر الإسلام والمسلمون ألمع شخصية كانت تذب عن كيان الإسلام، وتنافح عن كلمة التوحيد وتطالب بحقوق المسلمين وتشجب كل اعتداء غادر عليهم.

فسلام عليك يا بن رسول الله، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً.

* * *

الفصل الثالث

الإمام الكاظم عليه السلام وبناء الجماعة الصالحة

دور الإمام الكاظم عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة

كرّس الإمام الكاظم عليه السلام جهده لإكمال بناء الجماعة الصالحة التي يهدف من خلالها إلى الحفاظ على الشريعة من الضياع ويطرح النموذج الصالح الذي يتولّى عملية التغيير والبناء في الأمة، حيث مارس الإمام عليه السلام تحركاً مشهوداً في هذا المجال وقدم للأمة النموذج الصالح الذي صنّعه مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

أولاً: تركيز الانتماء لخط أهل البيت عليهم السلام الانتماء السياسي :

ركّز الإمام عليه السلام على بعد الانتماء لخط أهل البيت عليهم السلام، ولا سيّما الانتماء السياسي لهم وتحرك الإمام على مستوى تجويز تغلغل بعض أتباعه في جهاز السلطة الحاكمة، وأبرز مثال لذلك توظيف عليّ بن يقطين ووصوله إلى مركز الوزارة؛ وذلك لتحقيق عدّة أهداف في هذه المرحلة السياسية الحرجة وهي كما يلي :

الهدف الأول : الإحاطة بالوضع السياسي

إنّ الاقتراب من أعلى موقع سياسي، من أجل الإحاطة بالمعلومات السياسية وغيرها التي تصدر عن البلاط الحاكم أمر ضروري جداً، وذلك ليتخذ التدابير والحيلة اللازمة لئلاّ يتعرّض الوجود الشيعي للإبادة أو الإنهيار. والشاهد على ذلك: أنّه لمّا عزم موسى الهادي على قتل الإمام موسى عليه السلام بعد ثورة الحسين - صاحب فخ - وتدخل أبو يوسف القاضي في تغيير رأي الهادي عندما قال له: إنّ

موسى الكاظم عليه السلام لم يكن مذهبه الخروج ولا مذهب أحد من ولده حيث استطاع أبو يوسف أن يقنع الخليفة.

هنا كتب علي بن يقطين الى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام بصورة الأمر^(١) من أجل أن يكون الإمام عليه السلام على علم بنشاطاته وسترى في المرحلة التالية الدور الفاعل الذي لعبه علي بن يقطين في خلافة الرشيد لصالح الإمام الكاظم عليه السلام والشيعية المواليين له.

الهدف الثاني: قضاء حوائج المؤمنين

إنّ قضاء حوائج المؤمنين الذين ينتمون لخط أهل البيت عليهم السلام والذين يعيشون في ظل دولة ظالمة تطاردهم وتريد القضاء على وجودهم يشكل هدفاً مهماً يصب في رافد بقاء واستمرار وجود هذه الجماعة الصالحة. وقد طلب علي بن يقطين من الإمام الكاظم عليه السلام التخلي عن منصبه أكثر من مرة، وقد نهاه الإمام عليه السلام قائلاً له :

«يا عليّ إنّ الله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم يا عليّ»^(٢).

وقال له في مرة أخرى : «لا تفعل فإن لنا بك أنساً وإخوانك بك عزّاً وعسى الله أن يجبر بك كسيراً أو يكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه. يا عليّ كفارة أعمالكم الإحسان الى إخوانكم .. اضمن لي واحدة اضمن لك ثلاثاً، اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلاّ قضيت حاجته وأكرمته اضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبداً ولا ينالك حد السيف أبداً ولا يدخل الفقر بيتك أبداً...»^(٣).

(١) مهج الدعوات : ٢٢٩ / ح ١، عوالم العلوم والمعارف والأحوال : ٣٦٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ٤٣٣ ح ٨١٧.

(٣) خبر الضمان في اختيار معرفة الرجال: ٤٣٣ ح ٨١٨ وعنه في حياة الإمام موسى بن جعفر : ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧.

وعن علي بن طاهر الصوري: قال: ولّي علينا بعض كتاب يحيى بن خالد وكان عليّ بقايا يطالبني بها وخفت من الزامي إيّاها خروجا عن نعمتي، وقيل لي: إنّه ينتحل هذا المذهب، فخفت أن أمضي إليه فلا يكون كذلك، فأقع فيما لا أحبّ. فاجتمع رأيي على أني هربت الى الله تعالى، وحجبت ولقيت مولاي الصابر - يعني موسى بن جعفر عليه السلام - فشكوت حالي إليه فاصحبني مكتوبا نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم أعلم أنّ الله تحت عرشه ظلا لا يسكنه إلاّ من أسدى الى أخيه معروفاً، أو نفّس عنه كربة، أو أدخل على قلبه سرورا، وهذا أخوك، والسلام»^(١). ومن مصاديق قضاء حوائج الإخوان المؤمنين: جباية الأموال جهراً وإرجاعها إليهم سراً.

عن علي بن يقطين قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام) ما تقول في أعمال هؤلاء؟

قال: «إن كنت لابدّ فائق الله في أموال الشيعة».

قال الراوي: فأخبرني عليّ أنّه كان يجبيها من الشيعة علانية ويردّها عليهم في السرّ^(٢).

الهدف الثالث: التأثير في السياسة العامّة

استخدم الإمام آليات متقنة ومحكمة في نشاطه الاستخباري، وتأمين الاتصال السري مع عليّ بن يقطين، أو غيره من الشيعة المتغلغلين في مراكز النظام الحاكم، ولعل الهدف من هذا الاختراق ومسك مواقع متقدمة من السلطة إمّا للتأثير في السياسة العامة للسلطة، أو لإنجاز أعمال سياسيّة، أو فقهية لصالح الأمّة من خلال قرب لهذه المواقع.

(١) راجع تمام الخبر ومصادره في: ٣٦ - ٣٨ من هذا الكتاب.

(٢) الكافي: ١١٠ / ٥، ح ٣، وعنه في البحار: ٤٨ / ١٥٨، ح ٣١، وفي اختيار معرفة الرجال: ٤٣٥ ح ٨٢٠ عن كاتبه أمية وغيره.

يحدثنا إسماعيل بن سلام عن آليات هذا الارتباط، وما يتضمنه من نشاط في النص التالي:

قال إسماعيل بن سلام وابن حميد: بعث إلينا علي بن يقطين فقال: اشتريا راحلتين، وتجنبا الطريق. ودفع إلينا أموالا وكتباً حتى توصلنا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى عليه السلام ولا يعلم بكما أحد، قال: فأتينا الكوفة واشترينا راحلتين وتزوّدنا زاداً، وخرجنا نتجنب الطريق حتى إذا صرنا ببطن الرّمة^(١) شدّدنا راحلتنا، ووضعنا لها العلف، وقعدنا نأكل فيينا نحن كذلك، إذ راكب قد أقبل ومعه شاكري، فلما قرب منا فاذا هو أبو الحسن موسى عليه السلام فقمنا إليه وسلمنا عليه ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا فأخرج من كمّه كتباً فناولنا إيّاها فقال: هذه جوابات كتبكم^(٢)...

ثانياً : التثقيف السياسي

إنّ النشاط السياسي الذي يقوم به أصحاب الإمام عليه السلام في هذه المرحلة وما يمتاز به من صعوبات، كان يحتاج إلى لون خاص من الوعي ودقة في الملاحظة وعمق في الإيمان، ممّا دفع بالإمام عليه السلام إلى أن يراعى ويشجع الخواص ويعمق في نفوسهم روح التدبّر ويمنحهم سقفاً خاصاً من المستوى الإيمانى ويدفعهم إلى أفق سياسي يتحرّكون به ضد الخصوم بشكل سليم ويوفّر لهم قوة تمنحهم قدرة المواصلة وسموّ النفس.

وفي هذا المجال نلاحظ ما يلي :

١ - شحذ الإمام عليه السلام الهمم التي آمنت بالحقّ موضحاً أنّ الأمر لا يتعلق بكثرة الأنصار أو قلتها.

(١) بطن الرّمة واد معروف بنجد، وقال أبو عبيد السكوني: في بطن الرّمة منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة بها يجتمع أهل الكوفة والبصرة. انظر معجم البلدان ٣: ٧٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ٤٣٦ ح ٨٢١ والخرائج والجرائح: ٣٢٧/١ وعنهما في بحار الأنوار: ٤٨ / ٣٤، ح ٥.

فعن سماعة بن مهران قال: قال لي العبد الصالح عليه السلام: «ياسماعة أمنوا على فرشهم، وأخافوني أما والله لقد كانت الدنيا وما فيها إلّا واحد يعبد الله، ولو كان معه غيره لأضافه الله عز وجل إليه حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾»^(١) فصبر بذلك ماشاء الله. ثم إن الله أنسه بإسماعيل وإسحاق، فصاروا ثلاثة. أما والله إن المؤمن لقليل، وإن أهل الباطل لكثير أتدري لم ذلك؟ فقلت: لا أدري جعلت فداك. فقال: صبروا أنساً للمؤمنين يثبون إليهم ما في صدورهم، فيستريحون إلى ذلك ويسكنون إليه»^(٢).

٢ - لقد سعى الإمام عليه السلام لتربية شيعته على أساس تقوية أواصر الإخوة والمحبة الإيمانية بحيث تصبح الجماعة الصالحة قوة اجتماعية متماسكة لا يمكن زعزعتها أو تضعيفها لقوة الترابط العقائدي والروحي فيما بينها. لنقرأ النص التالي معاً:

سأل الإمام موسى عليه السلام يوماً أحد أصحابه قائلاً له: «يا عاصم كيف أنتم في التواصل والتبار؟ فقال: على أفضل ما كان عليه أحد. فقال عليه السلام: أيأتي أحدكم عند الضيقة منزل أخيه فلا يجده، فيأمر باخراج كيسه فيخرج فيفضّ ختمه فيأخذ من ذلك حاجته، فلا ينكر عليه؟! قال: لا، قال: لستم على ما أحب من التواصل والضيقة والفقير»^(٣).

ثالثاً: البناء العملي والانتماء الفكري:

ركّز الإمام الكاظم عليه السلام في تربيته للجماعة الصالحة على ضرورة الانتماء الفكري والمعرفي لمدرسة أهل البيت عليه السلام، وتحرك الإمام عليه السلام بهذا الاتجاه مستغلاً

(١) سورة النحل ١٦: ١٢٠.

(٢) الكافي: ٢ / ٢٤٣ وعنه في بحار الأنوار: ٤٧ / ٣٧٣، ح ٩٤ و ٦٧ / ١٦٢ قال المجلسي معلقاً ومفسراً على هذا الخبر: أي إنّما جعل الله تعالى هؤلاء المنافقين في صورة المؤمنين مختلطين بهم لئلا يتوحش المؤمنون لقلتهم.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٦٥ وفي ط: ١٤٤/٢ عن بصائر الدرجات، وفي بحار الأنوار: ٤٨ / ١١٩، ح ٣٥ وفي وسائل الشيعة ٢٥: ٣٥.

للنهضة الفكرية التي حققها الإمام الصادق عليه السلام من قبل فقام بإكمال عمل أبيه في بناء الكادر المتخصص فامتدت قواعده من هذا النوع حتى ذكر له (٣١٩) صحابياً^(١) كل منهم تلقى العلم والمعرفة من الإمام الكاظم عليه السلام وقد خضعت هذه الجماعة بانتمائها الفكري لبرمجة متقنة بحيث يمكنها مواجهة التحديات الثقافية والفقهية والابداع في ميدانها الخاص.

وفيما يلي نشير الى جانب من نشاط الإمام عليه السلام بهذا الاتجاه :

قام الإمام موسى الكاظم عليه السلام بإعداد نخبة من الفقهاء ورواة الحديث تقدّر كما ذكرنا بـ (٣١٩) شخصاً لكن قد تميّز من بين أصحابه ستة بالصدق والأمانة، وأجمع الرواة على تصديقهم فيما يروونه عن الأئمة عليهم السلام على أنه اشتهر بين المحدثين ثمانية عشر فقيهاً ومحدثاً من أصحاب الأئمة الثلاثة: (الباقر والصادق والكاظم) وهم المعروفون بأصحاب الاجماع، ستة من أصحاب «أبي جعفر» وستة من أصحاب «أبي عبد الله» وستة من أصحاب «أبي الحسن موسى عليه السلام»، وهم : «يونس بن عبد الرحمن»، و«صفوان بن يحيى بياع السابري»، و«محمد بن أبي عمير»، و«عبد الله بن المغيرة»، و«الحسن ابن محبوب السراة»، و«أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي»^(٢) هذا في المجال الفقهي أما الميادين الفكرية الأخرى مثل الكلام والقرآن، واللغة وماشاكل ذلك فلها أيضاً نخبة متخصصة فيها.

وقد توزّع نشاط الإمام عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة على ثلاثة مجالات، وهي:

أولاً: المجال السياسي

قام الإمام موسى عليه السلام بعدة خطوات تربوية مع شيعته في هذا المجال.

الخطوة الأولى: تأكيد الإنتماء السياسي لخطّ أهل البيت عليهم السلام

إنّ خطّ أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم هو خط الرفض للظلم والظالمين، ولقد تشدّد عليهم السلام على محبيه وشيعته وحرّم عليهم الانفتاح أو التعاون مع السلطات العباسية

(١) الإمام موسى الكاظم لباقر شريف القرشي : ٢ / ٢٢٣.

(٢) انظر اختيار معرفة الرجال: ٥٥٦ ح ١٠٥٠.

الظالمة، وأخذ يعمّق في نفوسهم النزاهة والدقة في رفض الظلم، ليمتلكوا وعياً سياسياً يحصّنهم من الانجراف مع التيار الحاكم أو الاستجابة لمخططات الاحتواء بشكل وآخر.

إنّ موقفه عليه السلام من صفوان الجمال يكشف دقّة المنهج التربوي عند الإمام مع شيعته في هذه المرحلة وتصعيد الإمام عليه السلام لمستوى المواجهة مع الجهاز الحاكم من جهة وحرصه على تفتيت دعائم الحكم القائم حيث أخذ الرشيد يحصي على أهل البيت عليه السلام وشيعتهم أنفاسهم ويخطط لإبادتهم.

دخل صفوان بن مهران الأسدي على الإمام موسى الكاظم عليه السلام فقال له: «يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً». قال: جعلت فداك، أي شيء هو؟

قال عليه السلام: اكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون الرشيد!

قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو، ولكن لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني.

قال عليه السلام: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟ قال: نعم جعلت فداك.

قال عليه السلام: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو وارد للنار.

وقام صفوان في الوقت فباع جماله وأعرض عن مهنته فبلغ ذلك هارون فأرسل خلفه، فلما مثل عنده قال له - وهو يتميّز من الغيظ -: يا صفوان! بلغني أنك بعت جمالك، قال: نعم قال: ولم؟ قال: أنا شيخ كبير، وإنّ الغلمان لا يفون بالأعمال.

قال: هيهات هيهات!! أنّي لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك موسى بن

جعفر.

قال: مالي ولموسى بن جعفر. قال: دع عنك هذا، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك»^(١).

الخطوة الثانية : التأكيد على مبدأ التقية

ومن الخطوات التي خطاها الإمام موسى عليه السلام مع شيعته: التشديد على أهمية الالتزام بالتقية كقيمة تحصينية، تحافظ على الوجود الشيعي وتقويه من الضربات الخارجية.

روى معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن القيام للولاء، فقال عليه السلام: قال أبو جعفر عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له» وفي رواية عن معلى بن خنيس قال: قال أبو عبدالله: «يا معلى إن التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له»^(٢).

وحدثت درست بن أبي منصور، قال: كنت عند أبي الحسن موسى عليه السلام. وعنده الكميث بن زيد، فقال له الإمام عليه السلام: «أنت الذي تقول:

فالآن صرت الى أُمية والأُمور الى مصائر

فقال الكميث: قد قلت ذلك، والله ما رجعت عن إيماني، وإنني لكم لموال ولعدوكم لقال، ولكن قد قلته على التقية فقال عليه السلام: «إن التقية لتجوز على شرب الخمر»^(٣).

الخطوة الثالثة: النفوذ في الجهاز الحاكم

ونشط الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن طريق أصحابه، بالنفوذ في مواقع السلطة، فقد تصدر أصحاب الإمام عليه السلام مواقع سياسية مهمة في الحكومة العباسية،

(١) رجال النجاشي: ١٩٨ برقم ٥٢٥، وكان من موالى بني أسد بالكوفة. والخبر من اختيار معرفة الرجال: ٤٤٠ ح ٨٢٨.

(٢) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي ١: ٢٥٥، حديث رقم ٢٨٦، دار الكتب الإسلامية، الوسائل: ٢٠٤/١٦ رقم ح ٢١٣٥٩ باب ٢٤ كتاب الأمر والنهي.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ٤٦٥/١، ح ٣٦٤.

وكان الإمام عليه السلام يُثني ويشتمن عمل هؤلاء ، لكن كان يشترط التعاون وقضاء حوائج المؤمنين وإلا فإنه ينتفي غرض المهمة.

وإليك قائمة بأسماء أصحاب الإمام عليه السلام الذين شغلوا مواقع مهمة في السلطة العباسية، وكانوا من أعظم العلماء وأجلّهم منهم:

١ - عليّ بن يقطين: نشأ يقطين بالكوفة وكان يبيع الأبنار وكان يقول بالإمامة، وقد اتصل بأبي العباس السفاح والمنصور والمهدي، ولما انتقل يقطين الى دار الحقّ قام ولده عليّ مقامه فاتصل اتصالاً وثيقاً بالعباسيين، وتولّى المناصب المهمة في الدولة وكان عوناً للمؤمنين، وقام بتزويج عدد منهم وكان يعيل قسماً كبيراً منهم.

فقد حدّث سليمان كاتبه فقال: أحصيت لعلي من يحجّ عنه في عام واحد مائة وخمسين رجلاً أقلّ من أعطاه منهم سبعمائة درهم وأكثر من أعطاه عشرة آلاف درهم وزوج ثلاثة أو أربعة من أولاد الإمام الكاظم عليه السلام وانفق أموالاً ضخمة في وجوه البرّ والإحسان . وتقلّد أعلى منصب في أيام المهدي ومن بعده عيّنه هارون وزيراً له ^(١) وكان على اتصال سرّي ودائم مع الإمام عليه السلام .

٢ - حفص بن غياث الكوفي ، ولي القضاء ببغداد الشرقية من قبل هارون ثم تولّى قضاء الكوفة وتوفي سنة (١٩٤ هـ) ^(٢).

٣ - عبد الله بن سنان بن طريف، كان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد ^(٣).

٤ - الفضل بن سليمان الكاتب البغدادي، كان يكتب للمنصور والمهدي ^(٤).

٥ - محمّد بن إسماعيل بن بزيع من صلحاء الطائفة ومن عيونها وأحد رواة

حديث الإمام موسى عليه السلام كان مولى للمنصور وأحد وزراء الدولة العباسية ^(٥).

(١) اختيار معرفة الرجال: ٤٣٠ ح ٨٠٥ و ٤٣٣ ح ٨١٥ و ٤٣٤ ح ٨١٩ و ٨٢٠ و ٤٣٧ ح ٨٢٤، والفهرست لابن النديم : ٣٢٨.

(٢) رجال النجاشي: ١٣٤ برقم ٣٤٦ وفي رجال الكشي: ٣٩٠ ح ٧٣٢ قال: هو عامّي وفي تنقيح المقال : ١ / ٣٥٥.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ٤١١ ح ٧٧١ وفي رجال النجاشي: ٢١٤ برقم ٥٥٨ من موالى بني العباس، وجامع الرواة: ٤٨٧ / ١.

(٤) رجال النجاشي : ٣٠٦ رقم ٨٣٧.

(٥) اختيار معرفة الرجال: ٥٦٤ ح ١٠٦٥ وفي رجال النجاشي: ٣٣٠ برقم ٨٩٣.

٦ - الحسن بن راشد مولى بني العباس: كان وزيراً للمهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد^(١).

لقد كان هؤلاء بعض أصحاب الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) ورواة حديثه. ومن هنا نستطيع أن نقدّر مدى حنكة الإمام عليه السلام وتخطيطه للمحافظة على المواقع المهمة لأبناء الجماعة الصالحة في جهاز السلطة من إقرار فضلاء صحابته على قبولهم ولاية الحاكم الجائر فإنّهم أعلم بهذا الخط وشؤونه من عامة المؤمنين.

ثانياً: المجال التربوي

إنّ وصايا الإمام الكاظم عليه السلام وتوجيهاته لشيعة تلاحظ حاجة الواقع الموجود لإكمال بناء هذه الجماعة الصالحة باتّجاه الأهداف النهائية التي رسمها أهل البيت عليهم السلام لها.

ومن هنا نجد الإمام عليه السلام يتابع شيعة ويشرف على تكامل بناء هذه الجماعة وأفرادها فيقوم بتطبيق ما يدعو إليه عملياً لتشكيل خطواته نموذجاً ومنازاً يهتدي به أبناء مدرسته. ولهذا المجال يمكن أن نستشهد بعدة أمثلة:

المثال الأوّل: «موقفه عليه السلام من عليّ بن يقطين عندما أراد أحد المؤمنين أن يدخل على عليّ بن يقطين ولم يأذن له لنلاحظ تعبير الإمام (بأخيك) ليؤكد أنّ وجودك يا عليّ في هذا المنصب هو لخدمة هؤلاء لا لشيء ومن هنا أذن له الإمام بالبقاء، بل أمره بالبقاء عندما أراد أن يعتزل من هذا الموقع.

عن محمّد بن عليّ الصوفي قال: استأذن إبراهيم الجمال - رضي الله عنه - على أبي الحسن عليّ بن يقطين الوزير فحجبه.

فحجّ عليّ بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى ابن جعفر عليه السلام فحجبه.

(١) انظر ترجمته في فهرست أعلام الكشي: ٢٦ في أخبار عديدة. وفي رجال النجاشي: ٣٨ برقم ٧٦ وفي منهج المقال: ٩٨.

فرآه ثاني يومه فقال عليّ بن يقطين: يا سيدي ما ذنبي؟ فقال عليه السلام: «حجبتك لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمال وقد أبى الله أن يشكر سعيك أو يغفر لك إبراهيم الجمال».

فقلت: سيدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو بالكوفة؟

فقال عليه السلام: إذا كان الليل فامض الى البقيع وحدك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلماذك واركب نجيباً هناك مسرّجاً». قال: فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن أناخه على باب إبراهيم الجمال بالكوفة.

فقرع الباب وقال: أنا عليّ بن يقطين فقال إبراهيم الجمال من داخل الدار: وما يعمل عليّ بن يقطين الوزير ببابي؟!

فقال عليّ بن يقطين: يا هذا إنّ أمري عظيم، وآلى عليه أن يأذن له، فلمّا دخل قال: يا إبراهيم إنّ المولى عليه السلام أبى أن يقبلني أو تغفر لي، فقال: يغفر الله لك. فألى عليّ بن يقطين على إبراهيم الجمال أن يطأ خده فامتنع إبراهيم من ذلك فألى عليه ثانياً ففعل.

فلم يزل إبراهيم يطأ خده وعليّ بن يقطين يقول: اللهم اشهد، ثم انصرف وركب النجيب، وأناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر (عليه السلام) بالمدينة فأذن له ودخل عليه فقبله^(١).

المثال الثاني: حرص الإمام موسى عليه السلام على قضاء حوائج المؤمنين واهتم بها وهو في أحلك الظروف وأشدّها قساوة، فقد حثّ الشيعة على التمسك بهذا المبدأ

(١) عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب: ٩١، المطبعة الحيدرية النجف الأشرف، وعنه في بحار الأنوار ٤٨: ٨٥، ح ١٠٥.

الأخلاقي، بل أمر بعض الخواص بالبقاء في جهاز السلطة الظالمة لأجل قضاء حوائج المؤمنين.

من هنا ندرك مستوى اهتمامه ومدى سعيه لتحقيق هذا المبدأ في فكر وسلوك أبناء الجماعة الصالحة.

عن محمد بن سالم قال: «لما حمل سيدي موسى بن جعفر (عليه السلام) الى هارون جاء إليه هشام بن إبراهيم العباسي، فقال له: يا سيدي قد كُتِبَ لي صكٌ إلى الفضل بن يونس تسأله أن يروح أمري.

قال: فركب إليه أبو الحسن عليه السلام فدخل عليه حاجبه فقال: يا سيدي! أبو الحسن موسى بالباب فقال: فإن كنت صادقاً فأنت حرٌّ ولك كذا وكذا!

فخرج الفضل بن يونس حافياً يعدو حتى خرج إليه: فوقع على قدميه يُقبلهما ثم سأله أن يدخل، فدخل فقال له: اقض حاجة هشام بن إبراهيم، فقضاها»^(١).

المثال الثالث: تسديد الإمام عليه السلام لمهمة عليّ بن يقطين ودعمه له: روي عن عليّ بن يقطين: «أنه كتب الى موسى بن جعفر عليه السلام: اختلف في المسح على الرجلين، فإن رأيت أن تكتب ما يكون عملي عليه فعلت.

فكتب أبو الحسن عليه السلام: الذي أمرك به أن تتمضمض ثلاثاً وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً، وتخلّل شعر لحيتك ثلاثاً، وتغسل يديك ثلاثاً، وتمسح ظاهر أذنك وباطنها وتغسل رجليك ثلاثاً، ولا تخالف ذلك الى غيره، فامتثل أمره وعمل عليه.

فقال الرشيد: أحبّ أن أستبرئ أمر عليّ بن يقطين، فإنهم يقولون إنّه رافضي، والرافضة يخففون في الوضوء. فناطه بشيء من الشغل في الدار، حتى دخل وقت الصلاة، ووقف الرشيد وراء حائط الحجرة بحيث يرى عليّ بن يقطين ولا يراه هو، وقد بعث إليه بالماء للوضوء فتوضأ كما أمره موسى عليه السلام.

فقام الرشيد وقال: كذب من زعم أنك رافضي.

(١) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٠ ح ٩٥٧ وكان الفضل من الشيعة فطلبته السلطة فاخفى وكتب كتاباً على مذهب الراوندية العباسية بإثبات الإمامة للعباس فدسّه الى السلطان فأمنه واستعمله. بحار الأنوار ٤٨: ١٠٩.

فورد على عليّ بن يقطين كتاب موسى بن جعفر عليه السلام توضأ من الآن كما أمر الله : اغسل وجهك مرة فريضة، والآخرى اسباغاً، فاغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح مقدّم رأسك، وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوئك، فقد زال ما يخاف عليك»^(١).

ثالثاً: المجال العلمي والفكري

لقد كان عهد الصادقين عليه السلام عهد الانفراج النسبي لمدرسة أهل البيت عليه السلام حيث استطاعت أن تنشر علوم أهل البيت عليه السلام وتخرج الأساتذة والعلماء المسؤولين والأمناء على حفظ تراث هذا الخطّ الرسالي بين أبناء الأمة الإسلامية. ومن هنا فقد تكاملت لأبناء هذه المدرسة في عهديهما الأسس المتينة التي أرساها الرسول الأعظم ﷺ والإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام من بعده في المنهج والمحتوى والأسلوب.

وكان عصر الإمام الكاظم عليه السلام - الذي استمر ثلاثة عقود أو ما يزيد عليها قليلاً - استمراراً للمسيرة العلمية والثقافية التي حقّقها الصادقان عليه السلام حتى تخرج في عهده عليه السلام عدد مهم من الفقهاء الرواة الذين أصبحوا بمستوى العطاء الذي قدمه الإمام الكاظم عليه السلام للأمة الإسلامية في حقلَي النظرية والتطبيق معاً - كما سيتضح ذلك فيما سوف نراه من تبلور كثير من القواعد الأصولية والفقهية في مجال الاجتهاد الفقهي في هذه المدرسة العملاقة.

ثم إنّ انتشار التشيع واتّساع حجم الولاء والانتماء لخط أهل البيت عليه السلام بالمعنى الخاص الذي يتميّز عن الخط العباسي بعد جهود الصادقين عليه السلام كان من نصيب عهد الإمام الكاظم عليه السلام.

(١) الإرشاد: ٢٢٧/٢ - ٢٢٩ وعنه في إعلام الوري: ٢١/٢، ٢٢ وكشف الغمّة: ١٥/٣ - ١٧ وفي الخرائج والجرائح:

٣٣٥/١ ح ٢٦ وعنه في بحار الأنوار: ١٣٦/٤٨ ح ١١.

واتساع القاعدة كان يتطلب توسّع نشاط القيادة في رعاية شؤون الاتباع وصيانة الجماعة الصالحة من أنواع المزالق والانحرافات والعقبات.

على أن كثرة السؤال عن قضايا الشريعة أصولاً وفروعاً لاتساع دائرة الإنتماء ولتطور الزمن مع استعداد مدرسة أهل البيت عليه السلام للاستجابة للمستجدات ، كل هذا تطلب نشاطاً أكبر وأوسع من القيادة المتمثلة في الإمام الكاظم عليه السلام بالرغم من حرجة الظرف بعد استشهاد الإمام الصادق عليه السلام وعدم التوجيه العام حول إمامة موسى الكاظم عليه السلام لكل أبناء الطائفة...

من هنا كان الإمام عليه السلام بحاجة الى توظيف عدد من أصحابه الأخصاء به لإدارة شؤون الجماعة الصالحة بتقبل الوكالة عن الإمام والتحرك لجمع الأموال والحقوق التي رسم لها أهل البيت نظاماً ومنهجاً خاصاً يكفل للجماعة الصالحة استمرار وجودها وتطورها واستحكام أسسها بنحو يجعلها قادرة على مواجهة التحديات المستمرة.

وهذا هو الذي كان يخشاه الخلفاء، كل بمقدار نباهته وغوره الى عمق هذا الخط .. حتى أثار هذا النشاط الواسع والخط الثقيفي المعمق حفيظة هارون الرشيد تجاه شخص الإمام الكاظم عليه السلام حيث كان يراه الندّ الحقيقي الذي يهدد سلطانه.

وكان هارون جريئاً في الإقدام على سجن الإمام عليه السلام وعزله عن قواعده. ولكن أصحاب الإمام عليه السلام كانوا على اتصال مستمر به وهو في قيد السجن.

وكان هذا التخطيط يعدّ تطوراً واضحاً في التعامل مع الأحداث واستغلالاً للظروف الحرجة أحسن استغلال لإكمال المسيرة الربّانية الى حيث الأهداف المبتغاة منها.

الفصل الرابع

من تراث الإمام الكاظم عليه السلام

لقد ورث الإمام موسى الكاظم عليه السلام مدرسة أبيه الصادق عليه السلام وحظيت منه بالتوجيه والرعاية الشاملة لتلامذته وأصحابه بالرغم من قساوة الظروف وتغييرها خلال ثلاثة عقود ونصف من العمل العلمي الدؤوب والتربية المستمرة للنابهين من صحابته وطلاب المعرفة من أتباعه وشيعته.

وقد أثرت عن الإمام الكاظم عليه السلام عدة مجموعات روائية مثل : مسائل علي بن جعفر ، والاشعثيات، وتصدى المعنيون بتراث أهل البيت عليهم السلام لجمع التراث المأثور عن أهل البيت عليهم السلام وتنظيمه وتبويبه من مختلف المصادر وتسميته بالمسند. وهذا عمل يشكر عليه عامله لأنه يوفر للباحثين الفرصة الكافية للغور في هذا التراث ودراسته دراسة معمقة بالأرقام.

وفيما يخص الإمام موسى عليه السلام نلاحظ آخر ما جمع من كلامه وما يرتبط به من نصوص قد بلغ ثلاث مجلدات يناهز مجموعها الألف صفحة مبوّبة حسب تبويب الموسوعات الحديثية مع فارق أو أكثر. فالمقدمة تشتمل على مجموعة من النصوص التي تخص نشأة الإمام وحياته وسيرته عليه السلام. ثم يقسم تراثه الحديثي الى أبواب العقائد والأخلاق والأحكام والسيرة والتاريخ والرجال.

وفيما يخص مسند الإمام الكاظم عليه السلام إذا مررنا عليه مروراً عابراً وسريعاً أيضاً كفى ذلك لنقف على عظمة الدور الفكري والعطاء العلمي الذي قدّمه هذا الإمام العظيم الى الأمة الإسلامية بشكل عام والى الجماعة الصالحة وطلاب المعرفة المؤمنين بخط أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، لا سيما إذا لاحظنا قساوة الظروف السياسية والاجتماعية التي مرّ بها الإمام موسى عليه السلام وأصحابه وشيعته خلال ثلاثة عقود ونصف تقريباً.

لقد ترجم هذا المسند (٦٣٨) شخصاً من رواة الإمام الكاظم عليه السلام وهو رقم كبير جداً بالنسبة للمدة الزمنية التي عرفناها والظروف التي وقفنا عليها. وقد اشتمل الفهرس على عدد نصوص كل باب من أبواب المعرفة . وتراوح هذه النصوص بين نصوص مأثورة بواسطة الإمام الكاظم عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تكشف عن مدى اهتمامه بسيرة وحديث جدّه صلى الله عليه وآله وبين نصوص لا يسندها الى أحد مما يمكن أن نعتبرها من تراثه الخاص كما نلاحظ ذلك في الرسالة الكبيرة التي أثرت عنه حول العقل ولعلها الرسالة الوحيدة الجامعة لما يخصّ العقل من شؤون في الكتاب والسنة وهي وحدها تراث جامع وأثر خالد يتضمّن المنهج المعرفي القرآني والحديثي لأهل البيت عليهم السلام.

وإنّ التنوع في أبواب المعرفة التي أثرت عنه لدليل آخر على الجانب الموسوعي في هذا التراث، بالإضافة الى وضوح التكامل في المسيرة العلمية التي بدأها أهل البيت عليهم السلام، وسهروا على إرساء قواعد وإشادة أصولها ومعالمها والتخطيط لإثمارها والحرص على إنجاز دورها التغييري في المجتمع الإسلامي عامة، وفي الجماعة الصالحة بشكل خاص.

وإليك بعض النصوص المختارة من هذا التراث العظيم في الأبواب التالية :

أصول العلم ومراتب المعرفة :

١ - قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : « وجدت علم الناس في أربع، أوّلها: أن تعرف ربك، والثانية : أن تعرف ما صنع بك، والثالثة : أن تعرف ما أراد منك، والرابعة : أن تعرف ما يخرجك من دينك »^(١).

٢ - وقال عليه السلام : « فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنّا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه أشد على إبليس من ألف عابد... »^(٢).

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٥٥. هذا الحديث نقلته أكثر مصادر الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) الاحتجاج ١: ٨.

مصادر المعرفة ومنهجها :

١ - عن سماعة، عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: قلت له: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ أو تقولون فيه؟ قال: «بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»^(١).

٢ - عن سماعة، عن العبد الصالح قال: سألته فقلت: إن أناساً من أصحابنا قد لقوا أباك وجدك وسمعوا منهما الحديث، فربما كان شيء يبتلي به بعض أصحابنا وليس في ذلك عندهم شيء يفتيه وعندهم ما يشبهه، يسعهم أن يأخذوا بالقياس؟ فقال: «لا إنما هلك من كان قبلكم بالقياس، فقلت له: لم لا يقبل ذلك؟ فقال: لأنه ليس من شيء إلا وجاء في الكتاب والسنة»^(٢).

٣ - عن موسى بن بكر، قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة الأرض وملائكة السماء»^(٣).

٤ - عن عثمان بن عيسى، قال: سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن القياس فقال: «ما لكم والقياس إن الله لا يسأل كيف أحل وكيف حرم»^(٤).

٥ - عن يونس بن عبد الرحمن، قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: بما أوحى الله؟ فقال: «يا يونس لا تكونن مبتدعاً، من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيه ﷺ ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر»^(٥).

التوحيد وأسس التدبير الإلهي :

١ - عن محمد بن أبي عمير، قال: دخلت على سيدي موسى ابن جعفر عليه السلام، فقلت له: يا ابن رسول الله علمني التوحيد فقال: «يا أبا أحمد لا تتجاوز في التوحيد ما ذكره الله تعالى ذكره في كتابه فتهلك».

(١) الكافي ١ : ٦٢.

(٢) الاختصاص : ٢٨١.

(٣) المحاسن ١ : ٢٠٥، وبحار الأنوار ٢ : ١٢٢.

(٤) المحاسن ١ : ٢١٤.

(٥) أصول الكافي ١ : ٥٦.

واعلم أنّ الله تعالى واحد، أحد، صمد، لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا، وأنه الحيّ الذي لا يموت، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والحليم الذي لا يعجل، والدائم الذي لا يبدي، والباقي الذي لا يفنى، والثابت الذي لا يزول، والغني الذي لا يفتقر، والعزيز الذي لا يذل. والعالم الذي لا يجهل، والعدل الذي لا يجور، والجواد الذي لا يبخل، وأنه لا تقدره العقول، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأقطار، ولا يحويه مكان، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير»^(١).

٢ - عن محمد بن حكيم قال: كتب أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إلى أبي: «إنّ الله أعلا وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته. فصفوه بما وصف به نفسه، وكفّوا عما سوى ذلك»^(٢).

٤ - وقال عليه السلام: «إنّ الله تعالى لا يشبهه شيء، أي فحش أو خنى أعظم من قول من يصف خالق الأشياء بجسم أو صورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً»^(٣).

الإمامة والنص:

١ - عن داود الرقي، عن العبد الصالح عليه السلام قال: «إنّ الحجة لا تقوم لله على خلقه إلّا بإمام حيّ يُعرف»^(٤).

٢ - عن أبي عليّ بن راشد، قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الأرض لا تخلو من حجة وأنا والله ذلك الحجة»^(٥).

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق: ٧٧ حديث رقم ٣٢، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، بحار الأنوار ٧٥: ٢٩٦ - ٣١٩.

(٢) أصول الكافي ١: ١٠٢.

(٣) المصدر السابق ١: ١٠٥.

(٤) الاختصاص: ٢٦٩.

(٥) أصول الكافي ١: ١٧٩.

٣ - عن علي بن جعفر، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: قال لي: «نحن في العلم والشجاعة سواء وفي العطايا على قدر ما نؤمر»^(١).

٤ - عن أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: «نحن المحسودون»^(٢).

٥ - عن معاوية عن إسحاق قال: كنت عند أبي الحسن عليه السلام ودخل عليه رجل فقال له أبو الحسن عليه السلام: «يا فلان إنك تموت الى شهر قال: فاضمرت في نفسي كانه يعلم آجال شيعته فقال عليه السلام: يا إسحاق وما تنكرون من ذلك وقد كان رشيد الهجري مستضعفاً وكان يعلم علم المنايا والبلايا فالإمام أولى بذلك. ثم قال عليه السلام: يا إسحاق تموت الى سنتين ويشتت أهلك وولدك وعيالك وأهل بيتك ويفلسون إفلاساً شديداً»^(٣).

٦ - عن محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام قال: «ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولا إلا بنبوة محمد ﷺ ووصية علي عليه السلام»^(٤).

٧ - عن علي بن سويد السابي قال: كتب إلي أبو الحسن الأول عليه السلام في كتاب: «إن أول ما أنعى إليك نفسي في ليالي هذه غير جازع ولا نادم ولا شك فيما هو كائن مما قضى الله وحتم فاستمسك بعروة الدين آل محمد - صلوات الله عليه وعليهم - والعروة الوثقى الوصي بعد الوصي والمسألة والرضا بما قالوا»^(٥).

٨ - عن عمر بن يزيد، عن أبي الحسن الأول عليه السلام، قال: سمعته يقول: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية، إمام حي يعرفه. فقلت: لم أسمع أباك يذكر هذا - يعني إماماً حياً - فقال: قد والله قال ذاك رسول الله ﷺ قال: وقال رسول الله ﷺ: من مات وليس له إمام يسمع له ويطيع مات ميتة جاهلية»^(٦).

(١) أصول الكافي ١ : ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق : ٢٦٥.

(٤) المصدر السابق ١ : ٤٣٧.

(٥) قرب الإسناد : ١٤٢.

(٦) الاختصاص : ٢٦٨.

٩ - عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام يكون الإمام في حال يسئل عن الحلال والحرام والذي يحتاج الناس إليه فلا يكون عنده شيء، قال: «لا ولكن قد يكون عنده ولا يجيب»^(١).

الوصي بعد الإمام الكاظم عليه السلام:

١ - عن نعيم القابوسي عن أبي الحسن، أنه قال: «إنّ ابني علياً أكبر ولدي وأبرهم عندي وأحبهم إليّ وهو ينظر معي في الجفر ولم ينظر فيه إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ»^(٢).

٢ - عن داود الرقي، قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: جعلت فداك إني قد كبر سنّي فخذ بيدي من النار، قال: فأشار إلى ابنه أبي الحسن عليه السلام فقال: «هذا صاحبكم من بعدي»^(٣).

٣ - عن محمد بن الفضيل قال: حدثني المخزومي وكانت أمّه من ولد جعفر بن أبي طالب عليه السلام قال: «بعث إلينا أبو الحسن موسى عليه السلام فجمعنا، ثم قال لنا: أتدرون لم دعوتكم؟ قلنا: لا، فقال: اشهدوا أنّ ابني هذا وصي والقيّم بأمرى وخليفتي من بعدي، من كان له عندي دين فليأخذه من ابني هذا، ومن كانت له عندي عدة فلينجزها منه ومن لم يكن له بدّ من لقائي فلا يلقيني إلاّ بكتابه»^(٤).

٤ - عن داود بن زربي، قال: جئت إلى أبي إبراهيم عليه السلام بمال، فأخذ بعضه وترك بعضه، فقلت: أصلحك الله لأي شيء تركته عندي؟ قال: «إنّ صاحب هذا الأمر يطلبه منك».

فلما جاءنا نعيه بعث إليّ أبو الحسن عليه السلام ابنه، فسألني ذلك، فدفعته إليه^(٥).

(١) البصائر: ٤٤.

(٢) أصول الكافي ١: ٣١٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

٥ - عن سليمان بن حفص المروزي قال: دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن الحجة على الناس بعده، فلمّا نظر إليّ ابتدأني وقال: «يا سليمان إنّ عليّاً ابني ووصيي والحجة على الناس بعدي، وهذا أفضل ولدي فإن بقيت بعدي فاشهد له بذلك عند شيعتي وأهل ولايتي المستخبرين عن خليفتي من بعدي»^(١).

من مواعظ وحكم الإمام الكاظم عليه السلام:

روي عن الكاظم عليه السلام أنه قال: «صلاة النوافل قربانٌ إلى الله لكلّ مؤمن. والحجّ جهاد كلّ ضعيف.

ولكلّ شيء زكاة، وزكاة الجسد صيام النوافل.

وأفضل العبادة بعد المعرفة انتظار الفرج.

ومن دعا قبل الثناء على الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله كان كمن رمى بسهم بلا وتر.

ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية، وما عال امرئ اقتصد.

والتدبير نصف العيش.

والتودّد إلى الناس نصف العقل.

وكثرة الهم يورث الهرم، والعجلة هي الخرق.

وقلة العيال أحد اليسارين.

ومن أحزن والديه فقد عقّها.

وأداء الأمانة والصدق يجلبان الرزق، والخيانة والكذب يجلبان الفقر والنفاق.

وإذا أراد الله بالذرة^(٢) شراً أثبت لها جناحين فطارت فأكلها الطير.

والصنعة لا تتم صنعة عند المؤمن لصاحبها إلا بثلاثة أشياء: تصغيرها وسترها

وتعجيلها، فمن صغّر الصنعة عند المؤمن فقد عظم أخاه، ومن عظم الصنعة عنده فقد

صغّر أخاه، ومن كتم ما أولاه من صنعة فقد كرم فعاله.

(١) عيون الأخبار ١ : ٢٦.

(٢) في بعض النسخ (النملة).

ومن عَجَل ما وعد فقد هنئ العطية^(١).

وقال عليه السلام: «قل الحق وان كان فيه هلاكك، فإن فيه نجاتك، ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك، فإن فيه هلاكك»^(٢).

قال عليه السلام: «ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه^(٣) في رزقه ولا يتهمه في قضائه».

وقال رجل: سألته عن اليقين فقال عليه السلام: «يتوكل على الله، ويسلم الله، ويرضى بقضاء الله، ويفوض الى الله».

وقال عبد الله بن يحيى^(٤): كتبت إليه في دعاء «الحمد لله منتهى علمه» فكتب عليه السلام: «لا تقولن منتهى علمه، فإنه ليس لعلمه منتهى. ولكن قل: منتهى رضاه»^(٥).

وسأله رجل عن الجواد فقال عليه السلام: «إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن منعك منعك ما ليس لك».

وقال عليه السلام: عند قبر حضره: «إن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله. وإن شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره».

وقال عليه السلام: «ليس حسن الجوار كف الأذى ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى».

وقال عليه السلام: «إذا كان الجور أغلب من الحق لم يحل لأحد أن يظن بأحد خيراً حتى يعرف ذلك منه».

(١) تحف العقول: ٤٠٣.

(٢) الاختصاص: ٣٢.

(٣) أي لا يجده بطيئاً.

(٤) رواه الصدوق رحمته الله في التوحيد، باب العلم، بإسناده عن الكاهلي عن موسى بن جعفر عليه السلام. وعبد الله ابن يحيى الكاهلي الاسدي الكوفي، أخو إسحاق بن يحيى من وجوه أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام وله كتاب.

(٥) تحف العقول: ٤٠٨، بحار الأنوار: ٧٥: ٣١٩.

وقال عليه السلام: «تفقهوا في دين الله فإنَّ الفقه مفتاح البصيرة وتمام العبادة والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا. وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب. ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً».

وقال عليه السلام: «كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون»^(١).

وقال عليه السلام لفضل بن يونس: «أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكن امّعة»^(٢) قلت: وما الامّعة؟ قال: لا تقل: أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس. أن رسول الله ﷺ، قال: يا أيها الناس إنّهما نجدان نجد خير ونجد شر فلا يكن نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»^(٣).

* * *

(١) تحف العقول: ٤٠٨ - ٤١١.

(٢) الامّعة والامّعة - بالكسر فالتشديد - قيل: أصله (أني معك).

(٣) النجد: الطريق الواضح المرتفع. وقوله عليه السلام: «انما هما نجدان» فالظاهر اشارة الى قوله تعالى في سورة البلد آية ١٠: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

الإمام عليّ بن موسى

الرضا عليه السلام

الفصل الأوّل

يقع البحث في هذا الفصل في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: نشأة الإمام الرضا عليه السلام

انحدر الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام من سلالة طاهرة مطهّرة، ارتقت سلّم المجد والكمال، وكان أبناؤها قمة في جميع مقومات الشخصية الإنسانية؛ في الفكر والعاطفة والسلوك، فهم نجوم متألّقة في المسيرة الإنسانية، والقدوة الشامخة في تاريخ الإسلام، استسلموا لله واقتدوا برسول الله ﷺ وكانوا عدلاً للقرآن الكريم .

أبوه الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام الوارث لجميع الخصال والمآثر الحميدة لأبيه جعفر الصادق عليه السلام كما وصفه ابن حجر الهيتمي قائلاً: «وارثه علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً، سمّي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم»^(١).

وأُمّه أم ولد سمّيت بأسماء عديدة منها: نجمة، وأروى، وسكن، وسمان، وتكتم، وهو آخر أساميها^(٢)، ولما ولدت الرضا عليه السلام سمّاها الإمام الكاظم عليه السلام بالطاهرة^(٣).

(١) الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٦، الاختصاص للمفيد: ١٩٧.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤، ٢٦، الاختصاص: ١٩٧، المناقب ٣: ٤٧٥ - ٤٧٦.

ولد عليه السلام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله سنة (١٤٨ هـ)^(١)، وقيل سنة (١٥١ هـ) وقيل: (١٥٣ هـ)^(٢)، والقول الأول هو الأشهر^(٣).

وحينما ولد هنأ أبوه أمّه قائلاً لها: «هنئاً لك يا نجمة كرامة ربك»، فناولته إياه في خرقة بيضاء، فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ودعا بماء الفرات فحنكه به، ثم رده إليها وقال: «خذي، فإنه بقية الله تعالى في أرضه»^(٤)، وسمّاه باسم جدّه أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد لقّب بألقاب كريمة أشهرها: الرضا، الصابر، الزكي، الوفي، سراج الله، قرة عين المؤمنين، مكيدة الملحدين، الصديق، والفاضل^(٥).

وأشهر كناه: أبو الحسن. وللتمييز بين الإمام الكاظم والرضا عليه السلام يقال للأب: أبو الحسن الماضي، وللأبن: أبو الحسن الثاني^(٦).

ولد عليه السلام بعد ستة عشر عاماً من سقوط الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية، في ظروف اتّسع فيها الولاء لأهل البيت عليهم السلام وتجدرت مفاهيمهم في عقول الأغلبية العظمى من المسلمين، وكان التعاطف معهم قائماً على قدم وساق، وذلك واضح من حوار هارون العباسي مع الإمام الكاظم عليه السلام حيث قال له: أنت الذي تبايعك الناس سرّاً؟، فأجاب عليه السلام: «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم»^(٧).

وكانت الأنظار متوجّهة الى الوليد الجديد الذي سيكون له شأن في المسيرة الإسلامية؛ لترعرعه في أحضان العلم والفضائل والمكارم؛ وكان الإمام عليه السلام يحيطه برعاية فائقة وعناية خاصة.

(١) الكافي ١: ٤٨٦، الإرشاد ٢: ٢٤٧، إعلام الوري ٢: ٤٠.

(٢) شذرات الذهب ٢: ٧٦، وقد ردّد بين القولين، وقد ذكر القول الأخير جماعة منهم الصدوق في العيون ١: ٢٨، وعنه ابن شهر آشوب في المناقب ٣: ٤٧٦ وغيرهم.

(٣) إذ عليه أغلب العلماء والمحققين ورجّحه الشيخ الكليني أعلى الله مقامه في الكافي ١: ٤٨٦.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩ - ٣٠، وعنه في كشف الغمّة ٣: ٩٠.

(٥) انظر المناقب ٣: ٤٧٥، نور الأبصار: ٢٣٢، مطالب السؤل ٢: ١٢٩.

(٦) وهذا واضح لمن تتبع الأخبار والروايات.

(٧) الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٢، الإتحاف بحبّ الأشراف: ٢٩٨ - ٢٩٩.

فغن المفضل بن عمر قال : «دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، وعليّ ابنه في حجره، وهو يقبله ويمصّ لسانه ويضعه على عاتقه ويضمه إليه، ويقول : بأبي أنت وأمي ما أطيب ريحك وأطهر خلقك وأبين فضلك! قلت : جعلت فداك لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلا لك، فقال عليه السلام : يا مفضل هو منّي بمنزلة من أبي عليه السلام ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، قال : قلت : هو صاحب هذا الأمر من بعدك ؟ قال : نعم»^(١).

وكان الإمام الكاظم عليه السلام يحيط ابنه الرضا عليه السلام بالمحبة والتقدير والتكريم ويخاطبه بلقبه وكنيته، فغن سليمان بن حفص المروزي قال : «كان موسى بن جعفر بن محمد ... يسمّي ولده عليّاً عليه السلام الرضا، وكان يقول : «أدعوا إليّ ولدي الرضا، وقلت لولدي الرضا، وقال لي ولدي الرضا، وإذا خاطبه قال له : يا أبا الحسن»^(٢).

وكان يلهج بذكره ويثني عليه ويذكر فضله ليوجّه الأنظار إلى موقعه الرائد في المستقبل القريب، وكان يتدبّر بالثناء على ابنه عليّ ويطريه، ويذكر من فضله وبرّه ما لا يذكر من غيره، كأنه يريد أن يدلّ عليه^(٣).

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الرضا عليه السلام

إنّ مكارم أخلاق الإمام الرضا عليه السلام نفحة من مكارم أخلاق جده الرسول الأعظم ﷺ الذي امتاز على سائر النبيين بهذه الكمالات، فقد استطاع ﷺ بسمو أخلاقه أن يطور حياة الإنسان، وينقذه من أوهام الجاهلية الرعناء، وقد حمل الإمام الرضا عليه السلام أخلاق جدّه، وهذا إبراهيم بن العباس يقول عن مكارم أخلاقه: «ما رأيت ولا سمعت بأحد أفضل من أبي الحسن الرضا عليه السلام، وشاهدت منه ما لم أشاهده من أحد، وما رأيت جفاً أحداً بكلامه قط، ولا رأيت قط على أحد كلامه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٤٠، وعنه في بحار الأنوار ٤٩ : ٢٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٣، وعنه في كشف الغمّة ٣ : ٨٩، وعنه أيضاً في بحار الأنوار ٤٩ : ٤.

(٣) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٨، وعنه في بحار الأنوار ٤٩ : ١٨.

حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قط، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا رأيته يشتم أحداً من مواليه ومماليكه، وما رأيته تغل قط، ولا رأيته يقهقه في ضحكته، بل كان ضحكته التبسّم، وكان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس، وكان قليل النوم بالليل كثير السهر، يحيي أكثر ليليه من أولها الى الصبح، وكان كثير الصوم، ولا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول: «ذلك صوم الدهر» وكان كثير المعروف والصدقة في السرّ، وأكثر ذلك يكون في الليالي المظلمة، فمن زعم أنّه رأى مثله في فضله فلا تصدّقه»^(١).

ومن معالي أخلاقه أنّه مع تقلّده ولاية العهد التي هي أرقى منصب في الدولة الإسلامية لم يأمر أحداً من مواليه وخدمه في الكثير من شؤونه وإنّما كان يقوم بذاته بخدمة نفسه.

وقال له رجل: والله ما على وجه الأرض أشرف منك أباً.

فقال عليه السلام: «التقوى شرفتهم، وطاعة الله أحظتهم».

وقال له شخص آخر: أنت والله خير الناس...

فردّ عليه قائلاً: «لا تحلف يا هذا! خير مني من كان اتقى الله تعالى، وأطوع له، والله ما نسخت هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢)»^(٣).

زهده :

ومن صفات الإمام الرضا عليه السلام الزهد في الدنيا، والإعراض عن مباحجها وزينتها، وقد تحدث عن زهده محمد بن عباد حيث قال: كان جلوس الرضا في الصيف

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٩٧-١٩٨، إعلام الوري ٢: ٦٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٦٩ - ٤٧٠، واللفظ للثاني.

(٢) سورة الحجرات ٤٩: ١٣.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦١ وعنه في بحار الأنوار ٩٣: ٢٢٤.

على حصير، وفي الشتاء على مسح^(١)، ولبسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزيّن لهم^(٢).

والتقى به سفيان الثوري - وكان الإمام قد لبس ثوباً من خز - فأنكر عليه ذلك وقال له : لو لبست ثوباً أدنى من هذا. فأخذ الإمام عليه السلام يده برفق، وأدخلها في كُمّه فإذا تحت ذلك الثوب مسح، ثم قال له : «يا سفيان! الخز للخلق، والمسح للحق»^(٣).

وحيثما تقلّد ولاية العهد لم يحفل بأي مظهر من مظاهر السلطة، ولم يقيم لها أي وزن، ولم يرغب في أي موكب رسمي، حتى لقد كره مظاهر العظمة التي كان يقيمها الناس لملوكهم .

سخاؤه :

ولم يكن شيء في الدنيا أحبّ إلى الإمام الرضا عليه السلام من الإحسان إلى الناس والبر بالفقراء. وقد ذكرت بوادر كثيرة من جوده وإحسانه، وكان منها ما يلي :

١ - أنفق جميع ما عنده على الفقراء، حينما كان في خراسان، وذلك في يوم عرفة فأنكر عليه الفضل بن سهل، وقال له : إنّ هذا لمغرم ...

فأجابه الإمام عليه السلام : «بل هو المغنم لا تعدّن مغرمًا ما ابتغيت به أجراً وكرماً»^(٤).

إنّه ليس من المغرم في شيء صلة الفقراء والإحسان إلى الضعفاء ابتغاء مرضاة الله تعالى، وإنّما المغرم هو الإنفاق بغير وجه مشروع كإنفاق الملوك والوزراء الأموال الطائلة على المغنين والعابثين .

٢ - وفد عليه رجل فسلم عليه، وقال له : «رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك عليه السلام، مصدري من الحجّ، وقد افتقدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي، والله عليّ نعمة فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي

(١) المسح : الكساء من الشعر .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٩٢، إعلام الوری ٢ : ٦٤، المناقب ٣ : ٤٧٠ واللفظ للأوّل.

(٣) المناقب ٣ : ٤٧٠.

(٤) المناقب ٣ : ٤٧٠ وعنه في بحار الأنوار ٤٩ : ١٠٠.

تولينني عنك فلستُ موضع صدقة، فقال له: اجلس رحمك الله. وأقبل على الناس يحدّثهم حتى تفرّقوا، وبقي هو وسليمان الجعفري، وخيثة وأنا، فاستأذن الإمام منهم ودخل الدار وبقي ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج من أعلى الباب صرّة، وقال: «أين الخراساني؟ فقال: ها أنا ذا، فقال عليه السلام: خُذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤوّناتك ونفقتك، ولا تصدّق بها عني». وانصرف الرجل مسروراً قد غمرته نعمة الإمام. والتفت إليه سليمان فقال له: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه؟»

فأجابه الإمام عليه السلام: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته، أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: المسترّ بالحسنة يعدل سبعين حجّة، والمذيع بالسيئة مخذول... أما سمعت قول الأوّل:

متى آتته يوماً لأطلب حاجة رجعت الى أهلي ووجهي ببائه»^(١)

٣- وكان إذا أكل أتى بصحفة فتوضع بقرب مائدته فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به، فيأخذ من كل شيء شيئاً فيضع في تلك الصحفة ثم يأمر بها الى المساكين، ويتلو قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾^(٢) ثم يقول: «علم الله عزّ وجلّ أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل الى الجنّة»^(٣).

٤- وروي: أن فقيراً قال له: «أعطني على قدر مروّتك».

فأجابه الإمام عليه السلام: «لا يسعني ذلك».

والتفت الفقير الى خطأ كلامه فقال ثانياً: «على قدر مروّتي».

وهنا قابله الإمام عليه السلام ببسمات فيّاضة بالبشر قائلاً له: «إذن فنعم».

ثم قال: «يا غلام! أعطه مائتي دينار»^(٤).

(١) الكافي ٤: ٢٣ و ٢٤ و مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠، وعن الكافي في بحار الأنوار ٩: ٤٩، ١٠١، ح ١٩. واللفظ للأوّل.

(٢) سورة البلد ٩٠: ١١.

(٣) المحاسن للبرقي ٢: ٣٩٢، ح ٣٩، والكافي ٤: ٥٢ واللفظ للثاني.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠ وعنه في بحار الأنوار ٩: ٤٩، ١٠٠، وفي كشف الغمّة للإربلي ٣: ١٦١، ونسبها للإمام الجواد عليه السلام.

علمه :

والشيء البارز في شخصية الإمام الرضا عليه السلام هو إحاطته التامة بجميع أنواع العلوم والمعارف، فقد كان بإجماع المؤرخين والرواة أعلم أهل زمانه، وأفضلهم وأدراهم بأحكام الدين، وعلوم الفلسفة والطب وغيرها من سائر العلوم، وقد تحدث عبد السلام الهروي عن سعة علومه، وكان مرافقاً له، يقول:

«ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد، علماء الأديان، وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له بالفضل، وأقر له على نفسه بالقصور، ولقد سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: كنت أجلس في الروضة والعلماء بالمدينة متوافرون فإذا أعيى الواحد منهم عن مسألة أشاروا إليّ بأجمعهم، وبعثوا إليّ بالمسائل فأجيب عنها»^(١).

لقد كان الإمام أعلم أهل زمانه، كما كان المرجع الأعلى في العالم الإسلامي الذي يرجع إليه العلماء والفقهاء فيما خفي عليهم من أحكام الشريعة، والفروع الفقهية.

قال إبراهيم بن العباس: «ما رأيت الرضا يسأل عن شيء قط إلا علم، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول، إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه...»^(٢).

وقال المأمون: «ما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل - يعني الإمام الرضا - على وجه الأرض...»^(٣).

(١) إعلام الوری ٢: ٦٤ وعنه في كشف الغمّة ٣: ١١٠ - ١١١ وعنه أيضاً في بحار الأنوار ٤٩: ١٠٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٩٣، إعلام الوری ٢: ٦٣، وعنه في كشف الغمّة ٣: ١١٠، الفصول المهمة ٢: ٩٩٨، واللفظ للأول.

(٣) الإرشاد ٢: ٢٦١، إعلام الهدى ٢: ٧٣، مقاتل الطالبين: ٣٧٥، الفصول المهمة ٢: ١٠٠٥.

الإمام الرضا عليه السلام والملاحم :

وأخبر الإمام الرضا عليه السلام عن كثير من الملاحم والأحداث قبل وقوعها، وتحققت بعد ذلك على الوجه الأكمل الذي أخبر به، وهي تؤكد - بصورة واضحة - أصالة ما تذهب إليه الشيعة من أن الله تعالى قد منح أئمة أهل البيت عليه السلام المزيد من الفضل والعلم، كما منح رسله، ومن بين ما أخبر به ما يلي:

١ - روى الحسين بن بشار فقال : « قال الرضا عليه السلام : إنَّ عبدالله - يعني المأمون - يقتل محمداً - يعني الأمين - فقلت له : عبدالله بن هارون يقتل محمداً بن هارون، قال لي: نعم، عبدالله الذي بخراسان يقتل محمداً بن زبيدة الذي هو ببغداد فقتله»^(١).

٢ - ومن بين الأحداث التي أخبر عنها : أنه لما خرج محمداً بن الإمام الصادق بمكة، ودعا الناس الى نفسه، وخلع بيعة المأمون، قصده الإمام الرضا، وقال له : يا عم لا تكذب أباك، ولا أخاك - يعني الإمام الكاظم عليه السلام - فإنَّ هذا الأمر لا يتم، ثم خرج، ولم يلبث محمداً إلا قليلاً حتى لاحقته جيوش المأمون بقيادة الجلودي، فانهزم محمداً ومن معه، وطلب الأمان، فأمنه الجلودي، وصعد المنبر وخلع نفسه، وقال : إنَّ هذا الأمر للمأمون وليس لي فيه حق»^(٢).

٣ - روى محول السجستاني فقال : «لما ورد البريد بإشخاص الرضا عليه السلام الى خراسان كنت أنا بالمدينة فدخل المسجد ليدع رسول الله ﷺ، فودعه مراراً كل ذلك يرجع الى القبر، ويعلو صوته بالبكاء والنحيب، فتقدمت إليه، وسلمت عليه، فرد السلام، وهنأته، فقال : ذرني فإنني أخرج من جوار جدِّي، وأموت في غربة، وأدفن في جنب هارون، قال : فخرجت متبعاً طريقه، حتى مات بطوس ودفن إلى جنب هارون»^(٣).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٦، إعلام الوري ٢: ٥٦، دلائل الإمامة: ٣٦٧، المناقب ٣: ٤٤٧، واللفظ للأول.

(٢) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٤ وعنه في كشف الغمّة ٣: ٩٣ - ٩٤، وعنه في بحار الأنوار ٤٧ - ٢٤٦ - ٢٤٧ باب ٣٠، ح ٥.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣٤، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ١١٧.

عبادته وتقواه :

ومن أبرز ذاتيات الإمام الرضا عليه السلام انقطاعه الى الله تعالى، وتمسكه به، وقد ظهر ذلك في عبادته، التي مثلت جانبا كبيرا من حياته الروحية التي هي نور وتقوى وورع، يقول إبراهيم بن عباس في حديث: «... كان عليه السلام قليل النوم بالليل، كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أولها الى الصبح وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر...»^(١).

ويقول الشبراوي عن عبادته إنه: «كان صاحب وضوء وصلاة، ليله كله يتوضأ ويصلي، ويرقد ثم يقوم فيتوضأ، ويصلي ويرقد هكذا الى الصباح»^(٢).
لقد كان الإمام عليه السلام أتقى أهل زمانه، وأكثرهم طاعة لله تعالى. لنقرأ بعض ما يرويه رجاء بن أبي الضحاك عن عبادة الإمام، إذ كان المأمون قد بعثه الى الإمام ليأتي به الى خراسان، فكان معه في المدينة المنورة الى مرو يقول :
«والله ما رأيت رجلاً كان أتقى لله منه، ولا أكثر ذكراً له في جميع أوقاته، ولا أشدّ خوفاً لله عزّ وجلّ منه، وكان إذا أصبح صلى الغداة فإذا سلّم جلس في مصلاه يسبح الله، ويحمده ويكبره، ويهلله، ويصلي على النبي ﷺ حتى تطلع الشمس، ثم يسجد سجدة يبقى فيها حتى يتعالى النهار، ثم أقبل على الناس يحدثهم، ويعظهم الى قرب الزوال»^(٣).

تسلّحه بالدعاء :

ومن مظاهر حياة الإمام الروحية تسلّحه بالدعاء الى الله والتجاؤه إليه في جميع أموره، وكان يجد فيه متعة روحية لا تعادلها أية متعة من متع الحياة.
وأثرت عن الإمام الرضا عليه السلام كوكبة من الأدعية الشريفة كان من بينها ما يلي :

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٩٨، إعلام الوری ٢: ٦٣، وقريب منه في المناقب ٣: ٤٧٠.

(٢) الإتحاف بحب الأشراف : ٣١٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤ - ١٩٥، بحار الأنوار ٤٩: ٩٢ - ٩٣.

١ - قال عليه السلام: «يا من دلّني على نفسه، ودلّ قلبي بتصديقه، أسألك الأمن والإيمان في الدنيا والآخرة»^(١).

وحفل هذا الدعاء على إيجازه، بظاهرة من ظواهر التوحيد وهي أنّ الله تعالى دلّ على ذاته، وعرف نفسه لخلقه، وذلك بما أودعه، وأبدعه في هذا الكون من العجائب والغرائب، وكلّها تنادي بوجوده.

٢ - وقال عليه السلام: «اللهم أعطني الهدى وثبّني عليه، واحشني عليه آمناً، آمن من لا خوف عليه، ولا حزن ولا جزع إنك أهل التقوى، وأهل المغفرة»^(٢).
لقد دعا الإمام عليه السلام بطلب الهداية، والانقياد الكامل الى الله الذي هو من أعلى درجات المقربين والمنيبين إلى الله تعالى.

النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصيّة الإمام الرضا عليه السلام

إنّ شخصيّة الإمام أبي محمّد الرضا عليه السلام قد احتلت عواطف العلماء والمؤلفين في كلّ جيل وعصر، وتمثّل ذلك في جمل الثناء والتعظيم على شخصيّته، وإليك بعض ما ورد من الثناء عليه:

الإمام الكاظم عليه السلام:

لقد أشاد الإمام الكاظم عليه السلام بولده الإمام الرضا، وقدمه على السادة الأجلّة من أبنائه، وأوصاهم بخدمته، والرجوع إليه في أمور دينهم، فقال لهم: «هذا أخوكم عليّ بن موسى عالم آل محمد عليه السلام، فاسألوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإنّي سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام غير مرّة يقول لي: إنّ عالم آل محمد عليه السلام لفي صلبك، وليني أدركته فإنّه سميّ أمير المؤمنين...»^(٣).

(١) الكافي ٢: ٥٧٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٣، إعلام الوري ٢: ١٨٨، واللفظ للثاني.

(٣) إعلام الوري بأعلام الهدى ٢: ٦٤ - ٦٥، الصراط المستقيم ٢: ١٦٤، وعن إعلام الوري في كشف الغمّة ٣: ١١١، واللفظ للأوّل.

المأمون :

وأعلن المأمون العباسي فضل الإمام الرضا عليه السلام في كثير من المناسبات:

١ - قال المأمون للفضل بن سهل وأخيه : «ما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل

- يعني الإمام علي بن موسى - على وجه الأرض»^(١).

٢ - أشاد المأمون بالإمام الرضا عليه السلام أيضاً في رسالته التي بعثها للعباسيين الذين

نقموا عليه بولاية العهد للإمام عليه السلام قائلاً :

«ما بايع له المأمون - أي للإمام الرضا - إلا مستبصراً في أمره عالماً بأنه لم يبق

أحد على ظهرها - أي على ظهر الأرض - أبين فضلاً، ولا أظهر عفة، ولا أروع

ورعاً، ولا أزهد زهداً في الدنيا، ولا أطلق نفساً، ولا أرضى في الخاصة والعامة، ولا

أشد في ذات الله منه، وأن البيعة له لموافقة رضى الرب»^(٢).

قال أبو الصلت عبدالسلام الهروي ، وهو من أعلام عصره: «ما رأيت أعلم من

علي بن موسى الرضا، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون

في مجالس له ذوات عدد، علماء الأديان، وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن

آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له بالفضل وأقر على نفسه بالقصور...»^(٣).

وقال زعيم الشيعة الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب

بالشيخ المفيد :

«وكان الإمام بعد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ابنه أبا الحسن علي بن موسى

الرضا عليه السلام لفضله على جماعة إخوته، وأهل بيته، وظهور علمه وحلمه وورعه

واجتهاده، واجتماع الخاصة والعامة على ذلك فيه، ومعرفتهم به منه»^(٤).

(١) الإرشاد ٢: ٢٦١ ، إعلام الورى بأعلام الهدى ٢: ٧٣ ، مقاتل الطالبين: ٣٧٥ ، الفصول المهمة ٢: ١٠٠٥.

(٢) الطرائف: ٢٧٩.

(٣) إعلام الورى ٢: ٦٤ وعنه في كشف الغمة ٣: ١١٠ - ١١١ ، واللفظ للأول.

(٤) الإرشاد ٢: ٢٤٧ ، وعنه في كشف الغمة ٣: ٦٣.

وقال جمال الدين أحمد بن عليّ النسابة، المعروف بابن عنبه، عند ذكره عقب الإمام الرضا: «ويكنى أبا الحسن ولم يكن في الطالبين في عصره مثله، بايع له المأمون بولاية العهد، وضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وخطب له على المنابر»^(١).

وقال جمال الدين، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: «الإمام أبو الحسن الهاشمي العلوي، الحسيني، كان إماماً عالماً... وكان عليّ هذا سيّد بني هاشم في زمانه، وأجلّهم، وكان المأمون يعظّمه ويبجلّه ويخضع له، ويتغالى فيه، حتى جعله وليّ عهده..»^(٢).

وقال صفى الدين الخزرجي: «كان - أي الإمام الرضا - سيّد بني هاشم، وكان المأمون يعظّمه، ويبجلّه، وعهد له بالخلافة، وأخذ له العهد..»^(٣).

قال الشبراوي: «كان رضي الله عنه كريماً جليلاً، مهاباً موقّراً وكان أبوه موسى الكاظم عليه السلام يحبه حباً شديداً»^(٤).

مدحه أبو نؤاس - الشاعر المشهور - الذي كان قد ترك مدحه إعظاماً له، وقد أجاد فيما قال، حين عوتب على عدم مدحه الإمام الرضا عليه السلام بعد توليته لولاية العهد فقال مجيباً:

قيل لي أنت أوحّد الناس طرّاً	في فنون من الكلام النبيه
لك من جوهر الكلام بديع	يثمر الدر في يدي مجتنيه
فعلى ما تركت مدح ابن موسى	والخصال التي تجمّعن فيه
قلت: لا أهتدي لمدح إمام	كان جبريل خادماً لأبيه ^(٥)

(١) عمدة الطالب: ١٩٨.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢: ١٧٤.

(٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ٢٧٨.

(٤) الإتحاف بحب الأشراف: ٣١٢.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٤، كشف الغمّة ١١١: ٣، الأئمة الاثنا عشر، لابن طولون: ٩٨ - ٩٩، واللفظ للثاني.

وخرج الإمام الرضا عليه السلام يوماً على بغلة، فدنا منه أبو نؤاس، وسلّم عليه وقال له :
«يا ابن رسول الله! قد قلت فيك أبياتاً وأحب أن تسمعها مني».

فقال له : «هات». فانبرى أبو نؤاس قائلاً :

مطهّرون نقيّات ثيابهم تجري الصلاة عليهم كلّما ذكروا
من لم يكن علويّاً حين تنسبه فما له فـي قديم الدهر مفتخر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور^(١)
وأعجب الإمام عليه السلام بهذه الأبيات فقال لأبي نؤاس :
«قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد...».

ثم التفت الى غلامه فقال له : هل معك من نفقتنا شيء؟ فقال له : ثلاثمائة دينار،
فقال : أعطها إيّاه. فلما ذهب الى بيته ، قال لغلامه : لعلّه استقلّها، يا غلام سق إليه
البغلة^(٢).

* * *

(١) خلاصة الذهب المسبوك لعبد الرحمن قنينو: ٢٠٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٥، إعلام الوری ٢: ٦٥، كشف الغمّة ٣: ١١١، الإتحاف بحب الأشراف: ٣٢٠ -
٣٢١، الفصول المهمّة ٢: ٩٨١، واللفظ لكشف الغمّة، وانظر الأبيات الشعرية أيضاً مع بعض التفاوت في وفيات
الأعيان ٣: ٢٧١، الوافي بالوفيات ٢٢: ١٥٥ وغيرها.

الفصل الثاني

والكلام في هذا الفصل يقع في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الإمام الرضا في ظلّ أبيه الكاظم عليه السلام

في المرحلة التاريخية التي عاشها الإمام الرضا مع أبيه عليه السلام برزت عدّة ظواهر كانت ذات تأثير على نشاط ومواقف الإمام الرضا عليه السلام أثناء تصديّه للإمامة. ونشير الى أهمها كما يلي:

١ - الإنحراف الفكري والديني :

لقد تعدّدت التيارات المنحرفة في تلك الفترة مثل تيّار المشبّهة والمجسّمة والمجبرة والمفوّضة، وتيّار القياس والاستحسان والرأي، وحابى بعض الفقهاء الحكّام الطغاة فكانت هذه الفترة خطيرة جداً إذ كانت الأجواء مليئة بالاختلافات الفقهية والتوتر السياسي الخانق.

٢ - الفساد الأخلاقي والمالي :

وعاصر الإمام الرضا عليه السلام وهو في ظلّ أبيه حكّاماً يتلاعبون بأموال المسلمين ويرونها ملكاً لهم، لا يردّعونهم أيّ تشريع أو نقد وإنما كان الإنفاق قائماً على أساس هوى الحاكم العباسي ورغباته الشخصية أو رغبات زوجاته وإمائه^(١). وكان الرشيد مولعاً بالشراب مع جعفر البرمكي ومع أخته العباسة بنت المهدي، وكان يحضرها إذا جلس للشرب، ثمّ يقوم من مجلسه ويتركهما يثملان من الشراب^(٢).

(١) وقد امتلأت كتب التاريخ بمجون حكّام بني العباس، وبذخهم بالأموال وإنفاقها على الجوّاري والمغنيات وإحياء الليالي الحمراء، وتفصيل ذلك يحتاج الى عدّة مجلّدات وبإمكان القارئ أن يراجع تراجم خلفاء بني العباس في كتب التاريخ والتراجم ليرى ذلك.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٦: ٤٨٩-٤٩٠، الكامل في التاريخ ٦: ١٧٥، وفيات الأعيان ١: ٣٤٤.

٣ - الفساد السياسي :

وشاهد الإمام كيفية تعامل العباسيين مع الخلافة حيث كانوا يفهمونها على أنها موروثة لهم من قبل رسول الله ﷺ عن طريق عمه العباس، وأتبعوا أسلوب الاستخلاف دون النظر إلى آراء المسلمين ولم يرجعوها إلى أهلها الشرعيين الذين نصبهم الرسول ﷺ بأمر من الله تعالى.

وأخضع العباسيون القضاء لسياستهم فاستخدموا الدين ستاراً يموهون به على الناس إذ أشاعوا أنهم الولاة من قبل الله تعالى فلا يجوز للناس نقدهم أو محاسبتهم.

٤ - تعاطف المسلمين مع أهل البيت عليه السلام :

وعاش الإمام الرضا عليه السلام وشاهد روح المودة والتآلف والمواودة التي يحملها الناس لأهل البيت عليه السلام وهي ثمرة طبيعية لجهوده وجهود آبائه السابقين عليه السلام^(١). واعترف بهذا هارون الرشيد نفسه حيث قال للإمام الكاظم عليه السلام : أنت الذي تبائعك الناس سرّاً^(٢).

كما عاش الإمام الرضا عليه السلام أساليب الرشيد الماكرة واستدعاءاته المتكررة لأبيه الكاظم عليه السلام وسجنه الطويل الذي أدى إلى اغتياله .

الإمام الكاظم والتمهيد لإمامة الرضا عليه السلام :

حدّد رسول الله ﷺ إحدى مسؤوليات الإمام بقوله : « في كلّ خلف من أمّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين... »^(٣).

(١) وهذا واضح لكل من يستنطق التاريخ ويقرأ الحقب الزمانية في تلك الفترة التي بدا فيها واضحاً التفاف الناس حول أهل البيت عليه السلام، خصوصاً عند ملاحظة الضجيج الذي يحصل عند استدعاء إمام أو قتله... ممّا يعني أنّ قلوب الجماهير متعلقة بأهل البيت عليه السلام .

(٢) الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٢، الإتحاف بحبّ الأشراف: ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) انظر الحديث بتفاوت بسير في الألفاظ في كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢١، قرب الإسناد: ٧٧، الصواعق المحرقة ٢: ٤٤١، جواهر العقدين، القسم الثاني ١: ٩١، ورواه الكليني عن الصادق عليه السلام كما في الكافي ١: ٣٢، واللفظ المنقول من الصواعق.

والإمام الرضا عليه السلام باعتباره أحد أئمة أهل البيت المعصومين عليه السلام مكلف بهذه المسؤولية، وتتأكد هذه المسؤولية حينما يتصدى بالفعل لإمامة المسلمين، أما في ظل إمامة والده الإمام الكاظم عليه السلام فإن مسؤوليته تكون تبعاً لمسؤولية الإمام المتصدى، والمتصدى هو الأولي بتحمل الأعباء والتكاليف، ويبقى غيره صامتاً إلا في حدود خاصة، وفي هذا الصدد أجاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن سؤال حول تعدد الأئمة في وقت واحد، فقال: «لا، إلاّ وأحدهما صامت»^(١).

ففي عهد الإمام الكاظم عليه السلام كان الإمام الرضا عليه السلام صامتاً بمعنى عدم تصديّه للإمامة، وعدم اتخاذ المواقف بشكل مستقل وأتباع مواقف الإمام المتصدى بالفعل لمنصب الإمامة، والصمت لا يعني التوقف عن العمل الإصلاحية والتغييرية داخل الأمة، فقد كان عليه السلام يعمل ويتحرك داخل الأمة تبعاً لمسؤوليته المحددة له، فكان عليه السلام ينشر المفاهيم والقيم الإسلامية، ويردّ على الأسئلة العقائدية والفقهية وكان يفتي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن نيف وعشرين سنة^(٢). وكان الإمام الكاظم عليه السلام يوجّه الأنظار إليه ويُرجع أصحابه إليه، ومما قاله بحقه:

«هذا ابني فلان كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله»^(٣).

وكان يقول لبنيه: «هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد فاسألوه عن أديانكم واحفظوا ما يقول لكم»^(٤).

(١) الكافي ١: ١٧٨، كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢٤.

(٢) انظر تهذيب التهذيب ٧: ٣٣٩، ذيل تاريخ بغداد ٤: ١٣٥.

(٣) الكافي ١: ٣١٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٩، الإرشاد ٢: ٢٥٠، الغيبة للطوسي: ٣٧، الفصول المهمة ٢: ٩٦٨.

(٤) إعلام الوري ٢: ٦٤ - ٦٥، وعنه في كشف الغمة ٣: ١١١، الصراط المستقيم ٢: ١٦٤، واللفظ للأول.

الوصية بالإمامة:

الإمامة مسؤولية إلهية كبيرة ولذا فهي لا تكون إلا بتعيين ونصب من الله ونصّ من رسول الله ﷺ ولا اختيار للمسلمين فيها؛ لعدم قدرتهم على تشخيص الإمام المعصوم الذي أكد الله عصمته بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وقد أكّدت الروايات النبوية هذه الحقيقة، ومنها ما صرّح به رسول الله ﷺ في بداية الدعوة بقوله: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»^(٢).

ووردت روايات تؤكد أن الأئمة من بني هاشم ومن تلك النصوص قول رسول الله ﷺ: «بعدي اثنا عشر خليفة ... كلهم من بني هاشم»^(٣).

وفي ضوء ذلك فإن الإمامة تعين بالوصية، فكل إمام يوصي إلى الإمام من بعده بعهد معهود من رسول الله ﷺ يتناقله كل إمام عن الإمام قبله.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أترون الأمر إلينا نضعه حيث نشاء؟! كلا والله إنّه لعهد من رسول الله ﷺ إلى رجل فرجل، حتى ينتهي إلى صاحبه»^(٤).

وقد تضافرت النصوص على تعيين الإمام الكاظم عليه السلام لابنه الإمام الرضا عليه السلام إماماً وقائماً بالأمر من بعده.

فعن نعيم بن قابوس قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: «عليّ ابني أكبر ولدي وأسمعهم لقولي وأطوعهم لأمرى، ينظر معي في كتابي الجفر والجامعة، وليس ينظر فيه إلا نبي أو وصيّ نبي»^(٥).

وقد صرّح عليه السلام بإمامته منذ نشأته الأولى، ففي رواية قال المفضل بن عمر للإمام الكاظم عليه السلام: «جعلت فداك لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم

(١) سورة البقرة ٢: ١٢٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٨٩، تاريخ الطبري ٢: ٨٤، الكامل في التاريخ ٢: ٩٣، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ١٥٩.

(٣) ينابيع المودة ٢: ٣١٥، ٣: ٢٩٠ عن مودة القربى.

(٤) كمال الدين وإتمام النعمة: ٢٢٢، وعنه في بحار الأنوار ٣٣: ٧٠.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠ ونحوه في الكافي ١: ٣١١-٣١٢، الإرشاد ٢: ٢٤٩، وعن الكافي في الغيبة للطوسي: ٣٦.

يقع لأحد إلّا لك، فقال لي: يا مفضل هو منّي بمنزلي من أبي عليه السلام ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، قال: قلت: هو صاحب هذا الأمر من بعدك؟ قال: نعم^(١).

المرحلة الثانية: دور الإمام الرضا عليه السلام قبل ولاية العهد

لقد كان الإمام عليه السلام محطّ أنظار الفقهاء ومهوى أفئدة طلاب العلم، ويشهد لذلك قوله عليه السلام: «كنت أجلس في الروضة، والعلماء بالمدينة متوافرون فإذا أعيى الواحد منهم عن مسألة أشاروا عليّ بأجمعهم وبعثوا إليّ بالمسائل فأجبت عنها»^(٢). وكان عليه السلام يأمر أتباعه بمداواة عقول الناس وعدم تحميلها ما لا تطيق من أفكار وعقائد، فقد قال لمحمّد بن عبيد: «قل للعبّاسي: يكفّ عن الكلام في التوحيد وغيره، ويكلم الناس بما يعرفون، ويكفّ عمّا ينكرون»^(٣).

الإصلاح الفكري والديني:

وضّح الإمام عليه السلام حقيقة التآمر الفكري وأثره في بلبلة عقول المسلمين، وأعطى قاعدة كلية في الأساليب والممارسات التي يستخدمها أعداء الإسلام لتشويه الأفكار والمفاهيم الإسلامية فقال عليه السلام: «إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام أحدها: الغلو، وثانيها: التقصير في أمرنا، وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبواهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم؛ ثلبونا بأسمائنا...»^(٤).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ٢٠.

(٢) إعلام الوري ٢: ٦٤ وعنه في كشف الغمّة ٣: ١١١ وفي بحار الأنوار ٤٩: ١٠٠.

(٣) التوحيد ٩٥، وعنه في بحار الأنوار ٢: ٦٩، ٣: ٢٢١.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٢، بشارة المصطفى: ٣٤٠، وعن العيون في بحار الأنوار ٢٦: ٢٣٩.

وقام الإمام عليه السلام بالرد على جميع ألوان الانحراف الفكري من أجل كسر الألفة بين المنحرفين وبينها، وكان يستهدف الأفكار والأقوال تارة، كما يستهدف الواضعين لها والمتأثرين بها تارة أخرى .

ففي رده على المشبهة قال عليه السلام : «إلهي بدت قدرتك ولم تبد واهية فجهلوك، وقدروك والتقدير على غير ما به وصفوك وإني بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ليس كمثلك شيء»^(١) .

وفي رده على المجبرة والمفوضة قال عليه السلام : «من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق والرزق إلى حجبته عليه السلام، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك»^(٢) . وله ردود عديدة على الغلاة والمجسمة وأصحاب التفسير بالرأي والقياس، كما أن له ردوداً على الفرق غير الإسلامية كالزنادقة واليهود والنصارى وغيرهم.

وفند الإمام عليه السلام جميع الروايات التي يعتمد عليها المنحرفون، ووضح بطلان صدورها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأرشد المسلمين الى الروايات الصحيحة، ففي رده على الرواية المفتعلة والمنسوبة الى رسول الله صلى الله عليه وآله والتي جاء فيها: «إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة جمعة الى السماء الدنيا»، قال عليه السلام : «لعن الله المحرفين الكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله كذا، إنما قال: إن الله تعالى ينزل ملكاً الى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الاخير، وليلة الجمعة في أول الليل فيأمره فينادي هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له ... حدثني بذلك أبي عن جدي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٣) .

كما دعا الإمام الرضا عليه السلام الى مقاطعة المنحرفين كالمجبرة والمفوضة والغلاة مقاطعة كلية لمنع تأثيرهم في الأمة، وأسند هذه الأوامر الى أجداده عليهم السلام تارة وإليه ابتداءً تارة أخرى .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٠٧، التوحيد: ١٢٤ - ١٢٥، وفيه (ولم تبد هيئة فجهلوك)، وكذا في الأمالي: ٧٠٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١١٤، الاحتجاج ٢ : ١٩٨، الفصول المهمة ١ : ٢٣٩.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١١٦، التوحيد: ١٧٦، الاحتجاج ٢ : ١٩٢ - ١٩٣.

قال عليه السلام: «حدثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام، أنه قال: من زعم أن الله تعالى يجبر عباده على المعاصي أو يكلفهم ما لا يطيقون، فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلّوا وراءه، ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»^(١).

وقال عليه السلام عن مقاطعة الغلاة والمفوضة: «الغلاة كفّار والمفوضة مشركون، من جالسهم أو خالطهم أو واكلهم، أو شاربهم، أو واصلهم، أو زوّجهم، أو تزوّج منهم، أو آمنهم، أو إئتمنهم على أمانة أو صدّق حديثهم، أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية الله عزّ وجلّ وولاية رسول الله ﷺ وولايتنا أهل البيت»^(٢).

الإصلاح الأخلاقي:

كان الإمام عليه السلام يستثمر جميع الفرص المتاحة للإصلاح والتغيير الأخلاقي والاجتماعي وبناء واقع جديد مغاير لما عليه عامة الناس.

وكان عليه السلام يدعو إلى التمسك بمكارم الأخلاق ومحاسنها، ويعمق هذه الدعوة من خلال نشر أحاديث رسول الله ﷺ التي ترسم للمسلمين المنهج السلوكي السليم، ومن تلك الأحاديث التي رواها:

قال رسول الله ﷺ: «المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له»^(٣).

وقال ﷺ: «إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»^(٤).

وقال ﷺ: «عدة المؤمن نذر لا كفّارة لها»^(٥).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١١٣، الاحتجاج ٢: ١٩٧، وقد اختلفت نسخ الاحتجاج في أسناد الرواية، فبعض النسخ وقفت على الإمام جعفر الصادق عليه السلام وبعضها استمرت بالسند إلى الإمام علي عليه السلام، والأمر سهل.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٩، وعنه في بحار الأنوار ٢٥: ٢٧٣، ٣٢٨.

(٣) الكافي ٢: ٤٢٨، وفي الكافي أيضاً ٤: ٢٤ بلفظ (سبعين حجة)، ورواه الصدوق في ثواب الأعمال: ١٧٩، وأسندته إلى الإمام الرضا عليه السلام.

(٤) الكافي ٢: ١٥٩، مشكاة الأنوار: ٢٧٨، وعن الكافي في بحار الأنوار ٧١: ٤٧.

(٥) كشف الغمّة ٣: ٦١ عن الجنازدي عن النبي ﷺ، وعنه في بحار الأنوار ٧٢: ٩٦.

وكان عليه السلام يدعو للإندكاك بقيم الإسلام والسنن الصادرة عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ وعن أولياء الله فيقول: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنة من ربه، وسنة من نبيه، وسنة من وليه، فأما السنة من ربه فكتمان سره ... وأما السنة من نبيه فمداراة الناس ... وأما السنة من وليه فالصبر في البأساء والضراء»^(١).

الإصلاح السياسي

استثمر الإمام عليه السلام أجواء وظروف الانفراج السياسي النسبي لبناء وتوسعة القاعدة الشعبية، وتسليحها بالفكر السياسي السليم المنسجم مع رؤية أهل البيت عليهم السلام، وتعبئة الطاقات لاتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب، ولهذا لم تنفجر أي ثورة علوية في هذين العهدين لعدم إكمال العدة والعدد. وكان الإمام عليه السلام يقدم للأمة المفاهيم والأفكار السياسية بأسلوب حذر لكي لا يعطي للحكام مبرراً لمنعه أو سجنه أو قتله، فقد أكد عليه السلام ضرورة الإمامة في كل زمن ونقل عن آبائه وأجداده الروايات التي تتعلق بهذا المفهوم السياسي الذي هو جزء من عقيدة أهل البيت عليهم السلام، فنقل عبر السلسلة الذهبية عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«يدعى كل أناس بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم»^(٢).

وحدد عليه السلام علامات الإمام لكي تتمكن الأمة من تشخيص الإمام الحق في ظرف كثر فيه التدليس وقلب الحقائق فقال عليه السلام:

«للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، واسخى الناس، واعبد الناس...»^(٣).

(١) الكافي ٢: ٢٤١ - ٢٤٢، أمالي الصدوق: ٤٠٨، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٣٢ - ٢٣٣، تحف العقول: ٤٤٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٦ - ٣٧، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٦٣، وانظر العمدة لابن البطريق: ٣٥٢، واليقين لابن طاووس: ٤٩٣، واللفظ للمناقب.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٩٢، الخصال: ٥٢٧ - ٥٢٨، وعن العيون في كشف الغمة ٣: ٨٢.

ويؤكد الإمام الرضا عليه السلام وحدة الإمامة فلا بد من نصب إمام واحد غير متعدد^(١) ، ويذكر علة ذلك وهي توحيد جميع الأعمال والمواقف والحيلولة دون حدوث الاضطراب في الدولة والأمة. وهذا يعني أنّ تعدد الأئمة مخالف لأسس العقيدة الإسلامية في السياسة والحكم، وفي هذه الحالة لا بد أن يكون أحد الأئمة إمام حقّ والبقية أئمة ضلالة لا تجب طاعتهم وإن كانوا في قمة السلطة الزمنية .

وقام الإمام عليه السلام بنشر الأحاديث المتعلقة بفضائل أهل البيت عليه السلام ودورهم في الحياة الإسلامية، فقد روى عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنّه قال : «مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها زج في النار»^(٢) . وقال ﷺ : «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي»^(٣) . كما أكّد أهميّة ولاية أهل البيت عليه السلام والبراءة من أعدائهم بقوله عليه السلام : «كمال الدين ولايتنا والبراءة من عدونا»^(٤) .

وحثّ الأمة على تكريم ذريّة الرسول ﷺ بما حدّث به عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنّه قال :

«أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة : المكرم لذريّتي من بعدي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عند اضطرارهم إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»^(٥) . وفي خضم الأحداث الصاخبة وما طرأ من تشويه وتدليس على الحقائق والمعتقدات، بيّن الإمام عليه السلام للأمة المفهوم الحقيقي للتشيع، وشخص النماذج المجسدة له في الواقع فقال عليه السلام : «شيعةنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويحجّون البيت الحرام، ويصومون شهر رمضان، ويوالون أهل البيت ويتبرّؤون من أعدائهم، أولئك أهل الإيثار والتقوى وأهل الورع والتقوى»^(٦) .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٠٨، علل الشرائع ١ : ٢٥٤، وعنهما في بحار الأنوار ٢٥ : ١٠٥ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٠، وعنه في بحار الأنوار ٢٣ : ١٢٢ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٠، وعنه في بحار الأنوار ٢٧ : ٣٠٩ .

(٤) السرائر ٣ : ٦٤٠، ممّا استطرفه من كتاب أنس العالم للصفواني، وعن السرائر في بحار الأنوار ٢٧ : ٥٨ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٣٠، أمالي الطوسي : ٣٦٦، وعن العيون في بحار الأنوار ٩٣ : ٢٢٠ .

(٦) صفات الشيعة للصدوق : ٤، وعنه في بحار الأنوار ٨ : ٥٩ .

واستثمر الإمام عليه السلام ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام فحثّ على إحيائها إحياءً حقيقياً ينسجم مع عمق الأهداف التي ضحّى من أجلها الحسين عليه السلام، ليتعمق الولاء العاطفي والسياسي لنهج الإمام الحسين الثوري، وإحياء الذكرى عامل من عوامل إثارة الحس الثوري المعارض للانحراف.

قال عليه السلام: «إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا وأسبل دموعنا وأذلّ عزيزنا ... فعلى مثل الحسين فليكن الباكون، فإنّ البكاء عليه يحط الذنوب العظام»^(١).
وحدث عليه السلام على تمنّي الكون مع أصحاب الحسين عليه السلام وهو حثّ على تصعيد روح الثورة والتمرد على الواقع الفاسد، قال عليه السلام: «إن سرك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ما ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»^(٢).

المرحلة الثالثة: الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

وبعد سنتين من سيطرة المأمون على زمام الحكم، وبالتحديد في سنة (٢٠٠هـ) كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام يدعوه للقدوم إلى خراسان^(٣)، فاعتل عليه السلام بعلة كثيرة، واستمر المأمون يكاثره ويسأله حتى علم عليه السلام أنّه لا يكف عنه، فاستجاب له، وأمر الموكل بالإمام عليه السلام أن لا يسير به على طريق الكوفة وقم، فسار به على طريق البصرة والأهواز وفارس حتى وصل إلى مرو، وهناك عرض عليه المأمون أن يتقلّد الخلافة والإمرة، فأبى عليه السلام ذلك، وجرت في هذه القضية مخاطبات كثيرة دامت نحواً من شهرين، وكان الإمام عليه السلام يأبى أن يقبل ما يعرض عليه، فلما كثر الكلام والخطاب في هذه القضية، قال المأمون: فولاية العهد، فأجابه الإمام عليه السلام بعد الإلحاح والتلويح بالقتل إلى ذلك، وشرط عليه السلام بعض الشروط وقال عليه السلام:

(١) أمالي الصدوق: ١٩٠ - ١٩١، مناقب آل أبي طالب ٤: ٩٣، وعن الأمالي في إقبال الأعمال ٣: ٢٨.

(٢) أمالي الصدوق: ١٩٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٦٩ باختلاف يسير باللفظ، وعن الأمالي في إقبال الأعمال

٣: ٣٠، وعن الأمالي والعيون في بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٦.

(٣) انظر عيون أخبار الرضا: ١٥٩/٢، تاريخ الطبري: ١٣٢/٧، الكامل في التاريخ: ٣١٩/٦.

«إني ادخل في ولاية العهد على أن لا آمر ولا أنهي ولا أقضي ولا أغير شيئاً مما هو قائم وتعفيني من ذلك كله»^(١). فأجابه المأمون الى ذلك، فتمّت ولاية العهد في شهر رمضان سنة (٢٠١ هـ)^(٢).

دوافع المأمون لفرض ولاية العهد على الإمام عليه السلام:

لم تكن دوافع المأمون من جعل الإمام عليه السلام ولياً لعهد نابعة من ولائه لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ مغريات السلطة والرئاسة متغلبة على جميع الولاءات والميول، ولم يكن المأمون صادقاً في ولائه، وكان ميله للعلويين اصطناعاً^(٣)، ولا يمكن التصديق بعمق الولاء حتى يكون دافعاً للتنازل عن الحكم وتسليمه الى الإمام الرضا عليه السلام أو توليته للعهد من بعده، فهل يُعقل أن يضحي المأمون بالحكم الذي قتل من أجله الآلاف من الجنود والقادة، وقتل أخاه وبعض أهل بيته، ثم يسلمه الى غيره؟! وبالفعل لم يدم الأمر طويلاً، ورحل الإمام عليه السلام الى ربّه والمأمون حي يرزق، فدوافع المأمون نابعة من مصلحة حكمه ومستقبل أهل بيته، وهو حال جميع أو أغلب الحكّام المتعاقبين على دفعة الحكم، وإلاّ فما معنى الإلحاح على الإمام عليه السلام حتى وصل الى درجة التلويح بل التصريح بالقتل - كما سيأتي - ويمكن تحديد دوافع المأمون بالنقاط التالية :

أولاً : تهدئة الأوضاع المضطربة

كانت الأوضاع في عهد المأمون مضطربة للغاية، فبعد قتال دام مع أخيه واستيلائه على الحكم، فوجئ بعدة ثورات وحركات مسلحة، ومنها ثورات العلويين، وكان المعارضون لحكمه منتشرين في جميع الأمصار الإسلامية.

(١) انظر ذلك باختلاف يسير في الكافي: ٤٨٩/١، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ١٦٠ - ١٦١، وانظر الإرشاد: ٢٥٩/٢ - ٢٦٠.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١٦٨/١، ٢٧٤، تاريخ الطبري: ١٣٩/٧، الكامل في التاريخ: ٣٢٦/٦.

(٣) انظر شذرات الذهب: ٧٠ / ٢.

فأراد المأمون من تقريب الإمام عليه السلام وتوليّه العهد أن يستقطب أعوانه وأنصاره، ويوقف زحفهم ونشاطهم العسكري، بل يستميلهم الى جانبه ليتفرغ الى بقية الثائرين والمتمردين الذين لا يعتد بهم قياساً للشوار العلويين.

ثانياً : إضفاء الشرعية على حكمه

إنّ شرعية الحاكم عند المسلمين مستمدة من النصّ عليه من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو رأي أهل البيت عليهم السلام، أو من الشورى وموافقة أهل الحل والعقد كما هو في نظرية أهل السنة، أو العهد من قبل السابق مشروطاً برضى الأمة المتأخّر عن زمن العهد وهو رأي بقية الفقهاء، وهؤلاء الفقهاء وإن أقرّوا حكومة المأمون إلاّ أنّ إقرارهم كان نابعاً من الترغيب والترهيب، أو استسلاماً منهم للأمر الواقع وعدم قدرتهم على إزالته .

من هنا فالمأمون أدرك أنّ حكمه بحاجة الى إضفاء الشرعية عليه، لذا أظهر استعداداً للتنازل عن الحكم ليقوم الإمام الرضا عليه السلام بالتصديّ له، وحينما رفض الإمام عليه السلام إستلام الحكم عرض عليه ولاية العهد فاضطره الى قبولها، والإمام عليه السلام موضع قبول ورضى من قبل جميع المسلمين.

وقبوله للعهد - في رأي المأمون ورأي كثير من المسلمين - يعني اعترافه بشرعية حكم المأمون، والرضا الظاهري بتقبّل ولاية العهد، يعني رضاه عن الحكم الواقع وعدم معارضته له، ورضاه هو رضا الأمة التي تواليه عاطفياً وفكرياً.

ثالثاً : منع الإمام من الدعوة لنفسه

إنّ الإمام عليه السلام مسؤول عن دعوة الأمة للارتباط بالإمام الحقّ وبالمنهج الحقّ، المتجسّد بامامته وبمنهج أهل البيت عليهم السلام، ولذلك فإنّه لا يتوانى عن هذه المسؤولية، ومن هنا كان تفكير المأمون منصباً على منع الإمام من الدعوة لنفسه، أو تحجيم سعة

الدعوة، والمتعارف عليه أنّ ولي العهد يدعو للحاكم الفعلي ثم يدعو لنفسه، وقد عبّر المأمون عن دوافعه بالقول :
قد كان هذا الرجل مستتراً عنّا يدعو الى نفسه دوننا، فأردنا أن نجعله وليّ عهدنا ليكون دعاؤه لنا^(١).

رابعاً : إبعاد الإمام عن قواعده

وجود الإمام عليه السلام في العاصمة الى جنب المأمون يعني إبتعاده عن قواعده الشعبية، وتحجيم الفرص المتاحة للاجتماع بوكلائه ونوابه المنتشرين في شرق الأرض وغربها، وإبعاد الإمام عليه السلام عن قواعده يعني التقليل من التوجيه والإرشاد المباشر لها، ومن خلال ذلك يمكن مراقبة الإمام عليه السلام مراقبة دقيقة ومعرفة تحركاته ولقاءاته اليومية.

خامساً : إيقاف خطر الإمام على الحكم القائم

إنّ التفاف المسلمين حول الإمام عليه السلام وتوسع قاعدته الشعبية كان يشكل خطراً على الحكم القائم وخصوصاً أن الحكم قد خرج من معارك طاحنة بين الأمين والمأمون، وبين المأمون والمعارضين، فقوة الإمام عليه السلام تعني ضعف المأمون، وقد اعترف المأمون بذلك فقال :

وقد خشينا إن تركناه على تلك الحالة أن ينفق علينا منه ما لانسدّه، ويأتي علينا ما لا نطيعه^(٢).

سادساً : تشويه سمعة الإمام عليه السلام

أراد المأمون من خلال تولية الإمام عليه السلام للعهد ان يشوه سمعته بالتدريج عن طريق عيونه ووسائل إعلامه، وقد كشف الإمام عليه السلام هذه الحقيقة للمأمون بقوله:

(١) عيون أخبار الرضا: ١٨١/٢، دلائل الإمامة: ٣٧٩، فرائد السمطين: ٢ / ٢١٤ .

(٢) عيون أخبار الرضا: ١٨١/٢-١٨٢، دلائل الإمامة: ٣٧٩، باختلاف يسير في اللفظ، فرائد السمطين: ٢ / ٢١٤ .

«تريد بذلك أن يقول الناس إن عليّ بن موسى الرضا لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، الا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة»^(١).

وصرّح المأمون للعباسيين ببعض دوافعه بقوله: ولكنّا نحتاج أن نضع منه قليلاً قليلاً حتى نصوّره عند الرعايا بصورة من لا يستحق هذا الأمر^(٢).

أسباب قبول الإمام عليه السلام بولاية العهد

قد صرّح الإمام عليه السلام باضطراره للقبول لمن سأله أو إعترض عليه بسبب قبوله فقال عليه السلام: «قد علم الله كراحتي لذلك، فلما خيرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول على القتل، ويجهّم! اما علموا أنّ يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً، فلما دفعته الضرورة الى تويّ خزائن العزيز، قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، ودفعته الضرورة الى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على المهلاك، على أنّي ما دخلت في هذا الأمر إلاّ دخول خارج منه، فالى الله المشتكى وهو المستعان»^(٤).

وقيل له: يا ابن رسول الله ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟

فقال عليه السلام: «ما حمل جدي أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى»^(٥).

والإمام عليه السلام لم يستسلم للقبول خائفاً من قتل نفسه، وأنما يكون قتله خسارة للحركة الرسالية، وأنّ الأمة في تلك المرحلة بحاجة الى قيادته في جميع مجالات الحياة، فلو قتل فإنّ الاضطراب والخلل سيعم قواعده الشعبية، وكذلك سيكون قتله فاتحة لقتل أهل بيته واعوانه وأنصاره، وقد يؤدّي قتله الى قيام ثورات مسلّحة دون تأنّ وروية، يدفعها طلب الثأر والانتقام الى ثورة عاطفية مفاجئة دون تخطيط مسبق، وبالتالي تنهار القوة العسكرية دون أن تغير من الأحداث شيئاً.

(١) علل الشرايع: ٢٣٨، عيون أخبار الرضا: ١٥٢/٢، أمالي الصدوق: ١٢٦، وعن الجميع في بحار الأنوار: ١٢٩/٤٩.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١٨٢/٢، دلائل الإمامة: ٣٨٠، فرائد السمطين: ٢١٤/٢ - ٢١٥.

(٣) يوسف (١٢): ٥٥.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٥٠ / ٢ - ١٥١، علل الشرائع: ٢٣٩/١، أمالي الصدوق: ١٣٠ - ١٣١، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٥٢ / ٢، مناقب آل أبي طالب: ٤٧٣/٣، وعن العيون في بحار الأنوار: ١٤٠/٤٩.

الفصل الثالث

نشاطات الإمام الرضا عليه السلام بعد البيعة بولاية العهد

لم يحصل المأمون من بيعته للإمام الرضا عليه السلام إلا على بعض الإميازات والمكاسب التي منها إيقاف العمليات العسكرية المسلحة، وقطع علاقة الإمام عليه السلام بأغلب قواعده الشعبية المقيمة في العراق وفي الحجاز واليمن، وأما الإمام عليه السلام ومنهج أهل البيت عليه السلام فقد حصلوا على امتيازات واسعة، واستثمر الإمام عليه السلام الفرصة للقيام بأداء دوره الإصلاحية والتغييرية بشكل كبير، وتحدد معالم هذه المرحلة بالمظاهر والممارسات التالية :

إفشال خطط المأمون

أراد المأمون أن يجعل الإمام عليه السلام وسيلة لإضفاء الشرعية على حكمه، وإيقاف نشاط الحركات الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، وقد طلب من الإمام عليه السلام أن يوكل أحد أتباعه على البلدان التي تمردت على حكمه، لكي يوقف تمردها حينما يكون الوالي من أنصار وأتباع الإمام عليه السلام، أو يشقّ وحدة المعارضة، ويجعل بعضها يواجه البعض الآخر.

ولكن الإمام عليه السلام أفشل خطة المأمون بهدوء طبقاً للشروط التي اشترطها، كما روي عنه عليه السلام أنه قال : «قال لي المأمون : يا أبا الحسن انظر بعض من تشق به توليه هذه البلدان التي قد فسدت علينا، فقلت له : تفني لي وأفي لك، فإني إنما دخلت فيما دخلت على أن لا آمر فيه ولا أنهي ولا أعزل ولا أوّل ولا أشير، حتى يقدمني الله قبلك، فوالله أن الخلافة لشيء ما حدثت به نفسي، ولقد كنت بالمدينة أتردد في طرقها على دابتي،

وأن أهلها وغيرهم يسألوني الحوائج فأقضيها لهم ، فيصيرون كالأعمام لي، وأن كتبي لنافذة في الأمصار، وما زدني في نعمة هي عليّ من ربّي، فقال له: أفي لك»^(١).

ولم يراجعه المأمون في نفس القضية بعد ذلك، وليس أمامه إلا إصلاح الأوضاع العامة لتجنّب الثورات والتمردات المسلّحة .

ولم يتدخل الإمام عليه السلام في تعيين مسؤولي سائر المناصب كالقضاة وأمراء الجيش وأصحاب بيوت الأموال، وتجنب جميع التصريحات والمواقف التي تمنح الشرعية لحكم المأمون، ولم يتدخل إلا في إصلاح المفاهيم والقضايا القضائية، وكل ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين .

إصلاح القضاء

كان المأمون يجلس في ديوان المظالم يوم الاثنين ويوم الخميس، ويجلس الإمام عليه السلام الى جانبه الأيمن، فرفع إليه أن صوفياً من أهل الكوفة سرق، فأمر بإحضاره فرأى عليه سيماء الخير فقال : سواء لهذه الآثار الجميلة ولهذا الفعل القبيح... فقال الرجل : فعلت ذلك اضطراراً لا اختياراً حين منعتني حقّي من الخمس والفىء... وأخذ الصوفي يستدلّ على المأمون بالقرآن الكريم على أنّه يستحق الخمس باعتباره من المساكين وأبناء السبيل مضافاً الى أنّه من حملة القرآن.

فقال المأمون : أعطّل حداً من حدود الله وحكماً من أحكامه في السارق من أجل أساطيرك هذه؟

قال الصوفي: إبدأ بنفسك تطهرها ثم طهر غيرك، وأقم حدود الله عليها ثم على غيرك .

فالتفت المأمون الى الإمام عليه السلام فقال: ما يقول ؟

فقال عليه السلام : «إنّه يقول سرق فسرق» .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٧، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ١٤٤.

فغضب المأمون ثم قال : والله لأقطعنك .

قال الرجل : أتقطعني وأنت عبد لي ؟

فقال المأمون: ويلك ومن أين صرتُ عبداً لك؟

قال: لأنّ أملك اشتريت من مال المسلمين، فأنت عبد لمن في المشرق والمغرب من المسلمين حتى يعتقوك وأنا لم أعتقك ثم بلغت الخمس بعد ذلك فلا أعطيت آل الرسول حقاً ولا أعطيتني ونظرائي حقنا، والأخرى أنّ الخبيث لا يظهر خبيثاً مثله، إنّما يظهره طاهر، ومن في جنبه الحدّ لا يقيم الحدود على غيره حتى يبدأ بنفسه ...

فالتفت المأمون الى الإمام عليه السلام فقال : ماترى في أمره؟

قال عليه السلام: «إنّ الله تعالى قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١) وهي التي تبلغ الجاهل فيعلمها بجهله كما يعلمها العالم بعلمه، والدنيا والآخرة قائمتان بالحجة وقد احتج الرجل بالقرآن» .

فأمر المأمون بإطلاق الرجل الصوفي^(٢) .

وكان الإمام يتدخل في مثل هذه القضية دفاعاً عن المظلومين والمحرومين، وتطبيق أحكام القضاء طبقاً للمنهج الإسلامي السليم، ففي أحد الأيام أدخل الى المأمون رجلٌ أراد ضربَ عنقه والإمام عليه السلام حاضر، فقال له المأمون : ما تقول يا أبا الحسن؟

فقال: «أقول إنّ الله لا يزيدك بحسن العفو إلّا عزاً»، فاتبع المأمون قول الإمام عليه السلام وعفى عنه^(٣) .

وأُتيَ المأمون بنصراني قد فجر بهاشمية، فلما رآه أسلم؛ فغاضه ذلك، وسأل الفقهاء فقالوا: أهدر الإسلام ما قبل ذلك، فسأل المأمون الرضا عليه السلام فقال: «أقتله؛

(١) سورة الأنعام ٦: ١٤٩ .

(٢) انظر علل الشرائع ١: ٢٤٠ - ٢٤١، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٣ - ٢٦٤، وفي مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٧، بنحو من الاختصار، وعن العلل والعيون في بحار الأنوار ٤٩: ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) نثر الدر ١: ٢٥٠، نزهة الناظر للحلواني: ١٢٧، وعن نثر الدر في كشف الغمّة ٣: ١٠٠ .

لأنه أسلم حين رأى البأس؛ قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾^(١) «(٢)».

إصلاح الأعمال الإدارية

لم يتدخل الإمام عليه السلام في الشؤون الإدارية إلا في الحالات التي كان يجد فيها مصلحة إسلامية عامة تخص الإسلام والمسلمين، وتمنع الأعداء من اختراق الجهاز الإداري أو الحكومي، فكان يبدي نصائحه وتوجيهاته القيّمة في هذا المجال .
ومن هذه الشؤون، تعيين الولاة الذين أسلموا حديثاً، ففي ذات مرّة دخل الفضل بن سهل على المأمون وقال له : قد وليت الثغر الفلاني فلاناً التركي، فسكت المأمون، فقال الإمام عليه السلام : «ما جعل الله تعالى لإمام المسلمين وخليفة ربّ العالمين القائم بأمور الدين، أن يولي شيئاً من ثغور المسلمين أحداً من سبي ذلك الثغر، لأنّ الأنفس تحنّ الى أوطانها، وتشفق على أجناسها، وتحب مصالحها، وإن كانت مخالفة لأديانها»، فقال المأمون : اكتبوا هذا الكلام بماء الذهب^(٣) .
فالإمام أعطى قاعدة كليّة في شؤون تعيين الولاة وأمراء الثغور، وليس ذلك اعترافاً بإمامة المأمون، وإنّما هو وضع قاعدة كلية لمطلق إمام المسلمين الذي ينصرف الى الإمام العادل .

نشر الآراء السديدة في داخل البلاط

استثمر الإمام عليه السلام فرصة وجوده في البلاط الحاكم لنشر الآراء السديدة في مختلف جوانب الفكر والعقيدة، ليطلع الحاكم ووزرائه والمقربون إليه من قادة وأمراء وفقهاء وخواصم وبوابين على آراء مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومتبنياتهم الفكرية والعقائدية، وفضائلهم ومكارمهم .

(١) سورة غافر ٤٠ : ٨٤

(٢) نثر الدر ١ : ٢٥٠، وعنه في كشف الغمّة ٣ : ٩٩، وعن كشف الغمّة في بحار الأنوار ٤٩ : ١٧٢.

(٣) الدر النظيم : ٦٨٣، ذيل تاريخ بغداد ٤ : ١٣٦، وعن الدر النظيم في الأنوار البهية : ٢١٩ - ٢٢٠، واللفظ للأخير.

وكان الإمام عليه السلام يتحدث ابتداءً حسب الظروف، ويجيب في ظروف أخرى عن الأسئلة الموجهة إليه .

سأل الفضل بن سهل الإمام عليه السلام في مجلس المأمون فقال : «يا أبا الحسن؛ الخلق مجبورون ؟ فقال عليه السلام: الله أعدل أن يجبر خلقه ثم يعذبهم، قال: فمطلقون ؟ قال عليه السلام : الله أحكم من أن يهمل عبده ويكلّه إلى نفسه»^(١).

وقال له المأمون : يا أبا الحسن؛ أخبرني عن جدك عليّ بن أبي طالب بأي وجه هو قسيم الجنة والنار...؟ فقال : «... ألم ترو عن أبيك عن آبائه عن عبدالله ابن عباس أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حبّ عليّ إيمان وبغضه كفر؟ فقال: بلى، فقال الإمام عليه السلام : فقسمة الجنة والنار إذا كانت على حبه وبغضه، فهو قسيم الجنة والنار.

فقال المأمون : لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنك وارث علم رسول الله ﷺ»^(٢).

الحفاظ على الوجود الإسلامي

من مسؤوليات الأئمة عليهم السلام - بعد إقصائهم عن الخلافة - الحفاظ على الوجود الإسلامي وحمايته من مؤامرات الأعداء والطامعين، فقد كانوا عليهم السلام يبذلون ما بوسعهم من أجل ذلك، ويقومون بحل المسائل المستعصية على الحكّام من أجل إدامة الوجود والكيان الإسلامي، ومنعه من الإنهيار والتفكك.

ومن ذلك كشف مؤامرة الفضل بن سهل، حيث إنّه أراد قتل المأمون، فلم يسمع الإمام كلامه ولعنه، وكان قصد الفضل هو السيطرة على الحكم، واستغلال الإمام عليه السلام لإسكات المسلمين ويبقى الإمام عليه السلام حاكماً محجوراً عليه في البلاط، ويكون الفضل هو الحاكم الفعلي، إضافة إلى ذلك فإنّ مثل هذا العمل يؤدي إلى انقسام خطير في الكيان الإسلامي، وتفتت لوحدة الأمة والدولة، فقام الإمام عليه السلام

(١) نثر الدر ١: ٢٤٩ - ٢٥٠، الطرائف: ٣٣٠، نزهة الناظر: ١٣٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٩٩. وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ١٨٩.

بتحذير المأمون من الفضل وأن يتعامل معه بحیطة وحذر^(١) لأن المقصود هو الكيان الإسلامي وليس شخص المأمون .

وقال له ذات يوم : «إنّ العامة تكره ما فعلت بي، والخاصة تكره ما فعلت بالفضل ابن سهل، فالرأي لك أن تبعدنا عنك حتى يصلح لك أمرك»^(٢).

وأخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل ابن سهل يستر عنه من الأخبار، وأنّ الناس - خصوصاً العباسيين - ينقمون عليك مكان الفضل وأخيه الحسن، ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك^(٣).

وجاءت نصائح الإمام عليه السلام له مطابقة للمصلحة الإسلامية الكبرى؛ لأنّ الكيان الإسلامي معرض للانحلال والافتتال بإثارة الفتنة الداخلية والحروب الدائمة من أجل الحصول على كرسي الحكم .

وحينما قُتل الفضل بن سهل اتهم رجاله المأمون بقتله، فاجتمعوا على بابه فقالوا: اغتاله وقتله، فلنطلب بدمه، فقال المأمون للإمام عليه السلام : يا سيدي ترى أن تخرج إليهم وتفرقهم، فخرج إليهم الإمام وقد اجتمعوا وجاءوا بالنيران ليحرقوا الباب، فصاح الإمام عليه السلام بهم، وأومى إليهم بيده، فتفرقوا، وأقبل الناس يقع بعضهم على بعض، وما أشار إلى أحد إلا هرب مسرعاً، ومرو ولم يقف له أحد^(٤).

وقتل المأمون في تلك الظروف يعني: انقسام الكيان الإسلامي إلى كيانات متعددة، فأنصار الفضل سيكون لهم كيان في خراسان، ويستقل الحسن بن سهل بالبلاد التي بإمرته، وسيبايع العباسيون لإبراهيم بن المهدي المغني الشهير، إضافة إلى خلخلة أوضاع الجيش الذي يقطن في الثغور، ولهذا قام الإمام عليه السلام بمنع إحراق بيت المأمون وقتله .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٧ - ١٧٨، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ١٦٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٧، نثر الدر ١: ٢٥١ وعنه في كشف الغمّة ٣: ١٠٢، ونحوه في تذكرة الخواص ٢: ٤٧٩ - ٤٨٠، واللفظ للأول.

(٣) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٤٧، الكامل في التاريخ ٦: ٣٤٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ٣٤٩.

(٤) انظر الحادثة في الكافي ١: ٤٩١، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٤، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٨.

إظهار الكرامات واستثمارها في الإصلاح

وبعد البيعة ظهرت كرامات الإمام عليه السلام فاستثمرها عليه السلام في إصلاح الناس بإرشادهم وتوجيههم، ففي بداية ولاية العهد احتبس المطر، فجعل بعض حاشية المأمون والمبغضين للإمام عليه السلام يقولون: انظروا لما جاءنا علي بن موسى وصار ولي عهدنا، حبس الله عنا المطر، وسمع المأمون بذلك فاشتد عليه، وطلب من الإمام عليه السلام أن يدعو الله لكي يمطر الناس، فخرج عليه السلام إلى الصحراء وخرج الناس ينظرون، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «اللهم يا رب أنت عظمت حقنا أهل البيت، فتوسلوا بنا كما أمرت واملوا فضلك ورحمتك وتوقعوا إحسانك ونعمتك، فاسقهم سقياً نافعاً عاماً غير رايت، ولا ضائر، وليكن ابتداء مطرهم بعد إنصرافهم من مشاهدهم هذا إلى منازلهم ومقارهم».

ويقول الإمام محمد الجواد عليه السلام الذي نقل الخبر عن أبيه الرضا عليه السلام: «فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد نسجت الرياح في الهواء الغيوم وأرعدت وأبرقت وتحرك الناس كأنهم يريدون التنحي عن المطر».

وأخبرهم الإمام عليه السلام أن هذا السحاب هو للبلد الفلاني، وهكذا إلى أن أقبلت السحابة الحادية عشرة، فقال عليه السلام: «أيها الناس هذه سحابة بعثها الله عز وجل لكم، فاشكروا الله على تفضله عليكم وقوموا إلى مقاركم ومنازلكم فإنها مسامطة لكم ولرؤوسكم ممسكة عنكم إلى أن تدخلوا إلى مقاركم ثم يأتيكم من الخير ما يليق بكرم الله تعالى وجلاله».

فانصرف الناس ونزل المطر بكثافة فجعل الناس يقولون: هنيئاً لولد رسول الله ﷺ، كرامات الله عز وجل.

ثم برز إليهم الإمام عليه السلام بعد تجمعهم ثانية، واستثمر هذه الكرامة للوعظ والإرشاد، لأن الناس يتأثرون بمن له كرامة عند الله ويتقبلون ما يقوله، فقام فيهم خطيباً وقال: «أيها الناس اتقوا الله في نعم الله عليكم، فلا تنفروها عنكم بمعاصيه، بل استديموها بطاعته وشكره على نعمه وأياديه، وأعلموا أنكم لا تشكرون الله تعالى بشيء

بعد الإيمان بالله وبعد الاعتراف بحقوق أولياء الله من آل محمد ﷺ أحب إليه من معاونتكم لإخوانكم المؤمنين على دنياهم التي هي معبر لهم إلى جنان ربهم، فإن من فعل ذلك كان من خاصة الله تبارك وتعالى»^(١) ثم حدثهم عن رسول الله ﷺ بعض الأحاديث التربوية .

النشاطات العلمية للإمام الرضا عليه السلام

إن الإمام عليه السلام وإن كان يعيش تحت رقابة شديدة، إلا أن ذلك لم يكن ليمنعه من ممارسة دوره العلمي في الأوساط التي كان يعيش فيها، وبالنسبة لكل من يلتقي به من الوزراء والفقهاء والقضاة وأمراء الجيش فضلاً عن الخدم وسائر الناس.

لقد كان عليه السلام ينشر علوم أهل البيت عليه السلام على أتم صورة ، وإضافة إلى ذلك كان المأمون وغيره يطلبون منه أن يحدثهم أو يجيب عن أسئلتهم. وكان مما كتبه الإمام الرضا عليه السلام للمأمون رسالة في محض الإسلام وشرائع الدين، وبين آخرين علل الشرائع كالصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأسباب تحريم الموبقات والمنكرات، كما كتب رسالة في الطب وأرسلها إلى المأمون فكتبها المأمون بماء الذهب.

وقام الإمام الرضا عليه السلام بمهمة تفسير القرآن الكريم، وعلم الناس الأدعية الماثورة عنه وعن آبائه وأجداده المعصومين، كما بين للناس التاريخ الصحيح للأنبياء والمرسلين، وللأئمة السابقة، وأرشدتهم إلى الصحيح من سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الإمام علي عليه السلام وسيرة أهل البيت عليه السلام^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٩ - ١٨٠، دلائل الإمامة: ٣٧٦ - ٣٧٨، وعن العيون في بحار الأنوار ٤٩: ١٨٠ - ١٨٢.

(٢) يتضح ذلك عند مراجعة سيرة الإمام الرضا عليه السلام في الأصول المعدة لذلك من قبيل كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام وغيره مما ذكرناه في هوامش كتابنا هذا، كما أنه تقدم في كتابنا هذا ذكر بعض ذلك وسيأتي ذكر بعض آخر إن شاء الله، وللتدليل على بعض ما ذكرناه أعلاه، انظر رسالة الإمام في محض الإسلام في عيون أخبار الرضا ٢: ١٢٩ وما بعدها، تحف العقول: ٤١٦، وانظر ما بينه لمحمد ابن سنان من العلل =

النصّ على إمامة محمّد الجواد عليه السلام

نصّ الإمام الرضا عليه السلام على إمامة ابنه محمّد الجواد قبل أن يولد واستمر بالتنصيص عليه رغم السنوات القليلة التي عاشها الجواد مع أبيه الرضا عليه السلام.

وإليك صورة من تسلسل هذه النصوص وتدرّجها بحسب مراحلها الزمنية.

١ - عن صفوان بن يحيى قال : «قلت للرّضا عليه السلام : قد كنّا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول : يهب الله لي غلاماً، فقد وهبه الله لك، فأقرّ عيوننا؛ فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فالى من ؟ فأشار بيده الى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه.

فقلت: جعلت فداك، هذا ابن ثلاث سنين ؟

فقال : وما يضرّه من ذلك؟ فقد قام عيسى عليه السلام بالحجّة وهو ابن ثلاث سنين»^(١).

وهذه الواقعة يمكن تحديدها بسنة (١٩٨ هـ) أي بعد ولادة الإمام الجواد عليه السلام (١٩٥ هـ) بثلاث سنين .

ولكن هذا النصّ صريح في أنّ الإمام كان يشير الى إمامة ابنه الجواد عليه السلام حتى قبل ولادته.

نعم كان الإمام الرضا عليه السلام يوجه الأنظار الى إمامة ولده الجواد عليه السلام إمّا تلميحاً أو تصريحاً.

٢ - «هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم بركة على شيعتنا منه»^(٢).

وقد نستفيد من هذا النصّ أنّه كان قد صدر عن الإمام الرضا عليه السلام بُعَيْد ولادة الجواد عليه السلام .

= في عيون أخبار الرضا ٢: ٩٥ وما بعدها، وانظر العلل التي بيّنها للفضل بن شاذان في العيون أيضاً ٢: ١٠٦ وما بعدها، وانظر تفسيره لبعض آيات الذكر الحكيم في العيون أيضاً ٢: ١٣٨ وما بعدها، وانظر رسالته في الطب في بحار الأنوار ٥٩: ٣٠٦ وما بعدها.

(١) الكافي ١: ٣٢١، الإرشاد ٢: ٢٧٦، وفيه «وهو ابن أقلّ من ثلاث سنين»، الفصول المهمّة ٢: ١٠٣٥، باختلاف يسير أيضاً، واللفظ للأوّل.

(٢) الكافي ١: ٣٢١، الإرشاد ٢: ٢٧٩، إعلام الوري ٢: ٩٥، واللفظ للأوّل.

٣ - وعن معمر بن خلّاد قال : سمعت الرضا عليه السلام وذكر شيئاً، فقال : « ما حاجتكم الى ذلك، هذا أبو جعفر قد أجلسه مجلسي وصيرته مكاني إنّ أهل بيت يتوارث أصاغرنا عن أكابرنا القذة بالقذة »^(١).

٤ - عن جعفر بن محمد النوفلي قال : « أتيت الرضا عليه السلام وهو بقنطرة أربق فسلمت عليه، ثم جلست، وقلت : جعلت فداك إنّ أناساً يزعمون أنّ أباك حيٌّ، فقال : كذبوا لعنهم الله ... فقلت له : ما تأمرني ؟ قال : عليك بابني محمد من بعدي، وأمّا أنا فإني ذاهب في وجه الأرض لا أرجع منه ... »^(٢).

وجاء في بحار الأنوار نقلاً عن المصدر نفسه : « إني ذاهب في وجه لا أرجع »^(٣). وقد نصّ عليه على إمامة الإمام الجواد عليه السلام بالشكل الذي يثبت إمامته عند المقربين من الإمام عليه السلام وأتباعه المخلصين، والكوادر الرسالية التي أعدّها للمستقبل، ووكلائه الثقات .

وقد أعدّ الإمام عليه السلام طليعة من الكوادر لإسناد منهج أهل البيت عليه السلام وإسناد إمامة الإمام الجواد عليه السلام ومنهم : عمّه عليّ بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وصفوان بن يحيى، وأحمد بن محمد بن أبي نصر .

وانقاد أتباع الإمام الرضا عليه السلام للإمام الجواد عليه السلام وانقادت القاعدة الشعبية لإمامته إلا من شذّ منهم، واستقرت الإمامة على الإمام الجواد عليه السلام طبقاً للنصوص المتظافرة عليه من قبل أبيه وجده وأجداده، ولم تخف إمامته حتى عن الحكومة العباسية وولاتها وقوادها .

الإعداد لدولة المهدي المنتظر عليه السلام

إنّ إمامة الإمام المهدي عليه السلام من الحقائق الثابتة عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وهو المصلح الأكبر والمنقذ الأعظم للبشرية من شتى أنواع الانحراف، وهو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد امتلائها ظلماً وجوراً.

(١) انظر الكافي ١: ٣٢٠، الإرشاد ٢: ٢٧٦، الفصول المهمة ٢: ١٠٣٦.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣٣، إعلام الوري ٢: ٥٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٨: ٢٦٠ و ٤٩: ٢٨٥ و ٥٠: ١٨.

وقام الإمام الرضا عليه السلام بدوره ومسؤوليته في توجيه الأنظار الى حقيقة هذا المبدأ الإسلامي المتمثل في قضية الإمام المهدي عليه السلام، لقرب العهد بولادته وغيبته، وقد جاءت رواياته وإخباراته مطابقة لما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله من روايات وأحاديث :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»^(١).

كما قال صلى الله عليه وآله: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(٢)، وقال: «المهدي من ولد الحسين»^(٣).

ووردت روايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله تصرّح بغيبة الإمام المهدي عليه السلام، بقوله صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحق بشيراً ليغيث القائم من ولدي بعهد معهود إليه منّي، حتى يقول أكثر الناس: ما لله في آل محمد حاجة، ويشك آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسك بدينه، ولا يجعل للشيطان إليه سبيلاً بشكّه...»^(٤).

وقد قام الإمام الرضا عليه السلام بالترويج لهذا المبدأ الإسلامي عند المقرّبين لديه، وقد بلغت النصوص الخاصة بالإمام الرضا عليه السلام عن هذه القضية الإسلامية كما أحصاها مسند الإمام الرضا عليه السلام ستة وثلاثين نصّاً^(٥). وإليك نماذج منها:

١ - عن أيوب بن نوح قال: قلت للرضا عليه السلام: إنّنا لنرجو أن تكون صاحب هذا الأمر، وأن يرده الله عزّ وجل إليك من غير سيف، فقد بويع لك، وضربت الدراهم باسمك.

(١) سنن أبي داود ٢: ٣١٠، المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ٦٧٩.

(٢) الغيبة للطوسي: ١٨٦، سنن أبي داود ٢: ٣١٠، وانظر سنن ابن ماجه ٢: ١٣٦٨، وعقد الدرر: ١٨ وكلاهما بدون لفظ (من عترتي).

(٣) انظر كتاب الفتن لنعيم بن حماد: ٢٦٣ حيث أخرج رواية عن عبد الله بن عمرو قال: «يخرج رجل من ولد الحسين من قبل المشرق...» وأوردها السلمي في عقد الدرر: ١٥٧ بلفظ: «يخرج المهدي من ولد الحسين من قبل المشرق...» وعزاها الى الحافظ أبي نعيم الإصبهاني في «صفة المهدي»، والحافظ نعيم بن حماد، والحافظ الطبراني في «معجمه».

(٤) كمال الدين وإتمام النعمة ١: ٥١، وعنه في بحار الأنوار ٥١: ٦٨.

(٥) انظر مسند الإمام الرضا ١: ٢١٦ - ٢٢٨.

فقال عليه السلام: «ما منا أحد اختلفت إليه الكتب، وسئل عن المسائل، وأشارت إليه الأصابع، وحملت إليه الأموال إلا أُغتيل أو مات على فراشه، حتى يبعث الله عز وجل لهذا الأمر رجلاً خفي المولد والمنشأ غير خفي في نسبه»^(١).

٢ - وصرح عليه السلام بخصوصية الإمام المهدي - عجل الله فرجه - بأنه الثالث من ولده فقال: «كأنني بالشيعة عند فقدهم الثالث من ولدي يطلبون المرعى فلا يجدونه، فقال له علي بن الحسن بن فضال: ولم ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: لأن إمامهم يغيب عنهم... لئلا يكون في عنقه لأحد بيعة إذا قام بالسيف»^(٢).

٣ - ثم صرح بأكثر من ذلك فحدّد اسمه فقال عليه السلام: «لابدّ من فتنة صماء صيلم يسقط فيها كل بطانة ووليعة، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي، يبكي عليه أهل السماء وأهل الأرض وكلّ حرّ وحرّان، وكلّ حزين لهفان. بأبي أنت وأمي سميّ جدّي وشيبي وشبيه موسى بن عمران...»^(٣).

وكان العباسيون يدركون أنّ قضية الإمام المهدي عليه السلام حقيقة إسلامية لا بدّ منها، ويتخوفون من زوال حكمهم على يديه، لذا كانت الروايات في شأنه في غاية السريّة والكتمان. ولعلّ إشخاصهم للأئمة عليهم السلام إلى مركز حكمهم وعاصمتهم كان قائماً على أساس تقرب ولادة المهدي عليه السلام والقضاء عليه في مهده إن لم يمكنهم الحيلولة دون ولادته.

فالمأمون أشخص الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان، وأشخص ابنه الإمام الجواد عليه السلام أيضاً إلى بغداد بعد انتقال مركز خلافته إليها. ولعلّ تزويجه للإمام عليه السلام من ابنته كان باعتبار هذا الهدف، إضافة إلى محاولة اختلاط النسب بين العباسيين وأئمة أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن الحضور داخل حياتهم الشخصية ليكونوا على معرفة بما يستجدّ في حياة أهل البيت عليهم السلام.

(١) الكافي ١: ٣٤١ - ٣٤٢، كمال الدين وإتمام النعمة ٢: ٣٧٠، واللفظ للثاني.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٤٥، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٧، وعنهما في بحار الأنوار ٥١: ١٥٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩، كمال الدين وإتمام النعمة ٢: ٣٧٠ - ٣٧١، الغيبة للطوسي: ٤٣٩.

وقد أشخص الحكام من بعد المأمون الأئمة الباقين الى مركز حكمهم كالإمام الجواد عليه السلام والإمامين الهادي والعسكري عليه السلام^(١).

ولعلَّ سَمَّ الأئمة منهم واغتيالهم من قبل الحكام وعمّالهم واقع في هذا الطريق، فالإمام الجواد عليه السلام مات مسموماً وعمره خمس وعشرون سنة، والإمام الهادي عليه السلام وهو في الحادية والأربعين من عمره والإمام الحسن العسكري عليه السلام مات مسموماً وعمره ثمان وعشرون سنة^(٢).

ويؤيد هذا التحليل النص المروي عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام إذ قال: «قد وضع بنو أمية وبنو العباس سيوفهم علينا لعلّتين: إحداهما: أنّهم كانوا يعلمون أنّه ليس لهم في الخلافة حقّ فيخافون من ادّعائنا إيّاها، وتستقرّ في مركزها. وثانيهما: أنّهم قد وقفوا من الأخبار المتواترة على أنّ زوال ملك الجبابة والظلمة على يد القائم منّا، وكانوا لا يشكّون أنّهم من الجبابة والظلمة فسعوا في قتل أهل بيت رسول الله ﷺ وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول الى منع تولّد القائم عليه السلام أو قتله، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد منهم، إلّا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون»^(٣).

وبوجود الأئمة عليهم السلام في البلاط كان يسهل على الحكام متابعة نشاطهم وحركتهم والتدخل في شؤونهم الخاصة؛ لذا فإنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام والد الإمام المهدي عليه السلام لم يتزوَّج زوجاً عادياً ورسمياً، وحينما ولد له الإمام المهدي عليه السلام أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت وشدة طلب السلطان له، واجتهاده في البحث عن أمره، لما كان قد شاع من مذهب الشيعة الإمامية فيه وعرف ذلك من انتظارهم له^(٤).

(١) والملفت للنظر لدى الباحث التاريخي أنّ الأئمة من بعد الرضا عليه السلام لم يولد لهم مثل ما ولد لأبائهم من قبل، وهو شاهد على مدى تحديدهم وإحكام الرقابة عليهم، وكما أنه مؤشّر الى تخوُّف الحكام منهم خشية من ظهور المهدي الموعود من بين أبنائهم عليه السلام.

(٢) انظر تواريخ ولاداتهم ووفياتهم عليه السلام في الإرشاد ٢: ٢٧٣، ٢٩٧، ٣١٣، إعلام الوري ٢: ٩١، ١٠٩، ١٣١.

(٣) إثبات الهداة للحر العاملي ٣: ٥٧٠، عن إثبات الرجعة للفضل بن شاذان.

(٤) انظر الإرشاد ٢: ٣٣٦ وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٣٣٤.

وهذه المواقف التي كانت تبدر من السلطة والتحفظات الكثيرة هي التي جعلت الإمام المهدي عليه السلام يختفي دون أن تقوم السلطات باعتقاله، وهي نتيجة للتخطيط الدقيق الذي كان قد بدأه الإمام الرضا عليه السلام وتلميحاته وتصريحاته السرية في خصوص الإيمان بالمهدي عليه السلام وولادته واسمه . وقد تابع الأئمة من بعده نفس التخطيط، دون أن تشعر بهم السلطات القائمة .

وخلاصة القول : إنّ الإمام الرضا عليه السلام قد رسم مستقبل الرسالة بالتمهيد لها من خلال الوصية بإمامة ابنه الجواد عليه السلام، ثمّ عليّ الهادي ثمّ الحسن العسكري ثم ابنه الإمام المهدي المنتظر؛ لتواصل الأئمة ولاءها وتستمر في إنتمائها الفكري والعاطفي والسلوكي .

اغتيال الإمام الرضا عليه السلام

لقد كان الإمام الرضا عليه السلام يعلم بأنه سوف يُقتل، وذلك لروايات وردت عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، إضافة الى الإلهام الإلهي له، لوصوله الى قمة السموّ والإرتقاء الروحي. ولا غرابة في ذلك، فقد شاهدنا في حياتنا المعاصرة أنّ بعض الأتقياء يحدّدون أيام وفاتهم أو سنة وفاتهم، لرؤيا رأوها أو لإلهام إلهي غير منظور. فما المانع أن يعلم الإمام الرضا عليه السلام بمقتله وهو الشخصية العظيمة التي ارتبطت بالله تعالى ارتباطاً حقيقياً في سكناتها وحر كاتها، وأخلصت له إخلاصاً تاماً .

وقد أخبر الإمام عليه السلام جماعة من الناس بأنه سيدفن قرب هارون، بقوله عليه السلام: «هارون وأنا كهاتين»، وضم أصبعيه^(١).

وكان هارون يخطب في مسجد المدينة والإمام حاضر فقال عليه السلام : «أتروني وإياه ندفن في بيت واحد»^(١).

(١) انظر الرواية في الكافي ١: ٤٩١، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٤٥، الإرشاد ٢: ٢٥٨، إعلام الوري ٢: ٦٠، الإتحاف بحب الأشراف : ٣١٤ .

وفي ذات مرة، خرج هارون من المسجد الحرام من باب، وخرج الإمام من باب آخر فقال عليه السلام: «ما أبعد الدار وأقرب اللقاء بطوس، يا طوس، يا طوس ستجمعني وإياه»^(٢).

وقال ابن حجر: أخبر بأنه يموت قبل المأمون، وأنه يدفن قرب الرشيد فكان كما أخبر^(٣).

وحينما أراد المأمون إشخاصه الى خراسان، جمع عياله وكان عليه السلام يقول: «إني حيث أرادوا الخروج بي من المدينة جمعت عيالي، فأمرتهم أن يبكوا علي حتى أسمع، ثم فرقت فيهم اثني عشر ألف دينار، ثم قلت: أما إني لا أرجع الى عيالي أبداً»^(٤).

الأدلة على شهادته مسموماً

اختلفت الروايات في سبب موت الإمام عليه السلام بين الموت الطبيعي وبين السم، وقال الأكثر أنه مات مسموماً، وفيما يلي نستعرض بعض الأخبار والروايات - الدالة على ذلك - باختصار.

قال صلاح الدين الصفدي: وآل أمره مع المأمون الى أن سمّه في رمانة على ما قيل مداراة لبني العباس^(٥).

وقال اليعقوبي: فليل إن علي بن هشام أطعمه رماناً فيه سم^(٦).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٤٧، كشف الغمّة ٣: ٩٦، الفصول المهمة ٢: ٩٧٦، والإنحاف بحب الأشراف: ٣١٦.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٤٧، إعلام الوري ٢: ٥٩، الفصول المهمة ٢: ٩٧٦، الإنحاف بحب الأشراف: ٣١٦، واللفظ للأول.

(٣) الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣٥، دلائل الإمامة: ٣٤٩، إعلام الوري ٢: ٥٩ - ٦٠.

(٥) الوافي بالوفيات ٢٢: ١٥٦.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٥٣.

وقال ابن حبان: ومات عليّ بن موسى الرضا بطوس من شربة سقاه إيّاها المأمون فمات من ساعته^(١).

وقال شهاب الدين النويري: ... وقيل إنّ المأمون سمّه في عنب، واستبعد ذلك جماعة وأنكروه^(٢).

وقال القلقشندي: يقال أنّه سمّ في رمّان أكله^(٣).

وكان أهل طوس يرون أنّ المأمون سمّه، وقد اعترف المأمون بتهمة الناس له فقد دخل على الإمام عليه السلام قبيل موته فقال: «يا سيّدي والله ما أدري أي المصيبتين أعظم عليّ؟ فقددي لك، وفراقي إياك؟ أو تهمة الناس لي أنّي اغتلتك وقتلتك...»^(٤).

ولما كان اليوم الثاني اجتمع الناس وقالوا: إنّ هذا قتله واغتاله، يعنون المأمون^(٥).

ومن الشواهد على أنّ المأمون قتله مسموماً، أنّه كان يخطط للتخلص منه.

قال المأمون لبني العباس: ... فليس يجوز التهاون في أمره، ولكنّا نحتاج أن نضع منه قليلاً قليلاً، حتى نصوره عند الرعايا بصورة من لا يستحق لهذا الأمر، ثم ندبر فيه بما يحسم عنّا مواد بلائه^(٦).

ويأتي موت الإمام عليه السلام بعد قرار المأمون بالتوجه الى العراق ونقل عاصمة حكمه إليه، فقد وجد أنّ العباسيين في العراق سيقون معارضين له ما دام الإمام عليه السلام

(١) الثقات ٨: ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٢) نهاية الإرب ٢٢: ٢١٠.

(٣) مآثر الانافة في معالم الخلافة ١: ٢١١.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٩، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ٢٩٩.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٠، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ٢٩٩.

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٢، دلائل الإمامة: ٣٨٠، فرائد السمطين ٢١٤/٢ - ٢١٥.

ولياً لعهد، لذا نجده قد كتب لهم ليستميلهم: إنكم إنما نقمتم عليّ بسبب توليتي العهد من بعدي لعليّ بن موسى الرضا، وها هو قد مات، فارجعوا الى السمع والطاعة^(١).

ولا يستبعد من المأمون أن يقدم على قتله، وقد قتل من أجل الملك والسلطة أخاه وآلاف المسلمين من جنوده وجنود أخيه، فالملك عقيم كما أخبره أبوه من قبل.

أسباب إقدام المأمون على سمّ الإمام عليه السلام واغتياله

من الأسباب التي دعت المأمون الى سمّ الإمام: أنه لم يحصل على ما أراد من توليته للعهد، فقد حدثت له فتنة جديدة وهي تمرّد العباسيين، ومحاولتهم القضاء عليه.

ومن الأسباب ما ورد عن أحمد بن عليّ الأنصاري عن أبي الصلت الهروي في قوله: «... وجعل له ولاية العهد من بعده ليرى الناس أنه راغب في الدنيا؛ فيسقط محلّه من نفوسهم، فلمّا لم يظهر منه في ذلك للناس إلّا ما ازداد به فضلاً عندهم، ومحلّاً في نفوسهم، جلب عليه المتكلمين من البلدان طمعاً في أن يقطعه واحد منهم فيسقط محله عند العلماء، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة، فكان لا يكلمه خصم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والذهريّة، ولا خصم من فرق المسلمين المخالفين إلّا قطعه وألزمه الحجّة. وكان الناس يقولون: والله إنّّه أولى بالخلافة من المأمون، وكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه، فيغتاظ من ذلك ويشتد حسده له».

وكان الرضا لا يُحابي المأمون في حقّ، وكان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله؛ فيغيظه ذلك، ويحقّده عليه، ولا يظهره له، فلمّا أعيته الحيلة في أمره اغتاله فقتله بالسمّ^(١).

(١) انظر تاريخ الطبري ١٥٠: ٧، الكامل في التاريخ ٣٥١: ٦، البداية والنهاية ١٠: ٢٧٢ واللفظ للأخير.

وقد نصحه الإمام عليه السلام - كما تقدم - بأن يبعده عن ولاية العهد لبغض البعض لذلك، وقد علّق إبراهيم الصولي على ذلك بالقول: كان هذا والله السبب فيما آل الأمر إليه ^(٢).

إضافة الى ذلك فإن بعض وزراء المأمون وقواده كانوا يبغضون الإمام عليه السلام ويحسدونه، فكثرت وشاياتهم على الإمام عليه السلام، فأقدم المأمون على سمه ^(٣). وبدأت علامات الموت تظهر على الإمام عليه السلام بعد أن أكل الرمان، أو العنب الذي أطعمه المأمون إيّاه، وبعد خروج المأمون ازدادت حالته الصحية تدهوراً، وكان آخر ما تكلم به: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ ^(٤) ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ^(٥). ودخل عليه المأمون باكياً، ثم مشى خلف جنازته حافياً حاسراً يقول: «يا أخي لقد تلم الإسلام بموتك وغلب القدر تقديري فيك» وشق لحد هارون ودفنه بجنبه ^(٦).

وقد رثاه دعبل الخزاعي بقصيدة رائعة، هذه بعض أبياتها:

أربع بطوس على قبر الزكي به إن كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر ^(٧)
وكانت شهادة الإمام الرضا عليه السلام في آخر صفر سنة (٢٠٣ هـ) كما ذكر ذلك أغلب الرواة والمؤرخين ^(٨).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٦، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ٢٩٠.

(٢) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٧، نشر الدر ١: ٢٥١، وعن نشر الدر في كشف الغمّة ٣: ١٠٢، واللفظ للثاني.

(٣) انظر الإرشاد ٢: ٢٦٩، إعلام الوري ٢: ٨٠.

(٤) سورة آل عمران ٣: ١٥٤.

(٥) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٨.

(٦) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٧ - ٢٦٨، وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ٣٠٥.

(٧) أمالي الصدوق: ٧٥٨ - ٧٥٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨١، وانظر تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٢٦٠ واللفظ للأول.

(٨) انظر إعلام الوري ٢: ٤١، تاريخ الطبري ٧: ١٥٠، الكامل في التاريخ ٦: ٣٥١، تاريخ ابن خلدون ٣: ٢٥٠.

الفصل الرابع

من تراث الإمام الرضا عليه السلام

إن الثروة العلمية الهائلة التي قدّمها الإمام الرضا عليه السلام للعالم الإسلامي، بل للعالم الإنساني عامة، ولأتباع أهل البيت خاصة، قد شملت ألوان العلوم والمعارف من فلسفة وكلام وطب وفقه وتفسير وتاريخ وتربية وآداب وسياسة واجتماع ... وقد أتاح المأمون من حيث لا يشعر فرصة ذهبية لظهور علم الإمام عليه السلام وبروزه إلى الساحة الاجتماعية وتحديده لكل العلماء الذين جمعهم لتضعيف الإمام، وتسقيطه من خلال المواجهة العلمية، التي جمع من أجلها علماء الفرق والأديان. وقد عرفنا كيف استجاب علماء الفرق والمذاهب الإسلامية لدعوة المأمون حتى طرحوا أسئلة على الإمام عليه السلام تحقيقاً لرغبة المأمون، فسألوه عما كان غامضاً لديهم، وقد روى المؤرخون أن ما طرح على الإمام عليه السلام يبلغ أكثر من عشرين ألف مسألة في مختلف أبواب المعرفة، فأجابهم الإمام عليه السلام عن جميعها؛ متحدياً جبوت المأمون والعبّاسيين خاصة وسائر من يجهل فضل أهل البيت عليه السلام عامة.

كما أثرت عن الإمام الرضا عليه السلام سوى هذه الاحتجاجات مجموعة من النصوص التي نصّ عليها المعنيون بالتراجم، مثل (طب الإمام الرضا عليه السلام)^(١)، و(مسند الإمام الرضا عليه السلام)^(٢)، أو (صحيفة الإمام الرضا عليه السلام) أو صحيفة أهل البيت

(١) وهي الرسالة الذهبية في الطب التي بعثها الإمام الرضا عليه السلام إلى المأمون العباسي، وقد نقلها العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٠٦/٥٩ - ٣٢٨، كما أنها مطبوعة الآن ومتداولة في الأسواق.

(٢) نقله صاحب البحار في بحاره: ٣٦٦/١٠ - ٣٦٩، وتوجد له نسخ مطبوعة مختلفة في عدد رواياتها وأسمائها، فسمي تارة بـ (مسند الرضا)، وأخرى بـ (صحيفة الإمام الرضا عليه السلام)، ويرجع ذلك إلى تعدد النسخ الخطية وتعدد روايتها. فاعتمد بعضهم على رواية داود بن سليمان الغازي وبعضهم على رواية عبدالله بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه.

والمعبر عنها بالرضويات ، و(رسالة جوامع الشريعة)^(١)، كما نسب إليه أيضاً كتاب فقهي عُرف بـ (فقه الرضا عليه السلام)^(٢) (٣).

إنّ حديث سلسلة الذهب هو الحديث الذي رواه الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه المعصومين عن جدّهم سيّد المرسلين عن جبرائيل عن ربّ العزّة سبحانه وتعالى ونصّه هو :

«لا إله إلاّ الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي»^(٤). قال أحمد بن حنبل عن مثل سند هذا الحديث: «وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق»^(٥).

ثم إنّ النصوص التي جُمعت في مسند الإمام الرضا (عليه السلام) للعطاردي المعاصر تناهز الألفين، وتنوّع على مجالات شتى، فالعقائد والفقه والأخلاق والتفسير والتاريخ والاحتجاجات هي أهم الموضوعات التي رتب على أساسها المسند، ولكن المجالات المعرفية التي اهتمت بها نصوص الإمام عليه السلام لا تنحصر في هذه الأبواب .

على أنا نلاحظ اهتماماً خاصاً بأصول العقيدة والشريعة ولاسيّما قضايا الإمامة بتفاصيلها الكثيرة التي قد نالت اهتماماً خاصاً كما نلاحظه في هذه النصوص^(٦) وقد

(١) نقلها الشيخ الصدوق بعنوان (ما كتبه الرضا عليه السلام للمأمون في محض الإسلام وشرائع الدين) في: عيون أخبار الرضا: ١٢٩/٢ وما بعدها، ونقلها الحراني بعنوان (جوابه عليه السلام) في جوامع الشريعة لما سأله جمع ذلك) في تحف العقول: ٤١٥ وما بعدها.

(٢) وهو أحد مصادر كتاب بحار الأنوار، ومطبوع ومنتشر في الأسواق ويشتهر بنسبته للإمام الرضا (عليه السلام)، إلّا أنّ هذه النسبة محلّ كلام بين العلماء الأعلام، فمن أراد التعرف على ذلك فليراجع مظانّه.

(٣) وقد ذكر السيّد محسن الأمين عنواناً باسم (مؤلفات) أيّ مؤلفات الإمام الرضا عليه السلام، وذلك في فصل الإمام الرضا عليه السلام من كتابه أعيان الشيعة ذكر فيه تلك الرسائل مع ذكر لمّح عنها. راجع أعيان الشيعة: ٢٦/٢ - ٢٧.

(٤) انظر الحديث في: كشف الغمّة: ١٠١/٣ - ١٠٢، الصواعق المحرقة: ٥٩٥/٢، ينابيع المودة: ١٢٢/٣.

(٥) انظر قول أحمد في: مناقب آل أبي طالب: ٤٢٢/٣، كشف الغمّة: ١٠٠/٣، الصواعق المحرقة: ٥٩٥/٢، واللفظ للأوّل.

(٦) تبلغ نصوص الإمامة حوالي ٥٠٠ نص ويضاف إليها ما جاء في احتجاجاته التي دارت حول الإمامة وما جاء في كتابي الاصطفاء والنبوة والأدعية وتفسير القرآن مما يرتبط بالإمامة فيها فتكون حجماً هائلاً بالقياس الى ما سواها فهي تشكّل ربع تراث الإمام تقريباً.

تصدى الإمام عليه السلام في هذه النصوص الى سدّ كل الطرق والمنافذ ردّاً على المذاهب والفرق الأخرى التي ابتعدت عن مذهب أهل البيت عليه السلام بشكل أو آخر .

فاحتجاجات الإمام عليه السلام صريحة وصارخة في محتواها ولا تجد فيها أي مجال للتقية أو الاقتصار على طرح بعض الحقائق التاريخية دون بعض، بل نجد الإمام عليه السلام يدخل الساحة العقائدية المذهبية بكل ثقله وهو يعلم بأنّ القتل في سبيل المبدأ والاعتقال الذي ينتظره هو آخر الخطّ . وإنّه يدخل معترك الصراع بكل أبعاده ليقرر حقيقة المذهب وأدلّته ومبررات وجوده، وانه هو الخط الوحيد الذي يمثّل رسالة الله في الأرض وإنّه امتداد خط الرسول ﷺ دون سواه.

وإليك بعض ما اخترناه من تراثه عليه السلام كنموذجاً للدلالة على عظمة هذا التراث وتنوع أغراضه ومجالاته.

في رحاب العقل والعلم والمعرفة

- ١ - «العقل حياء»^(١) من الله والأدب كلفة، فمن تكلف الأدب قدر عليه ومن تكلف العقل لم يزد إلا جهلاً»^(٢).
- ٢ - «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل»^(٣).
- ٣ - «ما استودع الله عبداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً»^(٤).

(١) الحياء: عطاء بلا من ولا جزاء، حيوته أحبوه حياء، كتاب العين: ٣٠٩/٣.

(٢) الكافي: ١ / ٢٤ ح ١٨، تحف العقول: ٤٤٨.

(٣) الكافي: ٢ / ٥٥، وعنه في بحار الأنوار: ٣٢٢/٦٨.

(٤) أمالي الطوسي: ١ / ٥٥ ح ٤، وعنه في بحار الأنوار: ٨٨/١، ونسب في نهج البلاغة: ٩٥/٤، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. كما أنه نسب للنبي ﷺ باختلاف يسير، انظر كنز العمال: ١٧٣/١٠ عن مسند الديلمي.

في رحاب القرآن الكريم

١ - عن الحسين بن خالد، قال: قلت للرّضا عليّ بن موسى عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن القرآن أخالق أو مخلوق؟ فقال: «ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله عزّ وجلّ»^(١).

٢ - عن الريّان بن الصلت، قال قلت للرّضا عليه السلام: ما تقول في القرآن؟ فقال: «كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا»^(٢).

٣ - عن أبي حيون مولى الرضا عليه السلام، قال: «من ردّ متشابه القرآن الى محكمه هدي الى صراط مستقيم»، ثم قال: «إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها الى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا»^(٣).

٤ - ذكر الرضا عليه السلام يوماً القرآن فعظّم الحجة فيه والآية والمعجزة في نظمها، فقال: «هو جبل الله المتين، وعروته الوثقى وطريقته المثلى، المؤدّي الى الجنة، والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة ولا يغثّ على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان والحجة على كل إنسان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»^(٤).

في رحاب التوحيد

١ - سأله رجل عن الدليل على حدوث العالم فقال: «أنت لم تكن ثمّ كنت وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك»^(٥).

٢ - جاء رجل إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام من وراء نهر بلخ، فقال: «إني أسألك عن مسألة فإنّ أجبتني فيها بما عندي قلت بإمامتك، فقال أبو الحسن (عليه السلام) سل

(١) التوحيد: ٢٢٣، أمالي الصدوق: ٦٣٩، وعنهما في بحار الأنوار: ١١٧/٨٩.

(٢) التوحيد: ٢٢٣ - ٢٢٤، الأمالي: ٦٣٩، عيون أخبار الرضا: ٦٢/٢، وعنهما في بحار الأنوار: ١١٧/٨٩.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ٢٦١، الاحتجاج: ١٩٢/٢، وعن العيون في بحار الأنوار: ١٨٥/٢.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٣٧ - ١٣٨، وعنه في بحار الأنوار: ٢١٠/١٧ - ٢١١.

(٥) التوحيد: ٢٩٣، أمالي الصدوق: ٤٣٣، عيون أخبار الرضا: ١٢٢/١ - ١٢٣، الاحتجاج: ١٧١/٢.

عما شئت، فقال: أخبرني عن ربك متى كان؟ وكيف كان؟ وعلى أي شيء كان اعتماده؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أَيْنَ الأَيْنَ بلا أين، وكيف وكيف بلا كيف، وكان اعتماده على قدرته، فقام إليه الرجل فقبل رأسه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله وأنّ علياً وصيّ رسول الله ﷺ والقيّم بعده بما قام به رسول الله، وأنكم الأئمة الصادقون وأنك الخلف من بعدهم^(١).

٣ - حدثنا الحسين بن بشار، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون؟ أو لا يعلم إلا ما يكون؟ فقال: «إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء»^(٢).

٤ - عن يونس بن عبد الرحمن، قال: قلت: لأبي الحسن الرضا عليه السلام: روينا أنّ الله علم لا جهل فيه، حياة لا موت فيه، نور لا ظلمة فيه، قال: «كذلك هو»^(٣).

في رحاب النبوة والأنبياء

١ - قال ابن السكيت لأبي الحسن الرضا عليه السلام لماذا بعث الله عز وجل موسى بن عمران بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر وبعث عيسى عليه السلام بالطب وبعث محمداً ﷺ بالكلام والخطب؟

فقال له أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم وإنّ الله تبارك وتعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن عندهم مثله وبما أحى لهم الموتى وأبرأ لهم الأكمه والأبرص بإذن الله عز وجل وأثبت به الحجّة عليهم.

(١) الكافي: ١ / ٨٨، وعنه في بحار الأنوار: ١٠٤/٤٩ - ١٠٥.

(٢) التوحيد: ١٣٦، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٠٨/١، وعنه في بحار الأنوار: ٧٨/٤.

(٣) التوحيد: ١٣٨، وعنه في بحار الأنوار: ٨٤/٤.

وإن الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام وأظنه قال (١): والشعر، فأتاهم من كتاب الله عز وجل ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجة عليهم، فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك اليوم قط، فما الحجة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه» فقال ابن السكيت: هذا والله الجواب (٢).

٢- وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «إنما سمي أولو العزم أولي العزم لأنهم كانوا أصحاب الشرائع والعزائم وذلك أن كل نبي بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان على شريعته ومنهاجه، وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى عليه السلام، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى أيام عيسى عليه السلام، وكل نبي كان في أيام عيسى عليه السلام وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد ﷺ، فهؤلاء الخمسة أولو العزم فهم أفضل الأنبياء والرسل. وشريعة محمد ﷺ لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادّعى بعده النبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه» (٣).

في رحاب الإمامة والأئمة

١- عن عبدالعزيز بن مسلم قال: كنّا مع الرضا عليه السلام بمرور فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال: «يا

(١) الظن من الراوي.

(٢) علل الشرائع: ١ / ١٢١ - ١٢٢، عيون أخبار الرضا: ٨٦/٢، الاحتجاج: ٢٢٤/٢ - ٢٢٥، وعنهم في بحار الأنوار: ٧٠ - ٧١.

(٣) عيون الأخبار: ٢ / ٨٦ - ٨٧، علل الشرائع: ١٢٢/١ - ١٢٣، وعن العيون في بحار الأنوار: ١١: ٣٤ - ٣٥.

عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بين فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كمالاً، فقال عز وجل: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)، وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض ﷺ حتى بين لأمتة معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحق وأقام لهم علياً عليه السلام عالماً وإماماً، وما ترك لهم شيئاً يحتاج إليه الأمة إلا بينه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله، ومن رد كتاب الله فهو كافر به.

هل يعرفون قدر الإمامة ومحللها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم، إن الإمامة أجلُّ قدراً وأعظم شأنًا وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم، إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال الخليل عليه السلام سروراً بها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣) فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفة، ثم أكرمها الله تعالى بأن جعلها في ذريته أهل الصفة والطهارة فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٤).

فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتى ورثها الله تعالى النبي ﷺ، فقال جل وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ

(١) سورة الأنعام ٦: ٣٨.

(٢) سورة المائدة ٥: ٣.

(٣) سورة البقرة ٢: ١٢٤.

(٤) سورة الانبياء ٢١: ٧٢-٧٣.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ^(١) فكانت له خاصّة فقلّدها ﷺ عليّاً عليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾^(٢) فهي في ولد علي عليه السلام خاصّة إلى يوم القيامة؛ إذ لا نبي بعد محمد ﷺ فمن أين يختار هؤلاء الجهّال .

إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول ﷺ ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إنّ الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إنّ الإمامة أس الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف .

الإمام محلّ حلال الله، ويحرّم حرام الله ويقيم حدود الله ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجّة البالغة، الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار، الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى وأجواز البلدان والقفار، ولجج البحار، الإمام الماء العذب على الظماء، والدالّ على الهدى والمنجي من الردى، الإمام النار على اليفاع، الحارّ لمن اصطلى به والدليل في المهالك من فارقه فهالك، الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة، والسماء الظليلة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة .

الإمام الأنيس الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، والأُمّ البرّة بالولد الصغير، ومفزع العباد في الداهية النّاد^(٣)، الإمام أمين الله في خلقه وحجته على عباده وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذّاب عن حرم الله .

(١) سورة آل عمران ٣: ٦٨ .

(٢) سورة الروم ٣٠: ٥٦ .

(٣) الداهية: الأمر العظيم، والنّاد: السحاب ومعناها (في) القاموس المحيط ١ : ٣٤٠ .

الإمام المطهر من الذنوب، والمبرأ من العيوب، المخصوص بالعلم، الموسوم، بالحلم، نظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين»^(١).

٢ - عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا، عن أبيه عن آبائه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يركب سفينة النجاة، ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً بعدي، وليعاد عدوه وليأتم بالأئمة الهداة من ولده فإنهم خلفائي وأوصيائي، وحجج الله على الخلق بعدي وسادة أمتي وقادة الأتقياء إلى الجنة، حزبهم حزبي وحزبي حزب الله، وحزب أعدائهم حزب الشيطان»^(٢).

٣ - عنه عليه السلام - بهذا الإسناد قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي أنت أخي ووزير، وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وأنت صاحب حوضي، من أحببك أحبني ومن أبغضك أبغضني»^(٣).

في رحاب الغدير

روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في يوم الغدير أنه قال:

«وهو يوم التهنتة يهنئ بعضكم بعضاً فإذا لقي المؤمن أخاه يقول: الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، وهو يوم التبسم في وجوه الناس من أهل الإيثار فمن تبسم في وجه أخيه يوم الغدير نظر الله إليه يوم القيامة بالرحمة، وقضى له ألف حاجة، وبنى له قصرًا في الجنة من درة بيضاء ونضر وجهه»^(٤).

وهو يوم الزينة فمن تزين ليوم الغدير غفر الله له كل خطيئة عملها، صغيرة أو كبيرة وبعث الله إليه ملائكة يكتبون له الحسنات، ويرفعون له الدرجات إلى قابل مثل ذلك

(١) راجع تمام الحديث في: الكافي: ١٨٩/١ - ٢٠٣، كمال الدين وتمام النعمة: ٦٧٥ - ٦٨١، عيون أخبار الرضا عليه السلام

١: ١٩٥ - ٢٠٠

(٢) أمالي الصدوق: ٧٠، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٦٢/١، وعن العيون في بحار الأنوار ٢٣: ١٤٤.

(٣) أمالي الصدوق: ١١٦، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٣٦٤/١، وعن الأمالي في بحار الأنوار ٨: ١٩، وعن العيون في بحار الأنوار أيضاً: ٣٩: ٢١١.

(٤) أي نعمه... حسن الوجه وبريقه، وإنما حسن خلقه وقدره، لسان العرب: ٢١٢/٥ مادة (نضر).

اليوم، فإن مات مات شهيداً، وإن عاش عاش سعيداً، ومن أطعم مؤمناً كان كمن أطعم جميع الأنبياء والصدّيقين ومن زار فيه مؤمناً أدخل الله قبره سبعين نوراً ووسع في قبره ويزور قبره كلّ يوم سبعون ألف ملك ويشرّونه بالجنة .

وفي يوم الغدير عرض الله الولاية على أهل السموات السبع، فسبق إليها أهل السماء السابعة فزّين بها العرش، ثمّ سبق إليها أهل السماء الرابعة، فزّينها بالبيت المعمور، ثمّ سبق إليها أهل السماء الدنيا فزّينها بالكواكب ثمّ عرضها على الأرضين فسبقت مكة فزّينها بالكعبة ثمّ سبقت إليها المدينة فزّينها بالمصطفى محمد ﷺ، ثم سبقت إليها الكوفة فزّينها بأمر المؤمنين ﷺ وعرضها على الجبال فأول جبل أقرّ بذلك ثلاثة جبال : جبل العقيق وجبل الفيروزج وجبل الياقوت فصارت هذه الجبال جبالهن وأفضل الجواهر^(١).

في رحاب فقه الإمام الرضا ﷺ

إنّ التراث الفقهي للإمام الرضا ﷺ يتمثل في النصوص الفقهية التي وصلتنا بشكل مسند. فالعبادات المتمثلة في الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحجّ والزيارة يبلغ عدد النصوص الواصلة عنه نحو (٤٣٧) نصّاً. ونصوص النكاح والطلاق نحو (١٦٢) نصّاً ونصوص المعيشة والصيد والأطعمة والأشربة نحو (٢٥٥) نصّاً ونصوص التجميل نحو (٨٢) نصّاً والجهاد نحو (١٢) نصّاً والحدود والديات والقضاء والشهادة نحو (٣٩) نصّاً والأيمان والنذور والوصايا والجنائز والموايرث نحو (٦٢) نصّاً ويبلغ مجموع هذه النصوص الفقهية حوالي (١٠٤٩) نصّاً، وهذا الحجم يشكل أكثر من نصف النصوص التي وصلتنا عنه ﷺ فقد أحصيناها وبلغت حوالي (٢٠٣٣) نصّاً.

وفي هذا دلالة واضحة على مدى الاهتمام الذي بذله الإمام ﷺ لإحكام قواعد وأصول مدرسة أهل البيت الفقهية^(٢).

(١) إقبال الأعمال: ٢٦١/٢ - ٢٦٢، ونقل قطعة منه المجلسي في بحار الأنوار: ٢٦٢/٢٧ عن الإقبال.

(٢) راجع في ذلك مسند الإمام الرضا للشيخ العطاردي، حيث تكفّل الجزء الثاني ببيان نصوص الأبواب التي ذكرناها وعدّد نصوص كلّ باب منها.

في رحاب مواعظه وقصار كلماته

- ١ - قال الرضا عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال: سنة من ربه وسنة من نبيه صلى الله عليه وآله وسنة من وليه صلى الله عليه وآله». فأما السنة من ربه فكتان السر. أما السنة من نبيه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس. وأما السنة من وليه عليه السلام فالصبر في البأساء والضراء»^(١).
- ٢ - وقال عليه السلام: «صاحب النعمة يجب أن يوسع على عياله»^(٢).
- ٣ - وقال عليه السلام: «من أخلاق الأنبياء التَّنَظُّفُ»^(٣).
- ٤ - وقال عليه السلام: «لم يخنك الأمين، ولكن ائتمنت الخائن»^(٤).
- ٥ - وقال عليه السلام: «إذا أراد الله أمراً سلب العباد عقولهم، فأنفذ أمره وتمت إرادته. فإذا أنفذ أمره ردّ إلى كل ذي عقل عقله، فيقول: كيف ذا ومن أين ذا»^(٥).
- ٦ - وقال عليه السلام: «الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنّه دليلٌ على كل خير»^(٦).
- ٧ - وقال عليه السلام: «التودُّدُ إلى الناس نصف العقل»^(٧).
- ٨ - وقال عليه السلام: «إن الله يبغض القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»^(٨).
- ٩ - وسئل عن خيار العباد؟ فقال عليه السلام: «الذين إذا أحسنوا استبشروا. وإذا أسأوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا عفوا»^(٩).

(١) انظر الكافي: ٢٤١/٢ - ٢٤٢، أمالي الصدوق: ٤٠٨، تحف العقول: ٤٤٢ واللفظ للأخير.

(٢) انظر الكافي: ١١/٤، تحف العقول: ٤٤٢ واللفظ للثاني.

(٣) الكافي: ٥٦٧/٥، تحف العقول: ٤٤٢.

(٤) تحف العقول: ٤٤٢، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٥/٧٥.

(٥) تحف العقول: ٤٤٢، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٥/٧٥.

(٦) انظر الكافي: ١١٣/٢، الخصال: ١٥٨، تحف العقول: ٤٤٢ واللفظ للأخير.

(٧) الكافي: ٦٤٣/٢، تحف العقول: ٤٤٣.

(٨) الكافي: ٣٠١/٥، تحف العقول: ٤٤٣.

(٩) تحف العقول: ٤٤٥، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٨/٧٥، وفي الكافي: ٢٤٠/٢، وأسنده عن الباقر عليه السلام.

عن النبي صلى الله عليه وآله.

- ١٠ - وسئل عليه السلام عن حد التوكل ؟ فقال عليه السلام : «أن لا تخاف أحداً إلا الله» ^(١) .
- ١١ - وقال عليه السلام : «من السنة إطعام الطعام عند التزويج» ^(٢) .
- ١٢ - وقال عليه السلام : «الإيمان أربعة أركان : التوكل على الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله، قال العبد الصالح : ﴿وَأَفَوْضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ...﴾ * فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا» ^(٣) ^(٤) .
- ١٣ - وقال عليه السلام : «صل رحمك ولو بشربة من ماء . وأفضل ما تُوصل به الرحم كف الأذى عنها وقال في كتاب الله : ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾» ^(٥) ^(٦) .
- ١٤ - وقال عليه السلام : «إنَّ من علامات الفقه : الحلم والعلم، والصمت بابٌّ من أبواب الحكمة إنَّ الصمتَ يكسب المحبة، إنَّه دليلٌ على كلِّ خير» ^(٧) .
- ١٥ - وقال عليه السلام : «إنَّ الذي يطلبُ من فضل الله عزَّ وجلَّ ما يكفُّ به عياله أعظم أجراً من المجاهد في سبيل الله» ^(٨) .
- ١٦ - وقيل له : كيف أصبحت ؟ فقال عليه السلام : «أصبحت بأجل منقوص، وعمل محفوظ، والموتُ في رقابنا، والنارُ من ورائنا، ولا ندري ما يفعل بنا» ^(٩) .
- ونكتفي بهذه الجولة السريعة في رحاب تراثه الشرِّ الذي لا زال ينبوعاً قيّماً بالعلوم والمعارف الربّانية التي تأخذ المتفكِّه فيها الى منازل السعداء .

* * *

(١) أمالي الصدوق: ٣١١، تحف العقول: ٤٤٥، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٨/٧٥.

(٢) تحف العقول: ٤٤٥، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٨/٧٥.

(٣) سورة غافر ٤٠: ٤٤ - ٤٥، وأراد بالعبد الصالح: مؤمن آل فرعون.

(٤) قرب الإسناد: ٣٥٤، تحف العقول: ٤٤٥.

(٥) البقرة ٢: ٢٦٤.

(٦) تحف العقول: ٤٤٥، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٨/٧٥.

(٧) الكافي: ١١٣/٢، الخصال: ١٥٨، تحف العقول: ٤٤٥.

(٨) الكافي: ٨٨/٥، تحف العقول: ٤٤٥، واللفظ للأول.

(٩) تحف العقول: ٤٤٦، وعنه في بحار الأنوار: ٣٣٩/٧٥.

الإمام محمد بن عليّ

الجواد عليه السلام

الفصل الأول

يقع البحث في هذا الفصل في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: نشأة الإمام الجواد عليه السلام

الإمام محمد الجواد عليه السلام من الأسرة النبوية الشريفة، وهي أجل وأسمى الأسر التي عرفت البشرية، فهو ابن الإمام عليّ الرضا، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام السجاد، ابن الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ وابن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأما أمّه، فهي من أهل بيت مارية القبطية، نوبية، مريسية، اسمها سبيكة أو ريحانة أو درّة، وسماها الإمام الرضا عليه السلام خيزران^(١).

وصفها رسول الله ﷺ بأنها خيرة الإماء الطيبة، وقال الإمام العسكري عليه السلام: «خلقت طاهره مطهرة»^(٢)، وكانت أفضل نساء زمانها^(٣).

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٣٧٨، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٥٤.

(٢) الكافي للكليني ١: ٣٢٣، روضة الواعظين: ٢٦٦، بحار الأنوار ٥٠: ٢١.

(٣) عيون المعجزات: ١٢١، بحار الأنوار ٥٠: ١٥.

ولد الإمام الجواد عليه السلام في شهر رمضان من سنة خمس وتسعين ومائة، لسبع عشرة ليلة مضت من الشهر، وقيل: للنصف منه ليلة الجمعة، وكانت ولادته في المدينة^(١).

وغمرت الإمام الرضا عليه السلام موجة من الفرح والسرور بوليدته المبارك، وطفق يقول: «قد وُلد لي شبيه موسى بن عمران فالق البحار، وشبيه عيسى بن مريم، قدّست أمّ ولدته»^(٢).

وألقابه الكريمة تدلّ على معالم شخصيته العظيمة وسموّ ذاته، وأبرزها:

- ١ - الجواد، لُقّب به لكثرة ما أسداه من الخير والإحسان الى الناس.
- ٢ - التّقي، لُقّب به لأنّه اتقى الله وأتاب إليه واعتصم به، ولم يستجب لأيّ داع من دواعي الهوى.

وأما نقش خاتمه عليه السلام فهو يدلّ على شدّة انقطاعه الى الله سبحانه، فقد كان (العزّة لله)^(٣).

النقطة الثانية: انطباعات عن شخصية الإمام الجواد عليه السلام

إنّ مواهب الإمام التّقي محمّد بن علي الجواد عليه السلام قد ملكت عقول كل من عاصره وتطلّع الى شخصيته العملاقة واطلع على عظمة فكره وكمال علمه. وكل من كان يراه لم يقدر أن يخرج من عنده إلّا والإعجاب والخضوع يستولي عليه. وهنا نشير الى بعض ما وصلنا من معالم عظمته وسموّ شخصيته على لسان من عاصره، ومن كتب عنه وأرّخ له.

- ١ - والده الإمام الرضا عليه السلام: لقد وصف الإمام الرضا عليه السلام ابنه الجواد بما يلي:
- أ - قال عنه قبل ولادته للحسين بن بشار: «والله لا تمضي الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرّق به بين الحقّ والباطل»^(٤).

(١) تاج المواليد، الطبرسي (ضمن مجموعة نفيسة): ١٠١.

(٢) عيون المعجزات: ١٢١، مدينة المعاجز ٧: ٣٩٩.

(٣) دلائل الإمامة: ٣٩٧.

(٤) الكافي ١: ٣٢٠ / ح ٤ كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي جعفر عليه السلام، والإرشاد ٢: ٢٧٧.

وزاد في نص آخر : «حتى يولد ذكر من صُلبي يقوم مثل مقامي يحيي الحق ويمحي الباطل»^(١).

ب - وقال عنه بعد ولادته : «هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم بركة على شيعتنا منه»^(٢).

٢ - علي بن جعفر (عمّ أبيه) : «قال محمد بن الحسن بن عمّار : دخل أبو جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام مسجد الرسول صلى الله عليه وآله فوثب علي بن جعفر بلا حذاء ولا رداء، فقَبِلَ يديه وعظّمه . فقال له أبو جعفر : يا عمّ اجلس رحمك الله، فقال : يا سيّدي كيف أجلس وأنت قائم ؟ !

فلما رجع علي بن جعفر الى مجلسه جعل أصحابه يوبّخونه ويقولون : أنت عمّ أبيه وأنت تفعل به هذا الفعل ؟ !

فقال : اسكتوا إذا كان الله عزّ وجلّ - وقبض على لحيته - لم يؤهّل هذه الشبهة وأهّل هذا الفتى ووضعته حيث وضعه ، أنكر فضلّه ؟! نعوذ بالله ممّا تقولون ! بل أنا له عبد»^(٣).

٣ - قال الشيخ المفيد : وكان المأمون قد شغف بأبي جعفر عليه السلام لما رأى من فضله مع صغر سنّه وبلوغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان ، فزوّجه ابنته أمّ الفضل وحملها معه الى المدينة، وكان متوفراً على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدره^(٤).

وقال في وصف الإمام أبي جعفر عليه السلام حينما أراد تزويجه واعترض عليه العباسيون : «وأما أبو جعفر محمد بن علي قد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل مع صغر سنّه والأعجوبة فيه بذلك .. ثم قال لهم : ويحكم إني

(١) رجال الكشي : ٥٥٣ / ح ١٠٤٤.

(٢) الكافي ١ : ٣٢١ / ح ٩، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنصّ على أبي جعفر الثاني عليه السلام.

(٣) الكافي ١ : ٣٢٢ / ح ١٢، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنصّ على أبي جعفر الثاني عليه السلام.

(٤) الإرشاد للمفيد : ٢٨١ / ٢.

أعرف بهذا الفتى منكم ، وإنّ هذا من أهل بيت علمهم من الله ، ومواده وإلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال^(١) .

٤ - وعزّى أبو العيّن ابن الرضاء^{عليه السلام} عن أبيه^{عليه السلام} فقال له : «أنت تجلّ عن وصفنا ونحن نقلّ عن عظمتك ، وفي علم الله ما كفاك ، وفي ثواب الله ما عزّاك»^(٢) .

٥ - وقال عنه العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي المتوفّى سنة (٦٥٤ هـ) : «ومحمد، الإمام أبو جعفر الثاني كان على منهاج أبيه في العلم والتقوى والزهد والجود... وكان يلقّب بالمرتضى والقانع...»^(٣) .

٦ - وقال عنه الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي المتوفّى سنة (٦٥٢ هـ) : «وان كان صغير السن فهو كبير القدر رفيع الذكر ..

وقال أيضاً : مناقب أبي جعفر محمد الجواد ما اتسعت حلّبات مجالها ولا امتدّت أوقاف آجالها، بل قضت عليه الأقدار الإلهية بقلّة بقاءه في الدنيا بحكمها وسجالها فقلّ في الدنيا مقامه وعجلّ عليه فيها حمامه فلم تطل لياليه ولا امتدّت أيامه، غير أن الله خصّه بمنقبة أنوارها متألّقة في مطالع التعظيم وأخبارها مرتفعة في معارج التفضيل والتكريم.. ثم ذكر تلك المنقبة التي اعترف بعدها المأمون له بالفضل والسمو»^(٤) .

٧ - وأدلى علي بن عيسى الأربلي المتوفّى سنة (٦٩٣ هـ) في حقّه وشأنه^{عليه السلام} بكلمات أعرب فيها عن عمق إيمانه به وولائه له صلوات الله عليه، فقال :

«تأرّج المكارم من أعطافه ، ويقطر المجد من أطرافه ، وتُروى أخبار السماح عنه وعن أبنائه وأسلافه ، فطوبى لمن سعى في ولائه ، والويل لمن رغب في خلافه . إذا اقتُسمتْ غنائم المجد والمعالي والمفاخر كان له صفاياها ، وإذا امتُطيت غوارب السؤدد كان له أعلاها وأسمها .

(١) الإرشاد : ٢ / ٢٨٢ .

(٢) المناقب : ٤ : ٣٦٢ ، فصل في مكارم أخلاقه ، بحار الأنوار ٤٩ : ٣٢٥ / ح ٦ .

(٣) تذكرة الخواص : ٣٥٨ - ٣٥٩ فصل في ذكر محمّد الجواد^{عليه السلام} .

(٤) مطالب السؤل ٢ : ١٤٠ - ١٤٢ ملخصاً [مادة جود] .

يباري الغيث جوداً وعطيةً ، ويجاري الليث نجدةً وحميةً ، ويبدّ السير سيرةً رضيةً، مرضية سرية»^(١).

٨ - وقال عنه ابن الصبّاغ المالكي المتوفى سنة (٨٥٥ هـ) : «وهو الإمام التاسع.. عرف بأبي جعفر الثاني ، وإن كان صغير السن فهو كبير القدر رفيع الذكر القائم بالإمامة بعد علي بن موسى الرضا . . للنص عليه والإشارة له بها من أبيه كما أخبر بذلك جماعة من الثقات العدول»^(٢).

٩ - وقال الشيخ عبدالله بن محمد بن عامر الشبراوي الشافعي المتوفى سنة (١١٥٤ هـ) : التاسع من الأئمة محمد الجواد . . ثم ذكر نسب الإمام وولادته سنة (١٩٥ هـ) ثم قال : وكراماته رضي الله عنه كثيرة ومناقبه شهيرة ، ثم ذكر بعض مناقبه وختم حديثه بقوله : وهذا من بعض كراماته الجليلة ومناقبه الجميلة^(٣).

١٠ - وقال عنه يوسف بن إسماعيل النبهاني : «محمد الجواد بن علي الرضا أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأمة من ساداتنا أهل البيت ...»^(٤).

هذه بعض النصوص التي أدلى بها معاصرو الإمام الجواد عليه السلام ومن جاء بعدهم في القرون اللاحقة وهي تمثل إعجابهم بمواهب الإمام وشخصيته الفذة التي تحكي شخصية آبائه الكرام الذين حملوا مشاعل الهداية وأعلامها بعد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

النقطة الثالثة: مظاهر من شخصية الإمام الجواد عليه السلام

لا ريب في أن فضائل الأئمة الإثني عشر المعصومين عليهم السلام - والإمام الجواد منهم - كثيرة لا تحصى ، كيف وقد اختارهم الله تعالى للإمامة على علم، وهذا الاختيار

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمة ٣: ١٦٠.

(٢) الفصول المهمة : ٢٥١ .

(٣) الانحاف بحب الأشراف : ١٦٨ و ١٧٦.

(٤) جامع كرامات الأولياء ١: ١٥٣ المطلب الرابع.

يكشف عن اختصاصهم بكمالات ومناقب تفرّدوا بها وامتازوا عن سواهم، وبذلك جعلهم الله حججه على خلقه وأمناءه على وحيه.

ولكن لم يصل إلينا - للأسف الشديد - من تلك الفضائل والمآثر الخاصة بكل إمام إلا الشيء القليل والنزر اليسير، بسبب الظروف القاسية التي مرّ بها أهل البيت عليهم السلام واتباعهم المعنيون بنقل تراثنا الاسلامي المجيد.

إنّ الإرهاب الفكري والتصفية الجسدية التي مارستها السلطات الجائرة ضد أئمة أهل البيت عليهم السلام وضد أتباعهم وكل من كان يحاول ان يكشف عن شيء من سيرتهم العطرة، كان كافياً لضياغ هذا التراث العظيم والعطاء الكبير.

وسنورد في هذا الفصل اشارات الى بعض ما ورد في أحوال الإمام الجواد (عليه السلام)، ومناقبه، ومكارم أخلاقه.

أ - تكلمه في المهد

ذكر المؤرخون أن الإمام الجواد عليه السلام تشهّد الشهادتين لمّا وُلد، وأنّه حمد الله تعالى وصلى على الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الراشدين في يومه الثالث.

فعن حكيمة ابنة موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قالت: «لمّا حملت أم أبي جعفر الجواد عليه السلام به كتبتُ اليه [يعني: الى الإمام الرضا عليه السلام]: «جارتك سبيكة قد علقت. فكتب اليّ: أنّها علقت ساعة كذا، من يوم كذا، من شهر كذا، فإذا هي ولدت فالزميها سبعة أيام.

قالت: فلمّا ولدته، وسقط الى الأرض، قال: اشهد ان لا إله إلا الله، وان محمداً رسول الله. فلمّا كان اليوم الثالث، عطس، فقال: الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى الأئمة الراشدين»^(١).

(١) دلائل الإمامة للطبري: ٣٨٣ - ٣٨٤ / ح ٣٤١، مدينة المعاجز لهاشم البحراني ٧: ٢٥٩ - ٢٦٠ / ح ٢٣٠٩، الباب التاسع.

و أيضاً قالت : «لَمَّا حضرت ولادة الخيزران أم أبي جعفر عليه السلام دعاني الرضا عليه السلام، فقال : يا حكيمة احضري ولادتها ، وادخلي وإياها والقابلة بيتاً . ووضع لنا مصباحاً ، وأغلق الباب علينا ، فلَمَّا أخذها الطلق طفئ المصباح ، وبين يديها طست ، فاغتممت بطفء المصباح . فبينما نحن كذلك ، إذ بدر أبو جعفر عليه السلام في الطست ، وإذا عليه شيء رقيق كهيئة الثوب يسطع نوره حتى أضاء البيت ، فأبصرناه ، فأخذته فوضعت في حجري ، ونزعت عنه ذلك الغشاء ، فجاء الرضا عليه السلام وفتح الباب ، وقد فرغنا من أمره ، فأخذه ووضع في المهد ، وقال لي : يا حكيمة الزمي مهده .

قالت : فلَمَّا كان في اليوم الثالث رفع بصره الى السماء ثم نظر يمينه ويساره ، ثم قال : أشهد ان لا إله إلا الله ، واشهد ان محمداً رسول الله ، فقامت ذعرة فزعة ، فأتيت أبا الحسن عليه السلام فقلت له : لقد سمعت من هذا الصبي عجباً . فقال : وما ذاك ؟ فأخبرته الخبر ، فقال : يا حكيمة ، ما ترون من عجائبه أكثر» ^(١) .

ب - إتيانه الحكم صبياً

أصبح الإمام الجواد عليه السلام خليفة الله تعالى في خلقه وإماماً لهم وهو لم يزل حديث السن ، وذلك ما اقتضته مشيئة الله - جلّ جلاله - مثلما اقتضت ذلك مع عيسى وسليمان عليهما السلام . وقد أثارت حداثة سنه عليه السلام استغراب بعض الناس وتشكيكهم ، الأمر الذي دعا الإمام الجواد عليه السلام الى توضيح الأمر لهم . وهو ما نجده في الروايات الآتية :

١ - قال الراوي: قلت له (لأبي جعفر الثاني عليه السلام) : انهم يقولون في حداثة سنك ، فقال : «إنّ الله تعالى أوحى الى داود أن يستخلف سليمان وهو صبيّ يرعى الغنم ، فأنكر ذلك عبّاد بني إسرائيل وعلمائهم ، فأوحى الله الى داود عليه السلام أن خذ عصي

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٣٩٤ فصل في آياته ، مدينة المعاجز لهاشم البحراني ٧ : ٢٦٠ - ٢٦١ / ح ٢٣١٠ ، الباب التاسع .

المتكلمين وعصا سليمان واجعلها في بيت واختم عليها بخواتيم القوم، فإذا كان من الغد، فمن كانت عصاه قد أورقت وأثمرت فهو الخليفة، فأخبرهم داود عليه السلام فقالوا: قد رضينا وسلّمنا»^(١).

٢ - قال الراوي: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ فأخذت أنظر^(٢) إليه وجعلت أنظر الى رأسه ورجليه، لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فيينا أنا كذلك حتى قعد، فقال: «يا عليّ! إنّ الله احتجّ في الإمامة بمثل ما احتج به في النبوة، فقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحَكَمَ صَبِيًّا﴾^(٣) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾^(٤) ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٥) فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتاها وهو ابن الأربعين^(٦) سنة»^(٧).

٣ - قال الراوي لأبي جعفر عليه السلام: يا سيدي ان الناس ينكرون عليك حداثة سنك، فقال: «وما ينكرون من ذلك قول الله عز وجل، لقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٨) فوالله ما تبعه إلا علي عليه السلام وله تسع سنين وأنا ابن تسع سنين»^(٩).

ج - علمه

لابد للإمام من أن يكون واسع العلم والمعرفة، فهو أعلم أهل زمانه، وأدراهم بشؤون الشريعة وأحكام الدين مع الإحاطة بالنواحي السياسية والإدارية وغير ذلك

(١) الكافي ١: ٣٨٣ / ح ٣، باب حالات الأئمة عليهم السلام في السن، بحار الأنوار ١٤: ٨١ / ح ٢٥.

(٢) في المصدر [النظر].

(٣) مريم ١٩: ١٢.

(٤) سورة القصص ٢٨: ١٤.

(٥) سورة الأحقاف ٤٦: ١٥.

(٦) في المصدر [أربعين].

(٧) الكافي ١: ٣٨٤ / ح ٧، باب حالات الأئمة عليهم السلام في السن، الثاقب في المناقب: ٥١٣ / ح ٤٣٩، الباب ١٢، الفصل ٧.

(٨) سورة يوسف ١٢: ١٠٨.

(٩) الكافي ١: ٣٨٤ / ح ٨، باب حالات الأئمة عليهم السلام في السن.

مما يحتاج اليه الناس . وقد دلّ الإمام الجواد عليه السلام بنفسه على ذلك، إذ خاض - وهو في سنّه المبكر - في مختلف العلوم ، وسأله العلماء والفقهاء عن أعقد المسائل الشرعية والعلمية فأجاب عنها بكل احاطة ودقة ممّا أدّى الى انتشار مذهب أهل البيت عليه السلام وتزايد الاقبال عليه في ذلك العصر، وذهب كثير من العلماء الى القول بالإمامة^(١).

وقبل أن نشير الى شيء من علمه عليه السلام لابد أن نشير الى مصادر هذا العلم الرباني الذي امتاز به أهل البيت عليه السلام .

١ - روى المسعودي عن عبد الرحمن بن محمد عن كلثم بن عمران أنه قال : قلت للرضاء عليه السلام: أنت تحبّ الصبيان، فادع الله أن يرزقك ولداً . فقال : «إنما أرزق ولداً واحداً وهو يرثني . فلما ولد أبو جعفر كان طول ليلته يناغيه في مهده ، فلمّا طال ذلك على عدّة ليال، قلت: جُعِلت فداك قد ولد للناس أولاد قبل هذا فكل هذا تعودّه! فقال: وَيَحْك! ليس هذا عوذة إنما أغرّه بالعلم غراً»^(٢).

٢ - وقد لاحظنا فيما سبق ما ورد من نصوص تأريخيّة تشهد بتكلمه وهو في المهد الى جانب نصوص أخرى تشير الى أنه قد أُوتي الحكم صبياً^(٣).

٣ - وجاء أيضاً عن الإمام محمد الجواد أبي جعفر الثاني عليه السلام، انه قال: «قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إن الأوصياء محدثون يحدثهم روح القدس ولا يرونه»^(٤).

وروي أيضاً انه جيء بأبي جعفر الجواد عليه السلام إلى مسجد رسول الله ﷺ بعد استشهاد أبيه عليه السلام وهو طفل ، وجاء الى المنبر ورقى منه درجة ، ثم نطق فقال : «انا محمد بن علي الرضا ، انا الجواد ، انا العالم بأنساب الناس في الاصلاب ، أنا أعلم بسرائركم وظواهركم ، وما أنتم صائرون اليه ، علمٌ منحنا به من قبل خالق الخلق

(١) راجع حياة الإمام الجواد عليه السلام لباقر شريف القرشي: ٦٦ (فصل في صفات الإمام عليه السلام).

(٢) إثبات الوصية للمسعودي: ١٨٣ في إمامة أبي جعفر الثاني عليه السلام .

(٣) راجع فقرتي (أ) و (ب) من هذا الفصل .

(٤) بصائر الدرجات: ٤٧٣ / ح ٩، باب ١٥، مختصر بصائر الدرجات: ١، بحار الأنوار ٢٥: ٥٧ / ح ٢٤.

أجمعين ، وبعد فناء السماوات والأرضين ، ولو لا تظاهر أهل الباطل ، ودولة أهل الضلال ، ووثوب أهل الشك، لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرون»^(١).
ومن هنا ينبغي أن نعرض بإيجاز بعض ما أثر عنه من العلوم :

١ - التوحيد :

أثيرت في عصر الإمام الجواد عليه السلام كثير من الشكوك والأوهام حول قضايا التوحيد. وقد أثارها من لا حريجة له في الدين من الحاقدين على الإسلام لزعة العقيدة في نفوس المسلمين ، ولتشكيكهم في مبادئ دينهم العظيم ، وقد أجاب الإمام عليه السلام عن تلك الشبهات وفندها خير تفنيد ، وكان من بينها ما يلي :

١ - قال الراوي : «سألت أبا جعفر عن التوحيد فقلت : أتوهم شيئاً؟ فقال: نعم ، غير معقول ولا محدود ، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه ، لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام ، كيف تدركه الأوهام؟! وهو خلاف ما يُعقل وخلاف ما يُتصور في الأوهام ؟ إنما يُتوهم شيء غير معقول ولا محدود»^(٢).

٢ - تفسير القرآن الكريم وتأويله:

وردت عن الإمام الجواد عليه السلام نصوص كثيرة في تفسير وتأويل بعض آيات القرآن الكريم .

منها ما ورد عنه عليه السلام في تفسير الآيتين المباركتين : ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ... ﴾ الى قوله تعالى: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٣).

(١) مستدرک عوالم العلوم : ٢٣ / ١٥٩ .

(٢) الكافي ١ : ٨٢ / (ح ١١ باب إطلاق القول بأنه شيء)، التوحيد للصدوق : ١٠٦ / ح ٦، (باب أنه تبارك وتعالى شيء)، بحار الأنوار ٣ : ٢٦٦ / ح ٣٢.

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٠٦ - ١٠٧ .

إذ قال عليه السلام: ﴿ما ننسخ من آية﴾ بأن نرفع حكمها .
 ﴿أو ننسها﴾ بأن نرفع رسمها ونزيل عن القلوب حفظها ، وعن قلبك يا محمد
 كما قال الله تعالى : ﴿سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله...﴾^(١) أن ينسبك ، فرفع
 ذكره عن قلبك .

﴿نأت بخير منها﴾ يعني : بخير لكم .
 فهذه الثانية أعظم لثوابكم ، وأجل لصلاحكم من الآية الاولى المنسوخة ، أو مثلها
 من الصلاح لكم ، أي إننا لا ننسخ ولا نبذل إلا وغرضنا في ذلك مصالحكم .
 وفي مجال تأويله لقوله تعالى : ﴿أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء
 قدير﴾^(٢) .

فقد جاء عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني أنه قال : «قلت لمحمد بن علي بن
 موسى عليه السلام : اني لأرجو ان تكون القائم من أهل بيت محمد عليه السلام الذي يملأ الأرض
 قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً .

فقال عليه السلام : يا أبا القاسم : ما منّا إلا وهو قائم بأمر الله عزّ وجلّ ، وهاد الى دين
 الله ، ولكن القائم الذي يطهر الله عزّ وجلّ به الأرض من أهل الكفر والجحود ،
 ويملاها عدلاً وقسطاً هو الذي تخفى على الناس ولادته ، ويغيب عنهم شخصه ،
 ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيته ، وهو الذي تطوى له
 الأرض ، ويذلّ له كل صعب [و] يجتمع إليه من أصحابه عدّة أهل بدر ثلاثمائة
 وثلاثة عشر رجلاً ، من أقاصي الأرض ، وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿أَيَّنَ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) .

فاذا اجتمعت له هذه العدّة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره ، فإذا كمل له
 العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج بإذن الله عزّ وجلّ ، فلا يزال يقتل أعداء الله حتى

(١) سورة الأعلى ٨٧ : ٦ - ٧ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ١٤٨ .

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٤٨ .

يرضى الله عز وجلّ. قال عبد العظيم : فقلت له : يا سيدي وكيف يعلم أن الله عز وجلّ قد رضي ؟
قال : يلقي في قلبه الرحمة ، فإذا دخل المدينة أخرج اللات والعزى فأحرقهما»^(١).

د - معجزاته وكراماته عليه السلام

مع أنّ الإمام الجواد عليه السلام كان معجزة بذاته ، إذ تصدى لإمامة المسلمين وهو صبي لم يبلغ السابعة من عمره ، فإنّ الله جلّ جلاله أجرى على يديه كرامات أخرى في مناسبات عديدة لكي يتم بها الحجة على العباد ويقطع بها ألسنة المعاندين وتطمئن بسببها قلوب الموالين .
وإليك بعض مصاديقها:

١ - قال أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري : «دخلت على أبي جعفر الثاني عليه السلام ومعني ثلاث رقايع غير معنونة واشتبهت عليّ فاغتممت لذلك ، فتناول إحداهنّ وقال: هذه رقعة ريان بن شبيب، ثم تناول الثانية فقال: هذه رقعة محمد بن حمزة، وتناول الثالثة ، وقال : هذه رقعة فلان فبهت ، فنظر اليّ وتبسّم عليه .
قال : وأعطاني أبو جعفر ثلاثمائة دينار في صرّة وأمرني ان أحملها الى بعض بني عمّه ، وقال : أما انه سيقول لك دلّني على حريف يشتري لي بها متاعاً فدله عليه .
قال : فأتيته بالدنانير فقال لي : «يا أبا هاشم دلّني على حريف يشتري لي بها متاعاً» . ففعلت .

قال أبو هاشم : وكلمني جمّال ان أكلّمه ليدخله في بعض اموره ، فدخلت عليه لأكلّمه فوجدته يأكل مع جماعة، فلم يمكنني كلامه ، فقال : يا أبا هاشم كل، ووضع بين يديّ، ثم قال - ابتداءً منه من غير مسألة - : يا غلام انظر الجمّال الذي أتانا به أبو هاشم فضمّه إليك »^(٢).

(١) كمال الدين وتمام النعمة، للصدوق القمي : ٣٧٧ - ٣٧٨ / ح ٢، باب ٣٦، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٨١ - ٤٨٢ / ح ٣٤٢.

(٢) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩٣ - ٢٩٤، إعلام الوري بأعلام الهدى ٢: ٩٨، الخرائج والجرائح ٢: ٢٦٤ - ٢٦٥ / ح ١ .

٢ - قال الراوي : «مضى أبو الحسن الرضا عليه السلام ولي عليه أربعة آلاف درهم ، لم يكن يعرفها غيري وغيره ، فأرسل إليّ أبو جعفر عليه السلام : «إذا كان في غد فائتني . فأتيته من الغد ، فقال لي : مضى أبو الحسن ولك عليه أربعة آلاف درهم ؟. فقلت: نعم . فرفع المصلّي الذي كان تحته ، فإذا تحته دنانير فدفعها إليّ ، وكان قيمتها في الوقت أربعة آلاف درهم»^(١) .

٣ - قال الراوي : «كنت بالمدينة ، وكنت اختلف الى أبي جعفر عليه السلام وأبو الحسن عليه السلام بخراسان ، وكان أهل بيته وعمومة أبيه يأتونه ويسلمون عليه ، فدعا يوماً الجارية ، فقال : قولي لهم : يتهيأون للمأتم . فلما تفرّقوا قالوا: ألا سألناه مأتم من ؟ فلما كان من الغد فعل مثل ذلك ، فقالوا : مأتم من ؟ قال : مأتم خير من على ظهرها . فأتانا خبر أبي الحسن [الرضا] عليه السلام بعد ذلك بأيّام ، فاذا هو قد مات في ذلك اليوم»^(٢) .

٤ - قال الراوي : كتب إليّ أبو جعفر عليه السلام : « إحملوا إليّ الخمس ، فإنني لست آخذ منكم سوى عامي هذا »^(٣) . فقبض عليه السلام في تلك السنة .

* * *

(١) الكافي ١: ٤٩٧ / ح ١١ (باب موالد الباب عليه السلام)، الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩٢، روضة الواعظين: ٢٤٣، بحار الأنوار ٥٠: ٥٤ / ح ٣٢.

(٢) إعلام الوري بأعلام الهدى ٢: ١٠٠، المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٣٨٩ (فصل في معجزاته عليه السلام)، بحار الأنوار ٥٠: ٦٣ / ح ٤٢.

(٣) المصدر السابق.

الفصل الثاني

الإمام الجواد في ظل أبيه عليه السلام

قامت الدولة العباسية - في بداية أمرها - على الدعوة الى العلويين خاصة، ثم لأهل البيت عليه السلام، ثم الى الرضا من آل محمد عليه السلام، وكان سرّ نجاحها في ربطها بأهل البيت عليه السلام، حيث تحكّم العباسيون وتسلّطوا على الأمة بدعوى القربى النسبية من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله .

ومن هنا فإنّ من الطبيعي ، أن يكون الخطر الحقيقي الذي يتهدد العباسيين وخلافتهم ، هو من جهة أبناء عمّهم العلويين ، الذين كانوا أقوى منهم حجة وأقرب الى النبي صلى الله عليه وآله منهم نسباً وشيعة.

فادّعاء العلويين الخلافة له مبرراته الكاملة ، ولا سيما وان من بينهم من له الجدارة والاهلية ، ويتمتع بأفضل الصفات والمؤهلات لهذا المنصب من العلم والعقل والحكمة وبعد النظر في الدين والسياسة ، علاوة على ما كان يكرهه الناس لهم من الاحترام والتقدير .

أضف الى ذلك كله ان رجالات الإسلام وأبطاله، كانوا هم آل أبي طالب - رضوان الله تعالى عليه - فأبو طالب مربى النبي صلى الله عليه وآله وكفيله ، وعلي عليه السلام وصيه وظهيره ، وكذلك الحسن والحسين وعلي زين العابدين وبقية الأئمة عليهم السلام .

وقد كان الخلفاء من بني العباس يدركون جيداً مقدار نفوذ العلويين ، ويتخوفون منه ، منذ أيامهم الاولى في السلطة . فمثلاً وضع السفاح من أوّل عهده الجواسيس على بني الحسن ، حيث قال لبعض ثقاته ، وقد خرج وفد بني الحسن من عنده : قم بانزالهم ولا تأل في الطافهم ، وكلما خلوت معهم فأظهر الميل اليهم ، والتحامل علينا وعلى ناحيتنا وانهم أحق بالأمر منّا ، واحص لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم^(١) .

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام : ٦٦ . العقد الفريد ٥ : ٧٥ .

أجل لقد أدرك العباسيون ان الخطر الحقيقي الذي يتهددهم إنما هو من قبل العلويين وعليه كان عليهم ان يتحركوا لمواجهة الخطر المحدق بهم بكل وسيلة ، وبأي اسلوب كان ، سيما وهم يشهدون عن كثب سرعة استجابة الناس للعلويين ، وتأيدهم ومساندتهم لكل دعوة من قبلهم .

سياسة العباسيين للرعية

لا نريد أن نتعرض لأنواع الظلمات التي كان العباسيون يمارسونها ، فإن ذلك مما لا يمكن الإلمام به ولا استقصاؤه في هذه العجالة . وإنما نريد فقط أن نعطي لمحة سريعة عن سيرتهم السيئة في الناس ، ومدى اضطهادهم وظلمهم لهم ، وجورهم عليهم ، الأمر الذي أسهم إسهاماً كبيراً في كشف حقيقتهم أمام الملأ ، حتى لقد قال أبو عطاء السندي المتوفى سنة (١٨٠ هـ) :

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار^(١)
إنّ المثل الأعلى للعدالة والمساواة الذي انتظره الناس من العباسيين ، قد أصبح وهماً من الأوهام ، فحراسة المنصور والرشيد وجشعهم ، وجور أولاد علي ابن عيسى وعبتهم بأموال المسلمين ، يذكّرنا بالحجاج وهشام ويوسف بن عمرو الثقفي ، ولقد عمّ الاستياء أفراد الشعب بعد ان استفتح أبو عبدالله المعروف بـ « السفاح » وكذلك « المنصور » ، بالإسراف في سفك الدماء ، على نحو لم يعرف من قبل^(٢) .
ويقول المؤرخون أيضاً عن أبي العباس السفاح أنّه كان سريعاً الى سفك الدماء ، فاتبعه عمّاله في ذلك ، في المشرق والمغرب ، واستنوا بسيرته ، مثل : محمد بن الاشعث بالمغرب ، وصالح بن علي بمصر ، وخازم بن خزيمة ، وحמיד ابن قحطبة ، وغيرهم...^(٣) .

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام : ١٠٨ .

(٢) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام : ١٠٨ - ١٠٩ ، ولكن كنية السفاح هي : « أبو العباس » لا أبو عبدالله ، وعبدالله هو اسمه .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٢٥٩ باختصار .

لقد كان أبو جعفر المنصور يعلق الناس من أرجلهم حتى يؤدّوا ما عليهم...^(١).
ووصفه آخرون بأنه كان غادراً خداعاً ، لا يتردد البتة في سفك الدماء... كان سادراً
في بطشه ، مستهتراً في فتكه ، وتُعتبر معاملته لأولاد عليّ من أسوأ صفحات التاريخ
العباسي^(٢).

وأما الهادي فقد كان يتناول المسكر ويحب اللهو والطرب وكان ذا ظلم
وجبروت . وكان سيئ الاخلاق ، قاسي القلب ، جباراً ، يتناول المسكر، ويلعب^(٣).
وأما الرشيد ، فيكفيه انه - كما ينص المؤرخون - يشبه المنصور في كل شيء
إلا في بذل المال حيث يقولون ان المنصور كان بخيلاً^(٤).

الحالة السياسية في هذه المرحلة

لا يمكن من الناحية التاريخية ان يفصل دور أي إمام من أئمة
أهل البيت عليهم السلام عن دور من سبقه من الأئمة او دور من يليه منهم ، بالنظر
الى تنوع الأدوار والأعمال والمهمّات التي ينهضون بها مع اتحاد الهدف
والغاية.

كما ان من العناصر المهمّة في فهم دور الإمام الجواد عليه السلام في تحريك الاوضاع
في الاتجاه الذي يخدم المصالح العليا للاسلام والمسلمين ، إلمامنا بالخطوط العامة
للموضع السياسي في مرحلتي تصديده للقيادة بعد شهادة أبيه الإمام الرضا عليه السلام وقبل
التصدي عندما كان في ظل أبيه عليه السلام.

وقد عاصر الإمام في هاتين المرحلتين خليفتين متميّزين بأسلوب الحكم وإن
اشتركا بغصبهما لمنصب القيادة الشرعية والكيد لها .

(١) المحاسن والمساوي : ٣٣٩ .

(٢) مختصر تاريخ العرب و التمدن الاسلامي : ١٨٤ .

(٣) تاريخ الخميس : ٢ / ٣٣١ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٢٨٥ ، تاريخ الخميس : ٣٣١ .

وكانت إمامة الجواد عليه السلام واقعة في ملك ولدي هارون الرشيد المأمون والمعتصم . وقبل تصديه للإمامة كان قد عاصر الأمين والمأمون معاً . إنَّ الفتنة بين محمد الأمين وعبدالله المأمون ولدي هارون الرشيد تعتبر أهمَّ حدث سياسي قد وقع في هذه الرحلة التي نتكلم على ملامحها ، وقد عبّر عنها بالفتنة الكبرى التي أدت إلى إشعال نار الحرب بينهما وكلفت المسلمين ثمناً باهضاً بذلوه من دماء وأموال وطاقات في سبيل استقرار الملك والسلطان لكل منهما . وللوقوف على أسباب هذه الفتنة لابد أن نقف على شخصية كل واحد من هذين الأخوين بالإضافة الى ما قام به الرشيد شخصياً لزور هذه الفتنة حيث عهد لابنائه الثلاثة : الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن ^(١) وبذلك قد مهد لهم سبيل التنافس على الملك مع ما منحهم من امكانيات وقدرات مادية يتنافسون بسببها ويأمل كل منهم حذف من سواه، وسوق منصب الخلافة لأبنائه دون إخوته .

محمد الأمين: نزعاته وسياسته

لم تكن في الأمين أية صفة كريمة يستحق بها هذا المنصب الخطير في الإسلام، فقد أجمع المترجمون له على أنه لم يتصف بأية نزعة شريفة ، وإنما قلّده الرشيد منصب الخلافة نظراً لتأثير زوجته السيدة زبيدة عليه، وفيما يلي بعض صفاته :

١ - كراهيته للعلم : كان الأمين ينفر من العلم ، ويحتقر العلماء ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ^(٢) وإذا كان بهذه الصفة كيف قلّده الرشيد الخلافة الاسلامية؟

٢ - ضعف الرأي : وكان الأمين ضعيف الرأي ، وقد أعطي الملك العريض ولم يحسن سياسته ، وقد وصفه المسعودي بقوله : كان قبيح السيرة ضعيف الرأي يركب هواه ، ويهمل أمره ، ويتكل في جليلات الخطوب على غيره ، ويشق بمن لا ينصحه ^(٣) . تقلّد الأمين الخلافة يوم توفي الرشيد ، وقد ورد عليه خاتم الخلافة والبردة والقضيب التي يتسلّمها كل من يتقلّد الخلافة من ملوك العباسيين، وحينما

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ٣: ٣٥٣ - ٣٥٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٩٠.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئزي : ١ / ١٦ .

(٣) التنبيه والاشراف : ٣١٨ .

استقرت له الأمور خلع أخاه المأمون ، وجعل العهد لولده موسى وهو طفل صغير في المهد وسمّاه الناطق بالحق ، وأرسل إلى الكعبة من جاءه بكتاب العهد الذي علّقه فيها الرشيد ، وقد جعل فيه ولاية العهد للمأمون بعد الأمين ، وحينما أتى به مزقه^(١) .

الحروب الطاحنة

وبعد ما خلع الأمين أخاه المأمون عن ولاية العهد ، وأبلغه ذلك رسمياً، ندب إلى حربه علي بن عيسى ، ودفع إليه قيداً من ذهب، وقال له : أوثق المأمون، ولا تقتله حتى تقدم به إليّ وأعطاه مليوني دينار سوى الأثاث والكراع، ولمّا علم المأمون ذلك سمّى نفسه أمير المؤمنين، وقطع عنه الخراج ، وألغى اسمه من الطراز والدراهم والدنانير ، وأعلن الخروج عن طاعته ، وندب طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين إلى حربه، والتقى الجيشان بالري ، وقد إلتحما في معركة رهيبة جرت فيها أنهار من الدماء وأخيراً انتصر جيش المأمون على جيش الأمين، وأيقن المأمون بالنصر فبعث إلى طاهر القائد العام في جيشه بالهدايا والأموال^(٢) . وأمره بالتوجه إلى احتلال العراق والقضاء على أخيه الأمين . وكان الأمين في تلك المحنة مشغولاً بلهوه، فهجمت عليه طلائع جيش المأمون فأجهزت عليه ، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على رمح وتلا قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾^{(٣)(٤)} .

(١) سمط النجوم ٣: ٤٢٨.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٠٢ - ٤٠٣ (ذكر خلافة الأمين)، تاريخ الطبري ٣: ٣ - ٧ (حوادث سنة ١٩٥)، الكامل في التاريخ ٥: ١٤٣ - ١٤٥ (حوادث سنة ١٩٥) وفيهما إن القيد من فضة بدل من ذهب، مع إختصار وتفاوت باللفظ.

(٣) سورة آل عمران ٣: ٢٦.

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٢٤ (خلافة الأمين)، حياة الإمام الجواد عليه السلام للقرشي: ١٩٧ نقلاً عن عيون التواريخ ٣: ٢١١.

لقد عاش الإمام أبو جعفر محمد الجواد عليه السلام معظم حياته في عهد المأمون، ولم يلبث بعده إلا قليلاً حتى وافاه الأجل المحتوم. فلا بد لنا من وقفة قصيرة لدراسة حياة المأمون، والوقوف على اتجاهاته الفكرية والعقائدية، والنظر فيما صدر عنه من تكريم للإمام عليه السلام فإن ذلك مما يرتبط ارتباطاً موضوعياً بالبحث عن حياة الإمام أبي جعفر عليه السلام ^(١).

عبدالله المأمون: نزعاته وسياسته

من أبرز نزعات المأمون وصفاته:

١ - الدهاء

لم يعرف العصر العباسي من هو أذكى من المأمون، ولا من هو أدري منه بالشؤون السياسية العامة فقد كان سياسياً من الطراز الأول ^(٢). حتى استطاع بحدة ذكائه، وقدراته السياسية أن يتغلب على كثير من الأحداث الرهيبة التي ألمت به، وكادت تطوي حياته، وتقضي على سلطانه، فقد استطاع أن يقضي على أخيه الأمين الذي كان يتمتع بتأييد مكثف من قبل الأسرة العباسية، والسلطات العسكرية، كما استطاع أن يقضي على أعظم حركة عسكرية مضادة له، تلك ثورة أبي السرايا التي اتسع نطاقها فشملت الأقاليم الإسلامية حتى سقط بعضها بأيدي الثوار، وكان شعار تلك الثورة الدعوة إلى الرضى من آل محمد عليهم السلام فحمل الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان، وكان عليه السلام زعيم الأسرة العلوية وعميدها، فأرغمه على قبول ولاية العهد، وعهد إلى جميع أجهزة حكومته بإذاعة فضائله ومآثره، كما ضرب السكة باسمه، فأوهم بذلك الثوار والقوى الشعبية المؤيدة لهم أنه جاد فيما فعله، حتى أيقنوا أنه لا حاجة إلى الثورة وإراقة الدماء بعد أن حصل الإمام عليه السلام على ولاية العهد، وقضى بذلك على الثورة، وطوى معالمها ^(٣).

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٠٦-٣٠٧ والنص لباقر شريف القرشي في حياة الإمام الجواد عليه السلام: ٢٢١.

(٢) راجع سمط النجوم ٣: ٤٣٨.

(٣) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٥٩ - ٢٦٠.

وهذا التخطيط كان من أروع المخططات السياسية التي عرفها العالم في جميع مراحل التاريخ^(١).

٢ - القسوة

وانعدام الرحمة والرأفة من آفاق نفسه هي صفة أخرى له ، والذي يدعم ذلك هو قتله لأخيه حينما استولت عليه قواته العسكرية ، ولو كان يملك شيئاً من الرحمة لما قتل أخاه .
كما أنه قابل العلويين بعد قتله للإمام الرضا عليه السلام بمنتهى الشدة والقسوة ، فعهد إلى جلاّديه بقتلهم والتنكيل بهم أينما وجدوا .

٣ - الغدر

فقد بايع للإمام الرضا عليه السلام . بولاية العهد ، وبعد ما تحققت مآربه السياسية دسّ إليه السمّ فقتله ليتخلص منه .

وروي عن أبي الصلت الهروي بهذا الشأن:

«أنّ المأمون قال للرضا علي بن موسى عليه السلام يا ابن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك وأراك احقّ بالخلافة منّي، فقال الرضا عليه السلام: بالعبودية لله عزّ وجل افتخر وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شرّ الدنيا ، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم ، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله عزّ وجلّ.

فقال له المأمون : فإنني قد رأيت ان اعزل نفسي عن الخلافة ، وأجعلها لك وابايحك ، فقال له الرضا عليه السلام: إن كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز ان تخلع لباساً ألبسكه الله وتجعله لغيرك ، وان كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك

(١) النصّ لباقر شريف القرشي في حياة الإمام الجواد عليه السلام: ٢٢١ - ٢٢٢.

ان تجعل لي ما ليس لك. فقال المأمون: يا ابن رسول الله لا بد لك من قبول هذا الأمر، فقال: «لست أفعل ذلك طائعاً أبداً». فما زال يجهد به أياماً حتى يئس من قبوله، فقال له: فان لم تقبل الخلافة ولم تحب مبايعتي لك فكن وليّ عهدي لتكون لك الخلافة بعدي. فقال الرضا عليه السلام: والله لقد حدثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله أني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسهم، مظلوماً تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد. فبكى المأمون ثم قال له: يا ابن رسول الله ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي؟ فقال الرضا عليه السلام: أما اني لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت.

فقال المأمون: يا ابن رسول الله إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس إنك زاهد في الدنيا. فقال الرضا عليه السلام: والله ما كذبت منذ خلقتني ربّي عزّ وجلّ وما زهدت في الدنيا للدنيا وإني لأعلم ما تريد.

فقال المأمون: وما أريد؟ قال: الأمان على الصدق؟ قال: لك الأمان. قال: تريد بذلك أن يقول الناس: إنّ علي بن موسى لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟

فغضب المأمون ثم قال: إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك. فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله عزّ وجلّ أن ألقى بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا، فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أيّ لا أؤيّ أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً.

فرضي منه بذلك وجعله وليّ عهد على كراهة منه عليه السلام لذلك^(١).

(١) علل الشرائع ١: ٢٣٧ - ٢٣٨، باب ١٧٣، بحار الأنوار ١٢٨ - ١٢٩ / ح ٣.

وقد كان المأمون حذراً من الإمام الرضا عليه السلام يتحين الفرص لاغتياله ، وقد فعل ذلك في أول فرصة مناسبة فأوعز لعملائه باغتياله ، وذلك بعد نحو عامين من ولاية العهد . ففي أول شهر رمضان سنة إحدى ومائتين كانت البيعة للرضا صلوات الله عليه ^(١) وقبض الرضا عليه السلام بطوس من أرض خراسان في صفر سنة ثلاث ومائتين وله يومئذ خمس وخمسون سنة... ^(٢) .

وقد روى أبو الصلت الهروي أن الإمام الرضا عليه السلام قال له: «يا أبا الصلت غداً أدخل على هذا الفاجر ، فإن خرجت [وأنا] مكشوف الرأس ، فتكلم أكلمك ، وإن خرجت وأنا مغطى الرأس فلا تكلمني .
قال أبو الصلت: فلما أصبحنا من الغد لبس ثيابه ، وجلس في محرابه ينتظر ، فبينما هو كذلك ، إذ دخل عليه غلام المأمون ، فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فلبس نعله ورداءه ، وقام يمشي وأنا أتبعه ، حتى دخل على المأمون ، وبين يديه طبق عليه عنب ، وأطباق فاكهة ، ويده عنقود عنب قد أكل بعضه ، وبقي بعضه .
فلما أبصر بالرضا عليه السلام وثب إليه فعانقه وقبل ما بين عينيه وأجلسه معه ثم ناوله العنقود ، وقال : يا ابن رسول الله ما رأيت عنباً أحسن من هذا !
قال له الرضا عليه السلام : ربما كان عنباً حسناً يكون من الجنة . فقال له : كل منه فقال له الرضا عليه السلام : تعفيني منه . فقال : لا بدّ من ذلك ، وما يمنعك منه لعلك تتهمنا بشيء . فتناول العنقود فأكل منه ، ثم ناوله فأكل منه الرضا عليه السلام ثلاث حبات ، ثم رمى به وقام .

فقال المأمون : إلى أين ؟ قال : إلى حيث وجهتني ، وخرج عليه السلام مغطى الرأس فلم أكلمه حتى دخل الدار ، فأمر أن يغلق الباب ، فغلق ثم نام عليه السلام على فراشه ، ومكث واقفاً في صحن الدار مهموماً محزوناً .

(١) تاريخ الطبري ٧: ١٣٩ (أحداث سنة ٢٠١)، الكامل في التاريخ ٥: ١٨٣ (أحداث سنة ٢٠١)، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٠٧ (خلافة المأمون).

(٢) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٤٧، تاريخ الطبري ٧: ١٥٠ (أحداث سنة ٢٠٣)، الكامل في التاريخ ٥: ١٩٣ (أحداث سنة ٢٠٣).

فبينما أنا كذلك ، إذ دخل عليّ شاب حسن الوجه ، قطط الشعر ، أشبه الناس بالرضا عليه السلام ، فبادرت إليه وقلت له : من أين دخلت والباب مغلق ؟ فقال : الذي جاء بي من المدينة في هذا الوقت هو الذي أدخلني الدار والباب مغلق. فقلت له : ومن أنت ؟ فقال لي : أنا حجة الله عليك يا أبا الصلت ، أنا محمد بن عليّ .

* * *

الفصل الثالث

الإمام الجواد عليه السلام وحكام عصره

١ - المأمون العباسي

استمرّ المأمون على منهجه السابق في التظاهر بالإحسان لأهل البيت عليهم السلام وقد تظاهر بإكرام الإمام الجواد عليه السلام فزوجه ابنته وحاول التقرب اليه كثيراً، لكنه في الوقت ذاته كان يكيّد للإمام من خلال تحجيم دوره وتشديد الرقابة عليه، على الرغم من تظاهره بالولاء لأهل البيت عليهم السلام والرعاية له بشكل خاص. وذلك لما عرفناه من موقف المأمون من أبيه الرضا عليه السلام فيما سبق من بحوث، وبه نفس كل ما صدر عن المأمون تجاه الإمام الجواد عليه السلام .

وستتطرق الى الثغرات الرئيسية في العلاقة بين الإمام عليه السلام والمأمون فيما بعد.

تزويج المأمون ابنته من الإمام الجواد عليه السلام:

قال المؤرخون : «لما أراد المأمون ان يزوج ابنته ام الفضل أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام بلغ ذلك العباسيين فغلظ عليهم واستنكروه، وخافوا ان ينتهي الأمر معه الى ما انتهى مع الرضا عليه السلام فخاضوا في ذلك واجتمع منهم أهل بيته الأذنون منه . فقالوا : نشدك الله يا أمير المؤمنين ان تقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإننا نخاف ان يخرج به عنا أمر قد ملكناه الله عزوجل ، وينزع منا عزاً قد ألبسناه الله ، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك ، من تبعيدهم والتصغير بهم ، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا عليه السلام ما عملت فكفانا الله المهم من ذلك ، فالله الله ان تردنا الى غمّ قد انحسر عنا ، واصرف رأيك عن ابن الرضا واعدل الى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال لهم المأمون : أما ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه ، ولو انصفتهم القوم لكانوا أولى بكم ، وأما ما كان يفعله من قبلي بهم ، فقد كان قاطعاً للرحم ، واعوذ بالله من ذلك ، والله ما ندمت على ما كان مني من استخلاف الرضاء عليه السلام ولقد سألته ان يقوم بالأمر وأنزعه من نفسي فأبى ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وأما أبو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل ، مع صغر سنه ، والاعجوبة فيه بذلك ، وأنا أرجو ان يظهر للناس ما قد عرفته منه ، فيعلمون [فيعلموا] أنّ الرأي ما رأيت فيه .

فقالوا له : ان هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنه صبي لا معرفة له ولا فقه ، فأمهله ليتأدب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم : ويحكم اني اعرف بهذا الفتى منكم وإن أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى ومواده وإلهامه ، ولم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حد الكمال ، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبين لكم به ما وصفت من حاله .

قالوا : قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه ، فخل بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة ، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره وظهر للخاصة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه ، وإن عجز عن ذلك فقد كفيينا الخطب في معناه .

فقال لهم المأمون : شأنكم وذلك متى أردتم .

فخرجوا من عنده واجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم ، وهو يومئذ قاضي الزمان على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها ، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك ، وعادوا الى المأمون وسألوه ان يختار لهم يوماً للاجتماع ، فأجابهم الى ذلك .

فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه وحضر معهم يحيى بن أكثم وأمر المأمون أن يُفرش لأبي جعفر دست^(١) ويجعل له فيه مسورتان، ففعل ذلك. وخرج أبو جعفر وهو يومئذ ابن تسع سنين وأشهر، فجلس بين المسورتين، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دست متصل بدست أبي جعفر عليه السلام.

فقال يحيى بن أكثم للمأمون: يأذن لي أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عن مسألة؟ فقال له المأمون: استأذنه في ذلك. فأقبل عليه يحيى بن أكثم، فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «سل إن شئت».

قال يحيى: ما تقول جعلت فداك في مُحرم قتل صيداً؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «قتله في حلٍّ أو في حرم؟ عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حرّاً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل أو مُعيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟ من صغار الصيد أم من كبارها؟ مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم في النهار؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟»

فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع ولجلج حتى عرف جماعة اهل المجلس أمره. فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي ثم نظر الى أهل بيته فقال لهم: اعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟ ثم اقبل على أبي جعفر عليه السلام فقال له: اتخطب يا أبا جعفر؟

فقال: «نعم يا أمير المؤمنين». فقال له المأمون: اخطب لنفسك جعلت فداك قد رضيتك لنفسي وأنا مزوجك أم الفضل ابنتي وإن رَغِمَ قومٌ ذلك^(٢).

(١) الدست هنا صدر البيت وهو معرب.

(٢) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٨١، إعلام الوری بأعلام الهدى ٢: ١٠١ - ١٠٥.

حقيقة العلاقة بين الإمام عليه السلام والمأمون

بعد استعراضنا لقضية زواج الإمام عليه السلام من بنت المأمون، نسجل الملاحظات الآتية لبيان الثغرة في علاقة المأمون العباسي بالإمام الجواد عليه السلام.

١ - كان المأمون يدرك جيداً أن الجواد عليه السلام هو الوارث الحقيقي لخط الإمامة وهو القائد الشرعي لأمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله، لذلك تعامل في تخطيطه السياسي معه تعاملًا جاداً بملاحظة أن الإمام عليه السلام كان قطباً مهماً من أقطاب الساحة السياسية الإسلامية وقائداً مطاعاً من قبل الطليعة الواعية في الأمة مع ما يمتلكه من مكانة واحترام في نفوس قطاعات واسعة من الأمة .

وقد أعلن المأمون تصوره هذا أمام العباسيين عندما قالوا له :

يا امير المؤمنين أتزوج ابنتك وقرة عينك صبيّاً لم يتفقه في دين الله ؟ ولا يعرف حلاله من حرامه ؟ ولا فرضاً من سنة ؟ ولا بي جعفر عليه السلام اذ ذاك تسع سنين، فلو صبرت له حتى يتأدب ويقرأ القرآن ويعرف الحلال من الحرام .

فقال المأمون : «انه لأفقه منكم واعلم بالله ورسوله وسنته واحكامه ، وأقرأ لكتاب الله منكم وأعلم بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وظاهره وباطنه وخاصه وعامه وتنزيله وتأويله ، منكم». لذلك لابد أن يكون المأمون مع الإمام الجواد عليه السلام مخططاً له بعناية وحنكة . وهذا يفسر البعد الضخم الذي اكتسبه زواج الجواد عليه السلام من بنت المأمون ومدى اهتمام المأمون به من قبل القواد والحجّاب والخاصّة .

٢ - على أساس النقطة السابقة فقد تظاهر المأمون بحبه وتقديره للإمام الجواد عليه السلام طالباً بذلك :

أ - كسب الجماهير المسلمة الموالية لأهل البيت عليهم السلام بصفته من الموالين والمكرمين لآل الرسول ، وهو نظير ما يقوم به السياسيون المعاصرون من رفعهم للشعارات التي تطمح الأمة الى تحقيقها .

ب - التغطية على جريمة قتله للإمام الرضا عليه السلام، وذلك باظهار الحب والشفقة والاحترام لولده الجواد عليه السلام وبهذا التصرف استطاع المأمون ان يخدع الرأي العام .

٣ - كانت علاقة المأمون بالجواد عليه السلام كعلاقته السابقة بأبيه الإمام الرضا عليه السلام، تنطوي على اغراض سياسية، أي انه كان ظاهرها حسناً جميلاً وباطنها يتضمن النية الشريرة والمكر السيئ !!

لقد كاد المأمون للإمام الجواد عليه السلام، ولكنه لم يستطع تحقيق أغراضه في الانتقاص منه واسقاطه، فكانت آخر محاولة له مع الجواد هي تزويجه لبنته، على أن هذا الزواج كان تحديداً للإمام وليس إكراماً له، كما أنه قد كشف عن واقعه مآله وعاقبته التي تجلت في اغتيال أم الفضل للإمام الجواد عليه السلام، كما سيأتي تفصيله.

أمّا توجهات قاضي القضاة ابن اكثم في التصدي لإخراج الإمام بالأسئلة الصعبة فما كانت إلا بدافع من المأمون، والرواية الآتية تدل على ذلك :

قال المأمون ليحيى بن اكثم : اطرح على أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام مسألة تقطعه فيها . فقال : يا أبا جعفر ، ما تقول في رجل نكح امرأة على زنا ايحل ان يتزوجها ؟ فقال عليه السلام : « يدعها حتى يستبرئها من نطفته ونطفة غيره ، اذ لا يؤمن منها ان تكون قد احدثت مع غيره حدثاً كما احدثت معه . ثم يتزوج بها إن اراد ، فانما مثلها مثل نخلة اكل رجل منها حراماً ثم اشتراها فأكل منها حلالاً » . فانقطع يحيى ^(١) .

ولكن دهاء المأمون وحنكته السياسية جعلاه يظهر الفرح عندما يجيب الإمام الجواد عليه السلام على المشكلات من المسائل فتظهر توجهات ابن اكثم وكأنها توجهات فردية . وهذا لون من ألوان السياسة المتبعة حتى الآن وهي ان القائد يُظهر الودّ لجهة ما ، لكنه يأمر اتباعه وأذنا به بمحاربة تلك الجهة .

وإذا انطلت هذه الأحاييل على البسطاء فإنها لم تنطل على الموالين للإمام عليه السلام ففي رواية نقلها الكليني أن بعض الاوساط السياسية آنذاك كانت غير منخدعة

(١) تحف العقول: ٤٥٤ (ما روي عن الإمام الجواد عليه السلام)، الوسائل ٢٢: ٢٦٥ - ٢٦٦، أبواب العدد، ب ٤٤، ح ٢.

بتزويج المأمون ابنته للإمام الجواد عليه السلام بل كانت تحتمل وجود مكيمة سياسية خلف العملية . فعن محمد بن علي الهاشمي قال :

«دخلت على أبي جعفر عليه السلام صبيحة عرسه حيث بنى بابنة المأمون - وكنت تناولت من الليل دواء - فأول من دخل عليه في صبيحته أنا وقد أصابني العطش وكرهت ان ادعو بالماء ، فنظر أبو جعفر عليه السلام في وجهي وقال : «اظنك عطشان ؟» فقلت : أجل .

فقال : «يا غلام - أو يا جارية - اسقنا ماءً» . فقلت في نفسي : الساعة يأتونه بماء يسمونه به ، فاغتممت لذلك ، فأقبل الغلام ومعه الماء ، فتبسم في وجهي ، ثم قال : «يا غلام ناولني الماء» ، فتناول الماء فشرب ، ثم ناولني فشربت ، ثم عطشت أيضاً وكرهت ان ادعو بالماء ، ففعل ما فعل في الأولى ، فلما جاء الغلام ومعه القدر قلت في نفسي مثل ما قلت في الاولى ، فتناول القدر ثم شرب ، فناولني وتبسم^(١) .

فلقد كان هذا الهاشمي يتوقع إغتيال الإمام عليه السلام في ظلّ العداء الذي يكنّه المأمون وجهازه الحاكم للإمام عليه السلام، لذلك اغتمّ عندما طلب الإمام عليه السلام الماء .

السبب في تزويج المأمون ابنته للإمام الجواد عليه السلام

إنّ هذا الزواج اضافة لما سيحققه من دعاية للمأمون تُظهر حبه وولاءه لأهل البيت عليهم السلام، فإنّ ثمة سبباً آخر نرجّحه على غيره ونراه السبب الأساسي وهو وضع الجاسوس والرقيب الخاص على الإمام عليه السلام يلازمه في بيته، يحصي عليه سكناته وحركاته ويرفعها الى الجهة التي زرعت، وهكذا كانت أمّ الفضل ابنة المأمون العباسي مع الإمام الجواد عليه السلام .

(١) الكافي ١: ٤٩٥ - ٤٩٦ / ح ٦، باب مولد أبي جعفر الثاني عليه السلام، روضة الواعظين للنيسابوري: ٢٤٣ (مجلس في ذكر إمامة أبي جعفر الثاني ومناقبه)، الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩١ - ٢٩٢ (مناقب الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٥٠: ٥٤،

موقف العباسيين

اتّسم موقف العباسيين بالحقّد والتعصب والسذاجة . فقد استأثروا مما تصوّروه من تساهل المأمون مع الإمام عليه السلام فقد كانت المظاهر تؤثر فيهم كثيراً ، دون ادراكهم البعد العميق والحقيقي الذي كان يقصده المأمون ، وقد استفاد المأمون من وضعهم هذا عندما راح يفتنّ مزاعمهم فيظهر كأنه موال حقيقةً لأهل البيت عليهم السلام.

موقف الإمام الجواد عليه السلام من ابن أكنم

لقد تصدى الإمام عليه السلام للرد على ابن أكنم وظهر عجزه أمام الناس للأسباب الآتية .

أ - اثبات إمامته وعلمه أمام الناس في وقت راحت الجهات المعادية تشن حملة إعلامية شديدة على الإمام بادعائها أنه عليه السلام لا يفقه من الدين شيئاً وذلك لصغر سنه .

ب - إنّ تفنيده وإفحامه لابن أكنم كان يعتبر تفنيدياً وإفحاماً للنظام الحاكم لأنّ ابن أكنم عالم المأمون وقاضي قضاياه .

ج - تثقيف الناس وكشف العلم الصحيح لهم من خلال الإجابات عن أسئلته .

مدة إمامة الجواد عليه السلام في عهد المأمون :

استلم الإمام الجواد عليه السلام منصب الإمامة ونهض بأعباء قيادة الأمة سنة (٢٠٣ هـ) بعد شهادة أبيه الإمام الرضا عليه السلام ^(١) ، وكان المأمون قد تسنّم منبر الخلافة وقتذاك . وتوفي المأمون سنة (٢١٨ هـ) بالبدندون من اقصى الروم ونقل إلى طوس فدفن فيها ^(٢).

وبذلك يكون الإمام الجواد عليه السلام قد قضى خمس عشرة سنة من إمامته التي استمرت سبع عشرة سنة في خلافة المأمون، وهذا يعني أنّ أغلب سنوات إمامته كانت في فترة حكم المأمون .

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٤٧ و ٢٧٣.

(٢) الكامل في التاريخ ٥: ٢٢٦ و ٢٢٧ (حوادث سنة ٢١٨)، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣١٣ (خلافة المأمون)، وفيها [طرسوس] بدل [طوس].

٢ - المعتصم العباسي

المعتصم هو أبو اسحاق محمد بن هارون الرشيد.

لقب بالمعتصم وهو أبعد ما يكون عن الاعتصام بالله عز وجل .

وكان فاسد الاخلاق له غلام يقال له عجيب وكان مشغوفاً به .

وقد استمر على نهج أخيه في إثارة فتنة خلق القرآن، فسلك ما كان المؤمن عليه وختم به عمره من إمتحان الناس بخلق القرآن ، فكتب الى البلاد وأمر المعلمين ان يعلّموا الصبيان ذلك وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء ، وضرب الإمام احمد بن حنبل وكان ضربه في سنة عشرين، قيل: فجلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيده وحبسه^(١).

لقد كان المعتصم محدود التفكير ميالاً للقسوة في تعامله مع خصومه السياسيين وغيرهم ، وكان يفتقد كثيراً من مقومات الحنكة السياسية في ادارة شؤون الدولة ، وقد تعرّض حكمه لكثير من صور الاضطرابات السياسية في اقاليم عديدة من الدولة العباسية^(٢).

وقد هيمن الجيش على الحكم في عصره بعد ان مال المعتصم الى اخواله الاتراك وكوّن منهم جيشاً خاصاً ، واغدى عليهم الاموال الطائلة مما أثار حفيظة العسكريين العرب ، وأثار النزعة القومية في المجتمع^(٣).

وتعتبر سياسة المعتصم هذه اخطر ما واجهته الدولة العباسية في مسيرتها ، وقد ساءت الاحوال بعد المعتصم ، واستشرى خطر العسكريين في الدولة وقاموا بالانقلابات العسكرية على الخلفاء الذين حاولوا تقليص سلطاتهم .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٣٥ (خلافة المعتصم).

(٢) الكامل لابن الأثير ٥ : ٢٣٢ - ٢٦٥ : ثورة الطالقان بقيادة محمد بن القاسم العلوي ، وثورة الزط في البصرة ، وثورة بابل الخرمي ، وتحرك الروم الى زبطرة وغيرها من بلاد الاسلام ، وثورة المبرقع في فلسطين وغيرها، وراجع سير أعلام النبلاء ١٠ : ٢٩٢ - ٣٠٢ (ترجمة المعتصم)، رقم ٧٣.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ٤ : ٥٧ - ٥٨ (خلافة المعتصم)، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٣٥ - ٣٣٦ (خلافة المعتصم).

المعتصم والطليعة الإسلامية الواعية

بسبب الخلاف العقائدي الشديد بين أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم المؤمنين من جهة والخلافة العباسية واتباعها من جهة أخرى ، استمر العداء بين الخطين وان اتخذ في كل فترة لوناً أو درجة من الشدة ، ولم يكن المعتصم منفصلاً عن سياسة أسلافه المعادين لأهل البيت عليهم السلام وحزبهم .

لقد كاد للإسلام وخطه الصحيح فواجه معارضة شديدة من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم .

ولم تكن المدة التي قضاها الإمام الجواد عليه السلام في خلافة المعتصم طويلة ، فهي لم تتجاوز السنتين ، كان ختامها شهادة الإمام عليه السلام على يد النظام المنحرف ، وفيما يلي استعراض للعلاقة بين الإمام الجواد عليه السلام والمعتصم .

أ - استقدام الإمام عليه السلام الى بغداد

لقد خشي المعتصم من بقاء الإمام الجواد عليه السلام بعيداً عنه في المدينة ، لذلك قرر استدعائه الى بغداد ، حتى يكون على مقربة منه يحصي عليه انفاسه ويراقب حركاته ، ولذلك جلبه من المدينة ، فورد بغداد لليلتين بقيتا من المحرم سنة عشرين ومائتين ، وتوفي بهاء عليه السلام في ذي القعدة من هذه السنة ^(١) .

لقد كان هذا الاستقدام بمثابة الاقامة الجبرية تتبعه عملية اكبر وهي التصفية الجسدية .

ب - اغتيال الإمام الجواد عليه السلام :

كان وجود الإمام الجواد عليه السلام يمثل خطراً على النظام الحاكم لما كان يملكه هذا الإمام من تأثير فاعل وقيادي للأمة ، لذلك قررت السلطة أن تتخلص منه .

وقد درس المعتصم أكثر السبل التي يستطيع بها ان يصفي الإمام ، فاعلية وأقلها ضرراً ، فلم يجد افضل من أم الفضل بنت أخيه المأمون للقيام بهذه المهمة فهي التي

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩٥ (باب وفاة أبي جعفر الثاني عليه السلام).

تستطيع ان تقتله بصورة اكيدة دون ان تثير ضجة في الأمة ، مستغلاً نقطتين في شخصيتها، هما :

١ - كونها تنتمي للخط الحاكم انتماءً حقيقياً ، فهي بنت المأمون وعمّها المعتصم ، وليست بالمستوى الايماني الذي يجعلها تنفك عن انتمائها النسبي هذا ، لذلك كانت تخضع لتأثيراته وتنفذ ما يريده ضد الإمام .

٢ - غيرتها وحقدّها على الإمام بسبب تسريه وتزوّجه من نساء أخريات خصوصاً وانها لم تلد للإمام وإنما رزق الإمام من غيرها ولده الهادي عليه السلام . ويقول المؤرخون إن أم الفضل ارتكبت جريمتها بحق الإمام الجواد عليه السلام عندما سقته السم .

فقد روي : « أنّ المعتصم جعل يعمل الحيلة في قتل أبي جعفر عليه السلام وأشار على ابنة المأمون زوجته بأن تسمّه لأنّه وقف على انحرافها عن أبي جعفر عليه السلام وشدة غيرتها عليه . . . فأجابته الى ذلك وجعلت سمّاً في عنب رازقي ووضعت بين يديه ، فلمّا أكل منه ندمت وجعلت تبكي فقال : « ما بكأؤك ؟ والله ليضربنك الله بفقر لا ينجر ، وبلاء لا ينستر » . فماتت بعلة في اغمض المواضع من جوارحها ، صارت ناصوراً فانفقت مالها وجميع ما ملكته على تلك العلة ، حتى احتاجت الى الإسترفاد »^(١) .

وأثر السمّ في الإمام تأثيراً شديداً حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ولسانه يلهج بذكر الله تعالى ، وقد انطفأت باستشهاده شعلة مشرقة من الإمامة والقيادة المعصومة في الاسلام .

لقد استشهد الإمام الجواد عليه السلام على يد طاغية زمانه المعتصم العباسي وقد انطوت بموته صفحة من صفحات الرسالة الاسلامية التي اضاءت الفكر ورفعت منار العلم والفضيلة في الأرض .

(١) عيون المعجزات: ١١٨ (وقت وفاة الجواد ودفنه)، بحار الأنوار ٥٠: ١٧ / ح ٢٧.

تجهيزه ودفنه

وجُهِزَ بدن الإمام عليه السلام فغسّل وأدرج في أكفانه ، وبادر الواثق والمعتصم فصليا عليه^{(١)(٢)} ، وحمل الجثمان العظيم الى مقابر قريش ، وقد احتفت به الجماهير الحاشدة ، فكان يوماً لم تشهد بغداد مثله ، فقد ازدحمت عشرات الآلاف في مواكب حزينة وهي تردد فضل الإمام وتندبه ، وتذكر الخسارة العظمى التي مني بها المسلمون بفقدهم للإمام الجواد عليه السلام ، وحفر للجثمان الطاهر قبر ملاصق لقبر جده العظيم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فواروه فيه وقد واروا معه القيم الانسانية ، وكل ما يعتز به الانسان من المثل الكريمة^(٣).

عمره وتاريخ استشهاده

أما عمر الإمام الجواد عليه السلام حين قضى نحبه مسموماً فكان خمساً وعشرين سنة^(٤) على ما هو المعروف، وهو أصغر الأئمة الطاهرين الاثني عشر عليه السلام سنّاً، وقد أمضى حياته في سبيل عزة الاسلام والمسلمين ودعوة الناس الى رحاب التوحيد والايان والتقوى .

(١) راجع تاريخ بغداد ٣: ٥٤ (ذكر من اسمه محمد)، رقم ٩٩٧، الكامل في التاريخ ٥: ٣٧ (أحداث سنة ٢٢٠)، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤: ١٧٥ (ترجمة الجواد عليه السلام) رقم ٥٦١، والجميع ذكروا إنّ الذي صلى عليه هو الواثق ولم يذكروا المعتصم.

(٢) إنّ الصلاة من قبل المعتصم والواثق على الإمام عليه السلام إنما هو للتعظيم الإعلامي على قتل الإمام عليه السلام والمعروف ان المعصوم عليه السلام يقوم بتجهيز المعصوم والصلاة عليه . فلا مانع من حضور الإمام الهادي عليه السلام عند تجهيز أبيه الجواد عليه السلام . راجع النص من الإمام الهادي على حضوره تغسيل وصلاة ودفن أبيه في مسند الإمام محمد الجواد عليه السلام : ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) حياة الإمام محمد الجواد عليه السلام لباقر شريف القرشي : ٢٦٣ والنص له.

(٤) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٧٣ (إمامة الجواد عليه السلام)، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ٢٣٧ (حوادث سنة ٢٢٠).

واستشهد الإمام الجواد عليه السلام سنة (٢٢٠ هـ) يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي القعدة^(١). وقيل: لخمس ليال بقين من ذي الحجة. وقيل: لست ليال خلون من ذي الحجة^(٢)، وقيل: في آخر ذي القعدة^(٣).

فسلام عليه يوم ولد ويوم تقلد الإمامة وجاهد في سبيل ربّه صابراً محتسباً ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

* * *

(١) مرآة الجنان للياضي ٢: ٨١ (حوادث سنة ٢٢٠).

(٢) تاريخ بغداد ٣: ٥٥ (ذكر من اسمه محمد) رقم ٩٩٧، ذكر القولين.

(٣) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٦٣ الفصل ٩ (ذكر الجواد) (عليه السلام).

الفصل الرابع

الإمام الجواد ومتطلبات الجماعة الصالحة

والكلام في هذا الفصل يقع في أربع نقاط:

النقطة الأولى: الإمام الجواد والبناء الثقافي للجماعة الصالحة

لقد توخى أئمة أهل البيت عليهم السلام تحقيق عزة الإسلام والمسلمين من خلال المواقف والتحركات الحكيمة التي تضمن الوصول الى الهدف المطلوب على أحسن وجه . وكان تحرك الإمام الجواد عليه السلام ينطلق من هذه الرؤية فكان ذلك التحرك واسعاً ومؤثراً رغم كل الظروف المعرقة التي أحاطت تحركه وفي هذا المجال نشير الى نماذج من تحرك الإمام عليه السلام في الميادين التي كان يتوخى منها إعداد الأمة وطلائعها إعداداً رسالياً . ومن هذه الميادين :

أ - تعميق البناء الفكري :

كان اهتمام الإمام الجواد عليه السلام ببناء الجانب العقائدي في شخصية الإنسان المسلم واضحاً للناظر في تراثه الذي ورثناه والذي يحتوي على مفردات أساسية تقوم بها العقيدة ومن ذلك :

الإمام والدعوة الى التوحيد الخالص

التوحيد أساس العقيدة الإسلامية ، وسلامة تصورات المسلم عن الله تعالى هي الركيزة الجوهرية التي تستند عليها باقي المفردات العقيدية ، من هنا كان الإمام عليه السلام يُعنى عناية شديدة بإيضاح هذا الأساس وتجليته ، وفي المحاضرة التي ألقاها على داود بن القاسم الجعفري دليل على ما قلناه .

فقد قال الجعفري : «قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) ، ما معنى :
الأحد ؟

قال : المجمع عليه بالوحدانية ، أما سمعته يقول : ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٢) ، ثم يقولون بعد ذلك : له
شريك وصاحبة .

فقلت : قوله : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ﴾^(٣) .

قال : يا أبا هاشم ! أوهام القلوب أدق من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك
السند والهند ، والبلدان التي لم تدخلها ، ولم تدرك ببصرك ذلك ، فأوهام القلوب لا
تدركه ، فكيف تدركه الأبصار ؟^(٤)

ب - تعميق البناء العلمي

ومن جملة المجالات التي تحرك فيها الإمام الجواد عليه السلام : إكماله لبناء الصرح
العلمي الذي أشاده الأئمة عليهم السلام من آباءه الكرام ، وفي سياق هذا النشاط نلاحظ
إجابته عن الاستفسارات العلمية والاستفتاءات الفقهية التي كانت تستجد للطائفة
الشيعية والأمة الإسلامية آنذاك .

والأهم من ذلك ملاحظة نشاطه في إكمال الأدوات والمنهج العلمي .

إكمال الأدوات والمنهج العلمي

تشكّل القواعد الأصولية جزءاً من المنهج العام لفهم الشريعة واستنباط
أحكامها . ونوجز منهجه عليه السلام فيما يلي :

(١) سورة الإخلاص ١١٢ : ١ .

(٢) العنكبوت ٢٩ : ٦١ .

(٣) الأنعام ٦ : ١٠٣ .

(٤) الاحتجاج للطبرسي ٢ : ٤٦٥ / ح ٣١٩ (احتجاجات الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٤ : ٣٩ / ح ١٧ قطعة منه .

١ - عدم جواز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر القرآن إلا بعد معرفة تفسيرها من الأئمة عليهم السلام .

فقد روي في الكافي عن الإمام الجواد عليه السلام أنه قد روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن رجلاً سأل أباه محمد الباقر عليه السلام عن مسائل ، فكان ممّا دار بينهما أن قال : « قل لهم : هل كان فيما أظهر رسول الله ﷺ من علم الله - عزّ ذكره - اختلاف ؟ فإن قالوا لا ، فقل لهم : فمن حكم بحكم الله فيه اختلاف ، فهل خالف رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم ، فإن قالوا : لا ؛ فقد نقضوا أوّل كلامهم ؛ فقل لهم : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ^(١) . فإن قالوا : من الراسخون في العلم ؟ فقل : من لا يختلف في علمه . فإن قالوا : فمن هو ذاك ؟ فقل : كان رسول الله ﷺ صاحب ذلك - إلى أن قال - : وإن كان رسول الله ﷺ لم يستخلف في علمه أحداً فقد ضيّع من في أصلاب الرجال ممّن يكون بعده ^(٢) . قال أيضاً : وما يكفيهم القرآن ؟ قال : بلى ، إن وجدوا له مفسراً .

قال : وما فسّره رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى قد فسّره لرجل واحد ، وفسّر للأمة شأن ذلك الرجل ، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام ^(٣) .

وقال عليه السلام أيضاً : « والمحكم ليس بشيئين إنّما هو شيء واحد ؛ فمن حكم بما ليس فيه اختلاف ، فحكمه من حكم الله عزّ وجلّ ؛ ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب ، فقد حكم بحكم الطاغوت » ^(٤) .

٢ - وجوب العمل بأحاديث الأئمة عليهم السلام المنقولة في الكتب المعتمدة .

فقد جاء في الكافي أيضاً عن محمد بن الحسن بن أبي خالد شينولة ، أنّه قال : « قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : جعلت فداك ، إنّ مشايخنا رووا عن أبي جعفر وأبي

(١) سورة آل عمران ٣ : ٧ .

(٢) الكافي ١ : ٢٤٥ / ح ١ (باب تفسير سورة القدر) .

(٣) الكافي ١ : ٢٥٠ / ح ٦ (باب تفسير سورة القدر) ، بحار الأنوار ٢٥ : ٧٢ / ح ٦٢ .

(٤) أصول الكافي : ٢٤٨ / ح ٣ (باب تفسير سورة القدر) ، بحار الأنوار ٢٥ : ٧٩ / ح ٦٦ .

عبد الله عليه السلام وكانت التقية شديدة ، فكتبوا كتبهم ، ولم ترو عنهم ، فلما ماتوا صارت الكتب إلينا .

فقال عليه السلام : « حدّثوا بها ، فإنّها حقّ » ^(١) .

٣ - عدم جواز الافتاء من دون علم

فقد مرّ أنه حينما توفي الإمام الرضا عليه السلام كان عمر أبي جعفر عليه السلام حينذاك سبع سنين ، فاختلفت كلمة الشيعة حوله ببغداد والأمصار ، فاجتمع وجهاء الشيعة وفقهاؤهم في الموسم ليشاهدوا أبا جعفر عليه السلام فوجدوا في دار جعفر الصادق عليه السلام عبد الله بن موسى قد جلس في صدر المجلس وكان يُسأل فيجيب بأجوبة دعتهم الى الحيرة فاضطربوا وهمّوا بالانصراف ، واذا بموفق الخادم يدخل عليهم مع أبي جعفر عليه السلام فقاموا إليه بأجمعهم واستقبلوه وسلّموا عليه ، ثم جلس وبدأوا بالسؤال فكان يجيب عن أسئلتهم بالحق . ففرحوا ودعوا له وأثنوا عليه وقالوا له : إن عمك عبد الله أفتى بكيك وكيك فقال عليه السلام : « لا إله إلا الله ! ياعم ! إنه عظيم عند الله أن تقف غداً بين يديه فيقول لك : لم تفتي عبادي بما لم تعلم وفي الأمة من هو أعلم منك ؟ ! » ^(٢) .

ج - تعميق البناء التربوي

من المفردات الأساسية التي اهتم بها الإمام الجواد عليه السلام : مسألة بناء الخلق الإسلامي عند الفرد والمجتمع .

وقد كان الإمام عليه السلام في سياق تربية الأمة ينقل لهم أحاديث أجداده خصوصاً أمير المؤمنين عليه السلام لما تحويه من توجيهات تربوية عميقة ومؤثرة ، وفي هذا المجال سنعتبر كلمات الإمام الجواد عليه السلام وما نقله عن أجداده الأئمة عليهم السلام وطرحه للأمة مادة لفهم توجهاته التربوية .

(١) أصول الكافي : ١ / ٥٣ ح ١٥ (باب رواية الكتب والحديث) .

(٢) عيون المعجزات : ١٠٩ (حديث اجتماع الفقهاء) ، بحار الأنوار : ٥٠ : ١٠٠ / ح ١٢ .

الحكمة في العمل

أراد الإمام الجواد عليه السلام أن يعلم شيعته ضرورة اعتماد الحكمة في العمل ومراعاة عامل الزمن في إتّصاح الأشياء، فللأمور دورات زمنية ينبغي أن تمرّ بها حتى تكتمل، وعدم الالتفات الى هذا الجانب يفسد العمل ويجهضه قبل استوائه .
قال عليه السلام: « إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له »^(١).

كما أنّ للمحن دورات لا يستطيع المرء أن يتخلص منها قبل انتهاء دورتها الزمنية وهذا الأمر أشبه شيء بالدورات المرضية التي لا يمكن تقليل مدتها، وهذا التوجه لا يعني عدم استعمال الوسيلة لإزالة المحن بل العمل مطلوب وهو يسهم بتقليل مدة المحنة وبالتالي إزالتها، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الجواد عليه السلام عندما نقل حديثاً عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام: « قال لقيس بن سعد ، وقد قدم عليه من مصر : ياقيس إنّ للمحن غايات لا بد أن ينتهي إليها ، فيجب على العاقل أن ينام لها الى إدبارها ، فإنّ مكايدها بالحيلة عند إقبالها زيادة فيها »^(٢).

كما أنّه عليه السلام نقل عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام العناصر المساعدة على اكتمال الأعمال فقال : « أربع خصال تعين المرء على العمل : الصحة والغنى والعلم والتوفيق »^(٣).

التعامل مع الظالمين

ركّز الإمام الجواد عليه السلام على ضرورة ابتعاد المسلم عن مجارة الظالمين والركون اليهم ، ودعا الى رفضهم والابتعاد عنهم .
فقد روى عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله :
« العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء »^(١).

(١) تحف العقول: ٤٥٧ (ما روي عن الإمام الجواد عليه السلام في قصار كلماته).

(٢) كشف الغمّة ٣: ١٣٦ (باب بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٧٩ / ح ٥٥ و ٥٧.

(٣) المصدر السابق.

وكذلك ما رواه عنه عليه السلام: « من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه »^(٢).

كما أنه عليه السلام شدّد على عدم طاعة المنحرفين والاستماع إليهم واعتبر ذلك كالطاعة والاستماع للشيطان . قال عليه السلام:

« من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس »^(٣).

وبلحاز الرفض الشديد للظالمين والتنديد بهم كان للإمام الجواد عليه السلام تفسير مهم لمعنى التدبّر يتضح من قوله عليه السلام:

« أوحى الله الى بعض الأنبياء : أما زهدك في الدنيا فتعجّلك الراحة ، وأما انقطاعك اليّ فيعزّزك بي ، ولكن هل عاديّة لي عدوّاً وواليّة لي ولياً »^(٤) فالدين حسب هذه الرواية ، يتحقّق بموالاتة أولياء الله ومعاداة أعداء الله ، وعدم مهادنتهم ومسالمتهم ولاذكاء هذه الروح عند الأمة كان ينقل حديث جده أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال لأبي ذر: « إنّنا غضبت لله عز وجل فارح من غضبت له ، أن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، والله لو كانت السماوات والأرضون رتقاً على عبد ، ثم اتقى الله لجعل الله له منها مخرجاً ، لا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل »^(٥).

وصايا للعاملين

كان الإمام الجواد عليه السلام يزرع روح الأمل والصبر في قلوب المؤمنين ليسلّحهم بالسلاح الفاعل عند مقارعتهم للظلم والطغيان وتحركهم ضده .

(١) كشف الغمّة ٣: ١٣٨ (باب بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٨١ / ح ٦٩.

(٢) كشف الغمّة ٣: ١٣٩ (باب بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٨٢ / ح ٧٩.

(٣) تحف العقول: ٤٥٦ (ماروي عن الجواد عليه السلام في قصار كلماته)، مستدرک الوسائل ١٧: ٣٠٨، أبواب صفات القاضي، باب ١٠، ح ٥.

(٤) تحف العقول: ٤٥٥ - ٤٥٦ (ما روي عن الجواد عليه السلام في قصار كلماته)، بحار الأنوار ٦٦: ٢٣٨ / ح ٧.

(٥) كشف الغمّة ٣: ١٣٦ (بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٧٨ / ح ٥٤.

لقد أشار الى يوم يعاقب فيه الظالم عندما ينتصر العدل فينتقم للمظلومين من جوره أشد الانتقام . إنّ حمل المستضعفين لهذا المفهوم ومعايشتهم إيّاه يصنع منهم قوة لا تلين وثورة لا تقاوم . روى الإمام الجواد عليه السلام: « يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم »^(١) .

ومن هنا يتّضح أنّ صبر المؤمن على البلاء من أعظم الأسلحة ضد الظالمين .

وقال عليه السلام: « الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت بها »^(٢) .

كما أنّه عليه السلام روى عن جده أمير المؤمنين عليه السلام المنهاج الذي ينبغي أن يلتزم به المؤمنون ليلبغوا غاياتهم السامية .

عنه عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « من وثق بالله أراه السرور ، ومن توكل عليه كفاه الأمور ، والثقة بالله حصن لا يتحصن فيه إلا مؤمن أمين ، والتوكل على الله نجاة من كل سوء وحرز من كل عدو ، والدين عزّ ، والعلم كنز ، والصمت نور ، وغاية الزهد الورع ، ولا هدم للدين مثل البدع ، ولا أفسد للرجال من الطمع ، وبالراعي تصلح الرعية ، وباللدعاء تصرف البليّة ، ومن ركب مركب الصبر اهتدى الى مضمار النصر ، ومن عاب عيب ، ومن شتم أجيب ، ومن غرس أشجار التقى إجتني ثمار المنى »^(٣) .

النقطة الثانية: إحكام تنظيم الجماعة الصالحة وإعدادها لدور الغيبة:

أ - نظام الوكلاء ودقة التحرك :

إنّ بناء الجماعة الصالحة وتنظيم شؤونها وتحرك الأئمة عليهم السلام من خلالها كان هدفاً أساسياً لأهل البيت عليهم السلام وقد قاموا بإشادة صرحه منذ عصر الإمام عليّ بن أبي

(١) كشف الغمّة ٣: ١٣٨ (بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٨١ / ح ٧٠.

(٢) كشف الغمّة ٣: ١٣٩ (بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٨١ / ح ٧٣.

(٣) كشف الغمّة ٣: ١٣٦ (بعض أخبار الجواد عليه السلام)، بحار الأنوار ٧٥: ٧٩ / ح ٥٦.

طالب عليه السلام واستمروا بإكمال البناء وتعميق الطرح وتوسيع دائرة العمل حتى عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وابنه الإمام المهدي عليه السلام.

لقد كانت رقابة السلطة الحاكمة لتحركات أهل البيت عليهم السلام تزيد في ضرورة إكمال الطرح والبناء . وكان لأصحاب الأئمة عليهم السلام وتلامذتهم وثقاتهم دور رسالي في تحقيق بعض أهداف الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وكان لاتّساع دائرة أفراد الجماعة الصالحة وتعدد مراكز النشاط والحضور في مختلف حواضر العالم الإسلامي أثر كبير في إيجاد وتوسيع دائرة نظام الوكلاء الذي كان قد أصبح ضرورة من ضرورات عمل الأئمة عليهم السلام ليساعدهم على سهولة وسرعة التحرك والارتباط .

كما كان لازدياد الضغط والرقابة عليهم لا سيما في عصر الإمام الرضا عليه السلام بعد قبوله ولاية العهد، ثم الإمام الجواد عليه السلام أثر بالغ في الاهتمام الكبير بنظام الوكلاء الذي كان يشرف عليه الإمام المعصوم مباشرة، إذا كان الارتباط بالوكلاء بحاجة الى دقة ومراقبة لحراجه الظرف المحيط بالإمام عليه السلام.

إنّ البحث عن دقة الإمام الجواد عليه السلام في التحرك بعد الاعتراف بأنه الإمام المعصوم والقائد الشرعي للأمة المسلمة الذي ورث العلم والخط الصحيح من آبائه الميامين المنتجبين عليهم السلام يكون بحثاً مفروغاً منه .

وإنّ دراسة حياة الإمام الجواد عليه السلام تكشف للدارس بشكل واضح وجلي مدى الدقة والتمتانة في التحرك عند الإمام عليه السلام، فكل مفردة مرتبطة بنظيرتها ومتجانسة مع ظرفها ومعبرة عن رأي الرسالة في ذلك الموضوع .

وعند الحديث عن أساليب العمل عند الإمام عليه السلام يرد هذا الكلام كذلك ، وسندكر لتوضيح هذه القضية نماذج لتبيان المقصد .

ب - المراسلات السريّة

لا شكّ في أنّ الاتصالات كانت جارية بين الإمام وأتباعه إلّا أنّ بعضها كان سريّاً وذلك خشية تفشّي أسماء مرسلها إلى الإمام خصوصاً وأنّ الإمام كان مرصوداً من الداخل عن طريق زوجته .

هذا إلى جانب أنّ نمطاً معيناً من الرسائل كان يصل الإمام دون ذكر أسماء مرسلها عليها ، ولكن الإمام عليه السلام كان يستطيع معرفة المرسلين لهذه الرسائل بطريقته الخاصة، ولا نستبعد أنّ ذلك كان يتم عن طريق وجود رمز معين في هذه الرسائل ، هذا إذا لم نحاول تفسير ذلك بعلم الإمام المعصوم بالغيّب ، باعتبار أنه : إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك ^(١).

قال أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري : « دخلت على أبي جعفر الثاني عليه السلام ومعني ثلاث رقاع غير معنونة واشتبهت عليّ فاغتممت لذلك ، فتناول إحداهن وقال : هذه رقعة ريان بن شبيب، ثم تناول الثانية فقال : هذه رقعة محمد بن حمزة، وتناول الثالثة وقال : هذه رقعة فلان، فبهتُ فنظر إليّ وتبسّم عليه السلام » ^(٢). وقد أحصيت مكاتبات الإمام الجواد عليه السلام - بحسب ما جاء في موسوعة الإمام الجواد عليه السلام - فبلغت اثنتين وسبعين مكاتبة ^(٣).

ج - الإحاطة بدقائق الأمور الاجتماعية

لم يكن الإمام عليه السلام بمنأى وبمعزل عن مجتمعه ، بل كان حاضراً دائماً بين الناس يعيش احتياجاتهم وتطلّعاتهم .
وهناك أمثلة كثيرة تعكس مثل هذا التوجه عند الأئمة عليهم السلام.

(١) راجع الكافي ١: ٢٠٢ / ح ١ (باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته).

(٢) الكافي ١: ٤٩٥ / ح ٥ (باب مولد أبي جعفر الثاني عليه السلام)، الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩٣ (مناقب الجواد عليه السلام)، الثاقب في المناقب: ٥١٩، باب ١٢، فصل ٩، ح ٤٥١.

(٣) راجع موسوعة الإمام الجواد عليه السلام: الباب الثاني في مكاتبيه عليه السلام من الفصل الثامن.

والإمام الجواد عليه السلام ينطبق عليه ما ينطبق على أجداده ومن ذلك هذا المثال :
 جاء في تكملة الرواية السابقة ان داود بن القاسم الجعفري قال : وأعطاني أبو
 جعفر ثلاثمائة دينار في صرّة وأمرني أن أحملها إلى بعض بني عمّه وقال: «أما أنّه
 سيقول لك دُلّني على حريّف يشتري لي بها متاعاً فدله عليه .
 قال : فأتيته بالدنانير فقال لي : يا أبا هاشم دُلّني على حريّف يشتري لي بها
 متاعاً . ففعلت»^(١).

يتّضح من هذا المثال أنّ الإمام عليه السلام كان يتتبع الاحتياجات ويسعى الى سدّها .

النقطة الثالثة: التمهيد لإمامة عليّ الهادي عليه السلام المبكرة

من المهام التي اشترك فيها الأئمة عليهم السلام دعوتهم الى الإمام الآتي بعدهم . وقد
 سار الإمام الجواد عليه السلام على منهج آبائه في قضية الدعوة الى الإمام القادم بعده
 وترسيخ ذلك عند الطليعة المؤمنة من الأمة ، وفيما يأتي أمثلة على هذا الأمر عند
 الإمام عليه السلام:

أ - عن الخيراني عن أبيه أنّه قال : كنت ألزم باب أبي جعفر عليه السلام للخدمة التي
 وكّلت بها ، وكان أحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري يجيء في السحر من آخر
 كل ليلة ليتعرف خبر علّة أبي جعفر عليه السلام ، وكان الرسول الذي يختلف بين أبي جعفر
 وبين الخيراني إذا حضر قام أحمد وخلا به .

قال الخيراني : فخرج ذات ليلة وقام أحمد بن محمّد بن عيسى عن المجلس ،
 وخلا بي الرسول ، واستدار أحمد فوقف حيث يسمع الكلام ، فقال الرسول : إنّ
 مولاك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : « إنّني ماض ، والأمر صائر الى ابني عليّ ،
 وله عليكم بعدي ما كان لي عليكم بعد أبي » .

(١) الكافي ١: ٤٩٥ / ح ٥ (باب مولد أبي جعفر الثاني (عليه السلام))، الإرشاد للمفيد ٢: ٢٩٣ (مناقب الجواد عليه السلام)،
 الثاقب في المناقب: ٥١٩، باب ١٢، فصل ٩، ح ٤٥١.

ثم مضى الرسول ورجع أحمد الى موضعه ، فقال لي : ما الذي قال لك ؟ قلتُ : خيراً ، قال : قد سمعتُ ما قال ، وأعاد عليّ ما سمع ، فقلتُ له : قد حرّم الله عليك ما فعلتَ ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(١) ، فاذا سمعتَ فاحفظ الشهادة لعلنا نحتاج إليها يوماً ما ، وإياك أن تظهرها الى وقتها^(٢) .

ب - عن إسماعيل بن مهران، قال : «لَمَّا خرج أبو جعفر عليه السلام من المدينة الى بغداد في الدفعة الأولى من خرجته، قلت له عند خروجه : جُعِلَ فداك إنّي أخاف عليك في هذا الوجه ، فإلى من الأمر بعدك ؟ فكرّ بوجهه إليّ ضاحكاً وقال : «ليس الغيبة حيث ظننتَ في هذه السنة»، فلمّا أخرج به الثانية الى المعتصم صرت إليه، فقلتُ له : جُعِلَ فداك أنت خارج ، فإلى من هذا الأمر من بعدك ؟ فبكى حتى اخضلتَ لحيته ، ثم التفت اليّ ، فقال : «عند هذه يُخاف عليّ ، الأمرُ من بعدي إلى ابني عليّ»^(٣) .

النقطة الرابعة: الإمام الجواد عليه السلام وقضية الإمام

المهدي عليه السلام

قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه من القضايا الأساسية في المسيرة الإسلامية والمتتبع لآثار الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام لا يجد أحداً منهم غفل عن الدعوة إليها أو تجاهلها .

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١٢ .

(٢) الكافي ١ : ٣٢٤ ح ٢ ، الإرشاد للمفيد ٢ : ٢٩٨ ، بحار الأنوار ٥٠ : ١١٩ ح ٣ .

(٣) الكافي ١ : ٣٢٣ ح ١ (باب النصّ والإشارة على الإمام الهادي عليه السلام) ، الإرشاد للمفيد ٢ : ٢٩٨ (باب النصّ على الإمام عليّ الهادي عليه السلام) ، بحار الأنوار ٥٠ : ١١٨ ح ٢ .

وعلى هذا المنهج سار الإمام الجواد عليه السلام فطرح قضية المهدي عليه السلام على الأمة قاصداً من ذلك تركيز هذا المفهوم في أذهانها من جهة وإعدادها لاستقبال يومه من جهة ثانية ، ونذكر فيما يأتي نماذج من هذه الدعوة :

١ - عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عليه السلام قال : قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام : يا مولاي ! إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . فقال عليه السلام :

« ما منّا ألا قائم بأمر الله ، وهاد إلى دين الله . ولكن القائم الذي يطهر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملاها قسطاً وعدلاً هو الذي يخفى على الناس ولادته ، ويغيب عنهم شخصه ، ويحرم عليهم تسميته ، وهو سمي رسول الله وكنيته ، وهو الذي تطوى له الأرض ، ويذل له كل صعب ، يجتمع إليه من أصحابه عدّة أهل بدر : (ثلاثمائة وثلاثة عشر) رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله عز وجل : ﴿ أَتَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١) . فاذا اجتمعت له هذه العدّة من أهل الإخلاص ، أظهر الله أمره ، فإذا كمل له العقد وهو (عشرة آلاف) رجل ، خرج بإذن الله تعالى ، فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى الله عز وجل » ^(٢) .

٢ - عن أبي تراب عبد الله موسى الروياني ، قال :

حدثنا عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام الحسني قال :

« دخلت على سيدي محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن القائم أهو المهدي أو غيره ؟ فابتدأني فقال لي :

(١) سورة البقرة ٢: ١٤٨ .

(٢) إكمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٧ - ٣٧٨ / ح ٢ ، باب ٣٦ ، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٨١ - ٤٨٢ / ح ٣٢٤

(احتجاجات الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٥١: ١٥٧ / ح ٤ .

«يا أبا القاسم إنَّ القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ، ويطاع في ظهوره، وهو الثالث من ولدي ، والذي بعث محمدًا عليه السلام بالنبوة وخصّنا بالإمامة ، إنّه لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وإنّ الله تبارك وتعالى ليصلح له أمره في ليلة ، كما أصلح أمر كلمه موسى عليه السلام إذ ذهب ليقتبس لأهله ناراً فرجع وهو رسولٌ نبيٌّ» ، ثم قال عليه السلام : «أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرَج» ^(١) .

٣ - عن حمدان بن سليمان قال : حدّثنا الصقر ابن أبي دلف ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ الرضا عليه السلام يقول :

« إنَّ الإمام بعدي ابني عليّ ، أمره أمري ، وقوله قولي ، وطاعته طاعتي ، والإمام بعده ابنه الحسن ، أمره أمر أبيه ، وقوله قول أبيه ، وطاعته طاعة أبيه ، ثم سكت . فقلت له : يا ابن رسول الله فمن الإمام بعد الحسن ؟ فبكى عليه السلام بكاءً شديداً ، ثم قال : إنَّ من بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر . فقلت له : يا ابن رسول الله لم سمّي القائم ؟ قال : لأنّه يقوم بعد موت ذكره وارتداد أكثر القائلين بإمامته . فقلت له : ولم سمّي المنتظر ؟ قال : لأنّ له غيبة يكثر أيامها ويطول أمدها فينتظر خروجه المخلصون وينكره المرتابون ويستهزئ بذكره الجاحدون ، ويكذب بها الوقّاتون ، ويهلك فيها المستعجلون ، وينجو فيها المسلمون» ^(٢) .

× × ×

(١) كمال الدين وتمام النعمة : ٣٧٧ / ح ١ ، باب ٣٦ ، كفاية الأثر : ٢٨٠ - ٢٨١ (باب ما جاء عن الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٥١ : ١٥٦ / ح ١ .

(٢) كمال الدين وتمام النعمة : ٣٧٨ / ح ٣ ، باب ٣٦ ، كفاية الأثر : ٢٨٣ (باب ما جاء عن الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٥١ : ٣٠ / ح ٤ .

الفصل الخامس

مدرسة الإمام الجواد عليه السلام وتراثه

والكلام في هذا الفصل يقع في ثلاثة بحوث:

البحث الأول: أصحاب الإمام الجواد عليه السلام

حفَّ جمهور كبير من العلماء والرواة بالإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام وهم يقتبسون من نمير علومه التي ورثها عن جده رسول الله ﷺ وكانوا يدوّنون أحاديثه وكلماته وما كان يدلي به من روائع الحكم والآداب .

ولهؤلاء الأعلام يرجع الفضل في تدوين ذلك التراث القيم الذي يعد من ذخائر الثروات الفكرية في الاسلام .

لقد عمل أصحاب الأئمة عليهم السلام بوحى من عقيدتهم الدينية التي ألزمتهم بالحفاظ على أحاديث الأئمة الاطهار وتدوينها، لكي يرجع اليها فقهاء الإمامية في استنباطهم للأحكام الشرعية ، ولولاها لما كان لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام هذا الفقه المتطور العظيم الذي اعترف بأصالته وعمقه جميع رجال الفكر والقانون في العالم الإسلامي بل الإنساني .

وما يدعو الى الاعتزاز بأصحاب الأئمة عليهم السلام: أنهم جهدوا على ملازمة الأئمة عليهم السلام، وتدوين أحاديثهم في وقت كان من أعسر الأوقات وأشدّها حرجة وأعظمها ضيقاً ، فقد ضربت الحكومات الجائرة العباسية والأموية معاً الحصار الشديد على الأئمة عليهم السلام ومنعت من الاتصال بهم لئلا تتبعهم الجماهير .

وقد بلغ التضييق على العلماء والرواة من أصحاب الأئمة حدّاً بحيث كانوا لا يستطيعون ان يجهروا باسم الإمام الذي أخذوا عنه ، وإنّما كانوا يلمّحون إليه ببعض أوصافه وسماته من دون التصريح باسمه خشية القتل أو السجن .

ونظراً للحصار الأمني الذي كانت السلطة العباسية تفرضه على الإمام الجواد عليه السلام، فقد أوعز عليه السلام لأصحابه بالتحرك في المجالات التي تتعسر عليه الحركة فيها .

ومن المجالات الأساسية التي تكتشف تحركات الإمام الجواد عليه السلام من خلالها: تحركات أصحابه الذين ما كانوا يصدرون إلا عنه، وذلك بحكم طاعتهم له وقبولهم لإرشاداته .

والسبب في ذكرنا لأصحاب الإمام الجواد ، هو أن نشاطاتهم العلمية والفكرية تعبّر عن توجهات الطليعة الواعية آنذاك بقيادة الإمام عليه السلام.
ومن أبرز هؤلاء الأصحاب:

- ١ - الحسين بن سعيد الأهوازي: ابن حمّاد الأهوازي ، ثقة ، روى عن الإمام الرضا عليه السلام وأبي جعفر عليه السلام وأبي الحسن الثالث ^(١) وهو الإمام علي الهادي عليه السلام.
- ٢ - أخوه الحسن بن سعيد الأهوازي: من أصحاب الإمام الرضا، والإمام الجواد عليهما السلام ^(٢).

لقد اشترك الحسن والحسين الأهوازيان في التحرك مع الإمام الرضا عليه السلام ثم مع الإمام الجواد عليه السلام كما اشتركا في التصنيف، وكان لهما تأثير في هداية بعض الأفراد .

كان الحسن بن سعيد هو الذي أدخل اسحاق بن ابراهيم الحضيبي وعلي بن الريان بعد اسحاق الى الرضا عليه السلام، وكان سبب معرفتهم لهذا الأمر أعني مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ومنه سمعوا الحديث وبه عرفوا ، وكذلك فعل بعبد الله بن محمد الحضيبي وغيرهم حتى جرت الخدمة على أيديهم وصنّفوا الكتب الكثيرة ، ويقال: إن الحسن صنف خمسين تصنيفاً ^(٣).

(١) خلاصة الأقوال: ١١٤ (ترجمة الحسين بن سعيد، رقم ٢٧٨)، منتهى المقال ٣: ٤٠ (ترجمة الحسين بن سعيد، رقم ٨٧٨).

(٢) رجال الشيخ الطوسي: ٣٥٤ / ٥٢٤٤ في أصحاب الرضا عليه السلام وص ٣٧٤ / ٥٥٣٨ في أصحاب الجواد عليه السلام، نقد الرجال للتفريشي ٢: ٢٧ (ترجمة الحسن بن سعيد، رقم ١٢٧٩).

(٣) رجال الكشي: ٥٥٢ / ح ١٠٤١، خلاصة الأقوال: ٩٩ (ترجمة الحسن بن سعيد، رقم ٢٢٤).

ويقول شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (رحمه الله) عند حديثه عن الحسين الأهوازي :

ثقة روى عن الرضا وأبي جعفر الثاني وأبي الحسن الثالث عليهم السلام وأصله كوفي وانتقل مع أخيه الحسن عليه السلام إلى الأهواز ثم تحول إلى قم فنزل على الحسن ابن أبان وتوفي بقم ، وله ثلاثون كتاباً.

٣- محمد بن اسماعيل: ابن بزيع ، عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الرضا والإمام الجواد عليهما السلام ^(١) وكان من خيار أصحاب الأئمة عليهم السلام في ورعه وتقواه، اتصل محمد بالإمام الرضا عليه السلام اتصالاً وثيقاً فكان عليه السلام ينظر إليه بعين الإكبار والتقدير ، وقد روي أن الإمام الرضا عليه السلام عندما ذكر عنده قال عليه السلام: « وددت أن فيكم مثله » ^(٢).

والتصل بالإمام الجواد عليه السلام اتصالاً وثيقاً ، فقد روى عنه بعض الأحاديث المتعلقة بأحكام الشريعة ، وقد سأل الإمام أن يأمر له بقميص من قمصه ليجعله كفناً له، فبعث إليه الإمام عليه السلام بذلك ^(٣).

٤- أحمد بن أبي عبد الله البرقي: وقد عدّه الشيخ الطوسي في كتاب رجاله تارة من أصحاب الجواد عليه السلام بعنوان أحمد بن محمد بن خالد البرقي ^(٤).

وأخرى من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام بعنوان أحمد بن أبي عبد الله البرقي ^(٥). ومن الآثار الخالدة لهذا العلامة الكبير كتابه المحاسن ، الذي كان مرجعاً لعلماء التاريخ والجغرافيا والتراجم كما كان مرجعاً لعلماء الحديث، ومنه نعرف عظمته وسعة علمه وسعة روايته واطلاعه وانه من اعظم علماء الشيعة .

(١) رجال الطوسي: ٣٦٤ / ح ٥٣٩٣ في أصحاب الرضا عليه السلام، وص ٣٧٧ / ٥٥٩٠ في أصحاب الجواد عليه السلام.

(٢) رجال النجاشي: ٣٣٢، ترجمة محمد بن إسماعيل، رقم ٨٩٣، جامع الرواة ٢: ٦٩ (ترجمة محمد بن إسماعيل، باب الميم).

(٣) رجال الكشي: ٥٦٤ / ح ١٠٦٥.

(٤) رجال الطوسي: ٣٧٣ / ٥٥٢١ في أصحاب الجواد عليه السلام.

(٥) رجال الطوسي: ٣٨٣ / ٥٦٤٥ في أصحاب الهادي عليه السلام.

٥ - علي بن مهزيار: من أجمع أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، ومن مشاهير علماء عصره فضلاً وتقوى، وقد كان ينتحل المسيحية، فهداه الله الى الإيمان بالاسلام فأسلم وأخلص في اسلامه كأشد ما يكون الاخلاص^(١).

وألف مجموعة كبيرة من الكتب تدل على سعة علومه ومعارفه، وقد بلغت مؤلفاته ٣٤ كتاباً، تتنوع بين فروع الفقه والعقيدة والتفسير والأخلاق على أن معظمها في الفقه الاسلامي وهي تدل على أنه كان من كبار الفقهاء في الاسلام.

وبعث الإمام الجواد عليه السلام الى علي بن مهزيار عدة رسائل تكشف عن شدة صلته بالإمام عليه السلام وسمو منزلته ومكانته عنده، ومن بين هذه الرسائل:

أ - « قد وصل اليّ كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وقد ملأني سروراً، فسرّك الله، وأنا ارجو من الكافي الدافع ان يكفيك كيد كل كائد ان شاء الله تعالى ».

٦ - صفوان بن يحيى: البجلي بياع السابري، كوفي، ثقة، عين.

روى أبوه عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى هو عن الرضا عليه السلام وكانت له عنده منزلة

شريفة وسلم مذهبه من الوقف، وكانت له منزلة من الزهد والعبادة.

وكان من الورع والعبادة على ما لم يكن عليه أحد من طبقته رحمته الله وصنف

ثلاثين كتاباً كما ذكر أصحابنا، وترحم عليه الإمام الجواد عليه السلام، وشهد له بأنه كان من حزب آبائه الكرام^(٢) وهو حزب الله المفلحون.

وقد أحصى الشيخ العطاردي صاحب (مسند الإمام الجواد عليه السلام) مئةً واحداً

وعشرين راوياً من رواة أحاديث الإمام الجواد عليه السلام بما فيهم أصحابه ووكلاؤه

وخواصه الذين يشكّلون طائفة من كبار الفقهاء ووجهاء الطالبين والطالبيات

وشعراء الإمام ومن حظي بخدمة الإمام عليه السلام في زمن أبيه الرضا عليه السلام وبعده وهو

عصر الإمام الجواد عليه السلام.

(١) رجال الكشي: ٥٤٨ - ٥٤٩ / ١٠٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٥٠٣ - ٥٠٤ / ح ٩٦٧.

بينما أحصى السيد محمد كاظم القزويني في كتابه، الإمام الجواد من المهد الى اللحد (٢٧٥) شخصاً من الرجال والنساء تحت عنوان: أصحاب الإمام الجواد عليه السلام.
لقد شكل الإمام الجواد عليه السلام تياراً من الأصحاب المخلصين لرسالته من رواة حديث وفقهاء ومتكلمين ودعاة للفضيلة والاصلاح في الامة ورواد للتغيير في الأوضاع المتردية للمجتمع الإسلامي وقتذاك .
وبهذا أسدى الإمام محمد الجواد عليه السلام للإسلام وحركته العظمى كل ما كان بمقدوره أن يسديه من خدمات جليلة في ظل الفرص والامكانيات المتاحة ، والمعوقات التي فرضها الواقع الموضوعي، مع الرعاية التامة لمتطلبات الحكمة.

البحث الثاني: من تراث الإمام الجواد عليه السلام

على الرغم من قصر المدة التي عاشها الإمام محمد الجواد عليه السلام وهي خمس وعشرون سنة منذ ولادته حتى استشهاده ، وهي أقصر عمر في أعمار الأئمة الاثني عشر عليهم السلام من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن التراث الذي وصل إلينا إذا قارناه بالظروف التي أحاطت بالامام عليه السلام وبشيئته، وقارناه بأعمار من سبقه من آبائه الكرام التي يبلغ معدلها ضعف عمر هذا الإمام العظيم، نجده غنياً من حيث تنوع مجالاته، ومن حيث سمو المستوى العلمي المطروح في نصوصه وحججه، ومن حيث دلالاته التي تعتبر تحدياً صارخاً عند ملاحظة صدور هذا التراث من مثل هذا الإمام الذي بدأ بالإشعاع والعطاء منذ ولادته حتى سني إمامته وهو لم يبلغ عقداً واحداً من العمر.

وقد أشرنا الى جوانب من هذا التراث في بحوث سابقة وذكرنا نماذج منه. وبقي علينا أن نشير الى جوانب أخرى من هذا التراث العظيم؛ إكمالاً للفائدة وإتماماً للحديث عن هذا الجانب المغمور من جوانب حياة هذا الإمام العظيم .

١ - من تراثه التفسيري

أ - عن داود بن قاسم الجعفري قال : « قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : جعلت فداك ما الصمد ؟ قال : السيد المصمود إليه في القليل والكثير »^(١).

ب - عن جعفر بن محمد الصوفي قال : « سألت أبا جعفر عليه السلام محمد بن علي الرضا عليه السلام وقلت له : يا ابن رسول الله لم سمي النبي الأمي ؟ لأنه لم يكتب ؟ فقال : « كذبوا عليهم لعنة الله أنى يكون ذلك والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ »^(٢) فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن ؟ ! والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين لساناً ، وإنما سمي الأمي لأنه كان من أهل مكة ، ومكة من أمهات القرى ، وذلك قول الله تعالى في كتابه : ﴿ لَتُنذَرَ أُمُّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(٣) »^(٤).

ولا بد أن نشير هنا الى أن الإمام عليه السلام قد أعطى من خلال هذه النماذج صورة مصداقية لفهم المصطلحات والمفاهيم القرآنية من خلال القرآن نفسه وهو المنهج الذي عرف فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن .

ثم إن هذا المعنى للأمّي لا ينفي عدم تعلّم النبي للقراءة والكتابة من أحد والذي يشكل نقطة إعجازية في حياته صلى الله عليه وآله ، وفي عدم تعلّمه من أحد واتصافه بأعلى مستويات المقدرة على التعليم دليل قاطع على ارتباطه بالله العليم المعلم للإنسان ما لم يعلم .

(١) الكافي ١: ١٢٣ / ح ١ (باب تأويل الصمد)، التوحيد: ٩٣ / ح ٨ (باب معنى الواحد)، بحار الأنوار ٣: ٢٢٠ / ح ٨.

(٢) سورة الجمعة ٦٢: ٢.

(٣) سورة الأنعام ٦: ٩٢.

(٤) علل الشرائع ١: ١٢٤ - ١٢٥ ، باب ١٠٥ ، ح ١ ، الاختصاص للمفيد ٢٦٣ (باب لم سمي رسول الله).

٢ - من تراثه الكلامي

أ - ضرورة التحصين العقائدي

روى الإمام العسكري عن أبيه الإمام الجواد عليه السلام أنه قال : «من تكفل بأيتام آل محمد المنقطعين عن إمامهم المتحيرين في جهلهم الأسارى في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فاستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين بردّ وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودلائل أئمتهم ليحفظوا عهد الله على العباد بأفضل الموانع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء ، وفضلهم على العباد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كواكب السماء» ^(١).

ب - التوحيد

وروي أيضاً عن أبي داود بن القاسم الجعفري أنه قال : «قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٢) ، ما معنى الأحد ؟ قال عليه السلام : المجمع عليه بالوحدانية أما سمعته يقول : ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ^(٣) ثم يقولون بعد ذلك له شريك وصاحبة . فقلت : قوله ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ﴾ ^(٤) ؟ قال عليه السلام : «يا أبا هاشم ! أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند ، والبلدان التي لم تدخلها ، ولم تدرك ببصرك ذلك ، فأوهام القلوب لا تدركه ، فكيف تدركه الأبصار ؟» ^(٥).

(١) التفسير المنسوب الى الإمام العسكري عليه السلام : ٣٤٤ / ح ٢٢٤ ، الاحتجاج للطبرسي ١ : ١٤ - ١٥ / ح ١٠ ، بحار الأنوار ٢ : ٦ / ح ١١ .

(٢) سورة الاخلاص ١١٢ : ١ .

(٣) سورة العنكبوت ٢٩ : ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٦ : ١٠٣ .

(٥) الاحتجاج ٢ : ٤٦٥ - ٤٦٦ / ح ٣١٩ (احتجاج الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٣ : ٢٠٨ / ح ٣ .

ج - النبوة

عن الحسن بن عباس بن حريش عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إنَّ أرواحنا وأرواح النبيين توافي العرش كل ليلة جمعة فتصبح الأوصياء وقد زيد في علمهم مثل جم الغفير من العلم»^(١).

د - الإمامة

وروي عنه أيضاً: «أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لابن عباس: إنَّ ليلة القدر في كل سنة، وانه لينزل في تلك الليلة أمر السنة ولذلك الأمر ولائاً بعد رسول الله ﷺ» فقال ابن عباس: من هم؟ قال: أنا وأحد عشر من صليبي أئمة محدثون»^(٢).

هـ - وسأله أبو هاشم الجعفري

هل يبدو لله في المحتوم؟ قال: «نعم. قال: فقلنا له: فنخاف أن يبدو لله في القائم عليه السلام؟ فقال: «إنَّ القائم من الميعاد والله لا يخلف الميعاد»^(٣).

٣ - من ترائه الفقهي

أ - روى أبو خدّاش المهري: «أنَّ شخصاً دخل على الرضا عليه السلام فسأله عن أمور ثلاثة فأجاب عليه السلام عنها، ثم حضر أبو خدّاش مجلس أبي جعفر عليه السلام في ذلك الوقت فسأله الأسئلة ذاتها فكان الجواب هو الجواب.

قال: فقلت: جعلت فداك إنَّ أمّ ولد لي أرضعت جارية لي بلبن ابني أيحرم عليّ نكاحها؟ فقال عليه السلام: «لا رضاع بعد فطام».

(١) بصائر الدرجات: ١٥٢ / ح ٧ (باب في الأئمة عليهم السلام إنَّهم أعطوا الجفر)، بحار الأنوار ١٧: ١٥٢ / ح ٥٤.

(٢) الكافي ١: ٥٣٢ - ٥٣٣ / ح ١١ (باب ما جاء في الاتي عشر والنصّ عليهم عليهم السلام)، الإرشاد للمفيد ٢: ٣٤٦ (باب النصّ على إمامة المهدي عليه السلام)، بحار الأنوار ٩٤: ١٥ / ح ٢٥.

(٣) كتاب الغيبة للنعماني: ٣٠٣ / ح ١٠، باب ١٨ (في خروج السفيناني)، بحار الأنوار ٥٢: ٢٥٠ - ٢٥١ / ح ٣٨.

ب - سأله سائل عن الملاح يقصر في السفينة؟ فقال عليه السلام: «لا لأن السفينة بمنزلة بيته ليس بخارج منها»^(١).

ج - دخل عليه صالح بن محمد بن سهل - وكان يتولّى له الوقف بقم - فقال: «ياسيدي اجعلني من عشرة آلاف في حلّ فإنّي أنفقتها . فقال له عليه السلام: أنت في حلّ ، فلمّا خرج صالح قال أبو جعفر عليه السلام لابراهيم بن هاشم : أحدهم يثب على أموال حق آل محمد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم فيأخذهم ثم يجيء فيقول : اجعلني في حلّ : أترأه ظنّ أنّي أقول لا أفعل ؟ ! والله ليسألنهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً»^(٢).

د - عن علي بن مهزيار قال: «قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾^(٣) وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾^(٤) . وما أشبه هذا ، فقال : إن الله عزوجل يقسم من خلقه بما يشاء وليس لخلقه أن يقسموا إلا به عزوجل»^(٥).

٤ - من تراثه التاريخي

أ - روى المجلسي عن الصدوق بإسناده عن عبد العظيم الحسيني قال : كتبت إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟ فكتب صلوات الله وسلامه عليه : «بعث الله تعالى جلّ ذكره مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبياً ، المرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً .

(١) الثاقب في المناقب: ٥٢٣ / ح ٤٥٨ ، باب ١٢ ، فصل ١٠ ، مدينة المعاجز ٧ : ٣٩٧ / ح ٢٤٠٥ .

(٢) الكافي ١ : ٥٤٨ / ٢٧ (باب الفيء والأنفال) ، تهذيب الأحكام للطوسي ٤ : ١٤٠ / ح ٣٩٧ ، الوسائل ٩ : ٥٣٨ ، أبواب الأنفال ، باب ، ح ١ .

(٣) الليل ٩٢ : ٢ .

(٤) النجم ٥٣ : ٢ .

(٥) الكافي ٧ : ٤٤٩ / ح ١ (باب أنّه لا يجوز أن يحلف الإنسان إلا بالله) ، تهذيب الأحكام للطوسي ٨ : ٢٧٧ ح ١٠٠٩ ، الوسائل ٢٢ : ٣٤٣ كتاب الإيلاء والكفارات .

وإنّ ذا الكفل منهم صلوات الله عليهم ، وكان بعد سليمان بن داود عليه السلام. وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود ، ولم يغضب إلاّ الله عزّ وجلّ وكان اسمه (عويديا) وهو الذي ذكره الله تعالى جلّت عظمته في كتابه حيث قال : ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ^(١) ^(٢).

ب - روى الصدوق بإسناده عن علي بن ابراهيم بن هاشم ، عن أبيه عن احمد ابن محمد بن أبي نصر البنظري ، قال : «قلت لابي جعفر محمد بن علي بن موسى عليه السلام إن قوماً من مخالفيكم يزعمون أباك إنّما سماه المأمون الرضا لما رضىه لولاية عهده .

فقال : «كذبوا والله وفجروا ، بل الله تبارك وتعالى سماه الرضا لانه كان رضى الله عزوجل في سمائه ورضي لرسوله والأئمة من بعده صلوات الله عليهم في أرضه» قال: فقلت له : ألم يكن كلّ واحد من آبائك الماضين عليه السلام رضى الله تعالى ولرسوله والأئمة عليه السلام ؟ فقال : «بلى» ، فقلت : فلم سمي أبوك من بينهم الرضا ؟ قال : «لأنه رضى به المخالفون من أعدائه كما رضى به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه عليه السلام ، فلذلك سمي من بينهم الرضا عليه السلام» ^(٣).

البحث الثالث: مواعظ الإمام الجواد عليه السلام

روى الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني في باب مواعظ أبي جعفر الجواد عليه السلام أحاديث فيما يلي :

١ - قال له رجل : أوصني ؟ «قال عليه السلام : وتقبل ؟ قال : نعم . قال : توسّد الصبر واعتنق الفقر ، وارفض الشهوات ، وخالف الهوى ، واعلم أنّك لن تخلو من عين الله فانظر كيف تكون».

(١) سورة ص ٣٨ : ٤٨.

(٢) قصص الأنبياء للراوندي : ٢١٥ / ح ٢٧٨ ، باب ١٣ ، بحار الأنوار ١٣ : ٤٠٥ / ح ٢.

(٣) علل الشرائع ١ : ٢٣٦ - ٢٣٧ ، باب ١٧٢ ، ح ١.

- ٢ - وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: أما زهدك في الدنيا فتعجبك الراحة ، وأما انقطاعك إلي فيعزك بي ، ولكن هل عادت لي عدواً وواليت لي ولياً» .
- ٣ - وقال عليه السلام: « من شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب عنه ، ومن غاب عن أمر فضيه كان كمن شهد ».
- ٤ - وقال عليه السلام: « من أصغى إلى ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق عن الله فقد عبده؛ وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس » .
- ٥ - وكتب عليه السلام إلى بعض أوليائه : « أما هذه الدنيا فإنما فيها مغترفون، ولكن من كان هواه هوى صاحبه ودان بدينه فهو معه حيث كان ، والآخرة هي دار القرار » .
- ٦ - وقال عليه السلام: « تأخير التوبة اغترار ، وطول التسويف حيرة ، والاعتلال على الله هلكة ، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١) » .
- ٧ - وروي أن جَمَلاً حمله من المدينة إلى الكوفة، فكلمه في صلته، وقد كان أبو جعفر عليه السلام وصله بأربعمائة دينار ، فقال عليه السلام: «سبحان الله، أما علمت أنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العباد » .
- ٨ - وقال عليه السلام: « إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له » .
- ٩ - وقال عليه السلام: « المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه » ^(٢) .
- ١٠ - روى الشيخ المفيد باسناده عن علي بن مهزيار ، عن بكر بن صالح قال : كتب صهر لي إلى أبي جعفر الثاني صلوات الله عليه : إنَّ أبي ناصب خبيث الرأْي ، وقد لقيت منه شدة وجهداً ، فأريك - جعلت فداك - في الدُّعاء لي ، وما ترى - جعلت فداك - ؟ أفترى أن أكاشفه أم أداريه ؟

(١) سورة الأعراف ٧ : ٩٩ .

(٢) تحف العقول: ٤٥٥ - ٤٥٧ (في قصار كلمات الجواد عليه السلام).

فكتب عليه السلام: « قد فهمت كتابك وما ذكرت من أمر أبيك ، ولست أدع الدُّعاء لك إن شاء الله ، والمدارة خير لك من المكاشفة ، ومع العسر يسر ، فاصبر فإنَّ العاقبة للمتقين . ثبتك الله على ولاية من توليت ، نحن وأنتم في وديعة الله الذي لا تضيع ودائعه . »
قال بكر : فعطف الله بقلب أبيه [عليه] حتى صار لا يخالفه في شيء ^(١) .

١١ - عن أبي هاشم الجعفري قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « إنَّ في الجنة باباً يقال له المعروف لا يدخله إلاَّ أهل المعروف ، فحمدت الله تعالى في نفسي وفرحت بما اتكلف من حوائج الناس ، فنظر اليَّ عليه السلام ، فقال : نعم تمَّ على ما انت عليه فإنَّ أهل المعروف في دنياهم هم أهل المعروف في الآخرة جعلك الله منهم يا أبا هاشم ورحمك » ^(٢) .
١٢ - وقال عليه السلام : « من أطاع هواه أعطى عدوَّه مناه » ^(٣) .

١٣ - وقال عليه السلام : « كيف يضيع من الله كافله ، وكيف ينجو من الله طالبه ، ومن انقطع الى غير الله وكله الله اليه » ^(٤) .

١٤ - وقال عليه السلام : « إياك ومصاحبة الشرير ، فإنه كالسيف المسلول يحسن منظره ويقبح أثره » ^(٥) .

١٥ - وقال عليه السلام : « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح » ^(٦) .

١٦ - وقال عليه السلام : « قد عاداك من ستر عنك الرشد اتباعاً لما تهواه » ^(٧) .

(١) أمالي المفيد : ١٩١ / ح ٢٠ ، مجلس ٢٣ .

(٢) لم ترد هذه الرواية عن الجواد عليه السلام ذكروها عن الإمام العسكري عليه السلام ، راجع الثاقب في المناقب : ٥٦٤ / ح ٥٠١ ، فصل ٢ ، باب ١٤ ، بحار الأنوار ٧١ : ٤١٤ / ح ٣٢ .

(٣) نزهة الناظر للحلواني : ١٣٤ / ح ٣ ، عن الدرّة الباهرة : ٣٩ ، بحار الأنوار ٦٧ : ٧٨ / ح ١١ .

(٤) نزهة الناظر للحلواني : ١٣٤ / ح ١ (من مواعظ الإمام الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٦٨ : ١٥٥ / ح ٧٠ .

(٥) نزهة الناظر للحلواني : ١٣٤ / ح ١ (من مواعظ الإمام الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٦٨ : ١٥٥ / ح ٧٠ .

(٦) نزهة الناظر للحلواني : ١٣٤ / ح ١ (من مواعظ الإمام الجواد عليه السلام) ، أعلام الدين للديلمي : ٣٠٩ (من كلام الإمام الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٧٥ : ٣٦٤ / ح ٤ و ٥ .

(٧) أعلام الدين للديلمي : ٣٠٩ (من كلام الإمام الجواد عليه السلام) ، بحار الأنوار ٧٥ : ٣٦٤ - ٣٦٥ / ح ٥ .

١٧ - عنه عليه السلام أنه قال : « لو كانت السموات والأرض رتقاً على عبد ثم اتقى الله تعالى لجعل منها له مخرجاً » .

١٨ - وقال عليه السلام : « من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه » .

١٩ - وقال عليه السلام : « من أَمَل فاجراً كان أدنى عقوبته الحرمان » .

٢٠ - وقال عليه السلام : « موت الانسان بالذنوب اكثر من موته بالأجل ، وحياته بالبر أكثر من حياته بالعمر » ^(١) .



(١) كشف الغمّة ٣: ١٣٦ - ١٤٠ (من أخبار الإمام الجواد عليه السلام) نقلاً عن كتاب الجنازدي معالم العترة كما هو قال في آخر الكلام، ورواه عن الجنازدي أيضاً ابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمة: ٢٦٠ - ٢٦٣ (مع تفاوت يسير باللفظ فيهما).

الإمام عليّ بن محمد

الهادي عليه السلام

الفصل الأوّل

الإمام الهادي عليه السلام هو أبو الحسن عليّ بن الإمام محمّد عليه السلام، وهو العاشر من أئمة أهل البيت المعصومين عليه السلام، وأمّه أم ولد يقال لها سمانة المغيرة^(١)، وعُرفت بـ (أمّ الفضل)^(٢).

ولد عليه السلام للنصف من ذي الحجة، أو الثاني من رجب، عام (٢١٢ أو ٢١٤ هـ)^(٣) في قرية (صريا) التي تبعد عن المدينة ثلاثة أميال. وقد بشر الرسول الأكرم ﷺ بولادته في حديث عن الأئمة عليهم السلام جاء فيه: «وإن الله ركب في صلبه - إشارة إلى الإمام الجواد عليه السلام - نطفة لا باغية ولا طاغية، طيبة طاهرة، سمّاها عنده عليّ بن محمّد، فألبسها السكينة والوقار، وأودعها العلوم وكلّ سرّ مكتوم، من لقيه وفي صدره شيء أبنا به، وحذّره من عدوّه»^(٤). والكلام في هذا الفصل يقع في نقطتين:

(١) أصول الكافي ١: ٢٩٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ٤٣٣.

(٣) أصول الكافي ١: ٤٩٧، الإرشاد، المفيد: ٣٦٨، المصباح، الكفعمي: ٥٢٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٢ الحديث ٢٩.

النقطة الأولى: انطباعات عن شخصية الإمام الهادي عليه السلام

تعطي كلمات العلماء والعظماء في الإمام أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام، صورة من أعظام المؤلف والمخالف له عليه السلام، وإجماع المسلمين على جلالته وعظمته .

وإليك بعض الانطباعات التي وصلتنا من معاصريه، ومن تلاهم من العلماء والمؤرخين عن هذه الشخصية الفريدة .

١ - قال يحيى بن هرثمة - الذي أرسله المتوكل لإشخاص الإمام (عليه السلام) إلى سر من رأى -: فذهبت إلى المدينة فلما دخلتها ضج أهلها ضجيجاً عظيماً ما سمع الناس بمثله خوفاً على علي الهادي ، وقامت الدنيا على ساق ، لأنه كان محسناً إليهم ، ملازماً للمسجد ، لم يكن عنده ميل إلى الدنيا ، فجعلت أسكنهم وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه ، وأنه لا بأس عليه ، ثم فتشت منزله فلم أجد فيه إلا مصاحف وأدعية وكتب العلم ، فعظم في عيني ، وتوليت خدمته بنفسي ، وأحسنت عشرته ، فلما قدمت به بغداد وبدأت بإسحاق الطاهري وكان والياً على بغداد ، فقال لي : يا يحيى ، إن هذا الرجل قد ولده رسول الله ﷺ ، والمتوكل من تعلم فإن حرّضته عليه قتله ، وكان رسول الله ﷺ خصمك يوم القيامة ، فقلت له : والله ، ما وقفت منه إلا على كل أمر جميل ^(١) .

٢ - قال أبو عبد الله الجندي : والله تعالى لهو خير أهل الأرض ، وأفضل من برأه الله تعالى ^(٢) .

٣ - قال يزداد الطيب : إن كان مخلوق يعلم الغيب فهو ^(٣) .

٤ - وقال ابن شهر آشوب : وكان أطيّب الناس بهجةً وأصدقهم لهجةً ، وأملحهم من قريب وأكملهم من بعيد ، إذا صمت علتة هيبة الوقار ، وإذا تكلم سماه البهاء ،

(١) تذكرة الخواص: ٢٠٢ .

(٢) مآثر الكبراء ٣: ٩٦ .

(٣) بحار الأنوار ٥٠: ١٦١ ، دلائل الإمامة: ٤١٨ .

وهو من بيت الرسالة والإمامة ومقرّ الوصية والخلافة، شعبة من دوحة النبوة منتضاة مرتضاة ، وثمره من شجرة الرسالة مجتناة مجتناة ^(١) .

٥ - قال أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : أبو الحسن عليّ الهادي ابن محمد الجواد بن عليّ الرضا عليه السلام ... وهو أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، وكان قد سعي به إلى المتوكل وقيل : إنّ في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، وأوهموه أنّه يطلب الأمر لنفسه فوجه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهاجموا عليه في منزله على غفلة ، فوجدوه وحده في بيت مغلق ، وعليه مدرعة من شعر ، وعلى رأسه ملحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل والحصي ^(٢) .

٦ - قال عبد الله بن أسعد اليافعي : أبو الحسن عليّ الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق العلوي الحسيني ، عاش أربعين سنة ، وكان متعبداً فقيهاً إماماً ^(٣) .

٧ - قال الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير : وأمّا أبو الحسن عليّ الهادي فهو ابن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين الشهيد بن عليّ بن أبي طالب ، أحد الأئمة الاثني عشر ، وهو والد الحسن بن عليّ العسكري... وقد كان عابداً زاهداً، نقله المتوكل إلى سامراء فأقام بها أزيد من عشرين سنة بأشهر ، ومات بها في هذه السنة ^(٤) وقد ذكر للمتوكل أنّ بمنزله سلاحاً وكتباً كثيرة من الناس ، فبعث كبسة فوجدوه جالساً مستقبل القبلة وعليه مدرعة من صوف ، وهو على التراب ليس دونه حائل ، فأخذوه كذلك فحملوه إلى المتوكل... ^(٥) .

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٠٥.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ٢٧٢.

(٣) مرآة الجنان ٢: ١٦٠.

(٤) أي سنة أربع وخمسين ومائتين.

(٥) البداية والنهاية ١١: ١٩.

٨ - قال محمد سراج الدين الرفاعي : الإمام عليّ الهادي ابن الإمام محمد الجواد ولقبه النقي والعالم والفقير والأمير والدليل والعسكري والنقيب ، ولد في المدينة سنة اثنتي عشرة ومائتين من الهجرة ، وتوفي شهيداً بالسم في خلافة المعتز العباسي يوم الاثنين لثلاث خلون من رجب سنة أربع وخمسين ومائتين وكان له خمسة أولاد : الإمام الحسن العسكري ، والحسين ، ومحمد ، وجعفر ، وعائشة ، فالحسن العسكري أعقب صاحب السرداب الحجة المنتظر ولي الله محمد المهدي ^(١) .

٩ - قال أحمد بن حجر الهيثمي : عليّ العسكري سمي بذلك لأنه لما وجه لأشخاصه من المدينة النبوية إلى سر من رأى وأسكنه بها ، كانت تسمى العسكر فعرف بالعسكري ، وكان وارث أبيه علماً وسخاءً ^(٢) .

١٠ - قال أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني : الفصل التاسع في ذكر بيت الحلم والعلم والأيادي ، الإمام عليّ بن محمد الهادي ، رضي الله عنه : ولد بالمدينة وأمه أم ولد ، وكنيته أبو الحسن ، ولقبه الهادي والمتوكل ، وكان أسمر ، نقش خاتمه «الله ربي وعصمتي من خلقه» وأما مناقبه فنفيصة ، وأوصافه شريفة ^(٣) .

النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الهادي عليه السلام

لقد تحلى الإمام الهادي عليه السلام بمكارم الأخلاق التي بُعث جدّه الرسول الأعظم لتتميمها ^(٤) ، واجتمعت في شخصيته كل عناصر الفضل والكمال التي لا يسعنا الإحاطة بها ولا تصويرها ، ولكن هذا لا يمنع أن نشير الى جملة من مكارم أخلاقه

(١) صحاح الأخبار: ٥٦ .

(٢) الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٨ .

(٣) أخبار الدول: ١١٧ .

(٤) إشارة لقوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» .

التي تجلّت في صور من سلوكه. وإليك بعض هذه المكارم التي نصّت عليها كتب السيرة والتاريخ.

١ - الكرم

كان عليه السلام من أبسط الناس كفاً، وأنداهم يداً، وكان على غرار آبائه الذين أطعموا الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً^(١)، وكانوا يطعمون الطعام حتى لا يبقى لأهلهم طعام، ويكسونهم حتى لا يبقى لهم كسوة^(٢). وقد روى المؤرخون بوادٍ كثيرة من برّ الإمام الهادي عليه السلام وإحسانه إلى الفقراء وإكرامه البائسين، نقتصر منها على ما يلي:

دخل أبو عمرو عثمان بن سعيد، وأحمد بن إسحاق الأشعري، وعليّ بن جعفر الهمداني على أبي الحسن العسكري، فشكا إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه، فقال: يا أبا عمرو - وكان وكيله - ادفع إليه ثلاثين ألف دينار، وإلى عليّ بن جعفر ثلاثين ألف دينار، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار.

وعلق ابن شهر آشوب على هذه المكرمة العلوية بقوله: «فهذه معجزة لا يقدر عليها إلا الملوك، وما سمعنا بمثل هذا العطاء»^(٣).

٢ - الزهد

لقد عزف الإمام الهادي عليه السلام عن جميع مباحج الحياة ومتعتها، وعاش عيشة زاهدة إلى أقصى حدّ، لقد واظب على العبادة والورع والزهد، فلم يحفل بأيّ مظهر من مظاهر الحياة، وآثر طاعة الله على كل شيء، وقد كان منزله في المدينة

(١) إشارة إلى حادثة إطعام الطعام التي قام بها أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين، حيث نزل قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

(٢) صفة الصفوة ٢: ٩٨.

(٣) المناقب ٣: ٥١٢، أعيان الشيعة ٢: ٣٧.

وسرّ من رأى خالياً من كل أثاث ، فقد داهمت منزله شرطة المتوكل ففتّشوه تفتيشاً دقيقاً فلم يجدوا فيه شيئاً من رغائب الحياة ، وكذلك لما فتّشت الشرطة داره في سرّ من رأى ، فقد وجدوا الإمام في بيت مغلق ، وعليه مدرعة من صوف وهو جالس على الرمل والحصى ، ليس بينه وبين الأرض فراش ^(١) .

٣ - العمل في المزرعة

وتجرّد الإمام العظيم من الأنانية ، حتى ذكروا أنّه كان يعمل بيده في أرض له لإعاشة عياله ، فقد روى عليّ بن حمزة عن أبيه قال : «رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له وقد استنقعت قدماه في العرق، فقلت له : جعلت فداك أين الرجال ؟ فقال الإمام : يا عليّ، قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه . فقلت: من هو ؟

فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وآبائي عليهم السلام كلّهم قد عملوا بأيديهم ، وهو من عمل النبيّ والمرسلين والصالحين» ^(٢) .

٤ - إرشاد الضالّين

واهتمّ الإمام الهادي عليه السلام اهتماماً بالغاً بإرشاد الضالّين والمنحرفين عن الحقّ وهدايتهم إلى سواء السبيل ، وكان من بين من أرشدهم الإمام وهداهم، أبو الحسن البصري المعروف بالملاح ، قال: دلني أبو الحسن - وكنت واقفياً - فقال لي: إلى كم هذه النومة أما أنّ لك أن تتنبه منها؟! - فقدح في قلبي شيئاً وغشي عليّ وتبعت الحقّ ^(٣) .

(١) أصول الكافي ١: ٤٩٩ وعنه في الإرشاد ٢: ٣٠٢، ٣٠٣ وعن الكليني في إعلام الوري ٢: ١١٩. والفصول المهمة: ٣٧٧.

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٢، الكافي ٥: ٧٥، وفيه: «المرسلين والأوصياء والصالحين».

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١١، إعلام الوري بأعلام الهدى ٢: ١٢٣، وفيه: «وكان يلقب بالملاح، قال: كان يقول بالوقف جعفر بن القاسم الهاشمي البصري، وكنت معه بسرّ من رأى، إذ رآه أبو الحسن عليه السلام في بعض الطرق فقال له: إلى كم هذه النومة...».

٥ - التحذير من مجالسة الصوفيين :

وحذر الإمام الهادي عليه السلام أصحابه وسائر المسلمين من الاتصال بالصوفيين والاختلاط بهم، لأنهم مصدر غواية وضلال للناس ، فهم يظهرون التقشف والزهد لإغراء البسطاء والسذج وغوايتهم .

فلقد شدد الإمام الهادي عليه السلام في التحذير من الاختلاط بهم حتى روى الحسين ابن أبي الخطاب قال : كنت مع أبي الحسن الهادي عليه السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري ، وكان رجلاً بليغاً وكانت له منزلة عظيمة عنده عليه السلام ثم دخل المسجد جماعة من الصوفية وجلسوا في جانبه مستديرًا ، وأخذوا بالتهليل فقال عليه السلام لهم : « لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين فإنهم خلفاء الشياطين ^(١) ، وخزّبو قواعد الدين ، يكلمون الناس باملائهم في الحب ، ويطرحونهم بإدلائهم في الحب ، أورادهم الرقص والتصدية ، وأذكارهم الترنم والتغنية ، فلا يتبعهم إلاّ السفهاء ، ولا يعتقد بهم إلاّ الحمقاء ، فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حياً أو ميتاً ، فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان وعبادة الأوثان ، ومن أعان واحداً منهم فكأنما أعان معاوية ويزيد وأبا سفيان ».

فقال رجل من أصحابه : وإن كان معترفاً بحقوقكم ؟.

فنظر إليه شبه المغضب وقال : « دع ذا عنك ، من اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا ، أما تدري أنّهم أخسّ طوائف الصوفية ، والصوفية كلهم مخالفونا ، وطريقتهم مغايرة لطريقتنا ، وإن هم إلاّ نصارى أو مجوس هذه الأمة ، أولئك الذين يجتهدون في إطفاء نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ^(٢) .

(١) في بعض النسخ (حلفاء).

(٢) حديقة الشيعة للأردبيلي: ٦٠٢ ، ٦٠٣ عن المرتضى الرازي في كتاب الفصول، وابن حمزة في كتاب الهادي إلى النجاة كلاهما عن الشيخ المفيد، وعنه في روضات الجنّات ٣: ١٣٤، إكليل المنهج في تحقيق المطلب: ١٢٩.

٦ - تكميمه للعلماء

كان الإمام الهادي عليه السلام يكرم رجال الفكر والعلم، ويحتفي بهم ويقدمهم على بقية الناس؛ لأنهم مصدر النور في الأرض، وكان من بين مَنْ كرمهم أحد علماء الشيعة وفقهائهم، وكان قد بلغه عنه أنه حاجج ناصبياً فأفحمه وتغلب عليه، فسرّ الإمام عليه السلام بذلك، ووفد العالم على الإمام فقابله بحفاوة وتكريم، وكان مجلسه مكتظاً بالعلويين والعباسيين، فأجلسه الإمام على دست، وأقبل عليه يحدثه، ويسأل عن حاله سؤالاً حفيماً، وشقّ ذلك على حضار مجلسه من الهاشميين فالتفتوا إلى الإمام، وقالوا له: كيف تؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟ فقال عليه السلام: «إياكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١) أترضون بكتاب الله عز وجل حكماً؟» فقالوا: بلى^(٢).

قال: أليس الله قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - : يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾^(٣) فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلا أن يرفع على من ليس بمؤمن، أخبروني عنه؟ قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أو قال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟! أو ليس قال الله: ﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟...﴾^(٤). فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله؟! إن كسر هذا لفلان الناصب بحجج الله التي علمه إياها لأفضل له من كل شرف في النسب^(٥).

(١) سورة آل عمران ٣: ٢٣.

(٢) كذا، والصحيح: ألا ترضون.. وإلا فالجواب بنعم وليس بلى.

(٣) المجادلة ٥٨: ١١.

(٤) الزمر ٣٥: ٩.

(٥) الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٥٩، تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٢.

٧ - العبادة

إنَّ الإقبال على الله والإنابة إليه وإحياء الليالي بالعبادة، ومناجاة الله وتلاوة كتابه هي السَّمة البارزة عند أهل البيت عليه السلام.

أما الإمام الهادي عليه السلام فلم يرَ الناس في عصره مثله في عبادته وتقواه وشدة تحرّجه في الدين ، فلم يترك نافلة من النوافل إلّا أتى بها ، وكان يقرأ في الركعة الثالثة من نافلة المغرب سورة الحمد وأوّل سورة الحديد إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(١) وفي الركعة الرابعة سورة الحمد وآخر سورة الحجرات^(٢) .

٨ - إستجابة دعائه

وقد ذكرت شواهد كثيرة من استجابة دعاء الإمام عليه السلام منها :

١ - ما رواه المنصوري عن عمّ أبيه، قال : قصدت الإمام عليه السلام يوماً ، فقلت له : يا سيدي، إنّ هذا الرجل^(٣) قد أطرحني ، وقطع رزقي ، وملّني، وما أُتّهم به في ذلك إلّا هو علمه بملازمتي لك ، فإذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك، فينبغي أن تتفضل عليّ بمسألته ، فقال عليه السلام : « تكفّي إن شاء الله ، فلما كان في الليل طرقتني رسل المتوكل رسولاً بعد رسول ، فجئت والفتح قائم فقال: يا رجل، ما تأوي في منزلك بالليل، كد^(٤) هذا الرجل مما يطلبك، فدخلت فإذا المتوكل جالس في فراشه، فقال: يا أبا موسى تُشغل عنك، وتُنسينا نفسك؟! أي شيء لك عندي؟ فقلت: الصلة الفلانية، والرزق الفلاني: وذكرت أشياء، فأمر لي بها وبضعفها، فقلت للفتح: وافى عليّ بن محمّد إلى هاهنا؟ فقال لا، فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا، فوليت منصرفاً فتبعني، فقال لي: لست أشك أنك سألته دعاءً لك، فالتمس لي منه دعاءً، فلما دخلت عليه عليه السلام قال لي: يا أبا موسى، هذا وجه الرضا». فقلت: ببركتك يا سيدي ، ولكن قالوا لي : إنّك ما مضيت إليه ولا سألته.

(١) سورة الأنفال ٨ : ٤٣.

(٢) وسائل الشيعة ٤ : ٧٥٠.

(٣) يعني المتوكل .

(٤) كدّ الرجل: ألحّ في الطلب.

فقال: إن الله تعالى علم منا أننا لا نلجأ في المهمات إلا إليه ، ولا نتوكل في المهمات إلا عليه ، وعودنا إذا سألناه الإجابة ، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا.

قلت: إنَّ الفتح قال لي كيت وكيت.

قال : الفتح يوالينا بظاهره ، ويحاربنا بباطنه ، الدعاء لمن يدعو به إذا أخلصت في طاعة الله ، واعترفت برسول الله ﷺ وبحقنا أهل البيت، وسألت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يجرمك^(١).

٢- روي أنَّ عليَّ بن جعفر كان من وكلاء الإمام عليّ فسعي به إلى المتوكل فحبسه ، فطال حبسه ، واحتال من قبل عبيد الله فعرض ابن خاقان بمال ضمنه عنه ثلاثة آلاف دينار ، وكلمه عبيد الله فعرض جامعته على المتوكل ، فقال: يا عبيد الله، لو شككت فيك لقلت : إنَّك رافضي ، هذا وكيل فلان وأنا على قتله (عازم خ ل).

قال: فتأدى الخبر إلى عليّ بن جعفر فكتب إلى أبي الحسن (عليه السلام) يا سيدي، الله الله فيّ ، فقد والله خفت أن أرتاب، فوقع في رقعة: « أمّا إذا بلغ بك الأمر ما أرى فسأقصد الله فيك » وكان هذا في ليلة الجمعة.

فأصبح المتوكل محموماً ، فازدادت علته حتى صرخ عليه يوم الاثنين، فأمر بتخلية كل محبوس عرض عليه اسمه حتى ذكر هو ، عليّ بن جعفر، فقال لعبيد الله : لمَ لم تعرض عليّ أمره ؟ فقال : لا أعود إلى ذكره أبداً ، قال: خلّ سبيله الساعة وسله أن يجعلني في حلّ ، فخلّى سبيله، وصار إلى مكة بأمر أبي الحسن عليّ فجاور بها...^(٢).

هذه بعض الشواهد التي ذكرها الرواة من استجابة دعاء الإمام عليّ ، ومن المؤكّد أنّ استجابة الدعاء ليست من عمل الإنسان وصنعه ، وإنما هي بيد الله تعالى فهو الذي يستجيب دعاء من يشاء من عباده ، ومما لا شبهة فيه أنّ لأئمة أهل البيت منزلة كريمة عنده تعالى ؛ لأنّهم أخلصوا له أعظم ما يكون الإخلاص ، وأطاعوه حقّ طاعته، وقد خصّهم تعالى باستجابة دعائهم كما جعل مراقدهم الكريمة من المواطن التي يستجاب فيها الدعاء^(٣).

(١) أمالي الطوسي : ٢٨٥ ح ٥٥٥ وعنه في بحار الأنوار ١٢٧: ٥٠ وفي المناقب ٤: ٤٤٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٦٥ رقم ١١٢٩، وعنه بحار الأنوار ١٨٣: ٥٠.

(٣) راجع حياة الإمام عليّ الهادي عليه السلام : ٤٢ - ٦٢.

الفصل الثاني

الإمام الهادي في ظل أبيه الجواد عليه السلام

لقد تقلّد الإمام محمّد الجواد عليه السلام الزعامة الدينية والمرجعية الفكرية والروحية للشيعة بعد استشهاد الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام سنة (٢٠٢ هـ) ^(١). وكان عمره الشريف حوالي سبع سنوات، وكان مع حادثته يدبّر أمر الرضا عليه السلام بالمدينة ويأمر الموالي وينهاهم لا يخالف عليه أحد منهم ^(٢). وقال صفوان بن يحيى: قلت للرضا عليه السلام: قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر، فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهبه الله لك، فأقرّ عيوننا. فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فإلى مَنْ؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه. فقلت: جعلت فداك، هو ابن ثلاث سنين! فقال: وما يضرّه من ذلك، فقد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين ^(٣). وعاش بعد أبيه تسع عشرة سنة إلاّ خمساً وعشرين يوماً ^(٤) وهي مدة إمامته عليه السلام.

الشيعة وإمامة الجواد عليه السلام

بعد التحاق الإمام الرضا عليه السلام بالرفيق الأعلى، كان عمر الإمام الجواد عليه السلام سبع سنوات، وهذه الإمامة المبكرة كانت أوّل ظاهرة ملفتة للنظر عند الشيعة أنفسهم فضلاً عن غيرهم وكانت سبباً لحيرة بعض رموز الشيعة، بالرغم من التمهيد لهذه الظاهرة من قبل الإمام الرضا عليه السلام قبل إشخاصه إلى خراسان وبعده.

(١) إثبات الوصية : ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٨٥ .

(٣) الكافي ١ : ٣٢١ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٤٩٧ ، ح ١٢ .

من هنا اجتمع جملة من كبار الشيعة في بيت عبدالرحمن بن الحجاج يتداولون في أمر الإمامة ، وكان من بين هؤلاء المجتمعين ، الريان بن الصلت ، وصفوان بن يحيى ، ومحمد بن حكيم ، وعبد الرحمن بن الحجاج ويونس بن عبدالرحمن ، فجعلوا يبيكون... ، فقال لهم يونس : دعوا البكاء، من لهذا الأمر يفتي بالمسائل إلى أن يكبر هذا الصبي - يعني أبا جعفر عليه السلام - ، وكان له ست سنين وشهور... فقال الريان بن الصلت:

إن كان أمر من الله جلّ وعلا ، فابن يومين مثل ابن مائة سنة، وإن لم يكن من عند الله فلو عمّر الواحد من الناس خمسة آلاف سنة ما كان يأتي بمثل ما يأتي به السادة عليهم السلام أو بعضه ، وهذا مما ينبغي أن ينظر فيه ...^(١).

ويتّضح من النصّ السابق تأكيد الريان على مفهوم الإمامة باعتبارها منصباً إلهياً كالنبوة من حيث الاختيار والانتخاب لهذا المنصب؛ فإنه بيد الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢) وليس للناس فيها أمر واختيار .

عاصر الإمام الجواد عليه السلام من خلفاء بني العباس المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ).

وقد انتهج المأمون سياسة خاصة تجاه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام تباين سياسة أسلافه من ملوك بني العباس. ويُعد هذا التحول في العلاقة بين السلطة والأئمة دليلاً على اتّساع المساحة التي كان يشغلها تأثير الأئمة وسط الأمة والمجتمع الإسلامي، مع انشداد الغالبية المؤثرة بالأئمة عليهم السلام والقول بمرجعيتهم الفكرية والروحية .

وكانت ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام أحد أوجه هذا التحول في السياسة، والذي يعبر عن ذكاء ودهاء المأمون في محاولته تلك للحد من تأثير الإمام عليه السلام ووضعه قريباً منه لتحديد تحركه وتحجيم دوره، إضافة لرصد تحركه وتحرك القواعد الشعبية المؤمنة بقيادة أهل البيت عليهم السلام ودورهم الريادي في الأمة ، فبعد

(١) دلائل الإمامة : ٣٨٨ .

(٢) سورة الأنعام ٦ : ١٢٤ .

استشهاد الإمام الرضا عليه السلام عمدة المأمون إلى إشخاص الإمام الجواد من المدينة إلى بغداد وتزويجه بإبنته أم الفضل بهدف إبعاده عليه السلام عن خاصته وعامة الناس ، وليكون قريباً منه وتحت رقابته وعيونه ، فيعرف الداخل عليه والخارج منه ظناً من المأمون أنه سوف يتمكن بذلك من تحجيم دور الإمام عليه السلام وإبعاده عن التأثير، مضافاً إلى اكتساب الشرعية لحكمه من خلال وجود الإمام (عليه السلام) إلى جنبه .
وهكذا قضى الإمام الجواد عليه السلام خمس عشرة سنة خلال حكم المأمون حيث مات المأمون سنة (٢١٨ هـ) .

الإمام الجواد عليه السلام والمعتصم

والمعتصم هو محمد بن هارون الرشيد ثامن خلفاء بني العباس، بُويع له بالخلافة سنة (٢١٨ هـ) بعد وفاة المأمون ، وقد خرج المعتصم سنة (٢١٧ هـ) لبناء سامراء^(١) . ثم نقل عاصمة الدولة إليها ، ولم تكن المدة التي قضاها الإمام الجواد عليه السلام في خلافة المعتصم طويلة فإنها لم تتجاوز السنتين، حيث استشهد الإمام عليه السلام بعد أن استقدمه المعتصم إلى بغداد سنة (٢٢٠ هـ) .
وكان الإمام الجواد عليه السلام قد خلف ولده الإمام الهادي عليه السلام وهو صغير بالمدينة لما انصرف إلى العراق في العام الذي توفي فيه المأمون بأرض الروم^(٢) . وهو عام (٢١٨ هـ) .

ونص الإمام الجواد عليه السلام قبل استشهاده على إمامة ابنه علي في أكثر من موقع.

نصوص الإمام الجواد عليه السلام على إمامة ولده الهادي عليه السلام

صدرت عن الإمام الجواد عليه السلام نصوص عديدة على إمامة ولده الهادي عليه السلام نعرض في ما يلي بعضاً منها:

(١) تاريخ أبي الفداء ١ : ٣٤٣ .

(٢) إثبات الوصية : ١٩٢ .

أ - النص الأول

عن إسماعيل بن مهران قال : لما خرج أبو جعفر عليه السلام من المدينة إلى بغداد في الدفعة الأولى من خرجته، قلت له عند خروجه: جعلت فداك، إني أخاف عليك في هذا الوجه فإلى من الأمر بعدك ؟ فكرّ بوجهه إليّ ضاحكاً وقال : «ليس الغيبة حيث ظننت في هذه السنة» ، فلما أخرج به الثانية الى المعتصم صرت إليه فقلت : جعلت فداك، أنت خارج فإلى من الأمر من بعدك ؟ فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم التفت إليّ فقال : «عند هذه يخاف عليّ ، الأمر من بعدي إلى ابني عليّ»^(١).

ب - النص الثاني

عن الخيرانبي ، عن أبيه أنه قال: «كان يلزم باب أبي جعفر عليه السلام للخدمة التي كان وكل بها وكان أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري يجيء في السحر في كل ليلة ليعرف خبر علّة أبي جعفر عليه السلام، وكان الرسول الذي يختلف بين أبي جعفر عليه السلام وبين أبي إذا حضر قام أحمد بن عيسى وخلا به أبي، فخرجت ذات ليلة وقام أحمد عن المجلس وخلا أبي بالرسول، واستدار أحمد فوقف حيث يسمع الكلام ، فقال الرسول لأبي : إنّ مولاك يقرأ عليك السلام ويقول لك: «إني ماض والأمر صار إلى ابني عليّ، وله عليكم بعدي ما كان لي عليكم بعد أبي» ، ثم مضى الرسول فرجع أحمد إلى موضعه وقال لأبي : ما الذي قال لك ؟ قال : خيراً ، قال: قد سمعت ما قال، فلم تكتمه؟ وأعاد ما سمع، فقال له أبي : قد حرم الله عليك ما فعلت؛ لأنّ الله تعالى يقول : ﴿...وَلَا تَجَسَّسُوا...﴾^(٢) فاحفظ الشهادة لعلنا نحتاج إليها يوماً، وإياك أن تظهرها إلى وقتها»^(٣).

(١) الكافي ١: ٣٢٣، بحار الأنوار ٥٠: ١١٨ باب النصوص على الخصوص عليه، الإرشاد، للمفيد: ٣٠٨.

(٢) سور الحجرات ٤٩: ١٢.

(٣) الكافي ١: ٣٢٤، بحار الأنوار ٥٠: ١٢٠ باب النصوص على الخصوص عليه، الإرشاد، للمفيد: ٣٠٨.

ج - النصّ الثالث

حدثنا محمد بن عليّ، قال: حدثنا عبدالواحد بن محمد ابن عبدوس العطار، قال: حدثنا عليّ بن محمد بن قتيبة النيسابوري، قال: حدثنا حمدان ابن سليمان، قال: حدثنا الصقر بن أبي دلف، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يقول: الإمام بعدي ابني عليّ، أمره أمري وقوله قولي، وطاعته طاعتي^(١)، والإمام بعده ابنه الحسن، أمره أمر أبيه، وقوله قول أبيه، وطاعته طاعة أبيه. ثم سكت فقلت له: يا ابن رسول الله، فمن الإمام بعد الحسن؟ فبكى عليه السلام بكاءً شديداً، ثم قال: إنّ من بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر، فقلت له: يا ابن رسول الله، لم سمي القائم؟ قال: لأنّه يقوم بعد موت ذكره، وارتداد أكثر القائلين بإمامته. فقلت له: ولم سمي المنتظر؟ قال: لأنّ له غيبة يكثر أيامها ويطول أمدها، فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ به الجاحدون، ويكذب فيها الوقاتون، ويهلك فيها المستعجلون، وينجو فيها المسلمون^(٢).

استشهاد الإمام الجواد عليه السلام

إنّ تقريب الإمام الرضا عليه السلام والعهد إليه بولاية الأمر من قبل المأمون العباسي، وكذا ما كان من المأمون تجاه الإمام الجواد عليه السلام يعبر عن دهاء سياسي في التعامل مع أقوى معارضي الدولة، لأنّ هذين الإمامين عليهما كانا يمتلكان القواعد الشعبية الواسعة، مما كان يشكل خطراً على كيان الدولة، فكان تصرّف المأمون معهما من أجل تطويق الخطر المحدق بالكيان السياسي للدولة العباسية، وذلك من خلال عزل الإمام عليه السلام عن قواعده للحدّ من تأثيره في الأمة، فتقريبه للإمام عليه السلام يعني إقامة جبرية، ومراقبة دقيقة.

(١) في طبعة: ثم سكت فقلت يا ابن رسول الله فمن الإمام بعد عليّ قال ابنه الحسن. قلت: بعد الحسن فبكى عليه السلام بكاءً شديداً ثم قال: إنّ محمداً من بعد الحسن ابنه...

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٨، وإعلام الوري: ٤٣٦.

روى المسعودي: أنَّ المعتصم وجعفر بن المأمون دبّرا حيلة للتخلص من الإمام الجواد عليه السلام، فاتفق جعفر مع أخته أمّ الفضل - زوج الإمام الجواد عليه السلام - أن تقدّم له عنباً مسموماً، وقد فعلت ذلك وأكل منه الإمام عليه السلام، فندمت وجعلت تبكي، فقال لها الإمام عليه السلام: «ما بكاؤك؟ والله ليضربنك الله بفقر لا ينجلي وبلاء لا ينستر...». فبليت بعلة فأنفقت مالها وجميع ملكها على تلك العلة حتى احتاجت إلى رفد الناس - أي معونتهم - وقد تردى أخوها جعفر في بئر فأخرج ميتاً وكان سكراناً.



الفصل الثالث

الإمام الهادي عليه السلام منذ تولّيه الإمامة حتى استشهاده

ويقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: جوانب من النشاط العلمي والسياسي للإمام الهادي عليه السلام

لقد قام الإمام الهادي عليه السلام بعدة أمور ينبغي الإشارة إليها، وهي:

- ١ - تجنّب إثارة الحكّام وعمالهم.
- ٢ - الردّ على الإثارات الفكرية والشبهات الدينية.
- ٣ - التحدّي العلمي للسلطة وعلمائها.
- ٤ - توسيع دائرة النفوذ في جهاز السلطة.

١ - تجنّب إثارة الحكّام وعمالهم

اتّسم سلوك الإمام الهادي عليه السلام طوال فترة إمامته بتجنّب أيّة إثارة للسلطة بدءاً بما فرض عليه من مؤدّب يتولّى أمره، ثم الاستجابة لدعوة المتوكل واستقدامه الى سامراء، وفسح المجال للتفتيش الذي قد تكرر في المدينة وسامراء، بل تعدى ذلك إلى تطمين المتوكل بأنّ الإمام عليه السلام لا يقصد الثورة عليه، حين استعرض المتوكل قواته وقدرته العسكرية، وأحضر الإمام في هذا الاستعراض ليطلعه على ما يملكه من قوّة لئلاّ يفكر واحد من أهل بيته عليهم السلام بالخروج على الخليفة. وإذا بالإمام

الهادي عليه السلام يجيبه بقوله: «نحن لا نناقشكم»^(١) في الدنيا نحن مشغولون بأمر الآخرة فلا عليك شيء مما تظن»^(٢).

ولم يحصل المتوكل على أي مستمسك ضد الإمام بالرغم من التفتيش المفاجئ والمتكرر.

٢ - الردّ على الإثارات الفكرية والشبهات الدينية

في عصر الإمام عليه السلام امتحنت الأمة الإسلامية بما عُرف بمحنة خلق القرآن، والإثارات المستمرة حول الجبر والتفويض والاختيار.

وكانت للإمام الهادي عليه السلام مساهمات جادة في كيفية معالجة الموقف بشكل ذكي، والرسالة التي أثرت عن الإمام الهادي عليه السلام لأهل الأهواز تضمّنت ردّاً علمياً تفصيلاً على شبهة الجبر والتفويض، بل تضمّنت بيان منهج بدیع سلكه الإمام عليه السلام في مقام الرد. وحيث كان الغلو والتصوّف من الظواهر المنحرفة في المجتمع الإسلامي، فقد واجههما الإمام الهادي عليه السلام بالشكل المناسب لهاتين الظاهرتين^(٣).

٣ - التحدي العلمي للسلطة وعلمائها

لقد كان الاختبار العلمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام أقصر طريق للحكام لمعرفة ما هم عليه من الجدارة العلمية، التي هي إحدى مقومات الإمامة. وهو في نفس الوقت أقصر طريق لأهل البيت عليهم السلام للتألق العلمي في المجتمع الإسلامي. ومن هنا كانت السلطة بعد اجراء أي اختبار علمي تحاول التعتيم عليه؛ لئلا يستفيد أتباع أهل البيت عليهم السلام من هذه الورقة المهمة ضد السلطة الحاكمة.

(١) في بعض نسخ الخرائج: «لا نناقشكم» بدل «لا نناقشكم».

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٤١٥، بحار الأنوار ٥٠: ١٥٥.

(٣) راجع النقطة الثانية من الفصل الأول.

ولكن المصادر التاريخية قد حفظت لنا نصوص هذه الاختبارات، وفيها ما يدلّ على الرّد القاطع من أهل البيت عليه السلام على جميع التحديات العلمية التي خطت لهم وانتصارهم في هذا الميدان الذي كان يعيد لهم مرجعتهم الدينية في الأمة الإسلامية.

وإليك نموذجاً من هذا الاختبار الذي أجراه المتوكل، ثم حاول التعقيم عليه.

فقد روى ابن شهر آشوب أنّه: قال المتوكل لابن السكيت: «اسأل ابن الرضا مسألة عوصاء بحضرتي. فسأله، فقال: لم بعث الله موسى بالعصا، وبعث عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وبعث محمّداً بالقرآن والسيف؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر، فأتاهم من ذلك ما قهر سحرهم وبهرهم وأثبت الحجّة عليهم، وبعث عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على أهله الطب، فأتاهم من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله فقهرهم وبهرهم.

وبعث محمّداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم وقهر سيفهم، وأثبت الحجّة عليهم.

فقال ابن السكيت: فما الحجّة الآن؟

قال: العقل، يعرف به الكاذب على الله فيكذب^(١).

٤ - توسيع دائرة النفوذ في جهاز السلطة

إنّ النفوذ الذي نجده للإمام الهادي عليه السلام هو النفوذ المعنوي على عامة رجال السلطة بما فيهم من لا يدين بالولاية لأهل البيت عليه السلام.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٠٧، مسند الإمام الهادي عليه السلام: ٢٥.

وقد كانت أساليب الإمام عليه السلام في هذا المجال متنوعة وواسعة، فإنه كان مطالباً بالحضور في دار الخلافة بشكل مستمر، ومن هنا كان التعرف على شخص الإمام عليه السلام وهديه وسكونه واتزانه أمراً طبيعياً وفّر له هذه الفرصة التي لم يلتفت الحكّام إلى مدى تبعاتها وآثارها التي تركتها في الساحة الإسلامية العامّة، ورواد البلاط بشكل خاص.

وقد كانت للإمام عليه السلام كرامات شتى كلّما دخل وخرج من دار الخلافة. وقد قال أحد ندماء المتوكل للمتوكل: ما يعمل أحد بك أكثر مما عمله بنفسك في عليّ بن محمّد، فلا يبقى في الدار إلّا من يخدمه، ولا يتبعونه بشيل ستر ولا فتح باب ولا شيء، وهذا إذا علمه الناس قالوا: لو لم يعلم استحقاقه للأمر ما فعل به هذا، دعه إذا دخل يشيل الستر لنفسه، ويمشي كما يمشي غيره فيمسه بعض الجفوة. فتقدم ألا يخدم ولا يشال بين يديه ستر، وكان المتوكل ما رُئي أحدٌ ممّن يهتم بالخبر مثله.

قال: فكتب صاحب الخبر إليه: إنّ عليّ بن محمّد دخل الدار فلم يخدم، ولم يشل أحد بين يديه ستر، فهب هواء رفع الستر له فدخل. فقال: اعرفوا خبر خروجه، فذكر صاحب الخبر أنّ هواءً خالف ذلك الهواء شال الستر له حتى خرج، فقال: ليس نريد هواءً يشيل الستر، شيلوا الستر بين يديه ^(١).

كما نجد جملة من الكتاب والحجّاب والعيون وحتى السجّان، فضلاً عن بعض القادة والأمراء، كانوا يدينون بالولاء والحبّ الخاص للإمام الهادي عليه السلام، وقد رأينا في قصة مرض المتوكل ونذر أمّه للإمام الهادي عليه السلام ^(٢) ما يدل دلالة واضحة على مدى نفوذ الإمام عليه السلام في هذه الأوساط، بينما كان المتوكل قد خطّط لإبعاد الإمام عن شيعته ومحبيه، وإذا به عليه السلام يكتسح نفوذه المعنوي أرباب البلاط، ويستبصر على يديه مجموعة ممّن لم يكن يعرفه عليه السلام أو لم يكن ليواليه، وكان عليه السلام يستفيد من

(١) الأُمالي، الشيخ الطوسي: ٢٨٧، مسند الإمام الهادي عليه السلام: ٣٩.

(٢) راجع مبحث تفتيش دار الإمام عليه السلام في حكم المتوكل.

هؤلاء في تحرّكه وارتباطاته التي خطّط الحكّام لمراقبتها أو قطعها، وإبعاد الإمام عليه السلام عن قواعده وعن الوسط الاجتماعي الذي يريد أن يتحرّك فيه.

النقطة الثانية: الإمام الهادي عليه السلام وقضية حفيده المهدي عليه السلام:

إنّ قضية الإمام المهدي عليه السلام في عصر الإمام الهادي عليه السلام تعدّ قضية أساسية للمسلمين بشكل عام، ولأتباع أهل البيت عليه السلام بشكل خاص، والظروف التي كانت تحيط بالإمام الهادي عليه السلام كانت تزداد حرجاً كلّما اقتربت أيام ولادة الإمام المهدي عليه السلام وغيبته.

ولابدّ أن نبحث عن هذه القضية في محورين:

الأوّل: خاص بالإمام المهدي عليه السلام.

الثاني: يرتبط بأتباعه وشيعته.

أمّا المحور الأوّل: فالإمام الهادي عليه السلام كان مسؤولاً عن ترتيب التمهيدات اللازمة لولادة الإمام المهدي عليه السلام بحيث لا يطلع الأعداء عليها، وهم يراقبون بدقة كل تصرفات الإمام الهادي ونشاط ابنه الحسن العسكري عليه السلام. وتشير النصوص إلى كيفية تدخّل الإمام الهادي عليه السلام في اختيار زوجة صالحة للإمام الحسن العسكري عليه السلام لتقوم بالدور المطلوب منها في إخفاء ولادة ابنها المنتظر^(١).

وقد تضافرت نصوص الإمام الهادي عليه السلام على أنّ المهدي الذي ينتظر هو حفيده، وولد الإمام الحسن العسكري عليه السلام وأنّه الذي يولد خفية ويقول الناس عنه: إنّّه لم يولد بعد، وإنّه الذي لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه. وهكذا، وتضمّنت

(١) راجع القصة في كمال الدين: ٤١٧، ومسند الإمام الهادي: ٩٨ - ١٠٤.

هذه النصوص جملة من التعليمات الكفيلة بتحقيق غطاء ينسجم مع مهمة الاختفاء والغيبة من قبل الإمام المهدي عليه السلام.

ومن أجل تحقيق عنصر الارتباط بالإمام في مرحلة الغيبة الأولى التي تعرف بالصغرى، عمل الإمام الهادي عليه السلام على ربط شيعته ببعض وكلائه بشكل خاص، وجعله حلقة الوصل بعد كسب ثقة شيعته بهذا الوكيل، الذي تولّى مهمة الوكالة للإمام الهادي والعسكري والمهدي عليه السلام معاً، وبذلك يكون قد مهّد لسفارة أول سفراء الإمام المهدي عليه السلام من دون حدوث مضاعفات خاصة؛ لأنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام قد اعتادوا على الارتباط بالإمام المعصوم من خلاله.

وإليك بعض نصوص الإمام الهادي عليه السلام حول قضية الإمام المهدي عليه السلام:

١ - الكليني، عن عليّ بن محمّد، عن بعض أصحابنا، عن أيوب بن نوح، عن أبي الحسن الثالث عليه السلام قال: «إذا رفع علمكم من بين أظهركم فتوقّعوا الفرج من تحت أقدامكم»^(١).

٢ - الصدوق قال: حدّثنا عليّ بن أحمد بن موسى الدقاق؛ وعليّ بن عبد الله الورّاق رضي الله عنهما، قالوا: حدّثنا محمّد بن هارون الصوفي، قال: حدّثنا أبو تراب عبد الله بن موسى الرّوياني، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسنيّ، قال: كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام أسأله عن الفرج، فكتب إليّ: «إذا غاب صاحبكم عن دار الظالمين فتوقّعوا الفرج»^(٢).

٢ - إبراهيم بن محمّد بن فارس، قال: كنت أنا [ونوح] وأيوب بن نوح في طريق مكة فنزلنا على وادي زباله، فجلسنا نتحدّث فجرى ذكر ما نحن فيه وبعد الأمر علينا، فقال أيوب بن نوح: كتبت في هذه السنة أذكر شيئاً من هذا، فكتب إليّ: «إذا رفع علمكم من بين أظهركم فتوقّعوا الفرج من تحت أقدامكم»^(٣).

(١) الكافي ١: ٣٤١، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٨١.

(٢) كمال الدين: ٣٨٠، الإمامة والتبصرة: ٩٣.

(٣) كمال الدين: ٣٨١.

٣ - سعد بن عبدالله، عن محمد بن أحمد العلوي، عن أبي هاشم الجعفري، قال: سمعت أبا الحسن العسكري عليه السلام يقول: «الخلف من بعدي ابني الحسن، فكيف لكم بالخلف بعد الخلف؟! قلت: ولم جعلني الله فداك؟ قال: إنكم لا ترون شخصه، ولا محلّ لكم ذكره باسمه - قلت: فكيف نذكره؟ فقال: قولوا الحجة من آل محمد ﷺ»^(١).

٤ - عن الصقر بن أبي دلف، قال: سمعت علي بن محمد بن علي الرضا (عليهم السلام) يقول: «إن الإمام بعدي الحسن ابني، وبعد الحسن ابنه، القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(٢).

وأما المحور الثاني: فهو الإعداد النفسي وتحقيق الاستعداد الواقعي لدور غيبة الإمام المهدي عليه السلام من قبل شيعة الإمام عليه السلام.

وقد حقق الإمام الهادي عليه السلام هذا الاستعداد، وأخرجه من عالم القوة إلى عالم الفعلية بما خططه لشيعة من تعويدهم على الاحتجاب عنهم، والارتباط بهم من خلال وكلائه ونوابه، وتوعيتهم على الوضع المستقبلي لئلا يُفاجأوا بما سيطرأ عليهم من ظروف جديدة لم يألّفوها من ذي قبل.

وكان للإمام الهادي عليه السلام أسلوب خاص لطرح إمامة ابنه الحسن العسكري عليه السلام بما يتناسب مع مهمته المستقبلية في الحفاظ على حجة الله ووليّه، الذي سيولد في ظرف حرج جدّاً، ليتسنى لأتباعه الانقياد للإمام من بعده، والتسليم له فيما سيخبر به من وقوع الولادة وتحقق الغيبة، وتحقيق الارتباط به عبر سفيره الذي تعرّفت عليه الشيعة ووثقت به.

ولهذا تفنّن الإمام الهادي عليه السلام في كيفية طرح إمامة الحسن عليه السلام وزمن طرح ذلك وكيفية الإشهاد عليه.

ومنه يبدو أنّ التعتيم الإعلامي حتى على إمامة الحسن العسكري عليه السلام كان مقصوداً للإمام الهادي عليه السلام، فتارة ينفي إمامة غيره وأخرى يكتّبه، وثالثة يصفه

(١) الإمامة والنبصرة: ١١٨، وقد ذكره الكليني في الكافي ١: ٣٣٢، باختلاف يسير.

(٢) كمال الدين: ٣٨٣ ح ١٠ وعنه في إعلام الوري ٢: ٢٤٧.

ببعض الصفات التي قد توهم إرادة غيره في بادئ النظر، وترشد إليه في نهاية المطاف، كما ورد عنه أنّ هذا الأمر في الكبير من ولدي. حيث إنّ الكبير هو (محمّد) المكنى بأبي جعفر غير أنّه قد مات في حياة والده، فلم يكن الكبير سوى الحسن (عليه السلام).

وإليك جملة من هذه النصوص التي يمكن تصنيفها - بحسب تسلسلها الزمني - إلى ما صدر عن الإمام الهادي عليه السلام قبل وفاة أبي جعفر، وما صدر حين وفاته، وما صدر بعدها، وما صدر عنه قبيل استشهاد الإمام الهادي عليه السلام. ويكفي الإطلاع عليها بتسلسلها التاريخي لنطمئن بتخطيط الإمام الهادي عليه السلام من أجل تحصين الجماعة الصالحة من كل إبهام أو تشكيك أو فراغ عقائدي أو انهيار، بعد إيضاح الحقّ وتبلّجه لأهله الذين عرفوا أنّ الأرض لا تخلو من حجة، إما ظاهر مشهور أو خائف مستور.

وإليك هذه النصوص كالاتي:

١ - ... عن عليّ بن عمرو العطار، قال : دخلت على أبي الحسن العسكري عليه السلام وأبو جعفر ابنه في الأحياء ، وأنا أظنّ أنّه هو، فقلت : جعلت فداك، من أخصّ من ولدك ؟ فقال : « لا تخصوا أحداً حتى يخرج إليكم أمري ». قال : فكتبت إليه بعد : فيمن يكون هذا الأمر ؟ قال : فكتب إلي : « في الكبير من ولدي »^(١).

ولا تعني إشارة الإمام إلى ولده أبي جعفر، فهو يعلم أنّه سيمضي في حياته، وسيكون الكبير أبا محمّد العسكري عليه السلام وهو المؤهل لها دون غيره من إخوته .

٢ - ... وعن عليّ بن عمر النوفلي، قال : كنت مع أبي الحسن عليه السلام في صحن داره، فمرّ بنا محمّد ابنه فقلت له: جعلت فداك، هذا صاحبنا بعدك ؟ فقال : « لا، صاحبكم بعدي الحسن »^(٢).

(١) أصول الكافي ١ : ٣٢٦ ح ٧، الإرشاد ٢ : ٣١٦، إعلام الوری ٢ : ١٣٤.

(٢) أصول الكافي ١ : ٣٢٥ ح ٢، الإرشاد ٢ : ٣١٤.

النقطة الثالثة: استشهاد الإمام علي الهادي عليه السلام:

ظل الإمام الهادي عليه السلام يعاني من ظلم الحكّام وجورهم حتّى دُسَّ إليه السمّ، كما حدث لأبائه الطّاهرين، وقد قال الإمام الحسن عليه السلام: ما منّا إلّا مقتول أو مسموم^(١).

قال الطبرسي وابن الصباغ المالكي: في آخر ملكه^(٢)، استشهد وليّ الله عليّ بن محمّد عليه السلام^(٣).

وقال ابن بابويه: وسّمه المعتمد^(٤).

وقال المسعودي: وقيل: إنّّه مات مسموماً^(٥)؛ ويؤيد ذلك ما جاء في الدّعاء الوارد في شهر رمضان: وضاعف العذاب عليّ من شرك في دمه^(٦).

وقال سراج الدين الرفاعي في صحاح الأخبار: «وتوفي شهيداً بالسمّ في خلافة المعتز العباسي...»^(٧).

وقال محمّد عبدالغفار الحنفي في كتابه أئمة الهدى: «فلما ذاعت شهرته عليه السلام استدعاه الملك المتوكل من المدينة المنورة حيث خاف على ملكه وزوال دولته.. وأخيراً دُسَّ إليه السمّ...»^(٨).

والصحيح أنّ المعتز هو الذي دُسَّ إليه السمّ وقتله به.

(١) بحار الأنوار ٢٧: ٢١٦، ح ١٨، كفاية الأثر: ١٦٠.

(٢) أي المعتز.

(٣) إعلام الوری ٢: ١١٠، الفصول المهمة ٢: ١٠٧٥.

(٤) بحار الأنوار ٥٠: ١١٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٠٦.

(٥) مروج الذهب ٤: ١٨٥.

(٦) بحار الأنوار ٢٠٦: ٥٠، ح ١٩، إقبال الأعمال ١: ٢١٥.

(٧) إلزام الناصب: ٣٠٢.

(٨) راجع: الإمام الهادي من المهد إلى اللحد: ٥٠٩ - ٥١٠.

ويظهر أنه اعتلّ من أثر السمّ الذي سُقي، كما جاء في رواية محمد بن الفرّج، عن أبي دعامّة، حيث قال: أتيت عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى عائداً في علّته التي كانت وفاته منها في هذه السنة، فلمّا هممت بالانصراف قال لي: «يا أبا دعامّة، قد وجب حقّك، ألا أُحدّثك بحديث تسرّ به؟ قال: فقلت له: ما أحوّجني الى ذلك يا بن رسول الله.

قال: حدّثني أبي محمد بن عليّ، قال: حدّثني أبي عليّ بن موسى، قال: حدّثني أبي موسى بن جعفر، قال: حدّثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدّثني أبي محمد بن عليّ، قال: حدّثني أبي عليّ بن الحسين، قال: حدّثني أبي الحسين بن عليّ، قال: حدّثني أبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: اكتب يا عليّ: فقلت: «وما أكتب؟ فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، الإيمان ما قرّته القلوب وصدّفته الأعمال، والإسلام ما جرى على اللسان، وحلّت به المناكحة».

قال أبو دعامّة: فقلت: يا بن رسول الله، ما أدري أيّهما أحسن الحديث أم الإسناد؟! فقال: إنّها لصحيفة بخطّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله نتوارثها صاغراً عن كابر^(١).

قال المسعودي: واعتلّ أبو الحسن عليه السلام علّته التي مضى فيها فأحضر أبا محمد ابنه عليه السلام فسلم إليه النور والحكمة ومواريث الأنبياء والسّلاح^(٢). ونصّ عليه وأوصى إليه بمشهد من ثقات أصحابه ومضى (عليه السلام) وله أربعون سنة^(٣).

تجهيزه وحضور الخاصة والعامة لتشييعه

(١) بحار الأنوار ٢٠٨: ٥٠، مروج الذهب ٤: ١٨٤.

(٢) إثبات الوصيّة: ٢٥٧، عيون المعجزات: ١٢٢.

(٣) بحار الأنوار ٢١٠: ٥٠، عيون المعجزات: ١٢٢.

ولما قضى نجه تولى تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ولده الإمام أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام وذلك لأن الإمام لا يتولى أمره إلا الإمام . وما انتشر خبر رحيله الى الرفيق الأعلى حتى هرعت الجماهير من العامة والخاصة الى دار الإمام عليه السلام وخيم على سامراء جو من الحزن والحداد . قال المسعودي : سمعت في جنازته جارية سوداء وهي تقول: ماذا لقينا في يوم الاثنين (قديمًا وحديثًا) ^(١) .

ودفن في داره بسر من رأى، وكان مقامه عليه السلام (بسر من رأى) إلى أن توفي عشرين سنة وأشهرًا ^(٢) .

قال المسعودي: واشتد الحر على أبي محمد عليه السلام وضغطه الناس في طريقه ومنصرفه من الشارع بعد الصلاة عليه، فسار في طريقه الى دكان لبقال رآه مرشوشاً فسلم واستأذنه في الجلوس فأذن له، وجلس ووقف الناس حوله . فبينما نحن كذلك إذ أتاه شاب حسن الوجه نظيف الكسوة على بغلة شهباء على سرج بيردون أبيض قد نزل عنه، فسأله أن يركبه فركب حتى أتى الدار ونزل، وخرج في تلك العشيّة إلى الناس ما كان يخرج عن أبي الحسن (عليه السلام) حتى لم يفقدوا منه إلا الشخص ^(٣) .

لماذا دُفن الإمام عليه السلام في بيته؟

لقد جرت العادة عند العامة والخاصة أنه إذا توفي أحد أن يدفن في المكان المعدّ للموتى المسمّى - بالمقبرة أو الجبّانة - كما هو المتعارف في هذا العصر أيضاً، ولا يختلف هذا الأمر بالنسبة لأي شخص مهما كان له من المكانة والمنزلة، فقد

(١) بحار الأنوار ٢٠٧: ٥٠ ح ٢٢، مروج الذهب ٤: ١٨٣ .

(٢) إعلام الوري ٢: ١٢٧ .

(٣) إثبات الوصية: ٢٥٧، الدفعة الساكية ٨: ٢٢٢ .

كان ولا يزال في المدينة المحلّ المُعدّ للدفن - البقيع - حيث إنه مشوّى لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وزوجات النبي صلى الله عليه وآله، وأولاده، وكبار الصحابة والتابعين وغيرهم، كما أن مدفن الإمامين الجوادين عليهما السلام في مقابر قریش.

وأما السبب في دفن الإمام الهادي عليه السلام داخل بيته، فيعود إلى حصول ردود الفعل من الشيعة يوم استشهاده عليه السلام وذلك عندما اجتمعوا لتشييعه مظهرين البكاء والسخط على السلطة، الذي كان بمثابة توجيه أصابع الاتهام إلى الخليفة لصلوّه في قتله.

ويشير إلى تواجد أتباع مدرسة أهل البيت في سامراء المظفري في تاريخه إذ يقول: فكم كان بين الجند، والقواد، والأمرء، والكتّاب، من يحمل بين حنايا صلّوّه ولاء أهل البيت عليهم السلام ^(١).

كلّ هذا أدّى إلى اتّخاذ السلطة القرار بدفنه عليه السلام في بيته، وإن لم تظهر تلك الصورة في التاريخ بوضوح، إلّا أنّه يفهم ممّا تطرق إليه اليعقوبي في تاريخه عند ذكره حوادث عام (٢٥٤ هـ) ووفاة الإمام الهادي عليه السلام حيث يقول: وبعث المعتمر بأخيه أحمد بن المتوكل فصلّى عليه في الشارع المعروف بشارع أبي أحمد، فلمّا كثر الناس واجتمعوا كثر بكائهم وضجّتهم، فردّ النعش إلى داره، فدفن فيها... ^(٢) وتمكّنوا بذلك من إخماد لهيب الانتفاضة والقضاء على نقمة الجماهير الغاضبة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على وجود التحرك الشيعي رغم الظروف القاسية التي كان يعاني منها أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من سلطة الخلافة الغاشمة.

انتشار خبر استشهاد الإمام الهادي عليه السلام في البلاد

روى الحسين بن حمدان الحضيّني في كتاب الهداية في الفضائل: عن أحمد بن داود القميّ، ومحمّد بن عبدالله الطلحيّ قالا: حملنا ما جمعنا من خمس ونذور

(١) تاريخ الشيعة: ١٠١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٥٠٣: ٢.

وبر من غير ورق وحليّ وجوهر وثياب من بلاد قم وما يليها، وخرجنا نريد سيّدنا أبا الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام، فلمّا وصلنا الى دسكرة الملك ^(١) تلقّانا رجل راكب على جمل، ونحن في قافلة عظيمة، فقصدَ إلينا فقال: يا أحمد ابن داود ومحمّد بن عبد الله الطلحي معي رسالة إليكم، فقلنا: من أين يرحمك الله؟ فقال: من سيّد كما أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام يقول لكما: أنا راحل الى الله في هذه الليلة، فأقيما مكانكما حتى يأتيكما أمر ابني أبي محمّد الحسن، فخشعت قلوبنا وبكت عيوننا وأخفينا ذلك، ولم نظهره، ونزلنا بدسكرة الملك واستأجرنا منزلاً وأحرزنا ما حملناه فيه، وأصبحنا والخبر شائع في الدسكرة بوفاة مولانا أبي الحسن عليه السلام، فقلنا: لا إله إلا الله أترى الرّسول الذي جاء برسالته أشاع الخبر في الناس؟

فلمّا أن تعالى النّهار رأينا قوماً من الشيعة على أشدّ قلق ممّا نحن فيه، فأخفينا أمر الرسالة ولم نظهره ^(٢).

تاريخ استشهاد عليه السلام

اختلف المؤرّخون في يوم استشهاد عليه السلام، كما اختلفوا في من دسّ إليه السمّ. والتحقيق أنّه عليه السلام استشهد في أواخر ملك المعتزّ كما نصّ عليه غير واحد من المؤرّخين، وبما أنّ أمره كان يهمّ حاكم الوقت، وهو الذي يتولّى تدبير هذه الأمور كما هو الشأن، فإنّ المعتزّ أمر بذلك، ويمكن أن يكون قد استعان بالمعتمد في دسّ السمّ إليه.

وأما يوم شهادته عليه السلام فقد قال ابن طلحة في مطالب السؤل: إنّّه مات في جمادى الآخرة لخمس ليال بقين منه ^(١) ووافقه ابن خشّاب ^(٢)، وقال الكليني في الكافي: ومضى لأربع بقين من جمادى الآخرة ^(٣)، ووافقه المسعودي ^(٤).

(١) الدسكرة: قرية في طريق خراسان قريبة من شهربان (وهي قرية كبيرة ذات نخل وبساتين من نواحي الخالص شرقي بغداد)، وهي دسكرة الملك (معجم البلدان: ٤٥٥/٢ و ٣٧٥/٣).

(٢) الدمعة الساكية ٢٢٣: ٨، الهداية الكبرى: ٣٤٢.

وأما المفيد في الإرشاد، والإربلي في كشف الغمّة، والطبرسي في إعلام الوري، فقالوا: قبض عليه السلام في رجب، ولم يحدّوا يومه ^(٥).
ولكن الكلّ متفقون على أنّه استشهد في سنة أربع وخمسين ومائتين للهجرة ^(٦).
وعن الحضيبي أنّه قال: حدّثني أبو الحسن عليّ بن بلال وجماعة من إخواننا أنّه لما كان اليوم الرابع من وفاة سيّدنا أبي الحسن عليه السلام أمر المعتزّ بأنّ ينفذ إلى أبي محمّد عليه السلام من يستر كبه إليه ليعزيّه ويسأله، فركب أبو محمّد عليه السلام إلى المعتزّ، فلمّا دخل عليه رحّب به وقرّبه وعزّاه، وأمر أن يُثبت في مرتبة أبيه عليه السلام. وأثبت له رزقه وأن يدفعه، فكان الذي يراه لا يشكّ أنّه في صورة أبيه عليه السلام.
 واجتمعت الشيعة كلّها من المهتدين على أبي محمّد بعد أبيه إلا أصحاب فارس بن حاتم بن ماهويه، فإنّهم قالوا بإمامة أبي جعفر محمّد بن أبي الحسن صاحب العسكر ^(٧).
إنّ ما صدر عن المعتزّ كان من باب التمويه والخداع، لكي يغطّي على جريمتة التي ارتكبها بحق أبيه، وكان هذا ديدن من تقدّمه من الطواغيت تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام ^(٨).

* * *

(١) مطالب السؤل: ٤٧٤.

(٢) الدمعة الساكبة ٨: ٢٢٥ و ٢٢٧.

(٣) الكافي ١: ٤٩٧.

(٤) مروج الذهب ٤: ١٩٣.

(٥) الدمعة الساكبة ٨: ٢٢٦ و ٢٢٧، إعلام الوري بأعلام الهدى: ٣٣٩، كشف الغمّة ٢: ٣٧٦، الإرشاد ٢: ٢٩٧.

(٦) راجع: لمحات من حياة الإمام الهادي عليه السلام: ١١٢ - ١٢٠ محمّد رضا سيويه.

(٧) الدمعة الساكبة ٨: ٢٢٥، الهداية الكبرى: ٣٨٤.

(٨) لمحة من حياة الإمام الهادي عليه السلام: ١٢١ - ١٢٢.

الفصل الرابع

الإمام الهادي عليه السلام

وتكامل بناء الجماعة الصالحة وتحسينها

١ - الإمام الهادي عليه السلام وقضية حفيده المهدي عليه السلام:

عرفنا أن قضية الإمام المهدي عليه السلام في عصر الإمام الهادي عليه السلام تعدّ قضية أساسية للمسلمين بشكل عام، ولأتباع أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، والظروف التي كانت تحيط بالإمام الهادي عليه السلام كانت تزداد حرجاً كلما اقتربت أيام ولادة الإمام المهدي عليه السلام وغيبته.

ولابدّ أن نبحث عن هذه القضية في محورين:

الأول: خاص بالإمام المهدي عليه السلام.

الثاني: يرتبط بأتباعه وشيعته.

أمّا المحور الأول: فالإمام الهادي عليه السلام كان مسؤولاً عن ترتيب التمهيدات اللازمة لولادة الإمام المهدي عليه السلام بحيث لا يطلع الأعداء عليها، وهم يراقبون بدقة كل تصرفات الإمام الهادي ونشاط ابنه الحسن العسكري عليه السلام. وتشير النصوص إلى كيفية تدخل الإمام الهادي عليه السلام لاختيار زوجة صالحة للإمام الحسن العسكري عليه السلام لتقوم بالدور المطلوب منها في إخفاء ولادة ابنها المنتظر^(١).

وقد تضافرت نصوص الإمام الهادي عليه السلام على أنّ المهدي الذي ينتظر هو حفيده، وولد الإمام الحسن العسكري عليه السلام وأنّه الذي يولد خفية ويقول الناس عنه إنّّه لم يولد بعد، وإنّه الذي لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه. وهكذا، وتضمّنت هذه النصوص جملة من التعليمات الكفيلة بتحقيق غطاء ينسجم مع مهمة الاختفاء والغيبة من قبل الإمام المهدي عليه السلام.

(١) راجع القصة في كمال الدين: ٤١٧، ومسند الإمام الهادي: ٩٨ - ١٠٤.

ومن أجل تحقيق عنصر الارتباط بالإمام في مرحلة الغيبة الأولى التي تعرف بالصغرى، عمل الإمام الهادي عليه السلام على ربط شيعته ببعض وكلائه بشكل خاص، وجعله حلقة الوصل بعد كسب ثقة شيعته بهذا الوكيل، الذي تولّى مهمة الوكالة للإمام الهادي والعسكري والمهدي عليهم السلام معاً، وبذلك يكون قد مهّد لسفارة أول سفراء الإمام المهدي عليه السلام من دون حدوث مضاعفات خاصة؛ لأنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام قد اعتادوا على الارتباط بالإمام المعصوم من خلاله.

وإليك بعض نصوص الإمام الهادي عليه السلام حول قضية الإمام المهدي عليه السلام:

١ - عنه قال: حدثنا أبي عليه السلام قال: حدثنا عبدالله بن جعفر الحميري، عن محمد بن عمر الكاتب، عن علي بن محمد الصيمري، عن علي بن مهزيار، قال: كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام أسأله عن الفرج، فكتب إليّ: «إذا غاب صاحبكم عن دار الظالمين فتوقّعوا الفرج»^(١).

٢ - عنه قال: حدثنا أبي عليه السلام قال: حدثنا سعد بن عبدالله، قال: حدثنا محمد بن عبدالله بن أبي غانم القزويني، قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن فارس، قال: كنت أنا [ونوح] وأيوب بن نوح في طريق مكة فنزلنا على وادي زباله، فجلسنا نتحدث فجرى ذكر ما نحن فيه وبعد الأمر علينا، فقال أيوب بن نوح: كتبت في هذه السنة أذكر شيئاً من هذا، فكتب إليّ: «إذا رفع علمكم من بين أظهركم فتوقّعوا الفرج من تحت أقدامكم»^(٢).

٣ - عن الصقر بن أبي دلف، قال: سمعت علي بن محمد بن علي الرضا عليه السلام يقول: «إنّ الإمام بعدي الحسن ابني، وبعد الحسن ابنه، القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(٣).

(١) كمال الدين: ٣٨٠، الإمامة والتبصرة: ٩٣.

(٢) كمال الدين: ٣٨١.

(٣) كمال الدين: ٣٨٣ ح ١٠ وعنه في إعلام الوري ٢: ٢٤٧.

وأما المحور الثاني: فهو الإعداد النفسي وتحقيق الاستعداد الواقعي لدور غيبة الإمام المهدي عليه السلام من قبل شيعة الإمام عليه السلام.

وقد حقق الإمام الهادي عليه السلام هذا الاستعداد، وأخرجه من عالم القوة إلى عالم الفعلية بما خططه لشيعة من تعويدهم على الاحتجاب عنهم، والارتباط بهم من خلال وكلائه ونوابه، وتوعيتهم على الوضع المستقبلي لئلا يُفاجأوا بما سيطرأ عليهم من ظروف جديدة لم يألّفوها من ذي قبل.

وكان للإمام الهادي عليه السلام أسلوب خاص لطرح إمامة ابنه الحسن العسكري عليه السلام بما يتناسب مع مهمته المستقبلية في الحفاظ على حجة الله ووليّه، الذي سيولد في ظرف حرج جدّاً، ليتسنى لأتباعه الانقياد للإمام من بعده، والتسليم له فيما سيخبر به من وقوع الولادة وتحقيق الغيبة، وتحقيق الارتباط به عبر سفيره الذي تعرّف عليه الشيعة ووثقت به.

ولهذا تفنّن الإمام الهادي عليه السلام في كيفية طرح إمامة الحسن عليه السلام وزمن طرح ذلك وكيفية الإشهاد عليه.

ومنه يبدو أنّ التعظيم الإعلامي حتى على إمامة الحسن العسكري عليه السلام كان مقصوداً للإمام الهادي عليه السلام، فتارة ينفي إمامة غيره وأخرى يكتّبه، وثالثة يصفه ببعض الصفات التي قد توهم إرادة غيره في بادئ النظر، وترشد إليه في نهاية المطاف، كما ورد عنه أنّ هذا الأمر في الكبير من ولدي. حيث إنّ الكبير هو (محمّد) المكنى بأبي جعفر غير أنّه قد مات في حياة والده، فلم يكن الكبير سوى الحسن عليه السلام.

وإليك جملة من هذه النصوص التي يمكن تصنيفها - بحسب تسلسلها الزمني - إلى ما صدر من الإمام الهادي عليه السلام قبل وفاة أبي جعفر، وما صدر حين وفاته، وما صدر بعدها، وما صدر منه قبيل استشهاد الإمام الهادي عليه السلام. ويكفي الإطلاع عليها بتسلسلها التاريخي لنطمئن بتخطيط الإمام الهادي عليه السلام من أجل تحصين الجماعة الصالحة من كل إبهام أو تشكيك أو فراغ عقائدي أو إنهيار، بعد إيضاح الحقّ

وتبَلِّجه لأهله الذين عرفوا أنَّ الأرض لا تخلو من حجة، إما ظاهر مشهور أو خائف مستور.

وإليك هذه النصوص كآلآتي:

١ - ... عن عليّ بن عمرو العطار، قال : دخلت على أبي الحسن العسكري عليه السلام وأبو جعفر ابنه في الأحياء ، وأنا أظن أنه هو، فقلت : جعلت فداك، من أخص من ولدك ؟ فقال : « لا تخصوا أحداً حتى يخرج إليكم أمري ». قال : فكتبت إليه بعد : فيمن يكون هذا الأمر ؟ قال : فكتب إلي : « في الكبير من ولدي »^(١).

ولا تعني إشارة الإمام إلى ولده أبي جعفر، فهو يعلم أنه سيمضي في حياته، وسيكون الكبير أبا محمد العسكري عليه السلام وهو المؤهل لها دون غيره من إخوته .
٢ - ... وعن عليّ بن عمر النوفلي، قال : كنت مع أبي الحسن (عليه السلام) في صحن داره، فمرّ بنا محمد ابنه فقلت له : جعلت فداك، هذا صاحبنا بعدك ؟ فقال : « لا ، صاحبكم بعدي الحسن »^(٢).

٣ - عن اسحق بن محمد، عن محمد بن يحيى بن رئاب، قال : حدثني أبو بكر الفهفكي، قال : كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن مسائل، فلما نفذ الكتاب قلت في نفسي : إني كتبت فيما كتب أسأله عن الخلف من بعده، وذلك بعد مضي محمد ابنه فأجابني عن مسألي : « وكنت أردت أن تسألني عن الخلف، أبو محمد ابني أصح آل محمد صلى الله عليه وآله غريزة وأوثقهم عقيدة بعدي، وهو الأكبر من ولدي إليه تنتهي عرى الإمامة وأحكامها، فما كنت سائلاً عنه فسله، فعنده علم ما يحتاج إليه والحمد لله »^(٣).

(١) أصول الكافي : ١ / ٣٢٦ ح ٧، الإرشاد ٢ : ٣١٦، إعلام الوری ٢ : ١٣٤.

(٢) أصول الكافي : ١ / ٣٢٥ ح ٢، الإرشاد ٢ : ٣١٤.

(٣) إثبات الوصية : ٢٠٨ .

٤ - عن علان الكلابي، عن إسحق بن إسماعيل النيشابوري، قال: حدثني شاهويه بن عبد الله الجلاب، قال: كنت رويت دلائل كثيرة عن أبي الحسن عليه السلام في ابنه محمد، فلما مضى بقيت متحيراً وخفت أن أكتب في ذلك فلا أدري ما يكون، فكتبت أسأل الدعاء، فخرج الجواب بالدعاء لي وفي آخر الكتاب: «أردت أن تسأل عن الخلف وقلقت لذلك، فلا تغتم فإن الله عز وجل لا يضل قوماً بعد أن هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وصاحبك بعدي أبو محمد ابني عنده علم ما تحتاجون إليه، يقدم الله ما يشاء، ويؤخر ما يشاء قد كتبت بما فيه تبيان لذي لب يقظان»^(١).

٥ - حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني عليه السلام قال: حدثنا علي بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد الموصلي، قال: حدثنا الصقر بن أبي دلف، قال: سمعت علي بن محمد بن علي الرضا عليه السلام يقول: «إن الإمام بعدي الحسن ابني، وبعد الحسن ابنه القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(٢).

٦ - عن علي بن محمد، عن محمد بن أحمد النهدي، عن يحيى بن يسار القنبري، قال: أوصى أبو الحسن عليه السلام إلى ابنه الحسن قبل مضيّه بأربعة أشهر، وأشهدني على ذلك وجماعة من الموالي^(٣).

٢ - تحصين الجماعة الصالحة وإعدادها لمرحلة الغيبة

إنّ هذا الترصين وإكمال البناء الذي نريد الحديث عنه قد قام به الإمام الهادي عليه السلام في كل المجالات التي تهتم الجماعة الصالحة، التي سوف تفقد نعمة الارتباط بالإمام المعصوم عليه السلام في وقت لاحق وقريب جداً. فلا بد أن يتكامل بناؤها بحيث تكتفي بما لديها من نصوص وتراث علمي، وعلماء بالله تعالى يمارسون مهمة الريادة الاجتماعية والفكرية والدينية، ويسهرون على مصالح وشؤون هذه الجماعة لتستمر في مسيرتها التكاملية باتجاه الأهداف الرسالية المرسومة لها.

ونلخص هذا التحصين في المجالات التالية:

(١) إثبات الوصية : ٢٠٩، الكافي ١: ٣٢٨ مع اختلاف سير.

(٢) كمال الدين : ٣٨٣ ح ١٠ وعنه في إعلام الوري ٢: ٢٤٧.

(٣) أصول الكافي : ١ / ٣٢٥ ح ١ باب النصّ على إمامة أبي محمد (عليه السلام)، الإرشاد ٢: ٣١٤، الغيبة: ٢٠٠.

الف: التحصين العقائدي.

ب: التحصين العلمي.

ج: التحصين التربوي.

د: التحصين الأمني.

هـ: التحصين الاقتصادي

أ: التحصين العقائدي

تمثّل التحصين العقائدي الذي مارسه الإمام عليه السلام في تبيان وشرح وتعميق المفاهيم العقائدية بشكل خاص، والدينية بشكل عام. كما تمثّل في دفع الشبهات والإثارات الفكرية التي كانت تتداولها المدارس الفكرية آنذاك.

والنصوص التي أثرت عن الإمام عليه السلام حول الرؤية والجبر والاختيار والتفويض، والرد على الشبهات المثارة حول آيات القرآن الكريم، تفيد تصدّي الإمام عليه السلام لهذا التحصين العقائدي في الساحة الإسلامية العامّة والخاصّة معاً.

ولم يكتف الإمام عليه السلام بالردّ على الشبهات العامّة، بل تصدّى للردّ الخاص منها، على ما كان يثار من تساؤلات خاصة تعرض لأفراد من أتباعه، أو ممن كان يتوسّم فيهم الإمام عليه السلام الانقياد للحقّ، كبعض الواقفة الذين اهتموا بفضل توجيهات الإمام عليه السلام.

قال عليّ بن مهزيار: وردت العسكر وأنا شاكّ في الإمامة، فرأيت السلطان قد خرج الى الصيد في يوم الربيع إلّا أنّه صائف، والناس عليهم ثياب الصيف، وعلى أبي الحسن لباد وعلى فرسه تجفاف لبود وقد عقد ذنب الفرس، والناس يتعجبون منه ويقولون: ألا ترون إلى هذا المدني وما قد فعل بنفسه، فقلت في نفسي: لو كان هذا إماماً، ما فعل هذا.

فلما خرج الناس الى الصحراء لم يلبثوا أن ارتفعت سحابة عظيمة هطلت، فلم يبق أحد إلّا ابتلّ، حتى غرق بالمطر، وعاد عليه السلام وهو سالم من جميعه، فقلت في

نفسي: يوشك أن يكون هو الإمام، ثم قلت: أريد أن أسأله عن الجنب إذا عرق في الثوب، فقلت في نفسي: إن كشف وجهه فهو الإمام. فلما قرب مني كشف وجهه ثم قال: إن كان عرق الجنب في الثوب وجنابته من حرام لا يجوز الصلاة فيه، وإن كانت جنابته من حلال فلا بأس. فلم يبق في نفسي بعد ذلك شبهة^(١).

الموقف من الغلاة والفرق المنحرفة

يعتبر موقف الإمام الهادي عليه السلام الصارم من الغلاة خطوة من خطوات التحصين العقائدي للجماعة الصالحة، وإبعادها عن عوامل الانحراف والزيغ العقائدي الذي ينتهي إلى الكفر بالله تعالى أو الشرك به. ويكمن نشاطه عليه السلام في فضح حقيقة هذا الخط المنحرف كما تجلى في فضح عناصره.

والنصوص التي بأيدينا أشارت إلى أن الذين عرفوا بالغلو في عصره هم: أحمد بن هلال العبرطائي البغدادي، والحسين بن عبيد الله القمي، الذي أخرج من قم لآتهامه بالغلو، ومحمد بن أرومة، وعلي بن حسكة القمي، والقاسم اليقطيني، والفهري، والحسن بن محمد بن بابا القمي، وفارس بن حاتم القزويني.

وأما كيفية تعامل الجماعة الصالحة، مع هؤلاء فقد بيّنه عليه السلام فيما يلي: فعن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى، قال: كتبت إليه عليه السلام في قوم يتكلمون ويقرأون أحاديث ينسبون لها إليك وإلى آبائك فيها ما تشمئز منها القلوب... وأشياء من الفرائض والسنن والمعاصي تأولوها.. فإن رأيت أن تبين لنا وأن تمن على مواليك بما فيه السلامة لمواليك ونجاتهم من هذه الأقاويل التي تخرجهم إلى الهلاك؟ فكتب عليه السلام: «ليس هذا ديننا فاعتزله»^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٦.

(٢) رجال الكشي ٢: ٨٠٢، ح ٩٩٤.

ب: التحصين العلمي

إنَّ النقطة الجوهرية لتحقيق ورفع المستوى العلمي الذي تحتاجه الجماعة الصالحة، هي تربية العلماء والكفاءات العلمية المتخصصة في مختلف الفروع العلمية الإسلامية، ثم إعطاء العلماء بالشرعية الموقع المتميز في المجتمع الإسلامي. وهذا ما سار عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام بلا استثناء.

وتميّز عصر الإمام الهادي عليه السلام بأنّه العصر الممهد لعصر الغيبة، حيث ينقطع الناس عن إمامهم ولا يبقى للناس أي ملجأ فكري وديني سوى العلماء بالله الأمانة على حلاله وحرامه.

ومن هنا كان اهتمام الإمامين العسكريين بالعلماء بليغاً جداً، حيث عبّر عنهم بأنهم الكافلون لأيتام آل محمد، وكان التبجيل والإجلال في سيرة الإمام الهادي عليه السلام لمثل هؤلاء العلماء ملفتاً للنظر جداً^(١).

ومن يقرأ تراث الإمام الهادي عليه السلام يلاحظ استمرار العطاء العلمي في هذا العصر، الى جانب الاهتمام بإيضاح المنهج العلمي الذي كان يبتغيه أهل البيت عليهم السلام وتصلّيهم لتعميقه.

وتكفي قراءة سريعة لرسالة الإمام الهادي عليه السلام الى أهل الأهواز لتلمس مدى اهتمامه عليه السلام بالتأصيل النظري والتربية على سلوك المنهج العلمي السليم.

ج: التحصين التربوي

بالرغم من كل الظروف التي فرضت على الإمام الهادي عليه السلام لعزله عن شيعته ومحبيه فإننا نجده عليه السلام يمارس مسؤولياته التربوية بكل ما يتسنى له من الوسائل التي تكون أبلغ في التأثير، فهو تارة يدعو لبعض شيعته ويتوجّه الى الله ليقضي حوائجهم، وأخرى يلبي حاجاتهم المادية فيسعفهم بمقدار من المال. وثالثة يباشرهم بالكلام الصريح حول المزالق التي تنتظرهم.

(١) راجع الفصل الثالث من الباب الأول.

فهذا أخوه موسى الذي نصب له المتوكل مصيدة ليقعه فيما هو غير لائق به، ويفضحه ويفضح أخاه الإمام الهادي عليه السلام يتصدى الإمام بنفسه ليوافقه قبل أن يلتقي بالمتوكل، ويحاول أن يبصره بحقيقة ما ينتظره من مخاوف وأخطار معنويته^(١). أكثر من مورد يبادر الإمام عليه السلام لتقديم تجربة حسية يعيش من خلالها أتباعه معنى التوجه الى الله واللجوء إليه في المهمات، ثم يبصرهم بعد ذلك بأهمية هذا المبدأ.

فعن أبي محمد الفحام بالإسناد عن أبي الحسن محمد بن أحمد، قال: حدثني عمّ أبي، قال: قصدت الإمام يوماً فقلت: يا سيدي إنّ هذا الرجل قد أطرحتني وقطع رزقي وملني وما اتهم في ذلك إلا علمه بملازمته لك فإذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك، فينبغي أن تتفضل عليّ بمسألته، فقال: تكفي إن شاء الله، فلمّا كان في الليل طرقتي رسل المتوكل، رسول يتلو رسولاً، فجئت والفتح على الباب قائم... فقال: يا أبا موسى، نشغل عنك وتنسينا نفسك، أي شيء لك عندي؟

فقلت: الصلة الفلانية والرزق الفلاني، وذكرت أشياء فأمر لي بها وبضعفها، فقلت للفتح وافى عليّ بن محمد الى هاهنا؟ قال: لا، فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا، فوليت منصرفاً فتبعني، فقال لي: لست أشك أنك سألته دعاءً لك، فالتمس لي منه دعاءً، فلمّا دخلت إليه عليه السلام قال لي: يا أبا موسى، هذا وجه الرضا، قلت: ببركتك يا سيدي، ولكن قالوا إنّك ما مضيت إليه ولا سألت، فقال: «إنّ الله تعالى علم منا إنّنا لا نلجأ في المهمات إلاّ إليه، ولا نتوكّل في الملّات إلاّ عليه، وعودنا إذا سألنا الإجابة ونخاف أن نعدل فيعدل»^(٢).

وعن عليّ بن جعفر قال: عرضت أمري على المتوكل، فأقبل على عبيد الله بن يحيى بن خاقان فقال له: لا تتعب نفسك بعرض قصة هذا وأشباهه، فإنّ عمّه أخبرني

(١) راجع الكافي ١: ٥٠٢.

(٢) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٢٨٦.

أنّه رافضي، وأنّه وكيل عليّ بن محمّد، وحلف أن لا يخرج من الحبس إلّا بعد موته.

فكتبت إلى مولانا: إنّ نفسي قد ضاقت وإنّي أخاف الزيف، فكتب إليّ: «أمّا إذا بلغ الأمر منك ما أرى، فسأقصد الله تبارك وتعالى فيك». فما عادت الجمعة حتى أُخرجت من السجن^(١).

ويمكن تلخيص المنهج العام للتربية وبناء الذات عند الإمام الهادي عليه السلام بما يلي:

١ - التوجيه التربوي من خلال الأحاديث التربوية التي تقدّم للإنسان أهم المفاهيم التربوية^(٢).

٢ - التأكيد على طاعة الله تعالى.

٣ - التأكيد على أهمية التوجه الى الله في الحوائج وعدم طلب الحوائج من غيره^(٣).

٤ - أهمية الدعاء والالتزام به في بلورة روح التوحيد والتوكّل على الله.

٥ - الدعاء للمؤمنين.

٦ - السعي في قضاء حوائجهم.

٧ - الربط العاطفي بالقدوة الصالحة المتمثلة بأهل البيت عليه السلام من خلال زياراتهم ودراسة سيرتهم.

وأما دعاؤه للمؤمنين وسعيه في قضاء حوائجهم فيشهد له ما يلي:

١ - ما أجاب به الإمام عليه السلام على كتاب عمر بن أبي الفرج إليه: بأنّ نفسي قد ضاقت وإنّي أخاف الزيف، فكتب عليه السلام إليه: «أمّا إذا بلغ الأمر منك ما أرى، فسأقصد الله تبارك وتعالى فيك». قال عمر: فما عادت الجمعة حتى أُخرجتُ من السجن^(١).

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٦٦، وعنه بحار الأنوار ٥٠: ١٨٤.

(٢) راجع تراثه التربوي والأخلاقي في الفصل الأخير من الباب الرابع من أعلام الهداية (١٢).

(٣) راجع تحف العقول: ٣٦١، وكشف الغمّة: ١٧٦/٣.

٢ - روى المجلسي عن الخرائج: روي عن محمد بن الفرّج أنّه قال: إنّ أبا الحسن كتب إليّ: أجمع أمرك، وخذ حذرک، قال: فأنا في جمع أمري لست أدري ماالذي أراد فيما كتب به إليّ، حتى ورد عليّ رسول حملني من مصر مقيداً مصفّداً بالحديد، وضرب على كلّ ما أملك.

فمكثت في السجن ثماني سنين، ثم ورد عليّ كتاب من أبي الحسن عليه السلام وأنا في السجن «لا تنزل في ناحية الجانب الغربي» فقرأت الكتاب فقلت في نفسي: يكتب إليّ أبو الحسن عليه السلام بهذا وأنا في الحبس، إنّ هذا لعجيب! فما مكثت إلا أياماً يسيرة حتى أفرج عني، وحلّت قيودي وخلّي سبيلي. ولما رجع إلى العراق لم يقف ببغداد لما أمره أبو الحسن عليه السلام وخرج الى سرّ من رأى.

قال: فكتبته إليه بعد خروجي أسأله أن يسأل الله ليردّ عليّ ضياعي، فكتب إليّ: سوف يردّ عليك، وما يضرّك أن لا تردّ عليك.

قال عليّ بن محمد النوفلي: فلما شخص محمد بن الفرّج الى العسكر كتب له برّد ضياعه، فلم يصل الكتاب إليه حتى مات ^(٢).

وقضاء حوائج المؤمنين بالإضافة الى دوره التربوي يعدّ خطوة من خطوات التحصين الاقتصادي لهم، حيث يشكّل عاملاً من عوامل استقلالهم وعدم اضطرارهم للخضوع لكثير ممّا يستدلّ به الحكّام رعيّتهم.

د: التحصين الأمني

لقد مارس الإمام الهادي عليه السلام وظيفته بصفته الإمام والقائد لمواليه والراعي لمصالحهم، بالرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بالإمام عليه السلام وبشيّعته، من تتبع السلطة لهم ومطاردتهم وفرض الإقامة الجبرية على الإمام بعد إشخاصه من

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٤٠/٥٠، الخرائج والجرائح ٢: ٦٧٩، الكافي ١: ٥٠٠.

المدينة إلى سامراء ليكون قريباً من السلطان وتحت رقابته ، وتتجلى لنا مواقف الإمام عليه السلام في هذا الاتجاه في المحافظة التامة على شيعته ورعاية مصالحهم الخاصة والعامة، وقضاء حوائجهم وتحذيرهم مما تحوكه السلطة ضدّهم ، وما يجب أن يتخذوه من حيلة وكتمان لنشاطهم واتصالاتهم، حتى لا يقعوا في حائل السلطة الغاشمة التي كانت تترصد بهم وبالإمام عليه السلام الدوائر .

إنّ وصايا الإمام عليه السلام لأتباعه تظهر مدى اهتمامه بما يجري في الساحة أولاً ، ومدى قربيه من الأحداث العامة والخاصة ثانياً . وكانت أوامره تصل الجماعة الصالحة بشكل دقيق وسريع، بل قد تكون سابقة للأحداث في بعض الأحيان، لتتمكن تلك الجماعة من تجاوز ما يحاك ضدها .

كما أن إجراءات الإمام وأساليبه كانت مظهراً لعمل حركي وتنظيمي على درجة عالية من الدقة والتخطيط ، وهذا ما تكشفه لنا خطابات الإمام عليه السلام إلى شيعته التي كانت تحمل بين طياتها أدوات ووسائل مختلفة ومتعددة لمواجهة الظروف التي تحيط بهم .

هـ : التحصين الاقتصادي

عرفنا ممّا ذكر أنّ التحصين الاقتصادي هو أحد الأهداف المنظورة في تخطيط أهل البيت عليهم السلام للجماعة الصالحة، التي أرادوا لها أن تستقل في كيانها وتبتعد عن عوامل الضعف والإنهيار، التي تفرضها الظروف السياسية أو الاقتصادية العامة.

ولنظام الوكلاء دور مهم في هذا التحصين، كما أن الإمام عليه السلام بنفسه كان يباشر قضاء حوائجهم المادية في جملة من الأحيان.

دخل أبو عمرو عثمان بن سعيد وأحمد بن إسحاق الأشعري، وعليّ بن جعفر الهمداني على أبي الحسن العسكري، فشكا إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه، فقال :

يا أبا عمرو - وكان وكيله - إُدفع إليه ثلاثين ألف دينار، وإلى عليّ بن جعفر ثلاثين ألف دينار، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار^(١).

وعن أبي هاشم قال: شكوت إليه قصور يدي، فأهوى بيده إلى رمل كان عليه جالساً فناولني منه كفاً، وقال: اتسع بهذا. فقلت لصائغ: اسبك هذا، فسبكه وقال: ما رأيت ذهباً أشدّ حمرة منه^(٢).

وعن عبدالله بن عبدالرحمن الصّالحي أنّه شكّا أبو هاشم إلى أبي الحسن عليه السلام ما لقي من الشوق إليه إذا انحدر من عنده إلى بغداد، وقال: يا سيّدي، أدع الله لي فمالي مركوب سوى برذوني هذا على ضعفه. قال: قوّاك الله يا أبا هاشم وقوى برذونك. قال: فكان أبو هاشم يصلي الفجر ببغداد والظهر بسر من رأى والمغرب ببغداد إذا شاء^(٣). وبهذا نختم الكلام على الخطوط العامّة لدور الإمام عليه السلام في إكمال بناء الجماعة الصالحة وتحصينها وإعدادها للدخول إلى عصر الغيبة الذي سوف تقترب منه بسرعة.

* * *

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٢، أعيان الشيعة ٢: ٣٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٢، إعلام الوری ٢: ١١٨، مع اختلاف يسير.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٢، الخرائج والجرائح ٢: ٦٧٢.

الفصل الخامس

مدرسة الإمام الهادي عليه السلام وتراثه

لقد تميّز عصر الإمام الهادي عليه السلام عن عصر أبيه الإمام محمد الجواد عليه السلام بزيادة الكبت والضغط عليه من قبل السلطة، حتى كانت الرقابة الدائمة هي الأمر المميز والفارق الواضح في حياته وحياته ابنه الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

كما أنّ الإمام الهادي عليه السلام شارك أباه الجواد عليه السلام في تولّي مهمة الإمامة في صغر السن، وقبل إكمال عقده الأوّل من العمر . فكانت الإمامة المبكّرة، وتوجّس السلطة من قيادة خط المعارضة الذي دام قرنين وثلاثة عقود من الزمن في عهده عليه السلام، وترقّب ظهور المهدي من آل محمد صلّى الله عليه وآله من ولده هي ثلاث مميزات تميّزت بها فترة إمامته ، ومن هنا شدّدت الرقابة إلى أقصى حدّ، حتى انتهت إلى التصفية الجسدية بعد أن سيطر الخوف والرعب على طغاة عصره .

ومن هنا فإنّ كثرة أصحاب الإمام - الذين أحصاهم أحد المهتمّين بتاريخ هذا الإمام العظيم^(١) حيث ترجم له (٣٤٦) شخصاً كانوا قد ارتبطوا بالإمام ورووا عنه - وهو في تلك الظروف العصيبة ، لها دلالة كبيرة وواضحة على سعة نشاط الإمام الهادي عليه السلام في تلك الظروف الصعبة ، وعظمة هذا الإمام الذي استوعب بنشاطه السريّ المنظّم كل تلك العقبات، واجتازها بما يحقق له أهدافه من التمهيد فكرياً وعقائدياً ونفسياً لعصر الغيبة المرتقب، محافظاً على خط المعارضة بشكل تام ، مراقباً للأحداث بشكل مستمر، ومقدّماً لكل ظرف مستجد ما يتطلّبه من الخطوات والأنشطة، مراعيّاً التقدم الحضاري الذي كانت الأمة الإسلامية على مشارفه، وهو يريد أن تكون الجماعة الصالحة في موقع القيادة والقمة منه دائماً، وهكذا كان .

ومن هذه الزاوية ينبغي أن نطالع ما وصلنا من تراثه ومعالم مدرسته .

وينقسم الحديث في هذا الفصل إلى بحثين:

(١) راجع الإمام الهادي من المهدي إلى اللحد: السيد محمد كاظم القزويني .

الأول : مدرسة الإمام الهادي المتمثلة في أصحابه ورواة حديثه.
والثاني : تراثه الفكري والعلمي المدوّن أو المروي عنه.

البحث الأول: أصحاب الإمام عليه السلام ورواة حديثه

كان الإمام الهادي عليه السلام مقصداً لطلاب العلوم، لتنوع ثقافته وشمول معارفه ، فهو عليه السلام المتخصص في جميع العلوم ، والخبير في تفسير القرآن الكريم والمتضلّع في الفقه الإسلامي بشتى حقوله ومستوياته.
وقد مثل أصحابه الخط الرسالي في الأمة الإسلامية ، باعتبار اتصالهم بأهل البيت عليهم السلام، فرووا أحاديثه ودونوها في أصولهم . فكان لهم الفضل الكبير على العالم الإسلامي بما دوّنوه من تراث الأئمة الطاهرين، فلولاهم لضاعت ثروة كبيرة تشتمل على الإبداع والأصالة وتساير تطور الفكر البشري، بل وتتقدم عليه.
وتجدر الإشارة إلى أنّ كثيراً من ملامح عمل الإمام الهادي عليه السلام تنكشف من خلال أنشطة أتباعه المعتمدين، وتتعمق هذه الحقيقة بمقدار اشتداد الظروف الداعية للسرية في عمل الإمام عليه السلام.
وفيما يأتي تراجم بعض أصحاب الإمام الهادي عليه السلام، وقد رتبناها حسب تسلسل حروف الهجاء:

١ - إبراهيم بن عبدة النيسابوري

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام ومن أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وذكر الكشي أنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام بعث رسالة إلى إسحاق بن إسماعيل ، سلّم فيها على إبراهيم بن عبدة ، ونصبه وكيلاً على قبض الحقوق الشرعية، وقد بعثه إلى عبد الله بن حمدويه البيهقي ، وزوده برسالة جاء فيها : « وبعد ، فقد بعثت لكم إبراهيم بن عبدة ، ليدفع النواحي - وأهل ناحيتك - حقوق الواجبة عليكم إليه ، وجعلته ثقتي وأميني عند مواليّ هناك فليتقوا الله ، وليراقبوا

وليؤدوا الحقوق ، فليس لهم عذر في ترك ذلك ولا تأخير ، ولا أشقاهم الله بعصيان أوليائه ورحمهم الله - وإياك معهم - برحمتي لهم، إن الله واسع كريم^(١).

٢ - إبراهيم بن محمد الهمداني

عده الشيخ من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام ومن أصحاب الإمام الجواد والهادي عليه السلام، وقال الكشي : كان وكيله وقد حجّ أربعين حجة . وكتب الإمام له : « قد وصل الحساب تقبل الله منك ورضي عنهم ، وجعلهم معنا في الدنيا والآخرة ، وقد بعثت إليك من الدنانير بكذا ، ومن الكسوة بكذا ، فبارك لك فيه ، وفي جميع نعمة الله عليك ، وقد كتبت إلى النضر، أمرته أن ينتهي عنك ، وعن التعرض لك وبخلافك ، وأعلمته موضعتك عندي ، وكتبت إلى أيوب، أمرته بذلك أيضاً ، وكتبت إلى موالٍ بهمدان كتاباً أمرتهم بطاعتك والمصير إلى أمرك ، وأن لا وكيل لي سواك^(٢). » ودلت هذه الرواية على وثاقته وجلالة أمره ، وسمو مكانته عند الإمام عليه السلام.

٣ - إبراهيم بن مهزيار

عده الشيخ من أصحاب الإمام الجواد ، ومن أصحاب الإمام الهادي عليه السلام. وروى الكشي بسنده عن محمد بن إبراهيم بن مهزيار ، قال : إن أبي لما حضرته الوفاة دفع إليّ مالاً ، وأعطاني علامة ، ولم يعلم بتلك العلامة أحد إلا الله عز وجل ، وقال : من أتاك بهذه العلامة فادفع إليه المال ، قال : فخرجت إلى بغداد ، ونزلت في خان ، فلما كان في اليوم الثاني جاء شيخ ودق الباب ، فقلت للغلام : أنظر من هذا ، فقال : شيخ بالباب ، فقلت : ادخل ، فدخل وجلس ، فقال : أنا العمري ، هات المال الذي عندك ، وهو كذا وكذا ومعه العلامة ، قال : فدفعت له المال^(٣).

(١) معجم رجال الحديث ١: ٢٣٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٦٩.

(٣) خلاصة الأقوال: ٥١، اختيار معرفة الرجال ٢: ٨١٣.

ودلت هذه الرواية على أن إبراهيم كان وكيلاً للإمام عليه السلام في قبض الحقوق الشرعية ، ومن الطبيعي أنه إنما يؤتمن عليها فيما إذا كان ثقة وعدلاً.

٤ - أحمد بن إسحاق بن عبد الله الأشعري القمي

كان وافد القميين ، روى عن أبي جعفر الثاني وأبي الحسن عليه السلام وكان من خاصة أبي محمد عليه السلام ، وهو ممن رأى الإمام المهدي عليه السلام ووردت أخبار كثيرة في مدحه والثناء عليه ^(١).

٥ - أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الرضا والجواد والهادي عليه السلام ، يكنى أبا جعفر وهو شيخ القميين ووجههم ، وكان الرئيس الذي يلقي السلطان ^(٢).

٦ - أيوب بن نوح بن دراج

الثقة الأمين ، قال النجاشي : إنه كان وكيلاً لأبي الحسن ، وأبي محمد عليه السلام عظيم المنزلة عندهما ، مأموناً ، وكان شديد الورع ، كثير العبادة ، ثقة في رواياته ^(٣).

٧ - الحسن بن راشد

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام وعده الشيخ المفيد من الفقهاء الأعلام ، والرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام ، الذين لا يطعن عليهم بشيء ولا طريق لدم واحد منهم ، وقد نصبه الإمام وكيلاً وبعث إليه بعدة رسائل منها ^(١) :

(١) رجال النجاشي: ٩١، وخلاصة الأقوال: ٦٣.

(٢) معجم رجال الحديث ٣: ٨٦.

(٣) رجال النجاشي: ١٠٢.

ما رواه الكشي بسنده إلى محمد بن عيسى اليقطيني ، قال : كتب - يعني الإمام الهادي - إلى أبي علي بن بلال في سنة (٢٣٢ هـ) قال: « وأحمد الله إليك ، وأشكر طوله وعوده ، وأصلي على محمد النبي وآله ، صلوات الله ورحمته عليهم ، ثم إنني أقمت أبا علي مقام الحسين بن عبد ربه ، واثمته على ذلك بالمعرفة بما عنده الذي لا يقدمه أحد ، وقد أعلم أنك شيخ ناحيتك فأحببت إفرادك ، وإكرامك بالكتاب بذلك ، فعليك بالطاعة له ، والتسليم إليه جميع الحق قبلك ، وأن تحض موالي على ذلك ، وتعرفهم من ذلك ما يصير سبباً إلى عونه وكفايته ، فذلك موفور ، وتوفير علينا ، ومحبوب لدينا ، ولك به جزاء من الله وأجر ، فإن الله يعطي من يشاء ذو الإعطاء والجزاء برحمته ، وأنت في وديعة الله ، وكتبت بخطي وأحمد الله كثيراً »^(٢).

ودلت هذه الرسالة على فضل ابن راشد ووثاقته وأمانته ، فقد أرجع الإمام عليه السلام إليه الشيعة وأوصاهم بطاعته والانقياد إليه ، وتسليم ما عندهم من الحقوق الشرعية إليه .

ومن الطبيعي أنه لم يحتل هذه المنزلة إلا بتقواه وورعه ، وشدة تخرجه في الدين ، ولما توفي ابن راشد ترحم عليه الإمام عليه السلام ودعا له بالمغفرة والرضوان .

٨ - الحسن بن علي

وهو والد جد السيد المرتضى من جهة أمه ، قال السيد قدس سره في أول كتابه «شرح المسائل الناصريات» : «أما أبو محمد الناصر الكبير، وهو الحسن بن علي، ففضله في علمه وزهده وفقهه أظهر من الشمس الباهرة ، وهو الذي نشر الإسلام في الديلم حتى اهتدوا به من الضلالة ، وعدلوا بدعائه بعد الجهالة ، وسيرته الجميلة أكثر من أن تحصي وأظهر من أن تخفى»^(٣).

(١) رجال الطوسي: ٣٧٥.

(٢) معجم رجال الحديث ٥: ٣١٣ - ٣١٤.

(٣) الناصريات: ٦٣، معجم رجال الحديث ٦: ٣٢.

٩ - الحسن بن عليّ الوشا

وروى أحمد بن محمد بن عيسى قال : خرجت إلى الكوفة في طلب الحديث فلقيت بها الحسن بن عليّ الوشا ، فسألته أن يخرج لي كتاب العلاء ابن رزين القلا ، وأبان بن عثمان الأحمر ، فأخرجهما لي فقلت له : أحب أن تجيزهما لي ، فقال لي : يا رحمك الله ^(١) ، وما عجلتك ، إذهب فاكتبهما ، واسمع من بعد ، فقلت : لا آمن الحدّثان ، فقال : لو علمت أنّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرت منه ، فإنني أدركت في هذا المسجد ^(٢) تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد . وكان هذا الشيخ عيناً من عيون هذه الطائفة ، وله كتب منها : ثواب الحج ، والمناسك والنوادر ^(٣) .

١٠ - داود بن القاسم الجعفري

يكنى أبا هاشم ، من أهل بغداد ، جليل القدر عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام شاهد الإمام الرضا والجواد والهادي والعسكري وصاحب الأمر عليه السلام ، وروى عنهم كلهم ، وله أخبار ومسائل وله شعر جيد فيهم ، وكان مقدماً عند السلطان وله كتاب .

قال الكشي : قال أبو عمرو : له - أي لداود - منزلة عالية عند أبي جعفر ، وأبي الحسن ، وأبي محمد عليهم السلام وموقع جليل ^(٤) .

١١ - الريّان بن الصلت

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام ، ومن أصحاب الإمام الهادي عليه السلام وأضاف أنّه ثقة ، وروى الكشي بسنده عن معمر بن خلاد ، قال : قال لي الريّان بن الصلت : وكان الفضل بن سهل بعثه إلى بعض كور خراسان ، قال : أحب أن تستأذن

(١) هكذا البحث وردت في المصدر ، وفي بعض الكتب : فقال لي : يرحمك الله .

(٢) يعني مسجد الكوفة .

(٣) معجم رجال الحديث ٦ : ٣٨ .

(٤) اختيار معرفة الرجال ٢ : ٨٤١ .

لي علي أبي الحسن عليه السلام فأسلم عليه وأودعه وأحب أن يكسوني من ثيابه ، وأن يهب لي من الدراهم التي ضربت باسمه ، قال : فدخلت عليه ، فقال لي مبتدئاً : يا معمر أين ريان ، أيجب أن يدخل علينا فأكسوه من ثيابي ، وأعطيه من دراهمي ؟ قال : قلت : سبحان الله ! والله ما سألني إلا أن أسألك ذلك له ، فقال : يا معمر، إن المؤمن موفق ، قل له فليجيء ، قال : فأمرته فدخل عليه ، فسلم عليه فدعا بثوب من ثيابه ، فلما خرج قلت : أي شيء أعطاك ؟ وإذا بيده ثلاثون درهماً^(١) . وقد دلت هذه البادرة على حسن إيمانه وحسن عقيدته .

١٢ - عبد العظيم الحسني

هو السيد الشريف الحسيب النسيب من مفاخر الأسرة النبوية علماً وتقياً وتحرجاً في الدين، يرجع نسبه الشريف إلى الإمام الزكي أبي محمد الحسن بن عليّ، سيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله . كان ثقة عدلاً ، متحرجاً في دينه كأشد ما يكون التحرج ، كما كان عالماً وفاضلاً وفقياً ، فقد روى أبو تراب الروياني ، قال : سمعت أبا حماد الرازي ، يقول : دخلت على عليّ بن محمد عليه السلام بـ (سر من رأى) فسألته عن أشياء من الحلال والحرام فأجابني عنها ، فلما ودعته قال لي : «يا حماد، إذا أشكل عليك شيء من أمر دينك بناحيتك فسل عنه عبد العظيم بن عبد الله الحسني، وأقرئه مني السلام»^(٢) . ودلت هذه الرواية على فقهه وعلمه .

١٣ - عثمان بن سعيد العمري السمان

يكنى أبا عمرو ، الثقة الزكي ، خدم الإمام الهادي عليه السلام وله من العمر إحدى عشرة سنة ، احتلّ المكانة المرموقة عند الإمام عليه السلام ، فقد روى أحمد ابن إسحاق

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٢٤ .

(٢) معجم رجال الحديث ١١: ٥٣ .

القمي قال : دخلت على أبي الحسن عليّ بن محمد صلوات الله عليه في يوم من الأيام فقلت له : ياسيدي، أنا أغيب وأشهد ، ولا يتهيأ لي الوصول إليك إذا شهدت في كل وقت، فقول مَنْ نقبل ، وأمر مَنْ نمثل ؟ فقال عليه السلام لي : «هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ما قاله لكم فعنّي يقوله ، وما أدّاه إليكم فعنّي يؤديه» .

فلما مضى أبو الحسن عليه السلام وصلت إلى أبي محمد ابنه الحسن العسكري ذات يوم قلت له عليه السلام : مثل قولي لأبيه ، فقال لي : «هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ثقة الماضين ، وثقتي في الحيا والممات ، فما قاله لكم فعنّي يقوله ، وما أدّى إليكم فعنّي يؤديه»^(١) .

ودلت هذه الرواية على وثاقته ، وإنه قد نال منزلة الكريمة عند الأئمة الطاهرين عليه السلام ، كما دلت على فضله وعلمه ، وإنه كان مرجعاً للفتيا وأخذ الأحكام .

١٤ - عليّ بن مهزيار الأهوازي الدورقي

كان من مفاخر العلماء، ومن مشاهير تلاميذ الإمام الهادي عليه السلام. وأثنى الإمام الجواد عليه السلام ثناءً عاطراً على ابن مهزيار ، وكان مما أثنى عليه أنه بعث له رسالة جاء فيها : «... يا عليّ، قد بلوتك وخبرتكَ في النصيحة والطاعة والخدمة والتوقير ، والقيام بما يجب عليك ، فلو قلت : إني لم أر مثلك لرجوت أن أكون صادقاً، فجزاك الله جنات الفردوس نزلاً . وما خفي عليّ مقامك ولا خدمتك، في الحر والبرد ، والليل والنهار ، فاسأل الله إذا جمع الخلائق للقيامة أن يحبوك برحمة تغتبط بها، إنّه سمع الدعاء»^(٢) .

وكشفت هذه الرسالة عن إكبار الإمام وتقديره ودعائه له ، وإنه عليه السلام لم يرَ في أصحابه وغيرهم مثل هذا الزكي تقوى وورعاً وعلماً .

(١) معجم رجال الحديث ١٢: ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ١٣: ٢١١.

١٥ - الفضل بن شاذان النيشابوري

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام، وهو من أساطين العلماء، ومن أبرز رجال الفكر الإسلامي في عصره، خاض في مختلف العلوم والفنون وألف فيها، وقد أشاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام بالفضل بن شاذان، وأثنى عليه ثناءً عاطراً، فقد عرضت عليه إحدى مؤلفاته فنظر فيه فترحم عليه وقال: «أعبط أهل خراسان بمكان الفضل بن شاذان وكونه بين أظهرهم»^(١). ونظر عليه السلام مرة أخرى إلى مؤلف آخر من مؤلفاته فترحم عليه ثلاث مرات، وقال مقرضاً للكتاب: «هذا صحيح ينبغي أن يعمل به»^(٢).

١٦ - محمد بن أحمد المحمودي

يكنى أبا علي، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام، قال الكشي: وجدت بخط أبي عبد الله الشاذاني في كتابه: سمعت الفضل بن هاشم الهروي يقول: ذكر لي كثرة ما يحجّ المحمودي. فسألته عن مبلغ حجّاته فلم يخبرني بمبلغها، وقال: رزقت خيراً كثيراً والحمد لله، فقلت له: فتحجّ عن نفسك أو غيرك؟ فقال: عن غيري بعد حجّة الإسلام، أحجّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأجعل ما أجازني الله عليه لأولياء الله، وأهب ما أثاب على ذلك للمؤمنين والمؤمنات، فقلت: ما تقول في حجّتك؟ فقال: أقول: اللهم إني أهلت لرسولك محمد صلى الله عليه وآله وجعلت جزائي منك ومنه لأوليائك الطاهرين عليهم السلام، ووهبت ثوابي عنهم لعبادك المؤمنين والمؤمنات بكتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وآله... إلى آخر الدعاء^(١).

(١) جامع الرواة ٥: ٢، تهذيب الأحكام ١٠: ٤٩، اختيار معرفة الرجال ٢: ٨٢٠.

(٢) طرائف المقال ٢: ٦٣٢، تهذيب الأحكام ١٠: ٤٩، معجم رجال الحديث ١٤: ٣١٢.

١٧ - محمد بن الحسن بن أبي الخطاب الزيات

الكوفي الثقة ، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام عليّ الهادي عليه السلام ، قال النجاشي :
إنّه كان جليلاً من أصحابنا ، عظيم القدر ، كثير الرواية ، ثقة ، عين ، حسن
التصنيف ، مسكون إلى روايته ^(٢) .

١٨ - محمد بن الفرّج الرخجي

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام كانت له اتصالات وثيقة
بالإمام عليه السلام ، وجرت بينهما عدة مراسلات ، ومنها : ما رواه الكشي بسنده عن محمد
بن الفرّج : قال : كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن أبي عليّ بن راشد ، وعن
عيسى بن جعفر بن عاصم وابن بند ، فكتب عليه السلام إليّ : « ذكرت ابن راشد رحمه الله فإنّه
عاش سعيداً ، ومات شهيداً » ، ودعا لابن بند والعاصمي ^(٣) .
وقد مرّت بعض المراسلات الأخرى له مع الإمام عليه السلام وهي تكشف عن ثقة
الإمام بمحمد وتسديده له ، ولما مرض محمد بعث له الإمام أبو الحسن عليه السلام بثوب
فأخذه ووضعه تحت رأسه فلما توفيّ كفّن فيه .

١٩ - معاوية بن حكيم بن معاوية بن عمار الكوفي

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام ، قال النجاشي فيه : إنّه ثقة جليل من
أصحاب الرضا عليه السلام قال أبو عبد الله الحسين : سمعت شيوخنا يقولون : روى معاوية
ابن حكيم أربعة وعشرين أصلاً... ^(٤) .

(١) اختيار معرفة الرجال ٢ : ٧٩٨ ، جامع الرواة ٢ : ٦٠ .

(٢) رجال النجاشي : ٣٣٤ .

(٣) اختيار معرفة الرجال ٢ : ٨٦٣ .

(٤) رجال النجاشي : ٤١٢ .

٢٠ - يعقوب بن إسحاق

أبو يوسف الدورقي الأهوازي المشهور بابن السكيت ، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام، كان مقدماً عند أبي جعفر الثاني وأبي الحسن عليه السلام وكانا يختصّانه ، وله عن الإمام أبي جعفر عليه السلام رواية ومسائل . كان ابن السكيت حامل لواء علم العربية والأدب والشعر واللغة والنحو، وله تصانيف كثيرة منها «تهذيب الألفاظ» وكتاب «إصلاح المنطق»... قتله المتوكل لولائه لأهل البيت عليه السلام^(١).

البحث الثاني: نماذج من تراث الإمام الهادي عليه السلام

١ - من تراثه التفسيري

١- روى العياشي بإسناده عن حمدويه ، عن محمد بن عيسى قال : سمعته يقول : كتب إليه إبراهيم بن عنبسة - يعني إلى علي بن محمد عليه السلام - إن رأى سيدي ومولاي أن يخبرني عن قول الله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فما الميسر جعلت فداك ؟

فكتب عليه السلام : «كلّ ما قومر به فهو الميسر، وكل مسكر حرام»^(٢).

٢ - وروى بإسناده عن أيوب بن نوح بن دراج قال : سألت أبا الحسن الثالث عليه السلام عن الجاموس، وأعلمته أن أهل العراق يقولون إنه مسخ ، فقال : أو ما سمعت قول الله : ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ...﴾^{(٣)(٤)}.

٣- عن علي بن إبراهيم ، عن المختار بن محمد الهمداني ومحمد ابن الحسن ، عن عبد الله بن الحسن العلوي جميعاً ، عن الفتح بن يزيد الجرجاني ، عن أبي

(١) إيضاح الاشتباه: ٣٢٠، رجال النجاشي: ٤٤٩، خلاصة الأقوال: ٢٢٩.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٠٦.

(٣) سورة الأنعام ٦: ١٤٤.

(٤) تفسير العياشي ١: ٣٨٠.

الحسن عليه السلام قال : « إِنَّ اللَّهَ إِرَادَتَيْنِ وَمَشِئَتَيْنِ : إِرَادَةَ حَتْمٍ وَإِرَادَةَ عِزْمٍ ، يَنْهَى وَهُوَ يَشَاءُ ، وَيَأْمُرُ وَهُوَ يَشَاءُ . أَوْ مَا رَأَيْتَ أَنَّهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ وَشَاءَ ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَأْكُلَا لَمَا غَلَبَتْ مَشِئَتُهُمَا مَشِئَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ إِسْحَاقَ وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَذْبَحَهُ وَلَوْ شَاءَ لَمَا غَلَبَتْ مَشِئَةُ إِبْرَاهِيمَ مَشِئَةَ اللَّهِ تَعَالَى »^(١).

٤ - عن أيوب بن نوح أنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عز وجلّ
أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكونها ، أو لم يعلم ذلك حتّى خلقها وأراد
خلقها وتكوينها ، فعلم ما خلق عند ما خلق وما كوّن عند ما كوّن ؟ فوقّع عليه السلام
بخطّه : « لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق
الأشياء »^(٢).

٥ - عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام ، قال : سألته عن أدنى
المعرفة ، فقال : « الإقرار بأنّه لا إله غيره ، ولا شبه له ولا نظير ، وأنّه قديم مثبت موجود
غير فقيد ، وأنّه ليس كمثله شيء »^(٣).

٢ - من تراثه الفقهي

١ - عن خيران الخادم قال : كتبت إلى الرّجل ^(٤) صلوات الله عليه أسأله عن
الثوب يصيبه الخمر ولحم الخنزير أيصلى فيه أم لا ؟ فإن أصحابنا قد اختلفوا فيه ،
فقال بعضهم : صلّ فيه فإن الله إنّما حرّم شربها ، وقال بعضهم : لا تصلّ فيه ،
فكتب عليه السلام : « لا تصلّ فيه فإنّه رجس »^(٥).

(١) أصول الكافي ١ : ١٥١ . واعلم أن الرواية مشتملة على كون المأمور بالذبح إسحاق دون إسماعيل وهو خلاف ما تظاهرت عليه أخبار الشيعة.

(٢) التوحيد : ١٤٥ ، الكافي ١ : ١٠٧.

(٣) التوحيد : ٢٨٣ ، الكافي ١ : ٨٦ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٢٢.

(٤) أي الإمام الهادي عليه السلام .

(٥) الكافي ٣ : ٤٠٥ ، الاستبصار ١ : ١٨٩ ، تهذيب الأحكام ١ : ٢٧٩.

٢ - عن علي بن إبراهيم ، عن يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان، قال : رأيت أبا الحسن الثالث عليه السلام سجد سجدة الشكر فافتش ذراعيه، فألصق جؤجؤه وبطنه بالأرض، فسألته عن ذلك ؟ فقال : «كذا نحب»^(١).

٣ - عن محمد بن زاوية، عن أبي علي بن راشد قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام جعلت فداك، إنك كتبت إلى محمد بن الفرج تعلمه أن أفضل ما تقرأه في الفرائض يا نا أنزلناه، وقل هو الله أحد ، وأن صدري ليضيق بقراءتهما في الفجر ، فقال عليه السلام : «لا يضيقنَّ صدرك بهما فإن الفضل والله فيهما»^(٢).

٤ - سأل داود بن أبي زيد أبا الحسن الثالث عليه السلام عن القراطيس والكواغد المكتوب عليها، هل يجوز عليها السجود ؟ فكتب : «يجوز»^(٣).

٥ - عن أيوب بن نوح قال : كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن المغمى عليه يوماً أو أكثر هل يقضي ما فاته من الصلاة أم لا ؟ فكتب عليه السلام : «لا يقضي الصوم ولا يقضي الصلاة»^(٤).

٦ - عن أبي إسحاق بن عبد الله العلوي العريضي قال : وحك^(٥) في صدري ما الأيام التي تصام ؟ فقصدت مولانا أبا الحسن علي بن محمد عليه السلام وهو بصربا^(٦) . ولم أجد ذلك لأحد من خلق الله، فدخلت عليه، فلما بصر بي قال عليه السلام : «يا أبا إسحاق، جئت تسألني عن الأيام التي يصام فيهن، وهي أربعة : أولهن يوم السابع والعشرين من رجب، يوم بعث الله تعالى محمداً صلوات الله عليه إلى خلقه رحمة للعالمين ، ويوم مولده صلوات الله عليه وهو السابع عشر من شهر ربيع الأول ، ويوم الخامس والعشرين من ذي القعدة فيه دحيت الكعبة ، ويوم الغدير فيه أقام رسول الله صلوات الله عليه أخاه علياً عليه السلام علماً للناس وإماماً من

(١) الكافي ٣ : ٣٢٤، تهذيب الأحكام ٢ : ٨٥.

(٢) الكافي ٣ : ٣١٥، تهذيب الأحكام ٢ : ٢٩٠.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٧٠، تهذيب الأحكام ٢ : ٢٣٥.

(٤) تهذيب الأحكام ٤ : ٢٤٣، الاستبصار ١ : ٤٥٨.

(٥) وحك : تخالج، مجمع البحرين : مادة (حك) ٥ : ٢٦٢.

(٦) صربا : قرية على ثلاثة أميال من المدينة.

بعده»، قلت: صدقت جعلت فداك لذلك قصدت، أشهد أنك حجة الله على خلقه^(١).

٧ - عن علي بن مهزيار قال: كتبت إليه: يا سيدي رجل دفع إليه مال يحجّ به، هل عليه في ذلك المال حين يصير إليه الخمس، أو على ما فضل في يده بعد الحجّ؟ فكتب عليه السلام: «ليس عليه الخمس»^(٢).

٨ - عن أحمد بن حمزة قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: رجل من مواليك له قرابة كلهم يقول بك وله زكاة، أيجوز له أن يعطيهم جميع زكاته؟ قال: «نعم»^(٣).

٩ - عن محمد بن رجاء الأرجاني قال: كتبت إلى الطيب عليه السلام^(٤) إنني كنت في المسجد الحرام فرأيت ديناراً فأهويت إليه لآخذه فإذا أنا بآخر، ثم بحثت الحصى فإذا أنا بثالث، فأخذتها فعرفتها ولم يعرفها أحد، فما ترى في ذلك؟ فكتب عليه السلام: «قد فهمت ما ذكرت من أمر الدنانير، فإن كنت محتاجاً فتصدق بثلاثها، وإن كنت غنياً فتصدق بالكل»^(٥).

١٠ - عن أبي علي بن راشد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام قلت: جعلت فداك، اشتريت أرضاً إلى جنب ضيعتي بألفي درهم، فلما وفيت المال خبرت أن الأرض وقف؟ فقال: «لا يجوز شراء الوقف، ولا تدخل الغلة في مالك، إدفعها إلى من أوقفت عليه».

قلت: لا أعرف لها ربّاً؟ قال: «تصدق بغلتها»^(٦).

(١) تهذيب الأحكام ٤: ٣٠٥، وسائل الشيعة ١٠: ٤٤١.

(٢) الكافي ١: ٥٤٧.

(٣) الكافي ٣: ٥٥٢، الاستبصار ٢: ٣٥، تهذيب الأحكام ٤: ٥٤.

(٤) هو الإمام الهادي عليه السلام لأنّ محمد بن رجاء من أصحابه.

(٥) الكافي ٤: ٢٣٩.

(٦) الكافي ٧: ٣٧، تهذيب الأحكام ٩: ١٣٠.

٣ - من أدعية الإمام الهادي عليه السلام:

- ١ - دعاء الاعتصام، وهذا نصّه: « يا عدّي عند العدد ، ويا رجائي والمعتمد ، ويا كهفي والسند، ويا واحد يا أحد ، ويا قل هو الله أحد ، أسألك اللهم بحق من خلقتك من خلقتك ، ولم تجعل في خلقتك مثلهم أحد أن ... » ثم تذكر حاجتك ^(١).
- ٢ - مناجاته: وكان الإمام الهادي عليه السلام يناجي الله تعالى في غلس الليل البهيم بقلب خاشع ، ونفس آمنة مطمئنة . وكان ممّا يقول في مناجاته : « إلهي مسيء قد ورد ، وفقير قد قصد ، فلا تحيّب مسعاه وارحمه واغفر له خطاه... ».
- « إلهي صلّ على محمد وآل محمد ، وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري ونحي من المخلوقين ذكري ، وصرت من المنسيين كمن نسي ، إلهي كبر سني ، ورق جلدي ، ودقّ عظمي ، ونال الدهر مني واقترب أجلي ، ونفدت أيامي ، وذهبت شهواتي وبقيت تبعاتي إلهي ارحمني إذا تغيّرت صورتي... » ^(٢).

٤ - من تراثه التربوي والأخلاقي

- وأثرت عن الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام مجموعة من الكلمات الذهبية، التي عالج فيها مختلف القضايا التربوية والأخلاقية ، والنفسية وهذه بعضها :
- ١ - قال عليه السلام: « خير من الخير فاعله ، وأجمل من الجميل قائله ، وأرجح من العلم عامله » ^(٣).
 - ٢ - قال عليه السلام: « الحلم أن تملك نفسك، وتكظم غيظك مع القدرة عليه ».
 - ٣ - قال عليه السلام: « الناس في الدنيا بالأموال ، وفي الآخرة بالأعمال ».
 - ٤ - قال عليه السلام: « من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه ».

(١) عدة الداعي: ٥٧، راجع حياة الإمام عليّ الهادي : ١٣١ - ١٣٦، الأمالي، الطوسي: ٢٨٠، وفيه: «صلّ على جماعتهم».

(٢) حياة الإمام عليّ الهادي عليه السلام: ١٣٧، عن الدر النظيم.

(٣) بحار الأنوار ٧٥: ٣٧٠.

- ٥ - قال عليه السلام: « تريك المقادير ما لا يخطر ببالك » .
- ٦ - قال عليه السلام: « شر الرزية سوء الخلق » .
- ٧ - قال عليه السلام: « المصيبة للصابر واحدة ، وللجازع اثنتان » .
- ٨ - قال عليه السلام: « البخل أدم الأخلاق ، والطمع سجية سيئة » .
- ٩ - قال عليه السلام: « مخالطة الأشرار تدل على شر من يخالطهم » .
- ١٠ - قال عليه السلام لبعض أصحابه : « اذكر مصرعك بين يدي أهلك حيث لا طيب يمنعك ، ولا حبيب ينفعك » .
- ١١ - قال عليه السلام: « إياك والحسد فإنه يبين فيك ، ولا يعمل في عدوك » .
- ١٢ - قال عليه السلام: « إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام أن يظن بأحد سوءاً حتى يعلم ذلك منه ، وإذا كان زمان الجور أغلب فيه من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه » .
- ١٣ - قال عليه السلام للمتوكل : « لا تطلب الصفاء ممن كدرت عليه ، ولا الوفاء ممن غدرت به ، ولا النصح ممن صرفت سوء ظنك إليه ، فإنما قلب غيرك لك كقلبك له » .
- ١٤ - قال عليه السلام: « ابقوا النعم بحسن مجاورتها ، والتمسوا الزيادة فيها بالشكر عليها ، واعلموا أن النفس أقبل شيء لما أعطيت ، وامنع شيء لما منعت فاحملوها على مطية لا تبطىء » .
- ١٥ - قال عليه السلام: « حسن الصورة جمال ظاهر ، وحسن العقل جمال باطن » .
- ١٦ - قال عليه السلام: « إن من الغرة بالله أن يصير العبد على المعصية ، ويتمنى على الله المغفرة » .
- ١٧ - قال عليه السلام: « لو سلك الناس وادياً وسيعاً لسلكت وادي رجل عبد الله وحده خالصاً » .
- ١٨ - وقال عليه السلام: « إن الله جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبي ، وجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً » .

- ١٩ - وقال عليه السلام: « إِنَّ الظَّالِمَ الحَالِمَ يَكَادُ أَنْ يَعْفِيَ عَلَى ظَلَمِهِ بِحِلْمِهِ . وَإِنَّ المحَقَّ السَّفِيهَ يَكَادُ أَنْ يَطْفِئَ نُورَ حَقِّهِ بِسَفْهِهِ » .
- ٢٠ - وقال عليه السلام: « مِنْ جَمَعَ لَكَ وَدَّهَ وَرَأْيَهُ فَاجْمَعْ لَهُ طَاعَتَكَ » .
- ٢١ - وقال عليه السلام: « مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ » .
- ٢٢ - وقال عليه السلام: « الدُّنْيَا سَوْقٌ ، رِبْحٌ فِيهَا قَوْمٌ وَخَسِرَ آخَرُونَ »^(١) .

* * *

(١) راجع تحف العقول : ٣٦٢ طبعة النجف الأشرف، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ١٣٨ - ١٤٣، مع اختلاف يسير.

الحسن بن عليّ

العسكري عليه السلام

الفصل الأوّل

ويقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : نشأة الإمام الحسن بن عليّ

العسكري عليه السلام

نسبه الشريف

هو الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وهو الإمام الحادي عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وأمه أم ولد يقال لها : حديث^(١)، أو سليل^(٢)، وكانت من العارفات الصالحات^(٣). وذكر سبط بن الجوزي : أنّ اسمها سوسن^(١).

(١) الكافي ١: ٥٠٣، الإرشاد ١: ٣١٣، إعلام الوری ٢: ١٣١.

(٢) عيون المعجزات: ١٢٣، إثبات الوصية: ٢٤٤.

(٣) عيون المعجزات: ١٢٣.

محل الولادة وتاريخها

ولد الإمام أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام - كما عليه أكثر المؤرخين - في شهر ربيع الآخر سنة (٢٣٢هـ) من الهجرة النبوية المشرفة في المدينة المنورة .

ألقابه عليه السلام وكُناه

أطلق على الإمامين عليّ بن محمد والحسن بن عليّ عليهما السلام (العسكريّان) لأنّ المحلة التي كان يسكنها هذان الإمامان - في سامراء - كانت تسمى عسكر^(٢) .
و (العسكري) هو اللقب الذي اشتهر به الإمام الحسن بن عليّ (عليه السلام) .
وكان يكتنى بابن الرضا ، كأبيه وجدّه^(٣) ، وكنيته التي اختص بها هي :
(أبو محمد)^(٤) .

ملامحه

وصف أحمد بن عبيد الله بن خاقان ملامح الإمام الحسن العسكري بقوله : إنّهُ أسمر أعين^(٥) حسن القامة ، جميل الوجه ، جيد البدن ، له جلاله وهيبه^(٦) ، وقيل : إنّهُ كان بين السمرة والبياض^(٧) .

النشأة وظروفها

(١) تذكرة الخواص ٢: ٥٠١ .

(٢) علل الشرايع ١: ٢٤١ ، وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٢٣٥ .

(٣) انظر إعلام الوري ٢: ١٣٢ ، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٣ .

(٤) كمال الدين وتمام النعمة: ٣٠٧ ، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٣ ، مطالب السؤول ٢: ١٤٨ ، الفصول المهمة ٢: ١٠٨٠ .

(٥) الأعين الواسع العين .

(٦) انظر الكافي ١: ٥٠٣ ، كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠ - ٤١ ، الإرشاد ٢: ٣٢١ .

(٧) الفصول المهمة ٢: ١٠٨١ ، وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٢٣٨ .

نشأ الإمام أبو محمد عليه السلام في بيت الهداية ومركز الإمامة الكبرى ، ذلك البيت الرفيع الذي أذهب الله عن أهله الرجز وطهرهم تطهيراً.

وقد ظفر الإمام أبو محمد بأسمى صور التربية الرفيعة وهو يترعرع في بيت زكاه الله وأعلى ذكره ورفع شأنه حيث ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾^(١) ، ذلك البيت الذي رفع كلمة الله لتكون هي العليا في الأرض وقدم القرايين الغالية في سبيل رسالة الله .

وقطع الإمام الزكي شوطاً من حياته مع أبيه الإمام الهادي عليه السلام لم يفارقه في حله وترحاله ، وكان يرى فيه صورة صادقة لمثل جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، كما كان يرى فيه أبوه أنه امتداد الرسالة والإمامة ، فكان يوليه أكبر اهتمامه ، ولقد أشاد الإمام الهادي عليه السلام بفضل ابنه الحسن العسكري قائلاً:

«أبو محمد ابني أصبح آل محمد صلى الله عليه وآله غريزةً وأوثقهم حجة . وهو الأكبر من ولدي وهو الخلف وإليه تنتهي عرى الإمامة وأحكامها»^(٢) ، والإمام الهادي بعيد عن المحاباة والاندفاع العاطفي مثله في ذلك آباؤه المعصومون .

وقد لازم الإمام أبو محمد عليه السلام أباه طيلة عقدين من الزمن وهو يشاهد كل ما يجري عليه وعلى شيعته من صنوف الظلم والإعتداء ، وانتقل الإمام العسكري عليه السلام مع والده إلى سرّ من رأى (سامراء) حيث كتب المتوكل إليه في الشخص من المدينة ، وذلك حينما وشي بالإمام الهادي عليه السلام عنده ، حيث كتب إليه عبد الله بن محمد بن داود الهاشمي : «يذكر أنّ قوماً يقولون إنّ الإمام - أي عليّ الهادي عليه السلام - فسخ عن المدينة وشخص يحيى بن هرثمة معه حتى صار إلى بغداد ، فلمّا كان بموضع يقال له الياسرية نزل هناك ، وركب إسحاق بن إبراهيم لتلقّيه ، فرأى تشوّق

(١) سورة النور ٢٤: ٣٦ - ٣٧ .

(٢) الكافي ١: ٣٢٧ - ٣٢٨ ، الإرشاد ٢: ٣١٩ ، إعلام الوري ٢: ١٣٥ - ١٣٦ واللفظ للثاني .

الناس إليه واجتماعهم لرؤيته ، فأقام إلى الليل ، ودخل به في الليل ، فأقام ببغداد بعض تلك الليلة ثم نفذ إلى سُرٍّ من رأى»^(١).

وكان استشهاد والده (سنة ٢٥٤هـ)^(٢) وتقلد الإمامة بعده، وكانت فترة إمامته أقصر فترة قضاها إمام من أئمة أهل البيت الأطهار وهم أصحاب الناس أبداناً وسلامة نفسية وجسدية، قد استشهد وهو بعد لما يكمل العقد الثالث من عمره الشريف ، إذ كان استشهاداه في سنة (٢٦٠هـ) فتكون مدة إمامته عليه السلام ست سنين^(٣). وهذه المدة القصيرة تعكس لنا مدى رعب حكام الدولة العباسية منه ومن دوره الفاعل في الأمة، لذا عاجلوه بعد السجن والتضييق بدس السم له وهو لم يزل شاباً في الثامنة أو التاسعة والعشرين من عمره الميمون^(٤).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ المنقول التاريخي عن الإمام العسكري عليه السلام في ظل حياة والده الإمام عليّ الهادي عليه السلام ومواقفهما لا يتعدى الولادة والوفاة والنسب الشريف وحوادث ومواقف يسيرة لا تتناسب ودور الإمام عليه السلام الذي كان يتمثل في حفظ الشريعة والعمل على إبعاد الأمة عن الانحراف ومواجهة التحديات التي كانت تواجهها من قبل أعداء الإسلام.

غير أنّ مجموعة من الروايات التي نقلها لنا بعض المحدثين تشير إلى أمور مهمّة من حياة الإمام العسكري عليه السلام، وقد أشار الإمام العسكري نفسه إلى صعوبة ظرفه بقوله عليه السلام: «ما مُنيَ أحد من آبائي بمثل ما مُنيْتُ به من شك هذه العصابة في»^(٥).

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ٤٨٤، وانظر الإرشاد ٢: ٣١٠ - ٣١١، إعلام الوري ٢: ١٢٥.

(٢) انظر الإرشاد ٢: ٢٩٧، إعلام الوري ٢: ١٠٩.

(٣) الإرشاد ٢: ٣١٣، إعلام الوري ٢: ١٢٩.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢٢، تحف العقول: ٤٨٧، وعنه في بحار الأنوار ٧٥: ٣٧٢، واللفظ للثاني.

وهذا شاهد آخر على حراجه الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تحيط بالإمامين العسكريين علي بن محمد والحسن بن علي عليهما السلام والتي كانت تحتم إبعاد الإمام العسكري من الأضواء والاتصال بالعامّة إلّا في حدود يسمح الظرف بها، أو تفرضها ضرورة بيان منزلته وإمامته وعلو مكانته وإتمام الحجّة به على الخواص والثقات من أصحابه، كل ذلك من أجل الحفاظ على حياته من طواغيت بني العباس.

النقطة الثانية : مظاهر من شخصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام

لقد مثل الإمام أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله في مكارم أخلاقه؛ إذ كان على جانب عظيم من سمو الأخلاق ومعالي الصفات، يقابل بها الصديق والعدو، وكانت هذه الظاهرة من أبرز مكوناته النفسية، ورثها عن آبائه وجده رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وسع الناس جميعاً بمكارم أخلاقه، وقد أثرت مكارم أخلاقه في أعدائه والحاquدين عليه، فانقلبوا من بغضه إلى حبّه والإخلاص له كما سيتبين ذلك من خلال البحث.

فقد نقل المؤرخون أنّ المتوكل الذي عرف بشدّة عدائه لأهل البيت عليهم السلام، وحقده على الإمام علي عليه السلام، أمر بسجن الإمام العسكري عليه السلام والتشديد عليه، إلّا أنّه لمّا حلّ في الحبس ورأى صاحب الحبس سمو أخلاق الإمام عليه السلام وعظيم هديه وصلاحه، انقلب رأساً على عقب، فكان لا يرفع بصره إلى الإمام عليه السلام إجلالاً وتعظيماً له، ولمّا خرج الإمام من عنده كان أحسن الناس بصيرة، وأحسنهم قولاً فيه^(١).

سماحته وكرمه

(١) انظر الكافي ١: ٥٠٨، الإرشاد ٢: ٣٢٩ - ٣٣٠، إعلام الوري ٢: ١٥٠.

نقل المؤرخون نماذج من السيرة الكريمة للإمام العسكري عليه السلام نذكر بعضاً منها:

١ - روى الشيخ الكليني والشيخ المفيد عن محمد بن علي بن إبراهيم بن موسى ابن جعفر عليه السلام: قال : ضاق بنا الأمر فقال لي أبي : امض بنا حتى نصير الى هذا الرجل - يعني أبا محمد - فإنه قد وصف عنه سماعة .
فقلت : تعرفه ؟

قال : ما أعرفه ، ولا رأيته قط .

قال : فقصدناه .

فقال لي أبي وهو في طريقه : ما أحوجنا الى أن يأمر لنا بخمسمائة درهم مائتي درهم للكسوة ومائتي درهم للدقيق ، ومائة درهم للنفقة .
وقلت في نفسي : ليته أمر لي بثلاثمائة درهم ، مائة اشتري بها حماراً ومائة للنفقة ومائة للكسوة ، فأخرج الى الجبل .

قال - أي محمد بن علي - فلما وافينا الباب ، خرج غلامه فقال : يدخل عليّ بن إبراهيم ومحمد ابنه ، فلما دخلنا عليه وسلمنا ، قال لأبي : «يا عليّ ما خلفك عنا الى هذا الوقت ، قال : ياسيدي : استحييت أن ألقاك على هذه الحال ، فلما خرجنا من عنده جاءنا غلامه فناول أبي صرة ، وقال : هذه خمسمائة درهم ، مائتان للكسوة ، ومائتان للدقيق ، ومائة للنفقة ، وأعطاني صرة وقال : هذه ثلاثمائة درهم فاجعل مائة في ثمن حمار ، ومائة للكسوة ، ومائة للنفقة ، ولا تخرج الى الجبل ، وصر الى سورا .
قال : فصار الى سورا وتزوج بامرأة منها فدخله اليوم ألفا دينار ، ومع هذا يقول بالوقف^(١) .

٢ - وروى إسحاق بن محمد النخعي قال : حدثني أبو هاشم الجعفري قال : شكوت الى أبي محمد عليه السلام ضيق الحبس و كلب القيد^(١) ، فكتب إليّ : أنت تصلي

(١) الكافي ١: ٥٠٦ ، الإرشاد ٢: ٣٢٦ - ٣٢٧ وعنه في كشف الغمّة ٣: ٢٠٦ ، واللفظ للإرشاد .

اليوم الظهر في منزلك ، فأخرجت وقت الظهر فصليت في منزلي كما قال ، وكنت مضيقاً فأردت أن أطلب منه معونة في الكتاب الذي كتبته فاستحييت ، فلمّا صرت إلى منزلي وجه إليّ بمائة دينار ، وكتب إليّ: «إذا كانت لك حاجة ، فلا تستح ولا تحشم واطلبها تأتاك على ما تحب إن شاء الله»^(٢).

زهده وعبادته

عُرف الإمام العسكري عليه السلام في عصره بكثرة عبادته وتبّله وانقطاعه الى الله سبحانه واشتهر ذلك بين الخاصة والعامة ، حتى أنّه حينما حبس في سجن عليّ بن نارمش - وهو من أشد الناس نصباً لآل أبي طالب - ما كان من عليّ هذا إلا أن وضع خديه له ، وكان لا يرفع بصره إليه إجلالاً وإعظماً فخرج من عنده وهو أحسن الناس بصيرة وأحسن الناس قولاً فيه^(٣).

ولما حبسه المعتمد كان يسأل السجّان - عليّ بن جرير - عن أحوال الإمام عليه السلام وأخباره في كل وقت ، فيخبره عليّ بن جرير أنّ الإمام عليه السلام يصوم النهار ويصلي الليل^(٤).

وكان يتسوّر عليه الدار جلاوزة السلطان في جوف الليل ، فيجدونه في وسط بيته يناجي ربّه سبحانه .

إنّ سلامة الصلة بالله سبحانه وما ظهر على يدي الإمام من معاجز وكرامات تشير الى المنزلة العالية والشأن العظيم للإمام عليه السلام عند الله الذي اصطفاه لعهدده والذي تجلّى في إمامته عليه السلام.

(١) كلب القيد: شدّته وضيقه .

(٢) الكافي ١: ٥٠٨ ، الإرشاد ٢: ٣٣٠ ، إعلام الوري ٢: ١٤٠ وعن الإرشاد في كشف الغمّة ٣: ٢٠٨ ، واللفظ للإرشاد.

(٣) انظر الكافي ١: ٥٠٨ ، الإرشاد ٢: ٣٢٩ - ٣٣٠ ، إعلام الوري ٢: ١٥٠.

(٤) انظر مهج الدعوات: ٣٣٠ ، عيون المعجزات: ١٢٥ ، وعن المهج في بحار الأنوار ٥٠: ٣١٤.

علمه ودلائل إمامته

وإليك شذرات من علوم الإمام الحسن العسكري عليه السلام ودلائل إمامته:

١ - عن أبي حمزة نصر الخادم قال : سمعت أبا محمد عليه السلام غير مرة يكلم غلمانهم بلغاتهم ، وفيهم ترك ، وروم ، وصقالبة ، فتعجبت من ذلك وقلت : هذا ولد بالمدينة ولم يظهر لأحد حتى مضى أبو الحسن - أي الإمام الهادي عليه السلام - ولا رآه أحد فكيف هذا ؟ ! أحدث نفسي بذلك ، فأقبل عليّ فقال : «إن الله جلّ ذكره أبان حجّته من سائر خلقه وأعطاه معرفة كل شيء ، فهو يعرف اللغات والأسباب والحوادث ، ولولا ذلك لم يكن بين الحجة والمحجوج فرق»^(١).

٢ - وقال الحسن بن ظريف : اختلج في صدري مسألتان أردت الكتاب بهما الى أبي محمد عليه السلام ، فكتبت أسأله عن القائم إذا قام بم يقضي ؟ وأين مجلسه الذي يقضي فيه بين الناس ؟ وأردت أن أسأله عن شيء لحُمّي الربع ، فأغفلت ذكر الحُمّي ، فجاء الجواب :

«سألت عن القائم ، وإذا قام قضى بين الناس بعلمه كقضاء داود عليه السلام ولا يسأل البينة ، وكنت أردت أن تسأل عن حمّي الربع ، فأنسيت ، فاكتب في ورقة وعلّقه على المحموم : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾»^(٢). فكتبت ذلك وعلّفته على المحموم فأفاق وبرى^(٣).

٣ - وروى الشيخ المفيد عن أبي القاسم جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن إسماعيل بن إبراهيم بن موسى بن جعفر ، قال : كتب أبو محمد الحسن عليه السلام الى أبي القاسم إسحاق بن جعفر الزبيري قبل موت المعتز بنحو من عشرين يوماً ، «إلزم

(١) انظر الكافي ١: ٥٠٩ ، الإرشاد ٢: ٣٣٠ - ٣٣١ ، إعلام الوری ٢: ١٤٥ وعن الإرشاد في كشف الغمّة ٣: ٢٠٨ ، واللفظ للإرشاد.

(٢) سورة الأنبياء ٢١: ٦٩ .

(٣) الكافي ١: ٥٠٩ ، الإرشاد ٢: ٣٣١ ، إعلام الوری ٢: ١٤٥ وعن الإرشاد في كشف الغمّة ٣: ٢٠٨ واللفظ للإرشاد ، وحُمّي الربع هو أن يأخذ يوماً ويترك يومين ويعود في اليوم الرابع ، والآية من سورة الأنبياء ٦٩.

بيتك حتى يحدث الحادث»، فلما قُتل بريحة كتب إليه قد حدث الحادث ، فما تأمرني ؟ فكتب إليه : «ليس هذا الحادث ، الحادث الآخر». فكان من المعتر ما كان^(١) .
 أي أن الإمام عليه السلام، أشار الى موت المعتر ، فطلب من مواليه أن يلتزموا بالبقاء في بيوتهم حتى ذلك الوقت لظروف خاصة كانت تحيط بالإمام عليه السلام وبهم من الشدة وطلب السلطان وجلالته لهم .
 ومن الطبيعي أن موت الخليفة يعقبه غالباً اضطراب في الوضع يمكن معارضة من التحرك والتنقل بسهولة .

النقطة الثالثة : انطباعات عن شخصية الإمام الحسن

العسكري عليه السلام

احتلّ أهل البيت عليهم السلام المنزلة الرفيعة في قلوب المسلمين، لما تحلّوا به من درجات عالية من العلم والفضل والتقوى والعبادة، فضلاً عن النصوص الكثيرة الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله في الحث على التمسك بهم والأخذ عنهم .
 والقرآن الكريم - كما نعلم - قد جعل مودة أهل البيت وموالاتهم أجراً للرسول صلى الله عليه وآله على رسالته كما قال تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢) .

غير أن الحكّام والخلفاء الذين تحكّموا في رقاب الأمة بالسيف والقهر حاولوا طمس معالمهم وإبعاد الأمة عنهم بمختلف الوسائل والطرق، ثم ختموا أعمالهم بقتلهم بالسيف أو بدس السم .

ومع كل ما فعله الحكّام المنحرفون عن خطّ الرسول صلى الله عليه وآله بأهل البيت عليهم السلام، لم يمنعهم ذلك السلوك العدائي من النصيح والإرشاد للحكّام وحل الكثير من

(١) الكافي ١: ٥٠٦، الإرشاد ٢: ٣٢٥ وعنه في كشف الغمّة ٣: ٢٠٥، وعنه أيضاً في بحار الأنوار ٥: ٢٧٧ - ٢٧٨، واللفظ للأخير، وقد اختلفت المصادر في اسم الذي قُتل ؛ فبعضها ذكر بريحة وبعضها ترنجة، والأمر سهل.

(٢) سورة الشورى ٤٢: ٢٣ .

المعضلات التي واجهتها الدولة الإسلامية على امتداد تاريخها بعد وفاة الرسول ﷺ حتى عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام .

وقد حُجب عنا الكثير من مواقفهم وسيَرهم ، إما خشية من السلطان، أو لأنّ من كتب تاريخنا الإسلامي إنّما كتبه بذهنية أموية ومداد عبّاسي؛ لأنه قد عاش على فتات موائد الحكام المستبدّين .

ونورد هنا جملة من أقوال وشهادات معاصري الإمام عليه السلام وانطباعاتهم عن شخصيته النموذجية التي فاقت شخصية جميع من عاصره من رجال وعلماء الأمة الإسلامية .

١ - شهادة المعتمد العبّاسي

كانت منزلة الإمام معروفة ومشهورة لدى الخاصة والعامة، كما كانت معلومة لدى خلفاء عصره .

فقد روي أنّ جعفر بن عليّ الهادي عليه السلام طلب من المعتمد أن ينصّبهِ للإمامة ويعطيه مقام أخيه الإمام الحسن عليه السلام بعده، فقال له المعتمد : «إعلم أنّ منزلة أخيك لم تكن بنا، إنّما كانت بالله عزّ وجل ، ونحن كنا نجتهد في حط منزلته والوضع منه ، وكان الله يأبى إلّا أن يزيده كل يوم رفعة بما كان فيه من الصيانة وحسن السمات والعلم والعبادة، فإنّ كنت عند شيعة أخيك بمنزلته فلا حاجة بك إلينا، وإن لم تكن عندهم بمنزلته ولم يكن فيك ما كان في أخيك ، لم نغنّ عنك في ذلك شيئاً»^(١) .

٢ - شهادة طبيب البلاط العبّاسي

كان بختيشوع ألمع شخصية طبية في عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فهو طبيب الأسرة الحاكمة ، وقد احتاج الإمام ذات يوم الى طبيب فطلب من بختيشوع أن يرسل إليه بعض تلامذته ليقوم بذلك ، فاستدعى أحد تلاميذه وأوصاه أن يعالج الإمام عليه السلام وحدّثه عن سموّ منزلته ومكانته العالية، ثم قال له : «طلب مني ابن الرضا

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٧٩، الخرائج والجرائح، لقطب الدين الراوندي ٣: ١١٠٩، وعن كمال الدين في بحار الأنوار ٥٢: ٥٠.

من يفصده فصر إليه ، وهو أعلم في يومنا هذا بمن تحت السماء ، فاحذر أن تعترض عليه في ما يأمرك به»^(١) .

٣ - أحمد بن عبيد الله بن خاقان

كان عامل الخراج والضياع في كورة قم ، وأبوه عبيدالله بن خاقان أحد أبرز شخصيات البلاط السياسية وكان وزيراً للمعتمد ، وكان أحمد بن عبيدالله أنصب خلق الله وأشدّهم عداوة لأهل البيت عليهم السلام .

وينقل أحمد هذا قصة شهدها في مجلس أبيه إذ دخل عليه حُجَّابُه فقالوا له : أبو محمّد ابن الرضا - أي الإمام العسكري عليه السلام - بالبَاب فقال بصوت عال : إنذِنُوا لَهُ ، فقال أحمد : فتعجبت ممّا سمعت منهم ، إنَّهم جَسَرُوا يَكْنُون رجلاً على أبي بحضرته ، ولم يكنَّ عنده إلا خليفة أو ولي عهد أو من أمر السلطان أن يكنى ، فدخل رجل أسمر حسن القامة ، جميل الوجه ، جيّد البدن ، حدث السن ، له جلاله وهيبه ، فلمّا نظر إليه أبي قام فمشى إليه خُطى ولا أعلمه فعل هذا بأحد من بني هاشم والقوَّاد ، فلمّا دخل عانقه وقبل وجهه وصدره وأخذ بيده وأجلسه على مصلاه .

وتبيّن الرواية أنّ أحمد بقي متعجباً متحيراً حتى كان الليل ، فلمّا صلّى أبوه وجلس ، جاء وجلس بين يديه ، فقال : يا أحمد لك حاجة ؟ قلت : نعم يا أبة ، فإن أذنت لي سألتك عنها ، فقال : قد أذنت لك يا بني فقل ما أحببت .

قلت : يا أبة من الرجل الذي رأيتك بالغداة فعلت به ما فعلت من الإجلال والكرامة والتبجيل ، وفديته بنفسك وأبويك ؟

فقال : يا بني ذاك إمام الرافضة ، ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرضا ، فسكت ساعة ثمّ قال : يا بني لو زالت الخلافة عن خلفاء بني العباس ما استحقها أحد

(١) الخرائج والجرائح ١ : ٤٢٢ ، وعنه في فرج المهموم لابن طاووس : ٢٣٧ - ٢٣٨ ، وعنه أيضاً في بحار الأنوار

من بني هاشم غير هذا ، وإنّ هذا ليستحقّها في فضله وعفافه وهديه وصيانتة وزهده وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه ولو رأيت أباه رأيت رجلاً جزلاً نبيلاً فاضلاً^(١).

٤ - راهب دير العاقول

وكان من كبراء رجال النصرانية وأعلمهم بها ، لمّا سمع بكرامات الإمام عليه السلام ورأى ما رآه ، أسلم على يديه وخلع لباس النصرانية ولبس ثياباً بيضاء . ولما سأله الطبيب بختيشوع عما أزاله عن دينه ، قال : وجدت المسيح وأسلمت على يده - يعني بذلك الإمام الحسن العسكري عليه السلام - قال : وجدت المسيح؟! قال: أو نظيره... وهذا نظيره في آياته وبراهينه، ثم انصرف إلى الإمام ولزم خدمته إلى أن مات^(٢).

٥ - محمّد بن طلحة الشافعي

قال عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

«فأعلم المنقبة العليا والمزية الكبرى التي خصه الله عزّ وجلّ بها وقلّده فريدها ومنحه تقليدها وجعلها صفة دائمة لا يُبلى الدهر جديدها ولا تنسى الألسن تلاوتها وترديدها، أنّ المهدي محمّد نسله، المخلوق منه ، وولده المنتسب إليه ، وبضعته المنفصلة عنه»^(٣).

٦ - ابن الصباغ المالكي

قال : إنّ «سيّد أهل عصره وإمام أهل دهره ، أقواله سديدة وأفعاله حميدة ، وإذا كانت أفاضل زمانه قصيدة فهو في بيت القصيدة ، وإن انتظموا عقداً كان مكانه

(١) الكافي ١: ٥٠٣ - ٥٠٤ ، وكمال الدين وتمام النعمة ١: ٤١ - ٤٢ ، الإرشاد ٢: ٣٢١ - ٣٢٣ ، واللفظ للأول.

(٢) انظر الخرائج والجرائح ١: ٤٢٢ - ٤٢٤ وعنه في فرج المهموم لابن طاووس: ٢٣٧ - ٢٣٩ ، وعنه أيضاً في بحار الأنوار ٥٠: ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٣) مطالب السؤل ٢: ١٤٨ .

الواسطة الفريدة ، فارس العلوم الذي لا يجارى ومبين غوامضها ، فلا يحاول ولا يمارى ، كاشف الحقائق بنظره الصائب مظهر الدقائق بفكره الثاقب المحدث في سره بالأمور الخفيات الكريم الأصل والنفس والذات تغمد الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه ، بمحمد صلى الله عليه وآله آمين^(١) .

٧ - العلامة الشبراوي الشافعي

قال عنه : «الحادي عشر من الأئمة الحسن الخالص ويلقب أيضاً بالعسكري... ويكفيه شرفاً أن الإمام المهدي المنتظر من أولاده ، فله در هذا البيت الشريف والنسب الخضم المنيف وناهيك به من فخار وحسبك فيه من علو مقدار... فيا له من بيت عالي الرتبة سامي المحلة ، فلقد طاول السماك [السماء - خل] عللاً ونبلاً ، وسما على الفرقدن منزلة ومحلاً واستغرق صفات الكمال ، فلا يستثنى فيه بغير ولا بئلاً ، انتظم في المجد هؤلاء الأئمة ، انتظام اللاكي وتناسقوا في الشرف فاستوى الأول والتالي ، وكم اجتهد قوم في خفض منارهم والله يرفعه...»^(٢) .

الى أقوال كثيرة غيرها في فضله صرح بها الفقهاء والمؤرخون والمحدثون من العامة والخاصة ، ولا عجب في ذلك ولا غرابة فهو فرع الرسول صلى الله عليه وآله وأبو الإمام المنتظر والحادي عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وهم عدل القرآن كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وهم سفينة النجاة ، وقد شهد له أبوه الإمام الهادي عليه السلام بسمو مقامه ورفعة منزلته بقوله الخالد : « أبو محمد ابني أنصح آل محمد غريزة وأوثقهم حجة وهو الأكبر من ولدي وهو الخلف وإليه تنتهي عرى الإمامة وأحكامها ، فما كنت سائل فيفسله عنه ، فعنده ما يحتاج إليه »^(٣) .

(١) الفصول المهمة ٢: ١٠٩٤.

(٢) الإنحاف بحب الأشراف: ٣٦٦.

(٣) الكافي ١: ٣٢٧، ٣٢٨، الإرشاد ٢: ٣١٩، إعلام الوري ٢: ١٣٥ - ١٣٦.

* * *

الفصل الثاني

الإمام الحسن العسكري في ظلّ أبيه عليه السلام

كان شخوص الإمام الهادي مع ابنه الحسن العسكري عليه السلام من المدينة سنة (٢٣٤هـ)^(١)، ورافقه خلال مدة تواجده في سامراء البالغة عشرين سنة، فيكون قد عاش الإمام الحسن العسكري عليه السلام في ظل أبيه إثنين وعشرين سنة؛ فقد استشهد أبوه الإمام الهادي عليه السلام سنة (٢٥٤هـ).

وقد عاش الظروف المأساوية القاسية التي كان يعيشها الإمام الهادي عليه السلام وشيعته والتي كانت تفرضها السلطة الغاشمة على الإمام عليه السلام وأتباعه، من أجل إيقاف نشاط الإمام ونشاط أتباعه، أو تحديده وتطويقه لئلا يتسع نشاط مدرسة أهل البيت عليه السلام وتنتشر آثارهم بين جميع أبناء الأمة الإسلامية، ذلك النشاط الذي قد يؤدي إلى الخروج عليها؛ لذا فهي كانت تعتمد على الاضطهاد والسجن والنفي والمتابعة وهي وسائل السلطات الجائرة على امتداد تاريخ الإنسان.

طفولة متميزة

روي أنّ شخصاً مرّ بالحسن بن علي العسكري عليه السلام وهو واقف مع أترابه من الصبيان، يبكي، فظنّ ذلك الشخص أنّ هذا الصبي يبكي متحسراً على ما في أيدي أترابه، ولذا فهو لا يشاركهم في لعبهم، فقال له: أشتري لك ما تلعب به؟، فردّ عليه الحسن عليه السلام: «لا... ما للعب خُلقنا».

وبهر الرجل فقال له: فلمّاذا خلقنا؟ فأجابه عليه السلام: «للعلم والعبادة».

فسأله الرجل: من أين لك ذلك؟، فأجابه عليه السلام: من قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٤٨، لكن في الكافي ١: ٥٠١، والإرشاد ٢: ٣١٠، والصواعق المحرقة ٢: ٥٩٩، وغيرها أنّ ذلك كان سنة (٢٤٣هـ).

(٢) سورة المؤمنون ٢٣: ١١٥.

ثمّ سأله أن يعظه فوعظه بأبيات ثمّ خرّ الحسن مغشياً عليه، فلمّا أفاق قال له: ما نزل بك ، وأنت صغير لا ذنب لك !!؟
فأجابه عليه السلام: «إليك عني.. إني رأيت والدتي توقد النار بالخطب الكبار ، فلا تتقد إلاّ بالصغار ، وإني أخشى أن أكون من صغار خطب نار جهنّم»^(١).

عصر الإمام الهادي عليه السلام

عاصر الإمام الهادي عليه السلام مدة إمامته ستّة من خلفاء بني العباس، حيث تولّى الإمامة في بقية ملك المعتصم الذي حكم منذ سنة (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) ثمّ الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) حيث قتل على يد الأتراك ، ثم جاءت أيام المنتصر - وكانت مدّة خلافته ستة أشهر ويومين، ثم المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) كما عاصر الشطر الأكبر من خلافة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) حيث كان استشهاد الإمام الهادي عليه السلام سنة (٢٥٤ هـ)^(٢)، وفي هذا العام تولّى مهام الإمامة ابنه الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام .

وكانت الظروف التي تمر بها الدولة العبّاسية بعد تولي المتوكل ظروفًا صعبة جداً ، إذ إنّها كانت تعدّ مؤشراً على ضعفها ، وتشكل بدايةً لإنحلالها ، فالحروب الداخلية والخارجية من جهة ، والقتال بين أبناء الخلفاء على كرسي الحكم من جهة أخرى كالذي حصل بين المستعين والمعتز وأدّى الى تولّي المعتز وخلع الأوّل عام (٢٥٢ هـ)^(٣). كل واحد من هذه الصراعات كان له تأثيره المباشر في ايجاد الضعف والانحلال .

(١) الصواعق المحرقة ٢: ٦٠٠، نور الأبصار ٢٥٤.

(٢) انظر إعلام الوري ٢: ١٠٩ - ١١٠، الفصول المهمّة ٢: ١٠٧٥، وانظر فترات تولّي حكام بني العبّاس الخلافة في

تاريخ الخلفاء ١: ٢٩١، ٢٩٦، ٣٠١، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢.

(٣) الكامل في التاريخ ٧: ١٣٩ - ١٤٥، ١٦٧، تاريخ الخلفاء ١: ٣١١.

وتمثلت الأحداث الداخلية أيضاً بنشاط الخوارج الذي كان نشاطاً قوياً فعالاً مدعماً بالمال والسلاح بقيادة مساور الشاري ، وهناك أيضاً الثورات والانتفاضات العلوية الى جانب نزاعات الطامعين في السلطة .

كما أنّ الدولة كانت تعاني من سوء الحالة الاقتصادية نتيجة للبدخ والإسراف الذي كانت تعيشه رجالات البلاط والوزراء وحاشيتهم ، وفي أيام المتوكل قام المتوكل بهدم قبر الإمام الحسين عليه السلام ، ومنع القاصدين لزيارته من زيارته^(١) ؛ لأنّ المتوكل كان يتجاهر بعدائه لآل أبي طالب ومطاردتهم ، ولم يرد تجاه تلك الأحداث أي تعليق من قبل الإمام الهادي عليه السلام ، ويمكن أن يقال: «إنّه لم يرد إلينا من موقف الإمام عليه السلام مع الخلفاء - غير المتوكل - إلا أقل القليل»^(٢) .

النصوص على إمامة الحسن العسكري عليه السلام

يواجه الباحث في هذا الموضوع - كما هو الحال في تناول النصوص الواردة في آباء الإمام العسكري عليه السلام - ثلاثة أنواع من النصوص يمكن تصنيفها كما يلي :

أ - النصوص الواردة عن الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله .

ب - النصوص الواردة عن الأئمة بعد رسول الله والسابقين على أبيه الإمام الهادي عليه السلام .

ج - النصوص الواردة عن أبيه الإمام الهادي عليه السلام التي ثبتت إمامته أيضاً بالنصوص والمعجزات التي كان منها إمامته المبكرة كآبیه وهو بعد لمّا يبلغ الحلم ، حيث استطاع أن يجيب عن كل التحديات التي أثّرت بالنسبة لإمامته، وخرج من كل الحوارات والاحتجاجات ظافراً مؤيداً من عند الله .

(١) انظر تاريخ الطبري ٧: ٣٦٥، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥، مقاتل الطالبين ٣٩٥.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرى: ١١٧ .

أ - نصوص الرسول الأعظم ﷺ

وهي النصوص التي رواها الصحابة والأئمة عليهم السلام والتي اشتملت على ذكر أسماء الأئمة الاثني عشر وما وعد الله - على لسان رسوله ﷺ - المصدقين بهم والتابعين لهم ، بالخير والسعادة في الدارين وما توعد به الناصبين لهم العدا والمخالفين من العذاب والخزي فيهما أيضاً .

ولم تبطل الأمة الإسلامية بالتجزئة والخضوع للاستكبار العالمي والحيرة والتهيه وسوء الظروف التي تمرّ بها الأمة الإسلامية إلا بسبب هذه القطيعة الحاصلة بينها وبين أئمة أهل البيت عليهم السلام ، ونورد هنا اثنين من أحاديث الرسول ﷺ في هذا الاتجاه :

١ - عن محمد بن علي بن الفضل بن تمام الزيات رحمه الله قال : حدثني محمد بن القاسم ، قال : حدثني عباد بن يعقوب ، قال : حدثني موسى بن عثمان قال : حدثني الأعمش ، قال : حدثني أبو إسحاق ، عن الحارث وسعيد ابن قيس ، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ :

«أنا واردكم على الحوض ، وأنت يا علي الساقى ، والحسن الذائد ، والحسين الأمر ، وعلي بن الحسين الفارط ، ومحمد بن علي الناصر ، وجعفر بن محمد السائق ، وموسى بن جعفر محصي المحبين والمبغضين وقامع المنافقين ، وعلي بن موسى مزين المؤمنين ، ومحمد بن علي منزل أهل الجنة في درجاتهم وعلي بن محمد خطيب شيعته ومزوجهم الحور العين والحسن بن علي سراج أهل الجنة يستضيئون به ، والمهدي شفيعهم يوم القيامة حيث لا يأذن الله إلا لمن يشاء ويرضى»^(١).

٢ - وعن سهل بن سعد الأنصاري قال : سألت فاطمة بنت رسول الله ﷺ عن الأئمة فقالت :

(١) مائة منقبة لمحمد بن أحمد القمي : ٢٣ ، مناقب آل أبي طالب ١ : ٢٥١ ، مقتل الحسين للخوارزمي : ١٤٤ - ١٤٥ ، واللفظ للأول.

«كان رسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: يا علي أنت الإمام والخليفة بعدي وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى الحسن فابنك الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى الحسين فابنك علي بن الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم فإذا مضى علي فابنه محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى موسى فابنه علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى علي فابنه محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى محمد فابنه علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا مضى علي فابنه الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم فإذا مضى الحسن ، فالقائم المهدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم يفتح الله تعالى به مشارق الأرض ومغاربها ، فهم أئمة الحق وألسنة الصدق ، منصور من نصرهم مخذول من خذله»^(١).

ب - نصوص الأئمة المعصومين عليهم السلام

١ - الإمام الحسين عليه السلام: عن يحيى بن يعمر ، قال: «كنت عند الحسين عليه السلام إذ دخل عليه رجل من العرب متلثماً أسمر شديد السمرة ، فسلم ، ورد الحسين عليه السلام فقال : يا بن رسول الله! مسألة، قال: هات». ثم إن الرجل سأل الإمام عليه السلام عدة مسائل والإمام يجيبه ثم قال : صدقت يا بن رسول الله ، فأخبرني عن عدد الأئمة بعد رسول الله ﷺ؟ قال : «إثنا عشر ، عدد نقيب بني إسرائيل . قال : فسمهم لي.

قال : فأطرق الحسين عليه السلام ملياً ثم رفع رأسه .

فقال : نعم أخبرك يا أخا العرب ، إن الإمام والخليفة بعد رسول الله ﷺ

أمير المؤمنين عليه السلام ، والحسن وأنا وتسعة من ولدي منهم علي ابني ، وبعده محمد ابنه ،

(١) كفاية الأثر: ١٩٥ - ١٩٦ ، الصراط المستقيم ٢: ١٤٧ - ١٤٨ ، وعن الكفاية في بحار الأنوار ٣٦: ٣٥١ - ٣٥٢ .

وبعده جعفر ابنه وبعده موسى ابنه ، وبعده عليّ ابنه ، وبعده محمد ابنه ، وبعده علي ابنه ، وبعده الحسن ابنه ، وبعده الخلف المهدي هو التاسع من ولدي يقوم بالدين في آخر الزمان».

قال : فقام الأعرابي وهو يقول :

مسح النبيّ جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من أعلى قريش وجده خير الجدود^(١)

٢ - الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام : عن أبي خالد الكابلي قال : دخلت على مولاي عليّ بن الحسين عليه السلام وفي يده صحيفة كان ينظر إليها ويبكي بكاءً شديداً .
فقلت : ما هذه الصحيفة ؟

قال : « هذه نسخة اللوح الذي أهداه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيه اسم الله تعالى ورسول الله ، وأمير المؤمنين عليّ ، وعمي الحسن بن عليّ ، وأبي ، واسمي واسم ابني محمد الباقر ، وابنه جعفر الصادق ، وابنه موسى الكاظم وابنه عليّ الرضا وابنه محمد التقي ، وابنه عليّ النقي ، وابنه الحسن العسكري ، وابنه الحجة القائم بأمر الله المنتقم من أعداء الله الذي يغيب غيبة طويلة ثم يظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً »^(٢).

٣ - الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام : عن الورد بن الكميت عن أبيه الكميت ابن أبي المستهل قال : دخلت على سيدي أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام فقلت :
يا بن رسول الله : إني قد قلت فيكم أبياتاً أفأذن لي في إنشادها؟
ولمّا أذن له ، أنشده قائلاً:

أضحكني الدهر وأبكاني والدهر ذو صرف وألوان
لتسعة في الطف قد غودروا صاروا جميعاً رهن أكفان

فبكى عليه السلام والكميت مستمر في قصيدته ، ثم إن الإمام قال : « اللهم اغفر للكميت ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

(١) كفاية الأثر: ٢٣٢ - ٢٣٤ ، وعنه في بحار الأنوار ٣٦ : ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٢) إثبات الهداة ١ : ٦٥١ ، عن كتاب إثبات الرجعة لابن شاذان ، وفي مختصر إثبات الرجعة المطبوع ٣١ ، واللفظ لإثبات الهداة .

فلما بلغ إلى قوله:

متى يقوم الحق فيكم متى يقوم مهديكم الثاني
قال: «سريعاً إن شاء الله سريعاً، ثم قال: يا أبا المستهل إن قائمنا هو التاسع من ولد الحسين، لأن الأئمة بعد رسول الله ﷺ اثنا عشر، الثاني عشر، هو القائم.

قلت: ياسيدي، فمن هؤلاء الاثنا عشر؟

قال: أولهم علي بن أبي طالب، وبعده الحسن والحسين، وبعده الحسين علي بن الحسين وأنا ثم بعدي هذا ووضع يده على كتف جعفر.

قلت: فمن بعد هذا؟

قال: ابنه موسى، وبعده موسى ابنه علي وبعده علي ابنه محمد وبعده محمد ابنه علي وبعده علي ابنه الحسن وهو أبو القائم، الذي يخرج فيملاً الدنيا قسطاً وعدلاً ويشفي صدور شيعتنا^(١).

٤ - الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: عن علقمة بن محمد الحضرمي عن الصادق عليه السلام قال: «الأئمة اثنا عشر.

قلت: يابن رسول الله فسمهم لي؟

قال: من الماضين: علي بن أبي طالب والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد ابن علي ثم أنا.

قلت: فمن بعدك يابن رسول الله؟

قال: إني قد أوصيت إلى ولدي موسى وهو الإمام بعدي.

قلت: فمن بعد موسى؟

قال: علي ابنه يدعى بالرضا يدفن في أرض الغربية من خراسان، ثم بعد علي ابنه محمد وبعده محمد ابنه علي وبعده علي الحسن ابنه، والمهدي من ولد الحسن...»^(٢).

(١) كفاية الأثر: ٢٤٨ - ٢٥٠، وعنه في بحار الأنوار: ٣٦ - ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) كفاية الأثر: ٢٦٦ - ٢٦٧، وعنه في بحار الأنوار: ٣٦ - ٤٠٩ - ٤١٠.

٥ - الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : روى الصدوق بسنده عن عبد الله بن جندب ، عن موسى بن جعفر أنه قال :

«تقول في سجدة الشكر : اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك ورُسلك وجميع خلقك أنك أنت الله ربي ، والإسلام ديني ، ومحمداً نبيي ، وعلياً والحسن والحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمد بن علي ، وعلي بن محمد ، والحسن بن علي ، والحجة بن الحسن بن علي ، أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ»^(١).

٦ - الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام : روى الصدوق ، عن أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رضي الله عنه قال : حدثنا علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن عبد السلام ابن صالح الهروي قال : سمعت دعبل بن علي الخزاعي يقول :

أنشدت مولاي الرضا بن موسى عليه السلام قصيدتي التي أولها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فلما انتهيت إلى قولي :

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً ثم رفع رأسه إلي فقال لي :

«ياخزاعي نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين ، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟»

فقلت : لا يامولاي إلا أنني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد ويملاها عدلاً [كما ملئت جوراً] .

فقال : يادعبل ، الإمام بعدي محمد ابني ، وبعد محمد ابنه علي ، وبعد علي ابنه الحسن وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته ، المطاع في ظهوره لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله عز وجل ذلك اليوم حتى يخرج فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»^(٢).

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) كمال الدين وتمام النعمة : ٣٧٢ - ٣٧٣ ، وانظر كفاية الأثر : ٢٧٥ - ٢٧٧ ، الصراط المستقيم ٢ : ٢٣٠ .

٧ - الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: روى الصدوق عن عبد الواحد بن محمد العبدوس العطار رحمه الله قال: حدثنا علي بن محمد بن قتيبة النيسابوري قال: حدثنا حمدان بن سليمان قال: حدثنا الصقر بن أبي دلف قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام يقول:

«إن الإمام بعدي ابني علي، أمره أمري، وقوله قولي وطاعته طاعتي، والإمام بعده ابنه الحسن أمره أمر أبيه وقوله قول أبيه وطاعته طاعة أبيه. ثم سكت.

فقلت له: يا بن رسول الله فمن الإمام بعد الحسن؟

فبكى عليه السلام بكاءً شديداً ثم قال: إن من بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر^(١).

ج - نصوص الإمام الهادي على إمامة الحسن العسكري عليه السلام

هناك مجموعة من النصوص التي وصلتنا عن الإمام الهادي عليه السلام على إمامة الإمام العسكري عليه السلام من بعده، منها:

أولاً: النص الذي يرويه أبو هاشم الجعفري حيث يقول: كنت عند أبي الحسن عليه السلام بعد ما مضى ابنه أبو جعفر، وإنني لأفكر في نفسي أريد أن أقول: كأنهما - أعني أبا جعفر وأبا محمد - في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليه السلام، وإن قصتهما كقصتهما، إذ كان أبو محمد المُرَجَّى بعد أبي جعفر، فأقبل عليّ أبو الحسن عليه السلام قبل أن أنطق فقال: «نعم يا أبا هاشم بدا الله في أبي محمد عليه السلام بعد أبي جعفر عليه السلام ما لم يكن يُعرف له، كما بدا له في موسى عليه السلام بعد مضي إسماعيل ما كشف به عن حاله، وهو كما حدثتك نفسك وإن كره المبطلون. وأبو محمد ابني الخلف من بعدي، عنده علم ما يحتاج إليه ومعه آلة الإمامة^(٢)».

وواضح أنّ البداء لله هنا هو فيما يرتبط بتصوّر السائل حيث إنّه كان يرجو أن يكون الإمام بعد الهادي هو ابنه محمد، بينما كان في علم الله غير ذلك، فأظهره له بموت محمد، فأنكشف له أنّه ليس هو الإمام الذي كان يرجوه.

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٨، وانظر كفاية الأثر: ٢٨٣، وعن كمال الدين في بحار الأنوار ٥١: ٣٠.

(٢) الكافي ١: ٣٢٧، وانظر الإرشاد ٢: ٣١٩، الغيبة للطوسي: ٨٢ - ٨٣.

وليس في هذا النصّ أو غيره ما يشير الى أنّ الإمام الهادي أو غيره من الأئمة قالوا بإمامة شخص غير الحسن عليه السلام من ولد الهادي عليه السلام.

ثانياً: النصّ الذي ينتهي الى أبي بكر الفهفكي حيث يقول: كتب إليّ أبو الحسن عليه السلام: «أبو محمد ابني أنصح آل محمد غريزةً وأوثقهم حجةً وهو الأكبر من ولدي وهو الخلف وإليه ينتهي عرى الإمامة وأحكامها، فما كنت سائلي فسألته عنه فعنده ما يحتاج إليه»^(١).

وهذا النصّ صريح في إمامة أبي محمد الحسن، وقد فضّله وشهد بفضله على من سواه من آل محمد ولا يبعد أن يكون قد صدر بعد وفاة أخيه محمد بن عليّ كما لاحظنا في النصّ السابق الذي صرح فيه الجعفري بأن التصريح من الإمام الهادي بإمامة الحسن كان بعد وفاة أخيه محمد.

والنصّان متقاربان في المضمون ويؤكدان أنّه عنده علم ما يحتاج إليه في أمر الإمامة.

وإذا كان بعد وفاة محمد فلا مانع من أن يكون الحسن أكبر ولد الإمام الهادي حينئذ وإن كان محمد أكبر حينما كان على قيد الحياة.

ثالثاً: النصّ الذي يُشهد فيه الإمام جماعةً من الموالي على إمامة ابنه الحسن قبل مضيه واستشهاده هو بأربعة أشهر حيث يقول يحيى بن يسار القنبري: أوصى أبو الحسن الى ابنه الحسن قبل مضيه بأربعة أشهر وأشهدني على ذلك وجماعة من الموالي^(٢).

رابعاً: النصّ الذي يتضمن دليلاً وعلامةً على إمامة الإمام الحسن بعد وفاة أبيه حيث يقول عبد الله بن محمد الإصفهاني: قال أبو الحسن عليه السلام: «صاحبكم بعدي الذي يصلي عليّ». قال: ولم نعرف أبا محمد عليه السلام قبل ذلك. قال: فخرج أبو محمد فصلى عليه^(٣).

(١) الكافي ١: ٣٢٧-٣٢٨، وانظر الإرشاد ٢: ٣١٩، إعلام الوری ٢: ١٣٥-١٣٦.

(٢) الكافي ١: ٣٢٥، وانظر الإرشاد ٢: ٣١٤، الغيبة للطوسي: ٢٠٠.

(٣) الكافي ١: ٣٢٦، وانظر الإرشاد ٢: ٣١٥، إعلام الوری ٢: ١٣٣.

وباعتبار أنّ الراوي لم يكن يعرف الحسن بشخصه ، فالإمام يكون قد أعطاه علامة مميزة لا لبس فيها ولا ريب يعترئها بالنسبة إليه .

اغتيال الإمام الهادي عليه السلام واستشهاده

قال الشيخاني : واستشهد عليّ العسكري في آخر ملك المعتزّ بالسّم^(١) ، وقال الطبري الإمامي : وفي آخر ملكه - أي المعتز - استشهد وليّ الله ... مسموماً^(٢) .

ولمّا اعتلّ أبو الحسن الهادي عليه السلام علته التي توفي فيها في سنة أربع وخمسين ومائتين أحضر ابنه أبا محمّد الحسن عليه السلام وأعطاه النور والحكمة ومواريث الأنبياء ونصّ عليه وأوصى إليه بمشهد من ثقات أصحابه ومضى عليه السلام وله أربعون سنة^(٣) ودفن بسرّ من رأى (أي في مدينة سامراء في العراق) ، وقام الإمام العسكري بتجهيز والده من غسله وتكفينه والصلاة عليه وحمل جنازته مع جم غفير من الناس ودفنه في داره حيث المرقد الشريف الآن في سامراء يقصده المسلمون من كافة أقطار الأُمّة الإسلامية للتبرك والدعاء ووفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله .

ويصف لنا المسعودي مراسم ومظاهر تشييع الإمام عليه السلام واجتماع خلق كثير في داره فيقول : حدثنا جماعة كل واحد منهم يحكي أنّه دخل الدار ، وقد اجتمع فيها جملة بني هاشم من الطالبين والعباسيين واجتمع خلق من الشيعة ، ولم يكن ظهر عندهم أمر أبي محمّد ولا عرف خبره إلاّ الثقات الذين نصّ أبو الحسن عندهم عليه .

فحكوا أنهم كانوا في مصيبة وحيرة ، فهم في ذلك إذ خرج من الدار الداخلة خادم فصاح بخادم آخر : يارياش ، خذ هذه الرقعة وامض بها الى دار أمير المؤمنين

(١) قادتنا كيف نعرفهم ٧: ٩٩، عن الصراط السويّ: ٤٠٧، مصوّر من نسخة مخطوطة.

(٢) دلائل الإمامة: ٤٠٩، وقال الطبرسي في إعلام الوری ٢: ١١٠ وفي آخر ملكه - أي المعتزّ - استشهد وليّ الله عليّ بن محمّد عليه السلام .

(٣) انظر إثبات الوصية: ٢٤٢ - ٢٤٣.

واعطها الى فلان ، وقل له: هذه رقعة الحسن بن عليّ، فاستشرف الناس لذلك ، ثم فتح من صدر الرواق باب وخرج خادم أسود ثم خرج بعده أبو محمّد عليه السلام، حاسراً مكشوف الرأس و...، وعليه مبطنة بيضاء، وكان وجهه وجه أبيه لا يخطئ منه شيئاً ، وكان في الدار أولاد المتوكل ، وبعضهم ولاية العهد ، فلم يبق أحد إلا قام على رجله ووثب إليه أبو محمّد الموفق فقصده أبو محمّد ، فعانقه ، ثم قال له : مرحباً بابن العم، وجلس بين بابي الرواق والناس كلّهم بين يديه، وكانت الدار كالسوق بالأحاديث، فلمّا خرج وجلس أمسك الناس فما كنا نسمع شيئاً إلا العطسة والسعلة ، وخرجت جارية تندب أبا الحسن فقال أبو محمّد عليه السلام: «ما هاهنا من يكفي مؤونة هذه الجاهلة»؟ فبادر الشيعة إليها فدخلت الدار، ثم خرج خادم فوقف بحذاء أبي محمّد - العسكري - فنهض عليه السلام وأخرجت الجنازة وخرج يمشي حتى أخرج بها الى الشارع الذي بإزاء دار موسى بن بغا ، وقد كان أبو محمّد صلى عليه قبل أن يخرج الى الناس وصلى عليه لمّا أخرج المعتمد ، ثم دفن في دار من دوره ^(١).

ويمكن أن يُستفاد من هذه الرواية : أنّ هذا الجمع الغفير المشارك فضلاً عن رجال البلاط العبّاسي ، يكشف عن المكانة العالية والتأثير الفاعل للإمام في الأمة والدور الكبير الذي قام به في حياته ، فضلاً عن أنّ حضور ولاية العهد ربما يكون تغطية للجريمة البشعة التي قام بها الخليفة العبّاسي بدس السم إليه ومن ثم وفاته .

* * *

(١) إثبات الوصية: ٢٤٢ - ٢٤٣.

الفصل الثالث

عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام

لقد عاصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام أواخر خلافة المعتز الذي كان استشهاده الإمام الهادي عليه السلام على يده بدس السم إليه فكانت سياسة المعتز امتداداً لسياسة المتوكل في محاربة الإمام الحسن العسكري - والشيعه - بل ربما ازدادت ظروف القهر في هذه الفترة حتى أن المعتز أمر بتسفير الإمام الحسن العسكري عليه السلام الى الكوفة حين رأى خطر وجود الإمام عليه السلام واتساع دائرة تأثيره وكثرة أصحابه . قال محمد بن بلبل: تقدم المعتز الى سعيد الحاجب أن أخرج أبا محمد الى الكوفة ثم اضرب عنقه في الطريق ^(١).

وكتب أبو الهيثم - وهو أحد أصحاب الإمام عليه السلام - إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام يستفسر عن أمر المعتز بإبعاده الى الكوفة قائلاً: «جُعلت فداك بلغنا خبراً أقلقنا وبلغ منا» ، فكتب الإمام عليه السلام: «بعد ثلاث يأتكم الفرج» فخلع المعتز بعد ثلاثة أيام وقتل ^(٢).

وبعده ولي الخلافة أخوه المهدي الذي تصنع الزهد والتقشف محتذياً سيرة عمر بن عبد العزيز إغراء للعامة ومحاولة لتغيير إنطباعاتهم عن الخلفاء العباسيين الذين عُرفوا بالمجون والترف والإسراف في الملذات والخمر ومجالس اللهو. فلم تكن الدوافع وراء هذه السيرة رضا الله سبحانه، بل كانت لإضفاء شيء من صبغة التدبّر على نفسه من أجل أن تطيعه عامة الناس ومحاولة لإبعاد أنظارها عما تحلّى به بنو هاشم وفي مقدّمهم الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي عُرف بتقواه وورعه ومواساته للأمة في ظروفها القاسية.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣١.

(٢) انظر الغيبة للطوسي: ٢٠٨، دلائل الإمامة: ٤٢٧، الخرائج والجرائح ١: ٤٥١، كشف الغمّة ٣: ٢١٢ عن دلائل الحميري.

ولم تكن الظروف المحيطة بالإمام العسكري وأصحابه في عهد المهدي أحسن مما كانت عليه من الشدة والنفي والتهجير والقتل إبان عهود المعتز والمتوكل ومن سبقهما من خلفاء الدولة العباسية، بل كانت سياسة المهدي امتداداً للمنهج العباسي في التصدي للإمام وشيعته وخاصته والنكاية بهم، والتجسس عليهم ومصادرة أموالهم ومطاردتهم.

لقد قاسى الشيعة والإمام الحسن العسكري عليه السلام في عهد المهدي الكثير من الظلم والتعسف.

ولمّا رأى المهدي أنّ وسائل النفي والإبعاد والمصادرة، لم تكن لتحلّ من نشاط الإمام عليه السلام وشيعته، واتّسع حركته، لما كان لتعليمات الإمام عليه السلام ورقابته لشيعة من أثر في إفشال محاولات السلطة العباسية لم تجد السلطة بُدّاً من اعتقال الإمام عليه السلام والتضييق عليه في السجن^(١).

لقد كان المهدي يهدّد الإمام بالقتل وقد بلغ النبا بعض أصحاب الإمام عليه السلام فكتب إليه: يا سيدي الحمد لله الذي شغله عنك فقد بلغني أنّه يتهدّدك. وذلك حين انشغل المهدي بفتنة الموالي، وعزم على استئصالهم. وهنا نجد الإجابة الدقيقة من الإمام عليه السلام حول مستقبل المهدي حيث كتب الجواب ما يلي: «ذاك أقصر لعمره، عدّ من يومك هذا خمسة ويقتل في اليوم السادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به»^(٢). وكان كما قال فقد انهزم جيشه ودخل سامراء وحده مستغيثاً بالعامّة منادياً، يا معشر المسلمين، أنا أمير المؤمنين قاتلوا عن خليفكم، فلم يجبه أحد^(٣).

وقال أبو هاشم الجعفري: كنت محبوساً مع الحسن العسكري في حبس المهدي بن الواثق فقال لي: في هذه الليلة يبتز الله عمره، فلمّا أصبحنا شغب الأتراك وقتل المهدي ووّلّي المعتمد مكانه^(٤).

(١) الكافي ١: ٥١٢، الإرشاد ٢: ٣٣٤، إعلام الوري ٢: ١٥٠ - ١٥١، وعن الإرشاد في كشف الغمّة ٣: ٢١٠، واللفظ للإرشاد.

(٢) الكافي ١: ٥١٠، الإرشاد ٢: ٣٣٣، إعلام الوري ٢: ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) تاريخ الطبري ٧: ٥٨٧، الكامل في التاريخ ٧: ٢٣٠، سير أعلام النبلاء ٢: ٥٣٩، واللفظ للثاني.

(٤) انظر الغيبة للطوسي: ٢٠٥، ٢٢٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٠، واللفظ للثاني.

وقد سعى المعتمد جاهداً للتخلص من الإمام العسكري عليه السلام أي أنه سارَ على ذات المنهج الذي اتبعه أسلافه من الخلفاء الأمويين والعباسيين مع الأئمة المعصومين عليه السلام غير أن موقفه هذا سرعان ما تغيرَ ظاهراً، وقدم الاعتذار للإمام عليه السلام بعد محاولة لتصفيته برميهِ مع السباع كما عمل مثل ذلك المتوكل مع أبيه علي الهادي عليه السلام وذلك حين سلم الإمام العسكري عليه السلام إلى يحيى بن قتيبة الذي كان يضيق على الإمام عليه السلام حيث رمى به إلى مجموعة من السباع ظناً منه أنها سوف تقتل الإمام عليه السلام، مع العلم بأن امرأة يحيى كانت قد حذرتَه من أن يمس الإمام بسوء بقولها له: «اتق الله فإني أخاف عليك منه»، فقال: والله لأرمينه بين السباع، ثم استأذن في ذلك، فأذن له، فرمى به إليها، ولم يشكوا في أكلها إياه، فنظروا إلى الموضع، فوجدوه قائماً يصلي، فأمر بإخراجه إلى داره^(١).

وروي أن يحيى بن قتيبة قد أتاه بعد ثلاث مع الأستاذ فوجده يصلي، والأسود حوله، فدخل الأستاذ الغيل - أي موضع الأسد - فمزقته الأسود وأكلته، وانصرف يحيى إلى المعتمد وأخبره بذلك، فدخل المعتمد على العسكري عليه السلام وتضرع إليه...^(٢)

واستمر المعتمد في التضيق على الإمام الحسن العسكري عليه السلام فيما بعد حتى ألقى به في سجن علي بن جرير وكان يسأله عن أخباره فيجيبه: إنه يصوم النهار ويقوم الليل^(٣).

ولم تتغير الإجراءات القمعية التي كانت تمارسها السلطة العباسية تجاه الشيعة في عصر المعتمد بل كانت إمتداداً للسياسة المعهودة التي أصبحت تقليداً يتوارثه الخلفاء العباسيون إزاء الأئمة الأطهار وشيعتهم، وذلك لما كان يخشاه الخلفاء من

(١) الكافي ١: ٥١٣، الإرشاد ٢: ٣٣٤ - ٣٣٥، إعلام الوري ٢: ١٥١، وفي الجميع أن من فعل ذلك هو شخص اسمه نحرير، وهو من خدم بني العباس إلا أن صاحب المناقب نسب ذلك إلى يحيى بن قتيبة، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٠، ولفظ المتن له.

(٢) انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٠، وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٣٠٩.

(٣) مهج الدعوات: ٣٣٠، عيون المعجزات: ١٢٥، وعن المهج في بحار الأنوار ٥٠: ٣١٤.

تطور الوضع لصالحهم واتساع نشاطهم السياسي مما قد ينجم عنه تغيير الوضع على السلطة القائمة ، والتفاف الناس بشكل أكبر حول الإمام عليه السلام وبالتالي قد يتخذ الإمام موقفاً جهادياً تجاه الخليفة وسلطته .

وكانت أساليب السلطة تجاه الحركة الشيعية لا تتجاوز الأساليب التي عهدتها في عصور سابقة وهي :

- ١ - المراقبة ورصد تحركات أصحاب الإمام وشيعته .
- ٢ - السجن وكانت تعتمد إليه السلطة من أجل الحد من نشاط أصحاب الإمام عليه السلام.
- ٣ - القتل : وكانت ترتكبه السلطة حين لا ترى جدوى في أساليبها الأخرى تجاه الشيعة ، أو تشعر بتنامي نشاطهم فتلجأ الى قتل الشخصيات البارزة والمقربين من الإمام عليه السلام.

استشهاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام

وبعد أن أدى الإمام العسكري عليه السلام مسؤوليته بشكل كامل تجاه دينه وأمة جدّه صلى الله عليه وآله وولده عليه السلام نعى نفسه قبل سنة ستين ومائتين ، وأخذ يهدئ روع والدته قائلاً لها : « لا بد من وقوع أمر الله فلا تجزعي »^(١) ، ونزلت الكارثة كما قال ، والتحق بالرفيق الأعلى بعد أن اعتل عليه السلام في أول يوم من شهر ربيع الأول من ذلك العام^(٢) . ولم تزل العلة تزيد فيه والمرض يثقل عليه حتى استشهد في الثامن من ذلك الشهر^(٣) ، وروي أيضاً أنه قد سُم واغتيل من قبل السلطة^(٤) حيث دس السم له

(١) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مهج الدعوات: ٣٣٠، ونقله في بحار الأنوار عن المهج في ٣١٣: ٥٠، وعن البصائر في ٣٣٠: ٥٠.

(٢) انظر في ذلك الإرشاد ٣٣٦: ٢، إعلام الوري ١٥١: ٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٤.

(٣) انظر تاريخ وفاته في الكافي ٥٠٣: ١، الإرشاد ٣٣٦: ٢، إعلام الوري ١٥١: ٢، مطالب السؤل ١٤٩: ٢، وفيات الأعيان ٩٤: ٢.

(٤) انظر إعلام الوري ١٣١: ٢، دلائل الإمامة: ٤٢٣ - ٤٢٤، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٣، الصواعق المحرقة ٦٠١: ٢.

المعتمد العباسي الذي كان قد أزعجه تعظيم الأمة للإمام العسكري وتقديمها له على جميع الهاشميين من علويين وعباسيين، فأجمع رأيهم على الفتك به. ولم يخلف غير ولده أبي القاسم محمد (الحجة) وكان عمره عند وفاة أبيه خمس سنين وقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب^(١). ودفن الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى جانب أبيه الإمام الهادي عليه السلام في سامراء^(٢)، وقد ذكر أغلب المؤرخين أن سنة وفاته كانت (٢٦٠هـ). دون إيضاح لسبب وفاته^(٣).

الصلاة على الإمام العسكري عليه السلام

وكان لاستشهاد الإمام العسكري عليه السلام صدىً كبير في سامراء، فقد عطّلت الدكاكين وسارع العامة والخاصة إلى بيت الإمام، ويروي أحمد بن عبيد الله واصفاً ذلك اليوم العظيم قائلاً: ولما رفع خبر وفاته، ارتجّت سرّ من رأى وقامت ضجة واحدة: مات ابن الرضا^(٤)، وعطّلت الأسواق، وغلّقت أبواب الدكاكين وركب بنو هاشم والكتّاب والقوّاد والقضاة والمعدّلون وسائر الناس إلى أن حضروا جنازته فكانت سرّ من رأى شبيهة بالقيامة^(٥).

ولما أخرج نعش الإمام العسكري عليه السلام صلى عليه أبو عيسى بن المتوكل^(٦) بأمر الخليفة المعتمد العباسي، تمويهاً على الرأي العام حول استشهاد الإمام عليه السلام، وكأنّ السلطة ليس لها في ذلك يد بل على العكس، فإنّها قد أظهرت اهتماماً كبيراً أيام

(١) انظر الإرشاد ٢: ٣٣٩، الصواعق المحرقة ٢: ٦٠١.

(٢) الكافي ١: ٥٠٣، الإرشاد ٢: ٣٣٦، إعلام الوري ٢: ١٣١.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٧: ٢٧٤، وفيات الأعيان ٢: ٩٤، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات (٢٥١ - ٢٦٠هـ)، ص ١١٣، شذرات الذهب ٢: ٢٩٠.

(٤) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣، الغيبة للطوسي: ٢١٩.

(٥) انظر الكافي ١: ٥٠٥، كمال الدين وتمام النعمة ٤٣، الإرشاد ٢: ٣٢٤، الفصول المهمة ٢: ١٠٨٨.

(٦) الكافي: ٥٠٥/١، كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣، الإرشاد: ٣٢٤/٢، الفصول المهمة: ١٠٨٨/٢.

مرض الإمام عليه السلام وخرج كبار رجالات البلاط العباسي مشيعين... ، ولكن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تنطلي على شيعة الإمام ومواليه ، وهكذا غالبية المسلمين الذين عاصروا ما جرى للإمام عليه السلام من قبل السلطة من سجن وتضييق .

أولاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام

إنّ المشهور بين الشيعة الإمامية ، أن الإمام العسكري عليه السلام لم يكن له من الولد سوى الإمام محمد المهدي المنتظر عليه السلام ، ويدل عليه ما أشار إليه الشيخ المفيد رحمته الله إذ قال : ولم يخلف أبوه ولداً غيره ظاهراً ولا باطناً^(١) .

كما ذهب إلى ذلك ابن شهر آشوب حيث قال : وولده القائم لا غيره^(٢) .
وأصحاب المصادر التاريخية ، كابن الأثير^(٣) والمسعودي^(٤) وابن خلكان^(٥) وغيرهم لم يشيروا إلى غير الإمام المنتظر عليه السلام ، وهو الذي ولد في النصف من شعبان عام (٢٥٥ هـ) .



(١) الإرشاد ٢: ٣٣٩ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٥٢٣ ، وذهب إلى ذلك أيضاً الطبرسي في تاج المواليد ٥٩ ، والقندوزي في ينابيع المودة ٣: ١٧١ .

(٣) الكامل في التاريخ ٧: ٢٧٤ .

(٤) مروج الذهب ٤: ٢١٢ .

(٥) وفيات الأعيان ٤: ١٧٦ .

الفصل الرابع

الإمام العسكري عليه السلام ومتطلبات الجماعة الصالحة

تعتبر الجماعة الصالحة المحور الأهم الذي كان يشغل بال واهتمام أهل البيت عليهم السلام لأنها الأداة الوحيدة الصالحة لتحقيق الأهداف الرسالية الكبرى، وهي الوسط الحقيقي الذي يفهم ثقافة أهل البيت عليهم السلام ورسالتهم ويستطيع التعاطي الإيجابي معهم وينقاد الى أوامرهم وتوجيهاتهم الرسالية.

من هنا نجد أنّ الإمام الحسن العسكري يكتف جهودة لفترة الانتقال من عصر الحضور الى عصر الغيبة؛ لخطورة المرحلة من شتى النواحي ولقصر الفترة الزمنية التي يعيشها الإمام عليه السلام وهو يرى سرعة التقلّبات السياسية على مستوى الحكّام والخلفاء، كما يرى سوء تعاملهم جميعاً مع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من جهة، ورصدهم للإمام عليه السلام وكل تحركاته من جهة أخرى، وسعيهم الحثيث للبحث عن المهدي الموعود والمنتظر الذي بشرّ الرسول صلى الله عليه وآله بأنه القائم بالقسط والعدل، والمقارع لكل رموز الظلم والعدوان.

فمهمّة الإمام الحسن العسكري خطيرة جداً تجاه ولده المهدي، كما هي خطيرة تجاه شيعته الذين سيُصابون بهذه الأزمة والمصيبة الجديدة التي لم يألفوها مع أئمتهم وهم يعيشون معهم وبين ظهرانيتهم خلال قرنين ونصف قرن ويتلقّون التعاليم والتربية المباشرة منهم.

إنّ الشعور بوجود إمام وقائد حي يرتبطون به ويرتبط بهم - رغم صعوبة الظروف - له آثاره النفسية الإيجابية، بينما الشعور بوجود إمام لا يستطيعون الارتباط به ولا يدرون متى سيظهر لهم وينفّس عنهم كرباتهم ويجيبهم عن أسئلتهم يحمل

معه آثاراً نفسية سلبية إلا إذا كانت الغيبة عندهم كالحضور، ويكون البديل قادراً على تلبية حوائجهم وسدّ خللهم.

إنّ هذه المهمة قد اشترك في إنجازها أهل البيت عليهم السلام جميعاً غير أنّ دور الإمام الحسن العسكري عليه السلام خطير للغاية وصعب جداً لشدة المراقبة وشمولها بحيث كان الإمام عليه السلام يتعمّد الاحتجاب والانقطاع عن كثير من شيعته، ويشهد لذلك أنّ أغلب ما روي عنه كان بواسطة المكاتبات دون أسلوب المشافهة بالرغم من أنّ الإمام عليه السلام طيلة ست سنوات كان يخرج الى البلاط كل اثنين وخميس، ولكنه لم يكن ليتكلم أو ليرتبط حتى بمن كان يقصده من مكان بعيد، إلا في حالات نادرة وبشكل خاص وهو يتحفّظ في ذلك من كثير ممّا يحيط به.

على هذا الأساس يقع البحث عن متطلبات الجماعة الصالحة في عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام في نقطتين:

النقطة الأولى: الإمام الحسن العسكري والتمهيد لولادة

وغيبة الإمام المهدي عليه السلام

إنّ أهم إنجاز للإمام العسكري عليه السلام هو التخطيط الحاذق لصيانة ولده المهدي عليه السلام من الوقوع بأيدي العتاة العابثين الذين كانوا يتربصون به الدوائر منذ عقود قبل ولادته، ومن هنا كانت التمهيدات التي اتخذها الإمام عليه السلام بفضل جهود آبائه السابقين عليهم السلام وتحذيراتهم تنصب أولاً على إخفاء ولادته عن أعدائه وعملائهم من النساء والرجال الذين زرعتهم السلطة داخل بيت الإمام عليه السلام، الى جانب إتمام الحجّة به على شيعته ومحبيه وأوليائه.

ففي مجال كتمان أمر الإمام المهدي عليه السلام عن عيون أعدائه قد أشارت نصوص أهل البيت عليهم السلام الى أنّه ابن سيدة الإمام^(١) وأنّه الذي تخفى على الناس ولادته،

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٣١٦ - ٣٦٩، كفاية الأثر: ٢٢٥ - ٢٢٦، الاحتجاج ١٠: ٢.

ويغيب عنهم شخصه^(١). وفي هذه النصوص ثلاثة إرشادات أساسية تحقق هذا الكتمان، أولها أن أمّه أمة وهي سيدة الإماء، وقد مهّد الإمام الهادي عليه السلام لهذه المهمة باختيار زوجة من سبايا الروم للإمام الحسن العسكري عليه السلام ولم تكن للزواج أية مراسم ولا أية علامة بل كل ما تحقق قد تحقق بعيداً عن أعين كثير من المقرّبين^(٢).

وقد خفيت الولادة حتى على أقرب القريبين من الإمام، فإنّ عمّة الإمام عليه السلام لم تتعرّف على حمل أم الإمام المهدي عليه السلام فضلاً عن غيرها، ومن هنا كانت الولادة في ظروف سرّية جداً وبعد منتصف الليل، وعند طلوع الفجر^(٣) وهو وقت لا يستيقظ فيه إلاّ الخواصّ من المؤمنين فضلاً عن غيرهم. وقد خطّط الإمام العسكري عليه السلام ليبقى الإمام المهدي عليه السلام بعيداً عن الأنظار كما ولد خفية ولم يطلع عليه إلاّ الخواصّ أو أخصّ الخواص من شيعته. وأما كيفية إتمام الحجّة في هذه الظروف الاستثنائية على شيعته فقد تحقّقت ضمن خطوات ومراحل دقيقة.

الخطوة الأولى: النصوص المبشّرة بولادة المهدي عليه السلام

لقد جاءت النصوص المبشّرة بولادة المهدي عليه السلام عن أبيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام تالية لنصوص الإمام الهادي عليه السلام وبقية أئمة أهل البيت عليهم السلام التي ركّزت على أنّه حفيد الهادي عليه السلام وأنّه ابن الحسن العسكري عليه السلام وأنّ الناس سوف لا يرون شخصه ولا يحلّ لهم ذكره باسمه^(٤)، وأنّه الذي يقول الناس عنه أنّه لم يولد

(١) انظر كمال الدين وتمام النعمة: ٤٤، ٣٧٨، كفاية الأثر: ٢٨٢، الاحتجاج ٢: ٢٥٠.

(٢) راجع ص ٧٠-٧٦ من هذا الكتاب (زواج الإمام العسكري عليه السلام).

(٣) انظر كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤-٤٢٥، الثاقب في المناقب: ٢٠١-٢٠٣، وعن كمال الدين في إعلام الوري: ٢: ٢١٤-٢١٦.

(٤) انظر الكافي ١: ٣٢٨، ٣٣٣، الإمامة والتبصرة: ١١٨، أمالي الصدوق: ٤١٩، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٨٠، ٣٨١، ٦٤٨.

بعد^(١)، وأنه الذي يغيب عنهم^(٢) ويرفع من بين أظهرهم وأنه الذي ستختلف شيعته الى أن^(٣) يقوم، وعلى الشيعة أن تلتفت حول العلماء الذين ينوبون عنه وينتظرون قيامه ودولته ويتمسكون بأهل البيت عليهم السلام ويظهرون لهم الولاء بالدعاء والزيارة^(٤) وأنه الذي سيكون إماماً وهو ابن خمس سنين^(٥).

الخطوة الثانية: الإشهاد على ولادة الإمام المهدي عليه السلام

لقد قام الإمام الحسن عليه السلام بالإشهاد على الولادة فضلاً عن إخباره وإقراره بولادته وذلك إتماماً للحجة بالرغم من حرجة الظروف وضرورة الكتمان التام عن أعين الجواسيس، الذين كانوا يرصدون دار الإمام وجواريه قبل الولادة وبعدها. إن السيدة العلوية الطاهرة حكيمة بنت الإمام الجواد وأخت الإمام الهادي وعمّة الإمام الحسن العسكري عليه السلام قد تولّت أمر نرجس أم الإمام المهدي عليه السلام في ساعة الولادة^(٦).

وصرّحت بمشاهدة الإمام المهدي بعد مولده^(٧) كما شاهد الإمام حين الولادة بعض النسوة مثل جارية أبي عليّ الخيزراني التي أهداها الى الإمام العسكري عليه السلام ومارية ونسيم خادمة الإمام العسكري^(٨).

الخطوة الثالثة: الإخبار بولادة المهدي عليه السلام

- (١) انظر الإمامة والتبصرة: ١٠٩، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٢٢ - ٣٢٣، ٣٦٠، ٣٨٢، الخرائج والجرائح ٣: ١١٧٣.
- (٢) انظر كمال الدين وتمام النعمة: ٤٤، ٣٧٨، كفاية الأثر: ٢٨٢، الاحتجاج ٢: ٢٥٠.
- (٣) انظر الغيبة للنعماني: ٢١٣، الغيبة للطوسي: ٤٣٨، الخرائج والجرائح ٣: ١١٥٣.
- (٤) انظر تفسير الإمام العسكري: ٣٤٤ - ٣٤٦، الاحتجاج: ٢٦٠/٢، الصراط المستقيم ٣: ٥٦.
- (٥) انظر الكافي: ٣٨٤/١، إثبات الوصية: ٢٢٨، ٢٦٣، وعن الكافي في بحار الأنوار: ١٠٣/٢٥.
- (٦) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤ - ٤٢٥، الثاقب في المناقب: ٢٠١ - ٢٠٣.
- (٧) الكافي ١: ٣٣٠ - ٣٣١، كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤ - ٤٢٥، ٤٢٩، الخرائج والجرائح ١: ٤٦٦.
- (٨) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣٠، ٤٣١، الخرائج والجرائح: ٤٥٧/١، الثاقب في المناقب: ٥٨٤.

وتمثلت هذه الخطوة بإخبار الإمام عليه السلام شيعته بأن المهدي المنتظر عليه السلام قد وُلِدَ، وحاول نشر هذا الخبر بين شيعته بكلّ تحفّظ.

ولدينا ثمانية عشر حديثاً يتضمّن كلّ منها سعي الإمام عليه السلام لنشر خبر الولادة بين شيعته وأوليائه.

فمنها الخبر الذي صرّح فيه الإمام الحسن عليه السلام بعَلْتين لوضع بني العباس سيوفهم على أهل البيت عليهم السلام واغتيالهم من دون أن يكونوا قد تصدّوا للشورة العلنية عليهم حيث جاء فيه:

«فسعوا في قتل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول الى منع تولّد القائم أو قتله، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد منهم إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون»^(١).

وحين قتل الزبير قال الإمام عليه السلام في توقيع خرج عنه: «هذا جزاء من اجتراً على الله في أوليائه، يزعم أنّه يقتلني وليس لي عقب، فكيف رأى قدرة الله فيه؟!»^(٢).

وعن أحمد بن إسحاق بن سعد أنّه قال: سمعت أبا محمّد الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام يقول: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى أراني الخلف من بعدي، أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وخلقاً، يحفظه الله تبارك وتعالى في غيبته ثم يُظهره الله فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(٣).

وقد أمر الإمام عليه السلام بعض وكلائه بأن يعقّوا عن ولده المهدي عليه السلام ويطعموا شيعته، والعقيقة له إخبار ضمّني بولادته عليه السلام. بل جاء التصريح في بعضها بالولادة

(١) إثبات الهداة ٣: ٥٧٠، عن كتاب إثبات الرجعة، وانظره في مختصر إثبات الرجعة المطبوع: ٤٥ - ٤٦.

(٢) الكافي ١: ٣٢٩، كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣٠، الإرشاد ٢: ٣٤٩.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٨ - ٤٠٩، كفاية الأثر: ٢٩٥، الصراط المستقيم ٢: ٢٣١.

حيث كتب لبعضهم ما نصّه: «عقّ هذين الكبشين عن مولاك وكل هُنّاك الله وأطعم إخوانك...»^(١).

الخطوة الرابعة:

وتمثّلت في الإشهاد على ولادة الإمام المهدي عليه السلام ووجوده وحياته. فعن أبي غانم الخادم أنّه ولد لأبي محمّد ولد فسمّاه محمّداً فعرضه على أصحابه يوم الثالث وقال: «هذا صاحبكم من بعدي وخليفتي عليكم وهو القائم الذي تمتدّ إليه الأعناق بالانتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً فملأها قسطاً وعدلاً»^(٢).

وعن عمرو الأهوازي أنّ أبا محمّد أراه ابنه وقال: «هذا صاحبكم من بعدي»^(٣). وعن معاوية بن حكيم ومحمّد بن أيوب بن نوح ومحمّد بن عثمان العمري عليهم السلام أنّهم قالوا: عرض علينا أبو محمّد الحسن بن علي عليه السلام ونحن في منزله وكنا أربعين رجلاً فقال:

«هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم، أطيعوه ولا تتفرّقوا من بعدي في أديانكم فتهلكوا، أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا» قالوا: فخرجنا من عنده فما مضت إلا أيام قلائل حتى مضى أبو محمّد عليه السلام^(٤).

الخطوة الخامسة

وتمثّلت في النصوص التي هيأت أتباع أهل البيت عليهم السلام لاستقبال الوضع الجديد الذي سيحلّ بهم عند غيبة الإمام المهدي عليه السلام لئلاّ يفاجأوا بأمر لا يعرفون كيفية التعامل معها مثل ما يحصل بعد الغيبة من الحيرة والاختلاف بين الشيعة، وما ينبغي

(١) الغيبة للطوسي: ٢٤٦، إثبات الوصية: ٢٦٠.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣١، وعنه في الصراط المستقيم ٢: ٢٢٣.

(٣) الكافي ١: ٣٢٨، وعنه في الغيبة للطوسي: ٢٣٤.

(٤) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣٥، الغيبة للطوسي: ٣٥٧، وعن كمال الدين في بحار الأنوار ٥٢: ٢٥ - ٢٦.

لهم من الصبر والانتظار للفرج والثبات على الإيمان والدعاء للإمام عليه السلام ولتعجيل فرجه الشريف.

النقطة الثانية: الإعداد لعصر الغيبة

انتهينا في البحث السابق من معرفة كيفية طرح الإمام لقضية ولادة الإمام المهدي عليه السلام وإمامته وأنه الخلف الصالح الذي وعد الله به الأمم أن يجمع به الكلم في أصعب الظروف التي كانت تكتنف ولادة الإمام عليه السلام، وقد لاحظنا مدى إنسجام تلك الإجراءات التي اتخذها الإمام العسكري عليه السلام في هذا الصدد مع الظروف المحيطة بهما.

غير أن النقطة الأخرى التي تتلوها في الأهمية هي مهمة إعداد الأمة المؤمنة بالإمام المهدي عليه السلام لتقبل هذه الغيبة التي تتضمن انفصال الأمة عن الإمام بحسب الظاهر وعدم إمكان ارتباطها به وإحساسها بالضياع والحرمان من أهم عنصر كانت تعتمد عليه وترجع إليه في قضاياها ومشكلاتها الفردية والاجتماعية، فقد كان الإمام حصناً منيعاً يذود عن أصحابه ويقوم بتلبية حاجاتهم الفكرية والروحية والمادية في كثير من الأحيان.

فهنا صدمة نفسية وإيمانية بالرغم من أن الإيمان بالغيب يشكل عنصراً من عناصر الإيمان المصطلح.

إن هذه لصدمة يحتاج رأبها إلى بذل جهد مضاعف لتخفيف آثارها وتذليل عقباتها. وقد مارس الإمام العسكري تبعاً للإمام الهادي عليه السلام نوعين من الإعداد لتذليل هذه العقبة ولكن بجهد مضاعف وفي وقت قصير جداً.

الأول: الإعداد الفكري والذهني.

الثاني: الإعداد النفسي والروحي.

أما الإعداد الفكري فقد قام الإمام تبعاً لأبائه عليهم السلام باستعراض فكرة الغيبة على مدى التاريخ وطبقها على ولده الإمام المهدي عليه السلام وطالبهم بالثبات على الإيمان

باعتباره يتضمن عنصر الإيمان بالغيب وشجّع شيعته على الثبات والصبر وانتظار الفرج وبين لهم طبيعة هذه المرحلة ومستلزماتها وما سوف يتحقق فيها من امتحانات عسيرة يتمخض عنها تبلور الإيمان والصبر والتقوى التي هي قوام الإنسان المؤمن برّبه وبدينه وبإمامه الذي يريد أن يحمل معه السلاح ليجاهد بين يديه.

فقد حدث أبو عليّ بن همام قائلاً: سمعت محمد بن عثمان العمري قدس الله روحه يقول: سمعت أبي يقول: سئل أبو محمد الحسن بن عليّ عليه السلام وأنا عنده عن الخبر الذي روي عن آبائه عليه السلام: «إنّ الأرض لا تخلو من حجة الله على خلقه الى يوم القيامة وأن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية فقال عليه السلام: إنّ هذا حقّ كما أنّ النهار حق، فقليل له: يا ابن رسول الله فمن الحجة والإمام بعدك؟ فقال: ابني محمد هو الإمام والحجة بعدي. من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية، أما إنّ له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون ويكذب فيها الوقّاتون، ثم يخرج فكأنني أنظر الى الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة»^(١).

وأما الإعداد النفسي والروحي فقد مارسه الإمام عليه السلام منذ زمن أبيه الهادي عليه السلام فقد مارس الإمام الهادي عليه السلام سياسة الاحتجاب وتقليل الارتباط بشيعته إعداداً للوضع المستقبلي الذي كانوا يستشرفونه وكان يهيئهم له، كما أنّه قد مارس عملية حجب الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن شيعته فلم يعرفه كثير من الناس حتى شيعته إلا بعد وفاة أخيه محمد^(٢) حيث أخذ يهتم بإتمام الحجة على شيعته بالنسبة لإمامة الحسن من بعده، واستمر الإمام الحسن عليه السلام في سياسة الاحتجاب وتقليل الارتباط لضرورة تعويد الشيعة على عدم الارتباط المباشر بالإمام ليألفوا الوضع الجديد ولا يشكّل صدمة نفسية لهم^(٣)، فضلاً عن أنّ الظروف الخاصة بالإمام العسكري عليه السلام

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩، كفاية الأثر: ٢٩٦، وانظر الصراط المستقيم ٢: ٢٣٢.

(٢) تقدّم ذلك عند ذكر نصوص الإمام الهادي عليه السلام على إمامة الحسن العسكري عليه السلام.

(٣) انظر إثبات الوصية: ٢٧٢.

كانت تفرض عليه تقليل الارتباط حفظاً له ولشيئته من الإنكشاف أمام أعين الرقباء الذين زرعته السلطة هنا وهناك ليراقبوا نشاط الإمام وإرتباطاته بشيئته.

الفصل الخامس

من تراث الإمام العسكري عليه السلام

إنّ المأثور عن الإمام العسكري هو مجموعة من النصوص التي يمكن تصنيفها تحت عناوين متعددة هي :

- ١ - التفسير .
 - ٢ - رسالة المقنعة التي وصفت بأنها تشتمل على أكثر الحلال والحرام .
 - ٣ - مكاتبات الرجال الواردة عن العسكريين .
 - ٤ - مجموعة وصايا وكتب وتوقيعات الى شيعته .
 - ٥ - اهتمامات الإمام الحسن العسكري عليه السلام الفكرية والعلمية التي تضمنها ما تناثر من درر كلماته وأحاديثه في مجالات شتى ، وهي تشكّل موسوعة علمية تستحقّ الدراسة والبحث .
- ونتكلّم على كلّ واحد من هذه العناوين الخمسة فيما يلي :

أولاً: التفسير

لقد اختلف الفقهاء والمحدّثون في مدى صحة انتساب التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري عليه السلام منذ القرن الرابع الهجري حتى يومنا هذا^(١)، غير أنّ المعلوم هو أنّ الإمام العسكري عليه السلام قد أثرت عنه مجموعة لا بأس بها من النصوص في مجال تفسير القرآن الكريم، وقد تناثرت جملة من هذه النصوص في المصادر الموجودة بأيدينا اليوم.

فالخلاف إذاً هو حول الكتاب الذي يُنسب إليه ، وليس في ظاهرة التفسير التي اختص بها عصره وعرفت عنه .

(١) للتفصيل راجع الرسالة التي كتبها الشيخ رضا الأستاذي حول هذا التفسير حيث جمع فيها آراء العلماء فيه سلباً وإيجاباً، والرسالة مطبوعة في آخر التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام .

وإذا لاحظنا الظرف الذي عاشه الإمام عليه السلام من جهة ونسبة هذا التفسير إليه من جهة أخرى، ولاحظنا محتوى هذا التفسير من جهة ثالثة، وطابقنا محتواه مع ما روي عنه في سائر المصادر، نكون قد وقفنا على نقاط واضحة وأخرى محتملة مشكوكة تحتاج إلى أدلة قوية للإثبات.

إنّ الاهتمام بالتفسير يساهم في إظهار عظمة الأمة الإسلامية من خلال حملها للقرآن الكريم، فكان من الطبيعي أن يؤكد الإمام عليه السلام هذا الجانب بإغناء الأمة الإسلامية بعلمه الذي كان يتفرد به هو وآباؤه الكرام، فإنهم معدن العلم في هذه الأمة بل في العالم أجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهم أهل بيت الوحي حيث نزل القرآن في بيتهم فهم أدري بما في البيت من غيرهم، وكل العلماء تبع لهم وعيال عليهم في معرفة القرآن وعلومه، كما اعترف بذلك المؤلف والمخالف وكما تفصح عنه سيرتهم جميعاً بدءاً بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب وانتهاءً بالإمام الحسن العسكري عليه السلام.

ثانياً: رسالة المقنعة

روى العلامة ابن شهر آشوب هذه الرسالة عن الإمام العسكري قائلاً: وخرج من عند أبي محمد عليه السلام في سنة خمس وخمسين ومائتين كتاب ترجمة في جهة (رسالة المقنعة). يشتمل على أكثر علم الحلال والحرام^(١). وقال علي بن يونس العاملي في الصراط المستقيم: وقد خرج عن العسكري الرسالة المقنعة تشتمل على معظم الأحكام^(٢).

ثالثاً: مكاتبات الرجال عن العسكريين

أشار إلى هذه المكاتبات في أحكام الدين الشيخ ابن شهر آشوب في المناقب راوياً لها عن الحميري^(١). ونقلها عنه في البحار لكنه ذكر (الخيرى) بدل الحميري

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٥، وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٣١٠، لكنه أسماها (المنقبة).

(٢) الصراط المستقيم ٢: ١٧٥.

إذ نقل عن المناقب ما نصّه: «وذكر الخيري في كتاب سمّاه مكاتبات الرجال عن العسكريين قطعة من أحكام الدين»^(٢).

رابعاً: مجموعة وصايا الإمام العسكري وكتبه وتوقيعاته

إنّ ظاهرة صدور التوقيع عن الإمام على أمر من الأمور - بمعنى إرسال رسالة من الإمام الى من يهتمّ الأمر من وكيل أو تابع خاص مزوّدة بتوقيعه ومشمّلة على خطّه عليه السلام - قد مهّد بها الإمام الحسن العسكري عليه السلام لفترة الغيبة، كما مهّد كل من الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام بكثرة إحتجابهما للغيبة المتوقّعة للإمام المهدي عليه السلام. ومن هنا نجد أنّ الأصحاب والوكلاء الذين ألفوا هذه الظاهرة كانوا يسألون الإمام عليه السلام عن الملابس المحتملة في المستقبل فيطلبون منه التعرّف على نوع الخط كما يطلبون منه كيفية التعرّف على توقيعاته فيما إذا احتل تبدّل الخط. وتكشف رسائله أيضاً عن طبيعة الظروف التي كان يعايشها الإمام عليه السلام وشيعته فيما يرتبط بالوضع السياسي أو العقائدي والفكري خارج دائرة الجماعة الصالحة أو داخل دائرة الجماعة الصالحة وهي شيعة أهل البيت أنفسهم.

وفيما يلي بعض هذه الرسائل الصادرة عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

١ - رسالته إلى أهالي قم وآبة: وأرسل الإمام أبو محمّد عليه السلام إلى شيعته من أهالي

قم وآبة^(٣) رسالة جاء فيها:

«إنّ الله تعالى بجوده، ورأفته، قد منّ على عباده بنبيه محمّد صلّى الله عليه وآله، بشيراً ونذيراً، ووفقكم لقبول دينه، وأكرمكم بهدأته، وغرس في قلوب أسلافكم الماضين (رحمة الله عليهم) وأصلاّبكم الباقيين تولى كفايتهم، وعمرهم طويلاً في طاعته، حب العترة الهادية،

(١) انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٥٠: ٣١٠.

(٣) آبة بليدة تقابل ساوة، وتعرف بين العامة بآوة، قال ذلك ياقوت في معجم البلدان ١: ٥٠.

فمضى من مضى على وتيرة الصواب ، ومنهاج الصدق وسبيل الرشاد، فوردوا موارد الفائزين، واجتنبوا ثمرات ما قدموا ، ووجدوا غب ما أسلفوا ..^(١) .

ولم يصل إلينا تمام هذه الرسالة ، وإنما وصلت منها هذه القطعة ، وهي تحكي مدى تعاطف الإمام عليه السلام مع هؤلاء المؤمنين الأخيار الذين تخرجوا في دينهم كأشد ما يكون التخرج ، فقد ترحم الإمام على أسلافهم المتمسكين بدينهم الذين آمنوا بالإسلام ، واتبعوا ما أمر الله به ، ففازوا برضوان الله ومغفرته .

٢ - رسالته إلى عبد الله البيهقي : وأرسل الإمام عليه السلام إلى عبد الله بن حمدويه البيهقي الرسالة التالية :

«وبعد : فقد بعثت لكم إبراهيم بن عبده ليدفع النواحي ، وأهل ناحيتك حقوقي الواجبة عليكم إليه ، وجعلته ثقتي وأميني ، عند موالي هناك فليتقوا الله ، وليراقبوا ، وليؤدوا الحقوق فليس لهم عذر في ترك ذلك ، ولا تأخير ، ولا أشقاهم الله بعصيان أوليائه ، ورحمهم الله وإياك معهم برحمتي لهم ، إن الله واسع كريم»^(٢) .

لقد أقام الإمام عليه السلام في المناطق التي تدين بإمامته وكلاء من العلماء الأخيار ، وعهد إليهم بقبض الحقوق الشرعية ، وحملها إليه أو إنفاقها في سبل الخير والصالح.

٣ - رسالته في حق إبراهيم : وكان الإمام عليه السلام قد أقام إبراهيم بن عبده وكيلاً عنه في قبض الحقوق الشرعية ، وصرفها في إقامة دعائم الدين ، وصلة المحتاجين وقد زوده برسالة أشاد فيها بمكانة إبراهيم ووثاقته ، وقد سئل عن تلك الرسالة هل هي بخطه ، فأجاب عليه السلام :

«وكتابي الذي ورد على إبراهيم بن عبده بتوكيلي إياه لقبض حقوقي من موالي هنا ، نعم هو كتابي بخطي إليه ، أقمته - أعني إبراهيم بن عبدة - لهم ببلدهم حقاً غير باطل ،

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٦ - ٥٢٧، وعنه في بحار الأنوار ٥٠: ٣١٧ .

(٢) رجال الكشي ٢: ٨٤٨ ح ١٠٨٩ .

فليتقوا الله حقّ تقاته، وليخرجوا من حقوقي، وليدفعوها إليه، فقد جوزت له ما يعمل به فيها وفقه الله، ومنّ عليه بالسلامة من التقصير..»^(١).

لقد أقرّ الإمام وكالته لإبراهيم، وأوصاه بتقوى الله وطاعته وألزم شيعته بدفع الحقوق المفروضة عليهم إليه.

خامساً: اهتمامات الإمام الحسن العسكري عليه السلام الفكرية والعلمية

نلاحظ اهتماماً علمياً متشعباً الجوانب من خلال النصوص الواصلة إلينا عن الإمام العسكري، فهو يهتم بالقرآن الكريم وهو سند الشريعة ومصدرها الأساس كما أنه يهتم بحفظ السنة النبوية وسنة أهل البيت وتاريخهم، ويهتم أيضاً بنقده وتعريفه للشخصيات التي يتوجّه إليها الناس لأخذ العلوم والأحكام منهم أو مراجعتهم لغرض الارتباط بالإمام عليه السلام أو توكيلهم لإيصال الحقوق الشرعية إليه، فهو يعرف وكلاءه ويوليهم ثقة ويلعن من ينحرف منهم ويحذر شيعته ومواليه من الغفلة عن رصد أحوالهم في حال استقامتهم أو انحرافهم. ونجد من الإمام اهتماماً بليغاً بالفقه والأحكام الشرعية، كما نجد اهتمامه بالدعاء والطب والعقيدة والمعرفة بشكل عام.

من تراثه المعرفي

١ - عن أبي منصور الطبرسي مسنداً قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام، قال: «حدثني أبي عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: أشد من يُتم اليتيم الذي انقطع من أمّه وأبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ولا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه فيما يتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا، وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره، ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى»^(٢).

(١) رجال الكشي ٢: ٨٤٨، ح ١٠٨٩، وعنه في معجم رجال الحديث ١: ٢٣٢.

(٢) الاحتجاج ١: ٦-٧، وعنه في بحار الأنوار ٢: ٢.

٢ - وعنه عليه السلام بالإسناد المتقدم قال : قال موسى بن جعفر عليه السلام : « فقيه واحد ينقذ
يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه أشد على إبليس من
ألف عابد ، لأنّ العابد همّه ذات نفسه فقط وهذا همّه مع ذات نفسه ذوات عباد الله وإمائه
لينقذهم من يد إبليس ومردته ، فلذلك هو أفضل عند الله من ألف عابد وألف ألف
عابدة »^(١).

من تراثه الكلامي

١ - في التوحيد

روى الكليني ، مسنداً عن يعقوب بن إسحاق قال : كتبت إلى أبي محمد عليه السلام
أسأله : كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه ؟ فوقّ عليه السلام : « يا أبا يوسف جلّ سيدي
ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يُرى » .
قال : وسألته : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه ؟ فوقّ عليه السلام : « إنّ الله تبارك وتعالى
أرى رسوله بقلبه من نور عظمتة ما أحبّ »^(٢).

٢ - في أهل البيت عليهم السلام والإمامة

لقد أشاد الإمام عليه السلام بفضل أهل البيت الذين هم مصدر الوعي والإيمان في
دنيا الإسلام ، حيث قال عليه السلام :

« قد سعدنا ذرى الحقائق بأقدام النبوة ، والولاية ، ونورنا السبع الطرائق بأعلام
الفتوة ، فنحن ليوث الوغى ، وغيوث الندى ، وفينا السيف والقلم في العاجل ، ولواء
الحمد والعلم في الآجل ، وأسباطنا خلفاء الدين ، وحلفاء اليقين ، ومصايح الأمم ،
ومفاتيح الكرم فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء ، وروح القدس في جنان

(١) تفسير العسكري: ٣٤٣، الاحتجاج ١: ٨-٩، ٢: ١٧٠، الصراط المستقيم ٣: ٥٦، واللفظ للاحتجاج.

(٢) الكافي ١: ٩٥، التوحيد: ١٠٨.

الصاقورة^(١) ذاق من حدائقنا الباكورة^(٢) وشيعتنا الفئة الناجية ، والفرقة الزاكية ، صاروا لنا رداءً وصوناً ، وعلى الظلمة إلماً.. وسينفجر لهم ينابيع الحيوان ، بعد لظى النيران...»^(٣).

٣ - في الإمام المهدي عليه السلام

روي عن الحسن بن ظريف أنه قال : اختلج في صدري مسألان أردت الكتاب فيهما الى أبي محمد عليه السلام فكتبت أسأله عن القائم عليه السلام إذا قام بم يقضي وأين مجلسه الذي يقضي فيه بين الناس ؟ وأردت أن أسأله عن شيء لحمى الربع فأغفلت خبر الحمى . فجاء الجواب :

«سألت عن القائم وإذا قام قضى بين الناس بعلمه كقضاء داود عليه السلام ولا يسأل البيّنة ، وكنت أردت أن تسأل لحمى الربع فأنسيت ، فاكتب في ورقة وعلقه على المحموم : ﴿بَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤) . فكتبت ذلك وعلقته على المحموم فأفاق وبرى^(٥) .

وبشّر الإمام العسكري عليه السلام ، خواص شيعته بولادة الحجّة المنتظر الإمام المهدي عليه السلام؛ ضمن مكاتباته إليهم ، أو حينما كانوا يحضرون عنده .

المختار من تراثه عليه السلام في الدعاء

١ - روى ابن فهد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال : «من أنس بالله استوحش من الناس وعلامة الأنس بالله الوحشة من الناس»^(٦).

(١) الصاقورة : اسم السماء الدنيا (كتاب العين : ٦٠/٥) . وفي لسان العرب : ٤٦٧/٤ : اسم السماء الثالثة .

(٢) الباكورة أول الفاكهة (لسان العرب ٤ : ٧٧) .

(٣) بحار الأنوار ٧٥ : ٣٧٨ عن الدرّة الباهرة .

(٤) سورة الأنبياء ٢١ : ٦٩ .

(٥) الكافي ١ : ٥٠٩ ، الإرشاد ٢ : ٣٣١ ، إعلام الوری ٢ : ١٤٥ ، واللفظ للإرشاد ، والرواية تقدّمت في فصل مظاهر من شخصية الإمام (علمه ودلائل إمامته) .

(٦) عدّة الداعي : ١٩٤ .

٢ - وروى عنه قوله عليه السلام: «ارفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك فإن لكل يوم رزقاً جديداً».

واعلم أن الإلحاح في المطالب يسلب البهاء ، ويورث التعب والعناء ، فاصبر حتى يفتح الله لك باباً يسهل الدخول فيه ، فما أقرب الصنع من الملهوف والأمن من الهارب المخوف ، فربما كانت الغير نوعاً من أدب الله ، والحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك فإنما تناها في أوانها .

واعلم أن المدبر لك أعلم بالوقت الذي يصلح حالك فيه ، فثق بخيرته في جميع أمورك يصلح حالك .

ولا تعجل بحوائجك قبل وقتها فيضيق قلبك وصدرك ويغشيك القنوط .
واعلم أن للحياء مقداراً فإن زاد عليه فهو سرف ، وأن للحزم مقداراً فإن زاد عليه فهو تهور^(١) .

* * *

(١) عدة الداعي: ١٢٤ - ١٢٥.

خاتم الأوصياء الإمام المهدي عليه السلام

الفصل الأول الإمام المنتظر عليه السلام في بشارات الأديان وفي القرآن الكريم والسنة المتفق عليها

يقع الكلام في هذا الفصل في ثلاث نقاط :

النقطة الأولى: عراقة الإيمان بالمصلح العالمي

يعتبر الإيمان بحتمية ظهور المصلح الديني العالمي وإقامة الدولة الإلهية العادلة في كل الأرض من نقاط الإشتراك البارزة بين جميع الأديان، والاختلاف فيما بينها إنما هو في تحديد هوية هذا المصلح الديني العالمي الذي يحقق جميع أهداف الأنبياء عليهم السلام.

وقد استعرض الدكتور محمد مهدي خان في الأبواب الستة الأولى من كتابه «مفتاح باب الأبواب» آراء الأديان الستة المعروفة بشأن ظهور النبي الخاتم عليه السلام ثم بشأن المصلح العالمي المنتظر وبين أن كل دين منها بشر بمجيء هذا المصلح

الإلهي في المستقبل، أو في آخر الزمان ليصلح العالم وينهي الظلم والشر، ويحقق السعادة المنشودة للمجتمع البشري^(١).

وهذه الحقيقة من الواضحات التي أقرَّ بها كلٌّ من درس عقيدة المصلح العالمي حتى الذين أنكروا صحتها، أو شككوا فيها كبعض المستشرقين مثل جولد تسيهر المجري في كتابه «العقيدة والشرعية في الإسلام»^(٢)، فاعترفوا بأنها عقيدة عريقة للغاية في التاريخ الديني وجدت حتى في القديم من كتب ديانات المصريين والصينيين والمغول والبوذيين والمجوس والهنود والأجاش فضلاً عن الديانات الكبرى الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلامية^(٣).

البشارات بالمنقذ في الكتب المقدسة

والملاحظ في عقائد هذه الأديان بشأن المصلح العالمي أنها تستند إلى نصوص واضحة في كتبهم المقدسة القديمة وليس إلى تفسيرات عرضها علماءهم لنصوص غامضة حمالة لوجوه تأويلية متعددة.

وهذه الملاحظة تكشف عراققة هذه العقيدة وكونها تمثل أصلاً مشتركاً في دعوات الأنبياء - صلوات الله عليهم - ، حيث إن كل دعوة نبوية - ولا سيما الدعوات الرئيسة والكبرى - تمثل خطوة على طريق التمهيد لظهور المصلح الديني العالمي الذي يحقق أهداف هذه الدعوات كافة^(٤).

(١) نقله عنه آية الله المرعشي النجفي في كتابه «ملحقات إحقاق الحق» ٢٩: ٦٢١ - ٦٢٢ ونقله عنه أيضاً آقابزرگ الطهراني في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» ٢١: ٥٢٦٧/٣١٩.

(٢) العقيدة والشرعية في الإسلام: ٢١٨ حيث وصفها بأنها من الأساطير ذات الجذور غير الإسلامية لكنه لم ينكر اتفاق كلمة الأديان عليها وأنكرها أيضاً المستشرق رونلدسن في كتابه «عقيدة الشيعة»: ٢٣١، والمستشرق فان فلوطن في كتابه «السيادة العربية»: ١١٠ - ١١٦، وتابعهم بعض المتأثرين بهم من المسلمين أمثال أحمد أمين ومحمد فريد وجدي، والسائح الليبي وغيرهم، راجع المزيد في ذلك (دفاع عن الكافي) للسيد العميدي: ٢٠٦ وما بعدها.

(٣) راجع أيضاً (الإمامة وقائم القيامة) للدكتور مصطفى غالب: ٢٧٠ - ٢٧٢، (المهدي المنتظر في الفكر الإسلامي) ثامر العميدي: ١٢ - ١٣، (الإمام المهدي في الكتب السابقة) محمد رضا حكيمي: ٥٢ - ٥٧.

(٤) لمعرفة تفصيلات هذا التمهيد يُراجع كتاب (تاريخ الغيبة الكبرى) للسيد محمد الصدر، في حديثه عن التخطيط الإلهي لليوم الموعود قبل الإسلام: ٢٥١ وما بعدها.

رسوخ الفكرة في الديانتين اليهودية والنصرانية

إنّ الإيمان بفكرة ظهور المصلح ثابت عند اليهود مدوّن في التوراة والمصادر الدينية المعتمدة عندهم، وقد فصل الحديث عن هذه العقيدة عند اليهود كثير من الباحثين المعاصرين خاصة في العالم الغربي مثل جورج رذرفورد في كتابه (ملايين من الذين هم أحياء اليوم لن يموتوا أبداً)، والسناطور الأميركي بول منزلي في كتابه (من يجرؤ على الكلام) والباحثة غريس هالسل في كتابها (النبوءة والسياسة). وغيرهم كثير^(١).

فكل من درس الديانة اليهودية التفت الى رسوخ هذه العقيدة فيها. والنماذج التي ذكرناها آنفاً من هذه الدراسات اختصت بعرض هذه العقيدة بالذات عند اليهود والآثار السياسية التي أفرزتها نتيجة لتحرك اليهود انطلاقاً من هذه العقيدة، وفي القرون الأخيرة خاصة بهدف الاستعداد لظهور المنقذ العالمي الذي يؤمنون به. وسبب هذا التحرك هو: أنّ عقيدة اليهود في هذا المجال تشتمل على تحديد زمني لبدء مقدمات ظهور المنقذ العالمي؛ الذي يبدأ مع عام (١٩١٤) للميلاد - وهو عام تفجر الحرب العالمية الأولى كما هو معروف -، ثم عودة الشتات اليهودي الى فلسطين وإقامة دولتهم التي يعتبرونها من المراحل التمهيدية المهمة لظهور المنقذ الموعود، ويعتقدون بأنّ العودة الى فلسطين هي بداية المعركة الفاصلة التي تنهي وجود الشر في العالم ويبدأ حينئذ (حكم الملكوت في الأرض لتصبح الأرض فردوساً)^(٢).

وبغض النظر عن مناقشة صحة ماورد من تفاصيل في هذه العقيدة عند اليهود، فإنّ المقدار الثابت هو أنها فكرة متأصلة في تراثهم الديني بقوة بالغة مكّنت اليهودية - من خلال تحريف تفاصيلها ومصاديقها - أن تقيم على أساسها تحركاً استراتيجياً

(١) راجع أيضاً أهل البيت في الكتاب المقدس، أحمد الواسطي: ١٢١ وما بعدها، وكتاب «المهدي المنتظر بين الدين والفكر البشري» د. محمد طي: ٥٧ - ٦٢، الإمامة وقائم القيامة: ٢٧١.

(٢) صحيفة العهد اللبنانية العدد: ٦٨٥، مقال تحت عنوان «حركة شهود يهوه، الشأ، التنظيم، المعتقد».

طويل المدى وطويل النفس، استقطبت له الطاقات اليهودية المتباينة الأفكار والاتجاهات، ونجحت في تجميع جهودها وتحريكها باتجاه تحقيق ما صورّه قادة اليهودية لأتباعهم بأنه مصداق التمهيد لظهور المنقذ الموعود. كما آمن النصارى بأصل هذه الفكرة استناداً الى مجموعة من الآيات والبشارات الموجودة في الإنجيل والتوراة. ويصرح علماء الإنجيل بالإيمان بحتمية عودة عيسى المسيح في آخر الزمان ليقود البشرية في ثورة عالمية كبرى يعم بعدها الأمن والسلام كل الأرض، كما يقول القس الألماني فندر في كتابه (ميزان الحق)^(١) وأنه يلجأ الى القوة والسيف لإقامة الدولة العالمية العادلة. وهذا هو الاعتقاد السائد لدى مختلف فرق النصارى.

البشارات السماوية لا تنطبق على غير المهدي الإمامي

إنّ من الواضح لمن يمعن النظر في نصوص تلك البشارات السماوية أنّها تقدّم مواصفات للمصلح العالمي لا تنطبق على غير المهدي عليه السلام طبقاً لعقيدة مدرسة أهل البيت عليهم السلام لذلك فإنّ مَنْ لم يتعرف على هذه العقيدة لا يستطيع التوصل الى المصداق الذي تتحدث عنه كما نلاحظ ذلك مثلاً في أقوال مفسري الإنجيل بشأن الآيات (١ - ١٧) من سفر الرؤيا الفصل الثاني عشر «مكاشفات يوحنا اللاهوتي» فهم يصرحون بأنّ «الشخص الذي تتحدث عنه البشارة الواردة في هذه الآيات لم يُولد بعد، لذا فإنّ تفسيرها الواضح ومعناها البين موكول للمستقبل والزمان المجهول الذي سيظهر فيه»^(٢)، في حين أنّ هذه الآيات تتحدّث بوضوح عن الحكومة الإلهية التي يقيمها هذا الشخص في كلّ العالم ويقطع دابر الأشرار والشياطين وهي المهمة التي حدّتها البشارات الأخرى بأنها محور حركة المصلح العالمي. لكنّ مفسري الإنجيل لم يستطيعوا تطبيقها على المصداق الذي اختاروه لهذا المصلح وهو السيّد

(١) بشارات عهدين : ٢٦١، نقلاً عن كتاب ميزان الحقّ للقس الألماني فندر : ٢٧١.

(٢) بشارات عهدين : ٢٦٤.

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لأنّ البشارة واردة عن يوحنا اللاهوتي عن السيّد المسيح فهو المبشر بمجيء هذا المنقذ، كما أنّهم لم يتعرفوا على عقيدة أهل البيت عليه السلام في المهدي المنتظر عليه السلام، لذلك لم يستطيعوا الإهتمام الى مصداق تلك الآيات.

النقطة الثانية: المهدي الموعود عليه السلام وغيبته في القرآن الكريم

إنّ أبرز ما تتميز به عقيدة مدرسة أهل البيت عليه السلام في المهدي الموعود عن غيرها من الفرق الإسلامية هو القول بوجوده بالفعل وغيبته وتحديد هويته بأنّه الإمام الثاني عشر من أئمة العترة النبوية الطاهرة، وأنه قد ولد بالفعل من الحسن العسكري عليه السلام سنة (٢٥٥ هـ) وتولى مهام الإمامة بعد وفاة أبيه العسكري سنة ٢٦٠ للهجرة وكانت له غيبتان الأولى وهي الصغرى استمرت الى (٣٢٩ هـ) كان الإمام يتصل خلالها بشيعته عبر سفرائه الخاصين، ثم بدأت الغيبة الكبرى المستمرة حتى يومنا هذا الى أن يأذن الله عزّ وجلّ بالظهور لإنجاز مهمته الكبرى في إقامة الدولة الإسلامية العالمية التي يسيطر فيها العدل والقسط على أرجاء الأرض إن شاء الله تعالى.

ويتفق أهل السنّة على إنتماء المهدي الموعود لأهل البيت عليه السلام وأنّه من ولد فاطمة عليها السلام وقد اعتقد جمع منهم بولادته، لكن بعضهم ذهب الى أنه سيولد ويظهر في آخر الزمان ليحقق مهمته الموعودة دون أن يستند الى دليل نقلي ولا عقلي في ذلك سوى الاستناد الى الأحاديث المشيرة الى أنّ ظهوره يكون في آخر الزمان. وليس هذا دليلاً تاماً على أنّ ولادته ستكون في آخر الزمان أيضاً كما أنه ليس فيه نفي للغيبة؛ لأنها والظهور لا يكونان في زمن واحد لكي يُقال بأنّ إثبات الظهور في آخر الزمان يعني نفي الغيبة دفعاً لاجتماع النقيضين المحال عقلاً، فرأي الإمامية هو أنّ الغيبة تكون قبل الظهور فلا تعارض بينهما.

ونعرض هنا مجموعة من الآيات الكريمة التي تدل بصورة مباشرة على حتمية أن يكون في كل زمان إمام حق يهدي الناس الى الله ويشهد على أعمالهم ليكون حجة الله عز وجل على أهل زمانه في الدنيا والآخرة، والتي تحدد له صفات لا تنطبق - في عصرنا الحاضر - على غير الإمام المهدي الذي تقول مدرسة أهل البيت عليه السلام بوجوده وغيبته، فتكون هذه الآيات دالة على صحة عقيدة الإمامية في المهدي المنتظر .

١ - عدم خلو الزمان من الإمام

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا* وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

وهذا نص صريح على أن لكل أهل زمان «كل أناس» إمام يدعون به يوم القيامة، ويكون الإحتجاج به عليهم أو ليكون شاهداً عليهم يوم الحساب، وهذا أيضاً يتضمن معنى الإحتجاج عليهم، فمن هو «الإمام» المقصود في الآية الكريمة الأولى؟

للإجابة يلزم الرجوع الى المصطلح القرآني نفسه لمعرفة المعاني المرادة منه والإهتمام بها لمعرفة المنسجم مع منطوق النص القرآني المتقدم.

لقد أطلق لفظ «الإمام» في القرآن الكريم على من يقتدى به من الأفراد، وهو على نوعين لا ثالث لهما في الاستخدام القرآني وهما: الإمام المنصوب من قبل الله تبارك وتعالى لهداية الخلق إليه بأمره عز وجل، كما في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٢)، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ

(١) سورة الإسراء (١٧): ٧١ - ٧٢.

(٢) سورة الأنبياء ٢١: ٧٣.

(٣) سورة البقرة ٢: ١٢٤.

عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ^(١)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٢). فيلاحظ في جميع هذه الموارد أنها تنسب جعل الإمامة الى الله سبحانه مباشرة.

أما النوع الثاني فهو مَنْ يُقْتَدَى به للضلال كما في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾^(٤).

الإمام المقصود في الآية

فَمَنْ هو «الإمام» المقصود في الآية والذي لا يخلو زمان من مصداق له ويُدعى به أهل عصره يوم القيامة؟

لا يخلو الأمر من أن يكون المراد من الإمام في الآية من يأتى به أهل كل زمان في سبيلي الحق أو الباطل، أو أن يكون المراد فيها إمام الحق خاصة وهو الذي يجتبيه الله سبحانه في كل زمان لهداية الناس بأمره تبارك وتعالى ويكون حجة الله عز وجل عليهم، يدعوهم به يوم القيامة للاحتجاج به عليهم سواء كان نبياً كإبراهيم الخليل ومحمد - عليهما وآلهما الصلاة والسلام - أو غير نبي كأوصياء الأنبياء عليهم السلام.

الإمام المنقذ من الضلالة

وعليه يكون محصل الآيتين الكريمتين هو الدلالة على حتمية وجود إمام حق يُهتدى به في كل عصر، يكون حجة الله عز وجل على أهل زمانه في الدنيا والآخرة،

(١) سورة القصص ٢٨: ٥.

(٢) سورة الفرقان ٢٥: ٧٤.

(٣) سورة التوبة ٩: ١٢.

(٤) سورة القصص ٢٨: ٤١. والجعل هنا بمعنى «تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون» الميزان ٣٨: ١٦، فليس هنا بمعنى النصب كما هو حال أئمة الهدى.

فتكون معرفته واتباعه في الدنيا وسيلة النجاة يوم الحشر؛ فيما يكون العمى عن معرفته واتباعه في الدنيا سبباً للعمى والضلال الأشد في الآخرة. ونصل الآن للسؤال المحوري المرتبط بما دلّت عليه هاتان الآيتان، وهو: مَنْ هو إمام الحق الذي يمثل حجة الله على خلقه في عصرنا هذا، والذي لا بد له من مصداق في سائر العصور كما نصت عليه الآيتان المتقدمتان؟

المواصفات القرآنية لإمام الهدى

المستفاد من تفسير الآيتين المتقدمتين: أنّ الإمام المقصود يجب أن تتوفر فيه الصفات التي تؤهله للاحتجاج به على قومه يوم القيامة من القدرة على الهداية والأهلية لأن يكون أتباعه موصلاً للهدى وطاعته معبرة عن طاعة الله تبارك وتعالى، وأن يكون قادراً على معرفة حقائق أعمال الناس وليس ظواهرها، أي: أن يكون هادياً لقومه وشهيداً على أعمالهم، الأمر الذي يستلزم أن يكون قادراً على تلقي الهداية الإلهية وحفظها ونقلها للناس، كما يجب أن يكون أهلاً لأن يتفضل عليه الله عزّ وجلّ بعلم الكتاب والأسباب التي تؤهله لمعرفة حقائق أعمال الناس للشهادة بشأنها والاحتجاج به عليهم يوم القيامة.

كما ينبغي أن يكون متحلياً بأعلى درجات العدالة والتقى لكي لا يخل بأمانة نقل الهداية الإلهية إلى قومه، وكذلك لكي لا يحيف في شهادته عليهم يوم القيامة، أي: أن يتحلّى بدرجة عالية من العصمة، وهذا ما يُصرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فالإمامة «عهد» من الله تبارك وتعالى لا ينال من تلبس بظلم مطلقاً، ومعلوم أنّ ارتكاب المعاصي مصداق من مصاديق الظلم، لذا فالمؤهل للإمامة يجب أن يكون معصوماً.

(١) سورة البقرة ٢: ١٢٤.

وحيث إنّ الله تبارك وتعالى قد أقرّ طلب خليله إبراهيم النبيّ ﷺ في جعل الإمامة في ذريته ولم يقيدّها إلّا بأنها لا تنال غير المعصومين، نفهم أنّ الذرية الإبراهيمية لا تخلو من متأهل للإمامة الى يوم القيامة، وهذا ما يؤكده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

ولما كانت الإمامة عهداً إلهياً، كان الإمام مختاراً لها من الله عزّ وجلّ - وهو الأعلم حيث يجعل رسالته - وهذا ما تؤكده الآيات الكريمة؛ فقد نسبت جعل الإمام الى الله مباشرة ولم تنسبه لغيره كما هو واضح في الآيتين المتقدمتين من سورتي الزخرف والبقرة وغيرهما، ويتحقق هذا الاختيار الإلهي لشخص معيّن للإمامة من خلال النص الصادر عن ينابيع الوحي - القرآن والسنة - أو من ثبتت إمامته وعصمته، أو ظهور المعجزات الخارقة للعادة على يديه حيث تثبت صحة إدعائه للإمامة.

مصدق الإمام في عصرنا الحاضر

فمن الذي تتوفر فيه هذه الصفات في عصرنا الحاضر؟ من الواضح: أنه لا يوجد شخص ظاهر تنطبق عليه هذه الصفات، وليس ثمة شخص ظاهر يدعيها أيضاً، فهل يعني عدم وجود شخص ظاهر تتوفر فيه هذه الصفات خلو عصرنا من مثل هذا الإمام؟

الجواب سلبي بالطبع؛ لأنه يناقض صريح دلالة آيتي سورة الإسراء، فلا يبقى أمامنا إلّا القول بوجوده وغيبته وقيامه بالمقدار اللازم للاحتجاج به على أهل زمانه يوم القيامة والذي هو من مهام الإمام، حتى في غيبته.

وهذا ما تقوله مدرسة أهل البيت عليه السلام في المهدي المنتظر عليه السلام وتتميز به عمّا سواها، وتقيم الأدلة النقلية والعقلية الدالة على توفر جميع الشروط والصفات

(١) سورة الزخرف ٤٣: ٢٨، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ سور العنكبوت ٢٩: ٢٧.

المتقدمة فيه من العصمة والنص عليه من الرسول الأعظم ﷺ ومن ثبتت إمامته من آبائه عليه السلام، كما ثبت صدور المعجزات عنه في غيبته الصغرى بل والكبرى أيضاً وقيامه عملياً بما يتيسر له من مهام الإمامة في غيبته كي يتحقق الاحتجاج به على أهل زمانه، كما هو مدوّن في الكتب التي صنّفها علماء هذه المدرسة^(١).

النقطة الثالثة: المهدي الموعود وغيبته في المتفق عليه من السنة

الى جانب الآيات الكريمة المتقدمة توجد بين أيدينا الكثير من الأحاديث الشريفة التي صحت روايتها عند أهل السنة والشيعة عن سيد المرسلين ﷺ بطرق كثيرة، تؤكد دلالات الطائفة المتقدمة من الآيات الكريمة وتفصل مجملاتها وتكمل الصورة التي ترسمها فيما يرتبط بالدلالة على وجود الإمام المهدي الموعود عليه السلام بالفعل وغيبته وتصرح بالمصداق الذي دلت عليه الآيات الكريمة بذكر صفاته العامة.

ونختار هنا واحداً من الأحاديث الشريفة المتواترة أو المستفيضة المروية بأسانيد صحيحة عند أهل السنة وهو: حديث الثقلين، المروي في الكتب الستة المعتمدة عند أهل السنة، وسنرى أنّ تفسيره وتقديم المصداق المعقول له غير ممكن إلا في ضوء عقيدة أهل البيت في المهدي المنتظر (عليه السلام) فيما يرتبط بعصرنا الحاضر خاصة؛ لأنّ الرسول الأعظم ﷺ، قد صرح في هذه الأحاديث المختارة بالأهمية القصوى التي تحظى بها مضامينها كما سنرى.

حديث الثقلين

(١) راجع في الباب مثلاً كتاب (منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر) لآية الله الشيخ لطف الله الصافي فقد جمع الكثير من النصوص المروية من طرق أهل السنة والشيعة، وراجع أيضاً كتاب (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) للحر العاملي، و(فرائد السمطين) للحموي الشافعي، و(ينابيع المودة) للحافظ القندوزي الحنفي وغيرها كثير.

واللفظ المتواتر لهذا الحديث الشريف هو الذي ورد فيه ذكر القرآن الكريم وأهل بيت النبي أو عترته - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - مصداقاً للثقلين والأمر بالتمسك بهما للنجاة من الضلالة الى يوم القيامة، طبق ما رواه البخاري في كتابه (التاريخ الكبير) ومسلم في صحيحه والترمذي في سننه وكذلك النسائي في خصائصه وابن ماجه في سننه ، وأحمد بن حنبل في مسنده، والحاكم في مستدركه وصححه على شرط الشيخين ووافقه في ذلك الذهبي، وغيرهم كثير^(١)، وما أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم هو قوله: «...قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يدعى خمأً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال :

«أما بعد، أيها الناس، فإنما أنا بشر ويوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(٢). وأخرج الترمذي في سننه بسنده عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٣).

مصداق أهل البيت عليه السلام

وقد حدّد رسول الله ﷺ نفسه مصداق « أهل البيت » بعد نزول آية التطهير، حيث خصصها بيت فاطمة عليها السلام، فقد جاء في الحديث: «إنه كان يمر بيت فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج الى الفجر فيقول: الصلاة يا أهل البيت، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ

(١) راجع تلخيص وتعريب السيّد عليّ الميلاني للجزء الخاص بطرق حديث الثقلين من موسوعة عقبات الأنوار وقد طبع هذا التلخيص مرتين. الأولى في مجلدين والثانية في ثلاثة مجلدات.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٣.

(٣) سنن الترمذي : ٥ / ٣٢٨ / ٣٨٧٤.

اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، كما روى ذلك أحمد بن حنبل في مسنده^(١).

يُضاف الى ذلك تصريحه بأن هؤلاء هم أهل بيته في حديث الكساء المشهور وإخراجه زوجته أم المؤمنين أم سلمة منهم وقوله لها: إنها على خير، لكنها ليست من أهل البيت، وحديث الكساء رواه مسلم في صحيحه والسيوطي في الدر المنثور بعدة أسانيد صحيحة طبق طرق أهل السنة^(٢).

والثابت أن الإمام علياً عليه السلام أدخله في مصداق «أهل البيت» وإن لم يكن من صلبه كما هو ظاهر مما تقدم.

ويلاحظ: أن الأمر بالتمسك بالقرآن والعترة مطلق زمانياً أيضاً كما هو واضح من قوله عليه السلام: «من بعدي» دونما تقييد، فهو نافذ المفعول الى يوم القيامة لخلود الشريعة المحمدية إذ لا نبي بعده عليه السلام، وبما أن القرآن محفوظ من الله تبارك وتعالى، والعترة هي الثقل الملازم له الذي لن يفترق عنه، لذلك فهي محفوظة من الله تبارك وتعالى الى يوم القيامة أيضاً.

فلا بد إذن من وجود إمام معصوم من العترة النبوية في عصرنا الحاضر يكون مصداقاً للثقل الثاني ويكون التمسك به ممكناً، وقد تنبه لهذه الحقيقة والدلالة الواضحة في حديث الثقلين عدد من كبار علماء أهل السنة وصرح بعضهم بها، مثل ابن حجر الهيتمي حيث قال: «وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة الى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به الى يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض».

مصداق الحديث في العصر الحاضر

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣: ٢٥٩ / ١٣٧٥٤.

(٢) راجع صحيح مسلم ٤: ٢٤٢٤ / ١٥٠١، وما رواه الحاكم في المستدرک وصححه على شرط البخاري في ٣: ٤٧٠٧ / ١٥٩، والدر المنثور للسيوطي ٦: ٦٠٣، مسند أحمد بن حنبل ٧: ٤٥٥ / ٢٦٢٠٦، مشكل الآثار، الطحاوي ١: ٣٣٤ - ٣٣٥.

إذن الحديث الشريف يدل بصراحة على وجود متأهل من عترة النبي صلّى الله عليه وآله للتمسك به الى جانب القرآن الكريم في عصرنا الحاضر، ويشترط فيه أن يكون معصوماً أيضاً، فمن هو هذا الإمام؟

من الواضح: أن ليس ثمة إمام ظاهر يدعي ذلك أو تنطبق عليه الصفات المستفادة من هذا الحديث الشريف، فلا بدّ إذن من القول بوجوده وغيبته؛ لأنّ القول بعدم وجوده مردود بدلالة حديث الثقلين المتواتر، وهذه هي خلاصة عقيدة مذهب أهل البيت عليهم السلام في المهدي الموعود القائمة على الكثير من الأدلة النقلية والعقلية والقائلة بوجوده وغيبته عن الأبصار دون أن تمنع غيبته إمكان الإنتفاع به كما ينتفع بالشمس إذا غيبتها السحب عن الأبصار.

* * *

الفصل الثاني

والكلام في هذا الفصل يقع في نقطتين:

النقطة الأولى: ولادة الإمام المهدي عليه السلام

ولد - سلام الله عليه - في دار أبيه الحسن العسكري عليه السلام في مدينة سامراء أواخر ليلة الجمعة الخامس عشر من شعبان، وهي من الليالي المباركة التي يُستحب إحيائها بالعبادة وصوم نهارها طبقاً لروايات شريفة مروية عن أهل البيت عليهم السلام ^(١)، وكذلك جاء مثلها في كتب أهل السنة المعتبرة مثل سنن ابن ماجه وسنن الترمذي وغيرهما ^(٢).

وكانت سنة ولادته (٢٥٥ هـ) على أشهر الروايات، وثمة روايات أخرى تذكر أن سنة الولادة هي (٢٥٦ هـ) أو (٢٥٤ هـ) مع الاتفاق على يومها وروي غير ذلك. ومثل هذا الاختلاف أمر طبيعي جار في تواريخ ولادات ووفيات آبائه حتى جدّه الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله، دون أن يؤثر ذلك في ثبوت ولادتهم عليهم السلام، كما أنه طبيعي للغاية بملاحظة سرّيّة الولادة عند وقوعها حفظاً للوليد المبارك كما سنلاحظ ذلك لاحقاً.

كيفية وظروف الولادة

يُستفاد من الروايات الواردة بشأن كيفية ولادته عليه السلام: أنّ والده الإمام الحسن العسكري - سلام الله عليه - أحاط الولادة بالكثير من السرية والخفاء، فهي تذكر أنّ الإمام الحسن العسكري قد طلب من عمته السيّدة حكيمه بنت الإمام الجواد أن

(١) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق: ٧٧، مصباح المتعجب للشيخ الطوسي: ٧٩٨، ٨٢٩، إقبال الأعمال للسيّد ابن طاووس: ٧١٨، الأمالي، الصدوق: ٧٩، ح ١/٤٦.

(٢) سنن ابن ماجه ١: ٤٤٤ - ٤٤٥ / ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، سنن الترمذي ٣: ١١٦ / ٧٣٩، المعجم الكبير، الطبراني ٢٠: ٢١٥ / ١٠٨.

تبقى في داره ليلة الخامس عشر من شهر شعبان وأخبرها بأنه سيُولد فيها ابنه وحبّة الله في أرضه، فسألته عن أمّه فأخبرها أنها نرجس، فذهبت إليها وفحصتها فلم تجد فيها أثراً للحمل، فعادت للإمام وأخبرته بذلك، فابتسم عليه السلام وبَيّن لها أن مثلها مثل أم موسى عليها السلام التي لم يظهر حملها ولم يعلم به أحد الى وقت ولادتها؛ لأنّ فرعون كان يتعقب أولاد بني إسرائيل خشية ظهور موسى المبشر به فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وهذا الأمر جرى مع الإمام المهدي عليه السلام أيضاً، لأنّ السلطات العباسية كانت ترصد ولادته إذ قد تنبأت بذلك طائفة من الأحاديث الشريفة كما سنشير لاحقاً.

ويُستفاد من نصوص الروايات أنّ وقت الولادة كان قبيل الفجر، وواضح أنّ لهذا التوقيت أهمية خاصة في إخفاء الولادة؛ لأنّ عيون السلطة عادةً تغطّي في نوم عميق، كما يُستفاد من الروايات أنه لم يحضر الولادة سوى حكيمة التي لم تكن تعرف بتوقيتها بشكل دقيق أيضاً^(١).

وتوجد رواية واحدة يرويها الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة تصرّح باستقدام عجوز قابلة من جيران الإمام لمساعدة حكيمة في التوليد مع تشديد الوصية عليها بكتمان الأمر وتحذيرها من إفشائه^(٢).

الإخبار المسبق عن خفاء الولادة

أخبرت الكثير من الأحاديث الشريفة بأنّ ولادة المهدي من الحسن العسكري ستُحاط بالخفاء والسرية، ونسبت الإخفاء الى الله تبارك وتعالى. فمثلاً روى الشيخ

(١) راجع غيبة الشيخ الطوسي الفصل الخاص بإثبات ولادة صاحب الزمان عليه السلام : ٧٤ وما بعدها، وكتاب كمال الدين للشيخ الصدوق: ٤٢٤ باب (٤٢) ما روي في ميلاد القائم عليه السلام، وراجع الروايات التي جمعها السيّد البحراني بشأن قصة الولادة من المصادر المعتبرة في كتابه تبصرة الولي : ٦ وما بعدها، وكذلك التلخيص الذي أجراه الميرزا النوري في النجم الثاقب ١: ١٤١ وما بعدها.

(٢) غيبة الشيخ الطوسي : ٢٣٤ / ح ٢٠٨، وعنه المجلسي في بحار الأنوار ٥١: ٢٠ / ٢٧.

الصدوق في (إكمال الدين) والخزاز في (كفاية الأثر) مسنداً عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام ضمن حديث قال فيه:

«أما علمتم أنه ما منّا إلّا ونقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه، إلّا القائم الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه ؟ ! وإن الله عزّ وجلّ يُخفي ولادته ويغيّب شخصه لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين ابن سيدة النساء يطيل الله عمره في غيبته ثم يظهره بقدرته...»^(١).

ويُلاحظ: أنّ هذه الأحاديث الشريفة تصرّح بأنّ خفاء الولادة من العلامات البارزة المشخصة لهوية المهدي الموعود والقائم من ولد فاطمة الذي بشرت به الأحاديث النبوية، وهذا أحد الأهداف المهمة للتصريح بذلك وهو تعريف المسلمين بإحدى العلامات التي يكشفون بها زيف مزاعم مدّعي المهدوية، كما شهد التاريخ الإسلامي الكثير منهم ولم تنطبق على أي منهم هذه العلامة، فلم تُحطْ ولادة أي منهم بالخفاء كما هو ثابت تاريخياً^(٢).

وتشير الأحاديث الشريفة إلى علّة إخفاء ولادته عليه السلام وأنها العلة نفسها التي أوجبت إخفاء ولادة نبي الله موسى عليه السلام، وهي حفظه من سطو الفراعنة ومسايعهم لقتله إتماماً لحجة الله تبارك وتعالى على عباده ورعاية له لكي يقوم بدوره الإلهي المرتقب في إنقاذ بني إسرائيل والصدع بالديانة التوحيدية ومواجهة الجبروت الفرعوني بالنسبة لموسى الكليم - سلام الله عليه -، وهكذا إنقاذ البشرية جمعاء وإنهاء الظلم والجور وإقامة القسط والعدل وإظهار الإسلام على الدين كله بيد المهدي المنتظر - عجل الله فرجه - وهذا ما كان يعرفه أئمة الجور بسبب النصوص الواردة بهذا الشأن، ففرعون مصر كان على علم بالبشارات الواردة بظهور منقذ لبني إسرائيل منهم، لذلك سعى في تقتيل أبنائهم بهدف منع ظهوره، وكذلك حال بني

(١) كمال الدين: ٣١٥ - ٣١٦، كفاية الأثر: ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) ذكر تراجعهم الدكتور محمد مهدي خان مؤسس صحيفة الحكمة في القاهرة في كتابه «باب الأبواب» الذي خصص جانباً منه لدراسة حركات أدعياء المهدوية.

العباس؛ إذ كانوا على علم بأن المهدي الموعود هو من ولد فاطمة - سلام الله عليها-، وأنه الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليه السلام وقد انتشرت الأحاديث النبوية المصرحة بذلك بين المسلمين ودوتها علماء الحديث قبل ولادة المهدي بعقود عديدة، كما كانوا يعلمون بأن الإمام الحسن العسكري هو الإمام الحادي عشر من أئمة العترة النبوية عليه السلام، لذا فمن الطبيعي أن يسعوا لقطع هواجس ظهور المهدي الموعود بالاجتهاد من أجل قطع نسل والده العسكري عليه السلام.

ومن الواضح: أن مجرد احتمال صحة هذه الأحاديث كان كافياً لدفعهم نحو إبادته، فكيف الحال وهم على علم راجح بذلك؟ خاصة وأن ليس بين المسلمين سلسلة تنطبق عليهم مواصفات تلك الأحاديث الشريفة مثلما تنطبق على هؤلاء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام؟

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نفهم سر ظاهرة قصر الأعمار التي ميزت تاريخ الأئمة الثلاثة الذين سبقوا الإمام المهدي عليه السلام من آبائه، فقد استشهد أبوه العسكري وهو ابن ثمان وعشرين^(١) واستشهد جدّه الإمام الهادي وهو ابن أربعين سنة^(٢) واستشهد الإمام الجواد وهو ابن خمس وعشرين سنة^(٣)، وهذه ظاهرة جديدة بالدراسة، وتكفي وحدها للكشف عن المساعي العباسية الحثيثة لإبادة هذا النسل؛ للحيلولة دون ظهور المهدي الموعود^(٤) حتى لو لم يسجل التاريخ محاولات العباسيين لاغتيال وقتل هؤلاء الأئمة، فكيف الحال وقد سجل عدداً من هذه

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر ٢: ٦٠١، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ٢: ١٠٩٠، وذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول: ٤٧٧ أنه عليه السلام مات عن ٢٩ سنة.

(٢) مروج الذهب للمسعودي: ٤/ ١٦٩، مطالب السؤول، ابن طلحة: ٤٧٤، الفصول المهمة لابن الصباغ ٢: ١٠٧٧، الصواعق المحرقة لابن حجر ٢: ٥٩٩.

(٣) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ٢: ١٠٥٧، مطالب السؤول: ٤٧٠.

(٤) لقد امتدت هذه المحاولات الى داخل بيت الإمام عليه السلام فزرعت العيون من النساء لمراقبة ما يحدث داخل بيت الإمام عليه السلام، للقضاء على الإمام المهدي عليه السلام إن ولد، بل قد امتدت هذه الجهود للحيلولة دون ولادة الإمام عليه السلام ومن هنا لم يتزوج الإمام الحسن العسكري عليه السلام بشكل رسمي كما هو المتعارف والمتداول حينذاك.

المحاولات تجاههم عليه السلام، حتى ذكر المؤرخون مثلاً أنهم قد سجنوا الإمام العسكري وسعوا لاغتياله عدة مرات، كما فعلوا مع آبائه عليه السلام^(١)!

يقول الإمام الحسن العسكري معللاً هذه الحرب المحمومة ضدهم عليه السلام فيما رواه عنه معاصره الشيخ الثقة الفضل بن شاذان:

قال: حدثنا عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب قال: قال أبو محمد [الإمام العسكري عليه السلام]: «قد وضع بنو أمية وبنو العباس سيوفهم علينا لعلتين: إحداهما: أنهم كانوا يعلمون أنه ليس لهم في الخلافة حق، فيخافون من ادعائنا إيّاها وتستقر في مركزها، وثانيتهما: أنهم قد وقفوا من الأخبار المتواترة على أن زوال ملك الجبابة والظلمة على يد القائم منا، وكانوا لا يشكّون أنهم من الجبابة والظلمة، فسعوا في قتل أهل بيت رسول الله ﷺ وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى منع تولد القائم عليه السلام أو قتله، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد منهم ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾»^(٢).

النقطة الثانية: الإمام المهدي في ظل أبيه عليه السلام

دور الإمام العسكري عليه السلام في إعلان الولادة

في ظل تلك الأوضاع الإرهابية الصعبة، كانت تواجه الإمام العسكري - سلام الله عليه - مهمة على درجة كبيرة من الخطورة والحساسية، فكان عليه أن يخفي أمر الولادة عن أعين السلطات العباسية بالكامل والحيلولة دون إهتدائهم إلى وجوده وولادته ومكانه حتى لو عرفوا إجمالاً بوقوعها، وذلك حفظاً للوليد من مساعي الإبادة العباسية المتربصة به، ولذلك لاحظنا في خبر الولادة حرص الإمام على إخفائها، كما نلاحظ أوامره المشددة لكل من أطلعه على خبر الولادة من أرحامه

(١) راجع الفصل الخاص بذلك في كتاب حياة الإمام العسكري عليه السلام للشيخ الطبرسي: ٤٢١ - ٤٢٤.

(٢) إثبات الهداة للحر العاملي ٣: ٦٨٥ / ٥٧٠ ب (٣٢)، منتخب الأثر للشيخ لطف الله الصافي: ٣٥٩ ب ٣٤ ح ٤ عن كشف الحق للخاتون آبادي وبذيله ما يدل عليه من سائر الأخبار غير القليلة، معجم أحاديث الإمام المهدي، علي الكوراني: ٢٢١ وذكر له عدة مصادر منها إثبات الرجعة للفضل بن شاذان على ما نقله الحر العاملي في إثبات الهداة.

وخواص شيعته بكتمان الخبر بالكامل، فهو يقول مثلاً لأحمد بن إسحاق: «ولد لنا مولود فليكن عندك مستوراً ومن جميع الناس مكتوماً»^(١).

ومن جهة ثانية كان عليه في ظل تلك الأوضاع الإرهابية وحملات التفتيش العباسية المتواصلة، أن يثبت خبر ولادته عليه السلام بما لا يقبل الشك؛ إثباتاً لوجوده ثم إمامته، فكان لابد من شهود على ذلك يطلعهم على الأمر، لكي ينقلوا شهاداتهم فيما بعد ويسجلها التاريخ للأجيال اللاحقة، ولذلك قام عليه السلام بإخبار عدد من خواص شيعته بالأمر وعرض الوليد عليهم، بعد مضي ثلاثة أيام من ولادته^(٢)، كما عرضه على أربعين من وجوه وخلص أصحابه بعد مضي بضع سنين والإمام يومئذ غلام صغير، وأخبرهم بأنه الإمام من بعده^(٣)، كما كان يعرضه على بعض أصحابه فرادى بين الحين والآخر ويظهر لهم منه من الكرامات ما يجعلهم على يقين من وجوده الشريف^(٤)، وقام عليه السلام بما أثبت تاريخياً ولادة خليفته الإمام المهدي عليه السلام بأقوى ما ثبت به ولادة إنسان كما يصرح بذلك الشيخ المفيد^(٥).

ومن جهة ثالثة كانت تواجه الإمام العسكري - سلام الله عليه - مهمة التمهييد لغيبة ولده المهدي وتعويد المؤمنين على التعامل غير المباشر مع الإمام الغائب، وقد قام عليه السلام بهذه المهمة عبر سلسلة من الإجراءات كإخبارهم بغيبته وأمرهم بالرجوع الى سفيره العام عثمان بن سعيد، فهو يقول لطائفة من أصحابه بعد أن عرض عليهم الإمام المهدي عليه السلام وهو غلام: «هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم، أطيعوه ولا

(١) كمال الدين: ٤٣٤.

(٢) كمال الدين: ٤٣١ / ح ٨ ب (٤٢)، وراجع ب (٤٣) من كمال الدين والذي خصصه لمن شاهد الإمام القائم عليه السلام ورآه وكلمه.

(٣) كمال الدين، الصدوق: ٤٣٥، الغيبة للشيخ الطوسي: ٣٥٧ ح ٣١٩، إثبات الهداة للحر العاملي: ٣: ٤١٥ / ٥٦، ينابيع المودة للحافظ سليمان الحنفي: ٣: ٣٢٣.

(٤) راجع قصصهم في كتاب تبصرة الولي للسيد البحراني والفصول الخاصة بأحاديث «من رآه في حياة أبيه» من كتب الغيبة.

(٥) الفصول العشرة في الغيبة للشيخ المفيد: ٥٨ - ٦٠.

تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم ، ألا وأنكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر ، فاقبلوا من عثمان ما يقوله وانتهوا الى أمره واقبلوا قوله فهو خليفة إمامكم والأمر إليه ^(١) .

ومن إجراءاته عليه السلام في هذا المجال - تأكيده على استخدام أسلوب الإحتجاب والتعامل مع المؤمنين بصورة غير مباشرة؛ تعويذاً لهم على مرحلة الغيبة، فكان يكلم شيعته الخواص وغيرهم من وراء الستر إلا في الأوقات التي يركب فيها الى دار السلطان، وإنما كان منه ومن أبيه قبله مقدمة لغيبة صاحب الزمان لتألف الشيعة ذلك ولا تنكر الغيبة وتجري العادة بالإحتجاب والإستتار ^(٢) ، ومن هذه الإجراءات تثبيت نظام الوكلاء عن الإمام ، وتأييد الكتب الحديثية التي جمع فيها أصحاب الأئمة مروياتهم عنهم وعن رسول الله ﷺ ^(٣) ، ليرجع إليها المؤمنون في عصر الغيبة ^(٤) .

حضوره وفاة أبيه عليه السلام

طبق ما يرويه الشيخ الصدوق في (إكمال الدين) والشيخ الطوسي في (الغيبة) فإن الإمام المهدي - عجل الله فرجه - قد حضر وفاة أبيه العسكري عليه السلام، إلا أن رواية الشيخ الطوسي أكثر تفصيلاً من رواية الصدوق التي كُنت عن حضوره ولم تصرح به، فقد نقل الشيخ الصدوق عن محمد بن الحسين بن عباد أنه قال: مات أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام يوم الجمعة مع صلاة الغداة، وكان في تلك الليلة قد كتب بيده كتباً كثيرة الى المدينة وذلك في شهر ربيع الأول لثمان خلون منه سنة ستين ومائتين من الهجرة ولم يحضره في ذلك الوقت إلا صقيل الجارية، وعقيد الخادم ومن علم الله عزوجل غيرهما... ^(٥) .

(١) غيبة الطوسي: ٣٥٧ / ح ٣١٩، كمال الدين: ٤٣٥.

(٢) إثبات الوصية للمسعودي: ٢٦٢.

(٣) راجع رجال الكشي: ٤٨١، ٤٥١، ورجال ابن داود: ٢٧٢ - ٢٧٣، فلاح السائل للسيد ابن طاووس: ١٨٣ وغيرها.

(٤) لمزيد من التفصيلات بشأن دور الإمام الحسن العسكري عليه السلام في هذا المجال راجع كتاب تاريخ الغيبة الصغرى للسيد الشهيد محمد الصدر: ٢٦٩ وما بعدها، وحياة الإمام العسكري عليه السلام للشيخ الطوسي: ٣١٣ - ٣٢٦.

(٥) كمال الدين: ٤٧٤ باب (٤٣).

ونقل الطوسي الرواية بتفصيل أكثر حيث قال:

«قال إسماعيل بن عليّ: دخلت على أبي محمد الحسن بن عليّ عليه السلام في المروضة التي مات فيها، وأنا عنده إذ قال لخادمه عقيد - وكان الخادم أسود نوبياً قد خدم من قبله عليّ بن محمد وهو ربيّ الحسن عليه السلام -: يا عقيد اغل لي ماء بمصطكي. فأغلى له، ثم جاءت به صقيل الجارية أمّ الخلف، فلما صار القدح في يديه هم بشربه فجعلت يده ترتعد حتى ضرب القدح ثنيا الحسن فتركه من يده وقال لعقيد: «ادخل البيت فإنك ترى صبيّاً ساجداً فأتني به»، قال أبو سهل: قال عقيد: فدخلت أتحرى فإذا أنا بصبي ساجد رافع سبابته نحو السماء، فسلمت عليه فأوجز في صلاته، فقلت: إن سيدي يأمرك بالخروج إليه، إذ جاءت أمّه صقيل فأخذت بيده وأخرجته الى أبيه الحسن عليه السلام.

قال أبو سهل: فلما مثل الصبي بين يديه سلم وإذا هو دري اللون وفي شعر رأسه قطط، مفلج الأسنان، فلما رآه الحسن عليه السلام بكى وقال: «يا سيد أهل بيته اسقني الماء فإني ذاهب الى ربي» وأخذ الصبي القدح المغلي بالمصطكي بيده ثم حرك شفّيته ثم سقاه فلما شربه قال: «هيئوني للصلاة»، فطرح في حجره منديل فوضأه الصبي واحدة واحدة ومسح على رأسه وقدميه فقال له أبو محمد عليه السلام: «أبشر يا بني فأنت صاحب الزمان وأنت المهدي وأنت حجّة الله على أرضه وأنت ولدي ووصيي وأنا ولدتك وأنت محمد بن الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ولدك رسول الله وأنت خاتم الأئمة الطاهرين وبشرك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسماك وكنّاك، بذلك عهد إليّ أبي عن آبائك الطاهرين صلّى الله على أهل البيت ربّنا إنّه حميد مجيد»، ومات الحسن بن عليّ من وقته صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

(١) غيبة الطوسي: ٢٧٣، ح ٢٣٧.

الفصل الثالث

حياة الإمام المهدي عليه السلام بعد تسلمه الإمامة

والكلام في هذا الفصل يقع في ثلاث نقاط :

النقطة الأولى: صلاته على أبيه وإعلان وجوده

كان من أولى المهمات التي قام بها الإمام المهدي (عليه السلام) بُعَيْدَ تسلمه مهام الإمامة هي الصلاة على أبيه الحسن العسكري عليه السلام في داره وقبل إخراج جسده الطاهر الى الصلاة « الرسمية » التي خططتها السلطات العباسية ^(١) وكان قيامه بهذه الصلاة يعتبر أمراً مهماً في إثبات إمامته رغم المخاطر التي كانت تتوقع بعد نقل خبر هذه الصلاة.

روى الشيخ الصدوق عن أبي الأديان البصري أحد ثقات الإمام العسكري عليه السلام، حيث قال :

« كنت أخدم الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأحمل كتبه الى الأمصار، فدخلت عليه في علته التي توفي فيها صلوات الله عليه فكتب معي كتباً وقال: «امض بها الى المدائن فإنك ستغيب خمسة عشر يوماً وتدخل الى (سر من رأى) يوم الخامس عشر وتسمع الواعية في داري وتجديني على المغتسل».

قال أبو الأديان: فقلت: يا سيدي فإذا كان ذلك فمن ؟ قال: «من طالبك بجوابات كتبي فهو القائم من بعدي»، فقلت: زدني فقال: «من يصلي عليّ فهو القائم بعدي»، فقلت: زدني فقال: «من أخبر بما في الهميان فهو القائم بعدي»، ثم منعني هيئته أن أسأله عما في الهميان، وخرجت بالكتب الى المدائن واخذت جواباتها ودخلت (سر من

(١) يظهر أنّ الصلاة الأولى كانت بحضور وجوه أصحاب الإمام وأرحامه والصلاة الرسمية كانت بحضور ممثلي السلطة العباسية ووجوه المدينة وعامة الناس ، راجع تفصيلات ذلك في كتاب بحار الأنوار: الجزء ٥٢: ٦٧.

رأى) يوم الخامس عشر كما قال لي عليه السلام وإذا أنا بالواعية في داره وإذا به على المغتسل، وإذا أنا بجعفر بن عليّ أخيه بباب الدار والشيعة من حوله يعزونه ويهنئونه، فقلت في نفسي: إن يكن هذا الإمام بطلت الإمامة، لأنني كنت أعرفه يشرب النبيذ ويقامر في الجوسق ويلعب بالطنبور، فتقدمت فعزيت وهنئت، فلم يسألني عن شيء، ثم خرج عقيد فقال: يا سيدي قد كفن أخوك فقم فصلّ عليه.

فدخل جعفر بن عليّ والشيعة من حوله يقدمهم السمان والحسن بن عليّ قتيل المعتصم المعروف بسلمة، فلما صرنا في الدار إذا نحن بالحسن بن عليّ صلوات الله عليه على نعشه مكفناً، فتقدم جعفر بن عليّ ليصليّ على أخيه، فلما همّ بالتكبير، خرج صبي بوجهه سمرة بشعره قطط بأسنانه تفليج، فجذب برداء جعفر بن عليّ وقال: «تأخر يا عم فأنا أحقّ بالصلاة على أبي» فتأخر جعفر وقد أربد وجهه واصفرّ، وتقدّم الصبي فصلى عليه، ودفن إلى جانب قبر أبيه عليه السلام ثم قال: «يا بصرى هات جوابات الكتب التي معك»، فدفعها إليه فقلت في نفسي: هذه بينتان بقي الهميان، ثم خرجت إلى جعفر بن عليّ وهو يزفر فقال له حاجز الوشا: يا سيدي من الصبي لنقيم الحجة عليه؟

فقال: والله ما رأيته قط ولا أعرفه، فنحن جلوس إذ قدم نفر من قم فسألوا عن الحسن بن عليّ عليه السلام فعرفوا موته فقالوا: فمن نعزي؟ فأشار الناس إلى جعفر بن عليّ فسلموا عليه وعزوه وهنأوه وقالوا: معنا كتب ومال، فتقول ممن الكتب وكم المال؟ فقام ينفذ أثوابه ويقول: تريدون منا أن نعلم الغيب؟! قال: فخرج الخادم فقال: معكم كتب فلان وفلان وهميان فيه ألف دينار وعشرة دنانير منها مطلية، فدفعوا إليه الكتب والمال وقالوا: الذي وجّه بك لأخذ ذلك هو الإمام.

فدخل جعفر بن عليّ على المعتمد وكشف ذلك، فوجّه المعتمد بخدمه فقبضوا على صقيل الجارية فطالبوها بالصبي فأنكرته، وادعت أن بها حبلاً لتغطي حال الصبي، فسلمت إلى ابن أبي الشوارب القاضي، وبغتهم موت عبيد الله بن يحيى بن

خاقان فجأة، وخروج صاحب الزنج بالبصرة، فشغلوا بذلك عن الجارية فخرجت من أيديهم والحمد لله رب العالمين...»^(١).

أهدافه عليه السلام من الصلاة على أبيه

حقّق قيام الإمام بالصلاة على أبيه - سلام الله عليهما - أمرين مهمين، كان من الضروري إنجازهما بعد وفاة الإمام الحادي عشر حيث تتطلّع أنظار الناس لمعرفة هوية الإمام الثاني عشر، بعد أن عرفنا أنّ ولادة الإمام المهدي - سلام الله عليه - كانت قد أُحيطت بالكتمان الشديد بسبب الترصد العباسي للقضاء على الوليد المصلح المرتقب، لذلك فإنّ هذا الظرف الخاص هو الظرف الذي كانت تتطلع فيه الأعين لترى من الذي يصلي على الإمام المتوفى، لتتخذ ذلك قرينة كاشفة عن خليفة الإمام السابق، وهكذا كان الظرف يمثل فرصة مناسبة للغاية لتعريف الحاضرين في الدار - وكثير منهم من عيون أصحاب الإمام العسكري عليه السلام ووكلائه - بوجود الإمام المهدي، وأنه هو الوصي الحقيقي لأبيه، وأنّ الرعاية الإلهية قد حفظته من مساعي الإبادة العباسية، خاصة وأنّ الخليفة العباسي المعتمد قد بعث جلاوزته فور وصول خبر وفاة الإمام العسكري لتفتيش داره عليه السلام بجميع حجرها بحثاً عن ولده، واصطحبوا معهم نساء يعرفن الحبل لفحص جواريه عليه السلام وكلّ ذلك كان قبل تهيئة الجسد الطاهر وتكفينه^(٢)، لذلك كانت صلاته على أبيه عليه السلام بمثابة إعلان لأولئك الحاضرين - وعددهم كان يناهز الأربعين كما في رواية الهاشمي المتقدّمة -؛ عن سلامة الإمام المهدي من الهجوم العباسي السريع الذي باغت أهل دار العسكري المنشغلين بمصيبة فقدته عليه السلام، الأمر الذي قد يجعل البعض يتصور أنهم لم يكونوا يتحسبون لهذا الهجوم المباغت.

(١) كمال الدين : ٤٧٥ - ٤٧٦، الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي ٣: ١١٠١ - ١١٠٤، بحار الأنوار ٥٢: ٦٧.

(٢) راجع تفصيلات ذلك في كمال الدين: ٤٠ - ٤٣، وفي بحار الأنوار ٥٠: ٣٢٥ باب وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

ولتأكيد هذا الأمر نلاحظ أنّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام للصلاة على أبيه اقترن بالإعلان عن هويته وأنه ابن الحسن العسكري وأنه أحقّ بالصلاة عليه، كما تصرّح بذلك رواية أبي الأديان حيث خاطب الإمام عمه جعفر بالقول: «يا عم، أنا أحقّ بالصلاة على أبي».

أما الإنجاز الثاني، فهو منع عمه جعفر - الذي لُقب بالكذاب - من استغلال هذا الموقف المهم للحصول على ورقة مؤثرة في أذهان الناس تؤيّد دعاواه التضليلية بأنه هو الإمام بعد أخيه العسكري عليه السلام، وتتضح أهمية هذا الإنجاز وضرورته من ملاحظة الجهود المستميتة التي بذلها جعفر بتشجيع من السلطة العباسية لإقناع الناس بأنه خليفة أخيه العسكري عليه السلام والقائم مقامه في الإمامة^(١)، وقد بلغت استماتته في ذلك حد الوشاية بآبن أخيه المهدي عليه السلام ومسارعة لإخبار المعتمد العباسي بحضوره للصلاة بهدف القبض عليه، كما رأينا في الرواية المتقدمة، واستنجاده بالبلاط العباسي لمناصرته في جهوده هذه.

وواضح: أنّ لمثل هذا النشاط المحموم تأثيراً سلبياً كبيراً في إضلال الناس وإبعادهم عن الإمام الحقّ، خاصة مع الخفاء الذي كان قد أحاط بولادة المهدي عليه السلام وكتمان أمره إلّا عن خواص أصحابه، فكان لابد للإمام عليه السلام من مواجهته وعدم السماح له باستغلال ذلك الموقف الحساس لجهوده التضليلية تلك، وإعلان وجوده عليه السلام إكمالاً للحجّة، على الرغم من المخاطر التي حفت بالقيام بهذه المهمة.

النقطة الثانية: غياب الإمام المهدي عليه السلام

كان للإمام المهدي عليه السلام غيبتان: صغرى وكبرى، أخبرت عنهما معاً الكثير من الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعن الأئمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام.

(١) كمال الدين: ٤٠ - ٤٣، إرشاد الشيخ المفيد: ٢: ٣٢١ - ٣٢٥، وعنه في بحار الأنوار: ٥٠ / ٣٢٥ - ٣٢٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٤، أعلام الوري بأعلام الهدى: ١٤٩.

تبدأ الغيبة الصغرى من حين وفاة أبيه الحسن العسكري عليه السلام سنة (٢٦٠هـ) وتولّى المهدي مهام الإمامة الى حين وفاة آخر السفراء الأربعة الخاصين بالإمام المهدي - عجل الله فرجه - وهو الشيخ عليّ بن محمّد السمرى في النصف من شعبان سنة (٣٢٩هـ) تزامناً مع ذكرى ولادة الإمام المهدي عليه السلام؛ فتكون مدتها قرابة السبعين عاماً، وقد تميزت هذه الفترة بعدم الاستتار الكلي للإمام حيث كان يتصل بعدد من المؤمنين، كما تميزت بكثرة الرسائل الصادرة عنه عليه السلام في موضوعات عديدة، وكذلك بوجود السفراء الخاصين والوكلاء الذين كان يعينهم مباشرة، وهذه الفترة مثلت مرحلة انتقالية بين الظهور المباشر الذي كان مألوفاً في حياة آبائه وبين الاستتار الكامل في عهد الغيبة الكبرى.

أما الغيبة الكبرى فقد بدأت إثر وفاة الشيخ السمرى إذ أمره الإمام بعدم تعيين خليفة له، بعد أن استنفدت الغيبة الصغرى الأهداف المطلوبة منها. والغيبة الكبرى مستمرة الى يومنا هذا وتستمر حتى يأذن الله تبارك وتعالى للإمام بالظهور والقيام بمهمته الإصلاحية الكبرى.

وتميزت الغيبة الكبرى بانتهاء نظام السفارة الخاصة عن الإمام، وبقلّة الرسائل الصادرة عنه عليه السلام، وبالاستتار الكلي إلا في حالات معينة.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون هذه الغيبة على مرحلتين. والعلّة واضحة؛ إذ أنّ وقوع الغيبة الكاملة بصورة مفاجئة سوف يفقدها مجموعة من العوامل اللازمة لتأهيل المجتمع الإسلامي والبشري لظهوره عليه السلام وإقامة الدولة الإسلامية العالمية.

إذ المحور العام لعملية التأهيل هذه هو التمحيص الإعدادي، ومثل هذا التمحيص يحتاج الى جملة عوامل وقناعات عقائدية متينة تمثل قاعدة الاستناد للإنسان المسلم للنجاح في عملية التمحيص وتراكم الخبرات واللياقات النفسية والمعرفية عبر أجيال المجتمع الإسلامي استعداداً للظهور.

إنّ النبيّ الأكرم ﷺ والأئمة من أهل بيته عليه السلام قد مهّدوا لهذه الغيبة بخطوات عديدة ازدادت عمقاً وشمولية كلّما اقترب أوانها، كالإخبار عن حتمية وقوعها، وخفاء ولادة صاحبها، وتوسيع العمل بنظام الوكلاء، وتوفير ما تحتاجه الأئمة من المعارف الإسلامية والقواعد الشرعية التي يتم على أساسها استنباط الأحكام الشرعية وغير ذلك، إلّا أنّ التمهيد للغيبة الكاملة بقي بحاجة الى خطوات تكميلية ونماذج تطبيقية تؤكدها وتبينها، وهذا ما قام به الإمام المهدي عليه السلام في الغيبة الصغرى وهو الإطار العام لسيرته وتحركه في هذه الفترة التي جاءت بمثابة مرحلة انتقال بين حالة الظهور الكامل للأئمة السابقين عليه السلام وبين الغيبة الكاملة للمهدي الموعود، فهي في الواقع خطوة تمهيدية أخيرة للغيبة الكبرى.

ويظهر من روايات مرحلة الغيبة الصغرى أنّ السلطة العباسية أخذت تتعقب خبر الإمام المهدي عليه السلام، وتتجسّس على وكلائه، وكأنها كانت على اطمئنان بوجوده استناداً الى ما تواتر نقله عن النبيّ الأكرم ﷺ من أخبار الأئمة الاثني عشر من عترته، وكانت تعلم أنّ الحسن العسكري عليه السلام هو الحادي عشر منهم، فلا بد من ولادة الثاني عشر أيضاً وهو خاتمهم الموعود بإنهاء الظلم والجور على يديه حسبما ورد في البشارات النبوية المتواترة.

وكان هدف السلطة من التجسس على الوكلاء هو الوصول الى الإمام عليه السلام، ولذلك كانت التأكيدات المشددة من قبل الأئمة السابقين عليه السلام ومن الإمام المهدي عليه السلام نفسه تركزت على النهي عن ذكر اسم الإمام في الغيبة الصغرى؛ لأنّه إذا وقع الاسم وقع الطلب^(١).

وقد روت المصادر الروائية المعتبرة الكثير من الروايات التي تتحدث عن التقاء المؤمنين بالإمام المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى، فلا يكاد يخلو كتاب من الكتب

(١) الكافي، الكليني ١: ٣٣٠ باب في تسمية من رآه عليه السلام وعنه الطوسي في الغيبة: ٢٤٤، ح ٢٠٩، كمال الدين باب (٥٦) باب النهي عن تسمية القائم عليه السلام.

المصنفة في تواريخ الأئمة أو الإمام المهدي عليه السلام خاصة، من ذكر مجموعة من هذه الروايات، وقد روى الشيخ الصدوق عن محمد بن أبي عبد الله إحصائية لعدد لقاءاته من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، فذكر ثمانية وستين شخصاً^(١) وأوصل الميرزا النوري العدد الى (٣٠٤) أشخاص استناداً الى الروايات الواردة في المصادر المعتبرة^(٢) وفيها المروية بأسانيد صحيحة، ومعظمهم التقوه في الغيبة الصغرى وبعضهم في حياة أبيه عليه السلام وهذه الروايات تخص الذين رأوه وعرفوه وليس الذين لم يعرفوه.

ويستفاد من هذه الروايات أنه عليه السلام كان يبادر الى الالتقاء بالمؤمنين في الكثير من الحالات ويظهر على يديه المعجزات والدلائل بحيث يجعلهم يؤمنون بأنه هو الإمام ويثبت لهم وجوده عليه السلام وإمامته، وهذا ما يصرح به لعيسى الجوهري الذي التقاه في سنة (٢٦٨ هـ) في صابر قرب المدينة المنورة حيث قال له في نهاية اللقاء وبعد ما أراه من الدلائل ما جعله على يقين من هويته عليه السلام:

« يا عيسى ما كان لك أن تراني لولا المكذبون القائلون بأين هو؟ ومتى كان؟ وأين ولد؟ ومن رآه؟ وما الذي خرج إليكم منه؟ وبأي شيء نبأكم؟ وأي معجز أتاكم؟ أما والله لقد دفعوا أمير المؤمنين مع مارووه وقدموا عليه، وكادوه وقتلوه، وكذلك آبائي عليهم السلام ولم يصدقوهم ونسبوهم إلى السحر وخدمة الجن إلى ما تبين.

يا عيسى فخبّر أوليائنا ما رأيت، وإياك أن تخبر عدونا فتسلبه، فقلت: يا مولاي ادع لي بالثبات، فقال: لو لم يثبتك الله ما رأيتني، وامض بنجحك راشداً. فخرجت أكثر حمداً لله وشكراً^(٣).

(١) كمال الدين : ٤٣٤ باب (ذكر من شاهد القائم عليه السلام ورآه وكلمه).

(٢) النجم الثاقب : ٢ / ٤٤ - ٤٨ من الترجمة العربية.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي ٥٢ : ٦٨ - ٧٠ / ٥٤.

إعلان انتهاء الغيبة الصغرى

قبل ستة أيام من وفاة السفير الرابع، أخرج للمؤمنين توقيعاً من الإمام المهدي عليه السلام يعلن فيه انتهاء الغيبة الصغرى وعهد السفراء المعينين من قبل الإمام مباشرة، إيداناً ببدء الغيبة الكبرى ونصّ التوقيع هو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يا عليّ بن محمد السمرى، أعظم الله أجر إخوانك فيك فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فأجمع أمرك ولا توص الى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك؛ فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وإمتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدعي المشاهدة ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفىاني والصيحة فهو كذاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

وكان هذا آخر توقيع صدر عن الإمام في الغيبة الصغرى، وهو بمثابة إعلان عن تحقيق تحرّكه فيها للأهداف المرجوة منها تمهيداً للغيبة الكبرى، فقد ظهر للناس خلالها منه عليه السلام مباشرة أو عبر سفرائه من البينات ما يثبت وجوده وإمامته وصحة غيبته الكبرى، وقد تمّ تدوينها في هذه الفترة من قبل عدد من وجوه العلماء^(٢)، وأتضح للأمة انتفاع الناس بوجوده خلالها ورعايته لمسيرتهم من خلف أستارها، وأمر فيه بالرجوع الى الفقهاء في الحوادث الواقعة، وصرح بأن وجوده أمان لأهل الأرض^(٣)، كما أنّ الجيل الذي كان قد عاصر زمان الأئمة كان قد انتهى وظهرت أجيال اعتادت عصر الغيبة وفكرة القيادة النائبة، لذلك فقد تأهلت الأمة للدخول في عصر الغيبة الكبرى^(٤).

(١) كمال الدين : ٥١٦، ح ٤٤، غيبة الطوسي : ٢٤٢، الإحتجاج : ٢ : ٢٩٧.

(٢) يُلاحظ هنا مثلاً أنّ كتاب الكافي للشيخ الكليني، وهو من أهم مصادر تراث أهل البيت عليهم السلام في المجالات العقائدية والفقهية تمّ تدوينه خلال فترة الغيبة الصغرى، فقد توفي الشيخ الكليني: سنة ٣٢٩ هـ وهي نفس سنة وفاة الشيخ السمرى آخر السفراء أي في نفس سنة انتهاء الغيبة الصغرى.

(٣) كما صرح بذلك عليه السلام في توقيعته الذي أجاب فيه عن أسئلة إسحاق بن يعقوب، راجع كمال الدين : ٤٨٣، ح ٤،

غيبة الطوسي : ٢٩٠ ح ٢٤٧، الإحتجاج : ٢ : ٢٨١، الخرائج : ٣ : ٣٠/١١١٣.

(٤) تاريخ الغيبة الصغرى : ٦٣٠ - ٦٥٤ وفيه توضيحات مهمة بشأن نص التوقيع المهدي الشريف للسمرى.

النقطة الثالثة: الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام

والكلام على هذه النقطة في مرحلتين :

المرحلة الأولى: إنجازات الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى

إنّ سيرة الإمام المهدي عليه السلام وتحركاته في غيبته الكبرى تتمحور حول هدف التمهيد لظهوره والمساهمة في إزالة العلل الموجبة لغيبته، وعليه يمكننا القول بأنّه يعمل في سبيل ترشيد الأمة واستجماعها لخبرات أجيالها المتعاقبة؛ وفي سبيل إيصال الحقّ الى الجميع ودعم وتأيد العاملين من أجل نشر الإسلام النقي وحفظه، وهو يرفع عملية التمييز والتمحيص الإعدادي لجيل الظهور، ويكشف فشل المدارس الأخرى وعجزها عن تحقيق السعادة المنشودة للبشرية، ويساهم في حفظ روح الرضا للظلم ويحبط المساعي لقتلها، إنه عليه السلام يقوم بكل ذلك، ولكن بأساليب خفية غير ظاهرة قد يتضح الكثير منها عند ظهوره، كما يتضح دوره عليه السلام في الكثير من الحوادث الواقعة التي تصب في صالح تحقق الأهداف المتقدمة التي لم تُعرف أسباب وقوعها، أو أنّ ما عُرض من الأسباب لم يكن كافياً لتفسيرها.

رعايته للكيان الإسلامي

يقول الإمام المهدي عليه السلام في رسالته الأولى للشيخ المفيد: «... فإنّا نحيط علماً بأنّائكم ولا يعزب عنّا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم منذ جنح كثير منكم الى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبدوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

إنّا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم ولولا ذلك لنزل بكم اللاؤاء وأصطلمكم الأعداء»^(١).

(١) الإحتجاج ٢: ٣٢٣ مقطع من كتاب الناحية المقدسة للشيخ المفيد رحمه الله تعالى وعنه بحار الأنوار ٥٣:

١٧٥ / ٨، وعنه في معادن الحكمة: ٣٠٣ / ٢.

إن الإمام يتابع أوضاع المؤمنين ويحيط علماً بالتطورات التي تحصل لهم ومحاولات الاستئصال والإبادة التي يتعرضون لها، ويتخذ الإجراءات اللازمة لدفع الأخطار عنهم بمختلف أشكالها، وهذه الرعاية هي أحد العوامل الأساسية التي تفسر حفظ أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام واستمرار وجودهم وتناميه على مدى الأجيال، على الرغم من شدة الحملات التصفوية التي عرضوا لها والإرهاب الفكري الحاد الذي مورس ضدهم لقرون طويلة.

حفظ الإسلام الصحيح وتسديد العمل الاجتهادي

إن الإمام المهدي عليه السلام يقوم أيضاً في غيبته الكبرى بحفظ الإسلام النقي الذي يحمله مذهب أهل البيت عليهم السلام. وهذه المهمة من المهام الرئيسة للإمامة، ومن مظاهر قيامه عليه السلام بها في غيبته تسديد العمل الاجتهادي للعلماء والفقهاء ومنع إجماعهم على باطل بطريقة أو بأخرى .

وقد ورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بألفاظ ومعان متقاربة، فعن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ فيهم في كلّ خلف عدولاً ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

وفي المستفيض عنهم عليهم السلام «إنّ الأرض لا تخلو إلّا وفيها عالم إذا زاد المؤمنون شيئاً ردهم الى الحقّ وإن نقصوا شيئاً تمّ ذلك ولولا ذلك لالتبس عليهم أمرهم ولم يفرقوا بين الحقّ والباطل»^(١).

الالتقاء بالمؤمنين في غيبته الكبرى

إنّ سيرة الإمام في غيبته الكبرى تفصح عن أنّ لقاءاته فيها لا تنحصر في هذا العدد المحدود من الأولياء المخلصين في كلّ عصر بل تشمل غيرهم - ولو بصورة غير مستمرة - فالأخبار الخاصة الدالة على مشاهدته في الغيبة الكبرى كثيرة وعددها

(١) مفاتيح الأصول: ٤٩٦ - ٤٩٧ .

يفوق حد التواتر، بحيث نعلم لدى مراجعتها واستقراءها، عدم الكذب والخطأ فيها في الجملة^(١)، فقد نقل الميرزا النوري مائة منها في النجم الثاقب، وفي المصادر الأخرى ما يزيد على ذلك بكثير، إضافة إلى أن من المؤكد أن هناك مقابلات غير مروية ولا مسجلة في المصادر وإن كانت متناقلة عبر الثقافات، وأن المهدي - عجل الله فرجه - يتصل بعدد من المؤمنين في أنحاء العالم في كل جيل مع حرصهم على عدم التفوه بذلك وكتمه إلى الأبد، بل يمكن القول بأن المقابلات غير المروية أكثر بكثير من المقابلات المروية.

وتشمل هذه المقابلات قضاء حوائج المؤمنين - كما كانت سيرة آبائهم الأئمة عليهم السلام بمختلف أقسامها المادية والمعنوية، كما تشمل على توجيه الوصايا التربوية وتوضيح غوامض المعارف الإلهية أو التنبيه إلى الأحكام الشرعية الصحيحة، وغير ذلك من مهام الإمام في كل عصر.

ترسيخ الإيمان بوجوده

وتحققت من هذه اللقاءات إضافة لذلك ثمار مهمة تتمحور حول ترسيخ الإيمان بوجوده عليه السلام وإزالة التشكيكات المثارة تجاه ذلك في كل عصر بما يعزز مسيرة المؤمنين في التمهيد لظهوره عليه السلام، خاصة وأن معظم هذه المقابلات تقترب عادة بصدور ما لا يمكن صدوره عن غير الإمام عليه السلام من إيضاحات علمية دقيقة أو كرامات إعجازية تقطع أي مجال للشك في هويته عليه السلام وهي في معظم الأحوال تكون بمبادرة من الإمام نفسه وبصورة لا يتوقعها الفائز ببقاءه عليه السلام، وبعد مدة - قد تطول أحياناً - من صدق المؤمن في طلب مقابله والإخلاص لله في القيام بالأعمال

(١) راجع تاريخ الغيبة الصغرى: ٦٤٠ وما بعدها وتاريخ الغيبة الكبرى: ١٠٧ وقد ناقش السيد الصدر في هذين الكتابين قضية الالتقاء بالإمام في الغيبة الكبرى وعدم تعارضها مع أمر الإمام المهدي عليه السلام في توقيعه للشيخ السمري بتكذيب من ادعى المشاهدة في الغيبة الكبرى، كما ناقشها الميرزا النوري في الباب السابع من كتاب النجم الثاقب والعلامة المجلسي في بحار الأنوار وغيرهم كثير وأثبتوا جواز الالتقاء بالإمام في الغيبة الكبرى.

الصالحة بهدف الفوز بذلك، كما أنها عادة ما تكون بالمقدار اللازم لقضاء حاجة المؤمن الطالب لها أو تحقيق الإمام للغاية المرجوة منها، وغالباً ما ينتبه المؤمن الى أنّ من التقاه هو الإمام المهدي عليه السلام بعد انتهاء المقابلة، وكلّ ذلك حفظاً لمبدأ الاستتار في هذه الفترة.

* * *

الفصل الرابع

ظهور الإمام المهدي عليه السلام

والكلام في هذا الفصل يقع في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: علائم ظهور الإمام المهدي عليه السلام

إنّ الأحاديث الشريفة تأمر بانتظار ظهور الإمام وتوقعه في كلّ آن، وهذا تكليف تربوي يهدف الى جعلهم ساعين باتجاه تحقيق الاستعداد الكامل باستمرار، لنصرته عندما يظهر.

ولكن الى جانب هذا الأمر المؤكد تذكر الأحاديث الشريفة مجموعة من الحوادث والأمر كعلائم لظهوره عليه السلام يهتدي بها المؤمنون لترسيخ وتسريع استعدادهم لنصرته والمساهمة في إنجاز مهمته الإصلاحية الكبرى. وتذكر الأحاديث الشريفة قسمين رئيسيين من علائم ظهور الإمام عليه السلام القسم الأوّل ماهو حتمي الوقوع، والقسم الثاني ماهو غير حتمي، بل قد لا يقع إذا اقتضت الحكمة الإلهية ذلك، كما أنّ بعض هذه العلائم قريبة من زمن الظهور وبعضها سابق له بفترة طويلة.

وحيث إنّ علائم الظهور ترتبط بقضايا غيبية، فإنّها تعرضت للكثير من التحريف وداخلها الوضع، لذا ينبغي التدقيق في هذا الجانب لتمييز الصحيح منها من الموضوع. على أنّ ثمة قضية مهمة أخرى في هذا المجال هي وجود مجموعة من العلامات التي ذكرتها بعض الأحاديث الشريفة المرسلة أو غير المسندة ثم جاء الواقع التاريخي مصدّقاً لها، فهذا دليل صحتها، لأنه أثبت أنّها تحدّثت عن قضايا قبل وقوعها، وهذا ما لا يمكن صدوره إلّا عن جهة ينبع الوحي الإلهي.

أبرز علائم الظهور

والبحث في علائم الظهور طويل لا يسعه هذا المختصر، فنكتفي بعد هذه الملاحظات بنقل ماخصه الشيخ المفيد رحمته الله من الأحاديث الشريفة مع الإشارة الى أنّ ثمة علامات أخرى لم يذكرها.

يقول : « قد جاءت الأخبار بذكر علامات لزمان قيام القائم المهدي عليه السلام وحوادث تكون أمام قيامه، وآيات ودلالات، فمنها: خروج السفيناني، وقتل الحسيني، واختلاف بني العباس في الملك الديوي، وكسوف الشمس في النصف من شهر رمضان، وكسوف القمر في آخره على خلاف العادات، وكسوف بالبيداء، وكسوف بالمغرب، وكسوف بالمشرق، وركود الشمس من عند الزوال إلى وسط أوقات العصر، وطلوعها من المغرب، وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين، وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، وهدم سور الكوفة، وإقبال رايات سود من قبل خراسان، وخروج اليماني، وظهور المغربي بمصر وتملكه للشامات، ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة، وطلوع نجم بالمشرق يضيء كما يضيء القمر ثم ينطفئ حتى يكاد يلتقي طرفاه، وخمرة تظهر في السماء وتنتشر في آفاقها، ونار تظهر بالمشرق طويلاً وتبقى في الجو ثلاثة أيام أو سبعة أيام، وخلع العرب أعتنتها وتملكها البلاد وخروجها عن سلطان العجم، وقتل أهل مصر أميرهم، وخراب الشام، واختلاف ثلاث رايات فيه، ودخول رايات قيس والعرب إلى مصر ورايات كندة إلى خراسان، وورود خيل من قبل المغرب حتى تربط بفناء الحيرة، وإقبال رايات سود من المشرق نحوها، وبتق في الفرات حتى يدخل الماء أرقعة الكوفة، وخروج ستين كذاباً كلهم يدعي النبوة، وخروج اثني عشر من آل أبي طالب كلهم يدعي الإمامة لنفسه، وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العباس بين جلولاء وخانقين، وعقد الجسر ممالي الكرخ بمدينة السلام، وارتفاع ريح سوداء بها في أول النهار؛ وزلزلة حتى ينخسف كثير منها، وخوف يشمل أهل العراق، وموت ذريع فيه، ونقص من الأنفس والأموال والثمرات، وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزرع والغلات، وقلة ريع لما يزرعه الناس، واختلاف صنفين من العجم، وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليتهم، ومسح لقوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير، وغلبة العبيد على بلاد السادات، ونداء من السماء حتى يسمعه أهل الأرض كل أهل

لغة بلغتهم، ووجه وصدر يظهران من السماء للناس في عين الشمس، وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا فيتعارفون فيها ويتزاوون. ثم يُختم ذلك بأربع وعشرين مطرة تتصل فتحيها بها الأرض من بعد موتها وتعرف بركاتها، وتزول بعد ذلك كلُّ عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي عليه السلام، فيعرفون عند ذلك ظهوره بمكة، فيتوجهون نحوه لنصرته. كما جاءت بذلك الأخبار.

وجملة من هذه الأحداث محتومة ومنها مشرطة، والله أعلم بما يكون، وإنما ذكرناها على حسب ما ثبت في الأصول وتضمنها الأثر المنقول، وبالله نستعين وإياه نسأل التوفيق»^(١).

زوال علل الغيبة

إضافة الى هذه العلامات التي نصت عليها الأحاديث الشريفة؛ فإنَّ المستفاد من الأحاديث الشريفة أنَّ من العلائم المهمة لظهور الإمام المهدي عليه السلام؛ زوال العلل والعوامل التي أدت الى غيبته وتوفر الأوضاع المناسبة لقيامه - سلام الله عليه - بمهمته الإصلاحية الكبرى^(٢) التي منها:

١ - إكمال عملية التمحيص والغربة للمؤمنين وتوفير العدد اللازم من الأنصار الأوفياء بمختلف مراتبهم - أي المرتبة العليا من الأنصار - الذين يتحلون بالكفاءات القيادية اللازمة لمعاونته في إقامة الحكومة الإسلامية العالمية العادلة وإدارة شؤونها وقبل ذلك إدارة حركة الصراع ضد الكفر والشرك والعبوديات الطاغوتية ودحرها وإزالتها بالكامل.

ولعل أفراد هذه المرتبة هم الذين ذكرت الأحاديث الشريفة أنَّ عددهم (٣١٣) كعدة أهل بدر، وذكرت لهم صفات عالية من الإيمان ومعرفة الله حقَّ معرفته، ومن

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ٣٦٨ / ٢ - ٣٧٠.

(٢) تُراجع نصوص الأحاديث الشريفة التي أوردناها في الحديث عن علل الغيبة الكبرى.

شدة التعبد لله والإخلاص له فهم «رهبان الليل»، ومن الشجاعة والكفاءة الجهادية العالية فهم «أسد النهار» الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ومن الكفاءة العلمية العالية والإحاطة بعلوم الشريعة فهم «الفقهاء والقضاة»، ومن الكفاءة الإدارية الفائقة فهم «الولاة العدول»^(١) وغير ذلك من الصفات السامية الأخرى التي يُستفاد منها أنهم يمثلون جهاز الإمام القيادي والإداري عند ظهوره قبل إقامة دولته العالمية العادلة وبعدها.

٢ - توفر القواعد الإسلامية العريضة المستعدة للتفاعل الإيجابي مع أهداف الثورة المهدوية الكبرى وإن تباينت درجاتها في تقديم النصر العملية^(٢).

والذي يوجد هذه الحالة هو إتّضاح حقيقة وأحقية منهج أهل البيت النبوي الذي يمثله المهدي الموعود عليه السلام، وإتّضاح زيف الشبهات المثارة على مدى التاريخ الإسلامي ضد هذا المنهج، وإتّضاح أنه هو المنهج الذي يمثل الإسلام المحمدي الأصيل.

وقد أشارت الأحاديث الشريفة الى ذلك ضمن حديثها عن الحركة الموطئة للثورة المهدوية ودورها في عرض الصورة النقية لمذهب أهل البيت وعلومه الإسلامية النقية على الصعيد الإسلامي والعالمي، وبالتالي عرض الصورة الأصيلية للإسلام^(٣).

(١) عقد الدرر: ١٢٣ إثبات الهداة: ٤٩٤/٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٥١٧ - ٥١٨ / ٣٧٧، ٣٧٨، الملاحم والفتن لابن حماد: ٩٥، دلائل الإمامة للطبري الإمامي: ٢٤٨ - ٢٤٩، حلية الأولياء: ٦ / ١٢٣، مستدرك الحاكم: ٤ / ٥٥٤ ينابيع المودة: ٥١٢، كمال الدين: ٦٧٢ - ٦٧٣ / ٢٤، ٢٥، ٢٦، اختصاص الشيخ المفيد: ٢٦، للمزيد في التعرف على أصحاب الإمام وصفاتهم ومقامهم عند الله تعالى، راجع كتاب (معجم أحاديث الإمام المهدي) للشيخ علي الكوراني فقد نقل عشرات الروايات من مصادر السنة والشيعنة المعتبرة، تحت عنوان (مقام أصحاب الإمام المهدي عليه السلام): ٣٣٦ - ٣٥٩.

(٢) راجع توضيحات السيد الشهيد محمد الصدر عليه السلام لهذه المراتب من القواعد المؤيدة في تاريخ الغيبة الكبرى: ٢٤٧ وما بعدها.

(٣) بحار الأنوار: ٢١٣/٦٠، عن تاريخ قم للحسن بن محمد القمي (ق ٣) ح ٢٢ و ٢٣ وعنه في منتخب الأثر: ٢٦٣ و ٤٤٣.

ودور هذه الحركة التمهيدية التي نصّت الأحاديث الشريفة على انطلاقها قبيل الظهور المهدوي في عرض الصورة النقية للإسلام يوجد حالة التطلع للإسلام كبديل حضاري لإنقاذ البشرية والإقبال عليه خارج دائرة العالم الإسلامي - كما هو المشهود حالياً في بواده على الأقل - الأمر الذي يفتح أبواب التفاعل الإيجابي مع الثورة المهدوية الكبرى بين الشعوب غير الإسلامية أيضاً، خاصة وأنها جربت المدارس والتيارات الفكرية والسياسية الأخرى، وعاشت عملياً إخفاقها في تحقيق السعادة المنشودة للبشرية، بل وجلبها للبشرية الكثير من الأزمات المادية والمعنوية التي تعصرها حالياً، الأمر الذي جعلها تتطلع الى بديل منقذ خارج المدارس والتيارات التي عرفتھا، والى هذه الحالة أشارت الأحاديث الشريفة التي تحدّثت عن أنّ الدولة المهدوية هي آخر الدول.

٣ - توفر وسائل الاتصال المتطورة التي تتيح للجميع التعرف على الحقائق، وبالتالي السماح بوصول الحقّ الى الجميع واتّضاح بطلان وزيف المدارس الأخرى، وأحقية الرسالة الإسلامية التي يحملها المهدي (عليه السلام) وبالتالي تبني أشخاص للتيار الإسلامي وأهدافه التي يبشر بها المهدي الموعود بعد أن كانوا ينتمون تاريخياً الى المدارس الأخرى، أي الانتقال عملياً الى صفوف أنصاره (عليه السلام)، كما تشير الى ذلك الأحاديث الشريفة المعللة للغيبة بإخراج «ودائع الله» المؤمنين من أصلاب الكافرين.

النقطة الثانية: سيرة الإمام المهدي عليه السلام عند الظهور

وردت مجموعة من الأحاديث الشريفة في ذكر عصر الظهور وما يجري فيه، وسيرة الإمام المهدي عليه السلام عند ظهوره وما يحققه الله تبارك وتعالى على يديه يومذاك.

وهذه الأحاديث مروية في الكتب المعتمدة عند مختلف الفرق الإسلامية، وحيث إنّ هذا الكتاب لا يتسع لإيرادها وتحليلها ودراستها وتمحيصها، لذلك

نكتفي بتلخيص أبرز مدلولاتها في عناوين موجزة دون ذكر نصوصها في أغلب الموارد محللين القارئ الكريم الى مراجعة مصادرها إذا أراد التفصيل، مقدمين لذلك بذكر الآيات الكريمة المتحدثة عن خصوصيات عصر الظهور وما سيحققه الله تبارك وتعالى على يدي وليه المهدي المنتظر عجل الله فرجه .

إنّ ما نستفيده من هذه النصوص التي تكلمت على عصر الظهور يعبر عن خصائص الدولة المهدوية - كما يرسمها القرآن الكريم - وهي الدولة التي تمثل المصداق الجلي لأحد أهم الأهداف الإلهية من بعثة جميع الأنبياء عليهم السلام.

خصائص الدولة المهدوية في القرآن الكريم

١ - إتمام النور الإلهي وإظهار الإسلام على الدين كله

وهذا ما صرح به القرآن المجيد في ثلاث من سوره المباركة.

أ - قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ^(١).

ب - وقال تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ^(٢).

ج - وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾^(٣).

وقد صرح المفسرون من مختلف المذاهب الإسلامية بأنّ هذا الوعد الحتمي الوقوع إنّما يتحقق في عصر المهدي الموعود، حيث يظهر الإسلام على جميع

(١) سورة التوبة ٩ : ٣٢ و ٣٣ .

(٢) سورة الصف ٦١ : ٨ و ٩ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ : ٢٨ .

الأديان فيعم المشارق والمغارب^(١)، وتقام الدولة الإسلامية العالمية؛ لأن المقصود من الإظهار هو الغلبة والاستيلاء وليس مجرد قوة الحجة؛ لأن غلبة الحجة أمر حاصل ابتداء ولا يبشر الله عز وجل إلا بأمر مستقبل غير حاصل كما استدل على ذلك الفخر الرازي في تفسيره^(٢).

٢ - استخلاف صالحى المؤمنين

أ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣).

ب - وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤).

ج - وقال تعالى: ﴿... الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٥).

تخبر الآية الكريمة الأولى بأن من القضاء المحتوم تكريم خط الإيمان والصالح بجزء دنيوي - فضلاً عن الجزاء الأخروي - يتمثل في وراثة الأرض وحكمها حيث العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة^(٦)، وتنص الآية الثانية على أن الذين يستخلفهم الله في الأرض هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات من المسلمين،

(١) تفسير القرطبي ٨: ١٢١ (في تفسير سورة التوبة آية ٣٣)، التفسير الكبير: ٤٠ / ١٦، والروايات من طرق أهل البيت عليهم السلام كثيرة مصرحة باختصاص تحقق هذا الوعد بعهد المهدي الموعود.

(٢) التفسير الكبير: ٤٠ / ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٢١ / ١٠٥.

(٤) سورة النور: ٢٤: ٥٥.

(٥) سورة الحج: ٢٢: ٤١.

(٦) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٢٩ - ٣٣١.

الذين كانوا يُستضعفون ولم يسمح لهم بعبادة الله بأمن، وعن التمكين لهؤلاء دينهم الذي ارتضاه تبارك وتعالى لهم: والآيتان تتحدثان عن عصر ظهور المهدي كما هو واضح من التدبر فيهما^(١).

٣ - إقامة المجتمع التوحيدي الخالص

واستناداً لما تقدّم يتضح أنّ من خصائص عصر المهدي الموعود - عجل الله فرجه - أن تكون مقاليد المجتمع البشري برمته بيد الصالحين الذين كانوا يُستضعفون في الأرض والذين يمثلون الإسلام المحمدي الأصيل، فإذا مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، أي: أقاموا المجتمع التوحيدي الخالص الذي يعبد الله وحده لا شريك له بأمن دونما خوف من كيد منافق أو كافر، ووفّروا بذلك جميع الظروف اللازمة لتحقيق العبادة الحقّة لله والتكامل الإنساني في ظلّها، لذا فلا حجة بالمرّة لمن يكفر بعد ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حقاً، لأنهم أعرضوا عن الصراط المستقيم مع توفر جميع الأوضاع المناسبة لسلوكه، وهذه خصوصية أخرى من خصوصيات عصر المهدي المنتظر - عجل الله فرجه - وتفسير لما روي من شدة تعامله مع المنحرفين.

٤ - تحقيق الغاية من خلق النوع الإنساني

قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

تدل الآية الكريمة على حصر الغاية من خلق الإنسان بالعبادة الحقّة لله جل وعلا^(١)، وهذا ما يتحقق في ظل دولة المهدي الموعود على الصعيدين الفردي

(١) ناقش العلامة الطباطبائي؛ في تفسيره الميزان الأقوال الأخرى التي أوردها المفسرون وأثبت عدم إنسجامها مع دلالات الآية التي لا يمكن تفسيرها بغير الدولة المهدوية راجع تفسير الميزان ١٥: ١٥١ - ١٥٧.

(٢) سورة الذاريات ٥١: ٥٦.

والاجتماعي بأكمل صورته، كما أشرنا لذلك في الفقرة السابقة، وقد عقد السيد الشهيد محمد الصدر، بحثاً عقائدياً تفسيرياً استند فيه لهذه الآية الكريمة لإثبات حتمية ظهور دولة المهدي الموعود عليه السلام ^(٢)؛ لأنّ تحقق هذه الغاية أمر حتمي؛ إذ أنّ من المحال تخلف مخلوق عن الغاية من خلقه، والآية تتحدث عن النوع الإنساني وتحقق العبادة الحقّة فيه على الصعيدين الفردي والاجتماعي العام في المجتمع الإنساني، وهذا ما لم يتحقق في تاريخ الإنسان على الأرض منذ نزوله إليها، لذا لا بد من القول بحتمية تحقّقه في المستقبل في دولة إلهية تقيم المجتمع التوحيدي الصالح العابد لله وحده لا شريك له، وهذه الدولة هي الدولة المهدوية كما أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة المتقدمة وصرّح به الكثير من الأحاديث الشريفة المروية من طرق الفريقين.

٥ - إنهاء الردّة عن الدين الحقّ

قال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٣).

لقد عقد العلامة الطباطبائي بحثاً تفسيرياً قرآنياً وروائياً للاستدلال على أنّ هذه الآية الكريمة تتحدث عن عصر الظهور المهدوي، وأنّ الردّة المقصودة فيها هي عن الدين الحقّ مع البقاء على الظاهر الإسلامي، وذلك بموالاتة اليهود والنصارى وأتباعهم في طريقة الحياة في مختلف شؤونها كما هو حاصل اليوم، وهذه الردّة هي التي تنهى عنها الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة التي تتحدث عن الانحراف الذي يصيب العالم الإسلامي قبل الفتح المهدوي ^(٤).

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٣٨٦ - ٣٨٩.

(٢) تاريخ الغيبة الكبرى: ٢٣٣ وما بعدها.

(٣) سورة المائدة ٥: ٥٤.

(٤) تفسير الميزان: ٥ / ٣٦٦ - ٤٠٠، وراجع تفسير الشيخ أسعد بيوض التميمي للآيات نفسها في كتابه زوال إسرائيل

حتمية قرآنية: ١٢٠ - ١٢٤.

وبناءً على ذلك فإن من خصائص عصر الدولة المهدوية إنهاء الردة عن الدين الحق والتبعية لليهود والنصارى في طريقة الحياة، ثم إعادة المسلمين الى الطريقة الإسلامية في الحياة بمختلف شؤونها، وهذا ينسجم تماماً مع الخصوصيات الأخرى للعصر المهدوي الذي تحدثت عنه الآيات السابقة.

النقطة الثالثة: تاريخ ظهور الإمام المهدي عليه السلام

ذكرت الأحاديث الشريفة أنه عليه السلام يظهر في وتر من السنين الهجرية^(١) - أي من الأعوام الفردية -، ويكون ظهوره في يوم الجمعة^(٢)، فيما ذكرت أحاديث أخرى أن خروجه يكون يوم السبت العاشر من محرم الحرام^(٣)، ولعل الجمع بين التاريخين هو أن ظهوره يكون يوم الجمعة وفيها يخطب خطبته في المسجد الحرام، فيما يكون خروجه منها باتجاه الكوفة يوم السبت.

مكان ظهوره عليه السلام وانطلاقة ثورته

ذكرت مجموعة من الأحاديث الشريفة أن بداية ظهوره تكون في المدينة المنورة، وإعلان حركته يكون في مكة المكرمة^(٤) وفي المسجد الحرام حيث يُعلن حركته ويدعو إليها في خطبة موجزة ذات دلالات مهمة، وهي مروية عن الإمام الباقر عليه السلام ضمن حديث طويل عن ظهور سليله المهدي، يقول عليه السلام في جانب من الحديث:

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ٣٧٩/٢ وعنه في الفصول المهمة ٢: ١١٣٢، إثبات الهداة: ٣ / ٥١٤، الخرائج

٣: ٦٣ / ١١٦١، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٢٦٣.

(٢) الخصال، الصدوق: ٣٩٤، وعنه بحار الأنوار ٥٦: ٨ / ٢٧، إثبات الهداة: ٣ / ٤٩٦.

(٣) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ٤: ٣٣٣ / ١٠٤٤، غيبة الطوسي: ٤٥٣ / ٥٩، الخرائج ٣: ١١٥٩، إقبال الأعمال

للسيد ابن طاووس: ٥٥٨، كمال الدين: ١٩ / ٦٥٤، عقد الدرر للمقدسي الشافعي: ٥٠، البرهان في علامات مهدي

آخر الزمان للمتقي الهندي: ١٤٠ - ١٤٦، (الباب السادس: في كيفية بيعة المهدي وتاريخ خروجه).

(٤) برهان المتقي الهندي: ١٤٤ / ح ١٠، القول المختصر لابن حجر: ٢٩.

«فيقوم القائم بين الركن والمقام فيصلي وينصرف ومعه وزيره، فيقول: يا أيها الناس إننا نستنصر الله على من ظلمنا وسلب حقنا، من يحاجنا في الله فأنا أولى الناس بالله، ومن يحاجنا في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ومن يحاجنا في نوح فإننا أولى الناس بنوح، ومن يحاجنا في إبراهيم فإننا أولى الناس بإبراهيم، ومن يحاجنا بمحمد فإننا أولى الناس بمحمد ﷺ، ومن يحاجنا في النبيين فإننا أولى الناس بالنبيين، ومن يحاجنا في كتاب الله فنحن أولى الناس بكتاب الله، أنا أشهد [نشهد] وكل مسلم اليوم إننا قد ظلمنا وطردنا وبغينا علينا وأخرجنا من ديارنا وأموالنا وأهالينا وقهرنا، ألا إننا نستنصر الله اليوم كل مسلم»^(١).

وورد في رواية ينقلها نعيم بن حماد وهو من مشائخ البخاري بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً، خطبة ثانية في المكان نفسه ولكن بعد أداء فريضة العشاء، فيروى عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «... فإذا صلى العشاء نادى بأعلى صوته يقول: أذكركم الله أيها الناس، ومقامكم بين يدي ربكم، فقد اتخذ الحجة وبعث الأنبياء وأنزل الكتاب، وأمركم أن لا تشرکوا به شيئاً وأن تحافظوا على طاعته وطاعة رسوله، وأن تحيوا ما أحيا القرآن، وتؤميتوا ما أمات، وتكونوا أعواناً على الهدى، ووزراً على التقوى، فإن الدنيا قد دنا فناؤها وزوالها، وأذنت بالوداع، فإني أدعوكم الى الله، والى رسوله، والعمل بكتابه، وإمارة الباطل، وإحياء سنته...»^(٢).

وقفة عند خطبتي إعلان الثورة

ويلاحظ في الخطبة الأولى: تأكيد عليه السلام على مخاطبة أتباع جميع الديانات السماوية، انطلاقاً من عالمية ثورته الدينية، فهو يمثل خط الأنبياء عليهم السلام جميعاً ويدعو الى الأهداف السامية التي نادوا بها جميعاً، هذا أولاً. وثانياً يؤكد عليه السلام على تمثيله لمدرسة الثقلين فهو ممثل أهل البيت عليهم السلام ثاني الثقلين الذي لا يفرق عن الأول -

(١) تفسير العياشي ١: ٦٤ - ٦٦ / ١١٧، الغيبة للنعماني: ٢٨٨ - ٢٩١ / ٦٧، اختصاص الشيخ المفيد: ٢٥٦.

(٢) الملاحم والفتن لنعيم بن حماد: ٢١٣، عقد الدرر ١٠٥ - ١٠٦، البرهان في علامات مهدي آخر الزمان المتقي

الهندي: ١٤١/ح ٣، الحاوي للفتاوى الحديثية: ٧١ / ٢، وكتاب اللوائح للسفاريني ٢: ١١.

أعني القرآن المجيد - لذلك فهم أولى الناس بكتاب الله جل ذكره وأعرفهم بما فيه وبسبل هداية البشرية بنور هداه السماوي.

ثم يشير ثالثاً الى مظلومية أهل البيت عليهم السلام وتعريضهم لأشكال الظلم والبغي بما أدى الى غيبة خاتمهم عليه السلام وسبب تعريضهم لكل ذلك هو نزعات الطواغيت وعباد السلطة للاستئثار واتخاذ مال الناس دولاً وعباد الله خولاً ومنع أهل البيت عليهم السلام من إقرار العدالة الإلهية وقيادة الناس على المحجة البيضاء.

ثم يستنصر كل مسلم لدفع هذه المظلومية التي يكون في دفعها الخير للبشرية جمعاء، لأن تسليم مقاليد الأمور الى ممثل نهج الأنبياء وعدل القرآن الكريم يعني تحقيق أهداف العدالة الإلهية، ولكن عليه السلام يستنصر الله جلت قدرته أولاً، وفي ذلك إشارة الى حتمية انتصار ثورته الإصلاحية فهو المضطر الذي تستجاب دعوته، وولي دم المقتول ظمناً، فهو منصور إلهياً، وبهذه الإشارة يحفز عليه السلام الناس لنصرته ليفوزوا بسعادة الدارين ويتقوا عذاب الدنيا وخزيها على يديه وعذاب الآخرة أكبر.

إعلان أهداف الثورة

أما في الخطبة الثانية التي يلقيها - عجل الله فرجه - بعد صلاة العشاء، فهو يحدد الأهداف العامة لثورته، وهي الأهداف التي يستنصر الناس لأجلها، والتي تمثل الوجه الآخر للثأر لمظلومية أهل البيت ومدرستهم ومنهجهم عليهم السلام، فهو يحدد الهدف الأول والعام المتمثل بإقامة التوحيد الخالص الذي بُعث لأجله الأنبياء - صلوات الله عليهم - وأنزلت معهم الكتب السماوية، وهو الهدف الذي يتجسد من خلال طاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله عليه السلام ومن خلال إحياء ما أحيا القرآن، وإحياء سنة رسول الله عليه السلام، وإماتة ما أماته القرآن وهو الباطل والبدع والشرك وسائر العبوديات الزائفة، فدعوته هي دعوة الى الله عز وجل وتوحيده والى رسول الله عليه السلام والعمل بسنته الموصلة الى الله.

وعليه يتّضح أنّ استنصاره للشار لمظلومية أهل بيت النبوة تعني الدعوة الى المعونة على الهدف والمؤازرة على التقوى.

الاستجابة لاستنصاره ومبايعته

وأوّل مَنْ يبادر لبيعته عليه السلام في المكان الذي يستنصر فيه المسلمين - أي ما بين الركن والمقام - هم صفوة أنصاره: «فبأيّ ما بين الركن والمقام ثلاثمائة ونيف، عدّة أهل بدر، فيهم النجباء من أهل مصر والأبدال من أهل الشام والأخيار من أهل العراق»^(١). ويُستفاد من مجموعة من الأحاديث المروية في مصادر أهل السنّة أنّ ظهوره ومبايعته يكون بعد اختلاف بين قبائل الحجاز، وأنه يرفض في البداية قبول البيعة ويخاطب المبايعين بالقول: «ويحكم! كم عهد قد نقضتموه؟ وكم دم قد سفكتموه؟»^(٢)، ويبدو أنّ هذا الرفض يمثل محاولة لإشعار المبايعين بمسؤولية وتبعات البيعة والمهمة التي هم مقبلون عليها، نظير ما فعله جدّه الإمام عليّ عليه السلام عند إقبال الناس على بيعته بعد مقتل عثمان.

ويُستفاد من بعض الأحاديث أنّ حركة الموطئة للظهور المهدي تبعث بالبيعة للمهدي عليه السلام. وهو في مكة^(٣) ثم تجددتها بعد ذلك. وتصرّح بعض الأحاديث الشريفة بأنّ أصحابه الخاصين أي الثلاثمائة والثلاثة عشر يجمعون في مكة بصورة إعجازية أو سريعة بوسائل النقل المتطورة؛ ليدركوا ظهور الإمام ويبايعوه^(٤).

(١) غيبة الطوسي: ٥٠٢/٤٧٦، وعنه في بحار الأنوار ٥٢: ٦٤/٣٣٤، وإثبات الهداة ٣: ٥١٧، ٥١٨.

(٢) مستدرک الحاكم ٤: ٥٠٣ - ٥٠٤، البرهان في علامات مهدي آخر الزمان، المتقي الهندي: ١٤٣/ح ٦، عقد الدرر: ٨١ - ٨٢، معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام ١: ٤٤٩.

(٣) فتن ابن حماد ١: ٣١٤، الحاوي للفتاوى: ٢/ ٦٧، البرهان: ١١٨ - ١١٩ ح ٢٢.

(٤) غيبة النعماني: ٣٢٨ ح ٧، ٨، إثبات الهداة ٣: ٥٤٧/٥٤٠.

خروجه الى الكوفة وتصفيه الجبهة الداخلية

يخرج عليه السلام بجيشه متوجهاً للكوفة التي يتخذها منطلقاً لتحركه العسكري^(١) بعد إنهاء فتنة السفيناني والخسف الذي يقع بجيشه في البيداء^(٢). وينشر راية رسول الله صلى الله عليه وآله المذخورة عنده في نجف الكوفة^(٣)، وتنصره الملائكة التي نصرت جده رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة بدر^(٤)، وتذكر الأحاديث الشريفة أنه يواجه وأصحابه وجيشه صعوبات شديدة وتعباً في بداية تحركه العسكري^(٥) وحروبه التي تستمر ثمانية أشهر^(٦) لتصفيه الجبهة الداخلية فيما تستمر ملاحمه عشرين عاماً^(٧).

ويلاحظ هنا: أن المسير الذي يختاره عليه السلام هو المسير الذي اختاره جده الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الإستشهادية من مكة الى الكوفة، التي منع جده سيد الشهداء من الوصول إليها، فيصل سليله المهدي عليه السلام إليها ويحقق الأهداف الإصلاحية في الأمة المحمدية التي سعى لها جده سيد الشهداء عليه السلام.

وعندما يدخل الكوفة يجد فيها ثلاث رايات تضطرب^(٨)، فيوحدها وينهي اضطرابها بنشره للراية المحمدية المذخورة، وينهي جيوب النفاق المتبقية فيها في معركته مع الفرقة التي تصفها الأحاديث الشريفة بالبترية^(٩).

(١) بحار الأنوار ٥٢: ٣٠٨، إثبات الهداة ٣: ٤٩٣ ح ٢٤٥، ص ٥٢٧ ح ٤٣٠، ص ٥٨٣ ح ٧٧٤.

(٢) تفسير الطبري ١٠: ٢٨٦، مسند أحمد ٦: ٢٥٩ / ٢٦٢٧٠ وما بعدها، صحيح مسلم ٤: ٢٢١٠ ح ٢٨٨٤، سنن أبي داود ٢: ٢٨٦/٥١٠، سنن ابن ماجه ٢: ١٣٥١ / ٤٠٦٤، سنن الترمذي ٤: ٢١٨٤/٤٧٨، تاريخ البخاري: ٥ / ١١٨، سنن النسائي ٥: ٢٨٧٧/٢٠٦. وأحاديث الخسف بجيش السفيناني كثيرة مروية في الصحاح وغيرها ومن طرق أهل البيت عليهم السلام أيضاً.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٠٣ ح ٣٠٢، غيبة النعماني: ٣٢١ ح ٣، كمال الدين: ٦٧٢ ح ٢٢، ٢٣.

(٤) تفسير العياشي ١: ١٩٧ ح ١٣٢، إثبات الهداة ٣: ٥٤٩ ح ٥٥٣.

(٥) غيبة النعماني: ٣٠٧ ح ١، بحار الأنوار ٥٢: ١٣١/٣٦٢.

(٦) الملاحم والفتن، ابن حماد: ٢٧٩، عقد الدرر: ١٠٨.

(٧) إثبات الهداة ٣: ٤٦٩ ح ١٣٤.

(٨) الارشاد ٢: ٣٨٠، غيبة الطوسي: ٤٦٨ ح ٤٨٥.

(٩) دلائل الإمامة: ٤٥٥ ح ٤٣٥، غيبة الطوسي: ٤٩٦/٤٧٤.

دخوله بيت المقدس ونزول عيسى عليه السلام

تنصّ الكثير من الروايات على دخوله عليه السلام بيت المقدس بجيشه ضمن إطار حادثة مهمة للغاية، هي نزول نبي الله عيسى بن مريم المسيح عليه السلام الذي بشرت بعودته نصوص الإنجيل إضافة الى الأحاديث الشريفة المروية في الكتب الروائية الموثقة عند أهل السنة والشيعة^(١)، وتذكر الأحاديث الشريفة قصة صلاة عيسى صلاة الفجر خلف الإمام المهدي عليه السلام بعد أن يرفض عرض الإمام بأن يتقدم عيسى لإمامة الصلاة، معللاً الرفض بأن هذه الصلاة أقيمت لأجل الإمام المهدي، فيقدمه ويصلي خلفه إشارة الى خاتمية الرسالة المحمدية، وفي ذلك نصرة مهمة للثورة المهدوية حيث توجهها للعالم الغربي الذي يدين معظمه بالمسيحية.

ويظهر أنّ دخول المهدي عليه السلام يكون بعد تحريرها من الإفساد اليهودي وإنهاء حاكميتهم عليها، لذا قد يكون من الممكن القول بأن دخول الإمام بيت المقدس يكون بعد تصفيته الجبهة الداخلية ومقدمة لمواجهة الأعداء خارج العالم الإسلامي أو الروم حسب تعبير الروايات وفتح كلّ الأرض، من هنا نفهم سر توقيت نزول عيسى المسيح مع دخول المهدي عليه السلام بيت المقدس.

قتل الدجال وإنهاء حاكمية الحضارات المادية

إنّ معظم الأحاديث الشريفة التي تتحدث عن نزول عيسى عليه السلام تذكر قيامه بكسر الصليب ورجوع النصارى عن تأليهه^(٢) ثم قتل الدجال - الذي هو رمز الحضارات المادية - على يديه أو على يدي الإمام المهدي بمعونته عليه السلام.

ومع رجوع النصارى عن تأليه عيسى عليه السلام ومشاهدتهم لمناصرة نبيهم لخاتم أئمة الإسلام المعصومين، تفتتح أبواب دخولهم الإسلام - وهم النسبة الأكبر من

(١) صحيح البخاري ٣: ١٢٧٢ / ٣٢٦٥، صحيح مسلم ١: ١٣٥ / ١٥٥، سنن ابن ماجه ٢: ١٣٥٦ / ٤٠٧٥، مسند أحمد ابن حنبل ٢: ٣٣٦ / ٨٤١٢ وغيرها كثير مروية من طرق الفريقين.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٢١٠٩ / ٧٧٤، ٢: ٨٧٥ / ٢٣٤٤، ٣: ١٢٧٢ / ٣٢٦٤، صحيح مسلم ١: ١٥٥ / ١٣٥، سنن الترمذي

٤: ٥٠٦ / ٢٢٣٣، سنن ابن ماجه ٢: ١٣٦٣ / ٤٠٧٨.

سكان الأرض - ييسر، ونتيجة لذلك تيسر مهمة قتل الدجال والقضاء على الحضارات الطاغوتية وفتح الأرض وإقامة الدولة الإسلامية العالمية العادلة وبدء عملية البناء الإصلاحي وتحقيق أهداف الأنبياء عليهم السلام.

هذه - على نحو الإيجاز - المحطات الرئيسة لتحرك الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره، وكلّ منها يشتمل على تفاصيل كثيرة لا يسع المجال لذكرها.

وتنصّ الأحاديث الشريفة على أنّه عليه السلام يسير بسيرة جده عليه السلام الذي قال: «بُعِثَ بين جاهليتين لأخراهما شر من أولاهما»^(١)، وبَيّن لأُمتَه الكثير من مظاهر الجاهلية الثانية الأشدّ شراً، فالمهدي: «يصنع كما صنع رسول الله عليه السلام، يهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله عليه السلام أمر الجاهلية ويستأنف الإسلام جديداً»^(٢)، وقد تحدّث النبي عليه السلام عن غربة الإسلام بعده ونقل عنه المسلمون ذلك^(٣).

فالمهدي يهدم الجاهلية الثانية كما هدم جده عليه السلام الجاهلية الأولى، ويستأنف الإسلام الذي عاد غريباً كما بدأ غريباً.

إحياء السنّة وآثار النبي عليه السلام

تقوم حركة المهدي الإصلاحية الكبرى على أساس إحياء السنّة المحمدية التي يكون بها قوام كلّ القيم الإسلامية، فهو كما قال رسول الله عليه السلام: «رجل من عترتي يُقاتل على سنتي كما قاتلت أنا على الوحي»^(٤) وهو «يقفو أثري لا يُخطئ»^(٥) وهو «رجل

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي، الكوراني: ٤٤ نقله عن أمالي الشجري ٢: ٢٧٧.

(٢) غيبة النعماني ٢٣٦ ح/ ١٣، عقد الدرر للمقدسي الشافعي: ١٦٠، إثبات الهداة ٣: ٤٩٩/٥٣٩.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٧٨٤/٣٩٨، صحيح مسلم ١: ١٤٦/١٣١، سنن ابن ماجه ٢: ١٣٢٠ / ٣٩٨٧، سنن الترمذي ٥: ٢٦٢٩/١٨.

(٤) فن ابن حماد ١: ٣٧١، القول المختصر لابن حجر: ٤٠، البرهان في علامات مهدي آخر الزمان المتقي: ٩٥/ ح ٢١.

(٥) ينابيع المودة، القندوزي ٣: ٣٤٥.

منّي اسمه كاسمي يحفظني الله فيه ويعمل بسنتي»^(١)، فهو «يبين آثار النبي»^(٢)، ويدعو الناس الى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو مجددها كما أنه مجدد الإسلام ويظهر ماخفي وأخفي منها، وقد سمي «المهدي» لأنه يهدي الناس الى «أمر قد دُثر و ضلّ عنه الجمهور»^(٣).

سيرته تجاه الأديان والمذاهب

يزيل الإمام المهدي الموعود عليه السلام مظاهر الشرك كافة ويروج التوحيد الخالص: «ولا يبقى في الأرض بقعة عبد فيها غير الله إلاّ عبد الله فيها ويكون الدين كله لله ولو كره المشركون»^(٤)، ويقوم عليه السلام بعرض الإيمان على الجميع وينهي الحالة المذهبية فيوحد المذاهب الإسلامية ويصلح الله به أمر الأمة ويرفع اختلافها ويؤلف قلوبها^(٥) على أساس السنّة النبوية النقية وما أخفي أو ضيّع من قيم الإسلام الأصيلة، فهو كما قال جدّه صلى الله عليه وآله: «سنته سنتي يقيم الناس على ملتي وشريعتي»^(٦).

ويُستفاد من بعض الروايات أنه عليه السلام يقوم بإخراج التوراة والإنجيل غير المحرّفين من غار بأنطاكية ويحاجج اليهود والنصارى بهما، ويستخرج حُلّي بيت المقدس ومائدة سليمان ويردها الى بيت المقدس^(٧)، ويدعمه في موقفه هذا عيسى عليه السلام الذي «يحتج به على نصارى الروم والصين»^(٨) حيث يرفض وفود اليهود

(١) علل الشرائع، الصدوق ١: ٣/١٦١، إثبات الهداة: ٣/ ٤٩٨ ح ٢٦٩.

(٢) الغيبة، النعماني: ٦٨، بحار الأنوار ٥٢: ٩٧/٣٤٧.

(٣) فتن ابن حماد ١: ٣٥٥، عقد الدرر: ٣٢، الإرشاد للمفيد ٢: ٣٨٣، تاج المواليد، الطبرسي: ٧٦.

(٤) كمال الدين، الصدوق: ٣٤٥ - ٣٤٦ ح ٣١، بحار الأنوار ٥١: ١٤/١٤٦.

(٥) ابن حماد ١: ٣٧٠، الطبراني الأوسط ١: ١٥٧/٥٦، عقد الدرر: ١٠٣.

(٦) كمال الدين: ٤١١ ح ٦.

(٧) ابن حماد ١: ٣٥٥، ٢: ٤٨٥، الحاوي للسيوطي: ٧٥/٢، لوائح السفاريني: ٢/ ٢ تاريخ بغداد: ٩/ ٤٧١، عقد الدرر:

١٤٠ - ١٤١ وذكر أن الإمام أبا عمر والمقري أخرجه في سنته، تذكرة الحفّاظ للذهبي: ٢، ٧٦٥، تفسير الطبري

٨: ٢٠.

(٨) غيبة النعماني: ١٤٨ - ١٤٩ ح ٤.

والنصارى بعد نزوله عندما يأتونه مدّعين أنهم أصحابه، فيردهم ويصرّح بأن أصحابه هم المسلمون، فينضم إلى مجمع المهدي عليه السلام الأمر الذي يؤدي إلى رجوع النصارى عن تأليهه، كما يقوم بأداء فريضة الحجّ إلى البيت الحرام^(١) ويُدفن إلى جنب رسول الله ﷺ^(٢).

وتذكر بعض الروايات أنّ المهدي عليه السلام يخرج التوراة الأصلية من جبال بالشام ويحاجج اليهود بها، فيسلم منهم جماعة كثيرة^(٣) ثم يستخرج تابوت السكينة من بحيرة طبرية ويؤضع بين يديه في بيت المقدس، فيسلم اليهود ولا يبقى على العناد إلا القليل منهم^(٤).

الصورة العامة للدولة المهدوية في النصوص الشرعية

ونصل الآن إلى خاتمة هذا الفصل فنعرض فيها على نحو الإجمال أيضاً الصورة التي ترسمها النصوص الشرعية لدولة المهدي الموعود، عجل الله فرجه .

إنّ الدولة المهدوية إنّما تأتي لتحسم عصر المعاناة الذي عاشته البشرية طويلاً، وتنهى الظلم والجور الذي ملأ الأرض نتيجة لحكم الطواغيت وحاكمة الأهواء والشهوات والنزعات المادية، وبظهور الإمام المهدي المنتظر على مدى القرون، يفرج الله عن الأمة «فطوبى لمن أدرك زمانه»^(٥)، فالله تبارك وتعالى يحقق للأمة المسلمة، ولبني الإنسان عامة، كلّ الطموحات الفطرية السليمة، ويزيل الشرك وقيم المجتمع الموحّد العابد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارع للخيرات السائر في منازل الكمال ومعارج النور.

(١) مسند أحمد ٢: ٧٢٧١/٢٤٠، صحيح مسلم ٢: ١٢٥٢/٩١٥، المصنف للصنعاني ١١: ٢٠٨٤٢/٤٠٠.

(٢) تاريخ البخاري: ١ / ٢٦٢، الترمذي: ٥ / ٥٨٨ / ٣٦١٧، فتن ابن حماد ٢: ٥٨٠.

(٣) الفتن لابن حماد ١: ٣٥٧، ينابيع المودة للقندوزي: ٣ / ٣٤٤.

(٤) الفتن لابن حماد ١: ٣٦٠، عقد الدرر: ١٤٧، القول المختصر: ٦٦.

(٥) الغيبة، الطوسي: ١٨٧ ح ١٤٦، كمال الدين، الصدوق: ٦٤٧ ح ٨، الإحتجاج، الطبرسي ٢: ١١، إثبات الهداة ٣:

٥٠٤ ح ٣٠٢، كتاب الغيبة، النعماني: ٩٢ ح ٢١، ٢٨٤ ح ٥٥.

وتخرج الأرض بركاتها وكذلك السماء، وما يحصل عليه الناس ليس هو الغنى المادي فحسب بل هو «الاستغناء» حيث «يملأ الله قلوب أمة محمد عليه السلام غنى ويسعهم عدله»^(١) - أي: يحررهم من أسر المتطلبات والحاجات المادية المعيشية المحدودة-، فالمهدي المنتظر الذي يحرر المسلمين من ذل التبعية للضالين والمنحرفين، كما صرح به النص القائل: «وبه يخرج ذل الرق من أعناقكم»^(٢)؛ يحرر البشرية من ذل الحياة البهيمية والخضوع لأسر الشهوات، ويفتح أمام الإنسان جميع أبواب التكامل والرقى المعنوي والتكامل الروحي، فيشهد عصره تطوراً فكرياً وروحياً عالياً كما يشير لذلك الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: «إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم»^(٣)، ومما يساعد على ذلك - إضافة إلى العامل المهم والرئيس المتقدم - عامل ثانوي هو التطور الهائل الذي يشهده عصره، خاصة في مجال الاتصالات والذي نرى بوادره اليوم طبق القوانين العلمية أيضاً، كما يشير إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «إن قائمنا إذا قام مد الله عز وجل لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد؛ يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه»^(٤)، ولعل ذلك يكون بوسائل غيبية تمكنهم منها المراتب الروحية السامية التي يصلون إليها، وإن كان ذلك قد أصبح ممكناً بدرجة محدودة اليوم أيضاً عبر وسائل الاتصال الحديثة المتطورة، ولكن من المؤكد - استناداً للأحاديث الشريفة - أنّ الكثير من الحقائق والقضايا الغيبية تظهر في عصر الدولة المهدوية، ويحظى الكثير من المؤمنين بمراتب عالية من معرفة أسرار الغيب وعلم الكتاب وتجاوز الأسباب والقوانين الطبيعية والكثير من الظواهر التي نعتبرها اليوم من المعجزات غير المألوفة^(٥).

(١) مسند أحمد ٣: ١١٣٤٤/٣٧، الدر المنثور، السيوطي ٧: ٤٨٣، الصواعق المحرقة ٢: ٤٧٩.

(٢) الغيبة للطوسي: ١٨٥، ح ١٤٤.

(٣) إثبات الهداة ٣: ٤٤٨، الكافي: ١ / ٢٥ ح ٢١، كمال الدين: ٦٧٥ ح ٣٠.

(٤) الكافي ٨: ٣٢٩/٢٤٠، الخرائج والجرائح ٢: ٥٨/٨٤٠، إثبات الهداة ٣: ٤٥٠ - ٤٥١ ح ٥٩.

(٥) راجع كمال الدين: ٦٥٤ ح ٢١، ٢٢، ٦٧٢، ٦٧٣ ح ٢٤، ٢٥، ٢٦.

ومع توفير الدولة المهدوية لجميع عوامل التكامل المادي والروحي، يقام المجتمع الموحد الذي يعبد الله تبارك وتعالى بإخلاص، فتسود العلاقات الإيمانية المحضنة وتحكمه قيم من قبيل البراءة ممن «كان بالرهن أوثق منه بأخيه المؤمن» ومثل أن «ربح المؤمن على المؤمن ربا»^(١) فحتّى العمل التجاري يكون يومئذ عبادة خالصة لله عزّ وجلّ؛ إذ يكون بهدف خدمة عباد الله فقط.

يقول الإمام عليّ عليه السلام ضمن حديث في وصف جامع لدولة الإمام المهدي العالمية: «... يؤيده الله بملائكته ويعصم أنصاره وينصره بآياته ويظهره على أهل الأرض حتى يدينوا طوعاً وكرهاً، ويملاّ الأرض قسطاً وعدلاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها لا يبقى كافرٌ إلّا آمن به ولا طالح إلّا صلح ويصطلح في ملكه السباع وتخرج الأرض نبتها وتنزل السماء بركتها وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً، فطوبى لمن أدرك أيامه وسمع كلامه»^(٢).

أجل في ظل دولة المهدي المنتظر عليه السلام يتضح للعالمين أن صلاح البشرية وخيرها وتكاملها المادي والمعنوي إنما يتحقق في ظل رسالة السماء وعلى أيدي أولياء الله المعصومين - سلام الله عليهم - وهذا ما يحققه الله تعالى على يد خاتمهم وخاتم الأئمة الاثني عشر الأوصياء أي المهدي الذي وعد الله به الأمم: «ولذلك يرضى عنه ساكن الأرض وساكن السماء» كما أخبر عن ذلك جدّه رسول الله ﷺ^(٣).
اللهم اجعلنا من أنصاره وأعوانه، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

* * *

(١) المحاسن، البرقي ١: ١٠١، الكافي ٥: ٢٢/١٥٤، ثواب الأعمال، الصدوق: ٢٣٩، تهذيب الأحكام: ١٧٨/٧ ح ٧٨٥ باب الرهن.

(٢) إثبات الهداة: ٣/ ٥٢٤ ح/ ٤١٤، الإحتجاج، الطبرسي ٢: ١٠ - ١١.

(٣) مستدرک الحاكم ٢: ٥١٢ / ٨٤٣٨، فتن ابن حماد ١: ٣٤١، الصواعق المحرقة ٢: ٤٧٩.

الفصل الخامس

قبسات من تراث الإمام المهدي عليه السلام

من كلامه في التوحيد ونبد الغلو

«إنَّ الله تعالى هو الذي خلق الأجسام وقسَّم الارزاق، لأنه ليس بجسم ولا حال في جسم، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، وأما الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق ويسألونه فيرزق إيجاباً لمسألتهم وإعظماً لحقهم»^(١).

في علة الخلق وبعث الأنبياء وتعيين الأوصياء

«يا هذا يرحمك الله، إنَّ الله تعالى لم يخلُق الخلق عبثاً، ولا أهملهم سُدىً، بل خلقهم بقدرته وجعل لهم أسماء وأبصاراً وقلوباً وألباباً، ثم بعث إليهم النبيين عليهم السلام مبشرين ومُنذرين، يأمرهم بطاعته وينهونهم عن معصيته، ويُعرفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم ودينهم، وأنزل عليهم كتاباً وبعث إليهم ملائكة، يأتين بينهم وبين مَنْ بعثهم إليهم بالفضل الذي جعله لهم عليهم، وما آتاهم من الدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والآيات الغالبة، فمنهم مَنْ جعل النار عليه برداً وسلاماً، واتَّخذه خليلاً، ومنهم مَنْ كلمه تكليماً، وجعل عصاه نُعباناً مُبيناً، ومنهم من أحيا الموتى بإذن الله، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، ومنهم مَنْ علَّمه منطق الطير وأوتي من كل شيء ثم بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، وتمم به نعمته، وختم به أنبياءه، وأرسله إلى الناس كافة، وأظهر من صدقه ما أظهر، وبين من آياته وعلاماته ما بين، ثم قبضه صلى الله عليه وآله حميداً فقيداً سعيداً، وجعل الأمر بعده إلى أخيه وابن عمه ووصيه ووارثه علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم إلى الأوصياء من ولده واحداً واحداً، أحيا بهم دينه، وأنم بهم نوره، وجعل بينهم وبين إخوانهم وبني عمهم والأدنين فالأدنين من ذوي أرحامهم فرقاناً بيناً يُعرف به الحجة من

(١) غيبة الطوسي: ٢٤٨/٢٩٣، احتجاج الطبرسي ٢: ٢٨٤ - ٢٨٥، وعنه بحار الأنوار ٢٥: ٤/٣٢٩.

المحجوج، والإمام من المأموم، بأن عصمهم من الذنوب، وبرأهم من العيوب، وطهرهم من الدنس، ونزههم من اللبس، وجعلهم خزان علمه، ومستودع حكمته، وموضع سره، وأيدهم بالدلائل، ولولا ذلك لكان الناس على سواء، ولادعى أمر الله عز وجل كل أحد، ولما عرف الحق من الباطل، ولا العالم من الجاهل»^(١).

في مقام الأئمة عليهم السلام

«الذي يجب عليكم ولكم أن تقولوا إنا قُدوة الله وأئمة، وخلفاء الله في أرضه وأمناءه على خلقه، وحججه في بلاده، نعرف الحلال والحرام ونعرف تأويل الكتاب وفصل الخطاب»^(٢).

في انتظام نظام الإمامة وعدم خلو الأرض من الحجة

ومن رسالة له الى سفيريه العمري وابنه: «وَفَقَّكُمَا اللهُ لَطَاعَتِهِ، وَثَبَّتَكُمَا عَلَى دِينِهِ، وَأَسْعَدَكُمَا بِمَرْضَاتِهِ، انْتَهَى إِلَيْنَا مَا ذَكَرْتُمَا أَنَّ الْمِيثَمِي أَخْبَرَكُمَا عَنِ الْمُخْتَارِ وَمَنَاظِرَاتِهِ مِنْ لَقِي، وَاحْتِجَاجِهِ بِأَنَّهُ لَا خَلْفَ غَيْرُ جَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ وَتَصَدِيقِهِ إِيَّاهُ وَفَهَمْتُ جَمِيعَ مَا كَتَبْتُمَا بِهِ مِمَّا قَالَ أَصْحَابُكُمَا عَنْهُ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَى بَعْدَ الْجَلَاءِ، وَمِنَ الضَّلَالَةِ بَعْدَ الْهُدَى، وَمِنْ مُوَبَقَاتِ الْأَعْمَالِ، وَمُرْدِيَاتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٣) كَيْفَ يَتَسَاقُطُونَ فِي الْفِتْنَةِ، وَيَتَرَدَّدُونَ فِي الْحَيْرَةِ، وَيَأْخُذُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَارْقُوا دِينَهُمْ، أَمْ ارْتَابُوا، أَمْ عَانَدُوا الْحَقَّ، أَمْ جَهِلُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ الصَّادِقَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، أَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ فَتَنَاسَوْا مَا يَعْلَمُونَ، أَنْ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ إِلَّا ظَاهِرًا وَإِمَامًا مَعْمُورًا.

(١) الغيبة للطوسي: ٢٤٥/٢٨٨، الإحتجاج للطبرسي ٢: ٢٨٠، بحار الأنوار ٥٣: ١٩٤ / ٢١.

(٢) تفسير العياشي: ١ / ١٦، وعنه بحار الأنوار ٨٩: ٥٨/٩٧.

(٣) سورة العنكبوت ٢٩: ١ - ٢.

أولم يعلموا انتظام أئمتهم بعد نبهم ﷺ واحداً بعد واحد إلى أن أفضى الأمر بأمر الله عز وجل إلى الماضي يعني الحسن بن علي عليه السلام فقام مقام آبائه عليه السلام يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، كانوا نوراً ساطعاً، وشهاباً لامعاً، وقمرراً زاهراً، ثم اختار الله عز وجل له ما عنده فمضى على منهاج آبائه عليه السلام حَذَوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ على عهد عهده، ووصية أوصى بها إلى وصي ستره الله عز وجل بأمره إلى غاية، وأخفى مكانه بمشيئة للقضاء السابق والقدر النافذ، وفيما موضعه، ولنا فضله، ولو قد أذن الله عز وجل فيما قد منعه عنه وأزال عنه ما قد جرى به من حكمه لأراهم الحق ظاهراً بأحسن حلية، وأبين دلالة، وأوضح علامة، ولأبان عن نفسه وقام بحجته، ولكن أقدار الله عز وجل لا تغالب وإرادته لا ترد وتوفيقه لا يسبق، فليدعوا عنهم أتباع الهوى، وليقيموا على أصلهم الذي كانوا عليه، ولا يبحثوا عما ستر عنهم فيأثموا، ولا يكشفوا ستر الله عز وجل فيندموا، وليعلموا أن الحق معنا وفينا، لا يقول ذلك سوانا إلا كذابٌ مُفتر، ولا يدعيه غيرنا إلا ضالٌّ غويٌّ، فليقتصروا منا على هذه الجملة دون التفسير، ويقنعوا من ذلك بالتعريض دون التصريح إن شاء الله»^(١).

تقوى الله والنجاة من الفتن

يقول عليه السلام في رسالته الثانية للشيخ المفيد وهي من الرسائل التي صدرت عنه في غيبته الكبرى: «... فلتكن حرسك الله بعينه التي لا تنام أن تقابل لذلك فتنة تسلب نفوس قوم حرثت باطلاً لاسترهاب المبطلين وبيتهج لدمارها المؤمنون، ويحزن لذلك المجرمون، وآية حركتنا من هذه اللوثة حادثة بالحرَمِ المُعْظَمِ من رجس مُنافِقٍ مُذْمَمٍ، مُسْتَحِلٍّ لِلدَّمِ المُحَرَّمِ، يعمد بكيد أهل الإيمان ولا يبلغ بذلك غرضه من الظلم لهم والعدوان، لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذي لا يُجِبُّ عن ملك الأرض والسماء، فلتطمئن بذلك من أوليائنا القلوب، وليتقوا بالكفاية منه، وإن راعتهم بهم الخطوب، والعاقبة بجميل صنع الله سبحانه تكون حميدة لهم ما اجتنبوا المنهي عنه من الذنوب.

ونحن نعهد إليك أيها الولي المخلص المجاهد فينا الظالمين أيذك الله بنصره الذي آيد به السلف من أوليائنا الصالحين، أنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين وأخرج مما عليه إلى

(١) كمال الدين: ٥١٠ - ٤٢/٥١٢، الخرائج، الراوندي ٣: ٢٦/١١٠٩، بحار الأنوار: ١٩/٥٣/١٩.

مُسْتَحَقِّهِ، كَانَ آمَنًا مِنَ الْفِتْنَةِ الْمُبْطَلَةِ، وَمَحْنِهَا الْمُظْلَمَةِ الْمُضِلَّةِ وَمَنْ بَخَلَ مِنْهُمْ بِمَا أَعَارَهُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَى مَنْ أَمَرَهُ بِصَلَاتِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ خَاسِرًا بِذَلِكَ لِأَوْلَاةٍ وَآخِرَتِهِ، وَلَوْ أَنَّ أَشْيَاعَنَا وَقَّعَهُمُ اللَّهُ لِبَاعِثِهِ عَلَى اجْتِمَاعِ مِنَ الْقُلُوبِ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ عَلَيْهِمْ لَمَا تَأَخَّرَ عَنْهُمْ الْيَمْنُ بِلِقَائِنَا...»^(١).

رعايته للمسلمين

«... فَإِنَّا نَحِيطُ عَلِمًا بِأَنْبَاءِكُمْ وَلَا يَعْزُبُ عَنَّا شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَمَعْرِفَتِنَا بِالذَّلِّ الَّذِي أَصَابَكُمْ مُذْ جَنَحَ كَثِيرٌ مِنْكُمْ إِلَى مَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَنْهُ شَاسِعًا، وَنَبَذُوا الْعَهْدَ الْمَأْخُودَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

إِنَّا غَيْرُ مُهْمِلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ، وَلَا نَاسِينَ لِذِكْرِكُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمْ اللَّأْوَاءُ وَاصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ فَاتَّقُوا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَظَاهِرُونَا عَلَى انْتِشَائِكُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَدْ أَنَاغَتْ عَلَيْكُمْ يَهْلِكُ فِيهَا مَنْ حُمَّ أَجَلُهُ وَيُحْمَى عَنْهَا مَنْ أَدْرَكَ أَمَلُهُ، وَهِيَ أَمَارَةٌ لِأَرْوَفِ حَرَكَتِنَا وَمُبَاتِّئِكُمْ بِأَمْرِنَا وَنَهْيِنَا، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»^(٢).

الاستعداد الدائم للظهور

«فَلْيَعْمَلْ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمَا يَقْرُبُ بِهِ مِنْ مَحَبَّتِنَا، وَيَتَجَنَّبُ مَا يُدْنِيهِ مِنْ كِرَاهَتِنَا وَسَخَطِنَا فَإِنَّ أَمْرَنَا بَعْتُهُ فُجَاءَةٌ حِينَ لَا تَنْفَعُهُ تَوْبَةٌ وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عِقَابِنَا نَدَمٌ عَلَى حُوبَةِ اللَّهِ يُلْهِمُكُمْ الرُّشْدَ، وَيُلْطِفُ لَكُمْ فِي التَّوْفِيقِ بِرَحْمَتِهِ»^(٣).

نماذج من أجوبته القصيرة

ومن أجوبته عليه السلام عن أسئلة إسحاق بن يعقوب: «أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا فأعلم أنه ليس بين الله عز وجل وبين

(١) احتجاج الطبرسي ٢: ٣٢٤، وعنه بحار الأنوار ٥٣: ٨/٧٧.

(٢) احتجاج الطبرسي ٢: ٣١٨ - ٣٢٣، وعنه بحار الأنوار ٥٣: ٧/١٧٤، الخرائج ٢: ٩٠٢.

(٣) المصادر نفسها المتقدمة.

أحد قرابة، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَلَيْسَ مِنِّي وَسِبِيلُهُ سَبِيلُ ابْنِ نُوحٍ، أَمَّا سَبِيلُ عَمِّي جَعْفَرٍ وَوَلَدِهِ
فَسَبِيلُ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ...

وَأَمَّا أَمْوَالُكُمْ فَمَا نَقْبَلُهَا إِلَّا لِتَطْهَرُوا، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَصِلْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَقْطَعْ... وَأَمَّا
ظُهُورُ الْفَرْجِ فَإِنَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَكَذَبَ الْوَقَاتُونَ... وَأَمَّا مَا وَصَلْتَنَا بِهِ فَلَا قَبُولَ عِنْدَنَا
إِلَّا لَمَّا طَابَ وَطَهَرَ... وَأَكْثَرُوا الدَّعَاءَ بِتَعْجِيلِ الْفَرْجِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فَرْجَكُمْ...»^(١).

نماذج من أدعيته وزياراته

من دعائه للمؤمنين عامة

«إِلَهِي بِحَقِّ مَنْ نَاجَاكَ، وَبِحَقِّ مَنْ دَعَاكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، تَفَضَّلْ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالْغِنَاءِ وَالثَّرْوَةِ، وَعَلَى مَرْضَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالشِّفَاءِ وَالصَّحَّةِ، وَعَلَى أَهْلِيَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِاللُّطْفِ وَالْكَرَامَةِ، وَعَلَى أَمْوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ،
وَعَلَى غُرَبَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالرَّدِّ إِلَى أَوْطَانِهِمْ سَالِمِينَ غَانِمِينَ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ»^(٢).

من دعائه في قنوته

«... وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ خَلْقَكَ وَرَزَقْتَهُمْ كَيْفَ شِئْتَ وَكَيْفَ شَاءُوا،
يَا مَنْ لَا يُغَيِّرُهُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي أَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ نُوحٌ حِينَ نَادَاكَ فَأَنْجَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ وَأَهْلَكَتَ
قَوْمَهُ، وَأَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُكَ حِينَ نَادَاكَ فَأَنْجَيْتَهُ وَجَعَلْتَ النَّارَ عَلَيْهِ بَرْدًا
وَسَلَامًا، وَأَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ مُوسَى كَلِيمُكَ حِينَ نَادَاكَ فَفَلَقْتَ لَهُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْتَهُ وَبَنِي
إِسْرَائِيلَ، وَأَغْرَقْتَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْيَمِّ، وَأَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ عِيسَى رُوحُكَ حِينَ نَادَاكَ،
فَنَجَّيْتَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَإِلَيْكَ رَفَعْتَهُ، وَأَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ حَبِيبُكَ وَصَفِيُّكَ وَنَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى

(١) كمال الدين: ٤٨٣ - ٤٨٥ / ٤، غيبة الطوسي: ٢٩٠ - ٢٤٧/٢٩٣.

(٢) مهج الدعوات للسيد ابن طاووس: ٢٩٥ الصحيفة الهادية والتحفة المهدية للفيض الكاشاني: ٧١، المصباح،
الكفعمي: ٣٠٦.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَاسْتَجَبْتَ لَهُ وَمِنَ الْأَحْزَابِ نَجَيْتَهُ، وَعَلَى أَعْدَائِكَ نَصْرَتُهُ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَبْتَ، يَا مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، يَا مَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، يَا مَنْ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، يَا مَنْ لَا تُغَيِّرُهُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَتَشَابَهُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ اللَّغَاةُ، وَلَا يُرْمِيهِ الْخَاحُ الْمُلْحِنُ.

أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ خَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ بِأَفْضَلِ صَلَوَاتِكَ، وَصَلِّ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ بَلَّغُوا عَنْكَ الْهُدَى، وَعَقَدُوا لَكَ الْمَوَاقِفَ بِالطَّاعَةِ، وَصَلِّ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، يَا مَنْ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، وَاجْمَعْ لِي أَصْحَابِي، وَصَبِّرْهُمْ، وَأَنْصُرْنِي عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَعْدَاءِ رَسُولِكَ، وَلَا تُخَيِّبْ دَعْوَتِي، فَإِنِّي عَبْدُكَ وَأَبْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، أَسِيرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، سَيِّدِي أَنْتَ الَّذِي مَنَنْتَ عَلَيَّ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَتَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ دُونَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تُنْجِزَ لِي مَا وَعَدْتَنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الصَّادِقُ، وَلَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).

من صلواته على النبي ﷺ

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَحُجَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُتَجَبِّ فِي الْمِيثَاقِ، الْمُصْطَفَى فِي الظَّلَالِ، الْمُطَهَّرِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، الْبَرِيِّ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، الْمُؤَمَّلِ لِلنَّجَاةِ، الْمُرْتَجَى لِلشَّفَاعَةِ، الْمُفَوَّضِ إِلَيْهِ دِينَ اللَّهِ...»^(٢).



(١) مهج الدعوات : ٦٨، الصحيفة الهادية والتحفة المهدية، الفيض الكاشاني: ٤٨ - ٥٠.

(٢) ضمن صلوات طويلة على النبي وأوصيائه عليهم السلام، غيبة الطوسي: ٢٧٧، الصحيفة المهدية: ٥٣، المزار، المشهدي:

فهرس المصادر

- أ -

- ١ - أئمتنا، عليّ محمّد عليّ الدخيل (معاصر).
- ٢ - إثبات الرجعة، أبو محمّد الفضل بن شاذان بن الخليل الأزدي المتوفى (٢٦٠هـ).
- ٣ - إثبات الوصية للإمام عليّ بن أبي طالب، أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦هـ)، قم منشورات مكتبة بصيرتي .
- ٤ - إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي المشغري الأخباري المتوفى (١١٠٤هـ).
- ٥ - إحقاق الحقّ وازهاق الباطل، القاضي نور الله التستري المتوفى (١٠١٩هـ)، مع تعليقات المرعشي النجفي من منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم.
- ٦ - أحكام القرآن، ابن العربي المتوفى (٥٤٣هـ)، دار الفكر، بيروت.
- ٧ - أخبار الدول وآثار الأول ، أحمد بن يوسف بن أحمد بن سنان القرمانى الدمشقي المتوفى (١٠١٩هـ).
- ٨ - اختيار معرفة الرجال ، أبو جعفر محمّد الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠هـ).
- ٩ - إرشاد القلوب، أبو محمّد الحسن بن محمّد الديلمي من علماء القرن الثامن الهجري .
- ١٠ - أسباب النزول، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحدي المتوفى (٤٦٨هـ)، مؤسسة الحلبي القاهرة (١٣٨٨هـ). ١٢ - المغازي، محمّد بن عمر بن واقد أبو عبد الله الواقدي المتوفى (٢٠٧هـ)، مكتبة الإعلام الإسلامي ط الأولى، بيروت.
- ١١ - أسد الغابة، في معرفة الصحابة، عزّ الدين عليّ بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني (ابن الأثير الجزري) المتوفى (٦٣٠هـ)، إسماعيليان، ط الأولى، طهران.

- ١٢ - إسعاف الراغبين: محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦ هـ).
- ١٣ - أصل زيد النرسي (الأصول الستة عشر)، زيد النرسي الكوفي .
- ١٤ - أعلام الدين في صفات المؤمنين، أبي محمد الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي من علماء القرن الثامن، مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، ط الثانية (١٤١٤ هـ).
- ١٥ - إلام الوري بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨ هـ)، مؤسسة آل البيت، ط الأول، قم.
- ١٦ - أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين العاملي المتوفى (١٣٧١ هـ)، دار التعارف بيروت.
- ١٧ - إقبال الأعمال، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي ط ١.
- ١٨ - الأئمة الاثنا عشر، محمد بن طولون المتوفى (٩٥٣ هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، منشورات الرضي، قم، إيران.
- ١٩ - الإتحاف بحب الأشراف، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن محمد بن عامر الشبراوي الشافعي التوفى (١١٧١ هـ) .
- ٢٠ - الاحتجاج، أحمد بن علي بن أبي طالب (من أعلام القرن السادس الهجري)، انتشارات أسوة، قم، ط الأولى.
- ٢١ - الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى (٢٨٢ هـ).
- ٢٢ - الاختصاص، أبو عبدالله محمد بن محمد العكبري البغدادي، الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ)، دار المفيد، بيروت ط ٢ (١٤١٤ هـ).
- ٢٣ - الإرشاد، الشيخ أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد المتوفى (٤١٣ هـ)، دار المفيد، ط ٢ (١٤١٤ هـ)، بيروت .
- ٢٤ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي المتوفى (٤٦٣ هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت.

- ٢٥ - الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى (١٤١٥ هـ).
- ٢٦ - الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الإصفهاني المتوفى (٣٥٦ هـ).
- ٢٧ - الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ).
- ٢٨ - الأمالي، أبو عبدالله محمد بن محمد النعمان المفيد المتوفى (٤١٣ هـ)، دار المفيد، بيروت، ط الثانية (١٤١٤ هـ).
- ٢٩ - الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، مجموعة من المستشرقين، تعريب الدكتور نور الدين آل علي (معاصر).
- ٣٠ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الشيخ أسد حيدر (معاصر).
- ٣١ - الإمام الهادي عليه السلام من المهد إلى اللحد، السيد كاظم القزويني (معاصر).
- ٣٢ - الإمامة والتبصرة، علي بن بابويه القمي (والد الصدوق) المتوفى (٣٢٩ هـ)، مؤسسة المهدي عليه السلام، ط الأولى، قم.
- ٣٣ - الإمامة والسياسة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦ هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاءه، سورية، وطبعة منشورات الشريف الرضي (١٤١٣ هـ)، قم.
- ٣٤ - الإمامة وقائم القيامة، الدكتور مصطفى غالب (معاصر)، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت (١٩٨١ م).
- ٣٥ - الأنوار البهية، الشيخ عباس بن محمد رضا القمي المتوفى (١٣٥٩ هـ).
- ٣٦ - إلزام الناصب، الشيخ علي بن زين العابدين البارجيني اليزدي الحائري المعروف بشهر نوي، المتوفى (١٣٣٣ هـ).
- ٣٧ - إمتاع الأسماع، تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد المقرئزي المتوفى (٨٤٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى.

- ٣٨ - إنجيل يوحنا وأشعة البيت النبوي .
- ٣٩ - أنساب الأشراف، البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ)، مؤسسة الأعلمي، ط ١ (١٣٩٤ هـ)، بيروت.
- ٤٠ - إيضاح الاشتباه في أحوال الرواة، جمال الدين حسن بن يوسف بن مطهر الحلّي، المتوفى (٧٢٦ هـ).

- ب -

- ٤١ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المتوفى (٧٧٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، بيروت.
- ٢٤ - البرهان في علامات مهدي آخر الزمان، علاء الدين عليّ بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي المتوفى (٩٧٥ هـ)، تحقيق عليّ أكبر غفاري، مطبعة الخيام، قم (١٣٩٩ هـ).
- ٤٣ - البشارات والمقارنات (بشارات عهدين)، محمّد الصادقي، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- ٤٤ - البيان في أخبار صاحب الزمان، محمّد بن يوسف بن محمّد القرشي النوفلي الكنجي الشافعي المتوفى (٦٥٨ هـ).
- ٤٥ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمّد باقر المجلسي المتوفى (١١١١ هـ)، مؤسسة الوفاء، ط الثانية، بيروت.
- ٤٦ - بشارة المصطفى لشيعه المرتضى، أبو جعفر محمّد بن أبي القاسم الطبري المتوفى (٥٢٥ هـ).
- ٤٧ - بصائر الدرجات، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فروخ الصفّار القمي المتوفى (٢٩٠ هـ)، مؤسسة الأعلمي، ط الأولى، بيروت.

٤٨ - بلاغات النساء، أبو محمد أحمد بن طيفور البغدادي المتوفى (٣٨٠ هـ)، مكتبة بصيرتي، قم.

- ت -

٤٩ - التاريخ المظفري، شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله ابن أبي الدم الحموي الهمداني الشافعي المتوفى (٦٤٢ هـ).

٥٠ - التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي ط الأولى، قم.

٥١ - التنبيه والإشراف، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي بن مسعود المتوفى (٢٨٧ هـ).

٥٢ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).

٥٣ - التوحيد، أبي جعفر محمد بن علي الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).

٥٤ - تاج المواليد (مجموعة نفيسة)، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨ هـ)، مكتبة آية الله المرعشي، ط الثانية، قم.

٥٥ - تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ)، بيروت ط الثانية (١٤٠٨ هـ).

٥٦ - تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، أبو الفداء إسماعيل بن علي المتوفى (٧٣٢ هـ).

٥٧ - تاريخ أسماء الثقات، عمر بن شاهين أبي حفص المتوفى (٣٨٥ هـ)، نشر الهادي، قم ط الأولى (١٤١٧ هـ).

٥٨ - تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)، منشورات الشريف الرضي، ط ١ (١٤١١ هـ)، قم.

- ٥٩ - تاريخ الخميس في أحوال أنفـس نفـس، حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المتوفى (٩٦٦ هـ).
- ٦٠ - تاريخ الشيعة، سليمان بن محمد بن علي بن حمود ظاهر زين الدين العاملي المتوفى (١٣٨٠ هـ).
- ٦١ - تاريخ الغيبة الصغرى، محمد محمد صادق الصدر المستشهد (١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م)، منشورات مكتبة أمير المؤمنين، إصفهان، إيران (١٤٠٣ هـ).
- ٦٢ - تاريخ الغيبة الكبرى، محمد صادق الصدر المستشهد (١٤٢٢ هـ)، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة، إصفهان.
- ٦٣ - تاريخ المدينة المنورة، أبو زيد عمر بن شبة النميري المتوفى (٢٦٢ هـ)، دار الفكر ط الأولى، بيروت.
- ٦٤ - تاريخ المذاهب الإسلامية، الشيخ أبو زهرة محمد بن أحمد المتوفى (١٣٩٤ هـ).
- ٦٥ - تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى (٢٨٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي ط الأولى، بيروت.
- ٦٦ - تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب المتوفى (٤٦٣ هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت.
- ٦٧ - تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ)، دار الفكر ط الأولى، بيروت.
- ٦٨ - تحف العقول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني (من علماء القرن الرابع) مؤسسة النشر الإسلامي ط الثانية، قم، وط الرابعة.
- ٦٩ - تحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار، السيد ضامن بن شدم علي بن حسن الحسيني الشدقي النقيب المدني المتوفى (١٠٨٨ هـ).
- ٧٠ - تحفة الأنام للفاخوري.

- ٧١ - ترجمة الإمام زين العابدين عن تاريخ دمشق ، تحقيق محمد باقر المحمودي المتوفى (١٤٢٧ هـ).
- ٧٢ - تصنيف غرر الحكم، عبدالواحد الآمدي التميمي من علماء القرن الخامس الهجري.
- ٧٣ - تفسير الإمام العسكري، المنسوب الى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام المتوفى (٢٦٠ هـ)، مدرسة الإمام المهدي، ط الأولى (١٤٠٩ هـ)، قم.
- ٧٤ - تفسير البرهان (البرهان في تفسير القرآن) ، هاشم الحسيني البحراني المتوفى (١١٠٧ أو ١١٠٩ هـ).
- ٧٥ - تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلى المتوفى (٨٩١ هـ) وجلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).
- ٧٦ - تفسير الصافي، محسن الفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١ هـ)، مؤسسة الهادي، قم.
- ٧٧ - تفسير العياشي، أبو نضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المتوفى (٣٢٠ هـ) المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
- ٧٨ - تفسير القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى (٦٧١ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط (١٤٠٥ هـ)، بيروت.
- ٧٩ - تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي المتوفى (٣٢٩ هـ)، مؤسسة دار الكتاب ط الثالثة، قم.
- ٨٠ - تفسير الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤١٢ هـ)، جماعة المدرسين، قم.
- ٨١ - تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي المتوفى (١١١٢ هـ)، مؤسسة إسماعيليان ط الأول، قم.
- ٨٢ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبدالرزاق .

- ٨٣ - توحيد الصدوق، الشيخ الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ)، جماعة المدرسين، قم.
- ٨٤ - تهذيب الأحكام، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ)، دار الكتب الإسلامية ط الرابعة.
- ٨٥ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين بن الحجاج بن يوسف المزني المتوفى (٧٤٢ هـ)، مؤسسة الرسالة ط الرابعة، بيروت.
- ٨٦ - تهذيب اللغات والأسماء، أبي زكريا يحيى بن شرف الشافعي النووي المتوفى (٦٧٦ هـ).
- ٨٧ - تيسير المطالب في ترتيب أمالي أبي طالب، السيد يحيى بن الحسين بن هارون ابن الحسين أبي طالب الهاروني العلوي المتوفى (٤٢٤ هـ).

- ث -

- ٨٨ - الثاقب في المناقب، أبو جعفر محمد بن علي بن حمزة الطوسي المتوفى (٥٦٠ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي المتوفى (٤١٣ هـ) ط ٢، قم.

- ج -

- ٨٩ - الجامع الصغير، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى (٩١١ هـ) دار الفكر ط الأولى، بيروت.
- ٩٠ - الجرح والتعديل، أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي الرازي المتوفى (٣٢٧ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط الأولى (١٣٧١ هـ)، بيروت.
- ٩١ - جامع الأخبار، محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني المتوفى (٣٦٠ هـ).
- ٩٢ - جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ)، دار الفكر، بيروت، ط (١٤١٥ هـ).

- ٩٣ - جامع الرواة وإزاحة الإشباه عن الطرق والأسناد، محمد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري المتوفى (١١٠١هـ).
- ٩٤ - جامع السعادات، المولى أحمد النراقي المتوفى (١٢٤٥هـ)، دار النعمان، النجف الأشرف، ط الرابعة.
- ٩٥ - جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني المتوفى (١٣٥٠هـ)، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طبع سنة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- ٩٦ - جنات الخلود، الميرزا محمد رضا بن محمد مؤمن الإمامي الخاتون الآبادي الإصفهاني.
- ٩٧ - جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام، محمود بن وهيب القراغولي البغدادي الحنفي.

- ح -

- ٩٨ - الحاوي للفتاوى الحديثية، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى (٩١١هـ).
- ٩٩ - حديقة الشيعة في تفصيل أحوال النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، أحمد بن محمد الأردبيلي، المتوفى (٩٩٣هـ).
- ١٠٠ - حقائق التأويل، الشريف الرضي المتوفى (٤٠٦هـ)، دار المهاجر، بيروت.
- ١٠١ - حلية الأبرار، السيد هاشم بن سليمان الكتكاني البحراني المتوفى (١١٠٧هـ)، مؤسسة المعارف الإسلامية ط الأولى، قم.
- ١٠٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهاني المتوفى (٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي ط الخامسة، بيروت.

- ١٠٣ - الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام، جعفر مرتضى العاملي (معاصر)، نشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط الثانية.
- ١٠٤ - حياة الإمام الباقر عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي (معاصر).
- ١٠٥ - حياة الإمام الجواد عليه السلام، باقر شريف القرشي (معاصر)، نشر المؤلف، مطبعة أيسر.
- ١٠٦ - حياة الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي (معاصر)، مطبعة الآداب النجف ط الأولى (١٣٩٥ هـ).
- ١٠٧ - حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي (معاصر)، مطبعة الآداب، النجف ط الأولى (١٣٩٥ هـ).
- ١٠٨ - حياة الإمام الكاظم عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي (معاصر).
- ١٠٩ - حياة الإمام الهادي عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي (معاصر).
- ١١٠ - حياة الإمام زين العابدين عليه السلام (دراسة وتحليل)، الشيخ باقر القرشي (معاصر).
- ١١١ - حياة الحيوان، كمال الدين محمد بن موسى الدميري المتوفى (٨٠٨ هـ).
- ١١٢ - حياة أمير المؤمنين عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله، السيد محمد صادق الصدر (معاصر).

- خ -

- ١١٣ - الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن عبدالله الراوندي المعروف بقطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٣ هـ)، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام ط الأولى، قم.
- ١١٤ - الخصال، أبو جعفر محمد بن علي الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ)، انتشارات مدرسين ط الأولى، قم.

١١٥ - خصائص الأئمة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، الشريف الرضي محمد ابن الحسين بن موسى الموسوي المتوفى (٤٠٦ هـ)، مجمع البحوث الإسلامية ط الثانية، مشهد.

١١٦ - خلاصة الأذكار، ملا محسن الفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١ هـ)، ط حجرية، طهران.

١١٧ - خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (رجال العلامة الحللي)، الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحللي المتوفى (٧٢٦ هـ)، تحقيق: جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقه، إيران، طبع سنة (١٤١٧ هـ).

- د -

١١٨ - الدرّ المنتثور في التفسير المأثور، عبدالرحمن أبو بكر السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)، دار المعرفة ط الأولى (١٣٦٥ هـ) جدّة.

١١٩ - الدرّ النظيم في مناقب الأئمة اللهايم عليهم السلام، جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي العاملي المشغري المتوفى (٦٦٤ هـ)، مؤسسة نشر الإسلامي، قم.

١٢٠ - الدرّة الباهرة من الأصداف الطاهرة، الشهيد الأوّل محمد بن جمال الدين مكّي العاملي المتوفى (٧٨٦ هـ).

١٢١ - الدعوات، قطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٢ هـ)، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام ط الأولى، قم.

١٢٢ - الدمعة الساكبة، محمد باقر البهبهاني الدهشتي النجفي المتوفى (١٢٨٥ هـ).

١٢٣ - درر السمط في خبر السبط، أبو عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار المتوفى (٦٥٨ هـ)، دار الغرب، بيروت ط الأولى (١٤٠٧ هـ).

١٢٤ - دعائم الإسلام، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (٣٦٣ هـ)، دار التعارف، ط الأولى، أوفست إيران.

- ١٢٥ - دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الخامس الهجري)، مؤسسة البعثة ط الأولى، قم.
- ١٢٦ - دلائل النبوة، أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى (٤٥٨ هـ)، دار الكتب العلمية ط الأولى، بيروت.
- ١٢٧ - دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة، السيد محمد باقر بن السيد محسن الحكيم استشهد (١٤٢٤ هـ).

- ذ -

- ١٢٨ - الذريعة الى تصانيف الشيعة، محمد محسن الشيخ آغا بزرك الطهراني المتوفى (١٣٨٩ هـ).
- ١٢٩ - ذخائر العقبى، أحمد بن عبدالله الطبري المتوفى (٦٩٤ هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة (١٣٥٦ هـ).

- ر -

- ١٣٠ - رجال إصفهان، ملا عبدالكريم آخوند جزي الإصفهاني المتوفى (١٣٤١ هـ).
- ١٣١ - رجال الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ)، تحقيق جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، الطبعة الثانية (١٤٢٠ هـ).
- ١٣٢ - رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي النجاشي الأسدي الكوفي المتوفى (٤٥٠ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي ط الخامسة، قم.
- ١٣٣ - روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري المتوفى (٥٠٨ هـ)، منشورات شريف الرضي ط الثالثة، قم.

١٣٤ - رياحين الشريعة، (فارسي)، ذبيح الله بن محمد علي بن علي أكبر المحلاتي (معاصر).

- س -

١٣٥ - السقيفة وفدك، أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري المتوفى (٣٢٣ هـ)، شركة الكتبي، ط ٢ (١٤١٣ هـ)، بيروت.

١٣٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي بن عبدالقادر المقرئ المتوفى (٨٤٥ هـ).

١٣٧ - السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، علي بن برهان الدين الحلبي المتوفى (١٠٤٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط حجرية، بيروت.

١٣٨ - السيرة النبوية، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى (٢١٨ هـ)، دار الوفاق ط الثانية، بيروت.

١٣٩ - السيرة النبوية، أحمد بن زيني دحلان المتوفى (١٣٠٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط حجرية، بيروت.

١٤٠ - سبائك الذهب في أصول المذهب، محمد صالح بن الميرزا فضل الله المازندراني الحائري.

١٤١ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى (٩٤٢ هـ)، دار الكتب العلمية ط الأولى، بيروت.

١٤٢ - سمط النجوم العوالي، عبدالملك بن حسين العصامي المكي الشافعي المتوفى (١١١ هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت.

١٤٣ - سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، المتوفى (٢٧٣ هـ)، دار الفكر ط الأولى، بيروت.

- ١٤٤ - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى (٢٧٩ هـ)، دار الفكر ط الثانية (١٤٠٣ هـ)، بيروت.
- ١٤٥ - سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، تخريج وإشراف شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان الطبعة التاسعة (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م).
- ١٤٦ - سيرة الأئمة الاثني عشر، السيد هاشم معروف الحسني المتوفى (١٤٠٤ هـ).
- ١٤٧ - سيرة رسول الله وأهل بيته، لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ طهران، المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، قم.

- ش -

- ١٤٨ - شذرات الذهب ، أبي الفلاح عبدالحكي بن أحمد بن العماد الحنبلي المتوفى (١٠٨٩ هـ).
- ١٤٩ - شرح إحقاق الحق، آية الله شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي المتوفى (١٤١١ هـ)، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي.
- ١٥٠ - شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان بن محمد المغربي المتوفى (٣٦٣ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط الثانية (١٤١٤ هـ).
- ١٥١ - شرح شافية أبي فراس، لمحمد أمير الحاج.
- ١٥٢ - شرح نهج البلاغة، أبو حامد هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني المعتزلي المتوفى (٦٥٦ هـ)، دار إحياء الكتب العربية ط الأولى، بيروت.
- ١٥٣ - شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحنفي النيسابوري (الحاكم الحسكاني) المتوفى (٤٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى (١٤١١ هـ).

- ص -

- ١٥٤ - الصحيح من سيرة النبي، السيد جعفر مرتضى العاملي (معاصر)، دار الهادي ط الرابعة، بيروت.
- ١٥٥ - الصحيفة السجّادية الكاملة ، الإمام عليّ بن الحسين بن عليّ بن أي طالب عليه السلام «السجّاد» المتوفى (٩٤ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي ط الأولى (١٤٠٧ هـ)..
- ١٥٦ - الصحيفة الهادية والتحفة المهدية، إبراهيم بن المحسن الكاشاني المتوفى (١٣٤٥ هـ)، الناشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة.
- ١٥٧ - الصراط المستقيم الى مستحقّي التقديم، عليّ بن يونس العاملي النباطي البيضاوي المتوفى (٨٧٧ هـ).
- ١٥٨ - الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي المتوفى (٩٧٤ هـ)، مكتبة القاهرة، القاهرة.
- ١٥٩ - صحاح الأخبار، محمّد سراج الدين بن عبدالله الرفاعي الحسيني المخزومي المتوفى (٨٨٥ هـ).
- ١٦٠ - صحيح مسلم، مسلم بن حجاج القشيري النيشابوري المتوفى (٣٦١ هـ)، دار الفكر ط الأولى، بيروت.
- ١٦١ - صفات الشيعة ، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).
- ١٦٢ - صفة الصفوة، ابن الجوزي عبدالرحمن بن عليّ بن محمّد أبو الفرج المتوفى (٥٩٧ هـ).
- ١٦٣ - صلح الإمام الحسن عليه السلام (مقدمة كتاب) ، السيد عبدالحسين شرف الدين المتوفى (١٣٧٧ هـ).

- ط -

- ١٦٤ - الطبقات الكبرى، ابن سعد محمّد بن سعد بن منيع الزهري البصري المتوفى (٢٣٠ هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٦٥ - الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، عليّ بن موسى ابن طاووس الحسني المتوفى (٦٦٤ هـ)، مطبعة الخيام ط الأولى (١٣٧١ ش)، قم.

- ع -

١٦٦ - العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، رضي الدين عليّ بن يوسف المطهر الحلّي المتوفى (٧٢٦ هـ)، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ط الأولى (١٤٠٨ هـ).

١٦٧ - العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي المالكي المتوفى (٣٢٨ هـ)، مكتبة الشرقية، ط ١ مصر.

١٦٨ - العمدة لابن البطريق (عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار)، يحيى ابن الحسن الأسدي الحلّي (ابن البطريق) المتوفى نحو (٦٠٠ هـ)، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

١٦٩ - عدة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن فهد الحلّي المتوفى (٨٤١ هـ)، مكتبة الوجدان ط الأولى، بيروت.

١٧٠ - عقاب الأعمال ، أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين (الشيخ الصدوق) المتوفى (٣٨١ هـ).

١٧١ - عقد الدرر في أخبار المنتظر، يوسف بن يحيى بن عليّ المقدسي الشافعي السلمي (من أعلام القرن السابع الهجري).

١٧٢ - علل الشرائع، محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ)، المكتبة الحيدرية ط الأولى (١٣٨٦ هـ)، النجف الأشرف.

١٧٣ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، جمال الدين أحمد بن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن مهنا بن عتبة الداوودي الحسني المتوفى (٨٢٨ هـ).

١٧٤ - عوالم العلوم والمعارف ومستدركاتهما، العلامة عبدالله بن نور الله البحراني الإصفهاني (من أعلام القرن ١٢ هـ).

- ١٧٥ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، أبو جعفر محمد بن علي الصدوق المتوفى (٣٨١هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت (١٤٠٤هـ).
- ١٧٦ - عيون الأخبار وفنون الآثار ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦هـ).
- ١٧٧ - عيون التواريخ، أحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الرازي الدمشقي المتوفى (٧٦٤هـ)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى.
- ١٧٨ - عيون المعجزات، الشيخ حسين بن عبد الوهاب (من علماء القرن الخامس)، محمد كاظم الكتبي، النجف الأشرف (١٣٦٩هـ).

- غ -

- ١٧٩ - الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي المتوفى (٢٨٣هـ)، المحقق السيد جلال الدين الحسيني، قم.
- ١٨٠ - الغدير في الكتاب والسنة، عبدالحسين أحمد الأميني النجفي التبريزي المتوفى (١٣٩١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، والمحققة، تحقيق ونشر مركز الغدير للدراسات الإسلامية ط الأولى، قم.
- ١٨١ - الغيبة، محمد إبراهيم النعماني المتوفى (٣٨٠هـ)، مكتبة الصدوق، الأولى، طهران.

- ف -

- ١٨٢ - الفتح السماوي، محمد عبد الرؤوف المناوي المتوفى (١٠٣١هـ)، دار العاصمة، الرياض.
- ١٨٣ - الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي المتوفى (٢٠٠هـ)، دار النفائس، ط ١ (١٣٩١هـ)، بيروت.

- ١٨٤ - الفصول المختارة، الشيخ المفيد، دار المفيد، ط ٢ (١٤١٤ هـ)، بيروت.
- ١٨٥ - الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمد بن أحمد المالكي المعروف بابن الصبّاغ المتوفى (٨٥٥ هـ)، دار الأضواء ط الثانية، بيروت.
- ١٨٦ - الفهرست لابن النديم، محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم البغدادي المتوفى (٣٨٠ هـ)، المحقق رضا تجدد، قم.
- ١٨٧ - فاطمة الزهراء عليها السلام، إبراهيم الأميني (معاصر)، مؤسسة البعثة، طهران (١٤١٠ هـ).
- ١٨٨ - فذك في التاريخ، الشهيد السيّد محمد باقر الصدر المتوفى (١٤٠٠ هـ)، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الأولى (١٤١٥ هـ).
- ١٨٩ - فرائد الأصول، الشيخ مرتضى الأنصاري، المتوفى (١٢٨١ هـ).
- ١٩٠ - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين، إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن محمد حمويه الجويني الشافعي المتوفى (٧٢٢ هـ).
- ١٩١ - فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١ هـ)، دار الكتب العلمية ط الأولى، بيروت.
- ١٩٢ - فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، أبي العباس أحمد بن محمد الكوفي الجارودي (ابن عقدة) المتوفى (٣٣٣ هـ)، المحقق عبدالرزاق فيض الدين، قم، ط الأولى.
- ١٩٣ - فضل آل البيت، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ المتوفى (٨٤٥ هـ)، شرح المحقق السيّد علي عاشور، قم، ط الأولى (١٤٢٠ هـ).
- ١٩٤ - فلاح السائل، أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن محمد ابن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ)، ط حجري (١٣٣٦ هـ).
- ١٩٥ - في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام، السيّد محسن الأمين العاملي المتوفى (١٣٧١ هـ) وهو المدخل لكتابه (أعيان الشيعة).

- ق -

- ١٩٦ - القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيثمي المتوفى (٩٧٤ هـ)، تحقيق مصطفى عاشور، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.
- ١٩٧ - قرب الإسناد، أبي العباس عبدالله بن جعفر الحميري (من علماء القرن الثالث)، مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، ط الأولى (١٤١٣ هـ).
- ١٩٨ - قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٣ هـ).

- ك -

- ١٩٩ - الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي المتوفى (٣٢٨ أو ٣٢٩ هـ)، دار الأضواء ط الأولى، بيروت.
- ٢٠٠ - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير المتوفى (٦٣٠ هـ)، دار الفكر ط الثانية، بيروت.
- ٢٠١ - الكامل للمبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد المتوفى (٢٨٥ هـ).
- ٢٠٢ - الكشّاف عن حقائق وغوامض التأويل، محمد بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري المتوفى (٥٣٨ هـ)، نشر البلاغة، قم، ط الأولى (١٤١٣ هـ).
- ٢٠٣ - كامل الزيارات، أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي المتوفى (٣٦٨ هـ).
- ٢٠٤ - كتاب الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى (٣١٤ هـ)، دار الأضواء، ط ١ (١٤١١ هـ)، بيروت.
- ٢٠٥ - كتاب سليم بن قيس، سليم بن قيس الهلالي المتوفى (٧٦ هـ)، المحقق، محمد باقر الأنصاري.
- ٢٠٦ - كشف الخفاء ومزيل الألباس، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الحراني المتوفى (١١٦٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة (١٤٠٨ هـ).

- ٢٠٧ - كشف الغمّة في معرفة الأئمة، عليّ بن عيسى الإربلي المتوفى (٦٩٢ هـ)، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.
- ٢٠٨ - كشف المحبّة لثمره المهجّة، أبي القاسم عليّ بن موسى بن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط سنة (١٣٧٠ هـ).
- ٢٠٩ - كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، الحسن بن يوسف بن عليّ المطهر الحلّي المتوفى (٧٢٦ هـ) وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ط الثانية، طهران.
- ٢١٠ - كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر، أبو القاسم عليّ بن محمّد بن عليّ الخزاز القمي الرازي (من أعلام القرن الرابع الهجري) المتوفى (٤٠٠ هـ)، انتشارات بيدار ط الأولى، قم.
- ٢١١ - كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب، محمّد بن يوسف الكنجي الشافعي المتوفى (٦٥٨ هـ)، دار إحياء تراث أهل البيت عليه السلام، طهران، ط الثالثة (١٤٠٤ هـ).
- ٢١٢ - كلمة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، حسن بن مهدي الحسيني الشيرازي، ط بيروت.
- ٢١٣ - كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين الصدوق المتوفى (٤٨١ هـ).
- ٢١٤ - كنز العمال، عليّ المتقي بن حسان الدين الهندي المتوفى (٩٧٥ هـ)، مؤسسة الرسالة سنة (١٤١٣ هـ)، بيروت.

- ل -

- ٢١٥ - اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس عليّ بن موسى الحسيني المتوفى (٦٦٤ هـ)، ط الأولى (١٤١٧ هـ)، قم.
- ٢١٦ - لوايع الأشجان، السيّد محسن بن عبدالكريم الأمين العاملي الحسيني المتوفى (١٣٧١ هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

- م -

- ٢١٧ - المحاسن والأضداد، عمرو بن عثمان الجاحظ المتوفى (٢٥٥ هـ)، دار الهلال، بيروت ط ٢ (١٩٩١م).
- ٢١٨ - المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي المتوفى (٣٠٠ هـ)، ط بيروت.
- ٢١٩ - المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥ هـ)، دار المعرفة ط الأولى، بيروت.
- ٢٢٠ - المصباح للكفعمي، إبراهيم بن علي بن الحسين الكفعمي المتوفى (٩٠٥ هـ).
- ٢٢١ - المصنف، أبو عبدالرزاق بن همام الصنعاني المتوفى (٢١١ هـ)، المجلس العلمي ط الأولى.
- ٢٢٢ - المعبر في شرح المختصر، نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المحقق الحلبي المتوفى (٦٧٦ هـ).
- ٢٢٣ - المعجم الصغير، سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ)، دار الكتب العلمية ط الثانية، بيروت.
- ٢٢٤ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي ط الثالثة، بيروت.
- ٢٢٥ - المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، أويس كريم محمد (معاصر)، مجمع البحوث الإسلامية، ط ٢ (١٤٠٨ هـ)، مشهد.
- ٢٢٦ - الملاحم والفتن، السيد ابن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ)، ط الأولى (١٤١٦ هـ)، الناشر مؤسسة صاحب الأمر عليه السلام.
- ٢٢٧ - الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨ هـ)، مؤسسة ناصر للثقافة ط الأولى، ودار المعرفة، بيروت.
- ٢٢٨ - المناقب، الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي المتوفى (٥٦٨ هـ).

- ٢٢٩ - المنتخب الحسني للأدعية والزيارات.
- ٢٣٠ - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبدالرحمن بن عليّ أبو الفرج ابن الجوزي، المتوفى (٥٩٧ هـ)، دار الكتب العلمية ط الأولى، بيروت .
- ٢٣١ - المواقف، أبو الفضل عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار (عضد الدين الايجي) المتوفى (٧٥٦ هـ)، دار الجيل، ط ١ (١٤١٧ هـ)، بيروت.
- ٢٣٢ - مآثر الكبراء في تاريخ سامراء، عبدالله الجنيد.
- ٢٣٣ - مثير الأحزان، محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلبي المتوفى (٦٤٥ هـ).
- ٢٣٤ - مجمع البحرين، الطريحي المتوفى (١٠٨٥ هـ)، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، إيران ط الثانية (١٤٠٨ هـ).
- ٢٣٥ - مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو عليّ الفضيل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨ أو ٥٦٠ هـ)، مؤسسة الأعلمي ط الأولى، بيروت.
- ٢٣٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية، ط الثانية (١٤٠٨ هـ)، بيروت.
- ٢٣٧ - مختصر إثبات الرجعة، الفضل بن شاذان المتوفى (٢٦٠ هـ)، تحقيق: السيد باسم الهاشمي، دار الكرام للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).
- ٢٣٨ - مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلبي المتوفى في القرن التاسع، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ط الأولى (١٣٧٠ هـ).
- ٢٣٩ - مختصر تاريخ الخلفاء، أبو العباس أحمد بن محمد بن عليّ بن حجر الهيثمي الشافعي المتوفى (٩٧٤ هـ).
- ٢٤٠ - مختصر تاريخ العرب، السيد أمير عليّ.
- ٢٤١ - مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مكرم ابن منظور المتوفى (٧١١ هـ)، دار الفكر ط الأولى، دمشق.

- ٢٤٢ - مدينة المعاجز، السيّد هاشم بن إسماعيل البحراني التوبلي المتوفى (١١٠٧هـ)، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية ط الأولى.
- ٢٤٣ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أسعد بن عليّ بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفى (٧٦٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
- ٢٤٤ - مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله السبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤هـ).
- ٢٤٥ - مرآة العقول في شرح أخبار الرسول، محمّد باقر المجلسي المتوفى (١١١١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- ٢٤٦ - مروج الذهب، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعودي المتوفى (٣٤٦هـ)، دار الفكر، ط الأولى، بيروت، ودار الهجرة ط الثانية، قم.
- ٢٤٧ - مسكن الفؤاد، الشهيد الثاني الشيخ زين الدين عليّ بن أحمد الجبعي العاملي المتوفى (٩٦٥هـ)، مؤسسة آل البيت، قم، ط الأولى (١٤٠٧هـ).
- ٢٤٨ - مسند أبي حنيفة، أبو القاسم البغار.
- ٢٤٩ - مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري المشهور بأبي داود الطيالسي المتوفى (٢٠٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى.
- ٢٥٠ - مسند أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١هـ)، دار صادر ط الأولى، بيروت.
- ٢٥١ - مسند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عزيز الله العطاردي (معاصر)، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، ط الأولى (١٤٠٩هـ).
- ٢٥٢ - مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبي الفضل عليّ الطبرسي المتوفى في القرن السابع، دار الحديث، إيران، ط الأولى (١٤٠١هـ).
- ٢٥٣ - مشكل الآثار، أبو جعفر محمّد بن أحمد الأزدي الطحاوي المتوفى (٣٢٢هـ).
- ٢٥٤ - مصابيح السنة، الحسين بن مسعود بن محمّد البغوي المتوفى (٥١٠هـ).

- ٢٥٥ - مصادقة الإخوان ، أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين الصدوق المتوفى (٣٨١هـ).
- ٢٥٦ - المشروع الروي ، محمد بن أبي بكر الشلي العلوي الحسيني المتوفى (١٠٩٣هـ).
- ٢٥٧ - مطالب السؤل في مناقب آل الرسول ﷺ ، محمد بن طلحة الشافعي المتوفى (٦٥٢هـ)، المحقق ماجد بن أحمد العطية، قم.
- ٢٥٨ - معادن الحكمة، علم الهدى ابن الفيض الكاشاني.
- ٢٥٩ - معارج اليقين في أصول الدين، محمد بن محمد الشعيري السبزوي (من أعلام القرن السابع الهجري).
- ٢٦٠ - معاني الأخبار، أبي جعفر محمد بن عليّ الصدوق المتوفى (٣٨١هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط الأولى (١٣٧٩هـ).
- ٢٦١ - معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية بإشراف عليّ الكوراني .
- ٢٦٢ - معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي المتوفى (٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي ط الثانية، بيروت.
- ٢٦٣ - معجم رجال الحديث ، السيّد أبو القاسم الخوئي المتوفى (١٤١٣هـ).
- ٢٦٤ - معرفة الثقات، أبو الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي المتوفى (٢٦١هـ)، مكتبة الدار المدينة المنورة ط الأولى (١٤٠٥هـ).
- ٢٦٥ - مفاتيح الأصول، السيّد محمد بن عليّ الطباطبائي المتوفى (١٢٤٢هـ).
- ٢٦٦ - مقاتل الطالبين، أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمد الإصفهاني الأموي المتوفى (٣٥٦هـ)، مؤسسة دار الكتاب ط الثانية، قم.

- ٢٦٧ - مقتل الحسين عليه السلام، أبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن مسلم الأزدي الغامدي المتوفى (١٥٧ هـ).
- ٢٦٨ - مقتل الحسين عليه السلام، السيد عبدالرزاق بن محمد آل المقرّم النجفي المتوفى (١٣٩١ هـ).
- ٢٦٩ - موسوعة الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الحديث في معهد الإمام الباقر عليه السلام
- ٢٧٠ - مقتل الحسين، الموفق بن أحمد الخوارزمي المتوفى (٥٦٨ هـ)، تحقيق: محمد السماوي، نشر أنوار الهدى، قم، إيران، الطبعة الأولى (١٤١٨ هـ).
- ٢٧١ - مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي، الموفق بن أحمد الخوارزمي المتوفى (٥٦٨ هـ)، أنوار الهدى، قم ط الثالثة (١٤٢٥ هـ).
- ٢٧٢ - مكارم الأخلاق، أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفى (٥٤٨ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي ط الأولى، قم.
- ٢٧٣ - مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني المتوفى (٥٨٨ هـ)، دار الأضواء ط الأولى، بيروت.
- ٢٧٤ - مناقب أمير المؤمنين، ابن عقدة أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المتوفى (٣٣٣ هـ).
- ٢٧٥ - مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، أبي بكر أحمد بن بن موسى ابن مردويه الإصفهاني المتوفى (٤١٦ هـ)، دار الحديث، قم، ط الثانية (١٤٢٤ هـ).
- ٢٧٦ - منتخب الأثر، لطف الله الصافي الكلبايكاني (معاصر).
- ٢٧٧ - من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ)، دار الأضواء ط السادسة، بيروت.
- ٢٧٨ - منهج المقال (رجال الاسترآبادي)، الميرزا محمد علي الاسترآبادي المتوفى (١٠٢٨ هـ).

- ٢٧٩ - منية الطالب في إيمان أبي طالب، محمد رضا الطوسي (معاصر).
- ٢٨٠ - موسوعة الإمام الصادق عليه السلام، السيد كاظم القزويني (معاصر).
- ٢٨١ - مُهَج الدعوات ومنهج العبادات، علي بن موسى بن جعفر (ابن طاووس) المتوفى (٦٦٤ هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).
- ٢٨٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى (١٣٨٢ هـ).
- ٢٨٣ - ميزان الحق، القس الألماني فندر.

- ن -

- ٢٨٤ - النجوم الزاهرة، أبو المحاسن يوسف بن تغري الحنفي المتوفى (٨٧٤ هـ).
- ٢٨٥ - ناسخ التواريخ، ميرزا عباس قلي خان سپهر المتوفى (١٢٩٧ هـ).
- ٢٨٦ - نشر الدرر، أبو سعيد منصور بن الحسن الآبي المتوفى (٤٨١ هـ).
- ٢٨٧ - نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، حسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني (من علماء القرن الخامس الهجري)، مدرسة الإمام المهدي (عج)، ط ١ (١٤٠٨ هـ)، قم.
- ٢٨٨ - نظم درر السمطين في فضائل المصطفى صلى الله عليه وآله والمرضى والبتول والسبطين عليهم السلام، محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي الحنفي المدني المتوفى (٧٥٠ هـ)، من مخطوط مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام العامة (٣٧٧ هـ)، النجف الأشرف.
- ٢٨٩ - نفس المهموم، الشيخ عباس بن محمد رضا القمي المتوفى (١٣٥٩ هـ).
- ٢٩٠ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، الشيخ مؤمن بن محسن مؤمن الشبلنجي المتوفى (١٢٩٨ هـ).

٢٩١ - نهج البلاغة (بشرح محمد عبده)، الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام المستشهد (٤٠هـ)، جمع السيّد الشريف الرضي المتوفى (٤٠٦هـ)، دار الذخائر، قم، ط الأولى (١٤١٤هـ).

- ه -

٢٩٢ - الهداية الكبرى، أبو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي المتوفى (٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ، ط ٤ (١٤١١هـ)، بيروت.

- و -

٢٩٣ - الوافي بالوفيات، صلاح الدين أبو الصفا خليل بن إبيك بن عبدالله الصفدي الشافعي المتوفى (٧٦٤هـ)، دار النشر فرائز شتيايز، شتوتغات ط الثانية.

٢٩٤ - وفيات الأعيان، أبو العباس أحمد بن محمد المكي البرمكي المعروف بابن خلكان المتوفى (٦٨١هـ).

٢٩٥ - وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري المتوفى (٢١٢هـ)، المؤسسة العربية الحديثة، ط (١٣٨٢هـ)، القاهرة.

- ي -

٢٩٦ - ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي المتوفى (١٢٩٤هـ)، دار الأسوة ط الأولى، قم.

الفهرس

٧	كلمة المجمع
٩	محمد المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء
٩	الفصل الأول
٩	المدخل
١٢	ظاهرة النبوة في حياة البشرية
١٤	مظاهر من شخصية خاتم النبيين ﷺ
١٧	الفصل الثاني: دور الولادة والنشأة
١٩	دور الفتوة والشباب
٢٣	الفصل الثالث: من الزواج الى البعثة
٢٥	البعثة النبوية المباركة وإرهاصاتهما
٢٧	مراحل حركة الرسالة في العصر المكي
٢٧	١ - دور إعداد القاعدة
٢٨	٢ - دور المواجهة الأولى وإنذار الأقربين
٢٩	موقف بني هاشم من النبي ﷺ
٣٢	سنوات ما قبل الهجرة
٣٧	الفصل الرابع: تأسيس الدولة الإسلامية الأولى
٤٠	الدفاع عن كيان الدولة الفتية
٤٦	تظاهر قوى الشرك والرد الإلهي الحاسم
٤٩	الفصل الخامس: مرحلة الفتح
٥٢	الإسلام خارج الجزيرة
٥٧	تصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة
٦٠	أيام الرسول ﷺ الأخيرة
٦٣	الفصل السادس: من تراث خاتم المرسلين ﷺ
٦٣	نماذج من تراث سيد المرسلين ﷺ

- ٦٣ ١ - العقل والعلم
- ٦٥ ٢ - مصادر التشريع
- ٦٥ القرآن ودوره المتميز
- ٦٦ أهل البيت عليهم السلام أركان الدين
- ٦٧ ٣ - أصول العقيدة الإسلامية
- ٦٧ الخالق لا يوصف
- ٦٨ شروط التوحيد
- ٦٨ رحمة الله
- ٦٨ لا جبر ولا اختيار
- ٦٩ الخاتمية
- ٦٩ إن الله اصطفاني
- ٦٩ مثلي مثل الغيث
- ٧٠ الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله
- ٧٠ الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله
- ٧٠ أئمة الحق
- ٧١ النبي صلى الله عليه وآله يبشّر بالمهدي عليه السلام
- ٧٢ ٤ - أصول التشريع الإسلامي في تراث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله
- ٧٢ الف - خصائص الإسلام
- ٧٣ ب - العلم ومسؤولية العلماء
- ٧٣ ج - قواعد عامة للسلوك الإسلامي
- ٧٤ د - خطوط عامة في القضاء والمحاكمات
- ٧٤ هـ - العبادات في خطوطها العريضة
- ٧٥ و - من أصول النظام العائلي الإسلامي
- ٧٥ ز - نقاط مضيئة من النظام الاقتصادي الإسلامي
- ٧٦ ح - من أصول التعايش الاجتماعي

- ٧٧ ٥ - من جوامع الكلم في تراث الرسول الأعظم ﷺ
- ٧٩ ٦ - نماذج من أدعيته الشريفة ﷺ
- ٨١
- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
- ٨١ الفصل الأول: انطباعات عن شخصية الإمام علي عليه السلام
- ٨٢ مظاهر من شخصية الإمام علي عليه السلام
- ٨٧ الفصل الثاني: أسرة الإمام علي عليه السلام
- ٨٨ علي عليه السلام منذ الولادة حتى البعثة
- ٩٤ علي عليه السلام من الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ
- ٩٥ علي عليه السلام في معارك الإسلام
- ٩٩ علي عليه السلام يحطم الأصنام
- ١٠٠ علي عليه السلام يبلغ سورة براءة
- ١٠١ إعداد علي عليه السلام لإمامة المسلمين
- ١٠٥ الفصل الثالث: الإمام علي عليه السلام في عهد أبي بكر وعمر وعثمان
- ١٠٦ الإمام علي عليه السلام ومضاعفات السقيفة
- ١٠٧ الإمام علي عليه السلام ومهمة جمع القرآن
- ١٠٧ من مواقف الإمام علي عليه السلام في عهد أبي بكر
- ١٠٨ وصية أبي بكر إلى عمر بن الخطاب
- ١٠٨ المؤاخذات على وصية أبي بكر
- ١٠٩ الإمام علي عليه السلام في عهد عمر
- ١١٠ محنة بدعة الشورى
- ١١٣ الإمام علي عليه السلام في عهد عثمان
- ١١٧ الفصل الرابع: الإمام علي عليه السلام بعد مقتل عثمان
- ١٢٠ الإمام علي عليه السلام والناكثين
- ١٢٢ حركة الإمام علي عليه السلام للقضاء على التمرّد

- ١٢٤ مواقف الإمام بعد المعركة
- ١٢٥ الإمام عليّ عليه السلام والقاسطين
- ١٢٩ الإمام عليّ عليه السلام سيّد شهداء المحراب
- ١٣٣ الفصل الخامس: من تراث الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام
- ١٣٤ في رحاب نهج البلاغة
- ١٣٥ ١ - في رحاب العقل والعلم والمعرفة
- ١٣٦ ٢ - في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة
- ١٣٧ ٣ - في رحاب التوحيد والعدل
- ١٣٨ ٤ - في رحاب النبوة والإمامة (القيادة الإلهية)
- ١٣٩ ٥ - في رحاب الإمام المهدي عليه السلام
- ١٤١ ٦ - في رحاب العبادات والفرائض
- ١٤٢ ٧ - في رحاب الأخلاق والتربية
- ١٤٣ ٨ - في رحاب الدعاء والمناجاة
- ١٤٣ أ - من دعائه في التوبة والإنابة الذي علّمه كميل بن زياد النخعي
- ١٤٤ ب - من دعائه البالغ في الإنابة والتوبة لصباح كل يوم
- ١٤٥

سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام

- ١٤٥ الفصل الأوّل
- ١٤٥ النقطة الأولى: انطباعات عن شخصيّة الزهراء عليها السلام
- ١٤٥ الزهراء عليها السلام في آية التطهير
- ١٤٦ الزهراء عليها السلام في آية المباهلة
- ١٤٦ الزهراء عليها السلام عند سيّد المرسلين
- ١٤٦ الزهراء عليها السلام عند الأئمة والصحابه والمؤرّخين
- ١٤٨ النقطة الثانية: مظاهر من شخصيّة الزهراء عليها السلام
- ١٤٨ ١ - علمها ومعرفتها

- ١٤٨ ٢ - مكارم أخلاقها
١٤٩ ٣ - جودها وإيثارها
١٤٩ ٤ - إيمانها وتعبدتها لله
١٤٩ ٥ - حنوها وشفقتها
١٥٠ ٦ - جهادها المتواصل

الفصل الثاني

- ١٥١ النقطة الأولى : نشأة الزهراء فاطمة عليها السلام
١٥١ شخصية السيدة خديجة «أم فاطمة عليها السلام»
١٥٣ أنس خديجة بفاطمة عليها السلام
١٥٤ النقطة الثانية: الزهراء عليها السلام مع أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله
١٥٤ ١ - فاطمة عليها السلام في شعب أبي طالب
١٥٤ ٢ - وفاة السيدة خديجة عليها السلام وعام الحزن
١٥٥ ٣ - فاطمة الممتحنة عليها السلام
١٥٦ ٤ - هجرة الزهراء عليها السلام إلى المدينة
١٥٧ ٥ - علي عليه السلام يتقدم لخطبة الزهراء عليها السلام
١٦٠ النقطة الثالثة: الزهراء عليها السلام في بيت الزوجية
١٦١ النقطة الرابعة: الزهراء عليها السلام مع أبيها صلى الله عليه وآله في تثبيت دعائم الدولة
١٦٢ الزهراء عليها السلام في فتح مكة

الفصل الثالث

- ١٦٥ النقطة الأولى : السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله
١٦٦ فدك بين النبي صلى الله عليه وآله والزهراء عليها السلام
١٧٢ تقييم الحركة الفاطمية
١٧٤ الهجوم على دار الزهراء عليها السلام
١٨٠ السيدة فاطمة عليها السلام في أيامها الأخيرة
١٨٢ النقطة الثانية: مرض الزهراء عليها السلام واستشهادها

- ١٨٥ تأبين الإمام عليّ للزهراء عليها السلام
- ١٨٧ تاريخ شهادتها
- ١٨٩ الفصل الرابع: من تراث الزهراء عليها السلام
- ١٨٩ نماذج مختارة من مسند فاطمة عليها السلام
- ١٨٩ ١ - اهتمامها بالعلم وتدوين السنّة
- ١٩٠ ٢ - التعريف بأهل البيت عليهم السلام
- ١٩٣ ٣ - مصادر التشريع الإسلامي وفلسفته وأصوله
- ١٩٤ ٤ - الأخلاق والآداب والسلوك
- ١٩٦ ٥ - نماذج من أدعيّتها
- ١٩٧ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام
- ١٩٧ الفصل الأوّل
- ١٩٧ النقطة الأولى: انطباعات من شخصيّة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام
- ١٩٧ الأوّل: مكانة الإمام الحسن عليه السلام في القرآن الكريم
- ١٩٨ الثاني: مكانته عليه السلام لدى خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله
- ١٩٩ الثالث: مكانته عليه السلام لدى معاصريه
- ١٩٩ الرابع: مكانته عليه السلام لدى العلماء والمؤرّخين
- ٢٠٠ النقطة الثانية: من فضائل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ومظاهر شخصيته
- ٢٠٠ أولاً: عبادة الإمام الحسن عليه السلام
- ٢٠١ ثانياً: حلمه وعفوه
- ٢٠٢ ثالثاً: كرمه وجوده
- ٢٠٣ رابعاً: تواضعه وزهده
- ٢٠٥ الفصل الثاني
- ٢٠٥ المرحلة الأولى: حياة الإمام الحسن عليه السلام في عهد جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله
- ٢٠٨ المرحلة الثانية: الإمام الحسن عليه السلام في عهد الخلفاء

- ٢٠٩ المرحلة الثالثة: الإمام الحسن عليه السلام في عهد الدولة العلوية
- ٢٢٣ الفصل الثالث
- ٢٢٣ المرحلة الأولى: منذ بيعة الإمام الحسن عليه السلام حتى صلحه مع معاوية
- ٢٢٣ ١ - خطبة الإمام الحسن عليه السلام يوم استشهاد أبيه عليه السلام
- ٢٢٤ ٢ - بيعة الغمام الحسن عليه السلام
- ٢٢٤ ٣ - الإمام الحسن عليه السلام يقتصّ من قاتل أمير المؤمنين عليه السلام
- ٢٢٤ ٤ - جهاد الإمام الحسن عليه السلام
- ٢٢٥ ٥ - تحرك معاوية نحو العراق وموقف الإمام عليه السلام
- ٢٢٦ ٦ - استنكار الموقف المتخاذل
- ٢٢٧ ٧ - خيانة قائد الجيش
- ٢٢٨ ٨ - توالي الخيانات في جيش الإمام عليه السلام
- ٢٣٠ المرحلة الثانية: في الصلح وأسبابه ونتائجه
- ٢٣٣ المرحلة الثالثة: ما بعد الصلح حتى الشهادة
- ٢٣٤ المرحلة الرابعة: مصير شروط الصلح وشهادة الإمام الحسن عليه السلام
- ٢٣٨ دفن الإمام عليه السلام وفتنة عائشة
- ٢٤١ الفصل الرابع: من تراث الإمام المجتبي عليه السلام
- ٢٤١ ١ - نظرة عامة في التراث الإمام المجتبي عليه السلام
- ٢٤٢ ٢ - في رحاب العلم والعقل
- ٢٤٣ ٣ - في رحاب القرآن الكريم
- ٢٤٤ ٤ - في رحاب الحديث النبوي والسيرة الشريفة
- ٢٤٥ ٥ - في رحاب العقيدة
- ٢٤٥ ٦ - في رحاب ولاية أهل البيت عليهم السلام
- ٢٤٧ ٧ - البشارة بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام
- ٢٤٧ ٨ - في رحاب الأخلاق والتربية
- ٢٤٩ ٩ - في رحاب المواعظ الحكيمة

- ٢٥٠ - ١٠ - في رحاب الفقه وأحكام الشريعة
- ٢٥١ - ١١ - في رحاب أدعية الإمام المجتبي عليه السلام

الإمام الحسين سيّد الشهداء عليه السلام

الفصل الأوّل

- ٢٥٣ المرحلة الأولى: الانطباعات عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٥٣ ١ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام في آيات الذكر الحكيم
- ٢٥٤ ٢ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام لدى خاتم المرسلين ﷺ
- ٢٥٥ ٣ - مكانة الإمام الحسين عليه السلام لدى معاصريه
- ٢٥٥ المرحلة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٥٥ ١ - تواضعه عليه السلام
- ٢٥٦ ٢ - حلمه وعفوه عليه السلام
- ٢٥٦ ٣ - جوده وكرمه عليه السلام
- ٢٥٧ ٤ - شجاعته عليه السلام
- ٢٥٨ ٥ - إباؤه عليه السلام
- ٢٥٩ ٦ - الصراحة والجرأة في الإصهار بالحق
- ٢٦٠ ٧ - عبادته وتقواه عليه السلام

الفصل الثاني: نشأة الإمام الحسين عليه السلام

- ٢٦١ النقطة الأولى: ومضات من نشأة الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٦١ ١ - ولادة الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٦٢ ٢ - اهتمام النبي ﷺ بالحسين عليه السلام
- ٢٦٤ النقطة الثانية: الإمام الحسين عليه السلام من الولادة إلى الإمامة
- ٢٦٤ المرحلة الأولى: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الرسول ﷺ
- ٢٦٦ المرحلة الثانية: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الخلفاء
- ٢٦٦ ١ - الحسين عليه السلام في عهد أبي بكر

- ٢٦٦ ٢- الحسين عليه السلام في عهد عمر بن الخطاب
- ٢٦٧ ٣- الحسين عليه السلام في عهد عثمان
- ٢٦٩ المرحلة الثالثة: الإمام الحسين عليه السلام في عهد الخلافة العلوية
- ٢٧٠ المرحلة الرابعة: الإمام الحسين عليه السلام في عهد أخيه الإمام الحسن عليه السلام
- ٢٧٣ الفصل الثالث
- ٢٧٣ المرحلة الأولى: عصر الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٧٣ النقطة الأولى: حكومة معاوية ودورها في تشويه الإسلام
- ٢٧٥ النقطة الثانية: من هو يزيد بن معاوية؟
- ٢٧٦ المرحلة الثانية: مواقف الإمام الحسين عليه السلام وإنجازاته
- ٢٧٦ الموقف الأول: موقفه عليه السلام من البيعة ليزيد
- ٢٧٨ موت معاوية
- ٢٧٩ الموقف الثاني: نهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد حكومة يزيد
- ٢٩٣ الفصل الرابع: من تراث الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٩٣ نظرة عامة في تراث الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٩٤ في رحاب العقل والعلم والمعرفة
- ٢٩٥ في رحاب القرآن الكريم
- ٢٩٧ في رحاب السنة النبوية الشريفة
- ٢٩٨ في رحاب أهل البيت عليهم السلام
- ٣٠٠ بشائر الحسين عليه السلام بالمهدي المنتظر عليه السلام ودولته
- ٣٠١ في رحاب العقيدة والكلام
- ٣٠٢ في رحاب الأخلاق والتربية الروحية
- ٣٠٣ في رحاب مواعظه الجليلة
- ٣٠٤ في رحاب أدعية الإمام الحسين عليه السلام
- ٣٠٧ الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

- ٣٠٧ الفصل الأول : شخصية الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام
- ٣٠٧ النقطة الأولى: انطباعات عن شخصيّة الإمام زين العابدين عليه السلام
- ٣١٠ النقطة الثانية: مظاهر من شخصيّة الإمام زين العابدين عليه السلام
- ٣١٠ أولاً: الحلم
- ٣١٠ ثانياً: السخاء
- ٣١١ ثالثاً: العزّة والإباء
- ٣١١ رابعاً: الزهد
- ٣١٢ خامساً: الإنابة إلى الله تعالى
- ٣١٣ النقطة الثالثة: الإمام زين العابدين عليه السلام من الولادة إلى الإمامة
- ٣١٥ النصّ على إمامة زين العابدين عليه السلام
- ٣١٦ الإمام زين العابدين عليه السلام يوم عاشوراء
- ٣١٩ الفصل الثاني: الإمام زين العابدين عليه السلام من كربلاء إلى المدينة
- ٣١٩ النقطة الأولى : الإمام زين العابدين عليه السلام بعد ملحمة عاشوراء
- ٣١٩ النقطة الثانية: خطبتا زينب والإمام السجّاد عليه السلام في الكوفة
- ٣٢٢ النقطة الثالثة: الإمام زين العابدين عليه السلام يتحدّى كبرياء ابن زياد
- ٣٢٣ النقطة الرابعة: آل البيت عليهم السلام يُساقون إلى دمشق
- ٣٢٥ النقطة الخامسة: الإمام زين العابدين عليه السلام يتحدّى يزيد في مركز سلطانه
- ٣٣١ الفصل الثالث: الإمام زين العابدين عليه السلام في مدينة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله
- ٣٣١ النقطة الأولى: ردود الفعل على مقتل الإمام الحسين عليه السلام
- ٣٣٤ النقطة الثانية: ثورة أهل المدينة على يزيد
- ٣٣٨ النقطة الثالثة: حرق الكعبة وهدمها
- ٣٤٠ النقطة الرابعة: تزايد المعارضة للحكم الأموي والثورات عليه
- ٣٤٠ ثورة التوابين
- ٣٤٠ ثورة المختار
- ٣٤٢ النقطة الخامسة: سنوات المحن والاضطرابات

٣٤٤	النقطة السادسة: استشهاد الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small>
٣٤٧	الفصل الرابع: من تراث الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small>
٣٤٧	المقدمة
٣٤٧	المجال الأول: علوم القرآن الكريم
٣٤٩	المجال الثاني: علوم الحديث الشريف
٣٥٠	المجال الثالث: أصول العقيدة ومباحث الكلام
٣٥١	المجال الرابع: الفقه وأحكام الشريعة
٣٥٣	المجال الخامس: احتجاجات الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small>
٣٥٥	المجال السادس: من غرر كلماته <small>عليه السلام</small>
٣٥٦	المجال السابع: في رحاب رسالة الحقوق وأدعية الإمام السجاد <small>عليه السلام</small>
٣٥٦	أولاً: رسالة الحقوق
٣٥٩	ثانياً: الصّحيفة السّجّاديّة
٣٦١	مميزات الصحيفة السّجّادية
٣٦٢	الدور التاريخي للصحيفة السّجّادية

الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام

٣٦٥	الفصل الأول: شخصيّة الإمام محمّد الباقر <small>عليه السلام</small>
٣٦٥	النقطة الأولى: مظاهر من شخصيّة الإمام محمّد الباقر <small>عليه السلام</small>
٣٦٦	أولاً: حلمه
٣٦٦	ثانياً: صبره
٣٦٧	ثالثاً: كرمه وسخاؤه
٣٦٨	رابعاً: عبادته
٣٦٩	خامساً: زهده في الدنيا
٣٦٩	النقطة الثانية: انطباعات عن شخصيّة الإمام محمّد الباقر <small>عليه السلام</small>
٣٧٣	الفصل الثاني

- ٣٧٣ النقطة الأولى : نشأة الإمام محمد الباقر عليه السلام
- ٣٧٧ النقطة الثانية: الإمام محمد الباقر في ظلّ جدّه وأبيه عليهما السلام
- ٣٨٣ الفصل الثالث: الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام
- ٣٨٣ المحور الأوّل: الإصلاح الفكري والعقائدي
- ٣٨٣ ١ - الردّ على الأفكار والعقائد الهدّامة والمذاهب المنحرفة
- ٣٨٥ ٢ - إدانة فقهاء البلاط
- ٣٨٥ ٣ - الدعوة إلى أخذ الفكر من مصادره النقيّة
- ٣٨٦ ٤ - نشر علوم أهل البيت عليهم السلام
- ٣٨٧ المحور الثاني: تأسيس المدرسة الفقهية النموذجية
- ٣٨٨ المحور الثالث: الإصلاح السياسي
- ٣٨٨ ١ - الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٣٨٩ ٢ - نشر المفاهيم السياسية السليمة
- ٣٩٠ ٣ - فضح الواقع الأموي
- ٣٩١ ٤ - الدعوة إلى مقاطعة الحكم القائم
- ٣٩١ المحور الرابع: الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي
- ٣٩٢ ١ - الدعوة لتطبيق السنّة النبوية
- ٣٩٣ ٢ - الدعوة إلى مكارم الأخلاق
- ٣٩٥ الفصل الرابع: الإمام الباقر عليه السلام وبناء الجماعة الصالحة
- ٣٩٧ النقطة الأولى: الإمام الباقر عليه السلام ومقومات الجماعة الصالحة
- ٣٩٧ ١ - العقيدة السليمة
- ٣٩٨ ٢ - مرجعية أهل البيت عليهم السلام
- ٤٠٠ ٣ - خصائص الإنتماء لأهل البيت عليهم السلام
- ٤٠٢ النقطة الثانية: الإمام الباقر عليه السلام والتركيز
- ٤٠٢ أ - تحكيم العقل
- ٤٠٣ ب - تبعية الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية

- ج - استشعار الرقابة الإلهية ٤٠٣
- د - التوجه إلى اليوم الآخر ٤٠٤
- النقطة الثالثة: الإمام الباقر عليه السلام وتشخيص هوية الجماعة الصالحة ٤٠٤
- محاوور الإنتماء في الجماعة الصالحة ٤٠٥
- الفصل الخامس: اغتيال الإمام محمد الباقر عليه السلام واستشهاده ٤٠٧
- دوافع اغتيال الإمام الباقر عليه السلام ٤٠٨
- ١ - سمو شخصية الإمام الباقر عليه السلام ٤٠٨
- ٢ - أحداث دمشق ٤٠٨
- نصّه على الإمام الصادق عليه السلام ٤٠٩
- وصاياه ٤٠٩
- تعزية المسلمين للإمام الصادق عليه السلام ٤١١
- الفصل السادس: من تراث الإمام محمد الباقر عليه السلام ٤١٣
- أولاً: التراث التفسيري للإمام محمد الباقر عليه السلام ٤١٣
- نماذج من تفسيره ٤١٥
- ثانياً: التراث الحديثي للإمام الباقر عليه السلام ٤١٦
- ثالثاً: التراث الكلامي للإمام الباقر عليه السلام ٤١٧
- ١ - عجز العقول عن إدراك حقيقة الله ٤١٧
- ٢ - أزلية واجب الوجود ٤١٨
- ٣ - وجوب طاعة الإمام عليه السلام ٤١٨
- رابعاً: التراث التاريخي للإمام الباقر عليه السلام ٤١٨
- النقطة الأولى: مع السيرة النبوية المباركة ٤١٨
- ١ - استعارة النبي صلى الله عليه وآله السلاح من صفوان ٤١٨
- ٢ - مسيرة خالد إلى بني جذيمة ٤١٩
- النقطة الثانية: مع سيرة الإمام علي عليه السلام ٤٢٠
- النقطة الثالثة: من الملاحم التي أخبر بها الإمام الباقر عليه السلام ٤٢١

- ٤٢٢ خامساً: من التراث الفقهي للإمام الباقر عليه السلام
- ٤٢٢ النقطة الأولى: المسح على الخفين
- ٤٢٣ النقطة الثانية: مس الفرج لا ينقض الوضوء
- ٤٢٣ النقطة الثالثة: الجهر في صلاة الإخفات
- ٤٢٣ النقطة الرابعة: الصلاة على آل النبي في التشهد

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

- ٤٢٥ الفصل الأول
- ٤٢٥ النقطة الأولى: نشأة الإمام جعفر الصادق عليه السلام
- ٤٢٥ الأسرة الكريمة
- ٤٢٦ الأم الزكية
- ٤٢٦ ولادة النور
- ٤٢٧ تاريخ ولادته
- ٤٢٨ تسميته وألقابه
- ٤٢٩ ذكاؤه
- ٤٣٠ معرفته بجميع اللغات
- ٤٣١ هيئته ووقاره
- ٤٣٢ النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٣٢ سعة علمه
- ٤٣٢ كرمه وجوده
- ٤٣٤ صدقاته في السرّ
- ٤٣٥ إكرامه للضيوف
- ٤٣٥ تواضعه
- ٤٣٥ سمو أخلاقه
- ٤٣٦ صبره

- ٤٣٧ إقباله على العبادة
- ٤٣٩ النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٤٣ الفصل الثاني: حكومة المنصور حتى استشهاد الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٤٣ المنصور والتضييق على الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٤٤ الإتجاه الأول
- ٤٤٥ الإتجاه الثاني
- ٤٤٨ الإتجاه الثالث
- ٤٤٩ تحرك العلويين نحو الثورة
- ٤٤٩ ثورة محمد بن عبدالله (ذي النفس الزكية)
- ٤٥٠ موقف الإمام عليه السلام من الثورة
- ٤٥١ الإمام الصادق عليه السلام يهتئ الخط الشيعي للمواصلة
- ٤٥٥ محاصرة الإمام عليه السلام قبيل استشهاد
- ٤٥٦ الإمام الصادق عليه السلام في ذمة الخلود
- ٤٦١ الفصل الثالث: دور الإمام عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة
- ٤٦١ الهدف من إيجاد الجماعة الصالحة
- ٤٦١ ١ - المحافظة على المجتمع الإسلامي
- ٤٦٣ ٢ - الحفاظ على الشريعة الإسلامية
- ٤٦٤ ٣ - المطالبة بالحكم الإسلامي
- ٤٦٥ أ - البناء الجهادي
- ٤٦٥ ب - البناء الروحي والإيماني
- ٤٦٨ ج - البناء الاجتماعي
- ٤٦٨ الانفتاح على الأمة
- ٤٦٩ تأكيد علاقة الأخوة
- ٤٧٠ الخط التبوي للإمام الصادق عليه السلام
- ٤٧١ النقطة الأولى: في الدعوة والإصلاح

- ٤٧١ النقطة الثانية: التعامل التربوي في مجال العلم والتعلم
- ٤٧٢ النقطة الثالثة: الضابطة التربوية للتصدي والقيادة
- ٤٧٢ النقطة الرابعة: المحنة والقدرة على المقاومة
- ٤٧٥ الفصل الرابع: من تراث الإمام جعفر الصادق عليه السلام
- ٤٧٦ أعلام السنّة الذين أخذوا عن الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٧٨ أولاً: مصادر المعرفة وآثارها
- ٤٧٩ ثانياً: الأنبياء والأئمة
- ٤٨٠ ثالثاً: الإسلام والإيمان
- ٤٨٠ رابعاً: التفقه في الدين
- ٤٨١ خامساً: مصادر التشريع الإسلامي
- ٤٨١ سادساً: علم الأئمة عليهم السلام
- ٤٨٢ سابعاً: المناهج المنحرفة
- ٤٨٢ ثامناً: نماذج من مواعظ الإمام الصادق عليه السلام

- ٤٨٥ الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام
- ٤٨٥ الفصل الأوّل
- ٤٨٥ النقطة الأولى: نشأة الإمام موسى الكاظم عليه السلام
- ٤٨٩ النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الكاظم عليه السلام
- ٤٨٩ ١ - غزارة علمه
- ٤٩٠ ٢ - عبادته وتقواه
- ٤٩٢ ٣ - زهده
- ٤٩٢ ٤ - جوده وسخاؤه
- ٤٩٣ ٥ - حلمه
- ٤٩٥ النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام
- ٥٠١ الفصل الثاني
- ٥٠١ المرحلة الأولى: الإمام موسى الكاظم في ظلّ أبيه عليه السلام

- ٥٠٤ المرحلة الثانية: موقف الإمام الكاظم عليه السلام في عهد الرشيد
- ٥٠٤ النقطة الأولى: الإمام عليه السلام وسياسة الرشيد
- ٥٠٦ النقطة الثانية: المناظرات في عصر الإمام الكاظم عليه السلام
- ٥٠٨ المرحلة الثالثة: اعتقالات الإمام عليه السلام حتى استشهاده
- ٥١٠ دعاء الإمام عليه السلام وإطلاق سراحه
- ٥١٠ الاعتقال الثاني للإمام عليه السلام
- ٥١٠ الاعتقال الثالث للإمام عليه السلام
- ٥١٢ إلى الرفيق الأعلى
- ٥١٥ الفصل الثالث: الإمام الكاظم عليه السلام وبناء الجماعة الصالحة
- ٥١٥ دور الإمام الكاظم عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة
- ٥١٥ أولاً: تركيز الانتماء لخط أهل البيت عليهم السلام
- ٥١٥ الانتماء السياسي
- ٥١٥ الهدف الأول: الإحاطة بالوضع السياسي
- ٥١٦ الهدف الثاني: قضاء حوائج المؤمنين
- ٥١٧ الهدف الثالث: التأثير في السياسة العامة
- ٥١٨ ثانياً: التثقيف السياسي
- ٥١٩ ثالثاً: البناء العملي والانتماء الفكري
- ٥٢٠ أولاً: المجال السياسي
- ٥٢٠ الخطوة الأولى: تأكيد الانتماء السياسي لخط أهل البيت عليهم السلام
- ٥٢٢ الخطوة الثانية: التأكيد على مبدأ التقية
- ٥٢٢ الخطوة الثالثة: النفوذ في الجهاز الحاكم
- ٥٢٤ ثانياً: المجال التربوي
- ٥٢٧ ثالثاً: المجال العلمي والفكري
- ٥٢٩ الفصل الرابع: من تراث الإمام الكاظم عليه السلام
- ٥٣٠ أصول العلم ومراتب المعرفة

- ٥٣١ مصادر المعرفة ومنهجها
- ٥٣١ التوحيد وأسس التدبير الإلهي
- ٥٣٢ الإمامة والنص
- ٥٣٤ الوصي بعد الإمام الكاظم عليه السلام
- ٥٣٥ من مواعظ وحكم الإمام الكاظم عليه السلام

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

- ٥٣٩ الفصل الأول
- ٥٣٩ النقطة الأولى : نشأة الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٤١ النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٤٢ زهده
- ٥٤٣ سخاؤه
- ٥٤٥ علمه
- ٥٤٦ الإمام عليه السلام والملاحم
- ٥٤٧ عبادته وتقواه
- ٥٤٧ تسلّحه بالدعاء
- ٥٤٨ النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٤٨ الإمام الكاظم عليه السلام
- ٥٤٩ المأمون

الفصل الثاني

- ٥٥٣ المرحلة الأولى: الإمام الرضا في ظلّ أبيه الكاظم عليه السلام
- ٥٥٣ ١ - الإنحراف الفكري والديني
- ٥٥٣ ٢ - الفساد الأخلاقي والمالي
- ٥٥٤ ٣ - الفساد السياسي
- ٥٥٤ ٤ - تعاطف المسلمين مع أهل البيت عليهم السلام

- ٥٥٤ الإمام الكاظم والتمهيد لإمامة الرضا عليه السلام
- ٥٥٦ الوصية بالإمامة
- ٥٥٧ المرحلة الثانية: دور الإمام الرضا عليه السلام قبل ولاية العهد
- ٥٥٧ الإصلاح الفكري والديني
- ٥٥٩ الإصلاح الأخلاقي
- ٥٦٠ الإصلاح السياسي
- ٥٦٢ المرحلة الثالثة: الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد
- ٥٦٣ دوافع المأمون لفرض ولاية العهد على الإمام عليه السلام
- ٥٦٣ أولاً: تهدة الأوضاع المضطربة
- ٥٦٤ ثانياً: إضفاء الشرعية على حكمه
- ٥٦٤ ثالثاً: منع الإمام من الدعوة لنفسه
- ٥٦٥ رابعاً: إبعاد الإمام عن قواعده
- ٥٦٥ خامساً: إيقاف خطر الإمام على الحكم القائم
- ٥٦٥ سادساً: تشويه سمعة الإمام عليه السلام
- ٥٦٦ أسباب قبول الإمام عليه السلام بولاية العهد
- ٥٦٧ الفصل الثالث: نشاطات الإمام الرضا عليه السلام بعد البيعة بولاية العهد
- ٥٦٧ إفشال خطط المأمون
- ٥٦٨ إصلاح القضاء
- ٥٧٠ إصلاح الأعمال الإدارية
- ٥٧٠ نشر الآراء السديدة في داخل البلاط
- ٥٧١ الحفاظ على الوجود الإسلامي
- ٥٧٣ إظهار الكرامات واستثمارها في الإصلاح
- ٥٧٤ النشاطات العلمية للإمام الرضا عليه السلام
- ٥٧٥ النصّ على إمامة محمد الجواد عليه السلام
- ٥٧٦ الإعداد لدولة المهدي المنتظر عليه السلام

- ٥٨٠ اغتيال الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٨١ الأدلة على شهادته مسوماً
- ٥٨٣ أسباب إقدام المأمون على سم الإمام عليه السلام واغتياله
- ٥٨٥ الفصل الرابع: من تراث الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٨٧ في رحاب العقل والعلم والمعرفة
- ٥٨٨ في رحاب القرآن الكريم
- ٥٨٨ في رحاب التوحيد
- ٥٨٩ في رحاب النبوة والأنبياء
- ٥٩٠ في رحاب الإمامة والأئمة
- ٥٩٣ في رحاب الغدير
- ٥٩٤ في رحاب فقه الإمام الرضا عليه السلام
- ٥٩٥ في رحاب مواعظه وقصار كلماته

- ٥٩٧ الإمام محمد بن عليّ الجواد عليه السلام
- ٥٩٧ الفصل الأول
- ٥٩٧ النقطة الأولى: نشأة الإمام الجواد عليه السلام
- ٥٩٨ النقطة الثانية: انطباعات عن شخصية الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٠١ النقطة الثالثة: مظاهر من شخصية الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٠٢ أ - تكلمه في المهد
- ٦٠٣ ب - إتيانه الحكم صبياً
- ٦٠٤ ج - علمه
- ٦٠٦ ١ - التوحيد
- ٦٠٦ ٢ - تفسير القرآن الكريم وتأويله
- ٦٠٨ د - معجزاته وكراماته عليه السلام
- ٦١١ الفصل الثاني: الإمام الجواد في ظل أبيه عليه السلام
- ٦١١ النقطة الأولى: نشأة الإمام الجواد عليه السلام

- ٦١٢ سياسة العباسيين للرعية
- ٦١٣ الحالة السياسية في هذه المرحلة
- ٦١٤ محمد الأمين : نزعاته وسياسته
- ٦١٥ الحروب الطاحنة
- ٦١٦ عبدالله المأمون: نزعاته وسياسته
- ٦١٦ ١ - الدهاء
- ٦١٧ ٢ - القسوة
- ٦١٧ ٣ - الغدر
- ٦٢١ الفصل الثالث: الإمام الجواد عليه السلام وحكام عصره
- ٦٢١ ١ - المأمون العباسي
- ٦٢١ تزويج المأمون ابنته من الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٢٦ السبب في تزويج المأمون ابنته للإمام الجواد عليه السلام
- ٦٢٧ موقف العباسيين
- ٦٢٧ موقف الإمام الجواد عليه السلام من ابن أكرم
- ٦٢٧ مدة إمامة الجواد عليه السلام في عهد المأمون
- ٦٢٨ ٢ - المعتصم العباسي
- ٦٢٩ المعتصم والطلعة الإسلامية الواعية
- ٦٢٩ أ - استقدام الإمام عليه السلام إلى بغداد
- ٦٢٩ ب - اغتيال الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٣١ تجهيزه ودفنه
- ٦٣١ عمره وتاريخ استشهاده
- ٦٣٣ الفصل الرابع: الإمام الجواد ومتطلبات الجماعة الصالحة
- ٦٣٣ النقطة الأولى : الإمام الجواد والبناء الثقافي للجماعة الصالحة
- ٦٣٣ أ - تعميق البناء الفكري
- ٦٣٣ الإمام والدعوة إلى التوحيد الخالص

- ٦٣٤ ب - تعميق البناء العلمي
- ٦٣٤ إكمال الأدوات والمنهج العلمي
- ٦٣٦ ج - تعميق البناء التربوي
- ٦٣٧ الحكم في العمل
- ٦٣٧ التعامل مع الظالمين
- ٦٣٨ وصايا للعاملين
- ٦٣٩ النقطة الثانية: إحكام تنظيم الجماعة الصالحة وإعدادها لدور الغيبة
- ٦٣٩ أ - نظام الوكلاء ودقة التحرك
- ٦٤١ ب - المراسلات السرية
- ٦٤١ ج - الإحاطة بدقائق الأمور الاجتماعية
- ٦٤٢ النقطة الثالثة: التمهيد لإمامة عليّ الهادي عليه السلام المبكرة
- ٦٤٣ النقطة الرابعة: الإمام الجواد عليه السلام وقضية الإمام المهدي عليه السلام
- ٦٤٧ الفصل الخامس: مدرسة الإمام الجواد عليه السلام وتراثه
- ٦٤٧ البحث الأول: أصحاب الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٥١ البحث الثاني: من تراث الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٥٢ ١ - من تراثه التفسيري
- ٦٥٣ ٢ - من تراثه الكلامي
- ٦٥٣ أ - ضرورة التحصين العقائدي
- ٦٥٣ ب - التوحيد
- ٦٥٤ ج النبوة
- ٦٥٤ د - الإمامة
- ٦٥٤ هـ - وسأله أبو هاشم الجعفرية
- ٦٥٤ ٣ - من تراثه الفقهي
- ٦٥٥ ٤ - من تراثه التاريخي
- ٦٥٦ البحث الثالث: مواظ الإمام الجواد عليه السلام

- ٦٦١ الإمام عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام
- ٦٦١ الفصل الأوّل
- ٦٦٢ النقطة الأولى: انطباعات عن شخصية الإمام الهادي عليه السلام
- ٦٦٤ النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الهادي عليه السلام
- ٦٦٥ ١ - الكرم
- ٦٦٥ ٢ - الزهد
- ٦٦٦ ٣ - العمل في المزرعة
- ٦٦٦ ٤ - إرشاد الضالّين
- ٦٦٧ ٥ - التحذير من مجالسة الصوفيين
- ٦٦٨ ٦ - تكريمه للعلماء
- ٦٦٩ ٧ - العبادة
- ٦٦٩ ٨ - إستجابة دعائه
- ٦٧١ الفصل الثاني: الإمام الهادي في ظل أبيه الجواد عليه السلام
- ٦٧١ الشيعة وإمامة الجواد عليه السلام
- ٦٧٣ الإمام الجواد عليه السلام والمعتصم
- ٦٧٣ نصوص الإمام الجواد عليه السلام على إمامة ولده الهادي عليه السلام
- ٦٧٤ أ - النصّ الأوّل
- ٦٧٤ ب - النصّ الثاني
- ٦٧٥ ج - النصّ الثالث
- ٦٧٥ استشهاد الإمام الجواد عليه السلام
- ٦٧٧ الفصل الثالث: الإمام الهادي عليه السلام منذ تولّيه الإمامة حتى استشهاده
- ٦٧٧ النقطة الأولى: جوانب من النشاط العلمي والسياسي للإمام الهادي عليه السلام
- ٦٧٧ ١ - تجنّب إثارة الحكّام وعمّالهم
- ٦٧٨ ٢ - الردّ على الإثارات الفكرية والشبهات الدينية

- ٦٧٨ ٣ - التحدي العلمي للسلطة وعلمائها
- ٦٧٩ ٤ - توسيع دائرة النفوذ في جهاز السلطة
- ٦٨٠ النقطة الثانية: الإمام الهادي عليه السلام وقضية حفيده المهدي عليه السلام
- ٦٨٤ النقطة الثالثة: استشهاد الإمام علي الهادي عليه السلام
- ٦٨٦ تجهيزه وحضور الخاصة والعامة لتشيعه
- ٦٨٧ لماذا دُفن الإمام عليه السلام في بيته؟
- ٦٨٨ انتشار خبر استشهاد الإمام الهادي عليه السلام في البلاد
- ٦٨٩ تاريخ استشهاد عليه السلام

الفصل الرابع

- ٦٩١ الإمام الهادي عليه السلام وتكامل بناء الجماعة الصالحة وتحسينها
- ٦٩١ ١ - الإمام الهادي عليه السلام وقضية حفيده المهدي عليه السلام
- ٦٩٥ ٢ - تحسين الجماعة الصالحة وإعدادها لمرحلة الغيبة
- ٦٩٦ أ - التحسين العقائدي
- ٦٩٧ الموقف من الغلاة والفرق المنحرفة
- ٦٩٨ ب - التحسين العلمي
- ٦٩٨ ج - التحسين التربوي
- ٦٩١ د - التحسين الأمني
- ٧٠٢ هـ - التحسين الاقتصادي
- ٧٠٥ الفصل الخامس: مدرسة الإمام الهادي عليه السلام وتراثه
- ٧٠٦ البحث الأول: أصحاب الإمام عليه السلام ورواة حديثه
- ٧٠٦ ١ - إبراهيم بن عبدة النيسابوري
- ٧٠٧ ٢ - إبراهيم بن محمد الهمداني
- ٧٠٧ ٣ - إبراهيم بن مهزيار
- ٧٠٨ ٤ - أحمد بن إسحاق بن عبد الله الأشعري القمي
- ٧٠٨ ٥ - أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي

- ٧٠٨ ٦- أيوب بن محمد بن عيسى الأشعري القمي
- ٧٠٨ ٧- أيوب بن نوح بن دراج
- ٧٠٩ ٨- الحسن بن عليّ
- ٧١٠ ٩- الحسن بن عليّ الوشا
- ٧١٠ ١٠- داود بن القاسم الجعفري
- ٧١٠ ١١- الريّان بن الصلت
- ٧١١ ١٢- عبد العظيم الحسني
- ٧١١ ١٣- عثمان بن سعيد العمري السمان
- ٧١٢ ١٤- عليّ بن مهزيار الأهوازي الدورقي
- ٧١٣ ١٥- الفضل بن شاذان النيشابوري
- ٧١٣ ١٦- محمد بن أحمد المحمودي
- ٧١٤ ١٧- محمد بن الحسن بن أبي طالب الزيات
- ٧١٤ ١٨- محمد بن الفرّج الرخجي
- ٧١٤ ١٩- معاوية بن حكيم بن معاوية بن عمار الكوفي
- ٧١٥ ٢٠- يعقوب بن إسحاق
- ٧١٥ البحث الثاني: نماذج من تراث الإمام الهادي عليه السلام
- ٧١٥ ١- من تراثه التفسيري
- ٧١٦ ٢- من تراثه الفقهي
- ٧١٩ ٣- من أدعية الإمام الهادي عليه السلام
- ٧١٩ ٤- من تراثه التربوي والأخلاقي

الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام

٧٢٣

الفصل الأوّل

٧٢٣

النقطة الأولى: نشأة الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام

٧٢٣

٧٢٣

نسبه الشريف

٧٢٤	محل الولادة وتاريخها
٧٢٤	ألقابه <small>عليه السلام</small> وكُناه
٧٢٤	ملاحمه
٧٢٤	النشأة وظروفها
٧٢٧	النقطة الثانية: مظاهر من شخصية الإمام الحسن العسكري <small>عليه السلام</small>
٧٢٧	سماحته وكرمه
٧٢٩	زهده وعبادته
٧٢٩	علمه ودلائل إمامته
٧٣١	النقطة الثالثة: انطباعات عن شخصية الإمام الحسن العسكري <small>عليه السلام</small>
٧٣٢	١ - شهادة المعتمد العباسي
٧٣٢	٢ - شهادة طبيب البلاط العباسي
٧٣٢	٣ - أحمد بن عبيد الله بن خاقان
٧٣٣	٤ - راهب دير العاقول
٧٣٤	٥ - محمد بن طلحة الشافعي
٧٣٤	٦ - ابن الصباغ المالكي
٧٣٤	٧ - العلامة الشبراوي الشافعي
٧٣٧	الفصل الثاني: الإمام الحسن العسكري <small>عليه السلام</small> في ظل أبيه
٧٣٧	طفولة متميزة
٧٣٨	عصر الإمام الهادي <small>عليه السلام</small>
٧٣٩	النصوص على إمامة الحسن العسكري <small>عليه السلام</small>
٧٤٠	أ - نصوص الرسول الأعظم <small>صلى الله عليه وآله</small>
٧٤١	ب - نصوص الأئمة المعصومين <small>عليهم السلام</small>
٧٤٥	ج - نصوص الإمام الهادي على إمامة الحسن العسكري <small>عليه السلام</small>
٧٤٧	اغتيال الإمام الهادي <small>عليه السلام</small> واستشهاده
٧٤٩	

الفصل الثالث: عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام

- ٧٥٢ استشهاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام
- ٧٥٣ الصلاة على الإمام العسكري عليه السلام
- ٧٥٤ أولاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام
- ٧٥٥ الفصل الرابع: الإمام العسكري عليه السلام ومتطلبات الجماعة الصالحة
- ٧٥٦ النقطة الأولى: الإمام الحسن العسكري والتمهيد لولادة وغيبة الإمام المهدي عليه السلام
- ٧٥٧ الخطوة الأولى: النصوص المبشرة بولادة المهدي عليه السلام
- ٧٥٨ الخطوة الثانية: الإشهاد على ولادة المهدي عليه السلام
- ٧٥٨ الخطوة الثالثة: الإخبار بولادة المهدي عليه السلام
- ٧٥٩ الخطوة الرابعة
- ٧٦٠ النقطة الثانية: الإعداد لعصر الغيبة
- ٧٦٣ الفصل الخامس: من تراث الإمام العسكري عليه السلام
- ٧٦٣ أولاً: التفسير
- ٧٦٤ ثانياً: رسالة المقنعة
- ٧٦٤ ثالثاً: مكاتبات الرجال عن العسكريين
- ٧٦٥ رابعاً: مجموعة وصايا الإمام العسكري وكتبه وتوقيعاته
- ٧٦٧ خامساً: اهتمامات الإمام الحسن العسكري عليه السلام الفكرية والعلمية
- ٧٦٧ من تراثه المعرفي
- ٧٦٨ من تراثه الكلامي
- ٧٦٨ ١- في التوحيد
- ٧٦٨ ٢- في أهل البيت عليهم السلام
- ٧٦٩ ٣- في الإمام المهدي عليه السلام
- ٧٦٩ المختار من تراثه عليه السلام في الدعاء

خاتم الأوصياء الإمام المهدي عليه السلام

الفصل الأول: الإمام المنتظر عليه السلام في بشارات الأديان

- ٧٧١ وفي القرآن الكريم والسنة المتفق عليها
- ٧٧١ النقطة الأولى : عراقة الإيمان بالمصلح العالمي
- ٧٧٢ البشارات بالمنقذ في الكتب المقدسة
- ٧٧٣ رسوخ الفكرة في الديانتين اليهودية والنصرانية
- ٧٧٤ البشارات السماوية لا تنطبق على غير المهدي الإمامي
- ٧٧٥ النقطة الثانية: المهدي الموعود عليه السلام وغيبته في القرآن الكريم
- ٧٧٦ عدم خلو الزمان من الإمام
- ٧٧٧ الإمام المقصود في الآية
- ٧٧٧ الإمام المنقذ من الضلالة
- ٧٧٨ المواصفات القرآنية لإمام الهدى
- ٧٨٠ النقطة الثالثة: المهدي الموعود وغيبته في المتفق عليه من السنة
- ٧٨١ مصداق أهل البيت عليهم السلام
- ٧٨٢ مصداق الحديث في العص الحاضر
- ٧٨٥ الفصل الثاني
- ٧٨٥ النقطة الأولى : ولادة الإمام المهدي عليه السلام
- ٧٨٥ كيفية وظروف الولادة
- ٧٨٦ الإخبار المسبق عن خفاء الولادة
- ٧٨٩ النقطة الثانية: الإمام المهدي في ظل أبيه عليه السلام
- ٧٨٩ دور الإمام العسكري عليه السلام في إعلان الولادة
- ٧٨١ حضور وفاة أبيه عليه السلام
- ٧٩٣ الفصل الثالث: حياة الإمام المهدي عليه السلام بعد تسلمه الإمامة
- ٧٩٣ النقطة الأولى : صلاته على أبيه وإعلان وجوده
- ٧٩٥ أهدافه عليه السلام من الصلاة على أبيه

- ٧٩٦ النقطة الثانية: غيبتا الإمام المهدي عليه السلام
- ٨٠٠ إعلان انتهاء الغيبة الصغرى
- ٨٠١ النقطة الثالثة: الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام
- ٨٠١ المرحلة الأولى: إنجازات الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى
- ٨٠١ رعايته للكيان الإسلامي
- ٨٠٢ حفظ الإسلام الصحيح وتسديد العمل الاجتهادي
- ٨٠٢ الالتقاء بالمؤمنين في غيبته الكبرى
- ٨٠٣ ترسيخ الإيمان بوجوده
- ٨٠٥ الفصل الرابع: ظهور الإمام المهدي عليه السلام
- ٨٠٥ النقطة الأولى: علائم ظهور الإمام المهدي عليه السلام
- ٨٠٥ أبرز علائم الظهور
- ٨٠٧ زوال علل الغيبة
- ٨٠٩ النقطة الثانية: سيرة الإمام المهدي عليه السلام عند الظهور
- ٨١٠ خصائص الدولة المهدوية في القرآن الكريم
- ٨١٠ ١ - إتمام النور الإلهي وإظهار الإسلام على الدين كله
- ٨١١ ٢ - استخلاف صالحى المؤمنين
- ٨١٢ ٣ - إقامة المجتمع التوحيدي الخالص
- ٨١٢ ٤ - تحقيق الغاية من خلق النوع الإنسانى
- ٨١٣ ٥ - إنهاء الردّة عن الدين الحقّ
- ٨١٤ النقطة الثالثة: تاريخ ظهور الإمام المهدي عليه السلام
- ٨١٤ مكان ظهوره عليه السلام وانطلاقة ثورته
- ٨١٥ وقفة عند خطبتي إعلان الثورة
- ٨١٦ إعلان أهداف الثورة
- ٨١٧ الاستجابة لاستنصاره ومبايعته
- ٨١٨ خروجه إلى الكوفة وتصفية الجبهة الداخلية

٨١٩	دخوله بيت المقدس ونزول عيسى عليه السلام
٨١٩	قتل الدجال وإنهاء حاكمية الحضارات المادية
٨٢٠	إحياء السنة وآثار النبي صلى الله عليه وآله
٨٢١	سيرته تجاه الأديان والمذاهب
٨٢٢	الصورة العامة للدولة المهدوية في النصوص الشرعية
٨٣٥	الفصل الخامس: قبسات من تراث الإمام المهدي عليه السلام
٨٣٥	من كلامه في التوحيد ونبذ الغلو
٨٢٥	في علّة الخلق وبعث الأنبياء وتعيين الأوصياء
٨٢٦	في مقام الأئمة عليهم السلام
٨٢٦	في انتظام نظام الإمامة وعدم خلو الأرض من الحجّة
٨٢٧	تقوى الله والنجاة من الفتن
٨٢٨	رعايته للمسلمين
٨٢٨	الاستعداد الدائم للظهور
٨٢٨	نماذج من أجوبته القصيرة
٨٢٩	نماذج من أدعيته وزياراته
٨٢٩	من دعائه للمؤمنين عامّة
٨٢٩	من دعائه في قنوته
٨٣٠	من صلواته على النبي صلى الله عليه وآله
٨٣١	فهرس المصادر
٨٥٩	الفهرس